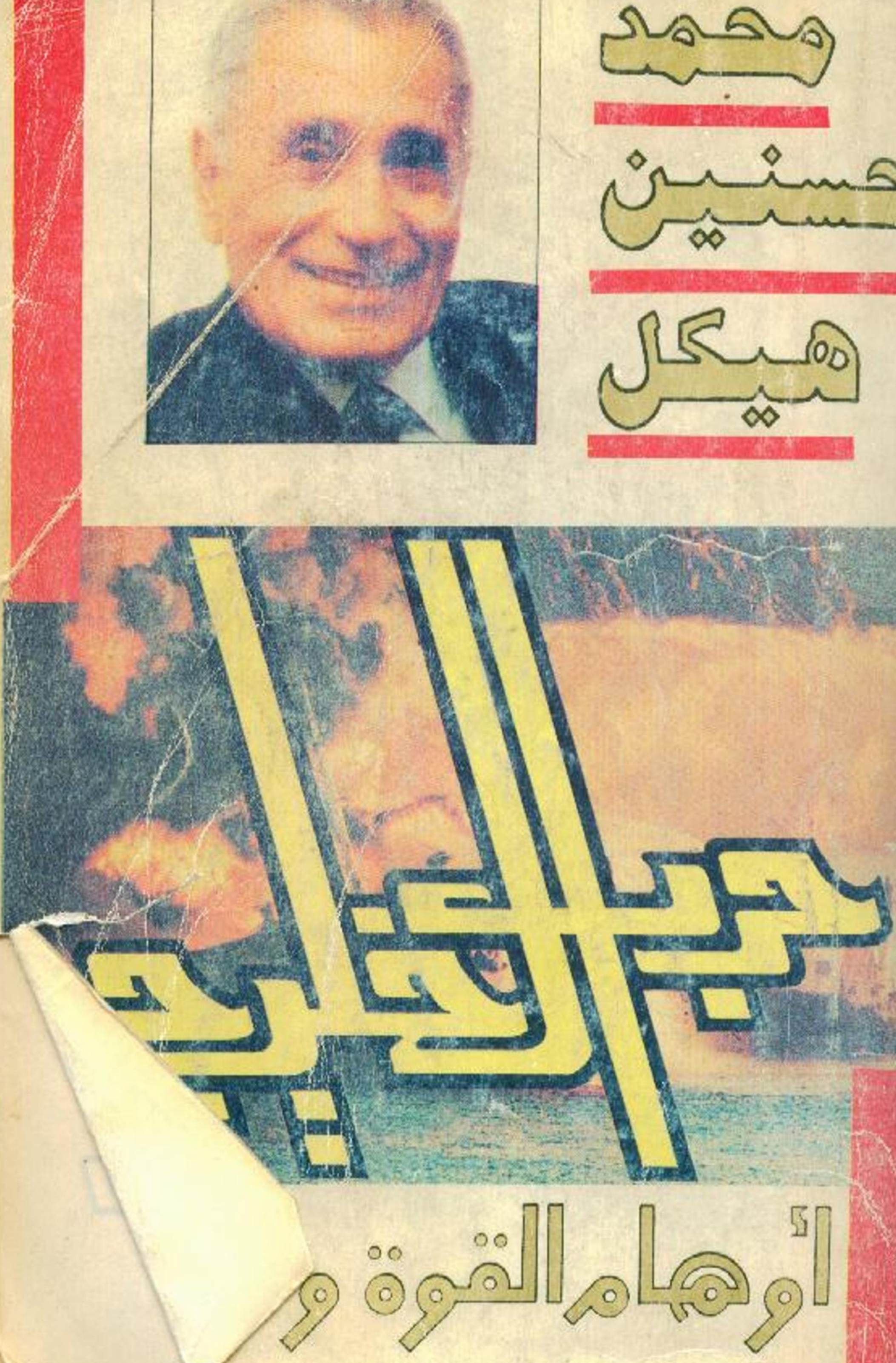
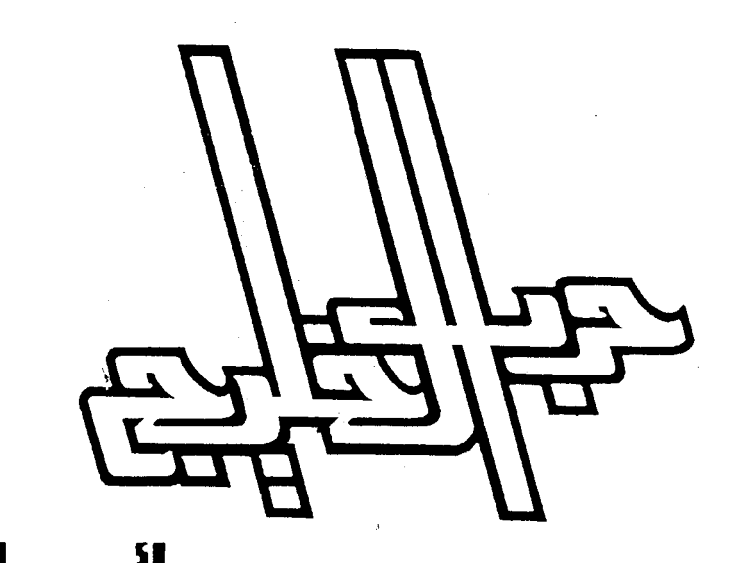

محمد
حسنين
هيكل
حرب الخليج
أوهام القوة و

محمد حسنين هيكل



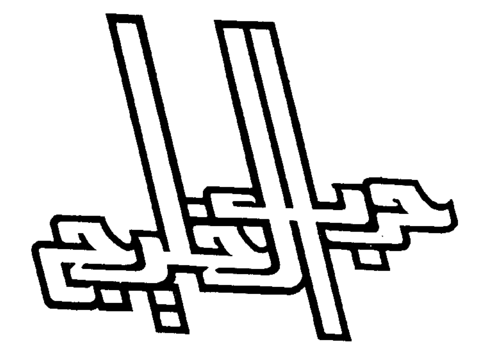
أوهام القوة والنصر

الطبعـــة الأولـــى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون ٥٧٤٧٠٨٣ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

تصميم الغلاف
عبد الغنى أبو العينين
صورة المؤلف
فاروق ابراهيم

HAMDAN.BADER
26/09/2008



المحتويات

الجزء الثانى : حرب البترول الثالثة

مقدمـــــة

لم يكن كل شىء هادئا فى الخليج قبل منتصف ليلة ٢ أغسطس ١٩٩٠ ـ حين تحركت القوات العراقية إلى داخل حدود الكويت ، وفرغت من احتلالها قبل الفجر ، وأيقظت الدنيا عند الصباح على أزمة من نوع لم تعرفه هذه الدنيا من قبل ولا جربته ، ولعلها لم تكن قد حسبت له حسابا أو توقعته !

كان السلام الظاهر على شواطىء المنطقة وهما ، والعمران المتزاحم على بعض البقع من هذه الشواطىء سرابا ، والنشاط البادى داخل هذه البقع من العمران ـ وعلى أطرافها ـ قلقا وخوفا أكثر منه طمأنينة وأملا .

وتلك حالة طبيعية عندما يكون هناك كنز مدفون ، ويكون لهذا الكنز : صاحب يملكه ، ومطالب به يدعيه ، ومستفيد منه يعرف قيمته ، ثم يجد الثلاثة معا ـ كل لأغراضه ـ أن التظاهر أدعى لتحقيق الرجاء :

فصاحب الكنز يتظاهر بالأمان حتى لا يتجرأ عليه غيره إذا استشعر خوفه .
والمطالب بالكنز يتظاهر بالأناة والصبر يدارى بهما العجلة واللهفة .
والمستفيد من الكنز يتظاهر بأنه يعطى أكثر مما يأخذ ، ويحمى الكنز من الطامعين فيه ، وهم محيطون به من كل ناحية .

وهكذا فإن الأجواء حول الجميع مشحونة بالتوتر ، مزدحمة بالشك ، معرضة طول الوقت للمفاجآت ـ رغم ما يتظاهر به الجميع مع اختلاف أسبابهم .

وواقع الحال أن الخليج تحول منذ حقب ممتدة ، بامتداد عصر النفط ، إلى منطقة براكين مكتومة لا يوحى ظاهرها بما هو محبوس فى باطنها ، وتلك صورة تستعيد أساطير قديمة تحكيها قصص ألف ليلة وليلة ، وتزعم أنها جرت فى يوم من الأيام « فى سالف العصر والأوان » على سواحل الخليج ذاتها .

وعلى عهدة تلك الأساطير فإن أمواج البحر تلقى على شطآنه بقماقم تغرى بشىء فى داخلها ، ثم تكون المفاجأة أن كل قمقم منها مختوم على مارد من نار ، وما أن

ينكسر الختم عن القمقم حتى يندفع خارجا منه عفريت من الجن يسد فضاء الآفق هولا وشرا مستطيرا .

لكنه ـ وعلى عهدة الأساطير أيضا ـ فإن مردة الجن يتحولون إلى خير وبركة وقصور من ذهب ـ إذا صادفوا من يعرف فضلة من علم النبى سليمان الذى دانت وخضعت له مردة الجن !

□

وصباح يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠ كان قمقم الكويت قد انكسر ختمه على غير معرفة بسر طلسمه ، وانطلق المارد من محبسه دون فرصة حقيقية لتطويعه أو للسيطرة عليه . ومن يومها إلى الآن ، والخليج سيول حمم ملتهبة ، وشلالات دم مهدور ، وأكوام أشلاء آدمية ممزقة ومطحونة !

وأمام هذا الهول الشبيه بمشاهد يوم القيامة ـ وقف « زبجنيو برجينسكى » مستشار الأمن القومى للرئيس الأمريكى الأسبق « جيمى كارتر » ـ يقول ، وفى قوله نبرة احتجاج :

ـ « إن أزمة الخليج أصبحت عاطفية بأكثر من اللازم ، وشخصية بأكثر من اللازم ، وعسكرية بأكثر من اللازم » .

وكان احتجاج « برجينسكى » سليما ، وفى توقيته . وإنما فات عليه شىء لم يتنبه له بالقدر الكافى ، ربما لأنه وقف ليقول كلمته وسط الجو المرعب الذى كان مارد الجن فيه يزعق خارجا من قمقمه .

لم يتنبه « برجينسكى » لحظتها إلى أن العوامل التى أدت إلى التصعيد العاطفى والشخصى والعسكرى كانت موجودة وقائمة على المستوى الدولى ، وعلى المستوى الإقليمى ، وعلى المستوى الإنسانى ـ من قبل صيف ١٩٩٠ .

ولذلك فإن التصعيد أصبح موحيا بنفسه ... دوامة عنف تواصل دورانها !

□ □ □

على المستوى الدولى ـ قبل صيف ١٩٩٠ ـ كانت الامبراطورية الأمريكية مرهقة . استنزفتها الأعباء التى تحملت بها منذ تولت قيادة العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، وحاولت تأكيد سيادتها فيه كقوة أعظم لا ينازعها طرف آخر مهما كانت دعاويه أو وسائله أو طموحاته .

كان الوعد الذى قطعه الرئيس « جون كنيدى » فى اليوم الأول من رئاسته ٢٠ يناير ١٩٦١ قد تحقق كاملا ، ذلك أن « كنيدى » فى هذا الخطاب الذى ألقاه تحت الثلج والمطر على شرفة الكونجرس ـ وعد بأن يجعل الولايات المتحدة الأمريكية قادرة على صد انتشار الشيوعية ، وعلى أن تجعل التجربة الأمريكية نجما هاديا لشعوب العالم ، لا منافس له أو بديلا . ومع انهيار الامبراطورية السوفيتية فى ١٩٨٩ ، لاح أن وعد « كنيدى » آن أوانه بعد صراع تنوعت أساليبه على طول ثمانية وعشرين عاما . ولم تكن التجربة الشيوعية وحدها هى التى تصدعت ، بل إن الامبراطورية السوفيتية بأسرها راحت تتهاوى مثل بناء تآكل أساسه وتضعضعت قوائمه ، فلما جاءت اللحظة الحرجة تسارع تساقط الطوابق فىّ طرفة عين ، وإذا البقية أنقاض وأكوام حجر !

كان الرؤساء الأمريكيون ، قبل « كنيدى » ، قد ترددوا وتعثروا فى اختيار الأسلوب الأمثل الذى تستطيع به الرأسمالية الأمريكية أن تنافس وتقهر الشيوعية السوفيتية .

واتجه « ترومان » (١٩٤٥ ـ ١٩٥١) إلى المواجهة العسكرية ، فوقعت الحروب المحلية فى البلقان ، وفى إيران ، وفي كوريا (وكان التورط فى كوريا هو الذى قاد فيما بعد إلى فيتنام) .

واتجه « ايزنهاور » (١٩٥٢ ـ ١٩٦٠) إلى أسلوب الردع النووى الشامل ، ولكن هذا الأسلوب فقد مصداقيته لأن أحدا لم يكن مستعدا للوصول إلى حافته .. حافة الهاوية كما كانوا يسمونها .

ثم جاء « كنيدى » (١٩٦١) واعتمدت إدارته بكل من فيها من كبار المفكرين (« روبرت ماكنمارا » ـ « ماك جورج باندى » ـ « آرثر شليزنجر » ـ « كينيث جالبرايث » ـ إلى آخره) أسلوبا آخر لا هو الحرب ولا هو الردع ، ولكن سباق التسلح .

وكان « ماكنمارا » وزير الدفاع فى عهد « كنيدى » ـ هو أصرح من عبر عن

سياسة « كنيدى » فى محاضرة أمام أساتذة كلية الدفاع الوطنى فى واشنطن (١٤ سبتمبر ١٩٦١) ـ بقوله :

- علينا أن نرغم الاتحاد السوفيتى على تغيير أولوياته .

إن النظام الشيوعى يعد جماهيره بمجتمع من الرفاهية ينتفى فيه الفقر ، ومجتمع من المساواة ينتفى فيه التمايز الطبقى .

ولتحقيق هذه الأهداف فإن الاتحاد السوفيتى مطالب بأن يضع التنمية كأولوية أولى قبل الأمن . وعلينا أن نرغمه على أن يرفع أولوية الأمن ويضعها قبل التنمية ، وعلينا أن نشده إلى سباق سلاح يقطع أنفاسه ويرهق موارده ويتركه فى النهاية ترسانة نووية بدون رغيف خبز أو قطعة لحم ، وكذلك فإن غلبة الأمن على الأولويات السوفيتية سوف تنعكس من الخارج إلى الداخل ، فيزيد تركيز السلطة فى يد المسئولين عنه فى أجهزة الحزب والدولة ، مما يباعد بينهم وبين عامة الناس ويعزلهم . »

وتحقق للولايات المتحدة ما أرادت .

□

لكن تكاليف النصر كانت فادحة . فالاقتصاد الأمريكى تبدى مرهقا بما تحمل من تكاليف السباق . والمزاج الأمريكى تبدى عصبيا بما تحمل من أعباء وتبعات ، فضلا عن أن فترة الصراع المرير أتاحت لآخرين فى أوروبا الغربية والشرق الأقصى أن يحتفظوا بقوتهم . وأن يزيدوا ويجددوا .

ومن قبل صيف ١٩٩٠ كان الرئيس الأمريكى « جورج بوش » ووراءه الشعب الأمريكى لا يكادون يصدقون أعينهم فيما يرونه جاريا أمامهم لـ : « امبراطورية الشر » ، التى أسسها « لينين » ، وبناها « ستالين » ، وشرخها « خروشوف » ، وربطها « بريجنيف » ، وفكها « جورباتشوف » ، وهدها « يلتسين » .

ومع ذلك فإن الفرحة لم تكن كاملة بسبب الإرهاق الناشىء عن الاستنزاف ، وبسبب الهاجس الداخلى لدى الأمريكيين بأن هناك أطرافا احتفظت بقوتها وزادت منها وجددت ، انتظارا لفرص تسنح أو ظروف تتاح . وبدا أن ضرورات الأشياء تفرض على الولايات المتحدة أن تعثر لنفسها على عدو جديد تستطيع أمام خطره الحقيقى أو الموهوم أن تواصل تعبئة شعبها وقواتها المسلحة استعدادا للمتوقع أو المجهول . وفى كل الأحوال فإنها فى حاجة لأن تثبت لنفسها ولآخرين أن السيادة الأمريكية على العالم مقادير يصعب ردها أو دفعها !

ومن ناحية أخرى ، فإن العثور على هذا الخطر الحقيقى أو الموهوم كان حريا بأن يصبح ذريعة ممكنة ومقبولة لجعل الكونجرس الأمريكى يوافق على تخصيص الاعتمادات اللازمة للحفاظ على مستوى القوة الأمريكية بعد تراجع الخطر السوفيتى ، حتى وإن اتجه هذا الاستعداد نحو أنواع أخرى من الحرب غير تلك التى كانت مجهزة من قبل لملاقاة حلف وارسو وقيادته السوفيتية .

ومن ناحية ثالثة ، فلقد كان يقال دواما فى التاريخ إن كل زعيم يحتاج إلى « حربه العادلة » ينتصر فيها ويحفر بها اسمه على تاريخ أمته . وكان « بوش » شأنه شأن أى زعيم آخر فى أمريكا أو خارجها ، يأمل ـ على الأقل لا يمانع لأن الحروب يصعب اختراعها من الهواء ! ـ أن توافيه الظروف بحربه الخاصة التى يراها ، ويقنع شعبه كذلك بأن يراها ، عادلة .

وفى هذه اللحظة المشحونة باعتبارات متشابكة ، متناقضة ، ومتضاربة ـ تقدم العراق إلى وضع نفسه موضع الخطر المطلوب ، والعدو الذى يجرى البحث عنه ، والحرب التى يمكن الباسها رداء العدل ويتحقق فيها النصر بأقل التكاليف !

□ □ □

وعلى المستوى الإقليمى كانت منطقة الشرق الأوسط بما فيها العالم العربى فى مرحلة فوضى شديدة .

كان العالم العربى فى عزلة عن دنياه المتغيرة بسرعة ، وكان فى حالة خصام مع قيم عصره ، وكان مشتبكا مع نفسه فى حروب أهلية لا يكاد ينجو منها بلد ، وكانت بعض أوطانه تتآكل هويتها ورقعتها ، بينما بعضها الآخر يغرق فى مستنقعات طين ودم ، بل إن أوطانا عربية مضت تغيب بسرعة فى ظلام النسيان ، ثم إن هذا العالم العربى كان على خلاف مع الجيران حوله فى الإقليم ، وقد وصلت بعض هذه الخلافات إلى حد الحرب المسلحة .

وكان الصراع العربى الإسرائيلى مازال دائرا ، تستحضره بالدرجة الأولى انتفاضة الشعب الفلسطينى التى مست وجدان الأمة وحركت كوامن غضبها بصرف النظر عما إذا كان هذا الغضب قادرا على الوصول بشحنته إلى نتيجة أو كان عاجزا عن ذلك . وبدا مع ازدياد معدلات هجرة اليهود السوفيت إلى اسرائيل أن المخاطر تتفاقم دون رادع حقيقى يستطيع حصرها فضلا عن استطاعة ردها .

وكانت المشكلة الحقيقية أن قلب العالم العربى وعقله وامكانياته وقدرته على

إدارة الصراع باتت جميعا موزعة وممزقة . فلقد تداخلت أربع مراحل من عملية تطوره مع بعضها ، وسدت عليه مداخله ومخارجه ، فانحشر ضائعا ومحبطا .

● كانت هناك مرحلة البحث عن شرعية واحدة لأمة واحدة . فقد كانت آخر شرعية واحدة معترف بها هى شرعية الخلافة العثمانية . وبانهيار الامبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وجدت شعوب الأمة العربية نفسها دون أرضية واحدة وبغير سقف مشترك .

ولقد جرت محاولات لإحياء الخلافة الاسلامية مرة أخرى فى إطار عربى ، لكن المحاولة تعثرت مع المنافسة الشديدة على كرسى الخليفة وطيلسانه وعمامته بين ثلاث أسر حاكمة : آل سعود فى الرياض ، والهاشميون فى بغداد ، وأسرة « محمد على » فى القاهرة ـ ووصلت المنافسة إلى الطريق المسدود .

● ثم كانت المرحلة الثانية هى المرحلة الوطنية التى حاول فيها كل شعب من شعوب الأمة أن يصنع لنفسه دولته ، وأن يحقق ذاته وأمنه ومستقبله فى إطارها . لكن هذه المرحلة وصلت بالكل إلى اقتناع بأن الأجزاء المتفرقة لا تستطيع أن تكون بديلا عن شكل من أشكال وحدة الأمة عملا ومصيرا . وانتهت هذه المرحلة بإنشاء جامعة الدول العربية ، لكن الجامعة لم تستطع أن تكون أكثر من ملتقى تتقابل فيه ـ وتتصادم أيضا ـ نزعات وتوجهات تختلف أسبابها باختلاف المصالح والرؤى ... ومراحل النموّ والتطور .

ومرة ثانية وصلت الأمة العربية إلى نفس الطريق المسدود .

● ثم كانت المرحلة الثالثة هى مرحلة الثورة الاجتماعية التى تفجرت فى مصر بعد حرب السويس وفى ظروفها . ولسنوات على الجسر ما بين الخمسينات والستينات بدا أن الثورة الاجتماعية هى تيار المستقبل الذى يستطيع أن يشد اليه جماهير الأمة . إن الأمراء غابوا ، بيد أن الجماهير حاضرة ، وقد تستطيع الجماهير تحقيق وحدة الأمة تحت رايات الحق الاجتماعى ، ومن ثم تنجح فى صنع مستقبل يفتح الأبواب ويحل التناقضات .

لكن تلك بالضبط كانت المرحلة التى فاضت فيها ينابيع البترول وتدفقت عوائده . ولم تكن هذه القوة المتوهجة فى يد الجماهير المشتاقة إلى الحق الاجتماعى ، وإنما كانت هذه الينابيع وعوائدها تحت تصرف عناصر أخرى فى الأمة . وتصادمت الثورة مع الثروة .

ومرة أخرى وجدت الأمة نفسها أمام الطريق المسدود .

● وجاءت المرحلة الرابعة مع ظرف لم تتمكن فيه الأمة من المحافظة على مجرد وحدتها الشكلية ، فقد اختارت مصر لأسبابها أن تعقد صلحا منفردا مع إسرائيل . وبتوقيع معاهدة كامب دافيد كانت مصر فى جانب ، بينما وقفت معظم شعوب الأمة فى جانب آخر . وبهذا التباعد فى المسافات داخل العالم العربى نشأ فراغ لم يكن هناك سبيل لتعويضه . ولما كان الفراغ معاديا للطبيعة بالضرورة فإن محاولات متنوعة جرت لملئه . وانتهى الأمر الى ظهور ثلاثة تجمعات إقليمية : مجلس التعاون الخليجى الذى ركز دوره على حماية الأمر الواقع فى الخليج ، ومجلس الوحدة المغاربية الذى بدا مهموما بأوروبا على الشاطىء الآخر من البحر الأبيض ، ثم مجلس التعاون العربى الذى خيل له أنه يمثل طموح الأمة ، بينما الواقع أنه لم يمثل غير طموحات فردية لم تلبث أن اختلفت فيما بينها وتنازعت .

ولم تستطع هذه المجالس أن تستوعب أملا أو عملا ، وحتى من ناحية الشكل فإن نصف الأمة جرى حصره فى دوائرها المغلقة ، بينما نصفها الآخر شرد فى التيه وإن ظل باقيا ـ بالعدد ـ داخل جدران الجامعة العربية !

ومرة رابعة وجدت الأمة نفسها أمام الطريق المسدود ، ولم يعد طريقا واحدا هو الذى انسد وإنما أصبحت الطرق كلها مسدودة .

□ □ □

كان العالم الخارجى فى حالة ترقب وانتظار ، وتحول وتغير .

وكان الشرق الأوسط ، والعالم العربى فى قلبه ، فى حالة إحباط وفوضى .

وفى تلك الفترة الحافلة والحرجة ، سواء بالنسبة لأحوال العالم أو أحوال العرب ـ كانت أهمية المنطقة تزداد مع ازدياد حاجة التقدم ، والمنافسة على بترولها المحبوس تحت شواطئها منذ ذلك الزمان الأسطورى البعيد .

كان البترول هو نفسه مارد الجن الذى يستطيع أن يخلع القلوب بالرعب ، أو يبنى قصور الذهب ـ يتوقف الأمر على مقدرة التطويع .

وكان الكل يريد ، والكل يتمنى ، والكل يتحرق بالرغبة واللهفة .

وفى هذا المناخ وقع الغزو العراقى للكويت ، وانكسر الختم عن قمقم مسحور دون معرفة بسر طلسمه ، وانطلق المارد من محبسه يسد فضاء الأفق هولا وشرا مستطيرا .

ولم يكن غريبا أو مستغربا بعد ذلك أن تصبح أزمة الخليج - على حد تعبير « برجينسكى » - « عاطفية بأكثر من اللازم ، شخصية بأكثر من اللازم ، عسكرية بأكثر من اللازم » . ثم تجرى وقائعها ونتائجها المأساوية على النحو الذى جرت به .

وتجيء مقدمات القرن الواحد والعشرين ، الألف الثالث من التاريخ الميلادى ، وهى تومىء إلى عصر مختلف تتهيأ البشرية لاحتمالاته الضخمة والهائلة ، بينما الأمة العربية فى حال لم ترد عليها من قبل على طول ما عانت وقاست .

□

بقى فى هذه المقدمة أن أقول إن محاولتى فى هذا الكتاب هى استيحاء لعبارة « برجينسكى » ومحاولة للاستجابة فى نفس الوقت للنداء الكامن فيها :

محاولة لنزع ما هو أكثر من اللازم « عاطفيا » و« شخصيا » و« عسكريا » عن الأزمة - عسى أن يتبقى منها فقط ما هو لازم لفهمها . لعل الأمة عن طريق الفهم تستطيع فتح الطرق المسدودة أو فتح بعضها ، أو لعلها تستطيع تجاوز المغلق والمستعصى ، وأن تجد طاقة أو منفذا إلى الشمس .

ولقد استأذن فى إضافة عدد من الملاحظات :

١ - إن كتابا عن « الحرب فى الخليج » لم يكن من الأصل ضمن خطة عملى أو جدول أولوياتى ، ففى يونيو من سنة ١٩٩٠ كنت قد فرغت من كتاب « الانفجار » - ضمن مجموعة حرب الثلاثين سنة - وأعددته للنشر ، وتم نشره فعلا . وكان تقديرى أننى بعده متجه إلى الجزء الرابع من حرب الثلاثين سنة ، وهو يركز على معركة أكتوبر ١٩٧٣ .

وظننت أننى فى الفاصل الزمنى بين كتاب ظهر وكتاب ينتظر - أستطيع أن أعطى بعض الوقت والجهد للأحداث الجارية ، وخطر ببالى أن زيارة لأوروبا الشرقية - بعد زيارة سبقتها للاتحاد السوفيتى رصدت فيها وسجلت لمحات من ظاهرة الزلزال السوفيتى - قد تكون مناسبة وملائمة . وهكذا رحت أرتب لرحلة تبدأ من وسط أوروبا فى بون عاصمة ألمانيا وقتها - ثم تمر ببولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا ، وتنتهى فى روما بوصفها عاصمة للفاتيكان عن اعتقاد بأن الكنيسة الكاثوليكية قامت بدور رئيسى فى ثورة أوروبا الشرقية .

وفى ٢ أغسطس فرقعت أزمة الخليج ، وترددت فى مشروعى لاستطلاع أحوال أوروبا الشرقية ، ثم عدلت عنه تماما حين شعرت أن كثيرين من الذين تفضلوا

مشكورين فحددوا لى مواعيد للقائهم ينتظرون منى أن أحدثهم عن أزمة الخليج . وكنت أرتب الرحلة إلى أوروبا الشرقية باحثا عن الحقيقة وسائلا عما حدث هناك ، ولم أكن أريدها متكلما عن التطورات ومسئولا عما حدث هنا .

٢ ـ وجربت أن أقترب من أزمة الخليج كتابة ، وبالفعل كتبت ، ولكن الأزمة أصبحت منذ ساعاتها الأولى « عاطفية بأكثر من اللازم » ، « شخصية بأكثر من اللازم » ، و« عسكرية بأكثر من اللازم » .

وفى مثل هذه الأحوال عادة ، فإن الصدور ضيقة والأعصاب متوترة والأمزجة منحرفة ، وليس هناك غير سؤال واحد مطروح على كل الناس بنعم أو لا ؟.. مع هذا أو ذاك ؟.. هنا أو هناك ؟

وأعترف أنه طوال أزمة الخليج كان هذا النوع من الأسئلة ، وما يترتب عليه من خيارات ـ يبدو لى أسهل الحلول وأخطرها فى نفس الوقت . سهل لأنه يعفى أصحابه من حق الاجتهاد ، وخطر لأنه ينقل هذا الحق فى الاجتهاد إلى إرادات أخرى لها أغراضها ، وعندها خططها .

والغريب أن أطراف الأزمة الآخرين ، والذين جعلوها عاطفية وشخصية وعسكرية ، كانوا يتحاورون لتحقيق هدف لم يكن عليه فى النهاية خلاف ، وهو ضرورة خروج العراق من الكويت . وقد ظل الكونجرس الأمريكى على سبيل المثال يناقش كل الممكنات الى يوم ٦ يناير ١٩٩١ ، أى قبل أيام معدودة من بدء الحرب ليلة ١٧ يناير ١٩٩١ ـ وأما عندنا فقد توقف الحوار بعد ساعات من فجر ٢ أغسطس ١٩٩٠ .

ومن المفارقات أن نتيجة تصويت الكونجرس على تفويض الرئيس الأمريكى باتخاذ « الوسائل الكفيلة بإخراج العراق من الكويت » كانت ٥٢ ـ ٤٧ لصالح قرار التفويض فى مجلس الشيوخ ، و٢٥٠ ـ ١٣٠ لصالح القرار فى مجلس النواب ، مما يقطع بأن تباين الاجتهادات فى تحقيق الهدف ـ غير المختلف عليه ـ استمر حتى اللحظة الأخيرة فى الولايات المتحدة ذاتها ـ فى حين أن صوت الحوار اختنق فى العالم العربى منذ الساعات الأولى ، وكان ذلك مزعجا ومخيفا إلى أقصى حد .

ومهما يكن ، فإن هذا الكتاب يجىء بعد سنة من وقف إطلاق النار فى حرب الخليج ، ومن ثم فإنى آمل أن يكون الفكر العربى قد تجاوز حالة أزمة دهمته على غير انتظار ، وحالة حصار أحاطت به على غير ضرورة !

٣ ـ واعترافا بالفضل لأصحابه فلعلى أتوجه بالعرفان لصديقين ألح كلاهما علىّ بفكرة هذا الكتاب . أولهما « آندرو نايت » رئيس مجلس إدارة « نيوز انترناشيونال » التى تملك مئات الصحف فى أوروبا وأمريكا ، وبينها كل مجموعة صحف « التيمس » و« الصنداي تيمس » ، وعشرات محطات الاذاعة والتليفزيون ومنها شبكة « سكاى » الشهيرة .

والحاصل أن « آندرو نايت » ناقش وحضر معى مناقشات طويلة أثناء زيارة عمل قمت بها إلى لندن فى سبتمبر ١٩٩٠ ، وكانت الأزمة بالطبع شاغل الجميع ومؤرقهم . وبعد كل مرة كان « آندرو » مصمما أكثر من المرة السابقة على ضرورة أن أكتب .

وكان الصديق الثانى هو « بيير سالينجر » المتحدث باسم الرئيس الأمريكى الأسبق « جون كنيدى » ومستشاره المقرب ، وهو الآن رئيس مكاتب شبكة A. B. C. فى أوروبا . وكان « بيير » عندما تقابلنا آخر مرة فى لندن ـ قد أعد هو نفسه كتابا عن أزمة الخليج ، وكنا نقضى الساعات الطويلة فى مكتبه بشبكة A. B. C. أو فى فندق « كلاريدج » الذى أقيم فيه ـ نستعرض بعض فصول كتابه ، ونناقش جوانب الأزمة .

كان رأى « بيير » أنه كتب عن مرحلة واحدة فى الأزمة ، وأن الواجب يقضى علىّ بأن أكتب عن مجملها .

وبعد تردد طال ـ نزلت عند رأى الصديقين واقتربت من الفكرة .

٤ ـ ولقد يكون مناسبا هنا أن أتوقف قليلا لإشارة سريعة إلى المنهج الذى اقتربت من الفكرة على هديه :

(أ) إن قصة أى حدث سياسى يصعب فهمها ما لم توضع داخل إطارها ، فإذا سلخت منه أصبحت روايتها بالسكين وليس بالقلم . بل إن كل مسرحية تحتاج إلى أرضية تجرى فوقها الحركة ، وإلى خلفية تعطى تأثيرات الظروف على أجوائها .

وأرضية السياسة ـ فى ظنى ـ هى الجغرافيا ، وخلفيتها ـ فيما أتصور ـ هى التاريخ ، وهكذا توضع الأحداث فى زمانها ومكانها .

(ب) إننى فيما أحاوله من رواية قصة « الحرب فى الخليج » لا أصدر أحكاما ، وإنما أحاول بناء وقائع . وكان رأيى دائما ـ ولا يزال ـ أن أى كاتب سياسى

مطالب بالدرجة الأولى بأكبر قدر من الحقائق ـ وبأقصى ما هو متاح له ، وبأكبر قدر من الاجتهادات ـ وعلى أوسع دائرة ممكنة . وبهذا الأسلوب فإن القارىء يستطيع تكوين رأيه . ولقد قلت باستمرار « إن الاشتراط الأول لحرية الرأى هو البداية بحرية تداول المعلومات » ـ وذلك تقديرى حتى الآن .

(جـ) إننى فى اقترابى من قصة « الحرب فى الخليج » ، كما هو الحال مع أى أزمة كبيرة ، أذكر نفسى دائما بحقائق القوة . ذلك أن عنصر القانون فى أى أزمة ليس هو ضابط إيقاعها ، وإنما ضابط الإيقاع حقائق القوة . وليس ذلك نوعا من الاستهتار أو الاستهانة بالقانون أو مصادره (من العرف ، والتقاليد ، والأخلاق ، إلى آخره) ، وإنما هى طبيعة الأشياء فى السياسة الدولية . فالقانون ليس سيدا فى صراعات العالم ، ولكن حقائق القوة لها السيادة طول الوقت .

والشاهد أن الشرعية الدولية ليست قيمة منعزلة عن حقائق القوة ، والدليل أن « جيمس بيكر » وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية هو الذى يقوم الآن بدور مهندس التسوية لأزمة الشرق الأوسط . وأما ممثل الأمم المتحدة صاحبة قرارات « الشرعية الدولية » ، فهو حاضر فى الجلسات ، وليس له الحق فى أن ينطق بكلمة واحدة ، وذلك شرط حضوره الذى قبلته الأطراف ـ بدون استثناء !

(د) إن أملى فى عرض القصة ، وإعادة بناء الوقائع فى أزمة وحرب الخليج ـ أن يكون موقفى موقف المستقل ، وليس موقف المحايد . فموقف الاستقلال بحث فى كل ركن حتى وإن كان ملغوما ، والحياد تحرز وتجنب للمحاذير من أى نوع . والحقيقة أننى لا أستطيع أن أزعم لنفسى موقف المتجرد ، وظنى أن وهم التجرد غير إنسانى ، بل هو مستحيل . فكل إنسان له فى النهاية رؤيته ، وهى محكومة بموقعه ، محكومة أيضا بمنظوره الفكرى والثقافى .

ولقد كان أكثر ما أثار انزعاجى أثناء أزمة الخليج أن الأمة انقسمت مرة أخرى بعد قرابة أربعة عشر قرنا من الزمان إلى « أصحاب لمعاوية » أو « شيعة لعلى » ، وكأن محنة الفتنة الكبرى ، وتعاقب القرون بعدها لم يجعل هذه المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط تتعلم شيئا ، أو تنسى شيئا !

٥ ـ إننى فى سبيل إعداد هذا الكتاب التقيت وتناقشت واستمعت إلى كثيرين من رؤساء الدول والقادة السياسيين والعسكريين فى العالم العربى . كذلك التقيت وتناقشت واستمعت إلى كثيرين من المشاركين فى صنع القرار فى الولايات المتحدة وفى أوروبا .

ولقد سمح لى بعض الكرام بينهم أن أطلع على أوراق وتقارير رسمية ، وسجلات معلومات كانت فى حوزتهم بحكم المنصب والمسئولية .

وإذ أعترف بالفضل لأصحابه ممتنا وعارفا ، فإنى أجد من الضرورى أن أقول إن ما استخلصته مما سمعت منهم أو قرأت بإذنهم ـ تظل مسئوليته علىّ وحدى ، وليست على أحد منهم .

٦ ـ ولقد كان هناك رجل واحد تمنيت لو أننى استمعت إليه وناقشته فى الأحداث والتطورات ـ لكن هذا الرجل ، هذا الصديق : « أحمد بهاء الدين » كان مخطوفا منا جميعا فى وقت الأزمة ، ولا يزال ـ رهينة فى أسار المرض . أمامنا وهو بعيد ، ومعنا وهو ساكت . وليس ذلك عهدى به ـ ولا عهد الناس ـ لكنها تصاريف الزمان ومفارقاته : أن يبتعد من يحق له الاقتراب ، وأن يسكت من يقدر على الكلام . ذلك أن « بهاء » قضى من عمره سنوات فى منطقة الأزمة وتأمل ودرس واستوعب ، وفى لحظة الحاجة إلى علمه كان عطاؤه غائبا وهو الكريم ، وكان قلمه معطلا وهو الكفء المقتدر .

على أن أملى يظل معلقا بأن يعود إلينا « بهاء » ذات يوم كما عاد غيره من الرهائن المخطوفين بعيدا عن أحبابهم ، ثم نجلس معا ، كما كنا نفعل ، ثم نناقش ولو بأثر رجعى حكايات الحرب فى الخليج ، وما فعلته بنا الأيام ، وما فعلناه نحن بأنفسنا !

بقى أخيرا أن ألفت النظر إلى أننى وضعت أصل هذا الكتاب باللغة الانجليزية لمؤسسة « هاربر ـ كولينز » وهى أكبر دور نشر الكتب فى العالم ، وقد رأيت أن أقوم بنفسى على ترجمته إلى اللغة العربية ولا أتركه لغيرى يترجمه كما حدث مرات فى كتب سابقة . ومع تقديرى للجهد الذى بذله أصدقاء لى فى ترجمة ما كتبت إلى اللغة العربية ، فقد آثرتّ هذه المرة ألاّ يكون الموضوع موضوعى فقط ، ولكن أن تكون كلماته كلماتى أيضا ـ حتى تتأكد مسئوليتى عما أقول .

والحقيقة أننى فعلت ما هو أكثر من ترجمة الكتاب عن أصله الانجليزى ، فقد ألحت علىّ حقيقة أن كل لغة عقل متميز ، وكل ثقافة تعبير خاص . ولما كنت مسئولا عن النص الانجليزى نفس مسئوليتى عن النص العربى ، فلقد سمحت لنفسى أن أتصرف مراعيا أن يظل سياق الكتاب سياقه ، وبناؤه المنطقى بناؤه ـ فى الحالتين . وفضلا عن ذلك فإنه بين الانتهاء من النص الانجليزى والانتهاء من النص العربى ثلاثة شهور ظهرت واستجدت فيها معلومات وأفكار وجدت مناسبا إضافتها ما دامت الصفحات مفتوحة ، ومحركات المطابع لم تدر بعد !

ولعلى هنا أضيف أن سعادتى كانت كبيرة حين عرفت أن « الأهرام » بادر إلى احتضان الطبعة العربية من هذا الكتاب ، فاتصل بمؤسسة « هاربر ـ كولينز » التى تحتفظ بحقوقه فى جميع اللغات ـ لكى تكون الطبعة العربية صادرة من القاهرة وعن « الأهرام » . ورغم أن عددا من كبار الناشرين العرب ـ وفيهم أصدقاء ـ كانوا يحاولون الحصول على الطبعة العربية ، فإن سبق « الأهرام » وافق هواى مع أننى أقدر أنه يضع علىّ ، كما قلت للأخ الكريم الأستاذ « ابراهيم نافع » رئيس مجلس إدارته وتحريره ، عبئا مضافا . ذلك لأنى أمام قارىء « الأهرام » ومطبوعاته ـ أجد أن ولاءاتى المعنوية والعاطفية تتداخل مع التزاماتى العملية والمهنية ، لتجعل المسئولية مضاعفة .

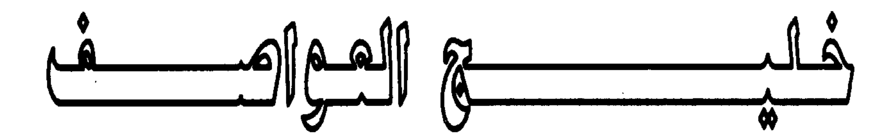
بقى أن كل ما أتمناه هو أن يفرغ أى قارىء من صفحات هذا الكتاب ، ثم يطويه ، ويضعه جانباً ، ثم يعطى نفسه وقتا طويلا للتأمل .

ويظل يقينى أننا فى هذه المرحلة من حياتنا أمة تحتاج إلى أن تفكر ، وأن تفكر ، وأن تفكر !

ثم تخطو من بين أطلال حاضرها وأنقاضه إلى أفق مفتوح ومستقبل جديد ، وذلك فى مقدورها إذا استعادت فى يدها حرية وحق الاختيار .

محمد حسنين هيكل

الجزء الأول





الفصل الأول

عالم غريب ... غريب !

« لا أستطيع أن أرسل قوات للقتال معكم الى الخليج لأنى وعدت الشعب السوفيتى ألاّ أرسل شبابه خارج حدود الاتحاد السوفيتى - بعد مأزق أفغانستان » .

[« ميخائيل جورباتشوف »
لـ « جورج بوش » في هلسنكى -
سبتمبر ١٩٩٠]

١

كل أزمة لها أجواؤها ولها أصواتها ولها ألوانها ، بل ولها رائحتها ومذاقها الذى يبقى فى الحواس ويستعيدها حية من مخزونات الذاكرة مهما تباعدت السنون . ينطبق ذلك على أزمات العالم الكبرى ، كما ينطبق على أزمات العرب .

فأزمة « ميونيخ » ـ ١٩٣٨ ـ عشية الحرب العالمية الثانية تستعيدها إلى الذاكرة صورة « نيفل تشمبرلين » يحمل مظلته الشهيرة فى يده ويهبط من طائرة ذات أجنحة بعد لقاء مع « هتلر » و« موسولينى » ، ليقول لمنتظريه فى مطار « كرويدون » : « جئتكم بالسلام فى عصرنا » .

وأزمة « بيرل هاربر » ـ ١٩٤١ ـ تستعيدها إلى الذاكرة صورة الوفد اليابانى ذاهبا

للتفاوض مع وزير الخارجية الأمريكي فى نفس الوقت الذى كانت فيه أساطيل الأدميرال « ياماموتو » تطلق طوربيداتها على الأسطول الأمريكى فى المحيط الهادى ، وتغرق أكثر من نصفه فى ميناء « بيرل هاربر » بجزر هاواى .

وأزمة الصواريخ السوفيتية فى كوبا ـ ١٩٦١ ـ تستعيدها إلى الذاكرة صورة الرئيس الأمريكى « جون كنيدى » يوجه إنذاره الشهير إلى الاتحاد السوفيتى عند منتصف الليل ، والأمم المتحدة المجتمعة فى نيويورك تائهة لا تدرى ماذا تفعل ، بينما المفاوضات الحقيقية دائرة فى أحد مطاعم واشنطن الصغيرة ، لأن « كنيدى » كان يؤمن بنظرية « أن الحكمة الذهبية فى علاج الأزمات هى أن يترك كل طرف لخصمه سبيلا إلى التراجع بكرامة وكبرياء » .

□

ونفس الشىء فى أزمات العرب . فمعركة السويس تستعيدها إلى الذاكرة صورة كتل عربية تموج بها المدن والعواصم من المحيط إلى الخليج ، ونشيد « الله أكبر » تتجاوب أصداؤه فى الآفاق على اتساع نفس المنطقة .

ومعركة ١٩٦٧ تستعيدها إلى الذاكرة مشاعر ذلك الصيف الساخن من تلك السنة ، وطعم المرارة فى الحلوق ، ثم ذلك الاحساس العميق بالجرح مع الإصرار على أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغيرها .

ومعركة أكتوبر يمكن أن تستعيدها مشاعر ذلك الاحساس الطاغى بالفرح عقب الساعات التى ذاع فيها أن المعركة بدأت ، وأن القوات على الجبهة المصرية ، وعلى الجبهة السورية انطلقت إلى مهامها الأولى ، ونجحت فى تحقيقها .

كل أزمة لها إذن أجواؤها وأصواتها وألوانها ، بل ورائحتها ومذاقها . وإلى جانب ذلك ، فإن كل أزمة عاشها العالم العربى فى تاريخه الحديث اتسمت بموقف شعبى جياش يعرف على الأقل أين موقعه ، ويعرف دوره فى هذا الموقع سواء كانت وسائل هذا الدور متاحة له أو محجوبة عنه ، ويعرف ولو بشكل عام ما يريد ـ لكن أزمة الخليج كانت تجربة من نوع مختلف وغريب : أمة أخذتها المفاجآت ، ثم أفزعتها التداعيات ، ثم قسمتها الخلافات ، ثم ساقتها الفتنة إلى طرق وعرة ليس بينها درب أمان .

أمة مسلحة ولكن للاقتتال وليس للقتال ، وأمة غاضبة لكنه الغضب بغير كبرياء ، وأمة حزينة وليس لديها ما تفخر به وتعلو على أحزانها .

وهناك عالم بأكمله يتفرج ، وبعض قواه النافذة لا تطفىء نارا ، ولكن تزيد النار

اشتعالا ، تلهو بمحنة الأمة ، وتنفذ من خلال صفوفها المبعثرة إلى تحقيق مطالبها وأطماعها .

ولم تكن الأمة منقسمة بالفكر والفعل والدم على نفسها فحسب ، وإنما كان الانقسام فى أعماق كل فرد من أفرادها ، فلم يكن هناك من هو مستعد ـ مهما كانت الأسباب ـ لقبول احتلال العراق للكويت ، ولا كان هناك من هو مطمئن ـ مهما كانت الذرائع ـ إلى نوايا الولايات المتحدة تجاه العراق ، ولا كان هناك من يرضيه ذلك العذر المستسلم للمقادير يريح نفسه بالسؤال عمن هو المسئول ؟ ـ فحين تكون مصائر الأمم فى مهاب الرياح تكون المسئولية عامة ، ويكون التصدى للفعل واجب كل الناس .

وإلا فهو الاعتراف بالعجز ، والاستسلام لليأس ، والتخبط فى الظلام .

وربما كان أكثر ما عكس هذه الخريطة المتداخلة والمرتبكة والمختلطة فى ألوانها هو ما حدث فى « حفر الباطن » ليلة الثامن عشر من شهر يناير ١٩٩١ حين أطلق العراق أول صاروخ من طراز « سكود » ليسقط وينفجر على أطراف تل أبيب .

فى تلك اللحظة كان بعض الجنود المصريين والسوريين فى معسكراتهم يتابعون نشرات الأخبار من أية محطة من محطات الاذاعة يستطيعون التقاط موجاتها . وفور سماعهم النبأ لم يتمالك بعضهم نفسه مع تباعد المواقع من أن يطلق صيحة التكبير والتهليل متكررة عدة مرات . ثم فجأة يتوقف التكبير والتهليل ، فقد تذكر الجنود أين هم ؟ ولماذا ؟ ـ وكان على بعضهم أن يتوقع لوماً وقد جاءه ، وعلى بعضهم أن يتوقع تأديبا وقد ناله .

كان هذا المشهد الغريب تعبيرا تلقائيا وصادقا عن حالة أمة بأسرها لا تعرف فى أى مكان هى ؟ ولماذا ؟ وإلى أين ؟

□ □ □

كان أغرب ما فى الأمر أن الأزمة الطاحنة التى أمسكت بخناق الأمة انقضت فوق رأسها على غير انتظار ، فقد كان مجرى الحوادث فى العالم يشير لفترة من السكون قادمة محكومة بضرورات وحقائق وافدة ومستجدة على كل الجبهات ، تبين جميعها أن بؤر التوتر تتباعد عن الشرق الأوسط مسافرة إلى مواقع أخرى من العالم :

ـ فى العامين السابقين على أزمة احتلال الكويت كان الاتحاد السوفيتى قد أعلن انسحابه من أفغانستان .

ـ ثم تلا ذلك فى أغسطس ١٩٨٨ توقف معارك الحرب بين العراق وإيران .

ـ ثم تحولت الاهتمامات كلها إلى ما يجرى فى الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا .

ـ فى نفس الوقت نشطت الحركة الوطنية للسود فى جنوب أفريقيا تستأنف نضالها بقيادة « نلسون مانديلا » الذى كان على وشك أن يستعيد حريته .

ـ بالتزامن مع ذلك كانت أوروبا تتحرك نحو حلم فيدرالى يتحقق لها بعد استكمال توحيد سوقها المشتركة وموعده ١٩٩٢ .

ـ بل لقد بدا فى بعض اللحظات أن الكوريتين شمالا وجنوبا تتبادلان نظرات الغزل فيما بينهما .

ـ ثم إن مستنقع الدم الكمبودى راح يجف بما يجعله قابلا للمشى إلى حل .

كانت المتغيرات الجارية واسعة وعميقة إلى درجة أعادت لذاكرة كثيرين من المراقبين أجواء مؤتمر « بوتسدام » ١٩٤٥ ، أو ذكريات مؤتمر « فيينا » ١٨١٤ ، وهما آخر مناسبتين بدا فى كل منهما أن هناك ترتيبا جديدا لعلاقات القوى وأوضاعها الدولية قابلا للاستمرار .

ولم تكن هذه المقارنات دقيقة على إطلاقها . ففى الوقت الذى أحس فيه كثيرون أن هناك انتقالا من مرحلة إلى أخرى فى التاريخ السياسى العالمى ، لم يكن هناك من وصل بالقدر الكافى إلى توصيف هذا الجديد أو استقراء قواعده ، وبالعكس كانت هناك أطراف كثيرة مازالت تتخذ فى تفكيرها وفى تصرفاتها نفس القواعد والقوالب القديمة ، رغم أن الحديث عن الوافد وعن الطارىء كان يجرى بغير تدقيق على الألسنة .

كان جو العالم معبأ بنوع من الفوران تجاه المستجدات المتوالية على الساحة العالمية ، خصوصا فى أوروبا شرقا وغربا . ولم يتنبه كثيرون بالقدر الكافى إلى سحب تتجمع فى آفاق الشرق الأوسط بل حدث العكس ، فإن انتهاء الحرب العراقية الإيرانية فى يوليو ١٩٨٨ طبقا لقرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ خلق شعورا بالارتياح ، ثم تلاه فى نوفمبر ١٩٨٨ قرار المجلس الوطنى الفلسطينى فى الجزائر بقبول قرار مجلس الأمن ٢٤٢ كأساس لتسوية مع إسرائيل ، فأكد الشعور بالارتياح فى المنطقة .

ولقد لاحظ الغرب هذا التنازل الذى قامت به منظمة التحرير واعتبره مؤديا إلى مرحلة أكثر هدوءا فى المنطقة ، ووعدت واشنطن بحوار مباشر مع منظمة التحرير ، ثم توارت القضية من دائرة الاهتمام الدولى . وكانت الانتفاضة قد أيقظت كثيرا من انتباه العالم للقضية الفلسطينية ، لكن هذه الانتفاضة ما لبثت أن ابتعدت عن العناوين الكبيرة بعد أن أحس العالم أن المشكلة فى طريقها بشكل ما إلى تسوية ما .

وفى ربيع ١٩٩٠ ترددت من بعيد أصداء حملة فى الغرب على الرئيس « صدام حسين » . كما أن العراق عاد يردد شكاويه من الكويت وسياساتها البترولية ، لكن أحدا لم

يعط هذه الأصوات والشكاوى أكثر مما بدا أنها تستحقه . وكان الظن أن ما يجرى فى المنطقة محدود فى مداه وآثاره ، وأن ما يجرى فى العالم غير محدود فى نطاقه وتفاعلاته . وبالتالى فإن العالم سوف يحتوى المنطقة بنوع من الانضباط يستوعب ما يجرى فيها . وهكذا فإنه عندما وقع الغزو العراقى للكويت بدا أن الجميع مأخوذ بالدهشة والمفاجأة إلى درجة أن « ابريل جلاسبى » سفيرة الولايات المتحدة فى بغداد غادرت مقر منصبها فى اجازتها السنوية قبل يومين اثنين من زحف الدبابات العراقية على الكويت ، فقد كانت السفيرة مقتنعة بأنه لن يحدث فى غيابها شىء يستوجب تضحيتها باجازتها السنوية . وإذا بدا هذا التصرف غريبا فإن ما تلاه كان أشد منه غرابة .

□

كما فوجىء الكل بالغزو العراقى للكويت ، فوجىء الكل بالطريقة التى بدأ بها الاتحاد السوفيتى يتعاون مع الولايات المتحدة منذ الساعات الأولى للأزمة .

كان « جيمس بيكر » وزير الخارجية الأمريكى ونظيره السوفيتى « ادوارد شيفرنادزه » مجتمعين فى « فلاديفستك » يوم ٢ أغسطس (بتوقيت المحيط الهادى) ، وبعد افتراقهما بساعات قليلة كل منهما إلى اتجاه مختلف : « بيكر » إلى « أولان باتور » (منغوليا) فى رحلة صيد ، و« ادوارد شيفرنادزه » إلى موسكو عائدا لمقر عمله ـ وقع الغزو . واتصل « جيمس بيكر » تليفونيا من « أولان باتور » بـ « ادوارد شيفرنادزه » فى موسكو يطلب إليه أن يعودا للالتقاء بسرعة بعد « ما حدث » . **واكتشف « بيكر » أثناء الحديث التليفونى أن « شيفرنادزه » لم يكن قد عرف بعد بـ « ما حدث »** . وكان أول رد فعل لـ « شيفرنادزه » إبداء غضبه على مساعديه الذين لم يخطروه بالعجلة الواجبة بـ « ما حدث » . وعلى أية حال فقد اتفق الرجلان ، وقد افترقا منذ ساعات ، أن يعودا للاجتماع على الفور . وكانت عواصم العالم التى شهدت من قبل تقاربا شديدا فى العلاقات بين القوتين الأعظم مستعدة لأن ترى هذا التقارب يعبر عن نفسه مرة أخرى . ولكن ما رآه العالم من اجتماع « بيكر » و« شيفرنادزه » بعد « ما حدث » لم يكن مجرد تقارب ، وإنما كان شيئا أكثر يصل إلى الالتصاق والامتزاج ـ إلى حد الذوبان . كان العالم يتصور أن العراق بلد تربطه علاقة خاصة مع موسكو فى منطقة يعتبرها الاتحاد السوفيتى حساسة بالنسبة له لأنها واقعة وراء ظهره تماما . وبحكم العلاقات المستجدة بين موسكو وواشنطن توقع العالم اقترابا فى المواقف، ولكن مع وجود مسافة فاصلة تفرضها محاذير وضرورات .

وكان ما تحقق هذه المرة متجاوزا لكل التوقعات . ففى اللحظات الأولى من الاجتماع كان « شيفرنادزه » ـ وهو يومها المساعد الأول للرئيس « ميخائيل جورباتشوف » فى مجال السياسة الخارجية ـ قد أقر بنقطتين أساسيتين :

● أن غزو العراق للكويت يعطى الرئيس « صدام حسين » فرصة للسيطرة الكاملة على نصف انتاج العالم من البترول اليوم ، وثلثى احتياطياته المحققة غدا .

● وأن هذا الوضع يمثل تهديدا حقيقيا للمصالح الحيوية للولايات المتحدة .

□

وترتب على الإقرار بهاتين النقطتين منذ اللحظة الأولى أن الموقف السوفيتى من الأزمة لم يعد يختلف فى صميمه عن الموقف الأمريكى . وترتب عليه أيضا أن أية اجراءات تجدها الولايات المتحدة ضرورية لحماية مصالح « حيوية » لها لن تتسبب فى خلاف بين الدولتين فضلا عن أن تؤدى إلى مواجهة (مع العلم بأن الاتحاد السوفيتى رغم كل ما جرى له ـ كان لا يزال إحدى القوتين الأعظم بسبب حجم ترسانته النووية) .

وكان العالم العربى قد تعود على مواقف سوفيتية تناصره على نحو أو آخر فى أى أزمة مع الغرب . ومع متابعة السياسة العربية للمتغيرات الجديدة على مستوى العالم ، ورغم ما وصل إليها عن توافق التقديرات فى اجتماع « بيكر » مع « شيفرنادزه » فقد ظل بعض الساسة العرب يتصورون أن ما تعودوا عليه سابقا مازال ساريا ، حتى وإن أثرت مستجدات الظروف عليه . أى أن الاتحاد السوفيتى مازال مستعدا للمساندة حتى وإن قلت درجة حرارتها . وحينما بدأ بعض الساسة العرب يذهبون إلى موسكو فى أعقاب الأزمة يستوثقون من توجهاتها ، كان الرئيس السوفيتى « ميخائيل جورباتشوف » قاطعا مع من قابلهم من العرب وقتها . **وكان قوله لأحدهم : « إن غزو الكويت مخالف لكل الأعراف والمواثيق »** . وكان هذا مفهوما ومقبولا ـ لكن « جورباتشوف » كان يضيف : **« إن الأمريكيين قالوا لنا إن لهم مصالح حيوية فى بترول الشرق الأوسط ، وسوف يحاربون حماية له مهما حدث ، ونحن نفهم وجهة نظرهم »** .

وكان الرئيس « بوش » متفائلا إلى أبعد حد بالموقف الجديد للاتحاد السوفيتى كما سمعه من « بيكر » نقلا عن « شيفرنادزه » ، مضافا إليه ما تلقاه من تقارير سفارته بموسكو عن مضمون تحذيرات « جورباتشوف » للعرب ، كما عبر عنها فى مقابلاته مع من التقى بهم فى الكرملين بعد الأزمة . وأثناء الاجتماع بين الرئيس « بوش » والرئيس « جورباتشوف » فى هلسنكى يوم ٩ سبتمبر ١٩٩٠ سمح « بوش » لنفسه بمد تفاؤله خطوة أبعد . كان « بوش » منذ الساعات الأولى للأزمة قد اتخذ قراره باستعمال القوة المسلحة . وفى هلسنكى كان يعرض على « جورباتشوف » أن تنضم قوات سوفيتية لقوات التحالف التى تتحشد لطرد العراق من الكويت . واعتذر « جورباتشوف » عن قبول العرض . وكان اعتذاره مبنيا على سبب واحد هو أنه « وعد الشعب السوفيتى بعد الانسحاب من أفغانستان

بأنه لن يرسل شبابه للقتال خارج الحدود السوفيتية » . وكان معنى الاعتذار بهذا السبب وحده ، كما فهمه « بوش » هو أن الاتحاد السوفيتي وإن لم يشترك في المعارك المنتظرة في الشرق الأوسط بقواته ، فإنه لن يعترض على أى تدخل أمريكي بالقوة المسلحة في المنطقة . ولقد تعزز ذلك المعنى بظهور « بوش » مع « جورباتشوف » في مؤتمر صحفي مشترك في أعقاب اجتماعهما حرصا فيه على إظهار وحدة كاملة في الفكر والاتجاه . وكان هذا المشهد مهما بلغت درجة غرابته ـ بالقياس إلى ما هو معتاد قبله ـ واقع حال . **فموسكو كانت على وشك أن تتقدم في ظرف أسابيع بطلب مساعدة أمريكية ضخمة .**

□

ولقد عبر التلاقي الأمريكي السوفيتي عن نفسه بعد ذلك بطريقة سافرة ـ ففي نوفمبر ١٩٩٠ ، وحين كان « بيكر » و« شيفرنادزه » يضعان اللمسات الأخيرة على نصوص مشروع قرار مجلس الأمن رقم ٦٧٨ الذى منح تفويضا باستخدام القوة ضد العراق لإرغامه على تنفيذ قرارات المجلس السابقة ـ لم يكن « شيفرنادزه » يعترض على مضمون القرار ، وإنما كان اعتراضه على عدد من الكلمات في المشروع ، فقد اقتصر اعتراضه على تعبير « استخدام القوة » صراحة . وكان رجاؤه أن تصاغ العبارة بطريقة أكثر رقة . وكان من الملائم في رأيه استعمال تعبير « الحق في استخدام كل الوسائل الضرورية لتحقيق تنفيذ قرار مجلس الأمن ٦٦٠ » بدلا من النص صراحة على « الحق في استخدام القوة » ، ولم يحاول « شيفرنادزه » إخفاء دوافعه . فقد اعترف صراحة أثناء المناقشات بأن استعمال تعبير « استخدام القوة » يمكن أن يؤدى إلى قلق لدى بعض العناصر الداخلية في الاتحاد السوفيتي ، ومنها مثلا القوات السوفيتية المسلحة التى قد يضايقها أن ترى تفويضا رسميا من حكومتها إلى الولايات المتحدة يطلق يدها في القيام بأعمال عسكرية واسعة النطاق قرب الحدود السوفيتية ، في الوقت الذى تستشعر فيه هذه القوات قلقا لسبب آخر هو المفاوضات الجارية في ذلك الوقت لتخفيض درجة التواجد العسكرى في وسط أوروبا . إلى جانب أن مثل هذا التفويض بالعمل المسلح قد يؤدى إلى مشكلة في الجمهوريات السوفيتية الاسلامية ، لأنه قد يحرك بعض المشاعر الاسلامية ويوقظها بطريقة تؤدى إلى قلاقل .

ولقد وصل « شيفرنادزه » في لعبة الصياغات بصرف النظر عن المضمون إلى حد أنه قال لـ « بيكر » أثناء المناقشات حول نصوص قرار مجلس الأمن ٦٧٨ ما يلى : « حينما ننص في القرار على الحق في « استخدام كل الوسائل الضرورية » فإنك أنت ، وأنا نعرف تماما ماذا تعنى هذه العبارة ، ونحن نوافق على ما تعنيه » .

كان « شيفرنادزه » يعرف الكثير مما يجرى في كواليس الدولة السوفيتية التى تفككت ، وكان يتحسب لخطر انقلاب عسكرى حذر منه وإن لم يتوقع حدوثه على النحو

الذى حدث به فعلا فى ظرف عام بالضبط من أزمة الخليج ـ أغسطس ١٩٩١ ـ وقد أسفر هذا الانقلاب ـ أو محاولته ـ عن فضائح بلا حد للقوة السوفيتية التى كانت فى يوم من الأيام مهيبة وقادرة .

عجز الجيش السوفيتى حتى عن تدبير انقلاب داخل الكرملين .

وعجز زعيم الاتحاد السوفيتى « ميخائيل جورباتشوف » عن أن يحتفظ بأعصابه سليمة ، حتى بعد فشل الانقلاب عليه .

وتجلت المأساة على بشاعتها عندما انتحر الماريشال « سيرجى أخراميف » أكثر العسكريين السوفييت مكانة ومنزلة ـ يوم ٢٥ أغسطس ١٩٩١ .

ولم يكن انتحار الرجل هو نهاية الفضيحة ، وإنما وصلت الفضيحة إلى درجة أنه بعد دفن الماريشال « أخراميف » بملابسه العسكرية ، كما تقضى بذلك التقاليد ـ تسلل لص سوفيتى إلى مقبرته فى الليل ونبشها وخلع عنه رداءه العسكرى ونياشينه ، وباعها لسائح أمريكى من هواة التذكارات الأثرية .

كانت المأساة السوفيتية ضياعا سياسيا ، وهوانا إنسانيا فى لحظة من تحولات التاريخ صعبة وقاسية .

وفى المحصلة فإن الاتحاد السوفيتى تحول بالفشل والحاجة معاً إلى تابع للسياسة الأمريكية . والعرب يرون ولا يصدقون !

☐

والحقيقة أن الدهشة من طبيعة العلاقات المستجدة بين القوتين الأعظم لم يكن لها أن تطرأ أصلا فى نيويورك لو أن أحدا قد أتيح له أن يرى محضر اجتماع « طارق عزيز » نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية فى العراق أثناء زيارته لموسكو ، واجتماعه مع الرئيس « ميخائيل جورباتشوف » ، يوم ٥ سبتمبر . إن « جورباتشوف » لم يحاول فى هذا اللقاء حتى أن يكون دبلوماسيا ، أو أن يصوغ تقديراته للموقف بطريقة مغلفة . لقد بدأ فى هذه المقابلة فتحدث عن « **التفكير الجديد** » ، ثم أضاف أن « **غزو العراق للكويت يتناقض مع هذا التفكير الجديد** » ، ثم استطرد بعد ذلك ليقول « إننا نقر ، وأنتم أيضا يجب أن تقروا بأن الأمريكان لديهم مصالح حيوية فى الشرق الأوسط . إننا من جانبنا نعترف بهذه المصالح ، ونعرف أن الولايات المتحدة على استعداد لاستخدام القوة إذا تعرضت هذه المصالح للتهديد . ونحن فى الاتحاد السوفيتى لا نستطيع أن نفعل شيئا فى هذا ، وأنتم فى العراق لا بد أن تجروا حساباتكم لموقفكم على هذا الأساس » . مرة أخرى كان معنى كلام « جورباتشوف » واضحا ومؤداه أن الولايات المتحدة سوف تستعمل القوة ، وأن الاتحاد

السوفيتي لن يعترض على ذلك . وأبدى « طارق عزيز » ملاحظة قال فيها « لقد كنا نتصور أنكم سوف تقفون معنا معنويا على الأقل للحيلولة دون وقوع حرب » . ورد « جورباتشوف » على الفور قائلا : « إن ما قمتم به عمل من أعمال العدوان لا نستطيع أن نساعدكم فيه ماديا أو معنويا » .

ومن اللافت للنظر أن كثيرين فى العالم العربى رأوا هذه التوجهات من الاتحاد السوفيتي مبكرا وتوقعوا آثارها ، وفى مقدمتهم الرئيس « صدام حسين » نفسه الذى قال فى خطاب له فى شهر مارس ١٩٩٠ أثناء قمة مجلس التعاون العربى فى عمان « إن السنوات الخمس القادمة سوف تشهد سيطرة قوة أعظم واحدة تنفرد بمصائر العالم » .

□

والحاصل أن هذه التوجهات السوفيتية الجديدة لم تظهر فجأة بين يوم وليلة . فقد كانت الشواهد عليها متوالية ، وإن لم يستطع أحد أن يقدر نتيجة حسابها التراكمى . وعلى سبيل المثال ، فإن السيد « ياسر عرفات » الذى تقابل سنة ١٩٨٧ مع الرئيس السوفيتى « ميخائيل جورباتشوف » تلقى تحذيرا مبكرا من سياسة الاتحاد السوفيتى المستجدة فى الشرق الأوسط . كان « عرفات » يشكو لـ « جورباتشوف » من أن الأمريكان يستبيحون لأنفسهم عمل أى شىء فى الشرق الأوسط . وكان رد « جورباتشوف » : « نحن الاثنين (يقصد السوفيت والأمريكان) دخلنا كثيرا فى منافسات ومواجهات فى الشرق الأوسط ، والآن انتهت هذه المرحلة » .

وبشكل ما ، فإن كثيرين من العرب رغم ما كانوا يرونه ويسمعونه ، كانوا على غير استعداد لتصديق أن الأحوال لم تعد كما كانت عليه من قبل فى الاتحاد السوفيتى ، وما عرفوه سابقا لم يعد صحيحا ، وما اعتادوا عليه لم يعد موجودا حتى بالنسبة لحقائق الأمور فى الاتحاد السوفيتى نفسه . وكان السوفيت أنفسهم على استعداد للإدلاء باعتراف كامل عما تردت إليه أحوالهم . ولكن بعض العرب لم يكونوا قادرين حتى على تلقى هذا الاعتراف من أصحابه . وعلى سبيل المثال فقد انعقد فى الاتحاد السوفيتى فى شهر أكتوبر ١٩٨٩ مؤتمر تحت عنوان « البيريسترويكا والعالم الثالث » ، وكان بين أهداف السوفيت فى هذا المؤتمر وفى غيره من المؤتمرات الشبيهة به ، أن يضعوا أمام أصدقائهم القدامى صورة أمينة ودقيقة لظروفهم ، علهم يفهمون ويعذرون ويتصرفون طبقا لما تستوجبه الحقائق ، حتى وإن كانت مرة . وفى هذا المؤتمر وقف رئيس أكاديمية الاقتصاد العليا فى الاتحاد السوفيتى أمام مجموعة من قيادات العالم الثالث ليتحدث بالتفصيل والأرقام عن فشل تجربة التنمية فى الاتحاد السوفيتى . وإذا بسياسى صاحب تجربة طويلة فى العالم العربى ، وهو الدكتور « جورج حبش » (زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) يقف ليعلق على

ما سمع قائلا : « إنكم تغمطون أنفسكم حقكم . فأنتم أنجزتم الكثير مما يحق لكم أن تفخروا به»، وأنتم الآن تقللون من قيمة ما أنجزتم ، وتفقدون الثقة بقدرتكم وتتراجعون عن حقكم فى أن تكونوا إحدى القوتين « الأعظم » . وإذا مضيتم فى هذا الطريق لآخره ، فإنكم سوف تلحقون الضرر بشعوب العالم الثالث كله » . وكان رأى أحد كبار المفكرين الماركسيين المصريين هو قوله « يظهر أنه قد كتب علينا نحن الماركسيين فى العالم الثالث أن نعيد تدريس وشرح الماركسية لجيل جديد من شباب الاتحاد السوفيتى » . وعلى أية حال فإن كثيرين من أفراد الوفود العربية التى شاركت فى هذا المؤتمر عادت لبلادها مصابة بصدمة . ومع ذلك فإن وقع الصدمة كان يخف يوما بعد يوم فى أجواء المنطقة المفعمة بالتمنى فى غياب أمل حقيقى ينبع من أسس موضوعية تستند للذات العربية وطاقاتها وقدراتها بما فى ذلك إرادتها .

□

ولقد جاءت اللحظة الحاسمة فى صراحة موسكو أثناء ذلك اللقاء الذى تم بين الرئيس « حافظ الأسد » والرئيس « ميخائيل جورباتشوف » فى ٢٤ ابريل ١٩٨٧ . فى هذا اللقاء كان الرئيس « حافظ الأسد » يشرح نظريته عن ضرورة المساواة الاستراتيجية بين العرب واسرائيل كمدخل وحيد لحل سلمى متوازن لأزمة الشرق الأوسط . وكان مؤدى رد « جورباتشوف » أن الاتحاد السوفيتى يعتبر نفسه خارج لعبة التوازن الاستراتيجى فى المنطقة . ثم حاول بعد ذلك أن يشرح نظريته فى استبدال « توازنات القوة » بما أسماه « توازنات المصالح » . وعاد الرئيس « حافظ الأسد » من موسكو إلى دمشق وفى خواطره أن يبدأ سياسة جديدة لبناء جسور مع واشنطن ، وقد كانت هذه الجسور هى التى مشت عليها سوريا بعد ذلك إلى ساحة التسوية السلمية لأزمة الشرق الأوسط ، وإلى ساحة الحرب فى الخليج . وكان ذلك أيضا مشهدا غريبا فى المنطقة يضاف إلى ما سبق من غرائب دعت إليها المستجدات ـ ذلك أن سوريا التى بذلت جهدها فى تحقيق توازن استراتيجى بينها وبين إسرائيل ، وجدت نفسها تضيف إلى الخلل الاستراتيجى فى المنطقة ، ذلك لأن حرب الخليج التى انتهت بضرب الجيش العراقى أزاحت من جانب الجيش السورى أقوى جيش عربى على الجبهة الشرقية .

وكان العرب يدعون أنهم مازالوا على خط اشتباك مع إسرائيل ، ومع ذلك فقد كانوا وراء هذا الخط يتخلون لها عن قارات بأكملها .

وفى يوم من الأيام كان العرب قد أقاموا حاجزا يمنع إسرائيل من أى مدخل إلى آسيا .

وفى يوم من الأيام كانوا قد أقنعوا كل دول افريقيا المستقلة بقطع علاقاتها مع إسرائيل .

وفى يوم من الأيام كانوا قد فرضوا على دول فى القارة الأوروبية ذاتها أن تمتنع عن إقامة علاقات مع إسرائيل .

وأكثر من ذلك كان الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية جميعها قد قطعت علاقاتها بإسرائيل سنة ١٩٦٧ .

والآن راح كل شىء يتغير ، وينقلب رأسا . .

بدأت دول أوروبا الجنوبية : أسبانيا والبرتغال و. ـ فقررت تطبيع علاقاتها مع إسرائيل .

ثم تفتحت أبواب أفريقيا واحدا بعد واحد لعودة إسرائيل على حصان أبيض .

وعلى استحياء تحرك أصدقاء العرب القدامى إزاء إسرائيل . فإذا الصين تنشىء علاقات مع إسرائيل تبدأ من مجال الصناعات العسكرية ، وإذا الهند ذاتها توشك أن تلحق .

وأما الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية فقد توجهوا إلى إسرائيل بالأحضان ، عناق محب مشتاق .

(وكانت خاتمة المطاف رفع العزل تماما عن العقيدة الصهيونية التى كانت الأمم المتحدة فى مرحلة سابقة قد اعتبرتها نوعا من أنواع التمييز العنصرى) .

(والغريب أنه مع هذا كله لم يكن من حق أحد أن يلوم ، فليس مطلوبا من غير العرب أن يكونوا عربا أكثر من العرب ! !

والأغرب أن التبرير فى كل الأحوال كان بالإشارة إلى « المتغيرات » ، ولم يقف أحد ليحلل ويدقق بالقدر الكافى فى حقائق هذه المتغيرات ، بما فى ذلك دواعيها وأحكامها ، وأين ؟ وكيف بالضبط ؟)

٣

كانت غرائب المستجدات تفعل فعلها فى كل مكان أمام عالم بدا مأخوذا بما يرى ويسمع .

كان ما يجرى فى الأمم المتحدة ، وبالتحديد فى مجلس الأمن ، مدعاة للدهشة . إن

بغداد فيما يبدو لم تكن تتوقع مشاكل كثيرة من ذلك المبنى الزجاجى الضخم القائم على شاطىء النهر الشرقى فى نيويورك . فقد كان مبنى الأمم المتحدة فى سوابق التجارب مكانا مأمونا لنزاعات دول العالم الثالث . ففى دهاليزه الطويلة وصياغاته المركبة تخف حدة هذه النزاعات ، وتقل سرعة اندفاعها . إلى جانب ذلك ، فقد كان الظن أن الأمم المتحدة فى الأوضاع المستجدة فى العالم تاهت هى الأخرى فى زحام المتغيرات ، وبالتالى فإن أى قضية تذهب إليها سوف تغيب معها فى نفس التيه . لكن الحياة دبت فجأة فى الأمم المتحدة وبطريقة لا سابقة لها . فبعد ساعات من بدء الأزمة كان مجلس الأمن قد تحول إلى آلة منظمة ودقيقة لصنع القرارات تتلاحق مع مسار الأزمة مرحلة بعد مرحلة :

● يوم ٢ أغسطس ذاته بعد ساعات قليلة من الغزو ، كان مجلس الأمن قد أصدر القرار رقم ٦٦٠ بإدانة الغزو العراقى للكويت . وتقدمت بمشروع القرار كندا وكولومبيا وساحل العاج واثيوبيا وفنلندا وفرنسا وماليزيا وبريطانيا والولايات المتحدة . ومر القرار بإجماع ١٤ ضد لا شىء ، وغابت اليمن التى كانت عضوا فى مجلس الأمن عن الجلسة أصلا .

● ويوم ٦ أغسطس أصدر مجلس الأمن قرارا رقم ٦٦١ بفرض عقوبات اقتصادية على العراق ، وأنشأ لجنة خاصة تشرف على تطبيق هذه العقوبات . وتقدمت بمشروع القرار كندا وكولومبيا وساحل العاج وأثيوبيا وفنلندا وفرنسا وماليزيا وبريطانيا والولايات المتحدة وزائير . ومر القرار بأغلبية ١٣ صوتا لصالحه وامتناع دولتين عن التصويت هما كوبا واليمن .

● ويوم ٩ أغسطس أصدر مجلس الأمن قرارا بالإجماع اتفق عليه كل أعضاء المجلس قبل انعقاد جلسته الرسمية ، وكان إقراره مسألة شكلية ، وكان القرار إدانة لإقدام العراق على ضم الكويت .

وتوالت القرارات على هذا النحو مع مراحل الأزمة حتى كان القرار رقم ٦٧٨ الذى أعطى لقوات التحالف ذريعة استعمال القوة .

كانت سرعة صدور القرارات مفاجئة حتى للسكرتير العام للأمم المتحدة ـ وقتها ـ « خافيير بيريز دى كويلار » الذى وجد نفسه مضطرا بطريقته الهادئة والمترددة مرات والساخرة أحيانا أن ينبه إلى « أن قوات التحالف التى صدر لها التفويض عن مجلس الأمن باستعمال القوة ـ ليست بالضبط قوة تابعة للأمم المتحدة » .

كان « بيريز دى كويلار » يخشى من التفسيرات الواسعة لقرار ليست له سابقة كما كان يخشى من عواقبها على نظام الأمم المتحدة نفسه ، ولذلك أضاف بإشارة وابتسامة « أنه

ليس فى علمه أن الجنرال « نورمان شوارتزكوبف » يرتدى فوق رأسه واحداً من البريهات الزرقاء » (يقصد تلك التى تضعها قوات الأمم المتحدة فوق رؤوس أفرادها بلون علم الأمم المتحدة الأزرق) . وبرغم ذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية راحت تبذل قصارى جهدها الإعلامى لكى يحدث الخلط ويستقر فى فكر العالم أن قوات التحالف هى قوات للأمم المتحدة ، تتمتع بالشرعية والحصانة الكاملة التى يكفلها ميثاق المنظمة الدولية . وراحت كل وسائل الإعلام الأمريكى تستعمل كل كفاءاتها لتصوير قوات التحالف على أنها هى قوات الأمم المتحدة ذاتها .

وفى الوقت نفسه كانت هناك محاولات لتضخيم حجم قوات التحالف ومدى تمثيلها للعالم ، فى حين أن دخائل الأمور كانت مختلفة عن ظواهرها . فقد حسبت دول التحالف على أنها ٢٨ دولة ، ثم زاد العدد إلى ٣٥ دولة ، وكانت الأرقام ـ كما يحدث أحيانا ـ خداعة . وعلى سبيل المثال فإن طائرة تحمل عددا من الجنود وصلت إلى مطار القاهرة قادمة من جمهورية أفريقيا الوسطى ، وطلب قائد القوة سرعة نقل جنوده إلى المملكة العربية السعودية لينضموا لقوات التحالف . وقد شرح قائد القوة أهداف مهمته قائلا « إنهم سمعوا فى أفريقيا الوسطى أن المساعدات توزع بسخاء على الدول التى تشترك بقواتها فى التحالف . وقد وجدت حكومة بلاده أنها تحتاج بعض هذه المساعدات ، ولهذا أرسلته مع قواته للانضمام إلى مجموعة قوات التحالف » .

وعندما وصلت القوة القادمة من جمهورية أفريقيا الوسطى إلى المملكة السعودية كانت السلطات هناك فى حيرة بشأن ما يمكن أن تفعله حيالها ، فقد كان مشهد القوة غريبا ، كما أن مطلبها كان أشد غرابة . وفى النهاية ، فإن السعوديين رحبوا بالقوة ضمن إطار التحالف لكى يزيد عدد أطرافه بدولة جديدة .

ولقد تكبد أصغر أطراف التحالف أفدح الخسائر لأسباب أخرى ليس بينها الاشتراك فى القتال . وعلى سبيل المثال ، ولسوء الحظ ـ فإن جزءاً كبيراً من جنود الكتيبة السنغالية قتلوا فى حادث سقوط طائرة . لم تكن الكتيبة السنغالية قد شاركت فى القتال ، لكنه حين جاء موعد عودتها لبلادها رأت السلطات السعودية مجاملة جنودها بترتيب رحلة خاصة لهم يؤدون فيها العمرة ، وسقطت بهم الطائرة وقتل ركابها المائتين ، وهم ثلث قوة الكتيبة .

□

وكان هناك فى العالم العربى وسط هذا كله من انتظروا الموقف البريطانى من الأزمة ، وحاولوا التنبؤ بحركته . ولقد كان بينهم من توقع أن تبرز « مارجريت تاتشر » (رئيسة وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت) لكى تقود مظاهرة الغضب القادمة ، ولكن

« مارجريت تاتشر » بمحض المصادفات كانت بعيدة عن لندن ، ولم يظهر دورها بارزا فى الساعات الأولى من الأزمة . كانت تحضر حلقة نقاش مع مجموعة « آسبن » ، وهى مجموعة تضم نخبة مختارة من المشتغلين فى السياسة والفكر الاستراتيجى تعقد اجتماعات محدودة يشارك فى بعضها عدد من قادة الغرب . وفى تلك الحلقة بالذات كان مقررا أن تشترك « مارجريت تاتشر » والرئيس « جورج بوش » فى المناقشات . وكانت رئيسة وزراء بريطانيا قد انتهزت فرصة سفرها إلى الولايات المتحدة لاجتماع « آسبن » وأعطت نفسها أجازة ثلاثة أيام فى ضيافة سفير الولايات المتحدة السابق فى لندن . ومع أنها كانت تتابع مجريات الحوادث ، إلا أنها كانت بطبيعة الحال بعيدة عن الكاميرات والميكروفونات . وقد ظهرت في اجتماع « آسبن » مساء يوم ٢ أغسطس ، وكان « جورج بوش » قادما من واشنطن بعد أن حضر هناك ساعات الغزو الأولى ، واتخذ من المواقف ما شاء .

وكانت « المرأة الحديدية » بعيدة عن الصورة على غير العادة ـ غائبة فى الساعات التى كانت تتجلى فيها عادة « وتلعلع » !

وكان الملك « الحسن » ملك المغرب أول من بدأ مبكرا بالتنبيه إلى الدور البريطانى المحتمل . كان الملك يرى أن العالم العربى يتابع باهتمام أكثر تصرفات الرئيس « جورج بوش » والاجراءات التى يتخذها . وفى اتصال أولى للملك « الحسن » مع الرئيس « الشاذلى بن جديد » كان رأى الملك أن رد الفعل البريطانى عامل من أهم العوامل التى يجب أن يحسب حسابها فى الأزمة . وكان قوله : « إن الأمريكان مثلنا نحن العرب يتكلمون بصوت عال ، ولكن الانجليز شيء مختلف ، وقد لا يسمع صوتهم في بعض المرات ، ولكن هذا ليس معناه أنهم لا يفعلون شيئا . إن لهم طريقتهم فى عمل الأشياء » . ثم روى الملك فى التدليل على صحة نظريته قصة تذكرها قائلا : « كان هناك مشروع كبير لبناء وصلة ما بين أفريقيا (من المغرب) وأوروبا (من جبل طارق) وجاءونى بخطط للمشروع ، وكان هناك بديلان : أولهما بناء نفق تحت قاع البحر مثلما فعلت انجلترا بينها وبين فرنسا ، وكان الثانى بناء جسر معلق ليصل القارتين . وأحسست أن الاتجاه السائد بين كل من حولى يتجه لاختيار بديل الجسر المعلق . وقلت هذا هو الفرق بيننا وبين الانجليز ، هم يقومون بالعمل ويريدون إخفاءه تحت سطح البحر ، ونحن مثل الأمريكان نريده معلقا فى الهواء على مشهد من كل الناس . »

ولم يطل غياب « مارجريت تاتشر » على أية حال ، فقد ظهرت فى اجتماع « آسبن » ، وبعد الاجتماع اختلت مع « بوش » لأكثر من ساعة ، ثم خرجت تسمع العالم صوتها لأول مرة بعد أن انقضى على انفجار الأزمة قرابة يوم كامل . ولم تكن تلك عادتها . وفى أول اجتماع لمجلس الوزراء البريطانى حضرته بعد رجوعها من الولايات المتحدة

شرحت « مارجريت تاتشر » لزملائها لماذا ألزمت نفسها بتحجيم رد فعلها . وكان تفسيرها أنها رأت « أن تعطى لـ « جورج » فرصته خصوصا وأن الولايات المتحدة هى التى ستقوم بالمجهود الرئيسى فى أى حرب قادمة » . ولم تقبل كعادتها السكوت عند هذا الحد وإنما أضافت أنها « وجدت « جورج » وركبه مخلخلة ، وقد أعطته كل تأييدها وتشجيعها لكى يقوم بدوره الضرورى فى تأديب « صدام حسين » . »

ولم تمض غير أيام إلا وكانت « مارجريت تاتشر » تدق كل طبول الحرب التى عثرت عليها . وكان ذلك مفهوما بحجم المصالح البريطانية فى بترول الخليج وفوائضه . ولم يكن البترول وفوائضه هما كل حسابات « مارجريت تاتشر » ، فهى كسياسية محترفة كانت على استعداد للمزج بين العام والخاص ، وبين أزمة الخليج وأزمة حكومتها ، فقد كان حزبها وهو حزب المحافظين - يفقد أنصاره بالجملة بعد « ضريبة الرؤوس » التى فرضتها الحكومة ، وبعد الأخطاء الفادحة فى سياساتها الاقتصادية وعواقبها الاجتماعية . وربما راودها الأمل فى أن حربا صغيرة فى الشرق الأوسط تستطيع أن تؤدى بالنسبة لها ولحزبها انتخابيا نفس ما أدته حرب « الفوكلاند » ، حين استطاع مناخ الحرب مع الأرجنتين سنة ١٩٨٢ أن يحملها فى موكب نصر إلى أغلبية فى مجلس العموم ، وإلى مقعدها الأثير فى البيت رقم ١٠ « داونىج ستريت » - مقر رؤساء الوزارات البريطانية .

□

كانت باريس أيضا فى وضع غريب . فالسياسة الفرنسية لسنوات طويلة ارتكزت على فكرة أن فرنسا هى جسر الاتصالات الاقتصادية والسياسية بين أوروبا الغربية وبين العالم العربى . وكانت فرنسا تحسب هذا الدور لها وتحرص على مقتضياته . ومن هنا أظهرت كثيرا من التفهم للمشاعر والسياسات العربية . ومن الحق أن العرب كانوا هم الذين بدأوا وأعطوا هذا الدور لفرنسا . وكانت البداية مناقشة بين الرئيس اليوجوسلافى « جوزيب بروز تيتو » والرئيس « جمال عبد الناصر » فى الخمسينات ، واتفق رأيهما على أن فرنسا باستقلالية « ديجول » تستطيع أن تكون همزة وصل مع الغرب بما فيه الولايات المتحدة بأكثر مما تستطيع ذلك أى قوة أوروبية أخرى . وبالفعل استطاع « عبد الناصر » أن ينشىء خطا مباشرا بينه وبين « ديجول » ، وبالتالى صلة خاصة بين مصر والعرب مع فرنسا . وكان الدور الاستعمارى الفرنسى فى سوريا ، وفى الجزائر قد شحب ، فى حين ظل الدور البريطانى حتى بعد هزيمته فى السويس - نشيطا ، وبالتحديد فى منطقة الخليج بسبب البترول وفوائضه أيضا . ولقد أقبل العرب ، وأقبلت فرنسا على هذا الدور حتى بعد غياب كل من « ديجول » و« عبد الناصر » . وحين دخل « فاليرى جيسكار ديستان » إلى قصر « الاليزيه » فى فرنسا بعد « جورج بومبيدو » خليفة « ديجول » المباشر - فإنه بدأ بإعطاء

أولوية خاصة للعلاقات مع العرب تمشيا مع سياسة سلفيه . بل ذهب « ديستان » إلى أبعد من ذلك لأنه مع اقتراب السياسة المصرية من الولايات المتحدة بعد كامب دافيد ، تحول تركيز السياسة الفرنسية إلى العراق . وكانت بغداد قد بدأت تهتم بالسلاح الفرنسى خصوصا فى مجال الطيران . وكانت باريس هى العاصمة الأوروبية الوحيدة التى زارها الرئيس « صدام حسين » حينما كان نائبا للرئيس ، وكانت حفاوة فرنسا به بالغة . وتضاعف حجم العلاقات الاقتصادية بين بغداد وباريس ثلاث مرات فى ظرف خمس سنوات . وامتد نطاق التعامل من العطور إلى المفاعلات النووية . ورغم مشاكل اعترضت العلاقات بين باريس وبغداد ، فقد كان العراق أهم بؤرة فى اهتمامات فرنسا فى العالم العربى . وحينما وقعت الأزمة بالطريقة المفاجئة التى وقعت بها يوم ٢ أغسطس ، بدت باريس فى موقف حرج . كانت بحقائق الأشياء ضمن المعسكر الغربى ، وكانت بدواعى المصلحة تريد الحفاظ على علاقاتها مع بغداد ، وفى نفس الوقت غير قادرة على تجاهل مصالح لها مع دول النفط الغنية فى الخليج . وبدا للرئيس « فرانسوا ميتران » أن فى مقدوره القيام بدور الوسيط ، لكن الاستقطاب الحاد الذى طبع الأزمة منذ ساعاتها الأولى جعل مثل هذه المحاولة ضربا من المستحيلات . ولبعض الوقت حاول الرئيس « ميتران » أن يؤدى دور الوساطة داخل الإطار العربى ، أى عن طريق إقناع العرب بأن يجدوا لأنفسهم حلا سلميا يجنبهم مخاطر حل بالحرب رآه بفكره وبمعلوماته قادما ومؤكدا . وكانت المهمة شبه مستحيلة لأن العالم العربى نفسه أصابه نفس الاستقطاب الحاد ، وظل الموقف الفرنسى من الأزمة حائرا لا يستطيع أن يقر على قرار .

وهكذا فى مساء يوم الأزمة الأول ـ ٢ أغسطس ـ كان المشهد على الساحة الدولية حافلا بالغرائب والمتناقضات .

٣

كانت الساحة العربية بحكم كونها بؤرة الأزمة نفسها ، فى وضع أغرب بكثير مما كانت عليه الساحة العالمية .

وكانت بعض المشاهد الحية على الأرض العربية أشد مدعاة للانقباض والكآبة من أى مشهد خطر على خيال « كافكا » الكاتب التشيكى الذى اشتهرت مشاهد رواياته فى الأدب العالمى بصور الكوابيس المفزعة !

ولم يكن فى مقدور كثيرين ـ جماعات أو أفرادا ـ اتخاذ موقف قطعى تجاه التطورات ، فقد أدى تداخل الغزو العراقى مع بوادر ومقدمات التدخل الأمريكى إلى نوع من التمزق العميق .

كان الغزو العراقى للكويت مرفوضا ، وكان التدخل الأمريكى العسكرى فى الأزمة مرفوضا بنفس المقدار .

وإزاء الرفض المزدوج تبدى عجز الأمة حتى عن التفكير فضلا عن الفعل ، وعمت العالم العربى حالة من الفوضى الشاملة .

كانت شعوب ودول العالم العربى تنظر لنفسها دواما على أنها منتمية لأمة واحدة ، وفجأة إذا بهذه الأمة لم تصبح منقسمة على نفسها فحسب ، وإنما وجدت نفسها فى حالة حرب بعضها مع بعض . وكانت الجيوش العربية ـ إلى جانب القربى ـ مقيدة بميثاق واحد للدفاع المشترك ، وفجأة وجدت هذه الجيوش نفسها وقد أصبحت فى جبهات متقابلة وبينها خطوط نار وقتال . وكان من المفارقات أن عددا من كبار العسكريين العرب وجدوا أنفسهم فى وضع من يقدم النصح والمعلومات إلى نظرائهم الأمريكيين الذين كانت آلتهم العسكرية الضخمة تحتشد على الأرض السعودية . ومن الأمور الواردة أن رجلا مثل اللواء « محمد على بلال » عاش أزمة مشاعر متناقضة . ذلك أنه قبل شهور قليلة من انفجار الأزمة كان معارا كمستشار لرئاسة هيئة أركان حرب القوات العراقية المسلحة . وخلال معركة « الفاو » كان اللواء « بلال » واحدا من الذين قاموا بدور فى التخطيط لتحريرها من القوات الإيرانية . وفجأة بانفجار الأزمة وجد اللواء « بلال » نفسه فى موقع قائد القوات المصرية فى حفر الباطن فى السعودية . ولعل أزمته لم تكن مستعصية حين كانت مهمة القوات المصرية مقصورة على الدفاع عن السعودية ، ولكنه حين تحول هدف المعركة إلى حرب هجومية ضد الجيش العراقى ، فإن الرجل أغلب الظن لم يستطع ملاءمة نفسه مع المهمة المستجدة .

وكان بعض المحللين العسكريين فى واشنطن يرسمون صورة مخيفة ومبالغ فيها لقوات الحرس الجمهورى العراقى . ووصل التهويل إلى حد تصوير هذه القوات وكأنها مثيل فى قوة دروعها وقدرتها على الحركة والاختراق ـ لقوات « البانزر » الألمانية الشهيرة . ولم يكن ذلك دقيقا بأى معيار . فربما كانت قوات الحرس الجمهورى جيدة الإعداد والتدريب ، ولكن الحقيقة التى لا يمكن إغفالها هى أنها قوات دولة من العالم الثالث بكل ما يعنيه هذا الوصف . وعلى فرض وجود خوارق تستطيع القفز على مراحل التطور فى حياة الأمم ، فإن الجيش العراقى واجه الحرب وهو جيش بلا أسرار .

ولقد انفتحت أسرار الجيش العراقى ، وكأنها صفحات ملف متداول . فالاتحاد السوفيتى أعطى للأمريكيين بعض ما كانوا يحتاجونه عن مفاتيح تشغيل صواريخ « سكود » ، وكان هو الذى باعها أصلا للعراق . ولم يكن فى الطائرات الفرنسية التى اشتراها العراق سر على الولايات المتحدة ، سواء فى مواصفاتها أو فى تسليحها .

ولم يكن هناك سر أيضا فى صفقات السلاح أو لوازمه التى حصل عليها العراق من بريطانيا وسويسرا وألمانيا الغربية ، ذلك أن السلاح وما له صلة به يخضع لرقابة تتابع ، وقد تغمض عينيها فى بعض الأوقات لأسباب سياسية أو اقتصادية ـ لكنه التجاهل ، وليس الغفلة !

وربما أراد بعض المسئولين المصريين أن يطمئنوا القوات المصرية المشاركة فى المعركة عن طريق النفى العلنى لوجود أسلحة لا تقاوم لدى الجيش العراقى . فمن إذاعة لندن على سبيل المثال **تحدث المشير « محمد عبد الحليم أبو غزالة » عن وهم الصواريخ العراقية قائلا « إن هناك مبالغات كثيرة حولها ، وأن الحقيقة أشد تواضعا بكثير عما يقال » . كما أن الرئيس « حسنى مبارك » بنفسه قال فى حديث أثناء الأزمة « إنه كقائد سابق لسلاح الطيران المصرى يعرف قدرة الطيران العراقى وكفاءة الطيارين العراقيين ، وما يعرفه لا يدعوه ولا يجب أن يدعو غيره إلى القلق » !**

ولم تكن تلك مواقف فردية تستمد قيمتها من علو مكانة أصحابها ، وإنما الواضح أنها كانت تعبيرا عن تيار عريض ، خصوصا فى المشرق العربى ، وهو تيار كان يرى أن ما قام به العراق جريمة ، وكل جريمة لابد لها من عقاب ، كما أن الذى يملك الحق فى العقاب هو الذى يملك القوة اللازمة لتطبيقه ، وأى شىء غير ذلك تفصيل .

□

كان مثل هذا يحدث فى ناحية فى العالم العربى ، وفى ناحية أخرى كان ما يجرى مختلفا عنه . فقد شهدت بعض المدن والعواصم العربية مظاهرات ضخمة تأييدا للعراق فى مواجهة التحشدات العسكرية الأمريكية التى تهيىء نفسها للانقضاض عليه وضربه . ولقد تكررت مشاهد هذه المظاهرات الضخمة في الجزائر والرباط وتونس وعمان والخرطوم واليمن وغيرها . بل لقد شهدت مدينة طرابلس مظاهرة اشترك فيها نصف مليون مواطن ، وكان الرئيس « معمر القذافى » بنفسه على رأسها . وفى حين عبر بعض الناس عن أنفسهم بالتظاهر ، فإن آخرين اتخذوا لأنفسهم وسائل للتعبير عن آرائهم لم تكن مختلفة فقط وإنما كانت بالغة الغرابة أيضا . ومن ذلك أن سيدة جزائرية وضعت مولودا فى نفس الوقت الذى انطلق فيه أول صاروخ عراقى فى اتجاه إسرائيل ، وذهب الوالد فى الصباح

إلى مكتب السجل المدنى يطلب قيد مولوده باسم « سكود » . ورفض موظف مكتب السجل المدنى أن يقبل اسم الوليد باعتبار أن هناك قانونا جزائريا يمنع استخدام الأسماء الأجنبية فى تسمية المواطنين الجزائريين . وقام الوالد برفع قضية على مكتب السجل المدنى مطالبا بحريته فى اختيار اسم وليده . وبعد أن قطعت اجراءات التقاضى شوطا اقتنع الوالد بأن القانون صريح ، فاختار لابنه اسم « صدام » بدلا من اسم « سكود » . وتحمست إحدى فرق أغانى الراى الجزائرية (وهى الصيحة الفنية العالية فى المغرب والمدوية فى أوروبا الآن) لتقديم أغنية عن « صدام حسين » ، لكن الإذاعة الفرنسية التى كان التسجيل يعد لها رفضت إذاعتها . وتلقت إذاعات كثيرة موجهة للعالم العربى مطالب من مستمعيها بإذاعة أغان بينها أغنية « البيتلز » المشهورة « دعونا نحب بدلا من أن نحارب » ، ولم تستجب أى من الإذاعات لهذا النوع من الطلبات .

وكان المغرب هو الظاهرة الملفتة بين العرب المؤيدين للعراق ، والحاصل أن المغرب العربى كان بصفة عامة مستودع حماسة للعراق تستحق الدراسة .

وربما أن السبب راجع إلى أن المغرب العربى قريب عهد بالعمل القومى ، وفى أيام عز المد القومى العربى فى السويس ١٩٥٦ ـ كان المغرب العربى بعيدا إلى حد ما ، وكان مشغولا بصراعه مع الاستعمار ، وكانت دوافع مقاومته دينية اسلامية بالدرجة الأولى .

ثم راح المغرب العربى يقترب من المشرق ، ولكن اقترابه كان متأخرا ، ومتوافقا مع ظروف التراجع التى أصابت هذا المشرق ، وأضاعت الكثير من توهجه القديم .

وعندما وقعت أزمة الخليج لم تكن لدى المغرب ـ ولا لدى المشرق ـ فرصة كافية لاختبار المقولات والتصرفات . واختلط الغزو العراقى للكويت بالدخول الأمريكى العسكرى على نطاق واسع دون فرصة للأمة تتذاكر أمورها .

ثم كان أن ظهرت على التصرفات الأمريكية والغربية ـ وبالذات أحزاب أقصى اليمين الفرنسى وإعلامها ـ إشارات صليبية كان المغرب العربى على استعداد لفهمها من أول لحظة .

وهكذا فإن أزمة الخليج طرحت نفسها فى المغرب العربى كنوع من التحدى ـ حتى ولو كان يائسا ـ للإرادة الغربية الغالبة والمتحكمة ، وكنوع من التصدى لروح صليبية ـ أوروبية أمريكية ـ لا تخفى تعمدها إذلال العرب (المسلمين) ونهب مواردهم وسفك دمائهم .

واتخذ المغرب العربى موقفه ، ولم يتراجع عنه .

□

وكان هناك تحسب لدى حكومات غربية عديدة بأن بعض الجماعات التى تعتبر إرهابية من وجهة النظر الغربية ، سوف تنتهز الفرصة لمساعدة العراق عن طريق القيام بعمليات جريئة تستهدف إشاعة القلق فى أوروبا وأمريكا . ولم تحدث مثل هذه الهجمات . وكانت تلك من أكبر مفاجأت الأزمة . ولم يكن غياب أى نوع من هذه العمليات « الإرهابية » المنتظرة تأييدا للعراق مجرد ضربة حظ ، وإنما كان السبب ذكاء التنبه والتصرف . من ناحية فإن بعض المنظمات فضلت أن تنتظر لكى ترى ، **ومن ناحية أخرى فإن قوى النفط العربى التى كانت تمول معظم نشاط هذه المنظمات لم تنتظر لترى ، وإنما كشفت من دعمها فى هذه اللحظة ، وكان همسها موجها لهذه المنظمات يقول : « إن لكم معركة أخرى تختلف عن هذه المعركة ، وسوف يجىء دور معركتكم بعد أن تنجلى الغيوم الراهنة عن الساحة العربية . ولكم أن تأخذوا الآن ما تطلبون ، وعندما يحين الأوان فسوف تكونون أقدر على خدمة أهدافكم أنتم ، وليس أهداف آخرين . »**

وفعل هذا المنطق فعله ، وكان أن قبلت المساعدة وقبلت النصيحة معها .

وفى نفس الوقت فإن دمشق ، كانت على علم وثيق بنشاط هذه المنظمات ، وكانت مشورتها فى محاصرة أى عنصر راغب فى الانفلات مفيدة ومانعة .

ولقد بلغت مرونة البترول العربى فى هذه الأزمة إلى حد أن منظمة مثل منظمة « أبو نضال » سمح لها بإنشاء مكتب لها فى السعودية ، وكانت مكاتبها من قبل مقصورة على بغداد وطرابلس .

ولقد كانت الطامة الكبرى فى قصة « الإرهاب » ، أو العمليات الفدائية ، وما يمكن أن تؤديه فى ساعات المعركة ـ هى قصة الدكتور « ماركيوس وولف » مدير المخابرات فى ألمانيا الشرقية لمدة خمسة وعشرين عاما متصلة . كانت كل جماعات العمل العربى المسلح مغرمة بألمانيا الشرقية واثقة أن برلين تعطيها كل ما عندها وزيادة من تدريب ومعدات تكنولوجية ومعلومات ، وهكذا كانت كل الأسرار مفتوحة ، وكل الأوراق مكشوفة أمام الدكتور « وولف » ، **وفى الساعة الحرجة تبين أن الدكتور « وولف » « متصل » من قديم بإسرائيل . وكانت إسرائيل هى التى توسطت له بعد انهيار ألمانيا الشرقية حتى لا يلاحق ولا يطارد ولا يحاكم .**

☐

ووصلت حالة الفوضى فى الفكر إلى تقديرات غريبة للمواقف . ومن ذلك **أن العقيد « معمر القذافى » راودته فى بعض الساعات نظرية مؤداها أن الأزمة كلها مؤامرة متفق عليها بين واشنطن وبغداد. وفى اجتماع بينه وبين الرئيس « الشاذلى بن جديد » يوم**

١٩ أغسطس قال الزعيم الليبى « إن ما يراه أمامه غير قابل للتصديق على علاته ، ويخطر بباله أنه ترتيب مدبر . فالأمريكان كانوا يريدون احتلال منابع البترول فى الخليج منذ وقت الثورة الإيرانية ، وأيامها بدأوا بالفعل فى إنشاء قوة الانتشار السريع ، ولكن العرب عارضوا مما أرغم الأمريكان على إبقاء قوة الانتشار السريع وقيادتها بعيدا فى فلوريدا . والآن فإن المؤامرة هى أن يقوم العراق باحتلال الكويت ، ويسارع عرب الخليج إلى دعوة الأمريكان الذين يدخلون المنطقة مطلوبين بدلا من أن يكونوا طالبين ، وبذلك تتحقق لهم أغراضهم . ثم بعد ذلك يكون حل مشكلة الكويت سهلا بين الطرفين » . وظلت هذه الفكرة تروح وتجىء على بال « القذافى » حتى بدأت الصواريخ الأمريكية تنقض على بغداد . ولم يكن « القذافى » وحده فى مثل هذا الموقف ، فإن الجنرال « ميررزا اسلام بيج » رئيس أركان حرب الجيش الباكستانى ، ورجل باكستان القوى وقتها ، قام بإرسال لواء مدرع لينضم لقوات التحالف فى السعودية . ولكنه فى اليوم التالى كان يدلى بحديث صحفى يقول فيه « إن هناك مؤامرة لتدمير العراق باعتباره بلدا مسلما » . وكان من الصعب التوفيق بين الفعل والقول خصوصا وأن الجنرال كان يتكلم بحرارة وحدة استثارت حملة شديدة فى الصحف الأمريكية عليه . وكان التفسير المنطقى لمثل هذا التناقض ، هو أن العالم الاسلامى يعيش تناقضا بين فكره وفعله ، أو بين خياراته وضروراته .

وكان الرئيس « مبارك » يتصرف فى الأزمة بحسابات عملية وواقعية مؤداها :

« □ أن الوضع السياسى العربى كما رآه قبل ، وبعد الأزمة كان وضعا غير مرض ، وكان محققا أن ينفجر فى أى لحظة من اللحظات .

□ وعندما جرى احتلال الكويت وانفجرت الأزمة فإنها كانت فى تقديره واصلة إلى حرب لا شك فيها ، كما أن نتيجة هذه الحرب بدورها ليست موضع شك .

□ وكان حسابه فى النهاية أنه إذا جاءت الحرب فإنه لأكثر من سبب لا ينبغى أن يجد نفسه فى معسكر المنهزمين ، فهو بذلك يتحمل تبعات لا دخل له فيها ، وإذا كانت مسئولياته تطالبه بعمل شىء لتفادى وقوع كارثة فهو على استعداد للقيام به . لكن هناك حدا لا ينبغى تجاوزه ، فإذا لم تنفع جهوده ، فقد أدى ما عليه . »

ولقد أعطت هذه السياسة لمصر فرصة أداء دور ظاهر على ساحة الأزمة خصوصا فى مراحلها الأولى . وبعد نهاية الأزمة ، فإن مصر أكدت مطالبتها بإسقاط ديونها العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية ، وكانت قيمتها سبعة بلايين دولار . ولكن المفارقة أن الولايات المتحدة حسبت هذا المبلغ ضمن تكاليف الحرب التى دفعها البترول العربى بالكامل .

□

وحتى الكويت التى كانت بؤرة الأزمة ، بدت صباح يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠ وهى غارقة فى حالة من الارتباك لا حدود لها . كان الناس قد ذهبوا إلى مضاجعهم مساء يوم أول أغسطس دون تحسب لامكانية غزو . كانوا يتابعون مظاهر التوتر المتزايد بين بلدهم وبين العراق ، وكان ظنهم فى البداية أنها مشكلة فى داخل « الأوبك » (منظمة الدول المصدرة للبترول) ، ثم راح التوتر يتصاعد حول الأسعار وحصص الانتاج ، ثم لم يلبث التوتر أن انفلت إلى مجالات السياسة طارحا القديم والجديد فى العلاقات المتشابكة بين الكويت والعراق . ومع الإحساس بتحول التوتر المتصاعد إلى أزمة ، فإن أحدا لم يكن يتوقع أن يصل الأمر إلى حد الغزو . وربما ذهبت ظنون البعض ممن خطر لهم احتمال العمل العسكرى ـ أن يكون هذا العمل محدودا ، ولكن أن يصل الغزو إلى قلب الكويت ، فقد كان الأمر مستبعدا وغير وارد . واستيقظ الناس فى الصباح ، فإذا الدبابات العراقية فى شوارع مدينتهم ، بينما حكومة البلاد الرسمية فى السعودية . وتملكت جموع الناس حيرة عميقة فى الطريقة التى يتصرفون بها . كان الجنود العراقيون فيما يبدو ينتظرون استقبالا وديا وحارا ، فقد تعلموا فى المدارس منذ الطفولة ـ سواء فى العصر الملكى أو الجمهورى فيما بعد ـ أن الكويت جزء من العراق فصلته السياسة البريطانية عنوة واقتدارا . فإذا جاءت القوات العراقية الآن للكويت ، فهى إذن عملية تحرير أكثر منها عملية غزو . وإلى جانب ذلك ، فقد كان العراقى العادى ، بما فى ذلك أفراد الجيش العراقى ، يتابعون خلافات المعارضة الكويتية مع الأسرة الحاكمة بسبب المطالبة بديمقراطية أكثر . وربما خطر لبعض العراقيين أن الشعب فى الكويت سوف ينظر للقوات العراقية ليس كقوات محررة فقط ، ولكن كقوات مخلصة من تعنت أسرة « الصباح » . لكن ما بدا أن العراقيين يتوقعونه ، لم يكن له أثر ظاهر على الشعب الكويتى صباح يوم ٢ أغسطس . كانت هناك وجوه عابسة وملامح مقطبة ، وعيون ترقب ما يتحرك أمامها بدهشة وحيرة . إن الكويت لم تكن واحة من السلام والرخاء ، ولكنها كانت بيقين أكثر استقرارا من كل ما هو محيط بها . فلقد كانت وطنا لأهلها الأغنياء ، وكانت ملجأ لكثيرين ممن قصدوا اليها يبحثون عن فرصة للعمل أو فرصة للثراء . وحتى العمالة الآسيوية الوافدة كانت ترى فى الكويت جنة تعد من فيها على الأقل بأجور كافية . وربما كان عنصر القلق الرئيسى هو جماعات حزب الدعوة الشيعية ، لكنه حتى هذا الحزب لم يكن مواليا للعراق ، وإنما كان معارضا بحكم صلاته بإيران . وهكذا فإنه لم تكن هناك على كل المستويات أحضان مفتوحة للترحيب بالجيش العراقى ، كما لعله خطر على بال بعض الجنود العراقيين . ومع ذلك فقد كانت قوة المفاجأة حائلا دون تعبير ظاهر فى مواجهة القوات العراقية . بل إن المشاعر بدت مختلطة لدرجة أن سيدة تنتمى إلى عائلة تجارية عريقة فى الكويت لم تقاوم ـ ولم يكن ذلك فى وسعها ـ لكى تمنع استيلاء الجيش العراقى على مخازن تجارة أسرتها التى كانت تشمل ضمن

ما تشمل تجارة المواد الغذائية . ولقد قامت هذه السيدة بتسليم مفاتيح المخازن ، وفيها بضائع تساوى أربعة ملايين دولار لضابط عراقى كبير ، وكان تعليقها فيما بعد : « لقد كان كل ما بدا لى فى هذه اللحظات أننى أمام شباب عربى منهك من المشى والسفر ، وأحسست أنهم جوعى وحيارى ، ولم أستطع أن أقنع نفسى فى هذه اللحظة ، أن بينى وبينهم حالة من العداء يصعب اجتيازها . »

لكن الأحوال تغيرت بعد أيام قليلة ، فقد بدأ بعض الكويتيين يستعيدون زمام تفكيرهم ، ومن ثم تتبدى فى تصرفاتهم بعض مظاهر المقاومة . وأحدثت هذه المظاهر ردود فعل ، ثم أصدرت الحكومة الكويتية فى المنفى بيانا تطلب فيه من سكان الكويت وقف أعمال المقاومة . وفيما بعد وأثناء اجتماع المؤتمر الوطنى الكويتى فى جدة فى نهاية شهر أكتوبر ١٩٩٠ ، أبدى عدد من الشخصيات البارزة فى المجتمع الكويتى عدم موافقتهم على هذا البيان الذى يحرم أهل الكويت من دور فاعل فى تحرير وطنهم ، ومن ثم من حقهم المؤكد فى المشاركة فى توجيه مستقبله فيما بعد .

وكان ظن هذه الشخصيات الكويتية البارزة أن أسرة « الصباح » لا تريد لأهل الكويت أن يشاركوا اليوم فى المقاومة ، لكى لا يتأكد حقهم غدا فى أن يشاركوا فى القرار السياسى . كما أنهم عبروا عن خشيتهم من أن يظهر أهل الكويت أمام الآخرين معتمدين بالكامل على غيرهم لتحقيق خلاصهم دون أن يكون لديهم ما يساهمون به غير المال . ولم تكن المقاومة فى الكويت كبيرة على أى حال فى تلك الفترة . فقد كانت وحدات قوات الجيش العراقى تحت أحكام صارمة بأن تتصرف مع سكان الكويت بأقصى درجات الانضباط والاحترام ، وذلك لترسيخ المقولة العراقية بأن ضم الكويت هو بمثابة جزء من وطن عاد إليه . لكن هذا الوضع لم يقدر له أن يعيش طويلا ، فإن مظاهر الغنى والوفرة فى الكويت كانت إغراءً لا يقاوم بالنسبة لجنود جاءوا جميعا من مناطق ريفية بسيطة ، وبدأت الاحتكاكات . ولم يكن أهل الكويت داخل بلدهم يعرفون أن حكومتهم فى المنفى تواجه احتكاكات من نوع مختلف ، فقد بدأت المطالب تلح عليها من الذين تصدروا محاولة استعادتها ككيان مستقل . وفى ظرف عدة شهور من المنفى وجدت حكومة الكويت نفسها وقد صرفت ٣.٥ بليون دولار من أرصدتها فى الخارج ، وكان ذلك غريبا مع خضوع الأرصدة الكويتية لقرارات بالتجميد أصدرها بنك الاحتياط الفيدرالى فى الولايات المتحدة ، وبنك انجلترا ، إلى جانب البنوك المركزية فى العالم كله تقريبا . لكن المصالح فوق القوانين كما هى العادة . ولقد أضيف إلى ذلك أن الشركات الأمريكية والبريطانية والفرنسية الكبرى كانت تريد أن تأخذ عقود تعمير الكويت بعد الحرب ـ والحرب لم تقع بعد ـ كنوع من الغنائم . وفى يوم من الأيام أبدى أمير الكويت الشيخ « جابر الصباح » ضيقه من كثرة المطالب المادية على حكومته فى المنفى إلى الملك « فهد » ، وكان رد الملك « فهد » :

« طال عمرك لا بد أن تواجه الواقع ، فإما أن تطلب المال ، وإما أن تطلب الإمارة » .
وسال المال من الخزائن بغير حساب فى تلك المرحلة .

□

ولقد كانت حركة الأموال فى هذه الأزمة ظاهرة من أغرب ظواهرها . وطبقا لأرقام اتحاد البنوك العربية ، فإن تسعة بلايين دولار تم تحويلها من بنوك منطقة الخليج إلى بنوك سويسرا فى الأيام الثلاثة من ٣ الى ٦ أغسطس ، أى بمعدل ثلاثة بلايين دولار كل يوم . ومع بداية شهر سبتمبر ، أى بعد قرابة ثلاثة أسابيع ، كان هذا الرقم قد ارتفع الى ٢٢ بليون دولار . وعلى وجه التأكيد ، فإن ما ذهب لسويسرا فى تلك الفترة كان أكبر من ذلك بكثير ، فمن بنوك لندن وباريس ونيويورك كان كثيرون من اغنياء الكويت يحولون أموالهم إلى سويسرا خوفا من قرارات التجميد التى أحدثت التباسا كبيرا بالنسبة لكل مال كويتى . ولقد وصل طوفان الأموال المتدفقة على سويسرا إلى حد أن تاجرا كويتيا ذهب إلى بنك الاتحاد السويسرى يطلب إيداع ثمانية ملايين دولار ، ويطلب أعلى سعر من الفائدة عليها . وكانت دهشته شديدة عندما قيل له فى البنك أنهم لن يتمكنوا من إعطائه حتى سعر الفائدة العادية ، وإنما المتاح له أقل ، لأن البنك لديه ودائع بأكثر مما يستطيع استثماره لإعطاء فوائد عالية . ولقد كان الرجل فى حيرة شديدة ، فقبل شهور كان يستطيع أن يجد عددا من البنوك تتنافس على وديعته بالمزايدة على أسعار فائدتها ، ولكنه الآن يجد أن وديعته الكبيرة قد أصبحت عبئا على البنك أكثر منها مكسبا له .

كانت قصة المال فى الأزمة تمتد لما هو أكثر من ودائع البنوك . إن الغزو وقع ومعظم أهل الكويت الأغنياء خارجها لقضاء اجازة الصيف فى عواصم أوروبا ومغانيها وشواطئها . وحين حدث ما حدث وجد هؤلاء الأغنياء أنفسهم فى موقف لم يتحسبوا له . حسابات بعضهم جمدت بخطأ سحب قرارات التجميد على كل الحسابات الكويتية ، ثم انهارت قيمة الدينار الكويتى مرة واحدة . وكان الغريب أن تظهر فى بعض المحلات الكبرى فى لندن وباريس وكان وفيينا وروما ومدريد لوحات معلقة تقول لكل الزبائن أن الشيكات وبطاقات الائتمان الصادرة عن الكويتيين ، أو لصالحهم لم تعد مقبولة . ووجدت بعض أغنى العائلات الكويتية نفسها مضطرة للالتجاء لسفارات حكومتها فى المنفى لكى تدفع لهم حسابات فنادق ومطاعم . وكان الأمر محرجاً إلى درجة أن سيدة من الأسرة الحاكمة فى الكويت لم تجد ما تعلق به غير قولها : « إن هذا الرجل (تقصد « صدام حسين ») قاسى القلب ، لقد قصد أن يقوم بما قام به فى شهر أغسطس بالتحديد عارفا أننا جميعا فى اجازات خارج بلدنا » . ومع ذلك فلم تكن كل تحركات المال منغصة إلى ذلك الحد . ففى « مونت كارلو » ليلة انفجار الأزمة **كان الشيخ « حسن عنانى » وهو أحد**

أثرياء السعودية والصديق المقرب من دوائر الأسرة الحاكمة ـ يخسر ١٢ مليون دولار على مائدة القمار فى سهرة واحدة ، وكانت المفارقة أن الخبر نشر فى الصحف جنبا إلى جنب مع أنباء غزو الكويت . كذلك كانت الصحف ، وبينها جريدة « التيمس » ، تنشر أن طائرة خاصة لا تزال تحمل كل يوم من جزيرة « أوركنى » فى اسكتلندا إلى السعودية خمسمائة كيلوجرام من المحارات البحرية التى تشتهر بها هذه الجزيرة . وهكذا برغم الأزمة ، فإن بعض المترفين لم يكونوا على استعداد لتغيير نمط حياتهم .

□

كل هذه الفوضى والعالم العربى منقسم حول نزول قوات أجنبية فى السعودية . كان الغرب قد تصور أن وجود تحالف واسع يمكن أن يغطى وجود قوات مسيحية قرب الأماكن الاسلامية المقدسة ، لكن الانقسام الكامل فى العالم العربى والاسلامى أظهر أن غطاء التحالف لم يكن محكما . وقد كان من الصعب إحكامه لحقيقة أن القوة العسكرية الأمريكية كانت هى القوة الكبيرة ، الطاغية والغالبة . وضاعف من حدة المشاعر أن الجنود الأمريكيين لم يتصرفوا بانضباط كاف . ففى أثناء الأزمة مثلا ظهرت على شاشات التليفزيون فى أكثر من بلد عربى واسلامى صور على شبكة C. N. N. توسطت إطارها طائرة تحمل الصواريخ ، **وقد كتب عليها الجنود رسائل بالطباشير الأبيض موجهة إلى أهدافها تقول للعراقيين : « نادوا على « الله » .. فإذا لم يستجب لكم .. نادوا على المسيح » . كما ظهر على عدد آخر من الصواريخ رسائل أخرى بالطباشير تقول : « نادوا على « الله » .. فإذا لم يستجب لكم فنادوا على شوارتزكوبف » .**

وفى مراحل أخرى تالية من الأزمة كانت حرمة الأماكن المقدسة تنتهك بطريقة مثيرة للمشاعر . فقد تعرضت العتبات المقدسة فى « كربلاء » و« النجف » إلى آثار الضرب الأمريكى ، كما عادت النيران مرة أخرى إلى المواقع المباركة أثناء الاضطرابات التى اندلعت بعد وقف إطلاق النار مباشرة . وفى يوم من الأيام كان دفن أى شيعى قرب هذه العتبات المقدسة يقتضى رسما يوازى مبلغ ١٧٥ دولارا ، والآن كان الرصاص يصرخ ، والقنابل تعوى وسط هذه الرحاب التى يعتبرها ملايين من المؤمنين طاهرة وملاذاً آمناً .

وبالطبع ، فقد كان طغيان وغلبة القوات الأمريكية فى السعودية عاملا أساسيا فى استثارة المشاعر الدينية . ولقد كانت الحقائق العملية هى التى صنعت هذا الوضع ، فما دام خيار الحرب هو الخيار الوحيد المطروح على ساحة الأزمة فإن القوات الأمريكية والبريطانية معها كانت بالضرورة هى القوة القادرة على تحقيق الهدف المطلوب . وكان ذلك منطقيا فى سياق الموضوع . فإذا كان البترول هو الكنز الذى يجرى الصراع من

حوله ، إذن فإن المستفيدين من هذا الكنز هم الذين يعطون أنفسهم حق حمايته مهما كان من شأن أية عناصر أخرى . ومع ذلك فقد بدت هناك رغبة واضحة فى تحديد حجم القوات العربية والاسلامية التى يمكن أن تشترك فى قتال محتمل . **وقد كانت مصر على سبيل المثال على استعداد لإرسال قوات كبيرة . ولكن السلطات فى السعودية كان رأيها فى البداية ألا يزيد عدد القوات المصرية على مجموعة لواء (حوالى خمسة آلاف جندى) ، ولقد زاد هذا العدد فيما بعد ليصل لقرابة فرقتين (قرابة ٣٥ ألف جندى) . لكن ذلك تم بطلب من الجنرال « شوارتزكوبف » الذى كان يريد ترك مهمة تطهير مدينة الكويت لقوات عربية حتى لا تتحمل قواته المشاكل الناجمة عن قتال داخل مدينة كان الظن وقتها أنه سوف يجرى من بيت إلى بيت . لقد أحس المغاربة مبكرا بمكنونات القلب لدى الطرف السعودى ، ومن ثم فإنهم حددوا حجم قواتهم المشاركة بعدد رمزى لم يزد على ألفى جندى . وربما كان الشك الذى دعا السعوديين إلى تحجيم القوات العربية المشاركة فى التحالف هو تحسبهم للمطالبات المالية التى يمكن أن تنهال عليهم بعد الحرب من الدول العربية والاسلامية صاحبة القوات التى يمكن أن تشارك فى القتال . وربما كان هناك عامل آخر هو الخوف من اختلاط القوات العربية والاسلامية بالقوات السعودية . فالقوات الأمريكية والبريطانية مثلا يمكن عزلها عن القوات السعودية وعن المواطنين السعوديين . بل إن هذه القوات الأمريكية والبريطانية هى نفسها التى سوف تعزل نفسها . وأما القوات العربية والاسلامية فوضعها مختلف لأنها تستطيع أن تعيش وتتحرك حاملة معها أفكارها وتصوراتها ، وحتى شواغلها وهمومها ! وبالطبع فإن السعودية كانت دائما مقصدا لكثيرين فى موسم الحج ، لكن الإطار الدينى لهذا الموسم كان يحتوى الجميع ويفرض جوه الخاص على أى اعتبار عداه ، وأما بالنسبة لحالة حرب ، فإن السياسة كانت لا بد مطروحة .**

ومع ذلك فإنه حتى اختلاط الحجاج كان فى مقدوره إثارة مشاكل ، وقد حدث مع الحجاج الإيرانيين .

□

وكان التخطيط لما بعد الحرب نوعا آخر من الخلط والفوضى . فقد كان اعتقاد الأمريكيين أن انتهاء الحرب بالطريقة التى أعدوا لها ورتبوا ـ كان مؤديا لا محالة إلى سقوط الرئيس « صدام حسين » وحكومته . وكان أملهم أن يقوم الجيش العراقى بقيادته السنية بانقلاب عسكرى فى اللحظة المناسبة ليأتى بقيادة سياسية جديدة ، حتى وإن ضمت عناصر من حزب البعث العربى الاشتراكى الحاكم . وقد أوكلت هذه المهمة للسعوديين الذين قالوا منذ البداية إنهم على اتصال بعناصر المعارضة العراقية ، ويعرفون كيف يمكن اختيار

حكومة من بينهم . وبالفعل فقد نشط السعوديون لهذه المهمة ، ولكن الأمر أفلت من أيديهم ، وبدأت العناصر التى اختاروها تتهم بعضها البعض وتتناحر فيما بينها قبل أن تتسلم زمام السلطة الجاهزة لها على طبق من الفضة . ولقد كانت العناصر التى تعاونت معهم مزيجا من ضباط وعقائديين سابقين عاشوا فى المنفى ، وابتعدوا عن الواقع العراقى سنوات طويلة . بل وكان بينهم تجار سلاح على صلة معروفة بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية .

□ □ □

كان العالم العربى فى مباراة مع نفسه فى لعبة أخطاء الحسابات .

كان كثيرون بين العرب يقرون للعراق بأسباب مشروعة لبعض مطالبه . ولكن العراقيين فقدوا صبرهم قبل الأوان فى ظروف لم تكن تحتمل نفاد الصبر على الاطلاق . إن العراق بلد له تاريخه الطويل وثقافته ، وهو بلد غنى إذ هو ثانى بلد عربى فى انتاج البترول بعد السعودية ، ثم إنه أصبح يملك قوة عسكرية تؤهله مع امكانياته الحضارية والاقتصادية لأن يلعب دورا أساسيا على المستوى الإقليمى . ومن سوء حظه أن الجغرافيا السياسية كانت ضده ، فى حين أن الجغرافيا الطبيعية كانت تحابيه . فهذه الجغرافيا الطبيعية أعطته موارد من البترول تغنيه ، كما أعطته موارد من المياه تكفل له توسعا فى الزراعة يوفر أرضية اقتصادية حية وخصبة . لكن الجغرافيا السياسية حكمت عليه بحالة من الحصار لم يستطع أن يخرج منها رغم كل محاولاته . لقد سدت خطط السياسة الدولية منافذ العراق إلى الخليج ، وبالتالى فإن هذا البلد المنتج للبترول والمصدر له كان يستطيع أن يرى البحر من بعيد دون أن يصل إليه . ولقد حاول أن يتغلب على هذه المشكلة بإنشاء خطوط للأنابيب تنقل بتروله إلى كل البحار : عبر سوريا إلى البحر الأبيض ، وعبر السعودية إلى البحر الأحمر ، وعبر تركيا إلى بحر مرمرة . وتكلفت هذه الخطوط عشرات البلايين من الدولارات ، ومع ذلك فإنه فى اللحظة الحرجة جرى إغلاق هذه الخطوط واحدا بعد الآخر ، وأصبح العراق ، الذى دخل الأزمة خلاصا من الحصار الجزئى ، فريسة لحصار كامل ليس فيه منفذ ، ولا له مخرج .

ولقد تفاقمت مشاكل العراق الاقتصادية بسبب انخفاض أسعار البترول ، وكانت بغداد تلقى اللوم على سياسة الكويت والإمارات العربية المتحدة لأن كليهما راح يزيد انتاجه ويتجاوز الحصص المقررة له فى اتفاقيات « الأوبك » . وكان العراق يرى أن الكويت تتجاهل شكاويه فى موضوع البترول ، وكان الاعتقاد السائد فى بغداد أن الكويت لا تتجاسر على هذا التجاهل إلا إذا كانت مستندة على ضمانات أمن من الولايات المتحدة . بل إن شكوك بغداد تجاوزت هذا الحد ، لكى تصل إلى درجة الاقتناع بأن الكويت تستخدم أداة للضغط

على امكانياتها وعلى نمو قوتها . وبتراكم الشكوك والمشاكل بدأ العراق ينزع إلى الضغط بالقوة . وكان محتملا أن يؤدى ذلك الضغط بالقوة إلى استعمال القوة فعلا .

لكن الخطأ وصل أيضا إلى حسابات القوة . ذلك أن أى طرف فى العالم يريد استخدام القوة لا بد له من ثلاثة اشتراطات أساسية :

- **أولها : أن يكون لديه هدف يؤمن به شعبه ، ويكون هذا الشعب مستعدا للتضحية بأى شىء فى سبيله .**
- **وثانيها : أن تكون لدى هذا الطرف الراغب فى استخدام القوة لتحقيق هدفه ـ مجموعة من الحجج السياسية والقانونية والتاريخية والأدبية ، وحتى الدعائية ـ يستطيع بها تغطية وتقديم موقفه إلى الآخرين فى الإقليم ، وفى العالم .**
- **وثالثها : أن تكون لدى هذا الطرف وسائل القوة العملية والمادية الكفيلة بتحقيق مطلبه . وهذا العنصر هو الاشتراط الرئيسى فى حدود استخدام القوة ، وبدونه ـ أى بدون وسائل القوة اللازمة ـ فإن الاشتراطات الأخرى جميعا تفقد مفعولها من الأساس .**

ولقد كان العراق يستطيع أن يجادل كما يشاء فى الشرطين الأول والثانى من اشتراطات استخدام القوة . بمعنى أن الكويت كانت مطلبا لشعبه ، وأن حججه فى هذا المطلب من كل الأنواع متوافرة من وجهة نظره . ولكن الذى لم يكن قابلا للجدال هو الشرط الثالث من اشتراطات استخدام القوة ، وهو امتلاك الوسائل القادرة على تحقيق الهدف المطلوب . كان الاقتراب من الكويت بالقوة يعنى الاقتراب من بترول الخليج بالقوة . وبترول الخليج أهم الكنوز الاستراتيجية فى العالم كما عرفه القرن العشرون ، وكما سوف يعرفه القرن الواحد والعشرون أيضا . ومعنى ذلك أن العراق كان خارجا لمواجهة بالقوة لا يملك بالقطع وسائلها .

وقد امتد خطأ الحسابات بعد ذلك إلى افتراضات يصعب البناء فوقها . كان بينها افتراض أن الولايات المتحدة بعد تجربة فيتنام ، وحتى بعد تجربة بيروت (الانفجار الذى أودى بحياة ٢٦٠ جنديا من جنود البحرية الأمريكية نزلوا فى العاصمة اللبنانية) ـ لن تغامر بحرب برية يمكن أن تطول فى العالم الثالث . والذى غاب عن الحسابات العراقية أن كلا من فيتنام ، وحتى بيروت لم يكن فيها بترول ، أو فوائض بترول . ثم كان هناك بعد ذلك افتراض أنه لا توجد فى العالم العربى قوة تستطيع مواجهة العراق عسكريا ، وفى نفس الوقت فإن أى بلد فى العالم العربى لن يتجاسر على دعوة قوات أجنبية لمساعدته فى مواجهة القوة العراقية . وهنا أيضا وقع النسيان لأهمية البترول ولأهمية فوائضه .

كان هناك إذن خطأ فى حسابات القوة ، ولحق بذلك أن الحجج التى قدمت لتفسير الغزو وتبريره كانت خطأ بحساب المنطق .

إن استعمال القوة فى العمل العربى ـ العربى له سوابق بعضها قريب الى حد ما ، وبعضها قريب جدا .

ومن بين القريب إلى حد ما ـ على سبيل المثال ـ أن سلطان نجد « عبد العزيز آل سعود » هجم على مملكة الحجاز واحتلها كلها وضمها الى سلطانه جاعلا من الاثنتين (نجد والحجاز) مملكة واحدة تحمل اسم أسرته ـ وهكذا قامت المملكة العربية السعودية !

ومن بين القريب جدا ـ على سبيل المثال ـ قيام مصر سنة ١٩٧٧ بغارات جوية مركزة على القواعد العسكرية الليبية ، وأهمها قاعدة « جمال عبد الناصر » (!) (قاعدة « العظم » سابقا) . وقد كاد القصف الجوى المصرى للقواعد الليبية أن يتحول إلى عملية عسكرية واسعة النطاق موجهة بالدرجة الأولى ضد ولاية برقة لولا تحذير أمريكى للرئيس « أنور السادات » جعله يعدل فى اللحظة الأخيرة . ولم يكن دافع التحذير الأمريكى فرط الحرص على العلاقات العربية ـ العربية ، ولا الإعجاب بشخصية العقيد « معمر القذافى » ، **ولكن الدافع كان الخوف الأمريكى من وقوع موارد البترول الليبية فى يد مصر ، وهى لا تزال بحجمها الواقعى وتأثيرها المحتمل ، مكمن خطر رئيسى فى المنطقة ينبغى حصره أو حصاره !**

ومهما تكن الأسباب والنوايا، فإن النتائج والأفعال أمكن احتواؤها داخل إطار يمكن احتماله ، وإن ظل من الصعب قبوله .

لكن المشكلة فى الغزو العراقى للكويت أنه بدأ أصلا ، ثم أنه مضى الى النهاية ، دون أن يراجع نفسه فى منتصف الطريق ، وبغير أن يحذره أحد ، رغم أن شواهده كانت بادية ، خصوصا فى الثمانى والأربعين ساعة السابقة عليه ، ولعل الأطراف التى كان فى مقدورها أن ترى شكل ما هو قادم ـ كانت تريده أن يمضى إلى النهاية حتى يتجاوز نقطة اللا عودة .

وكان خطأ حسابات القوة العراقى أنه مضى فعلا إلى النهاية فاحتل الكويت بكاملها ـ وكانت تلك صدمة .

ثم تلت ذلك أخطاء حسابات المنطق .

ففى ظرف أيام غير العراق حججه للغزو بذريعة مختلفة كل يوم .

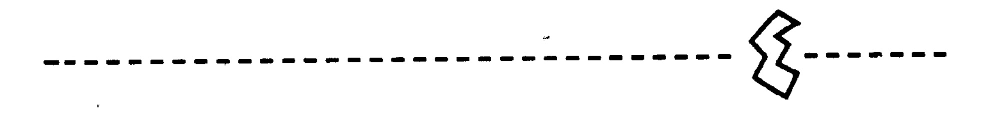
فى اليوم الأول كانت الذريعة هى التصدى لمؤامرة أمريكية ترتب ضده على الأرض الكويتية .

وفى اليوم التالى كانت الذريعة هى مساعدة عناصر ثورية قادت انقلابا على أسرة « الصباح » ، وطلبت معونة العراق .

وفى اليوم الثالث كانت الذريعة هى الحق التاريخى وعودة الجزء (الكويت) إلى الكل (العراق) .

وأخيرا جاءت ذريعة الربط بين كل القضايا المعلقة فى المنطقة ، وربط الانسحاب من الكويت مع كل مشاكل الأراضى المحتلة من فلسطين ، ولبنان ، وسوريا ... إلى آخره .

وكان ذلك مثيرا للحيرة بعد الصدمة ، ولم يكن له تفسير سوى أن قرار الغزو الكامل اتخذ على عجل ، فاضطر إلى ترك فراغات سياسية واسعة وراءه .



ولقد شاع فى بعض الأوقات خلال الأزمة والحرب أن الانفجار كله نتج من أن العراق اصطدم بنظام دولى جديد له قوانينه المختلفة وقواعده .

ولقد شاعت مقولة النظام الدولى الجديد ، وكان من المفارقات الغريبة أن هذا النظام لم يسفر بوجهه إلا فى الشرق الأوسط وحده دون بقية أرجاء الدنيا ، وذلك شىء يصعب اعتماده ببساطة .

ولعل مقولة ظهور نظام دولى جديد كانت تستحق إعادة النظر والتدقيق ، وربما لزم التمييز بين أربعة أشياء مختلفة :

- **عصر عالمى جديد .**
- **نظام عالمى جديد .**
- **ترتيبات عالمية جديدة .**
- **ظواهر عالمية جديدة .**

ويمكن أن يقال إن الإنسانية دخلت فى عصر جديد هو العصر الرأسمالي ، عندما اكتملت الفتوح الجغرافية الأساسية باكتشاف الأمريكتين شمالا وجنوبا - إلى جانب أستراليا ، وقد تم ذلك بحوافز التجارة . ثم لحقت به حركة الاستعمار ، وما أحدثته من تراكم فى رأس المال حولته الثورة الصناعية الأولى إلى عصر له قواعده وقوانينه وحركته ، وله نتيجة لذلك أنظمته العالمية تتماشى وتتلاءم مع انتقال مواقع القوة فى العصر ومتغيراتها .

وهكذا تظهر النظم العالمية .

□

إن فكرة وجود نظام عالمى جديد تفترض وجود قوة اقتصادية وعسكرية غالبة تملكها دولة واحدة أو تحالف دول ، فى عصر بعينه - تستطيع أن تجعل إرادتها فاعلة أو مؤثرة ، أو على الأقل غير قابلة للتجاهل ، فى كل قضية وكل بقعة من بقع العالم الداخلة فى تفاعلاته .

وقد تحقق هذا الوضع أول ما تحقق فى التاريخ بعد الحروب النابوليونية ، ومؤتمر فيينا الذى أعقبها سنة ١٨١٤ وقام بموجبه الحلف المقدس .

قبل ذلك عرف التاريخ امبراطوريات مختلفة ومتعاقبة ، كل منها سادت فى منطقة أو فى مرحلة ، ولكن أيا منها لم تستطع أن تتخطى حدودا معينة مهما اتسعت . وفى كل الأحوال فإن الحدود كانت محكومة بوسائل المواصلات القادرة على حمل ونقل وسائل القوة وضمان امكانية استخدامها .

ومعنى ذلك أنه نشأت امبراطوريات ، ولكنه لم ينشأ نظام عالمى يستحق هذا الوصف إلا بعد هزيمة « نابليون » وبعد قيام الحلف المقدس .

فى هذا الحلف كانت بريطانيا هى القوة الرئيسية التى أمسكت بزمام القرن التاسع عشر ، وكانت بقية أطراف الحلف المقدس تتراجع : فروسيا تنسحب إلى داخلها ، والامبراطورية النمساوية الهنجارية تتفكك ، ومملكة بروسيا تبحث عن وحدتها وتحلم بالرايخ الأول ، وبريطانيا تنفرد بالساحة ، وتقود الثورة الصناعية الأولى ، وتتحكم فى شروط التجارة بما فيها أن يصبح الجنيه الاسترلينى هو أساس كل المعاملات ، وتسيطر على منافذ البحار ومسالكها ومضايقها بواسطة الأسطول البريطانى الذى أصبح رمزا لمرونة تواجد القوة فى أى مكان من العالم . وكان الانتشار الامبراطورى البريطانى يغطى خريطة الدنيا كلها بمساحة من اللون الأحمر (ترمز لممتلكات التاج البريطانى ومستعمراته ومحمياته) فوق كل القارات .

واستتبع ذلك بناء فوقى حضارى وسياسى مثله نموذج الديمقراطية البريطانية : كما عاشت فى مجلس العموم ، وكما تبدت فى الصحافة ، وكما تجلت فى مؤسسات العدل البريطانية .

وازدهر معه زمان بأكمله أضاء وتلألأ فى العمارة والمسرح والشعر والقصة وحتى فن كتابة الرسائل - بلغ ذروته فى العصر الفيكتورى (نسبة إلى الملكة « فيكتوريا ») .

ولحق بذلك كله نمط من الحياة يتطلع الآخرون فى العالم إليه ، ويسعون إلى تقليده أو استلهامه فى كل مجال من المجالات ، ابتداء من الكتابة إلى شاى الساعة الخامسة بعد الظهر .

كانت تلك كلها معالم نظام عالمى أطلق عليه وقتها تفاخرا واعتزازا وصف « عصر السلام البريطانى » ''Paxa Britannica'' .

وبالطبع فإن هذا النظام البريطانى لم يحقق سيادته دون أن يجد من يتحداه .

فى وقت من الأوقات كانت فرنسا هى المتحدى الأكبر . وفى وقت بعد ذلك ومع توحيد ألمانيا بقيادة « بسمارك » تقدمت ألمانيا للتحدى .

وبسبب هذه التحديات للنظام العالمى البريطانى وقعت الحرب العالمية الأولى ، ثم لحقتها الحرب العالمية الثانية .

ولأن القوة لها تكاليفها ، ولها حساباتها الاقتصادية ، فإن النظام العالمى البريطانى خرج من الحرب العالمية الثانية منهكا ، وغير قادر على الاستمرار ، وكان إعلان سقوطه الرسمى هو معركة السويس سنة ١٩٥٦ .

ويمكن أن يقال - بصفة عامة - إن النظام البريطانى هو القوة الغالبة التى أفرزتها الثورة الصناعية الأولى فى إطار عصر الرأسمالية (وكانت وسائله هى الفحم ، والحديد ، والبخار ، والسكك الحديدية ... إلى آخره - وأسلحته هى المدفع ، والدبابة ، والبارجة) .

□

والواقع أنه كان ظاهرا فى مراحل الحرب العالمية الثانية أن النظام العالمى البريطانى يتهاوى ، وأن بديلا له يتحتم أن يبرز .

وخطر للبعض أن النظام العالمى الجديد بعد النصر فى الحرب لا بد له أن يستند إلى ما هو أكثر من دولة واحدة مسيطرة ، وهنا برز حلم الأمم المتحدة ليكون رمز هذا النظام العالمى الجديد . لكن حقائق القوة التى فرضت نفسها بعد هزيمة « نابليون » كانت

هى التى فرضت نفسها بعد هزيمة « هتلر » . ولم ينجح الحلف المقدس فى زمانه ، ولم تنجح الأمم المتحدة فى زمانها ، وكانت الولايات المتحدة ـ قلعة الثورة الصناعية الثانية ـ هى الدولة التى آلت إليها مقاليد قيادة النظام العالمى الجديد الذى استحق بدوره وصف « عصر السلام الأمريكى » "Paxa Americana" .

وكما فعلت بريطانيا قبلها ، فعلت أمريكا بعدها ، وكما سوف يفعل كل نظام عالمى جديد ، كانت القوة الاقتصادية والعسكرية هى الأساس .

وراحت بقية معالم السيادة العالمية تأخذ مواقعها الطبيعية على الأرض .

برزت القوة العسكرية النووية الأمريكية لتكون حارس الأمن العالمى بدلا من الأسطول البريطانى ، وأخذت القواعد الأمريكية المنتشرة فى كل القارات موضع ممتلكات ومستعمرات ومحميات التاج البريطانى ، وحل الدولار محل الاسترلينى ، وتراجعت المؤسسات الدستورية البريطانية أمام المؤسسات الدستورية الأمريكية ، وفى حين بدت الأولى أقرب إلى متاحف الشمع (بما فيها مجلس العموم) ، فإن المؤسسات الدستورية الأمريكية كانت تملك حيوية هائلة ، وفى المقدمة منها بالطبع الكونجرس بمجلسيه ، إلى جانب المحكمة العليا .

وفى حين بقى للمسرح البريطانى بعض مجده فإن السينما الأمريكية أصبحت فن الزمان الجديد ، كما أن الإعلام الأمريكى (الصحافة والإذاعة والتليفزيون) أصبح هو الذى يضع جدول الأولويات الموجبة للاهتمام على مستوى الرأى العام العالمى كله بصرف النظر عن أى اعتبار آخر .

بل إن الـ « هامبورجر » فى النظام الأمريكى أصبح هو البديل الجديد لشاى الساعة الخامسة فى النظام البريطانى .

وبصفة عامة أيضا ، فإنه يمكن أن يقال إن النظام الأمريكى هو القوة الغالبة التى أفرزتها الثورة الصناعية الثانية فى إطار عصر الرأسمالية (وكانت وسائله هى البترول ، والكهرباء ، وخطوط انتاج السيارات ، والطائرات ... إلى آخره ـ وأسلحته هى حاملات الطائرات ، والصواريخ ، والقنابل النووية) .

□

ولقد كان التحدى الكبير الذى واجهته القوة الأمريكية فى بداية انفرادها بشئون العالم هو الاتحاد السوفيتى الذى لحق بها فى مجال القوة النووية .

وكان محتملا أن تختل الموازين بما لا يسمح للنظام العالمى الأمريكى أن يسود .

وبدا ذلك الاحتمال أقرب ما يكون عندما علا النجم الأحمر فوق الصين فى أواخر الأربعينات .

وكان ذلك معناه أن كتلا حقيقية تعترض انطلاقة النظام العالمى الأمريكى .

فهناك إلى جانب الاتحاد السوفيتى ، ومجموعته فى أوروبا الشرقية ـ الصين الشعبية ومجموعتها فى آسيا الشرقية .

وتصادف ذلك مع ظهور حركة التحرر الوطنى فى العالم الثالث ، وفوران هذه الحركة على خط يعبر القارات والمحيطات من اندونيسيا إلى الجزائر .

لكن التحدى للنظام الأمريكى توقف فى منتصف الطريق .

وقع الخلاف بين الاتحاد السوفيتى والصين ، بل وتحول إلى صراع .

ووقع الشك بين الاتحاد السوفيتى والعالم الثالث ، وجرت مناوشات فى مواقع كثيرة .

وأدار النظام الأمريكى معركة تفوقه بذكاء .

ترك الصين للاتحاد السوفيتى ، والاتحاد السوفيتى للصين .

ثم ركز هو على حركة التحرر الوطنى عارفا أنها الطرف الذى لا يملك سلاحا نوويا يمكن أن تفلت معه الأمور ، فقد كان يريدها حربا باردة لا تقود إلى جحيم نووى لا يريده أحد ، ولا يحتمله أحد .

ونجحت الولايات المتحدة بالفعل مع أواخر الستينات وأوائل السبعينات فى ضرب وتصفية عدد من المراكز الهامة لحركة التحرر الوطنى فى العالم الثالث . ومع بداية الثمانينات بدت الشروخ والشقوق تظهر على الستار الحديدى المحيط بالكتلة السوفيتية ذاتها ، وهنا رأت الولايات المتحدة أن فرصتها الحقيقية حانت ، فتركت كل شىء واتجهت إلى عملية اختراق رئيسية فى اتجاه موسكو ذاتها ، وساعدتها أحلام اليقظة التى ساورت « جورباتشوف » بأن الغرب يمكن أن يساعده على النجاة .

كان « جورباتشوف » حالما فى عز النهار عندما تصور أن الغرب يرضى أن يقدم مساعدات لنظام وقف يتحداه ويخاصمه أربع حقب متوالية . وفات عليه أن الغرب الرأسمالى ، وقد لاح فجر انتصاره ، لن يقبل بأقل من تعرية التجربة الشيوعية تعرية كاملة ، تصل بها بعد حد الهزيمة إلى حد الفضيحة ـ وقد كان !

وكانت مشاهد السياسة فى موسكو ، خصوصا مع مطالع التسعينات ، شيئا لم يخطر بعجائبه على فكر أو حتى على خيال ، ولم يكن أمام الطرف غير النووى فى

التحالف ـ حركة التحرر الوطنى فى العالم الثالث ـ إلا أن يسلم ما بقى من مراكزه ، ويتابع ما حوله ، ويلعق ما لحق به من جراح !

□

ومرة أخرى لأن للقوة تكاليفها ، فإن النظام العالمى الأمريكى أصبح مستنزفا ومرهقا ، لكنه كان أحسن حظا من النظام البريطانى الذى سبقه ، وربما كان أكفأ فى إدارته . وفى كل الأحوال ، فإنه لم يجد وريثا قادرا على أن ينتزع منه حق السيادة أو دعواها . ولقد تبدى ظن فى بعض الأحيان بأن ألمانيا واليابان ، إحداهما أو كلاهما ، مرشح كوريث ، ولكنه غاب عن هذا الظن أن ألمانيا واليابان ، وحتى السوق الأوروبية مجتمعة ـ تملك بعض وسائل القوة ولا تملك بعضها الآخر على الأقل فى هذه الظروف ، وإلى المدى القريب من المستقبل . القوة الاقتصادية ظاهرة ولكن القوة العسكرية غائبة ، إلى جانب عناصر أخرى من عناصر القوة لم تظهر بعد ، وليس فيما يبدو منها حتى الآن مقدرة على الانتشار والجذب .

وإن كان يمكن أن يقال ـ بصفة عامة ـ إن العصر الرأسمالى مازال مستمرا ، وأن القوة الغالبة فى مستقبله هى الثورة الصناعية الثالثة ، والمقدرة على امتلاك وسائلها .

ونظام القوة الأمريكية يحاول الاحتفاظ بسيطرته ، لكن معركة نظام القرن الواحد والعشرين مازالت فى بداياتها ، وكذلك فإن سلاحه مازال فى المختبرات والمعامل ، وأغلب الظن أنه نوع من العقول الالكترونية لا نار فيه ولا لهب !

ولقد تجلت كفاءة إدارة النظام الأمريكى فى أنه عند انتصاره ، ومع إحساسه بالإرهاق والضعف ، وفى غيبة وجود وريث جاهز ومستعد ـ لم يتردد فى البحث عن ترتيبات تكفل له الاستمرار فى ممارسة سيادته .

وإذن فإن ما ظهر بعد انتهاء الحرب الباردة لم يكن نظاما عالميا جديدا ، وإنما كان أقرب إلى ترتيبات جديدة يستحدثها نظام عالمى قديم يعيد بها تأكيد دوره فى ظروف متغيرة .

إن النظم تنشأ وتظهر وتنمو نتيجة عوامل طبيعية فى مجالات الصناعة والزراعة والتجارة والمال والقوة العسكرية والمؤسسات الدستورية والسياسية ، والبنى الفكرية والثقافية ، وأنماط الحياة وأساليبها .

لا تقوم الأنظمة العالمية بإعلان أو بحدث أو باحتفال ، وإنما الذى يقوم بإعلان أو

بحدث أو باحتفال هو الترتيبات الداخلية لأوضاع هذه النظم ، وعلاقات مركزها الرئيسى ببقية الفروع والأطراف .

ولقد كان ما أضاف الخلط فى أزمة الخليج أن الفكر العربى لم يستطع أن يفرق بالوضوح الكافى بين نظام عالمى جديد ، وبين ترتيبات جديدة يقوم بها النظام القديم ليلائم نفسه مع الظروف مواصلا تحقيق مطالبه ورغباته ، مستجيبا بذلك ـ متأففا فى بعض الأحيان أو راضيا ـ لمتغيرات جارية متداعية .

كان الذى تجلى فى أزمة الخليج هو الترتيبات الجديدة لنفس النظام الأمريكى ذاته ، واستطاعت هذه الترتيبات أن تعطى للفروع والأطراف أدوارا فى مراحل الأزمة المختلفة ، وكانت البداية دورا للأمم المتحدة ، ثم انتقل هذا الدور إلى قوات التحالف ، ثم انسحب هذا الدور إلى مجموعة الدول السبع الصناعية . وطوال الوقت كان زمام الإدارة العليا فى يد واحدة .. أمريكية .

بقى أن الظواهر العالمية شىء ثالث مختلف عن « نظام عالمى » ، وشىء مختلف عن « ترتيبات عالمية » . وعلى سبيل المثال ، فإن وسائل الاتصال الجديدة جعلت العالم كله قرية واحدة ، ويكفى أن نتذكر الدور الذى قامت به شبكة C. N. N. فى أزمة حرب الخليج . وعندما يتحول العالم من التفاعل مع الأفكار إلى التأثر بالصور ، فإن آثار ذلك على اتساعها لا تنشىء نظاما عالميا جديدا للقوة ، وإنما قد تساعد على التوصل إلى ترتيبات عالمية جديدة فى ممارستها ، ثم إنها قد تجىء بظواهر عالمية جديدة فى سلوك الناس ، وأذواقهم ، وربما تطلعاتهم !

□

وكانت مقادير العالم العربى أن يدخل الى أزمة من أصعب أزماته وأخطرها وأعنفها وهو لا يعرف نفسه ، ولا يعرف محيطه القريب منه ، ولا يعرف عالمه .

وكانت النتائج مأساوية .

ففضلا عن المشاهد الغريبة والكئيبة والمتناقضة ، فإن العرب جميعا استسلموا لوهم أن هناك نظاما عالميا جديدا ، وأن هذا النظام يفرض قوانينه على الكل وهم ضمنه ، فى حين أن القديم كان يحاول تثبيت مواقعه بترتيبات جديدة وبظواهر مستحدثة هم جميعا ـ وبدون استثناء ـ ضحاياها .

الفصل الثانى

حـــروب البتـــرول

« ما لم يرفع حظر البترول عن الولايات المتحدة ـ وما لم ترفع القيود الموضوعة على إنتاجه ، فلن يكون فى وسعى عمل شىء فى أزمة الشرق الأوسط » .

[الرئيس « ريتشارد نيكسون » فى خطاب سرى إلى الرئيس « أنور السادات » بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٧٤]

١

فور قيام العراق باحتلال الكويت انهمر طوفان من بيانات الاستنكار والادانة من داخل العالم العربى والعالم الخارجى .

كان التيار الغالب والتلقائى فى الأمة العربية على اختلاف شعوبها ـ شعورا بالمفاجأة والدهشة والقلق ، كلها فى نفس الوقت ـ مزيج من مشاعر إنسانية ووطنية بسيطة وواضحة .

وكان الموقف الرسمى للدول العربية على تعددها مختلفا درجة أو درجات . فقد تداخل فيه بعض ما ساور جماهير الأمة من مشاعر ، مضافا إليه بعض الخشية من

السوابق ، وبعض العوامل الذاتية ، وبعض من آثار الالتزامات الدولية للأطراف . كثير تداخل كله فى شحنة واحدة مركبة ، ومتحفزة !

وأما فى الغرب بصفة عامة ، فإن طوفان البيانات لم يقتصر على الاستنكار والادانة ، وإنما كانت الاجراءات والاستعدادات أكثر سرعة من الكلمات . ومع التسليم بأن قطاعات لا يستهان بها من الرأى العام العالمى كانت تصدر فى رد فعلها عن مبدأ ، فإن سلطة القرار فى الغرب بصفة عامة لم تكن تتحرك استيحاءً لنفس المصدر . كان هناك كلام كثيرٌ عن إقدام دولة كبيرة على ابتلاع دولة صغيرة . وكان هناك كلام كثير عن قوة إقليمية كبيرة لها مطالب امبراطورية فيما حولها . وكان هناك كلام كثير عن نظام دولى جديد ، إما أن يؤكد نفسه بالفعل ، وإما أن تسقط مبادىء التعامل الدولى الذى أرسيت قواعده منذ إنشاء الأمم المتحدة وحتى الآن . وترددت مقارنات بين العراق وألمانيا النازية وايطاليا الفاشية واليابان العسكرية ، ولكن كلمة واحدة هى أكثر ما يشير إلى الحقيقة ظلت غائبة ، وهى كلمة « البترول » . ولعل المحاولات كانت تجرى باستمرار لتجنب ذكرها خصوصا فى المراحل المتقدمة من الأزمة .

إن واشنطن ولندن اتجهتا إلى خيار الحرب منذ الساعات الأولى ، ولكن هذا الخيار كان يصعب تقديمه حتى للرأى العام فى الولايات المتحدة وبريطانيا على أنه قرار بالحرب من أجل البترول . فعندما يطلب من الناس أن يعطوا دماءهم لهدف ، فإن هذا الهدف لابد أن يتم طرحه على شكل نبيل يساوى أن يدافع الناس عنه بدمائهم . وهكذا اختفت كلمة البترول ، وانفسح المجال كاملا لفكرة الدفاع عن النظام الدولى الجديد ، والشرعية الدولية ، وحق الشعوب فى حريتها ومصيرها .

لقد كانت تلك كلها أهدافاً نبيلة ، وأما هدف البترول فلم يكن فيه شىء من ذلك النبل .

□

ليس هناك صراع فى التاريخ يمكن نسبته بالكامل إلى عنصر واحد ، إلا إذا جرى النظر إليه بطريقة مسطحة ، والحاصل أن عوامل الصراع فى العادة تتراكم ، وعند لحظة حرجة يحدث الفوران . ولقد كان البترول عنصرا دائما فى كل أزمة كبرى وقعت فى العالم العربى منذ بدأت رياح الاستقلال تهب عليه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . وكان البترول يطرح نفسه على الأزمات ، أو كانت الأزمات تطرح نفسها على البترول وفق متغيرات الظروف . ولقد كان « عبد الرحمن عزام » (باشا) صاحب فكرة الجامعة العربية وأبرز مؤسسيها وأول أمين عام لها ـ هو الذى خطرت له منذ البداية فكرة أن بترول العرب يستطيع أن يخدم أهدافهم السياسية بنفس القدر الذى يخدم فيه مطالب غيرهم الاقتصادية .

وفى ظروف معركة قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ توجه « عبد الرحمن غزام » (باشا) لمقابلة الملك « عبد العزيز آل سعود » يعرض عليه فكرة استعمال البترول فى الضغط على الغرب كى لا يتجاهل الحقوق العربية فى فلسطين . وكان تقدير الملك « عبد العزيز » وقتها أنه لا يرى صلة بين الأمرين . وطالت المناقشة بين الاثنين وختمها الملك « عبد العزيز » بصراحة محارب بدوى عجوز قائلا : « **إننى لا أفهم ما تتحدث عنه . إننا لم نكن نعرف أن البترول موجود بأرضنا ، وجاء الأجنبى فقال لنا إنه موجود . ولم نكن نعرف كيف نستخرجه من باطن الأرض ، وجاء الأجنبى فاستخرجه من باطن الأرض . ولم نكن نعرف كيف نذهب للأسواق ونبيعه ، وجاء الأجنبى فأخذه للأسواق وباعه وأخذ نصيبه بعد البيع وأعطانا نصيبنا . فلماذا تطلب منى الآن أن أعاقبه ؟** » ـ وهكذا كان البترول قرب أول حرب خاضها العرب فى تاريخهم الحديث ولكنه لم يدخل فيها .

وفى معركة ١٩٥٦ كان البترول موجودا فى المعركة بحكم أن قناة السويس ، وهى أهم معابره فى ذلك الوقت ، كانت مسرحا للقتال . لكن البترول لم يدخل فى المعركة كعامل مستقل عن غيره من العوامل .

وفى معركة ١٩٦٧ اقترب البترول أكثر فأدى دورا فى دعم الدول التى تأثرت أكثر من غيرها بنتائج المعركة . كانت هناك صيحة أثناء معركة ١٩٦٧ تنادى بقطع إمدادات البترول عن الغرب عقابا له على مساندة إسرائيل . وظلت الدعوة عالية بعد أن انتهت المعركة إلى ما انتهت إليه . وكان لـ « جمال عبد الناصر » ـ بعد تفكير طويل ـ رأى مختلف مؤداه أن الدول العربية المنتجة للبترول لن تقبل بوقف إمدادات نفطها ، وإذا كان على العرب أن يواصلوا القتال فإن البترول لابد أن يتدفق خصوصا إذا أمكن تخصيص جزء من موارده لدعم المعركة . وكانت هذه صيغة لحل وسط تلقفها الملك « فيصل » وجرى إقرارها فى مؤتمر القمة العربية فى الخرطوم (أغسطس ١٩٦٧) حيث تعهدت الدول العربية المنتجة للبترول بأن تدفع مبلغ ٢٥٠ مليون جنيه استرليني كل سنة دعما لدول المواجهة مع إسرائيل ، وهى فى ذلك الوقت مصر ، وسوريا ، والأردن .

كانت هذه معارك ثلاث عبر فيها ظل البترول من بعيد ، أو قريب على ساحات الصراع .

□

ثم جاءت بعد ذلك ثلاث معارك يمكن وصفها بالفعل بأنها حروب البترول الثلاث التى يتحتم الوقوف طويلا أمام كل واحدة منها ، لأنها جميعا تمثل خطا متصلا فى اتجاه ما وقع فى الفترة من ٢ أغسطس ١٩٩٠ حتى أواخر فبراير ١٩٩١ ـ وإلى الآن ، وإلى مطالع القرن الواحد والعشرين :

● **أولها معركة ١٩٧٣** التى قام البترول فيها بدور شريك كبير للسياسة والسلاح ، والتى تجاسر فيها العرب بعد تردد على استعمال البترول كقوة رئيسية من قوى الصراع ضد مناصرى إسرائيل ، وفى مقدمتهم الولايات المتحدة الأمريكية .

● **وثانيها هى الحرب العراقية ـ الإيرانية** التى دارت رحاها لمدة ثمانى سنوات من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨ . وكان تأثير هذه الحرب فى قضية البترول تأثيرا بعيد المدى ، ويكفى أنها دارت بين الدولة الثانية فى إنتاج البترول فى الشرق الأوسط (إيران) والدولة الثالثة (العراق)[١] ، وأن تمويلها كان بموارد البترول على الناحيتين ، ثم إن أول أهداف كل طرف من طرفيها انصب على ضرب منابع البترول ومنشآته لدى الطرف الآخر . وأخيرا فإن هذه الحرب كانت هى الظرف الذى تحشدت فيه الأساطيل البحرية للغرب فى منطقة الخليج .

● **وثالثها هى حرب الكويت** ... وهى فى المحصلة النهائية قضية بترول الخليج .

كان الغرب دائما على استعداد للحرب من أجل تأمين بترول الشرق الأوسط . فى البداية بسبب أهميته الاستراتيجية ، وفى النهاية لنفس هذه الأهمية الاستراتيجية مضافا إليها فوائضه . ولم يكن هذا سرا خافيا حتى على المعسكر الآخر الذى واجه الغرب بامتداد أربع حقب ، فقد كان الاتحاد السوفيتى يعترف للغرب بمصالحه البترولية ، ويدرك بغير لبس أن بترول الشرق الأوسط هو أحد الأسباب الرئيسية التى يمكن أن تؤدى بالفعل إلى حرب نووية . وعندما وقعت ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ فى العراق ، كان « جمال عبد الناصر » فى يوجوسلافيا . وحين ذاع نبأ قيام الثورة ، أقدم الرئيس الأمريكى وقتها « دوايت ايزنهاور » على إعلان حالة الطوارىء فى القوات المسلحة الأمريكية . وأصدر أمره للأسطول الأمريكى السادس بالتوجه إلى الشواطىء اللبنانية ، وإنزال قواته إليها تحسبا لردود الفعل فى ظرف اكفهر فيه المناخ الدولى فجأة . ووجد « جمال عبد الناصر » بمسئوليته القومية عن العمل العربى أيامها أن يستوثق من موقف الاتحاد السوفيتى حيال التطورات ، فقصد إلى موسكو قبل أن يعود إلى المنطقة . وفى موسكو كان له لقاء ممتد بطول ١٨ ساعة مع الزعيم السوفيتى « نيكيتا خروشوف » ، وكان الجزء الأكبر من المقابلة إلحاحا من « خروشوف » على « جمال عبد الناصر » بأن يفعل كل ما فى وسعه لتهدئة الأمور فى الشرق الأوسط . « فالثورة فى العراق وهو منتج رئيسى للبترول ، استفزاز كاف ، وإذا لم يتدارك العرب آثاره بطمأنة الغرب على مصالحه البترولية ، فإن العواقب قد تكون

---

(١) العراق هى الدولة الثانية فى انتاج البترول ضمن مجموعة الدول العربية بعد السعودية ، وهى الثالثة ضمن مجموعة دول الشرق الأوسط بعد السعودية وإيران .

خطيرة . » وكان ذلك هو نفس رأى « جمال عبد الناصر » ولكن سماعه بهذا التفصيل ، وبهذا الإلحاح من « خروشوف » كان إضافة مهمة ، وقد وصل « خروشوف » فى حديثه الصريح إلى حد أن قال لـ « جمال عبد الناصر » : « إننا لن نستطيع عمل أى شىء لمساندتكم إذا تأزمت الأمور بينكم ، وبين الولايات المتحدة الأمريكية ، فأى تدخل من جانبنا قد يؤدى إلى حرب نووية لسنا على استعداد لمواجهة نتائجها » .

□

كانت الكويت درة ثمينة فى تاج البترول العربى ، وكانت هذه الدرة لحقب طويلة فى حوزة بريطانيا التى كانت شديدة الحرص على الاستئثار بها إلى درجة من الحساسية عالية . وقبل إعلان استقلال الكويت كان السير « كولين كرو » ـ المسئول عن شئون الرعايا البريطانيين فى مصر أثناء قطع العلاقات الدبلوماسية الرسمية بين البلدين فى أعقاب معركة السويس ـ يحاول قصارى جهده لإعادة العلاقات بين البلدين إلى حالتها الطبيعية .

وأثناء إحدى جلسات المفاوضات تقدم السير « كولين كرو » بطلب لفتح خمس قنصليات فى الجمهورية العربية المتحدة (التى كانت تضم مصر وسوريا) .

وطلب « كولين كرو » من مفاوضيه أن تكون القنصليات المطلوبة فى القاهرة والأسكندرية والسويس ودمشق وحلب .

وفوجىء السير « كولين كرو » بالمفاوض المصرى أمامه يطلب بدوره خمس قنصليات فى بريطانيا ، أو فى مناطق تسيطر هى عليها : لندن ، وليفربول ـ ثم قنصلية فى دار السلام ، وقنصلية فى عدن ، وقنصلية فى الكويت ، وكان رد فعله السريع والتلقائى : « **أنه أى مكان إلا الكويت** » !

لم تكن بريطانيا على استعداد حتى لرؤية قنصلية عربية فى الكويت .

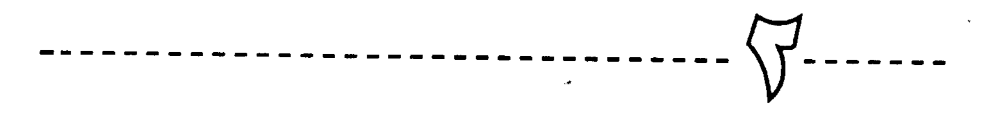
ولعل خشية بريطانيا على الكويت كانت أكثر فى مواجهة العراق الذى اعتبر الكويت جزءًا من قضاء البصرة ، وأصر على هذا الاعتقاد على اختلاف العصور فى تاريخه الحديث من الملوك الهاشميين ـ إلى قادة الثورات والانقلابات من العسكريين ـ إلى الزعماء العقائديين لحزب البعث العربى . والشاهد أن الحرص البريطانى على الكويت كان إلى حد كبير جزءًا لا يتجزأ من اهتمام عام وعالمى بمنطقة الخليج التى انتقلت إليها بؤرة الصراع العالمى فى النصف الثانى من القرن العشرين ، بعد أن ظل هذا المركز حكرا لقناة السويس فى النصف الأول من هذا القرن .

وكانت أهمية قناة السويس أنها عقدة المواصلات البحرية والشريان الحيوى للسيطرة

الامبراطورية . وأما أهمية الخليج ، فقد تعدت ذلك وفاقته لأسباب عديدة أهمها أن البترول لم يجعل صراعات العالم حوله مسألة اتصالات أو مواصلات ، وإنما جعلها مسألة حياة أو موت للقوى الغالبة أو المطالبة بالغلبة .

وفى نفس الوقت ، فإن قناة السويس كانت تفقد أهميتها بسبب الغليان الذى أحدثه فوران حركة القومية العربية من حولها ، كما أن الدوران حولها عن طريق رأس الرجاء الصالح جعل تفاديها ممكنا .

وأما الخليج ، فقد كانت شطآنه لا تزال بعد هادئة ، يصل إليها غليان المنطقة من بعيد صدى يمكن استيعابه ، كما أن الدوران من حوله مستحيل لأنه بحر مغلق على نفسه . ثم ، وهذا هو الأهم ، فإن كنز البترول المحيط به يجعل من درره النفيسة كلها ـ تاجا لا بديل عنه لأى مطالب بسيادة العالم .



إن منطقة الخليج شهدت قبل آلاف السنين مولد وازدهار حضارات غابرة دفنتها رمال الصحراء . كما شهدت أحداثا كبرى غطت عليها رمال الزمان . كما عاشت أيام عز لم يبق لها من أثر بعد انهيار الخلافة العباسية إلا بقايا أساطير متناثرة فى قصص ألف ليلة وليلة عندما كانت البصرة بأمرائها وتجارها ، وجواريها ومغنيها ـ هى عاصمة الثراء والفن والترف على رأس الخليج .

لكن المنطقة بعد تلك الفترة المضيئة سقطت فى ظلام تحول إلى نوع من العزلة عن مجرى التاريخ العام ، إلى حد بدت فيه العزلة وكأنها نوع من الفراغ التاريخى والحضارى . ولم يكن ذلك دقيقا لأن المنطقة بموقعها بين حضارتين وأمتين (العرب والفرس) ـ كانت مستعصية على الفراغ وعلى العزلة ، خصوصا وأنها على طريق البحار من الشرق إلى الغرب وبالعكس ، فى مرحلة من التاريخ الانسانى كانت البحار فيها ساحة الصراع التجارى والجغرافى والعسكرى بين القوى المتنافسة فى العالم .

وعندما بدأ الغرب المسيحى (القرن الخامس عشر) يلتف حول القلب العربى الإسلامى ، كان الخليج بعيدا يواجه مصيره دون أن يلتفت إليه بالقدر الكافى أحد .

كان القلب العربى الإسلامى (مصر وسوريا) يقف حاجزا دون الغرب ، ودون تجارة الشرق ، وضاعف من فاعلية هذا الحاجز أن القلب العربى الإسلامى كان مرتكزا فى الشرق على الدولة المغولية الإسلامية فى الهند ، ومستندا فى الغرب على الدولة ـ أو الدول ـ الإسلامية فى الأندلس .

وحاول الغرب المسيحى فى الحروب الصليبية كسر الحاجز عند القلب ، ولكنه فشل ، واستدار إلى الأطراف ، فإذا سقطت فى يده أمكن تطويق القلب وكسر الحاجز وإزالته تماما .

وتحقق النجاح فى الأندلس ، وبهذا النجاح تمكن الغرب المسيحى من ركوب البحر إلى الشرق بواسطة الطريق الجديد الذى فتحه « فاسكو داجاما » حول رأس الرجاء الصالح واصلا إلى مشارف « كلكتا » على شواطىء البنغال .

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت دول الغرب تتسابق إلى نهب آسيا ونزح ثرواتها على نطاق واسع . بدأت البرتغال ، ثم لحقتها هولندا ، ثم فرنسا وبريطانيا .

وأسست كل منها شركات للتجارة مع الشرق حمل معظمها اسم الهند بما له من سحر الأسطورة الشرقية المرصعة بالجواهر والمعطرة بالبخور ، فكانت هناك شركة الهند البرتغالية ، وشركة الهند الهولندية ، وشركة الهند الفرنسية ، وشركة الهند البريطانية .

وكانت الأساطيل الحربية للدول المعنية تمخر عباب البحار الجنوبية بحذاء السفن التجارية ، تسبقها أحيانا ، وتلحقها أحيانا أخرى .

واستطاعت بريطانيا أن تسبق الآخرين فى تنظيم التجارة وتوفير الحماية ، وأنشأت تلك الظاهرة غير المسبوقة فى التاريخ ، وهى ظاهرة حكومة الهند التى أصبحت معقل الامبراطورية ومركزا للنفوذ وللقرار السياسى لا يقل أهمية عن مركز لندن . فقد كانت طبيعة وسائل المواصلات فى ذلك العصر ، وحجم الغنائم ، والمنافسة مع امبراطوريات أخرى طامعة ـ تفرض إعطاء « كلكتا » و « بومباى » و « دلهى » صلاحيات واسعة للتصرف دون انتظار أوامر من المركز الرئيسى بعيدا فى الجزر البريطانية .

ومع اتساع المصالح وازدياد النفوذ بدأ التفكير مرة أخرى فى الطريق البرى عبر العالم العربى إلى الشرق ، وكان الدخول هذه المرة من الشرق إلى الغرب ، من الخليج وليس من البحر الأبيض . وبدأت أساطيل الغرب تظهر فى الخليج ، قادمة من المحيط الهندى بنفس الترتيب : البرتغال فهولندا وفرنسا وبريطانيا . واستطاعت الامبراطورية العثمانية لفترة من الزمن أن تصد عن القلب العربى الإسلامى الذى انقضى فيه عهد المماليك العظام من أمثال « قطز » و « بيبرس » ـ لكن دولة الخلافة فى استانبول اعتراها الوهن

ولم تعد حاميا ، وإنما تحولت إلى إرث يطمع فيه الآخرون وينازعونه الحق فيما يملك من الأقاليم فى القلب العربى الإسلامى لدولة الخلافة ذاتها .

وكان العراق ـ بتركيبته الشهيرة فى التاريخ ، والتى تضم ولايات بغداد والموصل والبصرة ـ واحدا من أهم هذه الأقاليم ، وكانت بغداد هى مقر الوالى فى العراق ، وكانت مسئوليته ممتدة إلى البصرة ، وبعد البصرة إلى ما وراءها جنوبا فى الخليج ، وإلى حيث تستطيع قوته أن تمد سلطتها فى عمق الصحارى . ولم يكن باقيا فى هذه الصحارى إلا بعض قبائل « نجد » التى تصل إلى الشواطىء بين حين وآخر لتبادل منتجاتها مع التجار والصيادين الذين أنشأوا مراكز تجمع صغيرة عند نقاط متباعدة على شطآن الخليج تزورهم فيها أحيانا سفن قادمة من بحر العرب عبر مضيق « هرمز » تحمل إليهم بضائع يحتاجونها كالأقمشة والتوابل وغيرها .

كانت الكويت فى ذلك الوقت ميناءً طبيعيا واسعا على رأس الخليج ، وكان من توابع ميناء البصرة ، واستخدم فى بعض الأوقات بديلا له ، وقام بجواره مركز سكانى صغير ، وبنى فيه حصن أطلق عليه اسم « الكويت » تصغيرا لكلمة « الكوت » ، وهى تعنى الحصن أو نقطة المراقبة والدفاع .

□

كانت بريطانيا أشد وأقوى الطامعين فى إرث الخلافة العثمانية وأهم ما فيه قلبه العربى الإسلامى من وادى الفرات إلى وادى النيل محفوفا بالشاطىء الشرقى للبحر الأبيض . وكانت حكومة الهند البريطانية هى التى بدأت تزحف بسلطتها أكثر من أى قوة أخرى بين القوى المتنافسة على تجارة الشرق وطرقها البحرية والبرية ، وكانت دعواها فى ذلك الوقت تتمثل فى مبدأين : حماية حرية التجارة أولا ، ثم مكافحة تجارة الرقيق والقرصنة ثانيا . وفى ظل هذين المبدأين تمكن الأسطول البريطانى من تدمير الملاحة التجارية العربية لبعض القبائل التى ظهر دورها فى تجارة البحر ، وفى مقدمتها « القواسم » . وفى سبيل تحقيق هذا الهدف الامبراطورى اتصل الوكلاء البريطانيون ، وكان محتما أن يتصلوا ، بعدد من زعماء القبائل الظاهرة فى « نجد » وشبه الحاكمة فى صحاريها .

وكانت قبيلة « عنزة » واحدة من أقوى قبائل « نجد » ، وإليها تنتمى كل الأسر التى ظهرت فيما بعد وحكمت ، ووصل نفوذها إلى شطآن الخليج ومراكزها السكانية المتناثرة .

وكان فرع « العتوب » من قبيلة « عنزة » واحدا من أهم فروع هذه القبيلة ، وإليه ينتمى « آل الصباح » الذين حكموا الكويت فيما بعد . ولم ينشأ هذا الفرع فى الكويت ، وإنما

ظهر فى « نجد » وتبدى نشاطه مثل نشاط غيره فى الاغارة على طرق القوافل ، أو حمايتها بإتاوة حسب متغيرات الظروف .

وتشير دائرة المعارف الإسلامية[٢] إلى أن فرع « الصباح » دخل فى عراك مع غيره من فروع « العتوب » و « عنزة » ، وكان أن جرى إبعاده عن « نجد » ومطاردته خارجها ، فرحل بخيامه وأغنامه شمالا إلى منطقة « أم قصر » فى العراق ، ولكنه هناك عاد يواصل غاراته على طرق القوافل ، مما دعا الحاكم باسم الخلافة فى بغداد إلى طرد « آل الصباح » من « أم قصر » بسبب شكاوى الفلاحين وسكان القرى ، وكان الرحيل من « أم قصر » . ولكن الذين رحلوا لم يكن فى مقدورهم أن يعودوا إلى « نجد » بسبب ثاراتهم القديمة هناك ، وتوقفوا فى منتصف الطريق أمام الكويت .

وكانت الكويت قد برزت بسبب مينائها الطبيعى كواحد من مراكز التجارة البحرية على الطريق إلى فارس وإلى العراق ، وتكون فيها مجتمع من التجار كانت حياة معظمهم فوق السفن ، وكان قدرهم أن يتركوا عائلاتهم فى الكويت ، وأن يذهب الرجال إلى البحر على سفن التجارة ، أو لصيد السمك أو اللؤلؤ . وفى ظرف الغياب وراء البحر فإن عائلات المسافرين (العوائل كما يسمونها) تحتاج إلى الحماية ، ووجد تجار الكويت أن « آل الصباح » يستطيعون القيام بهذا الدور مؤتمنين عليه ، وكان أن تم الاتفاق معهم والتراضى .

لم تكن الأسرة حاكمة بالمعنى المعروف ، ولكنها كانت مختارة لمهمة مقابل جزء معلوم من أرباح التجارة .

□

وفى ذلك الوقت كانت ردود فعل الصراع الكبير على مقادير الشرق الأوسط تصل إلى المنطقة وتؤثر فيها . ومن مفارقات التاريخ أن الصراع الذى جرى وانتهى بالحملة الفرنسية على مصر ، ثم الاحتلال البريطانى لها ـ ظهرت بوادره فى الخليج .

فعندما جاء « نابليون » إلى مصر ـ وهدفه النهائى هو الهند ـ كان من أول قراراته فيها إرسال مبعوث إلى مشايخ قبائل الخليج ووكلائهم فى موانيه الصغيرة . وقد دعم خطوته تلك بأمر إلى قوات من الأسطول الفرنسى لشركة الهند الشرقية الفرنسية بأن ترسل بعض سفنها المزودة بمدافع كبيرة إلى منطقة الخليج . وكان الذى تولى مهمة صد هذه السفن عن

(٢) طبعة سنة ١٩٦٠ والصادرة عن جامعة « ليدن » فى هولندا ، وهى أهم مراكز الدراسات الاسلامية فى أوروبا .

دخول الخليج أسطول بريطانى تتقدمه الفرقاطة "Sea Shore" - « شاطىء البحر » - المعقود لواء قيادتها للكابتن « نلسون » الذى قدر له فيما بعد أن يدمر أسطول « نابليون » فى خليج « أبو قير » ثم يهزمه نهائيا فى معركة « ترافلجار » (الطرف الأغر) ، أى أن المبارزة البحرية بين « نابليون » و « نلسون » بدأت أولا أمام الكويت ، ثم تفاقمت أمام الاسكندرية ، ثم جرى حسمها قرب الشاطىء الأسبانى على مرمى حجر من أوروبا !

وعلى الناحية العربية فإن المصائر اتحدت ، فقد كان والى بغداد « سليمان » (باشا) هو الذى تولى فى هذه الفترة جمع نصف مليون جنيه من الذهب لتمويل الحملة العثمانية التى كانت تريد إخراج « نابليون » من مصر .

ومما يلفت النظر أن أول إنذار تلقاه « محمد على » (باشا) والى مصر الكبير من القوى الأجنبية التى أقلقتها سياسته - هو الإنذار الذى وجهته إليه بريطانيا سنة ١٨٣٨ بأن يسحب الجيش المصرى من الكويت . وكان هذا الجيش قد وصل إلى الكويت فى إطار الحرب مع الوهابيين فى « نجد » ، وبقى هناك مدة أربع سنوات تشغله المخاطر التى تحوم حول الخليج والمطامع التى تتهدده ، وقد أدرك « محمد على » بحسه الاستراتيجى أن هناك صلة وثيقة بين ما يجرى هناك فى مياهه أمام الكويت ، وما يجرى هنا فى البحر الأبيض أمام الاسكندرية .

ولم تكن بريطانيا على استعداد لترك « محمد على » لأفكاره وخططه ، وكان أن وجهت إليه إنذارا بالخروج من الخليج ، وكانت تلك مقدمة للانذار النهائى الذى تجمعت أوروبا فيه لكى تضرب هذا الحالم بتجديد شباب الخلافة ، والمتطلع إلى عرشها - وتفرض عليه الاستسلام بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ .

إلى هذه الدرجة كان تداخل الصراعات على مشارف القرن التاسع عشر ، وحتى نهايته . وقرب هذه النهاية طرأ عنصران :

□ **العنصر الأول** : بوادر احتمالات لظهور البترول فى الخليج .

□ **والعنصر الثانى** : الانهيار الكامل لدولة الخلافة ، وقيام كيانات عربية كبيرة تستعيد استقلالها من جديد بعد انقضاء عصر الخلافة .

وتعارض مطلب تأمين البترول للقوى الكبرى المتنافسة على الخليج بكل ما فيه ، مع مطلب الكيانات السياسية العائدة ، والتى تبدت نزعتها الطبيعية إلى تأكيد ولايتها على ما تعتبره إقليمها .

وكان هذا الصراع أشد ما يكون فى الكويت .

وبدأت الحكومة الجديدة فى العراق تطالب ، وفى نفس الوقت فإن بريطانيا مضت ترسم الخرائط ، وكأنها تجرى بالخطوط والألوان على صفحات بيضاء ، أو صفراء بلون الرمال !

وكانت بداية العملية أن شيوخ القبائل النافذة فى المواقع الغنية ، أو المحتملة الغنى أصبحوا حكاما بمقتضى اتفاقيات قاموا بتوقيعها مع ممثلى حكومة الهند ووكلائها . وبمقتضى هذه الاتفاقيات التى تم توقيعها فى فترة الانتقال من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين تعهد الشيوخ بأن يوالوا من يوالى الامبراطورية البريطانية ، وأن يعادوا من يعاديها ، وألا يسمحوا بدخول قوة أجنبية أخرى إلى موانيهم وشواطئهم ، وألا يتنازلوا عن شيء من الأراضى التى وضعت تحت سلطتهم لأى طرف آخر مهما كان .

وكان بسط السيطرة على طرق التجارة إلى الشرق هو البداية ، وتلاه الصراع مع الدول الطامعة فى المستعمرات (وبينها فى ذلك الوقت روسيا وألمانيا أيضا) ، ثم أضيف إلى ذلك عنصر أكثر أهمية ، وأكثر اتصالا بالقرن العشرين ، وهو عنصر : البترول .

كان هذا العنصر الملتهب هو الذى راح يؤدى إلى توترات حادة ليس فقط بين القبائل التقليدية فى الخليج ، وبين الدول الجديدة الناشئة حوله ـ وإنما أيضا بين الشيوخ أنفسهم . فقد دبت الفرقة بينهم على تعيين حدودهم بعضهم مع بعض ، وفى مرات كثيرة جرى تخطيط الحدود بين المشيخات المختلفة على أساس روايات صيادين عن المواقع التى كانوا ينشرون فوقها شباك الصيد لتجف ، أو المواقع التى مشت فوقها قافلة جمال ، أو صدت عندها غارة بدو على مضرب خيام .

لم تكن المنطقة تعرف الحدود ، وكانت على حد تعبير « روبرت هى » المقيم البريطانى فيها أثناء الخمسينات : « بحار من الرمال تعبرها القوافل مثلما تعبر السفن بحار الماء ، دون أن تترك وراءها أثرا . »

ولم تكن فكرة الحدود من الأساس موجودة تفصل كيانا سياسيا عن كيان سياسى آخر . وكان الفصل فى المنازعات بين شيوخ القبائل من اختصاص حكومة الهند ومفوضها المقيم فى الخليج .[٣]

وكان مفوض حكومة الهند فى الخليج « برسى كوكس » ، وهو وقتها ضابط برتبة ماجور ، هو الذى أمسك بقلمه الأحمر ، وجرى به على الخرائط خطوطا ليقول بعدها

---

(٣) الدكتورة « روز مارى زحلان » فى كتابها عن « صنع الدول الجديدة فى الخليج » صفحة ١٧ .

للمشايخ : « هذه هى حدودكم الجديدة » . ولم يكن بعضهم راضيا ، خصوصا فى رسم الحدود بين الكويت والسعودية . وهنا خرج « برسى كوكس » باختراعه الشهير عن المناطق المتهادنة والمناطق المحايدة ، وغير ذلك من التعبيرات والاصطلاحات .

ووصلت الخلافات والصراعات بين المشايخ وضرورات احتوائها إلى درجة اقتضت أن يجىء نائب الملك فى الهند ، اللورد « كيرزون » ، وأن يجمع المشايخ سنة ١٩٠٣ وأن يلقى فيهم خطابا يعتبر من المأثورات فى أدب العصر الاستعمارى . فقد قال اللورد « كيرزون » :[٤]

● إن الحكومة البريطانية قامت خلال المائة سنة الماضية بإنشاء نظام لحفظ السلام العالمى ، وقد وافقتم على أحكامه . ونتيجة لهذا قامت بينكم وبين حكومة الهند علاقات ، وأصبحت بمقتضاه الحكومة البريطانية هى السيد والحامى فى بلادكم . ولقد قدمتم لها ولاءكم دون أية قوى أخرى . وفى بعض الأحيان أشعر أنكم تتعرضون لخطر النسيان . وربما يكون بينكم من يسأل نفسه لماذا تريد الحكومة البريطانية أن تمارس هذه الصلاحيات ؟ إن الجواب على هذا السؤال يظهر أمامكم إذا تذكرتم تاريخ بلادكم وتاريخ عائلاتكم وقارنتم بين ما كان وبين ما هو كائن اليوم . إن بريطانيا العظمى كانت هنا قبل أن تطل أى قوة أخرى على هذه المياه . ولقد كان كل شىء فوضى ، وكنا نحن الذين منحناكم نظاما . وكانت التجارة مهددة ، وكان أمن أسركم مهددا ، وكنا نحن الذين منحناكم الحماية . وهناك رعايا لصاحب الجلالة ملك بريطانيا على هذه الشواطىء يعيشون ويتاجرون . عليكم أن تتذكروا أن امبراطوريتنا الهندية العظمى تقع على مقربة منكم ، وواجبنا أن نحميها ، وأن نحميكم أنتم أيضا . إننا أنقذناكم جميعا من الإبادة على أيدى جيرانكم ، ونحن الذين فتحنا المسالك البحرية لسفن الأمم الأخرى كى تجىء إليكم هنا فى سلام . إننا لم نغتصب أرضا لكم ، ولم ندمر سيادتكم ، وإنما حافظنا على ذلك كله ، ولابد أن تدركوا أننا لا ننوى أن نضيع قرنا كاملا مكلفا من النصر والرخاء لأى سبب . ولن نترك هذه الصفحة من التاريخ لتطوى . إن أمن هذه المياه سوف تجرى المحافظة عليه ، واستقلالكم سوف يضمن طالما بقى نفوذ الحكومة البريطانية فوق أى نفوذ هنا . ●

وكان اللورد « كيرزون » فى هذا الخطاب يستهدى بالمقولة الشهيرة المأثورة عن الملك « عبد العزيز آل سعود » التى وردت فى حديثه مع الكاتب والرحالة اللبنانى الشهير

---

(٤) مجموعة وثائق وزارة المستعمرات . وقد توزعت بعد ذلك على عدد من الوزارات انتقلت إليها العلاقات مع المستعمرات السابقة . ونص هذا الخطاب للورد « كيرزون » منقول من مجموعة من هذه الوثائق نشرت فى لندن سنة ١٩٧٥ بعنوان : « السياسة البريطانية فى الخليج » .

« أمين الريحانى » (١٩٢١) والتى قال فيها « هؤلاء البدو لا يعرفون من الدنيا غير شيئين ـ السيف والذهب » . وفى حين أن خطاب اللورد « كيرزون » كان تلويحا بالسيف ، فإن الذهب كان حاضرا ، إذ أن الحكومة البريطانية كانت تعطى الملك « عبد العزيز » نفسه خمسة آلاف جنيه من الذهب كل سنة ، كما كان حاكم الكويت يتقاضى مبلغا أقل .

وكان الذهب الأصفر ظاهرا فى ذلك الوقت ، لكن الذهب الأسود بدأ يصبح عنصرا أكبر وأخطر فى مصائر الخليج منذ ذلك الوقت ، وحتى حرب البترول الكاملة الأولى سنة ١٩٧٣ .

٣

كان استعمال البترول على أساس تجارى قد بدأ فى الولايات المتحدة الأمريكية فى منتصف القرن التاسع عشر ، وكانت بداية استعماله التجارى كوقود للإضاءة . وعندما ظهرت بوادر اختراع محرك للاحتراق الداخلى أصبح البترول وقود كل حركة . وفى وقت مبكر اكتشف البريطانيون أهمية البترول فى العصر الصناعى الجديد . وربما كان ذلك بين الأسباب التى دعت « ديزرائيلى » رئيس وزراء بريطانيا فى السبعينات من القرن الماضى إلى شراء حصة الخديوى « اسماعيل » فى شركة قناة السويس . فقد ظهرت فى ذلك الوقت احتمالات لشحن البترول داخل بعض أنواع من البواخر ، تطورت فيما بعد لتصبح الناقلات . وكان وسيط « ديزرائيلى » فى شراء الحصة المصرية فى شركة قناة السويس هو « روتشيلد » صاحب البيت المالى العتيد الذى كانت له مصالح وقتها فى بترول القوقاز ، وكان ذلك فى الواقع دافعه إلى تمويل الصفقة ![٥]

كان البحث المحموم عن البترول قد أسفر فى نهاية القرن الماضى عن وجود ثلاثة مراكز رئيسية لانتاجه هى أمريكا الشمالية ، والقوقاز جنوب روسيا ، وجزر الهند الشرقية ـ اندونيسيا ـ التى كانت مستعمرة هولندية فى ذلك الوقت . وقبل أن تنطوى صفحة القرن التاسع عشر ليطل القرن العشرون ، كانت الشواهد فى الشرق الأوسط ، وبالذات

---

(٥) كتاب « الجائزة » لـ « دانيل ييرجين » ، وهو واحد من أفضل وأكمل المراجع عن بترول الشرق الأوسط ، وقد نشرته دار « سيمون وشوستر » سنة ١٩٩١ .

على شطآن الخليج ، مشجعة . وكانت بريطانيا قد أعدت نفسها فى هذه المنطقة وأمسكت فى حزم بمقاليد الحكم ، ذلك أن مواقع البترول الأمريكية كانت تحت سيطرة الولايات المتحدة ، وهى الدولة التى راح نجمها يعلو فى ذلك الوقت . كما أن القوقاز كان فى ملكية امبراطور روسيا ، ثم إن اندونيسيا كانت فى ملكية هولندا . وبالتالى بدت بريطانيا بعيدة عن المواقع الغالية الصانعة للقوة فى القرن العشرين . ولقد تشجعت الحكومة البريطانية عندما تمكن « روتشيلد » من امتلاك حصة مؤثرة فى شركة « شل » الهولندية التى تملك امتيازات النفط فى اندونيسيا . ثم استغل وضعه فى مجلس إدارة الشركة كأحد ملاكها ، وطالب بنقل حمايتها إلى الأسطول البريطانى قائلا : « إن العلم البريطانى أقوى من العلم الهولندى . وعلى البترول أن يجد لنفسه العلم الذى يحميه » . ومع سعادة الحكومة البريطانية بهذا الترتيب الذى أعطاها نوعا من المشاركة فى بترول اندونيسيا ، فإنها كانت مصرة على أن يكون لها بترولها الخاص الذى تملكه تماما بدون شريك . وزادت أهمية ذلك حينما تحول الأسطول البريطانى من استعمال الفحم إلى استعمال البترول سنة ١٩١٢ قبل الحرب العالمية الأولى بسنتين اثنتين . وكان « ونستون تشرشل » هو وزير البحرية وقتها الذى أشرف على هذا التحول الخطير ، وتسجل وثائق البحرية البريطانية خطابا قصيرا موجها منه إلى قائد الأسطول البريطانى اللورد « فيشر » جاء فيه :(٦)

- **عزيزى فيشر**

ما هو مطلوب من الأسطول الآن ، وفى المدى المنظور هو ضمان وصول البترول إلى بريطانيا العظمى :

- **رخيص فى حالة السلام .**
- **مؤكد فى حالة الحرب .**

(إمضاء)
ونســـــتون

كانت بريطانيا فى ذلك الوقت قد حصلت على بترول إيران (" فارس ") وذلك عن طريق عقد وقعه « ويليام دارسى »(٧) مع واحد من أواخر ملوك أسرة « كاجار » وهو الشاه « اسماعيل » ، وبمقتضاه أنشئت شركة البترول البريطانية ـ الفارسية . وفى اليوم الذى انتهت فيه الحرب العالمية الأولى كان اللورد « ادوارد جراى » وزير الخارجية البريطانية

---

(٦) محفوظات الادميرالية البريطانية ـ الصندوق الخاص بتحويل الأسطول البريطانى من الفحم إلى البترول ، وهو صندوق يحتوى على ١١٧ ملفا من التقارير والمراسلات .

(٧) مغامر وممول بريطانى مولود فى استراليا ، وقد لعب دوراً كبيراً فى عمليات بترول الشرق الاوسط .

يكتب مذكرة لمجلس الوزراء عن السياسة البريطانية بعد الحرب يقول فيها « إن سيادة بريطانيا فى الخليج يجب أن تكون مؤكدة ، فهذه السيادة تساوى تماما قوة الأسطول البريطانى ، وقوة هذا الأسطول تعنى قوة بريطانيا » . وفى أثناء مناقشات مجلس الوزراء بعث « ونستون تشرشل » بمذكرة إلى المجلس يقول فيها « إن حكومة صاحب الجلالة يجب أن تتحسب وهى تفكر فى المستقبل وترتب له ، ذلك أنه قد يجىء يوم تصبح فيه منابع البترول المملوكة لنا ينابيع سخط علينا » . والغريب أن « ونستون تشرشل » كان هو بالضبط وزير المستعمرات الذى أوكلت إليه مهمة رسم الخرائط الجديدة فى المنطقة بما فيها خرائط الاستقلال ، وخرائط التقسيم ، وخرائط الانتداب ، وخرائط الحماية . وكان « تشرشل » فى ذلك الوقت هو صانع العروش فى المنطقة ، وكانت خريطة البترول واحتمالاته مصدر الوحى فيما فعل .

□

كان الاندفاع الأمريكى إلى عصر البترول أسرع . ففى الحقبة الثانية من القرن العشرين ـ على سبيل المثال ـ زاد عدد السيارات فى أمريكا من ١,٨ مليون سيارة سنة ١٩١٤ إلى ٩,٢ مليون سيارة سنة ١٩٢٠ . وبالطبع كانت هذه الحركة واحتمالاتها المتزايدة مع كل يوم تخلق طلبا على البترول يبدو بلا نهاية . وقد عبر الرئيس الأمريكى « وودرو ويلسون » عن ذلك بقوله « إننى أرى أن أمريكا وقعت فى غرام السيارة فى أول لحظة وقعت عينها عليها » ، وكانت الخطوة التالية بضرورات الأمور هى « خروج الولايات المتحدة من حدودها طلبا للبترول » . وفى مؤتمر « سان ريمو » سنة ١٩٢٠ ضغط « وودرو ويلسون » من أجل مشاركة بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية فى بترول العراق الذى جرى وضعه تحت الانتداب البريطانى . ورفضت الحكومة البريطانية هذا الضغط رفضا قاطعا . وتسجل محاضر مؤتمر « سان ريمو » عبارة وردت فى رسالة من الرئيس الأمريكى إلى الحكومة البريطانية يقول فيها « إنكم تريدون ممارسة نوع من الاستعمار أصبح « موضة » قديمة . »

وبدأت الثلاثينات من هذا القرن ، وقد قررت الحكومة الأمريكية أن تعطى نفسها حق المنافسة على بترول الشرق الأوسط . وتمكن المليونير الأمريكى الشهير « ويليام ميللون » من عقد صفقة مع الشيخ « أحمد الجابر الصباح » شيخ الكويت فى ذلك الوقت . كان الشيخ « أحمد » غاضبا على الشركات البريطانية ، لأن الشركات البريطانية عثرت على البترول فى البحرين قبل العثور عليه فى الكويت . وقال الشيخ « أحمد » لرئيس مجلس إدارة شركة شل (طبقا لوثائق هذه الشركة) : « إن ظهور البترول فى البحرين قبل ظهوره فى الكويت طعنة خنجر فى قلبى » . كان الشيخ متلهفا للبترول لأن موارد بلده فى ذلك

الوقت تدنت فجأة بسبب نجاح « ميكى موتو » اليابانى فى التوصل إلى تربية اللؤلؤ صناعيا فى مزارع بحرية خاصة ، وكان صيد اللؤلؤ الطبيعى أيامها أهم مصادر الدخل فى الكويت . وقد حاولت بريطانيا أن تمنع هذه الصفقة بين الشيخ « أحمد » و « ميللون » مالك شركة « جولف » ، ولكن الحكومة البريطانية كانت قد تأخرت ، وكان عليها أن تقنع بنصف بترول الكويت الذى كانت تحسبه ملكا خالصا لها . وقد أبدى المقيم البريطانى فى الكويت وقتها أسفه على ما جرى فى تقرير ختمه بقوله « إن ميللون اغتصب بترول الكويت بوضع اليد » !

وفى سنة ١٩٣٣ سارعت شركة شل البريطانية إلى الاتفاق مع الملك « عبد العزيز آل سعود » قبل أن يصل الأمريكان . وكانت الدفعة الأولى التى تقاضاها الملك هى ٣٠ ألف جنيه استرلينى بصفة قرض ، و ٥ آلاف جنيه استرلينى بصفة حقوق عن السنة الأولى من عقد الامتياز . ولكن احتمالات البترول فى السعودية استعصت على فرق البحث والاستكشاف التابعة لشركة شل . وكان أحد مهندسيها الجيولوجيين ، وهو سويسرى اسمه « كادمان » ، قد كتب تقريرا يقول فيه إنه يشك فى احتمالات وجود أى بترول له قيمة فى السعودية . وبدأت شركة شل تفكر فى الانسحاب من السعودية ، وكتب رئيسها إلى مجلس إدارتها تقريرا يزكى فيه فكرة الانسحاب بناء على ثلاثة أسباب محددة : « إن طلبات الملك المالية كثيرة ـ إن بريطانيا لديها الكثير من بترول الشرق الأوسط على أى حال (فى العراق وإيران) ـ وإن النفوذ السياسى البريطانى فى العالم العربى قادر فى أى وقت على أن يعود ، ويطالب بما يشاء . »

وكانت نذر الحرب العالمية الثانية قد بدأت تلوح فى آفاق العالم مع صعود نجم « هتلر » فى ألمانيا ، وتحالفه مع « موسولينى » .

كانت أهم المعارك والتحركات فى الحرب العالمية الثانية بين الحلفاء والمحور من إملاء البترول ، فهو وحده كان أعظم ماريشالات تلك الحرب ومصممى استراتيجياتها .

إن « هتلر » كسر معاهدة الصداقة وعدم الاعتداء بينه وبين « ستالين » لأنه كان يريد بترول القوقاز . قبلها كان قد دخل رومانيا ، وخاض فى عمق البلقان جريا وراء البترول الرومانى .

ثم إن الجنرال « توجو » رئيس وزراء اليابان فى الحرب بادر إلى مهاجمة الولايات المتحدة فى « بيرل هاربر » ابتداء لشدة حاجة « اليابان » إلى بترول « اندونيسيا » .

ولقد خسر الماريشال « روميل » قائد الفيلق الأفريقى الألمانى ـ كل أفريقيا بسبب

حصار البترول الذى ضرب عليه ، وركز على ناقلاته العابرة إليه (أثناء معركة العلمين) من أوروبا إلى أفريقيا .

كذلك استمات الحلفاء فى الدفاع عن مصر ، وعن قناة السويس لأنه من ورائها يصبح الخليج مفتوحا على الآخر بكل موارده البترولية أمام ألمانيا .

وبعد الحرب العالمية الثانية خرجت الولايات المتحدة من ميادين القتال ، وهى القوة العالمية الأولى باعتبارها صاحبة أكبر نصيب فى جهد الحلفاء لكسب الحرب . ولم يكن الأمر أمر سلاحها المتقدم ، ولا إنتاجها الصناعى الضخم ، ولا أموالها الطائلة فقط ـ ولكن قبل هذا كله كان السبب هو بترولها . كانت الطرق قد انقطعت بين بترول الشرق الأوسط (فى إيران والعراق) وبين ميادين الصراع فى أوروبا ، ولم يكن بترول الخليج قد دخل مجال الانتاج بعد ، وأصبح البترول الأمريكى هو عصب الحرب ووقود آلتها الجبارة . وتظهر حقائق الحرب العالمية الثانية أن المعارك التى دارت فى أوروبا لتحقيق النصر النهائى ضد النازية اعتمدت بحجم ٩١٪ على بترول أمريكى زحفت به الدبابات ، وانطلقت المدافع ، وحلقت الطائرات ، وتحركت الأساطيل . وكان هذا عبئا كبيرا على الموارد الأمريكية التى كانت قبل الحرب متخوفة بالفعل من الضغط الشديد على مخزوناتها وعلى احتياطياتها ، وقد أحست أن ضرورات الاقتصاد والأمن تحتم عليها الآن أن تبدأ زحفا منظما على موارد البترول وراء البحار .

□

كان « هارولد ايكس » وزير الداخلية الأمريكى والمسئول عن شئون البترول ، هو الذى وقف سنة ١٩٤٣ ، والحرب العالمية مازالت دائرة ـ يلفت نظر الرئيس الأمريكى « فرانكلين روزفلت » إلى أن البترول سلعة استراتيجية : « حيوية فى الحرب ، وضرورية فى السلام ، ولازمة للنفوذ العالمى » ـ كما جاء فى نص تقريره لـ « روزفلت » . ثم يضيف « ايكس » إلى ذلك قوله : « الولايات المتحدة مهددة بأن تتحول لمستورد للبترول ، وعليها أن تستعد لهذا الوضع » .

ويروى « هارولد ايكس » فى مذكراته أنه وكبار مستشارى « روزفلت » كانوا يجلسون فى البيت الأبيض ساعات يناقشون عالم ما بعد الحرب . ومضى يقول : « كنا نضع البوصلة على أى موقع فوق مائدة الاجتماع ، وحيثما وضعناها فإن إبرتها كانت تقفز تلقائيا إلى ناحية الشرق الأوسط » .

ومضى « روزفلت » يضغط على « تشرشل » من أجل نصيب أمريكى كبير فى بترول الشرق الأوسط . وكان « تشرشل » يحاول أن يقاوم ، وكانت المقاومة غير مجدية

لأن « روزفلت » كان أيضا مصمما ، وكانت بريطانيا هى الطرف الأضعف . واحتج اللورد « بيفر بروك » وهو وقتها عضو فى وزارة الحرب مع « تشرشل » ، وكتب له مذكرة يقول فيها : « إن حقنا فى بترول الشرق الأوسط هو الشيء الوحيد الذى تبقى لنا كقوة عظمى ، ويجب أن نمنع الولايات المتحدة من الاستيلاء عليه » . ورد عليه « تشرشل » فى مذكرة قصيرة يقول فيها : « إننى أفهمك ، ولكنى أخشى أن عالم ما بعد الحرب قد ينهار إذا دخلناه ونحن فى معركة مع الأمريكان حول البترول » .

ويبعث « روزفلت » بلجنة رئاسية خاصة لزيارة الشرق الأوسط ، وتقوم اللجنة الرئاسية بزيارة إيران والسعودية والكويت والبحرين وقطر ، وتعود لتقدم للرئيس تقريرا يبدأ بالعبارة التالية : « إن بترول الشرق الأوسط هو أعظم كنز تركته الطبيعة للتاريخ ، والتأثير الاقتصادى والسياسى لهذا الكنز سوف يكون فادحاً . ويجلس « جيمس بيرنز » وهو وقتها وزير للخارجية ، يسأل « روزفلت » مباشرة : « سيادة الرئيس ، ما هى الحصة التى ينبغى أن تسيطر عليها الحكومة الأمريكية من بترول الشرق الأوسط ؟ » ويسكت « روزفلت » ويروح يفكر صامتا ، ويطيل التفكير لعدة دقائق طبقا لرواية « جيمس بيرنز » ، وأخيرا يقول موجها كلامه لوزير خارجيته : « جيم ... لا أقل من ١٠٠٪ » . ويسارع « هارولد ايكس » بعدها ويكتب لـ « روزفلت » يقول له« إن الشرق الأوسط مجرة كونية هائلة من حقول البترول لا يعرف أحد لها نظيرا فى الدنيا » . ثم يضيف « إن السعودية هى بمثابة الشمس فى هذه المجرة ، فهى أكبر بئر بترول فى الشرق الأوسط ، والظروف فيها الآن مناسبة ، وملكها ابن سعود يريد شيئين : مالا يصرف منه ، وضمانا يكفل استمرار العرش فى أسرته . ويجب أن تكون الولايات المتحدة هى التى تمنحه المطلبين » .

وتحصل الولايات المتحدة على بترول السعودية بموجب اتفاق مع الملك « عبد العزيز » ، وقعه الملك مع مجموعة « أرامكو » المكونة من أربع شركات هى : « نيوجيرسى » و « سوكونى » و « سوكال » و « تكساكو » بنسبة ٢٥٪ لكل منها ــ ١٠٠٪ لأمريكا . وكان « روزفلت » هو الذى مهد بنفسه للاتفاق مع الملك « عبد العزيز » أثناء اجتماع رتب بينهما على ظهر الطراد الأمريكى « كوينسى » فى مياه البحيرات المرة وسط قناة السويس . وطار « ونستون تشرشل » رئيس وزراء بريطانيا ليلحق بالملك « عبد العزيز » فى مصر لعله يعرقل الاتفاق ، ولحقه فعلا فى الفيوم ، ولم يسمع منه إجابة نافعة . وحين عاد « تشرشل » إلى لندن لامه بعض وزرائه على أنه لم يقدم للملك أثناء لقائه به هدية طبقا لما تقضى به التقاليد العربية فى رأيهم ، فى حين أن الملك قدم له مجموعة من المجوهرات هدية لأسرته . واحتار « تشرشل » ماذا يفعل ، فلم يكن تحت تصرفه فى رئاسة مجلس الوزراء البريطانى أى اعتماد للهدايا ، وكان الحل الذى وجده هو أن يكلف

مكتبه ببيع المجوهرات التى أهداها الملك إليه ، ثم تشترى سيارة من طراز « رولز رويس » بمبلغ ٩٠٠ جنيه استرلينى وترسل هدية منه لملك السعودية .

وعندما بدأت الولايات المتحدة فى مشروع « مارشال » لإعادة الحياة لأوروبا المحررة والمدمرة بعد الحرب ـ كان البترول العربى بالتحديد هو البند الرئيسى فى مشروع « مارشال » ، فقد كان الهدف الاستراتيجى للمشروع أن يتحول اقتصاد أوروبا الجديد من اقتصاد فحم إلى اقتصاد بترول . ويمكن تقدير أثر بترول الشرق الأوسط فى حقيقة أنه فى بداية مشروع « مارشال » سنة ١٩٤٦ ، كانت أوروبا تعتمد على البترول الأمريكى بنسبة ٧٧٪ من احتياجاتها . وبعد خمس سنوات ، أى فى سنة ١٩٥١ ، كانت أوروبا تعتمد على بترول الشرق الأوسط بنسبة ٨٠٪ من استهلاكها .

ثم انتهزت الولايات المتحدة فرصة أزمة إيران (١٩٥١ ـ ١٩٥٣) وتدخلت فيها بتدبير انقلاب ضد الدكتور « محمد مصدق » ، وحققت لنفسها هدف السيطرة على البترول الإيرانى ، وبذلك أحكمت قبضتها على بترول الشرق الأوسط كله من العراق إلى إيران ، ومن الخليج إلى السعودية .

□

وأصبحت الشركات الأمريكية فى المنطقة عمالقة بترول وسياسة فى نفس الوقت . وقد تجلى ذلك فى تشكيل مجالس إداراتها التى عبئت بمجموعات من كبار المسئولين السابقين فى وزارة الدفاع ، وهيئة أركان الحرب المشتركة والمخابرات المركزية ووزارتى الخزانة والطاقة . ذلك بالطبع إلى جانب مجموعات من رجال البترول فى تكساس وأساطين البنوك فى نيويورك .

وهكذا تداخلت السياسة والبترول فى كل عناصر القرار فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وكان حجم هذه الشركات الأمريكية وامكانياتها الاقتصادية والمالية خرافيا . فقد سيطرت على كل عمليات الانتاج والتكرير والنقل والتوزيع ، وأعطت لنفسها مرونة فى التصرف ، فبكل تلك الموارد الاقتصادية تحت أمرتها أصبح فى مقدورها أن تعاقب دولة بتخفيض انتاجها ومن ثم دخلها ، وهى واثقة من أنها تستطيع زيادة الضخ فى بلد آخر ، والمحافظة بالتالى على مستوى أرباحها . وقد كان ذلك هو ما حدث بالضبط أثناء أزمة إيران ، وأدى إلى إفلاسها تمهيدا للانقلاب من الداخل على حكومة « مصدق » تنفيذا للخطة المشهورة باسم « اجاكس » . وقد استطاعت هذه الشركات بفضل هذا النوع من القوة والمرونة أن تحقق لنفسها أرباحا خيالية . فقد كان دخل « أرامكو » على سبيل المثال من

البترول يزيد ثلاث مرات على دخل المملكة السعودية ، وهى المالك الأصلى لهذا البترول . ومثال آخر ، فإن ميزانية شركة البترول الإيرانية البريطانية لسنة ١٩٥٠ أظهرت أن الشركة حققت أرباحا مقدارها ٢٥٠ مليون جنيه استرلينى ، بينما كان النصيب الذى حصلت عليه الحكومة الإيرانية ٩٠ مليون جنيه فقط .

٤

فى الفترة ما بين ١٩٤٨ إلى ١٩٧٢ زاد إنتاج بترول الشرق الأوسط بنسبة ١٥٠٠ فى المائة .

وفى هذه الفترة كانت بعض الدول الأوروبية الكبرى تحاول الإفلات من القبضة الأمريكية القوية فى مجال السيطرة على بترول الشرق الأوسط .

حاولت ايطاليا عن طريق إنشاء مؤسسة « اينى » ، لكن « انريكو ماتيه » رئيس مجلس إدارة « اينى » لقى مصرعه فى حادث طائرة غامض ـ وتعطلت مشروعات ايطاليا .

وحاول الجنرال « شارل ديجول » فى بداية الستينات ، وقال مرة فى اجتماع لمجلس وزرائه : « لا أريد لفرنسا أن تعتمد فى بترولها على بقالين يبيعونه لها . وإذا كان لفرنسا أن تبقى عظيمة كما هى ، فعليها أن تجد لنفسها بترولا يكون تحت سيطرتها الكاملة » .

وجربت الدول المنتجة للبترول ذاتها أن تزيد دورها فى المشاركة فى عمليات البترول ، وكان قائد المحاولة « بيريز ألفونسو » وزير خارجية فنزويلا ، و « عبد الله الطريقى » وزير البترول السعودى . وتقدم « بيريز ألفونسو » بفكرة إنشاء منظمة تنسق جهود الدول المصدرة للبترول . وجرى اجتماع لهذا الغرض فى بغداد يوم ٩ سبتمبر ١٩٦٠ . وبدأت عملية إنشاء مؤسسة « أوبك » . وكان « عبد الله الطريقى » يقول « إن البترول مورد قابل للنفاد ، ودخولنا منه تتبدد ، وفرصة التنمية تضيع . » ـ لكن « أوبك » لم تستطع أن تؤكد نفسها لعدة أسباب ، منها الخلافات بين المنتجين فى أمريكا اللاتينية والمنتجين العرب ، كما أن العلاقات كانت متوترة باستمرار بين « فيصل » ملك السعودية ، و « محمد رضا بهلوى » شاه إيران ، ثم إن الشركات راحت تهدد الطرفين بالبحث والتنقيب فى مواقع أخرى . وقد كانت تلك هى الفترة التى شهدت اكتشاف البترول فى ليبيا والنيجر

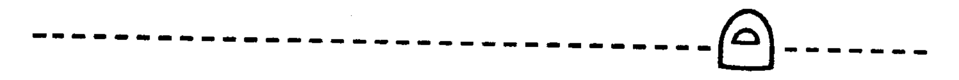
والجزائر . ولم تكن القبضة الأمريكية تخف عن البترول ، وإنما كانت تزداد ، ولم يعد منتجو البترول هم فقط الذين وقعوا فى قبضتها ، وإنما وقع فى قبضتها بعدهم كبار مستهلكى البترول .

● كان استهلاك البترول يتصاعد بطريقة مريعة فى كل مكان فى العالم : فى الولايات المتحدة الأمريكية زاد استهلاك البترول فى الفترة ما بين ١٩٤٨ و ١٩٧٢ ـ ثلاث مرات . فقد ارتفع من ٥,٨ مليون برميل فى اليوم إلى ١٦,٤ مليون برميل فى اليوم .

● وفى نفس الفترة زاد استهلاك البترول فى أوروبا الغربية ١٥ مرة . فقد ارتفع من ٩٧٠ ألف برميل يوميا إلى ١٤,١ مليون برميل يوميا .

● وفى نفس الفترة فى اليابان زاد استهلاك البترول ١٣٧ مرة . فقد ارتفع من ٣٢ ألف برميل يوميا إلى ٤ ملايين برميل يوميا .

وهكذا فى بداية السبعينات ، فإن البترول ، منتجوه ومستهلكوه على حد سواء ، كانوا بالكامل تحت السيطرة الأمريكية ، فيما عدا بريطانيا التى قنعت فى النهاية بدور الشريك الصغير وراء العملاق الأمريكى الكبير .



وسنة ١٩٧٣ كان الرئيس « أنور السادات » يعد لحرب أكتوبر ، وبين أهم خطط الحرب ـ على الجانب السياسى ـ جرى التفكير فى الدور الذى يمكن أن يؤديه البترول العربى فى المعركة .[٨]

---

(٨) كانت قضية استعمال البترول كسلاح فى معركة أكتوبر ضمن المسئوليات التى عهد بها الرئيس « أنور السادات » إلىّ فى الجانب السياسى من الإعداد للمعركة . وقد استأذنته أن أستعين فى موضوع البحث بوحدة البترول فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى « الأهرام » (وكنت رئيسا لتحريره ومجلس إدارته فى ذلك الوقت) . وكان رئيس وحدة الطاقة فى المركز فى تلك الأيام هو الدكتور « مصطفى خليل » الذى كان نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للمواصلات ثم للصناعة ، ثم ترك الوزارة وقبل مشكورا دعوة منى للانضمام إلى أسرة « الأهرام » . وقد التقيت مع الدكتور « مصطفى خليل » صباح يوم ٢٨ أغسطس ١٩٧٣ ، وناقشنا احتمالات استعمال البترول فى أى معركة مقبلة مناقشة معمقة وتفصيلية . وكان الدكتور « مصطفى خليل » هو الذى أعد تصورا كاملا لمواجهة هذه الاحتمالات ، قدمته إلى الرئيس « السادات » يوم ٣٠ سبتمبر . وكان التقرير من ست صفحات .

وكان الرئيس « السادات » يعتقد دواما بقدرته على إقناع الملك « فيصل » بأهمية قيام البترول العربى بدور فى معركة العرب ، لكن الملك « فيصل » لم يكن مقتنعا فى البداية بأن للبترول دورا . كان رأيه أن البترول مورد لدخل ، وليس سلاحا لحرب . وفى الشهور الأولى من سنة ١٩٧٣ كان الرئيس « السادات » يواصل محاولته ، وكان الملك ما زال عند موقفه . وفى مايو من تلك السنة وقعت مفاجأة ، فقد أعلن الرئيس « نيكسون » تخفيض قيمة الدولار بنسبة ١٥٪ ، فى الوقت الذى كانت فيه الولايات المتحدة الأمريكية تضغط فى اتجاه زيادة الانتاج فى السعودية (وبالفعل زاد انتاج البترول فى المملكة من يوليو ١٩٧٢ إلى يوليو ١٩٧٣ ، من ٥,٤ مليون برميل يوميا إلى ٨,٤ مليون برميل يوميا) ـ وكانت الولايات المتحدة تدفع بالدولار طبعا .

كان الملك « فيصل » يشعر بالضيق من تخفيض الدولار الذى كان يحتوى كل دخل السعودية ، كما يحتوى كل فوائضها . وكان تعليقه فى هذه الفترة أمام رؤساء مجالس إدارة شركات « ارامكو » : « ما فائدة أن ننتج أكثر ، وأن نبيع أكثر ، وأن نقبض أوراقا يمكن تخفيض قيمتها فجأة بقرار لا يؤخذ رأينا فيه ؟ » وبدأ الملك يصبح أكثر استعدادا لسماع إلحاح الرئيس « السادات » عليه .

وفى مايو ١٩٧٣ اجتمع الملك « فيصل » فى جنيف التى توقف فيها ضمن رحلة رسمية قام بها إلى فرنسا ـ برؤساء مجالس إدارة شركات « ارامكو » ، وبدأ لأول مرة يلمح أمامهم إلى الارتباط ما بين البترول ، وما بين أزمة الشرق الأوسط . وقد بدأ حديثه معهم بقوله : « نعم .. نحن أصدقاء الولايات المتحدة ، ولكن من المهم أن تثبت لنا الولايات المتحدة بدورها وبسياستها معنا أنها حريصة على علاقتها بنا أيضا » . ثم استطرد الملك يقول : « قبل مجيئى إلى جنيف مررت بالقاهرة ، ولقيت الرئيس « السادات » وكان محبطا جدا من الانحياز الأمريكى لإسرائيل ، والسعودية لا تريد أن تنعزل عن الموقف العربى العام ، ولذلك فأنا أرجوكم أن تساعدونى بما لكم من نفوذ فى البيت الأبيض وفى الكونجرس » .

وبالفعل فإن شركات « ارامكو » بدأت القيام بحملة منظمة عن طريق الصحافة ، وعن طريق الاتصالات المباشرة بالبيت الأبيض . وتضايق « هنرى كيسنجر » الذى كان على وشك أن ينتقل من البيت الأبيض كمستشار للأمن القومى للرئيس ، إلى منصب وزير الخارجية ـ وقام بدعوة عدد من رؤساء مجالس إدارة شركات البترول الكبرى ، وطلب إليهم تهدئة أعصابهم لأن الطريقة التى يتصرفون بها لا موجب لها من الحقائق السياسية .

□

ويوم ٢٣ أغسطس ١٩٧٣ كان الرئيس « السادات » فى زيارة للسعودية ، وهناك قال للملك « فيصل » : « إنه يريد أن يشهده على أنه حاول كل ما فى وسعه مع الولايات المتحدة من أجل حل سلمى ، ولم تجد جهوده صدى ، وأنه الآن لا يجد أمامه مخرجا غير القتال » . ثم تطرق الرئيس « السادات » إلى موضوع الدور الذى يمكن أن يقوم به البترول فى المعركة . وكان الملك « فيصل » يبدو لأول مرة مترددا كأنه يزن الأمور فى فكره قبل أن يحدد موقفه . وكان رأيه فى النهاية يرتكز على نقطتين :

« ● إن أمرا من هذا النوع يجب أن يكون سرا لا يعلم به أحد ، فلو تسرب من هذا الأمر شيء لفسد بسبب ضياع عنصر المفاجأة من ناحية ، وبسبب الضغوط التى يمكن أن يتعرض لها قبل الأوان من ناحية أخرى .

● وكان الشرط الثانى للملك أن تكون هناك معركة جدية تستغرق وقتا كافيا ، لأن استخدام البترول فى المعركة يحتاج إلى أيام قبل أن يوضع موضع التنفيذ . فلو كانت المعركة القادمة مسألة أيام قليلة ، فإن الأمور قد تحسم قبل أن تتاح الفرصة لسلاح البترول يؤدى دوره . »

ثم كان السؤال الثانى للملك « فيصل » موجها للرئيس « السادات » :

ـ « هل لديكم أفكار عن الطريقة التى يمكن بها استخدام البترول كسلاح فى المعركة ؟ »

وكان رد الرئيس « السادات » بأنه « **هذه اللحظة لا يملك اقتراحات محددة ، فهو لا يتجاسر على بحث الموضوع حتى يتأكد من قبول الملك للمبدأ . ثم إنه يشارك الملك فى أن السرية واجبة .** »

□

ويوم ٦ أكتوبر الساعة الثانية بعد الظهر بدأت المعركة . وفى ساعات قليلة كان الجيش المصرى قد تمكن من عبور قناة السويس ، كما أن الجيش السورى كان قد تمكن من اقتحام المواقع الإسرائيلية زاحفا على هضبة الجولان ومهددا باختراق الجبهة كلها نازلا إلى سهول الجليل الأعلى . واحتدمت المعارك وانقلبت الموازين فى المنطقة ، وبين يوم وليلة أصبح الرأى العام العربى قوة ضغط هائلة تلح على دخول البترول فى المعركة . وبعث الرئيس « السادات » يوم ١١ أكتوبر برسالة إلى الملك « فيصل » من بضع كلمات تقول « **أنجز حر ما وعد** » . وبعث الملك « فيصل » فى نفس اليوم برسالة للرئيس الأمريكى « نيكسون » يلفت نظره إلى خطورة الموقف وإلى تزايد الضغوط الشعبية فى العالم العربى عليه . وعاد الرئيس « السادات » يتصل بالملك « فيصل » الذى رد عليه

برسالة يقول فيها « إنه فى انتظار رد من الرئيس « نيكسون » ، وبعد وصول هذا الرد سوف يكون مستعدا للتصرف على النحو الملائم . »

وتصادف فى ذلك الوقت أن كان هناك اجتماع مشترك يضم أعضاء « الأوبك » مع رؤساء مجالس إدارات شركات البترول الكبرى فى العالم . وكانت الضغوط المتصاعدة فى الشرق الأوسط محسوسة بدرجة مؤثرة فى فيينا حيث انعقد الاجتماع المشترك بين « الأوبك » والشركات .

وبدأ وزراء « الأوبك » ينتهزون الفرصة لطلب زيادة الأسعار ، وفى مناخ العصبية والتوتر عرضت الشركات أن تدفع ١٥٪ أكثر من سعر كل برميل ، متصورة بذلك أنها تعوض نسبة تخفيض الدولار . ورفض وزراء « الأوبك » ، وكان تعليق الوزير الإيرانى « اموزيجار » ساخرا حين نظر إلى ممثلى الشركات على الناحية الأخرى من المائدة وقال : « إن ما تقولونه يدعو إلى الضحك ، ولو أنكم قلتم بزيادة ١٠٠٪ لجاز لنا أن نفكر » !! ـ وانتهى الاجتماع بالفشل يوم ١٤ أكتوبر ، وأعلن وزراء « الأوبك » أنهم عائدون إلى الاجتماع فى الكويت يوم ١٧ أكتوبر لكى يبحثوا عواقب الوضع الخطير فى الشرق الأوسط على عملية البترول كلها .[٩]

وفى نفس هذا اليوم المحدد ـ ١٧ أكتوبر ـ دعا الرئيس « نيكسون » أربعة من وزراء الخارجية العرب يتقدمهم السيد « عمر السقاف » وزير الخارجية السعودى بالنيابة ، وأبلغهم أنه كلف « هنرى كيسنجر » بأن يتولى حل الموقف الناشىء عن الحرب ، وعن أزمة الشرق الأوسط كلها . وأحس « نيكسون » أن الوزراء العرب فى دهشة من اختياره ، فاستدرك يقول لهم : « قد يخطر على بال البعض منكم أن « هنرى » يهودى ، وذلك صحيح ، ولكن تذكروا أنه أمريكى أولا ، وسوف يتصرف فى الأزمة وفق تعليماتى . » ـ وكان « نيكسون » واهما لأن فضيحة « ووترجيت » كانت تقترب منه فى ذلك الوقت ، وتؤثر على سلطاته بما فيها تعليماته .

واجتمع وزراء « الأوبك » فى الكويت يوم ١٧ أكتوبر (نفس اليوم) وكان قرارهم بشأن الدور الذى يمكن للبترول العربى أن يؤديه فى المعركة هو خفض إنتاجه بنسبة ٥٪ كل شهر على أساس معدلات شهر سبتمبر ـ ابتداء من ٥ سبتمبر . ثم أن يطبق حظر

---

(٩) فى يوم ١٦ أكتوبر ، استدعى الرئيس « السادات » لمقابلته المهندس « سيد مرعى » وسلمه التقرير الذى أعده الدكتور « مصطفى خليل » فى إطار عمله فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بـ « الأهرام » ، وكلفه بأن يحمله للملك « فيصل » فى الرياض لكى تكون أية أفكار فيه تحت تصرفه قبل موعد اجتماع وزراء بترول « الأوبك » .

بترولى على بعض الدول ، وبالتحديد على الولايات المتحدة وهولندا . وكان القرار صدمة . وكانت الصدمة أشد ما تكون وطأة على « هنرى كيسنجر » بالذات الذى كان رأيه أن الإجراء العربى ابتزاز سياسى للولايات المتحدة يصل لدرجة الحرب ، وأن النظام العالمى مهدد بالانهيار .

كان الرأى العام الأمريكى يعيش حتى تلك اللحظة مع حلم أو ظن أن السيطرة الأمريكية على موارد البترول كاملة ، وكانت اليقظة على قرار يفرض حظرا كاملا على تصدير البترول العربى إلى أمريكا . وفى يوم ٢١ أكتوبر اجتمع السيد « زكى اليمانى » وزير البترول السعودى مع « فرانك يونجرز » رئيس مجلس إدارة « ارامكو » ، وخطر لـ « اليمانى » أن يسأله « هل أنت مندهش من قرار الحظر ؟ » وكان رد « يونجرز » : « إننى مذهول » . وكان ذلك الذهول ظاهرة عامة على مستوى العالم ، فقد اختفت من السوق على الفور خمسة ملايين برميل من البترول يوميا . وبدأت دول مثل اليابان تهدد بالخروج من التنظيم الدولى لموارد البترول الذى تسيطر عليه الولايات المتحدة . وقال « تاكيو ميكى » نائب رئيس وزراء اليابان وقتها ورئيس الوزراء فيما بعد : « لقد ثبت لدينا الآن أن الحصول على البترول لم يعد مسألة مال ، ولكن مسألة سياسة ، ولابد لليابان أن تؤقلم نفسها على الوضع الجديد » . ثم حمل « تاكيو ميكى » حقائبه فى رحلة للشرق الأوسط بادئا بزيارة مصر شارحا سياسة اليابان الودية تجاه القضايا العربية . وفى باريس كان الرئيس « جورج بومبيدو » يقول لـ « هنرى كيسنجر » : « كفوا عن التلاعب بنا . فأنتم تستوردون ١٠٪ فقط من استهلاككم من مصادر عربية ، وأما فرنسا فإنها تعتمد على البترول العربى بنسبة مائة فى المائة » . وكان « هنرى كيسنجر » فى حالة هياج وغضب وتصميم .

□

ومع تطورات الموقف فى الشرق الأوسط حتى وقف إطلاق النار يوم ٢٠ أكتوبر ، فإن الرئيس الأمريكى « ريتشارد نيكسون » كان لا يزال عند تكليفه لـ « هنرى كيسنجر » بعلاج الأزمة . وجاء « هنرى كيسنجر » إلى القاهرة ، والتقى بالرئيس « السادات » فى قصر « الطاهرة » يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣ . كان الاجتماع بين الاثنين قد بدأ أولا على مستوى وفدين من البلدين ، مصر والولايات المتحدة ، ثم طلب الرئيس « السادات » أن يقتصر الاجتماع عليه و « هنرى كيسنجر » وحدهما . وفى هذا الاجتماع المغلق حدث مشهد من أكثر المشاهد أهمية وخطورة فى التاريخ العربى الحديث . فقد قال الرئيس « السادات » لـ « هنرى كيسنجر » بعد أن أصبحا وحدهما ما مؤداه « **إننى مندهش من المسائل التى بدأت فى إثارتها فى الاجتماع الموسع . فأنت شغلت نفسك بمسائل من نوع فك الاشتباك وخطوط وقف إطلاق النار وغير ذلك من التفاصيل ، وأنا لا أريد أن أناقش الأمور بهذا**

المستوى . إننى أعرض اتفاقا تاريخيا بين مصر والولايات المتحدة ، فأنا على استعداد لإجراء تغيير كامل فى السياسة المصرية فى مقابل حل شامل لأزمة الشرق الأوسط . إنكم تظنون أنى أحب السوفيت . وقد أرسلت إليكم رسالة عندما قمت بطرد خبرائهم فى العام الماضى معناها أننى أكرههم أكثر منكم ، ولكنكم لم تفهموا الإشارة ، ولم تردوا علىّ ، ووصلت الأمور إلى ما وصلت إليه يوم ٦ أكتوبر . » وسأله « كيسنجر » مستوضحا ما يعنى ؟ ورد الرئيس « السادات » : « **إنى أعنى ما قلت لك تماما ، فأنا على استعداد لتغيير توجهات السياسة المصرية ١٨٠ درجة .[١٠] إذا كنت أنت لا تريد الروس فى المنطقة ، فأنا لا أريدهم أكثر منك ، وإذا كنت تريد إخراجهم ، فأنا أستطيع تحقيق هذا الهدف أحسن منك .. وسوف أخرجهم من المنطقة عرايا كما ولدتهم أمهاتهم . »**

وسكت الرئيس « السادات » منتظرا تأثير ما قاله على « هنرى كيسنجر » . كان هو يبتسم ، وكان « هنرى كيسنجر » مقطب الملامح يفكر فيما سمع .

ثم كانت مفاجأة الرئيس « السادات » شديدة حينما قال له « هنرى كيسنجر » : « سيادة الرئيس ، إننى لا أستطيع أن أفكر فى سياسة مشتركة بعيدة المدى مهما بدت مغرية لنا بينما سيف حظر بترولى معلق فوق رؤوسنا » . ثم مضى « هنرى كيسنجر » يشرح « **مدى الضرر البالغ الذى أحدثه فرض حظر على تصدير البترول العربى إلى الولايات المتحدة على هيبة هذا البلد الكبير أولا ، وعلى مصالحه الاقتصادية ، وعلى دوره القائد فى الاقتصاد العالمى** » .

وبدأ « هنرى كيسنجر » يتحرك لإظهار بوادر توحى بأنه بدأ العمل فعلا لإيجاد حل لأزمة الشرق الأوسط ، ولكن مراسلاته السرية فى ذلك الوقت كانت توضح أكثر من أى شىء آخر أن موضوع الحظر البترولى العربى هو أكثر ما يشغله .

وفى يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٧٣ بعث « هنرى كيسنجر » بخطاب سرى للرئيس « السادات » ، قال فيه بالحرف الواحد :[١١]

---

(١٠) مقابلة مع الرئيس « السادات » فى قصر « الطاهرة » يوم ٩ نوفمبر ١٩٧٣ ـ ولم يستفض الرئيس « السادات » فى حديثه معى عن التغيير الكامل الذى عرضه على « هنرى كيسنجر » ، وفيما بعد عرفت التفاصيل .

(١١) ملف عن مراسلات الرئيس « السادات » مع الرئيس الأمريكى « ريتشارد نيكسون » سنة ١٩٧٣ ، وقد أعده السيد « حافظ اسماعيل » مستشار الأمن القومى للرئيس « السادات » فى ذلك الوقت .

● **عزيزى السيد الرئيس**

إننى أريد أن أضيف ملحقا صغيرا إلى ما سوف يقوله لك الرئيس نيكسون فى خطاب يصلك اليوم ٢٨ ديسمبر . إنك تتذكر أننا فى اجتماعنا الأخير ناقشنا كل جوانب الموقف ، بما فى ذلك ضرورة رفع الحظر البترولى على الولايات المتحدة . وحينما تحدثنا فى هذا الشأن فإننى منعت نفسى من أن أسألكم مباشرة ، وبشكل قاطع أن تقوموا بالعمل على رفع الحظر . وقد فضلت أن أبدأ أولاً بمناقشة تفاصيل مسألة فك الاشتباك بين مصر وإسرائيل ، ولقد فعلت ذلك الآن أثناء زيارتى للقدس ، وسوف أقابل ديان فى الأسبوع القادم لمزيد من المناقشات حول هذا الموضوع . ولهذا فأنا أسمح لنفسى أن أعود الآن لأناقش معك موضوع البترول . ●

ثم واصل « كيسنجر » خطابه للرئيس « السادات » فقال :

● **إننى أريد أن أقول لك بمنتهى الصراحة إن استمرار الحظر على الولايات المتحدة يدعونى للتساؤل عما إذا كان فى استطاعتى أن أقوم بالدور الذى يمكن أن أقوم به فى المسائل التى ناقشناها أنت وأنا باستفاضة . إن الشعب الأمريكى ، وهو على حق فى تقديرى ، لن يقبل تأييد سياسة أمريكية جديدة إذا كان يجد نفسه محلا لمعاملة تميز ضده فى موضوع البترول . إن السياسة الأمريكية كما ترون نشيطة ، ولكنها لا تستطيع أن تستمر فى نشاط إذا استمر الحظر والقيود على إنتاج البترول كما هو الآن ولم يرفع فورا . ●**

ثم خلص « هنرى كيسنجر » فى ختام رسالته :

● **إننى أعتقد أنه فى مصلحتنا المشتركة أن نبدأ سويا السير على الخط السياسى الجديد الذى ناقشناه معا فى اجتماعنا . وأنا على استعداد لذلك ، ولكنى لا أستطيع طالما أن الحظر قائم يمس بالمصالح الجوهرية للسياسة الأمريكية وبهيبة الرئيس نيكسون . ●**

وفى نفس اليوم وصل خطاب الرئيس « نيكسون » الذى أشار إليه « كيسنجر » فى رسالته ، وكانت أهم فقرة فيه موجهة إلى الرئيس « السادات » تقول : « **إننى مقتنع بأن الولايات المتحدة الأمريكية تستطيع أن تقوم بدور نشيط فى المفاوضات لإيجاد حل ، ولكنها لكى تفعل فإنه من المحتم أن يوضع حد على الفور للحظر البترولى ضد الولايات المتحدة . إننا على استعداد لأداء دورنا ، ولكننا لن نقوم بهذا الدور تحت ضغط من أى نوع . إننى أريد أن أقول لك يا عزيزى الرئيس إنه ما لم يرفع الحظر ، وما لم ترفع**

القيود الموضوعة على إنتاج البترول ، فلن يكون فى وسعى عمل شىء » . ثم يضيف « نيكسون » فى رسالته قوله : « إننى سوف أكتب اليوم للملك فيصل فى نفس المعنى ، وأنا أعرف أنكما أنت والملك فيصل كنتما على اتصال بشأن موضوع الحظر ، وأعتقد أنه من صالح الجميع أن ينتهى هذا الأمر فورا .

(إمضاء)
ريتشارد نيكسون »

ورد الرئيس « السادات » على رسالة « هنرى كيسنجر » بخطاب حوى ثمانى نقاط كانت أهمها النقطتين الثالثة والرابعة . ففى النقطة الثالثة قال الرئيس « السادات » بالحرف : **« بالنسبة لمشكلة الطاقة ، فقد شرحت الموقف كاملا للدول المنتجة للبترول ، وبينت أن انتهاج الولايات المتحدة الأمريكية لسياسة أكثر إيجابية بالنسبة للعرب يجب أن تقابله خطوات إيجابية من العرب ، وقد قابل هذا الأمر تفهما كاملا من جانب الملك فيصل ، وكذلك بومدين ، إلا أن بعض الأصدقاء المخلصين من دول الخليج مع موافقتهم من حيث المبدأ إلا أنهم طلبوا أن يقترن ذلك باتفاق لفك الارتباط على الجبهة السورية . »**

وفى البند الرابع قال الرئيس « السادات » بالحرف فى رسالته : « **إننى أشعر أن موضوع الطاقة يسير نحو الحل . وأعتقد أن استكمال محادثاتك فى سوريا وسرعة المحادثات الخاصة بفك الاشتباك على الجبهة السورية سينجز سريعا ما اتفقنا عليه .** »

وتلقى الرئيس « السادات » بعد ذلك ردا من الرئيس « نيكسون » جاء فيه :

- **إن الوزير كيسنجر شرح لى مدى أهمية أن أستمر فى جهودى للحصول على تأييد الكونجرس ، والشعب الأمريكى للسياسة التى أنتهجها ، ولكننى أعتقد مخلصا أنه ما لم يرفع حظر البترول ، فإننى لا أستطيع أن أفى بما وعدت به . إننى أقدر تأييدك لما نطلب ، ولقد لفتت وزارة الخارجية نظرى إلى تصريحات مهمة أدليتم بها . لكنه طالما بقى الحظر قائما فإننى سأظل مكتوف اليدين .**

ثم يستطرد « نيكسون » ليقول فى رسالته :

إننى قلق من التقارير التى تقول إن بعض دول الخليج تريد إبقاء الحظر علينا حتى يتم التوصل إلى اتفاقية لفك الاشتباك على الجبهة السورية . ومن جانبى لست أرى مبررا لهذا الربط ، ولا أظننى أستطيع أن أسير على طريق الحل أكثر بينما هناك حظر على تصدير البترول للولايات المتحدة .

ورد الرئيس « السادات » على الرئيس « نيكسون » فى ٢٧ يناير ١٩٧٤ **يقول له :**

إننى أريدك أن تعرف أنى بذلت كل جهد فى استطاعتى لرفع هذا التمييز ضد

الولايات المتحدة . وقد اتصلت بالملك فيصل ، كما اتصلت بالبحرين وأبو ظبى وقطر وكلهم وافقوا ، وكذلك وافقت الكويت ، وإن كانوا يأملون أن تتمكنوا أثناء حديثكم المنتظر إلى الكونجرس من الإشارة إلى أن الولايات المتحدة ملتزمة بالتطبيق الكامل لقرار مجلس الأمن ٢٤٢ ، وهم فى الكويت يريدون ذلك لأن هناك جالية كبيرة من الفلسطينيين تعيش فى الكويت .

ثم يصل الرئيس « السادات » فى نهاية خطابه ليقول :

إننى سوف أبعث بمسئول خاص إلى الجزائر ، ولا أتوقع أن يقفوا فى طريق رفع الحظر ، وأتمنى أن تتمكنوا من إعلان رفع الحظر فى خطابكم السنوى المنتظر . وأثق أن وزراء البترول العرب الذين سوف يجتمعون فى طرابلس يوم ١٤ فبراير سوف يعطون التأييد الرسمى لقرار رفع الحظر ، وسوف يكون وزير البترول المصرى ، هو المتقدم بمشروع الاقتراح رسميا فى هذا الاجتماع . ●

واتخذ قرار رفع الحظر عن الولايات المتحدة ، وإن كان الملك « فيصل » اشترط لتغطية موقفه أن يقول له الرئيس « السادات » فى خطاب رسمى أنه تقدم بنفسه بطلب رفع الحظر « لصالح المعركة » كما طلب منه فرض الحظر قبلها « لصالح المعركة » . وتلقى الملك « فيصل » بالفعل هذا الخطاب موقعا من الرئيس « السادات » فيما كان الرئيس « الأسد » يبدى احتجاجه وخوفه من أن رفع الحظر سوف ينهى كل احتمالات الضغط العربى على الولايات المتحدة الأمريكية .

□

ومع ذلك فإن « هنرى كيسنجر » كان لا يزال غاضبا .

كان همه فى تلك اللحظات قبل أى هم آخر أن يأخذ سلاح البترول من العرب نهائيا ، فقد دعا إلى اجتماع خاص للدول الصناعية الكبرى فى باريس ، وهى الدول التى تعرف الآن بمجموعة الدول السبعة ، لبحث وضع ترتيبات جديدة لقضية الطاقة .

ووقف وزير الخارجية الفرنسى « ميشيل جوبير » يقول :

ـ « ليس من صالح مؤتمرنا أن يبدو مؤتمرا للمواجهة مع الدول المنتجة للبترول » .

ولم يكن ذلك على هوى « هنرى كيسنجر » الذى وقف فى اجتماع يوم ١١ فبراير ١٩٧٤ ليقول :

ـ « إن سلفى العظيم « دين آتشيسون » (وزير خارجية الرئيس « ترومان ») قال ذات مرة إن الكوارث تأتى من قبول حلول وسط إزاء مشاكل كبيرة ومعقدة . إن الدول

المجتمعة فى هذه القاعة تواجه الآن تحديا غير مسبوق لرخائها ولكل بناء التعاون الدولى الذى كافحت لإقامته طوال حقب مضت . لقد واجهنا أثناء الأزمة الأخيرة فى الشرق الأوسط أزمة طاقة أثرت على العالم كله ، وطرحت أسئلة عن المستقبل لابد من التصدى لها . إن احتمالات التنمية وآمال الرخاء ، والاستقرار الضرورى لهذه الاحتمالات والآمال يقتضى سياسة حازمة .

إن الأزمة كانت على ثلاثة مستويات : الحظر - تخفيض الانتاج - التلاعب فى الأسعار .

ولابد من معالجة عند الأساس لكل مستوى من هذه المستويات . »

الفصل الثالث

عوالم الوهم

« حسنا يا حبيبتى ... أغلقى عينيك وفكرى فى انجلترا » .

[عبارة من مسرحية تحت هذا الاسم عرضت فى لندن فى أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات] .

١

عندما نزل الستار على حرب أكتوبر وبدأت الخطوات الأولى لتفريغ التوتر فى المنطقة بواسطة اتفاقيات فك الاشتباك ـ كانت القواعد المستقرة فى العالم قد اهتزت بطريقة عميقة ، وكان الذى أحدث هذه الهزة هو أزمة الطاقة التى برزت على حافة المعركة ، ثم تحولت بسرعة لتصبح هى كل المعركة . وكان « هنرى كيسنجر » مرة أخرى هو صاحب أدق وصف للتحول الجديد . ففى يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧٤ وقف « كيسنجر » فى جامعة شيكاجو يرسم ملامح صورة العالم المتغيرة ، فقال :[١]

---

(١) مجموعة أوراق لوزارة الخارجية الأمريكية عن أزمة الطاقة نشرت سنة ١٩٨١ .

« قبل ربع قرن من الزمان واجه العالم الغربى أزمة تاريخية ، وذلك عندما انهار النظام القديم نتيجة للحرب العالمية الثانية ، وأصبح عالم ما بعد الحرب مهددا بالضائقة الاقتصادية والقلاقل السياسية ، ولكن دول الغرب واجهت الأزمة بأن بنت لنفسها نظاما للأمن والتعاون يضمن سلامتها ورخاءها . ومنذ ذلك الحين عاش المجتمع الغربى فى نوع من الاستقرار الخلاق . وفى هذه اللحظة ـ ١٩٧٤ ـ وبعد خمس وعشرين سنة ، فإننا نواجه تحديا فى نفس الحجم ، وهو يحتاج منا إلى رؤية ، وإلى شجاعة ، وإلى إرادة . »

ثم أضاف :

« إننى أتكلم بالطبع عن أزمة الطاقة ، وهى أزمة شديدة الخطورة ، ولا بد أن نجد لها حلا . إن الواقع الذى يواجهنا كئيب . فقبل سنة ١٩٧٣ كان الطلب على البترول يتجاوز المعروض منه ، وكانت تلك مشكلة . ولكن المشكلة تحولت إلى أزمة خانقة لأننا فوجئنا ، ومن غير تحذير مسبق ولأول مرة بحظر على البترول يهدف إلى تحقيق أغراض سياسية . ثم تلت ذلك زيادة فى أسعار البترول رفعت تكاليف هذه السلعة الاستراتيجية التى لا غنى للعالم عنها بنسبة ٤٠٠٪ . وكان تأثير ذلك فادحا على كل مجتمعات الغرب وعلى المستوى العالمى . والتحدى الذى يواجهنا هو أن نتصدى لهذا الوضع الطارىء ونعيده إلى نطاق السيطرة . ولابد أن ندرك أننا أمام ضرورة الاختيار وحتمية القرار . »

ولم يكن « كيسنجر » فى هذا الحديث يتحدث عن اختيار أو قرار غربى ، وإنما كان يتحدث عن اختيار وقرار أمريكى بالدرجة الأولى .

كان فى مؤتمر باريس فى فبراير ١٩٧٤ قد حاول الحصول على تأييد أوروبا الغربية واليابان ، وطرح هناك برنامجا من سبع نقاط لمواجهة أزمة الطاقة ، ولكن حلفاء أمريكا فى الغرب ، وبالتحديد أوروبا واليابان ، كان رأيهم مختلفا عن رأيه . فقد أحسوا أن سياساته مؤدية لا محالة إلى مواجهة بين منتجى البترول ومستهلكيه . وكان ذلك رأى الرئيس الفرنسى فى ذلك الوقت « جيسكار ديستان » الذى قال لـ « هنرى كيسنجر » إن « ما تحتاجه الدول المستهلكة للبترول هو نوع من التفاوض والتنسيق مع المنتجين وليست المواجهة » .(٢)

وقد صاغ « جيسكار ديستان » فكرته فى اقتراح عملى تقدم به يقضى بتوجيه الدعوة إلى « مؤتمر دولى للتعاون الاقتصادى » يعقد فى باريس ، ويضم منتجى البترول ومستهلكيه . وكان رد « هنرى كيسنجر » على ذلك الاقتراح أنه سابق لأوانه ، وأن مثل

---

(٢) مذكرة رئاسية رقم ١,٢٤٠ ـ ١٤ ـ ١٢٤٦ مقدمة من « هنرى كيسنجر » إلى الرئيس « ريتشارد نيكسون » .

هذا المؤتمر يمكن أن يكون لاحقا ، وليس سابقا لعملية تصد ناجح للعمل الذى أقدمت عليه الدول العربية حين « أقحمت البترول » ـ على حد تعبيره ـ فى صراعها السياسى مع إسرائيل .

وهكذا افترقت الطرق ولو مؤقتا بين حلفاء الغرب ، وراحت أوروبا تفكر فى حوار عربى ـ أوروبى يكون من شأنه الوصول إلى لغة للحوار والتفاهم بينها وبين العرب .(٣) وأما « هنرى كيسنجر » فقد اختار طريقا آخر أصبح اختيار الولايات المتحدة وقرارها .

كان برنامج النقاط السبع الذى طرحه « كيسنجر » فى باريس يشير إلى رؤوس موضوعات طرحها بالترتيب التالى :

ترشيد استهلاك الطاقة ـ إيجاد مصادر للطاقة بديلة للبترول ـ استثمار ١٢,٥ بليون دولار للبحث والتنقيب على هذه المصادر الجديدة ـ إيجاد تنظيم للمشاركة فى توزيع الطاقة أثناء حالات الطوارىء ـ إنشاء نظام للتعاون المالى فى مواجهة ارتفاع الأسعار ـ إيجاد وسيلة لتخفيف عبء تكاليف الطاقة على الدول الفقيرة ـ إيجاد صيغة للعلاقات بين منتجى البترول ومستهلكيه .

كانت هذه هى النقاط السبع التى طرحها « كيسنجر » علنا فى باريس . وبطبيعة العلنية فيها ، فقد كان لا بد لصياغتها أن تكون بريئة وخيرة ، وأما عندما قرر « كيسنجر » بعد مؤتمر باريس أن التعاون مع أوروبا واليابان لا فائدة منه فى الوقت الحالى على الأقل لأن الآخرين « فقدوا أعصابهم أمام العرب » كما كان يقول ـ فقد وجد مناسبا للولايات المتحدة أن تتصرف وحدها ، وعلى مسئوليتها .

إن مراجعة تطورات الحوادث والتدقيق فى دلالاتها ابتداء من ربيع ١٩٧٣ يظهر أن الولايات المتحدة الأمريكية ، فى مواجهة تحد وصفه « كيسنجر » على أنه مساو لتحدى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ـ اختارت وقررت سياسة مختلفة تشتمل هى الأخرى على سبع نقاط يمكن حصرها على النحو التالى :(٤)

---

(٣) توقف الحوار العربى - الأوروبى فيما بعد حينما اكتشفت أوروبا الغربية أن الموقف العربى الموحد فى مسألة الطاقة كان لحظة عابرة فى تاريخهم .

(٤) يمكن استقراء هذه النقاط السبع من مذكرات « هنرى كيسنجر » الصادرة فى جزءين : أولهما بعنوان « سنوات البيت الأبيض » ، والثانى بعنوان « سنوات القلاقل » .

١ ـ الإمساك بزمام عملية البحث عن حل لأزمة الشرق الأوسط ، وترتيب ذلك على سياسة الخطوة خطوة ، بحيث تتوافق الخطى مع استعادة السيطرة على موارد الطاقة .

٢ـ اعتبار إسرائيل الرادع الأساسى فى الشرق الأوسط ، ورفع درجة العلاقات معها لكى تصبح علاقة استراتيجية ، فإسرائيل هى العنصر الذى أدى بالعرب فى النهاية إلى قبول حل أمريكى للأزمة ، واستمرار إحساس العرب بتهديدها هو الضمان بهرولتهم دائما إلى أبواب البيت الأبيض .

٣ ـ القبول بارتفاع أسعار البترول ، والعمل على امتصاص الفوائض المتولدة من زيادة الأسعار وتدويرها بواسطة البنوك الأمريكية الكبرى ، وتشجيع الأموال الباقية فى يد العرب على أنماط فى الاستهلاك تهدر الثروة ولا تحفظها .

٤ ـ كسر تحالف أكتوبر الذى جمع على غير انتظار بين الجيوش العربية القادرة على القتال ، وبين منابع البترول العربى المعبأة بالذهب الأسود .

٥ ـ استخدام جزء من فوائض الأموال العربية ليكون هو نفسه الاستثمار الذى يوجه لتوفير بدائل للطاقة منافسة للبترول العربى .

٦ ـ العمل على خلق حساسيات بين العرب وبين العالم الثالث وخصوصا أفريقيا ، فقد نجح العرب خلال أزمة أكتوبر فى إقناع معظم الدول الإفريقية بقطع علاقاتها بإسرائيل .

٧ ـ تشجيع الرئيس « السادات » على خطته فى إخراج السوفيت تماما من الشرق الأوسط ، سواء كنفوذ سياسى ، أو كمصدر للسلاح .

[وكان من الملاحظ أن المرة الوحيدة التى عمل فيها الخط الساخن بين البيت الأبيض ، والقصر الجمهورى فى القاهرة (قصر عابدين أيامها رسميا) ـ هى المرة التى جرت سنة ١٩٧٥ حيث أعلن الرئيس « السادات » فى مجلس الشعب المصرى قراره بإسقاط معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتى . فقد دقت أجراس هذا الخط الساخن بعد طول سكون تنبه لوصول رسالة من الرئيس « جيرالد فورد » يقول فيها للرئيس « السادات » : « إننى أبعث إليك بخالص التهنئة على قرارك الحكيم والشجاع اليوم ، ولم أشأ أن أجعل هذه التهنئة علنية خشية إحراجك . وإذا كان رأيك أن مثل هذه التهنئة قد تكون مفيدة لك على وجه من الوجوه ، فإننى على استعداد لإعلان هذه التهنئة فورا فى مؤتمر صحفى فى البيت الأبيض » .(٥)]

---

(٥) مجموعة أوراق الرئيس « جيرالد فورد » ، وقد وُضع جزءٌ منها فى مؤسسة « راند » فى كاليفورنيا ، وسمح بالاطلاع عليها لبعض الباحثين فى أزمة الشرق الأوسط وتطوراتها .

٣

وكان العالم العربى غافلا تماما عن متابعة ما يجرى فى خفاء اختيارات الآخرين وقراراتهم ، فقد انشغل بالكامل بالثروة التى هبطت عليه من السماء فى حقبة من الأوهام استغرقته بالكامل من ١٩٧٤ إلى ١٩٨٠ .

كان الثراء من نوع فادح ومفاجىء لم يصل إليه من قبل حلم ولا خيال :

● سنة ١٩٧٠ كان دخل الإمارات العربية المتحدة من البترول ٢٣٠ مليون دولار ، وفى سنة ١٩٨٠ كان قد وصل إلى ١٩ بليون دولار .

● وسنة ١٩٧٠ كان دخل ليبيا من البترول مليونا و ٣٠٠ ألف دولار ، وفى سنة ١٩٨٠ كان قد وصل إلى ٢١ بليون دولار .

● وسنة ١٩٧٠ كان دخل قطر من البترول ١٢٠ مليون دولار ، وفى سنة ١٩٨٠ كان قد وصل إلى ٥ بلايين و ٣٠٠٠٠٠ دولار .

● وسنة ١٩٧٠ كان دخل الجزائر من البترول ٢٧٢ مليون دولار ، وفى سنة ١٩٨٠ كان قد وصل إلى ١٠,٥ بليون دولار .

● وسنة ١٩٧٠ كان دخل الكويت من البترول ٢٢١ مليون دولار ، وفى سنة ١٩٨٠ كان قد وصل إلى ٢٢ بليون دولار .

● وسنة ١٩٧٠ كان دخل العراق من البترول بليونا و ٢٣٠ مليون دولار ، وفى سنة ١٩٨٠ كان قد وصل إلى ٢٥ بليون دولار .

● وسنة ١٩٧٠ كان دخل السعودية من البترول ١,٢ بليون دولار ، وفى سنة ١٩٨٠ كان قد وصل إلى ١٠٢ بليون دولار .

وكان معنى ذلك أن العالم العربى اقترب من سنة ١٩٨٠ وهو يملك دخلا من البترول يزيد على ٢٠٠ بليون دولار . ولم يكن هذا ثراء فادحا بالمقارنة إلى دنيا الأغنياء بين الدول ، فهو أقل من الدخل السنوى لبلد أوروبى متوسط مثل أسبانيا . وإنما كان العنصر الفادح فى الثراء العربى يتمثل فى اعتبارين :

□ **أولهما** : اعتبار المفاجأة على غير انتظار .

□ **والثانى** : اعتبار أن هذا الثراء كله جاء مالا سائلا يستطيع أصحابه أن ينفقوه على الفور .

وكانت دول الخليج تلف حول نفسها من دوار مفاجآت دهمتها بالحظ على غير انتظار .

لقد حدث الانتقال من الشيخ والقبيلة ، إلى المقيم البريطانى والشركة ، إلى برميل البترول ورصيد البنك ، إلى الدولة والثروة ـ كله فى ظرف حقبة واحدة من الزمن لم تترك لأصحابها فرصة يهضمون فيها ما نزل عليهم سيلا من السماء ، أو تفجر تحتهم عيونا من الأرض ، ثم يعطون الغنى فرصة ينتقل بها خطوة إلى درجة من التحضر تمنح المال شيئا من القيمة والاحترام يتعدى مجرد الحسابات والأرقام !

ولم تكن المجتمعات العربية جاهزة للتعامل مع هذا النوع من المال الذى حل فجأة . فبريطانيا تركت امتياز السعودية لأن الملك « عبد العزيز » كان يلح فى طلب مائة ألف جنيه استرلينى ، ولو بصفة قرض سنة ١٩٣٧ . وشيخ الكويت اعتبر نفسه سعيدا لأنه حصل من الشركات البريطانية والأمريكية على ٣٧ ألف جنيه استرلينى دفعة مقدمة . والشيخ « شخبوط » حاكم أبو ظبى (قبل الشيخ « زايد » مباشرة) لم يعرف كيف يتصرف فى أول مليون جنيه استرلينى وصل إلى يده سنة ١٩٦٦ ، ولقد فضل الشيخ « شخبوط » أن يحتفظ بالمبلغ أوراقا نقدية فى بيته ، ثم اكتشف أن الفئران تعطى نفسها حرية القرض فيها . وحاول مدير فرع البنك البريطانى للشرق الأوسط فى أبو ظبى إقناع الحاكم بأن من الأفضل له إيداع أمواله فى البنك ، لكن الشيخ لم يكن مطمئنا إلى كل « اختراع » البنوك ، وبعد جهد جهيد أبدى الشيخ « شخبوط » اقتناعه ، فذهب بنفسه ، فى الصباح ، وأودع ما لديه فى البنك ، ولكنه حين علم أن البنك سيغلق أبوابه بعد الظهر سارع إلى البنك مرة أخرى وسحب وديعته قبل موعد الإغلاق .

ولقد انتهى أمر الشيخ « شخبوط » بعزله . فقد كان رأى البريطانيين ، وهم وقتها أصحاب الكلمة العليا فى الخليج ، أن المال يجىء لكى يتحرك ، وليس لكى يحبس فى بيوت الحكام أو قصورهم . وبالفعل فقد جاءت أجيال راحت تصرف وتحول الصرف إلى هدف فى حد ذاته عندما فاضت الثروة على غير انتظار وبغير حساب .

☐

إن معظم العرب لم يتنبهوا فى ذلك الوقت إلى ما تدبره لهم الاختيارات والقرارات السياسية للدول الغالبة ، وفى نفس الوقت فإنهم لم يتنبهوا إلى ما تدبره نفس الاختيارات والقرارات لثرواتهم المفاجئة . فقد راحت أسواق بيع السلاح تعرض نفسها عليهم ، وكان السلاح مغريا بالأمن ، وأقبلوا على شرائه ناسين أن مخازن السلاح مهما حوت من منجزات التكنولوجيا لا تستطيع توفير الأمن .

وكانت مغانى أوروبا تعرض نفسها عليهم بكل ما فيها من مظاهر الرفاهية والغواية ، وأغرقوا أنفسهم فى سهرة طويلة تأخر فيها طلوع الفجر سنوات بأكملها .

وحتى عندما التفت بعضهم للثقافة والفن ، فإن التفاتتهم كانت بهدف الاقتناء والاستثمار ، على عكس ما حدث فى عصر النهضة فى أوروبا حين فاضت أرباح التجارة على المدن التجارية مثل فلورنسا ، وفنيسيا ، وجنوا . هناك ، كما حدث مثلا فى عصر أسرة « المديتشى » ، كان المال يستخدم لشراء الجمال . وأما فى عصر البترول العربى ، فإن الجمال كان يشترى لقيمته كـ « مال » ، أى أنه الاقتناء بقصد الاستثمار بالدرجة الأولى !

كانت رعاية ثروة « المديتشى » للجمال هي التى أعطت الفرصة لعباقرة من أمثال « دوناتللو » و« بوتيشيلو » و « مايكل أنجلو » وغيرهم .

وأما فى عصر النفط ، فإن جمال الفن كان فى حساب كثيرين وعاءً حافظاً للاستثمار .

وهكذا أقبل كثيرون من العرب على شراء مئات اللوحات الفنية لمشاهير فنانى الغرب ، واشتروا آلافا من قطع السجاد والنسيج الأصلية ، وأعداداً لا تحصى من مشغولات الذهب والفضة والخزف والصينى باعتبار قيمتها المادية ومضاربين على ارتفاع أسعارها باستمرار .

وبالطبع كانت هناك استثناءات ، ولكن الإجمالى العام لم يكن حضاريا . ولعل الملك « فيصل » كان واحدا من الذين تابعوا نمط الاستهلاك العربى الجديد مبكرا وأزعجه ما رأى ، وعلق عليه بقوله :

« إن أجدادنا كانوا يركبون الجمال ، وآباءنا كانوا يركبون السيارات ، ونحن تعلمنا ركوب الطائرات . ولكنه إذا مضى الحال على ما هو عليه فإنى أخشى أن أحفادنا سوف يعودون إلى ركوب الجمال مرة ثانية » !(٦)

☐

ولم يكن أصحاب البترول وحدهم الذين يصرفون ، وإنما أصبحت بلادهم ـ فجأة أيضا ـ ملجأ لكل الباحثين عن فرصة أو الباحثين عن ثروة . وتوجهت جيوش من هؤلاء ، كباراً وصغاراً ، إلى مواقع البترول ، وتراكمت ثروات ، وعرف الاقتصاد العربى لأول

---

(٦) خلال مقابلة للملك « فيصل » مع محمد حسنين هيكل فى شهر مايو ١٩٧١ فى فندق « فلسطين » بالاسكندرية .

مرة ظاهرة تحويلات العاملين فى الخارج إلى أوطانهم ، ووصلت بالنسبة لبعض البلدان بحيث أصبحت من أهم مواردها . وعلى سبيل المثال فإنه بالنسبة لمصر مثلا كانت تحويلات المصريين العاملين فى العالم العربى تزيد كثيرا على دخل قناة السويس والبترول والسياحة مجتمعة . ويقدر بعض الخبراء أن حجم هذه التحويلات وصل إلى ما بين ٨ و ١٠ بلايين دولار سنة ١٩٨٠ .(٧)

ولم تكن هذه التحويلات خيرا كلها ، ذلك أن بعض الباحثين عن فرصة فى بلدان البترول تركوا عائلاتهم دون راع يدير شئونها مما عرض أجيالها الجديدة لنوع من مخاطر الانفلات فى بعض الأحيان . كما أن العائدين بعد أن تحققت لهم الفرصة حملوا معهم إلى أوطانهم ألوانا من الاستهلاك وطرق المعيشة أثرت كثيرا على مجمل القيم السائدة قبل عصر البترول وأمواله .

والنتيجة أن البترول والقيم الوافدة أحدثا نوعا من اختلال القيم والتماسك الاجتماعى فى المواقع المؤثرة فى حركة العالم العربى تقليديا مثل القاهرة ودمشق وبيروت وغيرها .

ولم يكن الصرف وحده هو الذى يستنزف الأموال ، وإنما زاد عليه الرهن أيضا . وهذه أول مرة فى التاريخ يحدث فيها أن يرهن صاحب المال (السائل) ماله . ولكن « ويليام سيمون » وزير الخزانة الأمريكى (مع الرئيسين « نيكسون » و « فورد ») استطاع إقناع المملكة العربية السعودية بأن تشترى أذونات خزانة أمريكية لا تتداول فى الأسواق مثل غيرها من السندات ، ولكن تكون مربوطة بآجال تمتد إلى عشرين وخمس وعشرين سنة ، بحيث إذا احتاجت المملكة من أموالها شيئا كان عليها أن تتفاوض مع الخزانة الأمريكية لتفك القيود إذا رضيت . ولقد كان التصور الذى طرحه « ويليام سيمون » ليجعل فكرته مقبولة هو أن منتجى البترول الذين يتقاضون عوائدهم بالدولار لهم مصلحة فى الحفاظ على قيمته ، وبما أن فوائضهم كبيرة فإنها إذا تركت حرة فى السوق تحولت إلى صخرة متحركة على سفح جبل يمكن أن تهوى على رؤوس الجميع بما فيهم أصحابها . وفى وقت من الأوقات سنة ١٩٨١ وصلت قيمة الأموال العربية المرهونة بهذه الطريقة إلى ما يزيد على مائة بليون دولار .

□

---

(٧) دراسة مشتركة للدكتور « مصطفى خليل » رئيس الوزراء السابق ، والدكتور « حسن عباس زكى » نائب رئيس الوزراء للاقتصاد فى مصر .

ومع زيادة الأموال ، سواء كانت طليقة أو مقيدة ، فإن الأثرياء الجدد غرقوا فى الأوهام ، والمال عادة هو المطر الذى يملأ بحار الوهم بما فيها .

ولقد زاد « وهم النفوذ » حينما بدأ الأثرياء الجدد يكتشفون أن الملوك والرؤساء فى أوروبا واقفون فى انتظارهم ، وأن رؤساء الوزارات يظهرون السعادة باستقبالهم ، وأن الوزراء ورؤساء مجالس إدارات الشركات الدولية العملاقة ينحنون لهم تحية وإجلالا ، ويتسابقون إلى كسب ودهم ورضاهم ، وتحقيق رغباتهم قبل أن تنطق بها شفاههم . وكان أدق ما يصور هذه الفترة مسرحية ظهرت فى لندن فى أواخر السبعينات ، واستمر عرضها بلا انقطاع قرابة عشر سنوات ، وكان اسمها « **اغلقى عينيك وفكرى فى انجلترا** » .

كانت المسرحية من ثلاثة فصول تدور كلها فى صالون بيت رئيس مجلس إدارة إحدى شركات البترول الكبرى . ويبدأ الفصل الأول من المسرحية والبيت فى انتظار شيخ من شيوخ البترول قادم إلى العشاء . ويظهر اللورد المضيف فى المشهد الأول من المسرحية يتفقد الصالون مع زوجته ، ويتأكد من أن كل قطع الأثاث الجميل فى مكانها ، وكذلك اللوحات ثم الزهور ، ثم يراجع قائمة الشراب والطعام ، ويعطى بنفسه آخر تعليماته لرئيس الخدم ، ويضيف إلى ذلك معلومات من تقرير اطلع عليه عن مزاج الشيخ وعاداته . ثم يتذكر رئيس مجلس الإدارة شيئا ويبدو تردده وهو يصارح زوجته به . ثم يغالب تردده ويقول لزوجته « إن الشيخ عاشق طول الوقت ، وفى الحفل الذى يوشك أن يبدأ جمال كثير ، وربما يكون مناسبا أن تكون الليدى المضيفة يقظى لنظرات الشيخ ، ولا بأس إذا أعجبته واحدة من الضيوف أن تتولى تقديمها له و « أن تترك له الفرصة » » .

وينتهى الفصل الأول بدخول الشيخ إلى الحفل . ثم يبدأ الفصل الثانى ويدور كله حول تصرفات الشيخ فى الصالون البريطانى العريق ، فهو يقفز من هنا إلى هناك ، ويربت هنا على خد ، ويمسح هناك على شعر ، ويترك لنظراته وأصابعه حرية زائدة عن الحد ، والكؤوس تدور والضحكات ترن والعطر فواح .

ويبدأ الفصل الثالث والحفل ما زال مستمرا لا يهدأ صخبه وكذلك الشيخ . ثم تظهر « الليدى » مضيفة الحفل ، وهى تحاول أن تلفت نظر زوجها إلى أنها تريد أن تتحدث إليه ، وهو مشغول عنها بالتأكد من أن إيقاع الحفل لم يفقد حيويته رغم طول السهر . وأخيرا تفلح الزوجة فى اللحاق بزوجها فى ركن من الصالون لتقول له بحيرة :

ـ « جون ... هناك مشكلة » !

ويرد عليها بسرعة :

ـ « لا أريد مشاكل هذه الليلة » .

وتقاطعه :

ـ « انتظر حتى تسمعنى » .

ويقول بنفاد صبر :

ـ « إننى أسمعك » !

وتقول له وحيرتها تزداد :

ـ « هل تعرف من أعجبته ؟ من يريد ؟ يريدنى أنا » !

ويكون رده التلقائى :

ـ « ماذا ؟ أنت ؟ هل فقد صوابه ؟»

ثم يسكت ، وتنتقل إلى ملامحه تعبيرات الحيرة . ثم يقول وكلماته تتعثر على شفتيه :

ـ « حسنا يا حبيبتى . اغلقى عينيك وفكرى فى انجلترا » .

وينزل الستار !

وليس هناك شك فى أن هذه المسرحية وغيرها كانت نوعا شائعا من القوالب المصبوبة المصنوعة لتصوير الثرى العربى على نحو قبيح ، وبنوع من التعميم لا تمييز فيه ولا تدقيق . ومع ذلك فليس هناك شك فى نفس الوقت أن مشاهد المسرحية كانت تمثل ، ولو حتى عن طريق « الكاريكاتير » مناخ سنوات معينة بين منتصف السبعينات ، ومنتصف الثمانينات .

ولقد زاد على وهم النفوذ وهم الأبهة ، وكانت الحقيقة الأصلية قد وجدت لنفسها عشرات الأقنعة : كانت البداية شركة بترول ، وتحالفت شركة البترول مع قبيلة ، وأصبحت القبيلة دولة ، ثم اكتسبت مواقع امتيازات البترول حصانة الحدود الدولية . ومهما يكن فإن حقائق القوة فى النصف الثانى من القرن العشرين تكفلت بأن تحول « **وهم الدولة** » إلى « **واقع الدولة** » . فهذه الخطوط التى رسمتها أقلام ضباط حكومة الهند فى القرن التاسع عشر على خرائط الخليج وصحاريها الشاسعة من الربع الخالى إلى حفر الباطن ، أصبحت أمرا واقعا له كيانه وله دوره ، وحتى إذا لم يكن قادرا على تحقيق أول مطالب الدولة وهو حماية نفسها بنفسها بالمنعة فى موقعها أو بالسياسة مع جيرانها ـ فإن هذا الأمر الواقع كان يمثل ترتيبا عالميا لا يستطيع طرف محلى أن يقترب منه إلا إذا كان على استعداد للصدام مع مصالح هائلة وغالبة . وفى كل الأحوال فإن هذه الكيانات أصبحت أعضاء فى الجامعة العربية وفى الأمم المتحدة ، وأصبحت سيادة كل منها محل اعتراف يستحيل تحديه ، ونتجت عن ذلك شرعية لا مجال للشك فى وجودها .

والحاصل أن الكويت على وجه التحديد أعطت نفسها فى تلك الفترة ما هو أكثر من شرعية الأمر الواقع ، فبحكم نشأتها كمدينة تجارية ظهرت فيها طبقة متوسطة عريضة ومستنيرة . ولم يكن وضع أسرة « الصباح » فى البداية وضع حاكم قبلى أخذ ما أخذ بحد

السيف ، وإنما كان أقرب إلى الرئاسة المختارة برضا الناس لرعاية مصالحهم المشتركة ، ثم ساعد على تأكيد هذا الحال أن الكويت أعطت نفسها جامعة كبيرة ، ومجلسا نيابيا نشيطا ، وصحافة متنوعة الاتجاهات . واتسق هذا كله مع مؤسسة تقليدية عاشت دواما فى الكويت ، وهى « الديوانيات » التى يلتقى فيها الجميع كل ليلة ويتناقشون فيما يعن لهم من أمور بلا خوف من سيف أو سوط ! وربما كانت مشكلة الكويت فى مرحلة لاحقة أن ما حولها طغى عليها ، وجار فى بعض الأوقات على خصوصيتها .

كانت الكويت مدينة تجارية قابلة للازدهار مثلما ازدهرت المدن التجارية فى ايطاليا أثناء عصر النهضة ، كفلورنسا مثلا . ومن سوء الحظ أن الكويت لم تجد مثيلا لـ « لورنسو العظيم » يحمى دورها ويعززه .

٣

والحقيقة أن الأوهام زادت فى منطقة الخليج ، وأدى ذلك إلى حساسيات لا مجال لإنكارها بين القبائل العربية والمدن العربية . فقد راحت أطراف العالم العربى تعيش فى غنى لم يسبق له مثيل ، بينما المراكز الحضارية الكبرى فى نفس هذا العالم العربى تئن تحت وطأة الحاجة . ولم يكن مثل هذا الأمر قابلا للاستمرار دون مشاكل بين شعوب تنتمى إلى أمة واحدة .

وبالقطع فإنه لابد من القول بأن الغنى ليس ذنبا اقترفه أصحابه لمجرد أنهم ولدوا ونشأوا فى بقعة معينة من الأرض تفجرت بحورا من البترول ، ولكنه فى المقابل كان لابد لضرورات التاريخ أن تتوازن مع أحكام الجغرافيا خصوصا فى إطار الحقيقة التاريخية لأمة واحدة .

ولم يكن هناك مجال لحديث عن اقتسام الثروة ، فمثل هذه المقولة تؤدى إلى محظور تحويل الكل إلى فقراء إذا جاز أن توزع عوائد البترول بنسبة السكان ـ لكن نوعا من شركة التنمية كان ضروريا للكل حتى بمنطق حفظ الثروة من أن تتآكل بالبذخ أو بالتضخم ، أو بتخفيض عملات الغرب مرة بعد مرة ، وكل مرة منها تخصم من الأرصدة العربية ربع قيمتها ، وثلثها فى بعض المرات .

ولم يكن كافيا أن تدفع دول البترول بعض الدعم لدول المواجهة مع إسرائيل ، ولم يكن كافيا أيضا أن تدفع « دول اليسر » كما أسماها البعض ـ شيئا من المعونة فى السر لـ « دول العسر » كما أسماها البعض أيضا ـ لتخفيف ضائقة خانقة ، أو سد عجز فغر فاه .

كان الأمر يحتاج إلى خيال أوسع ، فقد كان من الصعب أن يكون متوسط الدخل فى الإمارات العربية المتحدة ٢١٠٠٠ دولار للفرد فى السنة ، بينما متوسطه فى مصر ٥٠٠ دولار للفرد فى السنة ! ـ وكانت مصر أحسن حالا من بلاد عربية أخرى كثيرة .

ولقد كان مثيرا للأسى أن « حلم التنمية المشتركة » لم يتحقق فى حين زاد على الصورة وهم آخر هو « وهم الأمن المنفرد » .

☐

كانت قصة « وهم الأمن » قصة أخرى حافلة بالمفارقات .

إن مجمل الدخل الذى حصلت عليه دول البترول ـ عبر ثلاث حقب ـ سواء من بترولها ، أو من أرباح فوائضه ـ يتراوح ما بين ٢,٥ إلى ٣ تريليون دولار . وقد صرف منه قرابة النصف على مقتضيات الأمن من أسلحة القتال البرى والجوى والبحرى ، ونظم الدفاع الجوى المتطورة ، والصواريخ والانشاءات اللازمة . ومعنى ذلك أن تريليون دولار وأكثر أنفقت كلها على الإعداد العسكرى لمعركة لن تجىء ، ذلك لأن ترتيبات المصالح الدولية ترسم خطوطها الحمراء أمام كافة الأطراف ، وإذا غامر طرف باجتياز هذه الخطوط الحمراء فإن العدو الذى سيلقاه عندئذ لن يكون كيان الشركة ـ القبيلة ـ الدولة ـ وإنما العدو سوف يكون هو القوة الحقيقية وراء هذا كله .

وفى كل الأحوال فإن هذه الدول الصغيرة لا تستطيع مواجهة قتال ، والشاهد أن الوضع الجغرافى لدول الخليج يضعها وسط حصار من القوى المحلية والإقليمية ، وعلى خطوط التماس بين تيارات مذهبية وفكرية .

فالخريطة الجغرافية تظهر أن دول الخليج الصغيرة محاطة بثلاث دول مجاورة ليست أقوى منها فحسب ، وإنما هى إلى جانب قوتها لها مطالبها القديمة أو الجديدة ، وهى مطالب هاجعة كسيف فى غمده يمكن إشهاره فى لحظة :

ـ هناك المملكة العربية السعودية ، وهناك إيران ، وهناك العراق . وللثلاثة مطالب فى دول الخليج : حقوق تاريخية ـ حدود ـ عصبيات ـ نفوذ ـ أمن .. إلى آخره .

ـ وهناك مصر وسوريا ، ونفوذهما السياسى واصل ، ودورهما فى التوازنات مطلوب .

ـ وهناك عند الجنوب الشرقى وعند الشمال الغربى ، العسكرية الباكستانية والعسكرية التركية ، وكلاهما موجود وراء الإطار الإقليمى المباشر ، ويمكن أن يكون له ما يحلم به خصوصا باكستان مع وجود تأثير هندى(٨) قوى فى الخليج ، ومع وجود جاليات آسيوية كبيرة .

ـ وهناك فى الأعماق خلافات أسر ، وتصادم شيع ، وثأرات قبائل ، ومنافسات تمتد من قصور الأمراء إلى إسطبلات الخيل !

ـ وهناك وراء خط الأفق أساطيل لقوى عظمى وقواعد وإمدادات جرارة .

والسلاح مكدس فى المخازن ، وصناديقه مرصوصة فوق بعضها ، وفيها ما تنتهى صلاحيته دون أن تفتح صناديقه ، وهو ما زال يؤدى دوره المطلوب منه ، فهو شريك فى صنع الوهم ، ثم إنه فى كل الأحوال مفيد . وإذا لم يساهم فى تمكين نظريات الأمن من تحقيق مطالبها ، فهو يساعد فى تنشيط سوق السلاح ، وفى تشحيم عجلاتها لكى تواصل دورانها فى ليونة ويسر .

ولعل الجزء الذى استطاع أداء دوره فى الأمن هو ما كان موجها من أدواته إلى الداخل ، فقد استوعب العرب ـ القبائل والمدن على حد سواء ـ أحدث ما توصلت إليه تكنولوجيا العصر فى مجال الأمن الداخلى .

وفى نفس الوقت ، فإن دواعى القلق علىّ الأمن كانت كامنة لا تعالجها تكنولوجيا القمع ، ولا تستطيع الوصول إليها . وعلى سبيل المثال فإن الأسرة الحاكمة فى السعودية كانت فى ذلك الوقت ، ولا تزال ، معرضة لمشاكل بسبب قواعد ولاية العرش .

كانت القاعدة التى وضعها الملك « عبد العزيز » هى أن ينتقل « الملك إلى الأرشد من أبنائه » . وكان مفهوم هذه القاعدة أن يكون انتقال الملك إلى أبناء الملك ليس باعتبار السن وحده ، ولكن أيضا بمراعاة أن يكون الأرشد المؤهل للعرش مولوداً لأم من قبيلة من قبائل المملكة الكبيرة .

وبمقتضى هذه القاعدة ، فقد كان الملك « سعود » هو الذى خلف الملك « عبد العزيز » ، ولكن الأسرة خلعته بعد سنوات ، وأسقطت فترة حكمه كاملة حتى فى صور الملوك المتعاقبين على العرش ، كما فعل الشيوعيون فى الاتحاد السوفيتى بالنسبة

---

(٨) لا يزال طعام الخليج متأثرا بالمذاق الهندى ، وإلى عهد قريب كانت العملة المتداولة فى المنطقة هى الروبية الهندية ، وكذلك كانت طوابع البريد .

لزعمائهم الذين سقطوا فى الصراعات الداخلية للحزب ، فانمحى كل أثر لهم حتى فى الصور والقواميس ودوائر المعارف !

وبعد « سعود » جاء الدور على الملك « فيصل » . ومن بعده على الملك « خالد » الذى كانت والدته من قبائل « شمر » . وبعد الملك « خالد » جاء الملك « فهد » وإخوته الأشقاء ووالدتهم جميعا من قبيلة « السديرى » ، وولى العهد الآن هو الأمير « عبد الله » ووالدته من قبائل « شمر » . وبعده فى الغالب فإن الدور يحل على الأمير « سلطان » ثم الأمير « سلمان » ، وهما كأشقاء للملك « فهد » من والدة سديرية ...

لكن المشكلة تنتظر عند نقطة فى مستقبل غير بعيد .

فأصغر أبناء الملك « عبد العزيز » الآن فات الستين من عمره ، وإذن فلابد من قاعدة جديدة لولاية العرش تحل محل قاعدة الأرشد من أبناء « عبد العزيز » . وهذا هو الصراع القادم لأن ملكا من ملوك السعودية فى سنوات قليلة يتحتم عليه ـ مثلما وقع للخديوى « اسماعيل » فى مصر ـ أن يضع قاعدة لولاية العرش يكون من نتيجتها حصر هذه الولاية فى فرعه هو من الأسرة ، وتلك طبيعة الأشياء .

والمشكلة أن السلطة والثروة تفوقان الخيال فى السعودية ، وانتقال الملك من فرع إلى آخر فى أسرة يبلغ تعداد أفرادها أكثر من سبعة آلاف من الذكور ـ كفيل بأن يحدث هزات كبرى . وربما لا يغيب عن الذاكرة أن « أميرا » من فرع « سعود » كان هو الذى أقدم على قتل الملك « فيصل » سنة ١٩٧٥ نتيجة لضيق أحس به بعد تحول السلطة والثروة من فرع إلى فرع داخل الأسرة .

وتظهر بعض الوثائق أن عددا من أميرات الفرع الحاكم فى السعودية ، على سبيل المثال ، كن يحصلن على أذونات بحصص من البترول يقمن فى ظرف ساعات معدودات بالتنازل عنها لحساب مصدرين عربا ، أو أجانب فى مقابل نصيب معلوم . وقد تسربت بالفعل إحدى هذه الوثائق ، وهى محضر وكالة من الأميرة « موضى عبد العزيز آل سعود » ـ لصالح وكيل لبنانى تفوضه فيها فى بيع حصتين من البترول تقررتا « لأمر الأميرة شخصيا ، بحجم مليون برميل من نوع (API ـ ٣٦) « لبيعها فى السوق العالمية الحرة حسب الأصول المتعارف عليها » .[٩] .

---

(٩) تسجيل تفويض أمام قاضى العدل فى الرياض برقم ١١٦٢٨ ـ ٢٠/٩٤٧ ، بتاريخ ١٤٠٠/٤/٨ هجرية ، الموافق ١٩٨٠/٢/٢٥ ميلادية ـ قام بتسجيله أحمد حسين الحميدان كاتب العدل ـ الرياض .

وليس بعيدا عن طبائع البشر أن تتسبب هذه الأوضاع القلقة فى صراع تختلط فيه الحقائق بالأوهام . ثم إنه ليس بعيدا عن طبائع البشر أن يتسبب هذا الوضع القلق أيضا فى خلق فرق ومعسكرات وكتل تتصارع فى الخفاء ، وقد يفلت صراعها فى أى لحظة وينفجر !

ولقد أظهرت أزمة الخليج اختلافات فى الرؤى والاجتهادات بين فروع الأسرة ، وبين أجيال مختلفة الأعمار من أبنائها ، وقد أدت هذه الاختلافات حتى وسط ضغوط الحرب إلى تقلصات حادة ومكتومة حتى إشعار آخر .

□

نتيجة لهذه الأحوال كلها نشأت فى المنطقة نخبة سلطة لا ينبغى لأحد أن يمل من الحديث عنها والإشارة لها : مجموعات من الأجانب والعرب تربطهم أوثق الصلات بدوائر البترول ، والمخابرات ، وتجارة السلاح . وكانت هذه الدوائر الثلاث قريبة بالطبع من دائرة صنع القرار . وهكذا حدث اختلاط خطر فى الأمور وفى العلاقات وفى التصرفات ، واقترب تأثير هذا الخطر على مجال التوجهات السياسية والقرارات ، ونشأت شبكة ثانية من علاقات السلطة فى الظل . كانت السلطة فى العالم العربى قد انتقلت بحكم ظروف كثيرة إلى القمة ، ولكن القمم لم تكن مع بعضها طوال الوقت ، وهكذا نشأ تحتها خط مواز من الاتصالات تداخلت فيه الألوان والظلال وبقع الظلام الداكنة كلها مع بعضها ، وشهد العالم العربى كله نوعا من الاختراق أخطر مما عرف من قبل . كان العالم العربى فى تاريخه الحديث يعانى من ظاهرة الاختراق الخارجى ، لكن المدى الذى وصلت إليه هذه الظاهرة فى تلك الحقبة البترولية لم يكن له مثيل .

وكان للاختراق جانب آخر . فإذا كان الاختراق يسمح للخارج بأن ينفذ إلى الداخل ، فإن مواضع النفاذ نفسها تصبح ثغرات ينضح منها ويخر ما يحتويه الوعاء المخروق . ولم يكن فى الوعاء ، بما آلت إليه الأمور ، إلا مال كثير وأوهام قوة أكثر .

وهكذا فى ذلك العصر من الأوهام تصور بعض العرب أنهم يشاركون فى رسم خرائط العالم ، فإذا أموالهم تساعد فى معارك دولية تخص غيرهم ولا تخصهم ، مثل معارك أنجولا ، والقرن الإفريقى ، وجنوب شرق آسيا ، وحتى فى أمريكا اللاتينية .

كانت الولايات المتحدة بعد تجربة فيتنام لا تريد حروبا خارجية ، ثم إن الكونجرس لم يعد على استعداد لأن يصرح لها بعد تلك التجربة المريرة باعتمادات تمارس بها مثل هذه الحروب الخارجية .

وكانت الأوهام العربية جاهزة ، وكان المال العربى مستعدا .

وتورط بعض العرب فى مغامرات طائشة ظهر القليل منها فى تفاصيل فضيحة « إيران ـ كونترا » حين لعب بعض العرب وبمال عربى أدوارا غريبة فى شراء سلاح للمتمردين فى « نيكاراجوا » . اشتروه من إسرائيل ، وباعوه لوكالة المخابرات المركزية لتعطيه لمتمردى الكونترا ، ثم يشترون بالمال سلاحا لإيران ـ أثناء حربها مع العراق !

(وعلى سبيل المثال فقد تبرعت السعودية فى دفعة واحدة بمبلغ ٣٥ مليون دولار للمساعدة على إسقاط نظام « الساندينستا » فى نيكاراجوا) .[١٠]

□

ولقد ظهرت وسط نخبة القوة العربية الجديدة نجوم بعضها شاردٍ بلا مسار ، وبعضها مضىء ، وبعضها معتم .

إن النجوم فى نخبة القوة العربية مجموعة من الرجال والنساء يصعب أن يوجد لها نظير فى أفلاك دولية أخرى ، وبمقدار ما أن السلطة فى العالم العربى ذات طابع خاص ، فإن نخبة القوة المحيطة بها لها هى الأخرى طابعها الخاص . ويمكن أن يقال بصفة عامة إن نخبة القوة العربية تحمل خصائص تميزها عن غيرها من نخب القوة فى مجتمعات أخرى :

● كلها بالطبع قريبة من القمة ـ دون أن تكون لها فى معظم الأحيان مسئوليات رسمية تضع أصحابها فى دائرة اختصاص عام يقاس به أداؤها ، وبالتالى فإن نفوذها موجود ، وفى الغالب غير ظاهر ، ومحسوس وفى الغالب غير مقنن ، وحجم النفوذ مرن ومتفاوت بين رجل وآخر ، وبين فترة وأخرى بالنسبة لنفس الرجل .

● ومعظم مجموعة نخبة القوة فى أى بلد عربى على اتصال بمثيلاتها فى بقية العالم العربى ، وبحكم فردية السلطة ، وشخصيتها فى بعض الأحيان ، فإن علاقات قمم السلطة فيه تجرى وتتم بغير طريق أجهزة الدولة الرسمية ، وبالتالى فإن خطوط الاتصال تتم عن طريق رسل ووسطاء مباشرين يظهرون وسط العواصم على الطرق إلى القصور ، ثم يختفون بنفس السرعة التى يظهرون بها .

● وفى الغالب الأعم فإن مجموعات نخبة القوة العربية قريبة من أهم المواقع التى تكمن فيها مواضع صنع الثروة العربية : وأولاها البترول ، والثانية تجارة السلاح ، والثالثة

---

(١٠)مذكرات الكولونيل « أوليفر نورث » ـ من مساعدى مستشار الأمن القومى فى البيت الأبيض ـ وتحقيقات الكونجرس فى تفاصيل فضيحة « إيران ـ كونترا » .

بضرورات الأشياء دوائر المعلومات بما فيها دائرة المخابرات ودائرة الإعلام . وهكذا فإن حجم التداخل بين العلاقات السياسية والمالية والاجتماعية والانسانية نافذ إلى أعماق يصعب قياسها ، أو رسم جدول بيانى لشبكاتها ومساحاتها .

● وبسبب هذا التشابك بين القوة ، وعناصر الثروة ، ودوائر المعلومات ـ فإن الأسلاك بين ما هو محلى ، وبين ما هو إقليمى ، وبين ما هو دولى ـ تتشابك وتتعقد وتخلق أحيانا أوضاعا يصعب التحكم فيها وضبط حركتها ، أو حتى متابعتها .

وفى وقت من الأوقات فى الولايات المتحدة الأمريكية وقف رجل مثل الرئيس الأسبق « دوايت ايزنهاور » ـ يقول فى خطبة الوداع التى غادر بعدها البيت الأبيض فى نهاية مدة رئاسته : « **إنه يريد أن يحذر من مجموعة قوة فى الولايات المتحدة تتداخل فيها مصالح الصناعات الكبرى مع مصالح المؤسسة العسكرية الأمريكية » ـ وهو ما أسماه « ايزنهاور » وقتها « المجمع العسكرى ـ الصناعى »** .

وربما يحتاج العالم العربى إلى صوت ينبهه إلى تزايد دور « مجمع القوة العربى » الذى ظهر فى السبعينات ، ونما فى الثمانينات ، ويوشك نفوذه أن يستشرى فى التسعينات .

وربما أمكن القول بشكل عام إن أحد النماذج الظاهرة لهذه النجوم فى الآفاق العربية هو رجل مثل السيد « عدنان خاشقجى » .

فهو على نحو أو آخر قريب ـ أو كان قريبا ـ من دوائر صنع القرار فى السعودية .

وهو حامل رسائل ووسيط نشيط على الطريق بين عواصم عربية متعددة ـ أو على الأقل كان كذلك إلى عهد قريب .

وهو على صلة وثيقة بعمليات البترول ، وتجارة السلاح ، وينابيع الثروة المتدفقة منهما .

وهو قريب إلى درجة شديدة من دوائر المعلومات ودوائر المخابرات فى العالم العربى ، وخارجه ، إلى درجة جعلته فى القلب تماما من قضايا خطيرة أشهرها قضية « إيران ـ كونترا » ، وكان فيها على صلات عربية ، وأمريكية ، وإسرائيلية ، وإيرانية ، وبريطانية ، وحتى فلبينية . وكانت الصلات مالية ، وتجارية ، وسياسية ، وإعلامية ، واجتماعية ـ ظاهرة وخفية ، وكله فى نفس الوقت !

و « عدنان خاشقجى » نموذج واحد وبارز لأن الظروف ركزت عليه أضواء أبانت ، وكشفت إلى درجة يمكن معها الرصد والمتابعة .

لكن هناك غيره آخرون لم تمسك بهم كشافات تركز عليهم بقع الضوء ، وواصلوا حركتهم فى غطاء تراكمات من الغمام والظل .

على أن عددا من المظاهر - فى الغالب وليس بالضرورة دائما - يحيط بهؤلاء :

فهناك يخت فى عرض البحر ، وهناك قصور على الشواطىء فى الصيف وعلى الجبال فى الشتاء ، وهناك حاشية لامعة ومضيئة بجمال الوجوه وأناقة الأزياء وسحر الجواهر والعطور ، وهناك طائرة خاصة ، وهناك شركة حراسة أمريكية فى الغالب تمسك بشئون الأمن ، وتشرف عليها بضباط وجنود كانوا سابقا فى القوات الخاصة للبحرية الأمريكية ، وهؤلاء الحراس دائما هناك عند حواجز وأسوار شائكة ومكهربة وأبواب تقفل وتفتح بأزرار كهربائية ، وفى أحزمتهم تتعلق أجهزة الاتصال اللاسلكى ، وأيديهم لا تفارقها المدافع الرشاشة من طراز « أوزى » الإسرائيلى الشهير ، ثم هناك أبراج الحراسة العالية من حول اليخوت والقصور وحدائق الزهور .

ذلك أن أوهام الأمن لا تقتصر على الدول ، وإنما هى تصيب الأفراد بموجب حقيقى أحيانا ، وبغير موجب حقيقى فى أحيان أخرى .

--- ٤ ---

وكان « هنرى كيسنجر » أول من لمح أوهام العرب ، ووجدها مواتية للخطة الأمريكية ذات النقاط السبع .

ولقد رأى هو والرئيس « نيكسون » ، ثم هو والرئيس « فورد » بعدها ، استغلال عنصر إضافى آخر إلى معادلة الشرق الأوسط ، وكان هذا العنصر هو شاه إيران « محمد رضا بهلوى » . وكان التفكير الأمريكى يستند إلى عدة افتراضات :

١ - إن إيران ليست عربية ، وبالتالى فهى ليست داخلة فى أى احتمال حظر بترولى ضد أحد ، وبالذات الولايات المتحدة .

٢ - إن بترولها بزيادة الضخ منه فى حالات الطوارىء يمكن أن يعوض أى احتمال فى المستقبل يقع معه وقف تدفق البترول العربى .

٣ - إن حقيقة أن إيران غير عربية يمكن أن يساعد على إنشاء خط من العلاقات المباشرة بين طهران وتل أبيب لتكون إحداهما - طهران - شوكة فى الخصر العربى عند الشرق على رأس الخليج ، والثانية - إسرائيل - حربة فى الخصر العربى عند الغرب على شاطىء البحر الأبيض !

٤ - إن شاه إيران شخصيا له رأى لا يخفيه فى العرب من القاع فى مدنهم إلى القمة فى قصور حكامهم ، وهو يشعر بعقدة استعلاء غريبة تصور له أنه وريث إيوان كسرى أمام قبائل من البدو الرحل يعرفون قواعد التعامل مع قطعان الغنم ، وليس مع استراتيجيات البترول أو العالم .

وهكذا اندفعت السياسة الأمريكية فى أواخر عصر « نيكسون » وبقية مدة رئاسته التى قضاها « فورد » فى البيت الأبيض بعده ، ثم طوال عهد « جيمى كارتر » - إلى سياسة قضت بتنصيب شاه إيران رجل بوليس مسئولا عن أمن الخليج ومفوضا .

وفى مرحلة سابقة خطرت للسياسة الأمريكية فكرة أن يكون الأمن الأمريكى فى المنطقة منوطا بمحور إقليمى يقوده شاه إيران ، والملك « فيصل » ، والرئيس « السادات » . لكن الفكرة لم تستطع أن تحلق فوق الأرض ، وكان الفضل راجعا إلى الملك « فيصل » الذى كتب إلى الرئيس « السادات » فى إبريل سنة ١٩٧٥ - أى قبل شهر واحد من اغتياله على يد أحد أبناء إخوته - يقول له :

« فخامة الرئيس

أى كلام عن ترتيبات معينة بين مصر والمملكة وإيران يؤدى إلى إحراج لنا . وأول الإحراج أن نتهم بالسعى إلى إحياء حلف بغداد القديم . وهذا الأمر ليس من المصلحة . »[١١]

ونامت الفكرة بعض الوقت ، ثم عادت مرة أخرى مع مجىء وهم السلام ليلحق بما سبقه من الأوهام فى المنطقة ، فقد كان شاه إيران من أكبر المشجعين للرئيس « السادات » على القيام برحلته إلى القدس سنة ١٩٧٧ . وراحت الأحلام تراود واشنطن بأن المستجدات الطارئة فى الشرق الأوسط يمكن أن تصنع محورا جديدا يضم طهران والقاهرة وتل أبيب ، وهذا المحور يمكن أن يكون بديلا جديدا يساعد الخطة الأمريكية .

---

(١١) رسالة حملها مبعوث خاص من الملك « فيصل » إلى الرئيس « السادات » ، ولعل الملك « فيصل » أرادها مكتوبة لتسجيل موقفه .

ولم تكن السياسة الأمريكية غارقة مثل غيرها فى الوهم . كانت ترى خطتها تأخذ طريقها المرسوم بحكم تداعيات الحوادث ، وبحكم ما تم من خطوات عملية :

من ناحية كان البترول قد ظهر بكثافة لا بأس بها فى موقعين جديدين : بحر الشمال ، وألاسكا .

ومن ناحية ثانية كانت « وكالة الطاقة الدولية » ، وهى إحدى بنود خطة « كيسنجر » العلنية ، قد اكتمل إنشاؤها ، وأصبحت قادرة على التدخل فى سوق البترول وفق مقتضيات الظروف حيال أى طارىء ـ بإطلاق كميات من الاحتياطى تدعو إليها الحاجة هنا أو هناك ، كما أنها أصبحت تملك الوسائل التى تمكنها من تحويل ناقلاته من مكان إلى مكان آخر إذا ما دعت لذلك أسباب .

كذلك فإن الشرق الأوسط ، والعالم العربى فى وسطه ، بدا مستغرقا بالكامل فى أوهامه .

كان الهدوء يعود إلى أعصاب السياسة الأمريكية التى انشغلت بميادين أخرى فى العالم ، خصوصا فى أوروبا .

وكانت شركات البترول الأمريكية الكبرى لا تريد مزيدا من التدخل السياسى الحكومى فى شئونها ، وقد عادت الآن ـ على حد تعبير « روبرت آندرسون » (وزير الخزانة الأسبق فى الولايات المتحدة) ـ « لكى تتصرف وكأنها دول مستقلة ، وفى بعض الأحيان كأنها دول عظمى » .

كانت الأوهام قد جاوزت حدود العقل ، حتى فقدت صلتها بالواقع .

وفى ديسمبر ، وفى احتفالات عيد الميلاد سنة ١٩٧٧ ـ كان الرئيس الأمريكى « جيمى كارتر » يقضى احتفال العيد ضيفا على « محمد رضا بهلوى » شاه إيران . ووقف الرئيس الأمريكى ـ الذى أقام شهرته على أساس احترام حقوق الإنسان ! ـ وسط الحفل يرفع كأسه فى صحة مضيفه الذى بدا وكأنه يحكم إيران ويتحكم فى المنطقة كلها بيد من حديد ، ويقول له : « انكم يا صاحب الجلالة الامبراطورية استطعتم تحويل بلادكم إلى جزيرة من السلام والاستقرار وسط بحر من القلاقل والفوضى ، وهذا راجع إلى قدرتكم وحكمتكم » .

ولم تكد تمضى على شرب هذه الكأس من رحيق الورد إلا شهور حتى كانت الثورة الاسلامية فى إيران تهز قوائم عرش الطاووس ، وتكسر الكؤوس والرؤوس فى طهران !

الفصل الرابع

آفاق من الفراغ

« لا أريد أن أظل مع المتخلفين » .

[الرئيس « أنور السادات » للسيد « أحمد بن سودة » رئيس الديوان الملكى المغربى - أكتوبر ١٩٧٩] .

١

عندما انفجرت الثورة الاسلامية فى إيران كان صداها فى العالم العربى واسعا وعميقا رغم اختلاف اللغة ، واختلاف المنابع الثقافية ، وحتى اختلاف نوع الأبطال . فـ « الخمينى » كان يوجه رسائله للناس بالفارسية ، والتراث الفارسى كان موجودا فى خطابه العام رغم أساسه الدينى ، والجماهير العربية تعودت أن يتقدم الصفوف الأولى من حركاتها الوطنية شيوخ مدنيون من أمثال « سعد زغلول » ، أو ثوار شبان من أمثال « جمال عبد الناصر » . وكان صعبا على هذه الجماهير أن تستجيب لدعوة رجل يرتدى عباءة سوداء وفوقها عمامة من نفس اللون تغطى تقاطيع وجهه الذى تنسدل منه لحية بيضاء تطل فوقها عيون حزينة ومتعبة ، وتحيط بها ملامح حفر الزمان عليها تجربة ثمانين سنة حافلة !

ولقد كان الصدى واسعا وعميقا لأن جماهير غفيرة على امتداد المنطقة بين الخليج والمحيط راحت وسط أوهام عصر البترول تحاول العثور على يقين . وكان أقرب اليقين

المطروح هو اليقين الدينى . فالناس مولودون بهويتهم الدينية ومؤسسة الأسرة تعطى مواريثه التقليدية بطريقة طبيعية مع رضاعة الطفل فى البيت ، ومع التربية التى تكوّن بدايته الثقافية من الصبا وتظل معه العمر بطوله .

والحق أن بداية البحث عن يقين بدأت فى العالم العربى بعد صدمة الشك سنة ١٩٦٧ . ثم جاءت ضرورات الصراع مع إسرائيل وحتمية المعركة ، فشدت الجميع إلى مجال التأثير القومى والوطنى بالدرجة الأولى ، وجاءت الأيام الأولى من معركة أكتوبر فأحيت الآمال لبعض الوقت ، حتى جاء عصر البترول وأشاع أوهامه .

□

إن أوهام عصر البترول لم تنحصر فى مناطق انتاجه ، وعندما زادت العوائد والفوائض فإن جزءاً منها انسكب وسال على بقية الأرض العربية . ووجد كثيرون فى العالم العربى أن وسيلتهم للثراء لا تتحقق بانتظاره فى بلادهم حتى يصل اليهم بعض خيره ، وإنما وجدوا من الأفضل أن يرحلوا هم إلى البترول بدلا من الوقوف فى انتظاره . وما بين ١٩٧٤ و ١٩٧٦ ، أى فى مدة سنتين اثنتين ، كان هناك ٩ ملايين عربى يتحركون وراء الفرصة السانحة فى الخليج بما فيه العراق . واستطاع البعض أن يمسك بالفرصة ، واختار أن يرسل أرباحه إلى بنوك أوروبا وأمريكا مباشرة دون توقف أو مرور بالأوطان الأصلية . ولم يتمكن البعض الآخر إلا من الحصول على ما يفى بالتزامات حياته هناك مستقطعا جزءاً يبعث به إلى الوطن الأصلى لتعيش عليه الأسر التى بقيت فيه . وهكذا فإن الجزء الذى تحقق من أمل البترول لقلب العالم العربى كان ضئيلا بالقياس لثروة البترول نفسها ، وضئيلا أيضا بالقياس لما جرى تحويله مباشرة للخارج من الذين عثروا على الفرصة وأمسكوا بها .

ولم يجىء المال الذى تسرب من البترول إلى قلب العالم العربى ، سواء بواسطة طلاب الفرصة الذين أمسكوا بها ، أو طلاب العمل الذين حصلوا عليه ـ وحده ، وإنما جاء يجر وراءه نيلا طويلا من القيم : قيم الربح السريع ، والاستهلاك الزائد ، ومداراة الغنى والخضوع السهل لرغباته ونزواته .

وزاد على ذلك أن البترول بدوره بدأ يجىء إلى القلب باحثا بنفسه عن فرص وجد أنه بدوره يستحقها . وكان معظم استثماراته فى مجال الاستهلاك ، وفى مجالات التسلية مثل التليفزيون والسينما بحثا عن ربح تتسارع فيه دورة رأس المال دون أصول كبيرة ثابتة فى الأرض يصعب نقلها عند الضرورة ، وكذلك من مواقع تأثير يمكن استخدامها فى تطويع القيم وإشاعتها . وكانت للمال ـ كما هى العادة ـ عنجهيته ، فقد تصور القادمون من أطراف العالم العربى إلى قلبه فى بعض الأحيان أنهم الخبراء بسوق الاستثمار وسوق المال . ولم

يكن ذلك تصرف أفراد يقتصر أثره عليهم ، وإنما تصرفت حكومات النفط أيضا بنفس المنطق ، فكان أن وضعت شروطا للقروض والتسهيلات تمر عن طريق البنك الدولى أو تصوغ عقودها بلغته ومفرداتها . وبتأثير الاحتكاك بالمؤسسات المالية الدولية خصوصا فى الولايات المتحدة ، فإن ممثلى الحكومات العربية المنتجة للبترول والصناديق العربية المنشأة بأمواله راحوا يتصرفون بنفس منطق البنك الدولى وصندوق النقد الدولى .

وحاولت المدن الكبيرة فى العالم العربى أن تسترضى شيوخ القبائل بقصائد المديح ، ولكن الشيوخ طربوا بسماع القصائد ، ولم يطربوا بنفس المقدار للمطالب التى جاءت بعدها .

وفى منتصف السبعينات كان قلب العالم العربى قد بدأ يتململ . وقبل أن تجىء الثمانينات كان التململ قد تحول إلى نوع من الشعور بخيبة الأمل . كانت الجماهير العربية فى القلب العربى تشعر أنها على نحو أو آخر أعطت دماء أبناءها فى حرب أكتوبر التى أدت ضمن ما أدت إلى رفع أسعار البترول ، وبالتالى فإن الثروة التى فاضت تم دفع ثمنها مقدما بالدماء التى سالت ، وبدأ الإحساس يشتد بتفاوت الحظوظ فى العالم العربى . وبمقدار ما كانت أوهام عصر البترول تتبدد ، كان البحث عن اليقين يشتد . وفى هذا المناخ علا صوت الثورة الاسلامية فى إيران وامتد أثره .

والحاصل أن الثورة الاسلامية فى مطالع الثمانينات وجدت صداها فى العالم العربى بفعل عوامل كانت كامنة ، موجودة ومفقودة فى نفس الوقت داخل الذات العربية .

كان هناك البحث عن يقين فى مقابل شيوع الوهم ، وفى مرحلة سابقة كانت الوطنية والقومية (بالمحتوى الحضارى للدين) ـ تعطى الناس زادهم من اليقين الضرورى . وأن يجىء الدين ليعطى اليقين المطلوب مباشرة ـ فإن ذلك لم يكن شيئا غريبا ولا دخيلا فى وقت أزمة .

وكان الحال هو نفس الحال بالنسبة لفكرة العدل الاجتماعى التى ترسبت فى وعى الجماهير فى حقب الأربعينات والخمسينات والستينات . وإذا كانت الأفكار والمواثيق قد حملت فكرة العدل الاجتماعى ، فإن الدين يستطيع أن يعطيها قوة نفاذ أعمق فى أى لحظة .

بل إن العنف الاجتماعى سرى عليه نفس الحال . كانت فكرة الجهاد قديمة فى الاسلام ، ثم ساعدت معارك العرب الحديثة من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٥٦ ، إلى سنة ١٩٦٧ ، إلى معركة الاستنزاف ، إلى معركة أكتوبر ـ على بروز الاستعداد لممارسة العنف فى المجتمعات العربية .

كانت تلك كلها استجابات طارئة لنداءات سابقة ومألوفة ، لكن المشاكل بدأت بعد ذلك :

● كان الاسلام القادم من إيران يرتدى عباءة فارسية متأثرة بالمواريث الحضارية لأمة تعيش فى جو حصار بين شبه القارة الهندية ، وشبه الجزيرة العربية .

فى حين أن الاسلام كما تلقاه العرب كان مفتوحا على الأقطار والأمصار .

● والإسلام الذى جاء من إيران كان يحمل بشكل ما نبرة آسيوية بسبب عنصر اللغة . ذلك أن القرآن عربى اللسان وإن كان عالمى الرسالة ، وغير العرب من المسلمين ليس فى يدهم كثير غير النص الحرفى ، لكن النص الحرفى كان فى اللغة العربية وسط تراث ضخم من السنة والفقه والحديث والفلسفة ، وحتى الأدب ، تساعد على فهم أبعاده ، فى حين أن الاقتصار فى التفسير على النص الحرفى يعوق الكثير من أسباب الاجتهاد مع تطور الأزمنة والعصور .

● وفى نفس الوقت فإن دعوة العودة للإسلام الصادرة من قم وطهران كانت تحمل أيضا نبرة انسلاخية فى مواجهة الآخر حتى وإن كان هذا الآخر من نفس الوطن ، وكان ذلك هو التأثير البارز للحركة الاسلامية فى الهند ، كما عبر عنها « أبو الأعلى المودودى » فى مواجهة الأغلبية الهندوكية التى كان الإسلام فى الهند في حالة تناقض معها .

وأما فى العالم العربى ، فإن الإسلام كان فى بيئته مندمجا فيها متوحدا مع « خير أمة أخرجت للناس » .

ومهما يكن فإن نداء الثورة الاسلامية فى إيران جاء متوافقا مع زمانه ، وكانت الأمة العربية تصيخ السمع إليه بانتباه وباهتمام ، فقد وافق مقتضى حالها فى تلك الفترة . ولقد أضيفت إلى قوة هذا النداء حقيقة أن العالم العربى فى ذلك الوقت كان يواجه فراغا فى القيادة ، فقد اختفت جاذبية القيادة السياسية كما مثلها « جمال عبد الناصر » ، واختفت هيبة القيادة التقليدية كما مثلها الملك « فيصل » .

٣

ولقد ضاعف من الإحساس بالفراغ أن المؤسسات الدينية والتقليدية راحت تترك نفسها للسلطة السياسية ـ أو لغيرها ـ تستغلها لأغراض ضيقة .

إن نفس المؤسسات التى حضت على قتال إسرائيل كانت هى نفسها التى أخرجت فتاوى الصلح معها .

ونفس المؤسسات التى ساعدت فى التبشير بفكرة العدل الاجتماعى كانت هى نفسها التى راحت تحض الفقراء على القبول بالتمايز الطبقى الفادح الذى جاء به عصر الانفتاح .

وجاءت محاولة الاستغلال السياسى للمؤسسات الدينية « التقليدية » فى وقت غير ملائم من كل الوجوه .

فالأمم الاسلامية ، والأمة العربية ـ فى مقدمتها ـ تواجه بحكم انتمائها جميعا للعالم الثالث مشكلات وأزمات عالم تتغير أحواله وقيمه ، وهى جميعا غير قادرة لأسباب متعددة بتعدد الأمم ـ على ملاءمة نفسها مع المتغيرات ، وبالتالى فإنها بدون استثناء تواجه أزمة تراجع لا شك فيها .

ولقد وجدت هذه الأمم ، وشبابها بالذات ، فى الدين ملاذا وعاصما ، وهذا شىء طيب فى مطلق الأحوال لأنه من المهم أن تجد الأمم فى أوقات الأزمات خط دفاع أخير يحمى وجودها ذاته وقد أصبح مهددا .

ولقد كانت الحاجة إلى هذا الخط الدفاعى الأخير هى التى أدت إلى قيام الثورة الإيرانية ، وكان قيامها مستحيلا لولا أن استوجبته ضرورات التطور .

ولقد كانت المؤسسات الاسلامية فى العالم العربى ـ بحكم كونها نتاجا مباشرا لموطن الرسالة ، ووريثة شرعية لتجربة متراكمة فى الفكر والاجتهاد والفهم بحكم الإحاطة الشاملة بالتراث الواسع للغة التى نزل بها النص ـ أقدر من غيرها فى أى عاصمة اسلامية على أداء دور المرجع المعتمد فى شئون التفسير والفتوى .

ولم يكن مطلوبا منها أن تدخل فى صدام مع « قم » أو « طهران » ، وإنما كان عليها أن تلاقى أفكار الثورة الاسلامية فى إيران ، وأن تدخل فى حوار دينى معها تستفيد منه الأمم الاسلامية فى أزمتها الطاحنة ، إذ تجد مرجعية تساعدها فى وقت محنة وامتحان .

لكن الغريب أن المؤسسات الدينية التقليدية دخلت فى معركة عداء مع « الخمينى »

لا مبرر لها إلا ظروف سياسية جعلت الرئيس « السادات » يتصور ويتصرف على أن شاه إيران صديق للعرب وصديق له ، وإذا الفتاوى تصدر من القاهرة بالحملة على « الخمينى » إلى الحد الذى دفعه ، وهو مازال فى باريس لم يذهب بعد منتصرا إلى طهران - إلى التساؤل : « لماذا تقف المؤسسات الاسلامية الرسمية فى مصر هذا الموقف العدائى من الثورة الاسلامية ؟ »

والغريب أن الحجج التى استعملت فى مصر ضد الثورة الإيرانية قامت على أساس « طاعة ولى الأمر » ـ ولم يكن الشيوخ فى القاهرة قد درسوا بالقدر الكافى ما إذا كانت « طاعة الشاه » فرضا على المؤمنين ، أم أن سياساته وتصرفاته أسقطت موجبات طاعته .

كان هذا نموذجا صارخا لاستغلال الدين فى السياسة .

□

ثم تكرر نفس الشىء فى حادثة مقتل مئات الحجاج الإيرانيين فى مكة سنة ١٩٨٧ . لقد خرجت الآراء والاجتهادات من القاهرة تدين الحجاج الإيرانيين دون تحقيق ، أو تدقيق فى واقع ما جرى . وربما كانت هناك أخطاء ، ولكن الأخطاء كانت على الجميع . والغريب أن شهادة وزير الأوقاف الباكستانى وقتها السيد « شاهد شهيدى » كانت قريبة المنال ، ومنشورة فى جريدة « نيويورك تيمس » فى الغرب ، ومع ذلك فإن أحدا لم يكلف نفسه بمراجعتها قبل الفتوى .

كانت قيمة شهادة « شهيدى » أنه كان هناك ، وأنه كان مسئولا بطلب من السلطات السعودية عن التنسيق بين بعثات الحج المختلفة .

كان الإيرانيون ينظرون إلى موسم الحج ، ليس فقط باعتباره طوافا وسعيا ، ولكن أيضا باعتباره لقاءً بين المسلمين ، وهذا معقول فى حد ذاته .

وطلب الحجاج الإيرانيون تنظيم مسيرة لهم تسعى إلى أبواب الحرم ، وكان المسئول عن تنسيق علاقات بعثات الحج بالسلطات السعودية هو الذى حمل طلبهم وناقشه مع السلطات السعودية التى وافقت على المسيرة ، وعلى خط سيرها ، واشترطت أن تتوقف وتنفض قبل خمسمائة متر من أبواب الحرم . كذلك طلبت السلطات السعودية أن تخطر مسبقا بالنداءات والشعارات التى تصدر عن هذه المسيرة ـ وهذا مشروع فى حد ذاته أيضا .

وبدأت المسيرة فى موعدها من نقطة بدايتها المقررة ، وسارت فى طريقها المرسوم ، وتعالت فيها النداءات والشعارات ، وكانت فى حدود ما جرى الاتفاق عليه . ثم حدث أن انضمت إلى المسيرة أعداد كبيرة من الحجاج تفوق بكثير تقديرات السلطات



مشهد للمظاهرات الإيرانية أثناء موسم الحج

السعودية . وداخل نفوس المسئولين عن الأمن السعودى إحساس بالقلق ، وهذا منطقى فى حد ذاته كذلك .

ورأى مسئولو الأمن السعوديون أنه من الضرورى أن تنفض المسيرة قبل أكثر من خمسمائة متر مثلما سبق الاتفاق عليه ، فقد كان تقديرهم أنه إذا وصلت المسيرة بهذا الحجم إلى المسافة المتفق عليها من قبل قرب الحرم ، فإن انفضاضها قد يخلق مشكلة .

ودارت اتصالات واستحكمت بالعصبية آراء :

رَأى القادة الإيرانيين للمسيرة ، وهو يطالب بتنفيذ الاتفاق ، كما جرى خصوصا وأنه يصعب إبلاغ الكتل الزاحفة أن مسافة زحفهم جرى اختصارها .

ورأى سعودى يرى أن حجم الحشد تدخل لتغيير ما كان متفقا عليه .

وكان رأى الإيرانيين أنهم يتحملون المسئولية ، فالمسيرة قد جرت حتى الآن بسلام رغم ضخامة حجمها ، ولم ترتفع فيها كلمة واحدة تقول غير ما سبق الإخطار به ، وتمت الموافقة عليه .

ولكن الأمن السعودى كان يرى أنه وحده يتحمل المسئولية ، وعلى هذا الأساس جرى وضع حاجز من قوات الأمن عند النقطة التى قدرها الأمن السعودى ، وليس عند النقطة التى جرى الاتفاق عليها .

ووجدت مسيرة الحجاج الإيرانيين حاجز أمن يعترضها بالقوة قبل بلوغ غايتها ، وكانت المشاعر ساخنة بحرارة الإيمان ، وربما بنار التعصب أيضا ، وقررت الصفوف الأولى من المسيرة أن تمضى فى طريقها ، وصدر الأمر إلى الأمن السعودى بإطلاق النار ، وجرت مذبحة .

كان الأمر كله سوء فهم يمكن تداركه . ومع ذلك فمن الصعب ـ انسانيا ـ على أى سوء فهم أن يجد من يتداركه وإلا لاستطاعت البشرية أن تتجنب كوارث متصلة باتصال تاريخها .

وكان واجب عقلاء المسلمين أن يحتووا الفتنة ويطوقوا آثارها ـ لكن ذلك لم يحدث ، وصدرت الاجتهادات والفتاوى بأن ما فعله الحجاج الإيرانيون جريمة فى حق الإسلام تصل إلى درجة الكفر . وزاد بعضهم على هذا فأورد أنه بلغه أن الحجاج الإيرانيين كانوا يهتفون بمقولة « الخمينى أكبر » بدلا من « الله أكبر » ـ ولم يكن ذلك دقيقا ، وإنما كان هتاف بعض الحجاج الإيرانيين « الخمينى داربار » أى « عاش الخمينى » ، وهو معنى يختلف ، وربما كان اللبس فيه من تقارب إيقاع الكلمات بين « أكبر » و « داربار » . ومع التسليم بأنه لم يكن ينبغى أن ينادى على مقربة من الحرم بغير اسم الله ـ فإن الأمر لم تكن فيه جريمة ، ولم يكن فيه كفر .

ودارت رحى حرب دعائية وإعلامية جددت بغير داع عصر الفتنة الكبرى فى الاسلام ، فى وقت كان العالم الاسلامى يستطيع فيه أن يستغنى عن فتنة من هذا النوع ، فقد حلت فيه من الفتن أكثر مما يحتاج وأكثر مما تقتضيه الظروف .

☐

ثم تكررت الصورة ذاتها مرة أخرى فى قضية كتاب « سلمان رشدى » الشهير الذى صدر بعنوان « آيات شيطانية » .

لم يكن « سلمان رشدى » ، وهو كاتب له مكانته ، رجلا جاهلا تعرض لما لا يعرف ـ لكنه تصرف فى « آيات شيطانية » بخفة وطيش اعترف بهما بنفسه فيما بعد .

كان « سلمان رشدى » يعرف الإسلام بوصفه مسلما بالميلاد ، وكان دارسا لتاريخه ولآدابه وحاصلا على درجة « أستاذ » فى الأدب الاسلامى من جامعة « كامبريدج » ، لكنه أراد أن يبنى روايته على أساس ذلك الخطأ الذى شاع حول الآيتين الكريمتين من سورة « الإسراء » : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلا (٧٣) ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا (٧٤) » ، وكانت بعض مصادر المستشرقين قد حاولت تأويل نص الآيتين على أساس أن نبى الله العظيم كاد يفتن عن وحى الله ، ويفترى غيره على الوحى - طبقا للظاهر من كلمات الآيتين ، ثم كان تأويلهم يصل إلى ربط ذلك بآيتين أخريين فى سورة « النجم » تقولان : « أفرأيتم اللات والعزى (١٩) ، ومناة الثالثة الأخرى (٢٠) » ، ثم راح زعمهم يقول إن الآيتين مقدمة لآية أخرى وردت بعدهما - طبقا لبعض الروايات - ثم نسخها الرسول بنفسه ، وطلب من كتاب الوحى حوله رفعها ، وكانت الدعوى تقول إن الآية المنسوخة تكمل بقية الآيتين لتجعلها تقول : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى (تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى) » ، وكان تفسير ذلك فى تأويلهم أنها خطوط اتفاق بين نبى الله العظيم وزعماء الجاهلية من قريش ، يعترف من جانبه بأصنامهم فيرضون عنه ويقبلونه خليلا لهم . ولم يكن هذا التأويل جديدا ، فقبل المستشرقين تحدثت عنه مصادر اسلامية عديدة وفندته ، وكان آخر المفندين هو الدكتور « محمد حسين هيكل » (باشا) فى كتابه الكبير « حياة محمد » .

والذى حدث أن « سلمان رشدى » استغل الهرطقات القديمة ، وبنى على أساسها قصة « آيات شيطانية » ، وكان هذا تجاوزا مريعا من جانبه أدى إلى سقوط أدبى وفكرى قبل أن يكون دينيا واسلاميا ، لأن « سلمان رشدى » أضاف إلى حكاية الآيات المدعى بها فى المراجع القديمة تجاوزا آخر فى حق بيت رسول الله الكريم يمس زوجاته ويعرض بهن .

وتلقى « الخمينى » بعد شهور من صدور الكتاب رسالة تطلب فتواه فى شأن مسلم قال كذا وكذا . وأفتى « الخمينى » - دون معرفة باسم الكاتب أو الكتاب - فتوى بأن « قائل مثل هذا القول لا يمكن أن يكون مسلما ، فإذا كان مسلما ، فقد ارتد ، وإذا ارتد المسلم أهدر دمه » . وقامت مظاهرات اسلامية فى مدن بريطانيا وفى غيرها كان محركها هو الإسلام الآسيوى الذى استفزته الرواية وأخذته حرفية النصوص !

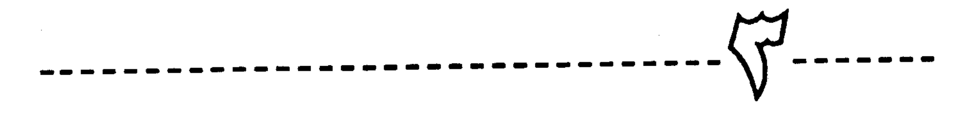
وقامت القيامة فى انجلترا ، وفى الغرب كله تدعى على الإسلام بضيق الأفق ، وتجريم الإبداع الفنى .

وفجأة بدأت مؤسسات دينية فى القاهرة تدين فتوى « الخمينى » فى قضية « سلمان رشدى » . وبدأ كلام رجال الدين عن حق المؤلف فى الخيال وفى الإبداع ، وأن

« الخمينى » رجل ضيق الأفق ومتخلف عن العصر ، وقد أساء إلى الإسلام ورسالته ، ولم يحسن إليهما كما يدعى ..

والغريب أن ذلك كان يحدث فى مصر بينما كان أحد القضاة فى لندن يصدر حكما في قضية كتاب « سلمان رشدى » لا يقضى بمصادرته ، ولكن يطالب بقانون خاص يحمى الأديان من « الإهانة » باعتبار أن الأديان يمكن تحليلها ويمكن نقدها ، لكن إهانتها تتضمن تجريحا للمؤمنين بها . وقال القاضى الانجليزى فى حكمه : « إن القانون فى بريطانيا يمنع إهانة الدين ، لكنه من سوء الحظ أن النص فيه يقتصر على إهانة الدين المسيحى ، وهذا نقص يتعين تداركه لأن المجتمع البريطانى اختلف عما كان عليه ، فأصبح مجتمعا متعدد الأديان بعدما كان مجتمع دين واحد » .

وتحولت معركة كتاب « سلمان رشدى » إلى معركة اسلامية ـ اسلامية .



ثم خطر لبعض السلطات الدينية فيما بعد أن تقوم فى الموضوع كله بخدمة سياسية تصورت أن لها فوائدها فى مجال العلاقات العامة .

وهكذا قامت بعثة من مصر تمثل وزارة الأوقاف سافرت إلى لندن ، وهناك جيء لها بـ « سلمان رشدى » يعلن عودته إلى الإسلام ومن ثم توبته ، وكان هذا فى ظن الذين فعلوه مؤديا إلى إسقاط الحكم بارتداده على أساس أنه لا يجوز حكم الردة على تائب وعائد إلى الرحاب الكريمة السمحاء .

وكان رد طهران أن الإسلام ليس أرجوحة ترتد يوما إلى هذه الناحية ، وتعود فى اليوم الذى يليه إلى الناحية الأخرى .

وأصبحت القضية معركة فى داخل الإسلام فى الوقت الذى كان فيه « سلمان رشدى » يقول فى حديث بصوته لهيئة الإذاعة البريطانية شيئا آخر أراده حلا وسطا يوفق فيه بين آراء قرائه الغربيين الذين تحمسوا لحقه فى الإبداع الفنى ، وبين مخاوفه من حكم الردة الصادر عليه ، وكان حله الوسط أنه « لم يعد للإسلام بالمعنى الدينى ، ولكنه عاد بتأكيد بيئته الثقافية » !

ولو أنه كان هناك تحقيق وتدقيق فى القضايا لاكتشف الكل أن الموضوع من أوله إلى آخره لم يكن يساوى هذه الضجة التى قامت حوله سواء بالتفسير الحرفى لنصوص الردة ، أو بالتفسير الذى اكتشف فجأة مزايا حق الكاتب فى الحرية والإبداع .

والحقيقة أن « سلمان رشدى » أخطأ بشدة فى طريقة تناول موضوعه ، ولكن الذين أدانوه أو دافعوا عنه أخطأوا أشد لأنهم جاوزوا بالأمر حدوده ، وجعلوا الإسلام بالمتشددين فى تفسيره والمتساهلين فيه فريقين : فريق من المتعصبين لأحكامهم قوة الطاعة ، وفريق من المتساهلين لا طاعة لأحكامهم من شدة التهافت . ولم يكن هناك على الناحيتين من قرأ أو حلل أو دقق ، وإنما طغت مطالب السياسة على مطالب العلم .

□

وبجهد قليل من جانب الآخرين تحولت القضايا إلى صراع بين السنة والشيعة فى الإسلام ، وأصيب الإسلام المعاصر بشرخ عميق فى بنيانه . والمحزن أن ذلك يحدث بعد سنوات قليلة من جهد عظيم قام به الشيخ الجليل « محمود شلتوت »[1] الذى أنشأ فى القاهرة مجمعا خاصا للتقريب بين المذاهب الاسلامية . وكان هذا المجمع قد وصل إلى نتائج قيمة اعترف بها « الخمينى » نفسه قائلا : « لقد كان الإسلام اليوم فى حاجة إلى رجل مثل إمامنا الشيخ شلتوت » .

كان زعيم الشيعة بهذه العبارة يعترف بالفضل لواحد من كبار شيوخ السنة فى وقت عاصفة عاتية كانت تحتاج إلى عمامة عالية المقام ترفع يدها أمام السياسة لتقول : « كفى » !

ولقد زاد على ذلك أن بعض الأقطاب من المؤسسات الدينية التقليدية تركوا أنفسهم لما سمى بشركات توظيف الأموال « الإسلامية » تستغلهم لأغراضها عن طريق إقناع المؤمنين بأن استثمار الأموال فيها حلال ، بينما هو فى البنوك أحرم الحرام .

وكانت النتيجة أن المؤسسات التى تلبس عباءة الإسلام بدت منحازة إلى صف الأغنياء ضد الفقراء ، بينما الإسلام فى كثير منه ثورة للمستضعفين ضد المستكبرين ، وكانت هذه بالضبط هى اللهجة الظاهرة فى النداء الصادر عن « قم » وطهران .

ولم يكن المستكبرون هم أغنياء وأقوياء المنطقة فحسب ، وإنما كان الطاغوت الأكبر فى تقدير الثورة الإيرانية متمثلا فى أثرياء وأغنياء العالم الحاكمين فى مصائره من واشنطن ونيويورك ، ولندن وباريس ، وغيرها .

---

(١) شيخ الأزهر فى الفترة من ٢٢ أكتوبر ١٩٥٨ وحتى وفاته فى ١٢ ديسمبر ١٩٦٧ .

ولقد أصبحت المدن العربية الكبرى مجالا مفتوحا للدعوات الأصولية ، فهذه المدن تضخمت بأعداد هائلة . فالقاهرة مثلا زاد سكانها من خمسة ملايين سنة ١٩٦٠ إلى ١٤ مليونا سنة ١٩٩٠ . وكان السبب أن المدن الكبرى أصبحت مراكز جذب للريف بما تتيحه من فرص العمل ومستويات المعيشة ، لكن المدن لم تكن قادرة على الاستيعاب ، والذى حدث أن القادمين إليها لم يستطيعوا الدخول ولا قبلوا العودة من حيث جاءوا ، وظلوا على الأطراف يصنعون حزام فقر حول المدن خطرا وقابلا للاشتعال . وكان هذا الحزام الخطر ، والقابل للاشتعال حول المدن هو مكمن كل الجماعات التى حاولت التصدى لواقع الحال ، ولو بالقنابل والرصاص .

وكانت القاهرة أسعد حالا على أى حال من مدينة عربية أخرى مثل بيروت ، ففى العاصمة اللبنانية كان حزام الفقر الذى أحاط ببيروت هو فتيل ولغم الحرب الأهلية التى عصفت بالوطن اللبنانى كله ، وهددت وجوده ذاته لأكثر من خمسة عشر عاما حتى هدأت النيران حين اكتشفت كل القوى اللبنانية أنها جميعا منهكة ، وغير قادرة على الاستمرار ، ولم يعد أمامها غير التوقف عن ألعاب النار ومغامراتها .

٤

ولقد كان من المشاكل التى استجدت أن القبائل العربية المالكة للبترول كانت تمارس دورها الجديد فى شبه الجزيرة العربية ، وهى موطن الأماكن المقدسة ، وبدا الإسلام على غير طبيعته مقترنا بالغنى والثراء .

ولم تكن المدن العربية قادرة على رعاية الإسلام السلفى المستنير ، كما عبر عنه الشيخ « محمد عبده » فى مطلع القرن ، أو حتى كما قدمه الشيخ « حسن البنا » لجيل من الشباب فى الثلاثينات من نفس القرن .

وكان العنف على وشك أن يفرض نفسه على الإسلام ، ويصبح هذا الدين السمح موزعا بين مطرقة الغنى ، وسندان الإرهاب .

وسنة ١٩٨٢ دخل الإخوان المسلمون فى مواجهة مع نظام الرئيس « حافظ الأسد » فى سوريا ، وفى مدينة حماه جرت المعركة الأخيرة واستعملت دبابات الجيش فى مواجهة

الإخوان المسلمين الذين احتموا ببيوت المدينة ، وكانت النتيجة أن راح فى المعركة ما بين عشرة آلاف وعشرين ألفا من سكان حماه .

وفى مكة سنة ١٩٧٩ فوجىء المصلون فى الحرم المكى الشريف برجل اسمه « جهيمان العتيبى » يستولى مع مجموعة من رجاله بقوة السلاح على الحرم مع صلاة الفجر ، ثم يبشر بمهدى منتظر اسمه « محمد بن الله العتيبى » جاء يحمل رسالة القرن الرابع عشر الهجرى ، وفق مقولة تدعى أنه مع بداية كل قرن هجرى جديد يظهر « مهدى » يجدد للدعوة شبابها ، ويعيد إليها نقاءها ، ويقضى على قواعد الانحراف والفجور ، ويشيع النور بعد الظلام ، ويملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت جورا وظلما .

وفى مواجهة قوة من « الفدائيين » استحكمت فى سراديب الحرم ودهاليزه ، اضطرت السلطات فى السعودية إلى الاستعانة بخبرة فرنسية فى التخطيط والتنفيذ لتصفية الموقف بعد عجز أمامه لمدة عشرة أيام .

ثم كان حادث المنصة فى القاهرة سنة ١٩٨١ حين اقتحمت خلية تنظيم إسلامى عرضا كبيرا للقوات المسلحة المصرية ، وقتلت الرئيس « أنور السادات » أمام عدسات التليفزيون وأضوائها .

ومع أن الرئيس « السادات » كان قد اختار لنفسه لقب « الرئيس المؤمن » ـ فإنه كان مأخوذا بسحر الغرب ، وفى جانب من جوانب سياسته فإن معاهدة « كامب دافيد » لم تكن بالدرجة الأولى صلحا مع إسرائيل ، وإنما كانت رغبة فى الالتحاق بالغرب ، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية .

ولم يكن الرئيس « السادات » ـ يرحمه الله ـ يخفى مقاصده ، فقد كان رأيه أن الحرب الباردة على وشك أن تنتهى ، وأن الولايات المتحدة هى الفائزة فيها . وكان تقديره فى جزء منه صحيحاً ، ولكن المحظور كان فى الوسائل التى اتبعها ، وفى مدى الارتباط بالغرب الذى تصوره وأراده . ولقد شهدت تلك الفترة موقفا واضحا فى دلالته ، فقد حدث عندما اجتمع مؤتمر القمة العربى فى بغداد سنة ١٩٧٩ أن وجدت الدول العربية التى اجتمعت هناك أن خروج مصر على الصف العربى بصلح منفرد مع إسرائيل سوف يؤدى إلى إضعاف الأمة كلها ، وإلى قسمة فى صفوفها وعزلة حين تصبح الدولة الواقعة فى القلب تماما ـ حتى بالمعنى الجغرافى ـ من العالم العربى على وشك أن تخرج من موقعها . وارتفعت أصوات فى المؤتمر تقول إن العرب لم يحسنوا التعامل مع مصر ، فقد تركوها وحدها تواجه أزمتها الاقتصادية الناشئة فى جزء منها عن تحملها بعبء فى الصراع مع إسرائيل يفوق طاقتها . وقرر المؤتمر أن يعرض على مصر مبلغ خمسة بلايين دولار

معونة لا ترد . ورفض الرئيس « السادات » مجرد استقبال وفد القمة العربية الذى حمل إليه عرضها ، وربما كان دافعه أنه كان قد فقد الثقة حتى فى جدية العرض .

ورأى الملك « الحسن » فى ذلك الوقت أن يبعث إليه برئيس ديوانه السيد « أحمد بن سودة » ليرجوه فى قبول دعوة القمة والبقاء فى الصف العربى . واستقبل الرئيس « السادات » السيد « أحمد بن سودة » واستمع إليه ، ثم فاجأه بضحكة طويلة ممتدة وقال له :

- « هل تظن أنها مسألة مال ؟ .. لقد انتهى الموضوع ، وأنا لست حريصا على البقاء فى صفوفكم . هذا العصر مضى . وأنا لا أريد أن أظل مع المتخلفين ، وإنما مكانى هناك مع المتقدمين ! »

لكن اللحاق بالمتقدمين دون ضوابط كان يمكن أن يتحول إلى نوع من التغريب أكثر منه تطورا له أسسه الثابتة ، وله قاعدته الحضارية المتسقة مع نفسها ومع العصر . ولم تكن أجواء الانفتاح هى أصلح الأجواء لمثل هذا الانتقال .

□

وكان النداء القادم بالإسلام من « قم » و « طهران » ما زال عاليا ، ولكن الاستجابة إليه راحت تقل حينما بدا أن كفاءته حصرت نفسها فى دور المدفعية ، تهدم القوائم الظاهرة لنظام فاسد ، ولكنها لا تملك وسائل أخرى غير المدفعية ، لا تكتفى بالهدم وإنما تقدر على بناء صروح جديدة لنظام أفضل .

وفى كل الأحوال ، وهذا هو الأهم ، فإن العالم العربى والإسلامى فى تلك الفترة كان يعانى من حالة فراغ مخيف نشأ عن تحويل السياسة إلى معركة دينية ، وتحويل الاجتهاد الدينى إلى معركة سياسية ، إلى جانب تحويل المال إلى دين والدين إلى مال .

إن السياسة وصلت إلى الفراغ بالسقوط فى الوهم . وفكرة استغلال الدين (ضد طبيعته) التى تقدمت فى ظرف الأزمة لملء الفراغ لم تملؤه ، وإنما أضافت إليه خواء على خواء .

وكان هذا هو مناخ أزمة الخليج ، فقد حاول البعض ملء الفراغ والخواء :
إما بكلمات مرصوصة يضيع فيها المعنى
وإما بتصرفات خطيرة يختلط فيها الحساب .

الفصل الخامس

حرب البترول الثانية

« إننى آمر الجيش الإيرانى بقبول وقف إطلاق النار شاعرا أننى أتجرع كأسا من السم » .

[« آية الله الخمينى » فى حديث إلى الأمة الإيرانية - يوم ١٨ يوليو ١٩٨٨] .

١

كانت مشاهد الحرب العراقية ـ الإيرانية تستعيد إلى الذاكرة مشاهد الحرب العالمية الأولى : الخنادق المحفورة ، والجثث والأشلاء على أطراف الخنادق وفى ظلماتها ، والمركبات المحترقة ، وقطع المدفعية المحطمة والمبعثرة على السهول والتلال . مشهد للموت والدمار يمتد وتتعارض خطوطه إلى ما لا نهاية وبعمق كل المنطقة الغربية من إيران . لم يحدث منذ معارك « السوم »[1] أن رأى العالم مذبحة من هذا النوع ، ولا شجاعة وتضحية تصل إلى هذه الدرجة . كانت روح الاستشهاد تتملك جيلا بأسره من الشباب الإيرانى راح يلقى بنفسه أمام زحف الدبابات العراقية . كان الضحايا على الجانبين قد وصل عددهم فى يوم واحد من الأيام إلى قرابة ١٠٠٠٠ شاب سقطوا على حواف

---

(١) على الجبهة الألمانية ـ الفرنسية فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) .

الخنادق . وكان بعض كبار القادة العراقيين فى ذهول من ظاهرة الاستشهاد التى يرونها أمامهم ، وفى بعض المرات كانت هذه الظاهرة تؤذيهم وتؤرقهم . وقد اشتكوا منها كمحاربين حتى للرئيس « صدام حسين » .

ولو أن مثل هذه المعركة وقعت فى أوروبا ، أو فى الحروب بين إسرائيل والعرب ـ لكان مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قد واصل السهر ليالى بعد ليال لوقفها . ومع ذلك فإن واقع الحال أن العالم وقف أمام هذا المشهد المخيف الحزين بنوع من اللا مبالاة غير المسئولة . ومن وجهة نظر الغرب فإن اللا مبالاة واللا مسئولية كانت مبررة . فلماذا يتطوع الغرب بمحاولة إيقاف معركة يجد فيها أن اثنين من خصومه قد تكفل كل منهما بالآخر .

كان النظام الإيرانى قد أغضب الغرب بإسقاط حكم الشاه الموالى له ، ثم باتباع سياسة اعتبرها الغرب معادية ، ثم جاء أخيرا احتجاز جميع موظفى السفارة الأمريكية فى إيران كرهائن بعد احتلالها والاستيلاء على مبانيها بالكامل . وأدى ذلك بواشنطن إلى قطع علاقاتها الدبلوماسية والاقتصادية مع طهران .

وكانت علاقات الغرب ببغداد أفضل قليلا . ولكن دور بغداد فى السياسات الإقليمية كان ينظر إليه بشك وريبة ، خصوصا فيما يتعلق بالصراع العربى الإسرائيلى . ولم يكن لدى واشنطن ، نتيجة لهذا ، مانع من أن تطول الحرب وأن تزيد تكاليفها . **وكان التقدير أن طول الحرب وزيادة التكاليف سوف يؤدى إلى تحجيم دور العراق الإقليمى حتى لو خرج من الحرب منتصرا . ولم يكن هذا هو رأى واشنطن وحدها ، ولا رأى بقية التحالف الغربى فقط ، وإنما كان هذا الرأى شائعا حتى لدى بعض الجيران العرب للعراق وإيران .**

كانت السعودية والكويت والإمارات وقطر وغيرها من دول الخليج تقدم للعراق مساعدات مالية مؤثرة ، ولكن أحدا لم يكن على استعداد أن يعطى ما هو أكثر من المال . وبالتالى فإنه لا الغرب ولا العرب بذلا جهودا كافية لحصر النزاع بين العراق وإيران حتى لايصل إلى الحرب ، وعندما وقعت الحرب فعلا فإن أحدا لم يتحرك لمحاصرة نيرانها ـ وربما العكس ، فقد أريد لها أن تزداد اشتعالا .

وبشكل من الأشكال فإن هذا الحال المأسوى كان يمكن فهمه ، فالولايات المتحدة كما سبق القول يسعدها أن تجد خصمين لها وقد انهمكا فى معركة حتى الموت . كما أن دول الخليج الغنية بأرصدة المال والفقيرة بعدد السكان كان يناسبها أن ينشغل جيرانها الأقوياء عنها بصراعاتهم وحروبهم . وكان الملك « خالد » ملك المملكة العربية السعودية فى ذلك الوقت ـ أكثر أمانة من آخرين فى التعبير عن مكنونات نفسه . ففى صباح يوم ٢٣ سبتمبر

۱۹۸۰ وصلت أنباء الهجوم العراقى الأول على إيران ، وكان بعض أشقاء الملك ومعاونيه ينتظرونه فى قاعة الاستقبال الكبرى فى قصره . واتخذ مكانه كالعادة فى صدر القاعة ، وجلسوا حوله صفوفا دائرة حول جدران القاعة الفسيحة . واتصل حديثهم بآخر الأخبار ، وراحوا يتناقشون ويبدون آراءهم في سير المعارك والملك ساكت لا ينبس ببنت شفة . وطال انتظارهم ، وطال سكوته ، وأخيرا هز الملك « خالد » رأسه ، وتمتم بنصف بيت شعر عربى قديم يقول : « وربما تموت الأفاعى من سموم العقارب » .

وكان كثيرون فى العالم الاسلامى والعربى فى حيرة يتساءلون فيما بينهم : « **هل الغرب بعيد بمقدار ما هو سلبى تجاه المنبحة الدائرة بين العراق وإيران ، كما هو ظاهر على السطح ؟ أم أن المسألة تنطوى فى داخلها على مقاصد ونوايا مبيتة ؟** » وكان هذا التساؤل قابلا للترجمة بطريقة أكثر وضوحا وصراحة حتى يصبح السؤال : « هل هذه الحرب هى بالفعل مصادفة مواتية للمستفيدين منها أم أن هؤلاء المستفيدين دبروا لها وسعوا ؟ ولقد كانت فى ذهن القائلين بنظرية المؤامرة ذكريات تاريخ طويل من السياسة الاستعمارية على مستويات مختلفة ظاهرة وخفية ـ ولكنه كان باديا للكل أن الطرفين المتقاتلين أقبلا على الحرب بهمة ونشاط لايمكن أن يكون لهما مصدر الا اقتناعهما الخاص بضرورات قادت خطاهما إلى ميادين القتال .

والراجح أن الحقيقة ـ كما هى القاعدة فى أى شأن انسانى ـ كانت مزيجا بين متناقضات . بمعنى آخر ، فقد كانت هناك أسباب موضوعية للصراع بين العراق وإيران . ومن ناحية ثانية فلم يكن هناك سر فى أن أطرافا معادية للجانبين وجدت فى الحرب بينهما فائدة لها . وربما لم يكن « هنرى كيسنجر » بعيدا عن الحقيقة كثيرا حين قال : « **هذه أول حرب فى التاريخ نتمنى ألا يخرج فيها منتصر ، وإنما أن يخرج الطرفان كلاهما مهزوم** » .

ولقد جرت وقائع الحرب فى طريق بدا محققا لهذه النبوءة . فعندما كان مسار الحرب يعطى للعراق اليد العليا ، كانت المساعدات على نحو ، أو آخر تجد طريقها إلى إيران ـ والعكس صحيح .

ولقد بدا الموقف الأمريكى فى أوائل الحرب أقرب إلى العراق منه إلى إيران . وكان السبب فى ذلك أن إيران حين قامت الحرب كانت لا تزال تحتجز ٥٨ رهينة من أعضاء السفارة الأمريكية فى طهران . ولم يفرج عن هؤلاء الرهائن إلا بعد ٤٤٤ يوما من احتجازهم ، وقد حدث الإفراج في آخر يوم من أيام رئاسة « جيمى كارتر » ، وقيل إن تأخير الإفراج عنهم إلى اللحظة الأخيرة من رئاسة « كارتر » جرى باتصالات بين معسكر منافسه « رونالد ريجان » وبين إيران تم فيها عقد صفقة يتأخر فيها الإفراج عن الرهائن

حتى يمر موعد انتخابات الرئاسة ويخسرها « كارتر » وينجح « ريجان » . كانت هذه الاتصالات قد تمت أساسا مع « ويليام كايسى » مدير الحملة الانتخابية لـ « ريجان » ، والذى عين فيما بعد مديرا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية . وقيل أيضا إن المرشح لمنصب نائب الرئيس مع « ريجان » وهو « جورج بوش » (الرئيس الحالى) لعب دورا فى هذه الاتصالات . واتضح فيما بعد أن تأخير الإفراج عن الرهائن كان موضع صفقة يحدث فيها تأخير الإفراج عن الرهائن ، وفى مقابل ذلك يتعهد « ريجان » بإعطاء إيران مساعدات تحتاج إليها فى المعركة مع العراق .

وكان هذا الموضوع ، لصلة « بوش » به ، قد أثير فى الكونجرس ، وجرت حوله تحقيقات ، ثم أزيح مؤقتا من قائمة الأولويات ، ولو أنه مازال معلقا يتجدد فيه الحديث بين وقت وآخر .

ويلفت النظر أن الرئيس الأمريكى السابق « رونالد ريجان » قال عندما انفجرت قضية « إيران ـ كونترا » وظهر أن الولايات المتحدة كانت تشحن أسلحة عسكرية إلى إيران فى الوقت الذى كانت تحذر فيه غيرها من شحن السلاح اليها : « **إن أسبابنا لتزويد إيران ببعض الأسلحة لم تكن نتيجة صفقة انتخابية ، وإنما كانت لأسباب متعلقة بالسياسة العليا للدولة (''Reasons of State'') » . ولم يزد على ذلك حرفا !**

وإذن فإنه ليس من باب اختلاق التهم أن يقال إن الولايات المتحدة لم تكن تريد دولة قومية نشيطة ، ولا دولة اسلامية فوارة فى المنطقة ، ولقد كان يناسبها أن تقع الحرب بين الاثنتين ، وإذا لم تكن قد شاركت فى التدبير لبعض ملابساتها ـ فقد شاركت بالتأكيد فى استمرار معاركها حتى يبلغ النزيف أشده !

□

إن الرئيس « صدام حسين » ألمح بنفسه إلى احتمالات « التدبير » مرتين فى خطاب واحد بعث به إلى الرئيس الايرانى « على أكبر هاشمى رافسنجانى » يوم ٢١ ابريل ١٩٩٠ ، عندما قال فى الصفحة الثانية من الخطاب ما نصه(٢) : « فمن بين الاحتمالات التى يحملها الموقف أن تسعى القوى التى كانت لها يد فى الفتنة التى وقعت بين العراق وإيران إلى تجديد الحرب مرة أخرى بما يبعد السلام بين البلدين » . ثم عاد فى الصفحة الرابعة من نفس الرسالة ، وقال ما نصه : « إن هذه القوى الشريرة التى نأمل أن تخيب

---

(٢) مجموعة الوثائق العراقية عن المراسلات التى دارت بين الرئيس « صدام حسين » والرئيس « هاشمى رافسنجانى » أثناء الاتصالات بينهما فى الشهور الأولى من سنة ١٩٩٠ .

آمالها وتطيش سهامها بعون الله لابد وأن تعمل على إعادة الصراع الدامى والمسلح بين إيران والعراق » .

كانت الإشارات واضحة إلى « **قوى كانت لها يد فى الفتنة** » ـ ومن سوء الحظ أن تنبه الأطراف كان متأخرا .

إن المتتبع لحركة السياسة الأمريكية طوال الحرب العراقية ـ الإيرانية كان فى وسعه أن يلحظ على الفور أن هذه السياسة تسير فى خط ملىء بالمنعرجات . فقد كان هناك دور لكل طرف من أطراف الحرب تصله المساعدات الأمريكية من نوع أو آخر . ومنذ البداية ـ كما اتضح ـ كان الهوى الأمريكى فى جانب العراق ، وكانت هناك أسباب عملية إلى جانب قضية احتجاز الرهائن فى السفارة الأمريكية بطهران :

- كانت هناك حقيقة أن إيران دولة بترولية ، وأن بترولها استعمل لفترة من الفترات احتياطيا جاهزا للبترول العربى فى حالة ما إذا تعرض البترول العربى لحظر من نوع ما طبق سنة ١٩٧٣ ـ وربما كانت الولايات المتحدة تأمل أن يجىء بعد الحرب نظام يكون مستعدا كبديل للبترول العربى فى الشرق الأوسط إذا ما استجد داع لمثل هذا البديل !
- وكانت هناك حقيقة أن الولايات المتحدة تركت فى إيران بعد الثورة مخزونات هائلة من السلاح قدمتها للشاه حينما عهدت اليه بدور رجل البوليس فى المنطقة . وربما كان بين أمانى السياسة الأمريكية أن يستنزف هذا المخزون من السلاح .
- وكانت هناك حقيقة أخرى سياسية ، وهى أن كلا من الولايات المتحدة واسرائيل كان تقديره أن دخول إيران فى حرب على نطاق واسع سوف يجعل الثورة الاسلامية مضطرة للاعتماد على الجيش الإيرانى النظامى . وكان للاثنين فى الجيش النظامى أصدقاء كثيرين من عهد سبق . ويتصل بذلك أن قيام الجيش بدور رئيسى فى حرب تدعو ضروراتها إلى الاعتماد عليه سوف يجعله أقوى من الثورة ، وبالتالى فإنه قد يصبح فى يوم من الأيام قادرا على الاستيلاء على سلطة الدولة نفسها ، خصوصا وأن « الخمينى » وحده ـ هكذا بدا ـ هو محرك الثورة ، وهو رجل ناهز الثمانين من عمره ، واختفاؤه بالموت الطبيعى أمرا محتملا فى أى يوم .

لم يكن هذا كله ، سواء بأطرافه أو بأغراضه ، واضحا أمام العراق ، ولكن العراق كان فى حد ذاته طرفا وكانت له أغراضه الذاتية . ففى عصر الشاه أرغم إرغاما على قبول تنازلات لإيران فى شط العرب . وتم ذلك أثناء اجتماع قمة دول « الأوبك » بالجزائر سنة ١٩٧٥ ، وكان العراق وقتها مشغولا بتمرد فى الشمال عطل نصف جيشه ، واستنفد

مخزونات ذخيرته حتى أنه لم يعد لدى العراق أكثر من ١٥ قذيفة من بعض أنواع قنابل المدفعية . وتصور العراق أنه بهذا الاتفاق مع الشاه يمنح نفسه فرصة سنوات يتوافر فيها على بناء قوانه من جديد ، إلى جانب التخطيط لبناء العراق نفسه ، خصوصا وقد بدأت فوائض البترول تتدفق . ولكن الثورة الإيرانية فاجأت الجميع بندائها . وكان نداؤها قادرا على تحريك مواجع قديمة حتى فى التركيبة الانسانية للعراق . فالنداء الإيرانى كان موجها بالدرجة الأولى للشيعة . والعراق نفسه هو الموطن الذى ولدت فيه عقائد الشيعة تاريخيا . ثم إن العراق كان طوال القرون الأخيرة ساحة فى الصراع بين الخلافة العثمانية السنية والدولة الإيرانية الشيعية . ثم تجىء حقيقة أن ٥٥٪ من العراقيين ينتمون إلى الشيعة مذهبا . وبالتالى فالأرض مهيأة ، ونداء الثورة الإيرانية قد يصبح مسموعا ، فإذا وصلت الاستجابة إلى مداها تفككت أوصال الدولة القومية فى العراق .

وربما أن « آية الله الخمينى » راوده كذلك أمل قيام انتفاضة شيعية فى العراق تضع العتبات المقدسة فى النجف وكربلاء تحت سيادة الدولة الإيرانية . وكان « الخمينى » يعرف أهمية هذه العتبات المقدسة ليس لأنه إمام شيعى فحسب ، وإنما أيضا باعتبار تجربته السياسية التى فرضت عليه أن يقضى ثلاثة عشر سنة لاجئا فى النجف وكربلاء بعيدا عن اضطهاد الشاه . وهكذا فإنه منذ الشهر الأول بعد الثورة الإيرانية كان التحرش بين البلدين قد ظهرت بوادره .

ومن المحتمل أن الذين سعوا لدى العراق ممن كانت لهم « يد فى الفتنة » ـ على حد تعبير الرئيس « صدام حسين » ـ ركزوا دورهم فى البداية على الخطر الإيرانى الذى يهدد الأمة العربية فى رأيهم ورأيه . وقدموا الشواهد على أن الحرب يمكن أن تكون سهلة ، فالنظام الإيرانى فى تقديرهم بعد أقل من ثلاث سنوات من الثورة غرق فى تناقضات الداخل السياسية ، والاقتصادية ، والمذهبية ، والعرقية ـ وبالتالى فهى دفعة واحدة ويسقط ، ويقوم بدلا منه نظام مسالم وموال .

وهناك شواهد تشير إلى أن السعودية كانت تملك معلومات عما يجرى داخل إيران تصل إليها بواسطة طائرات « الأواكس » الأمريكية . وحتى عندما تمكنت السعودية من شراء طائرات « الأواكس » لنفسها سنة ١٩٨٣ ، فإن عقد شراء هذه الطائرات كان ينص على تشغيلها بواسطة خبراء أمريكيين لمدة عشر سنوات ، ويكون هؤلاء الخبراء هم المسئولين عن إعداد وتقديم المعلومات إلى السلطات السعودية المختصة .

وتوحى كل الشواهد بأن السعودية قامت بتمرير ما لديها من معلومات ، ربما بقدر من حسن النية ، تجاه العراق . فقد كان المحور السياسى الرئيسى فى السياسة العربية وقتها هو محور « فهد ـ صدام » . وقد اشتكى الرئيس « السادات » فى خطاب علنى ألقاه فى شهر

مايو ١٩٨٠ من فاعلية هذا المحور ، وروى أنه فى الوقت الذى تحجب فيه المساعدات عن مصر ، أو تعطى لها « بالقطارة » ـ على حد تعبيره ـ فإن الرئيس « صدام حسين » حصل على أربعة بلايين دولار بمكالمة تليفونية واحدة مع الملك « فهد » .

٢

كان الرئيس الأمريكى « جيمى كارتر » يدرك بعمق مدى تأثير سقوط الشاه وضياع إيران من النفوذ الأمريكى ـ على مصالح الولايات المتحدة الهائلة فى منطقة الخليج . وقد راح كثير من المعلقين والمحللين السياسيين فى الولايات المتحدة يقارنون بين سقوط الصين فى يد الشيوعيين سنة ١٩٤٨ ، وبين سقوط إيران فى يد الثورة الاسلامية المعادية للولايات المتحدة سنة ١٩٧٨ . وكانت معظم التقديرات تذهب إلى أن الهزيمة السياسية الأمريكية بسقوط الشاه ـ أفدح وأخطر بالنسبة للولايات المتحدة من هزيمة فيتنام ذاتها . ذلك أن هزيمة فيتنام كانت تمس الهيبة السياسية الأمريكية فى آسيا ، إلى جانب بعض الاعتبارات الأمنية للولايات المتحدة بالنسبة لمنطقة جنوب شرق آسيا . ولقد أمكن للولايات المتحدة بعد انسحابها من فيتنام أن تتحمل ـ مهما كانت درجة الهوان ـ مرارة ما تأثرت به الهيبة السياسية . كذلك تمكنت من تعويض جزء من الخسارة الأمنية بالنسبة للمنطقة بتركيز استراتيجيتها الدفاعية على الجزر الآسيوية البعيدة عن شواطىء القارة ، مثل الفلبين وتايوان واليابان . ثم يتبقى أن فيتنام لم يكن فيها بترول ، ولا كانت فيها مصالح اقتصادية تساويه أو تدانيه فى الأهمية .

أما بالنسبة لإيران ، فقد كانت خسارتها فى قلب المصالح الأمريكية ، وأولها البترول ، كما أنها كانت فى قلب كل تصورات الأمن الأمريكية المتصلة بالشرق الأوسط ، ولم تكن هناك جزر قرب الشاطىء القارى تساعد على تحقيق الأمن فى غياب القاعدة الإيرانية . ولقد كانت للولايات المتحدة قواعد فى المنطقة ، لكن هذه القواعد كانت نائمة بحساسيات أصحابها ؛ ثم جاءت تأثيرات الثورة الإيرانية وأصبحت هذه القواعد محكومة بغياب أو غيبوبة كاملة .

وكان « جيمى كارتر » يبحث جاهدا عن وسيلة . وقرر المجىء بنفسه إلى المنطقة فى مارس ١٩٧٩ ، أى بعد شهرين من وصول الشاه لاجئا إلى مصر تاركا بلاده بما فيها

مصالح الولايات المتحدة للثورة الاسلامية . كان الهدف المعلن لزيارة « جيمى كارتر » هو حل بعض المشاكل المعلقة بين مصر وإسرائيل ، والتى عاقت حتى ذلك الوقت توقيع اتفاق السلام بينهما . ومع أن « كارتر » جاء إلى القاهرة وذهب إلى القدس ، ثم عاد مرة ثانية إلى القاهرة ، فإن أحداث إيران كانت تلح عليه أكثر من اتفاقية السلام المنتظرة بين مصر وإسرائيل .

كان مقررا أن تبدأ زيارة « كارتر » بالقاهرة يوم ٨ مارس ١٩٧٩ ، ولكن مستشاره للأمن القومى « زبجنيو برجينسكى » سبقه إلى القاهرة يوم ٥ مارس ١٩٧٩ ، وفى نفس يوم وصوله اجتمع « برجينسكى » فى بيت السفير الأمريكى بمجموعة من خبراء الأمن المقيمين والعاملين بالمنطقة ، سواء فى مجال المخابرات ، أو فى المجال العسكرى . وفى اليوم التالى كان « برجينسكى » على موعد مع الرئيس « السادات » ، وكان موضوع إيران هو الذى استغرق معظم الوقت ، وعاد « برجينسكى » فتقابل مع الرئيس « السادات » فى اليوم التالى ٧ مارس . ثم وصل الرئيس « كارتر » إلى القاهرة يوم ٨ مارس ، وعقدت بين الرئيسين جلسة مباحثات رسمية عن المشاكل المعلقة فى مشروع معاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل . ويوم ٩ مارس توجه « كارتر » و « السادات » إلى الاسكندرية » وفى استراحة المعمورة عقدا جلسة مغلقة كانت مخصصة بالكامل لإيران . والمفارقة الغريبة فى الموقف أن إيران فى عهد الشاه كانت تقوم بدور رجل البوليس الأمريكى ، يضبط بنفسه التفاعلات ويتحرك مباشرة عندما تستدعى الضرورة . والآن أصبح رجل البوليس نفسه هو المشكلة .

وكانت للمشكلة جوانب متعددة بينها أن إيران الشاه كانت هى التى تقوم بالدور الرئيسى فى النشاط الخفى فى المنطقة أو حولها . كان هذا النشاط الخفى متمثلا فى تعاون أجهزة مخابرات عدة دول فى المنطقة ، وهو التعاون الذى أطلق عليه الاسم الرمزى « نادى السفارى »(٣) إشارة إلى حجم النشاط الذى كانت تقوم به المجموعة فى القارة الإفريقية . وكان الجنرال « نعمة الله ناصرى » رئيس المخابرات الإيرانية « السافاك » هو الذى يتولى التنسيق مع قوى دولية ، وإقليمية أخرى ليست داخلة فى مجموعة « نادى السفارى » . وبوقوع إيران تحت سيطرة الثورة الاسلامية ، فإن أدوات النشاط فى المنطقة فقدت عنصرها المحرك .

وهكذا كان لابد لاستعادة إيران من تفكير جديد يستغل ويستعمل كل الفرص التى يمكن اقتناصها .

□

---

(٣) رجاء مراجعة كتاب « مدافع آية الله » لمحمد حسنين هيكل عن الثورة الاسلامية .

ولم يكن « كارتر » يريد أن يعتمد على الوسائل غير المباشرة وحدها ، فهذه الوسائل ليست مضمونة بالكامل ، كما أنها ليست تحت السيطرة الدائمة للولايات المتحدة . وبدأ التفكير فى واشنطن يركز على ضرورة إيجاد نظرية أمن أمريكية صريحة بالنسبة لمنطقة الخليج ، وبدأ التفكير فى مبدأ « كارتر » الذى انطوى على شقين : شق سياسى تمثل فى إعلان المبدأ الذى تمت صياغته وأعلنه الرئيس « كارتر » رسميا فى خطابه عن حالة الاتحاد أمام الكونجرس (٢٣ يناير ١٩٨٠) بالنص التالى :

« إن أى محاولة من جانب أى قوى للحصول على مركز مسيطر فى منطقة الخليج سوف تعتبر فى نظر الولايات المتحدة الأمريكية كهجوم على المصالح الحيوية بالنسبة لها ، وسوف يتم رده بكل الوسائل بما فيها القوة العسكرية . »

وعرف هذا الإعلان بعدها بـ « مبدأ كارتر » .

وكان الشق الثانى فى نظرية الأمن الأمريكية فى منطقة الخليج تكملة عسكرية للإعلان السياسى . وقد تمثلت فيما سمى بـ « **قوة الانتشار السريع** » .

□

فى ذلك الوقت كانت التوترات تتزايد يوما بعد يوم على الحدود العراقية ـ الإيرانية ، وتحول التلميح إلى تصريح ، ثم تحولت التصريحات إلى حملات إعلامية متبادلة . ثم تحولت الحملات الإعلامية إلى تحريض علنى على الثورة ، وكان التحريض موجها بالذات إلى الشيعة فى العراق ، وكان حزب « الدعوة » الموالى لإيران ، والذى حظر رسميا فى العراق قد نقل نشاطه إلى الخفاء تحت الأرض ، ووقعت محاولات اغتيال على الجانبين . فقد قتل « آية الله الحكيم » زعيم حزب « الدعوة » ، وجرت محاولة لاغتيال السيد « طارق عزيز » وزير الإعلام العراقى وقتها . ثم بدأت غارات الحدود . كان الموقف قد أصبح شحنة من الديناميت بين البلدين ، ولم تكن تنقصه غير الشرارة التى تشعل الفتيل . وتقطعت الجسور أمام أى احتمالات لقاء ، فقد كان الخلاف هوة واسعة بين الطرفين : كان الرئيس « صدام حسين » يرى أن ما وقع فى إيران ليس ثورة ، وإنما هو انفجار غير منظم ولا عاقل . ومن ناحية أخرى كان « آية الله الخمينى » لا يؤمن بفكرة الدولة القومية من أساسها ، ويعتبر أن الدين هو الدولة ، وأن « الأمة الاسلامية » كلها دولة واحدة .

كان الجو مشحونا بالتوتر ، وربما كانت « يد الفتنة » تلعب دورها فى الخفاء أيضا .

ومع بداية شهر سبتمبر ١٩٨٠ كان باديا أن الحدود بين العراق وإيران على وشك أن تنفجر ، فقد بدأ دوى المدافع يسمع على الناحيتين فى مبارزات بالقنابل بدل المبارزات بالدعاية أو بالرصاص . ويوم ٢١ سبتمبر كان السيد « طارق عزيز » على وشك أن يستقل

طائرة تذهب به إلى موسكو فى مهمة لاطلاع القادة السوفيت على خطورة الموقف بين بغداد وطهران . واتصل به الرئيس « صدام حسين » وهو يتأهب للذهاب إلى المطار ليخطره بأن طريق رحلته لابد أن يتغير لأن الأجواء الإيرانية التى كان مفروضا أن يعبرها فى طريقه لموسكو قد أغلقت بقرار مفاجىء اتخذ فى طهران ، وبالتالى فإن عليه أن يطلب إذنا جديدا لطائرته للمرور فى أجواء تركيا .

واجتمع مجلس قيادة الثورة فى بغداد وبحث ـ طبقا لما ترويه المصادر العراقية ـ فى احتمالات تردى الموقف . لقد أوحت الغارات المتكررة على مراكز الحدود العراقية ، إلى جانب إغلاق الأجواء الإيرانية يوم ٢١ سبتمبر ـ بأن إيران قد تكون مقبلة على عمل أكبر من مجرد غارات على الحدود . وكان التفكير العراقى « إنهم لا يستطيعون تحمل مخاطر هجوم إيرانى مفاجىء بسبب « محدودية » العمق العراقى ، فإيران ليس أمامها إلا ١٢٠ كيلومترا وتصل إلى بغداد إذا أرادت ، وأما فى حالة العراق فلا بد أن يقطع ٦٠٠ كيلومتر لكى يصل إلى طهران . » وقد توصل مجلس قيادة الثورة العراقى إلى قرار بأخذ المبادأة والاستعداد للهجوم . وصباح ٢٣ سبتمبر ١٩٨٠ قامت ١٥٤ طائرة عراقية بالضربة الجوية الأولى ، وتبعتها ١٠٠ طائرة للضربة الجوية الثانية ، ثم لحق بالضربات الجوية هجوم برى على جبهتين : جنوبا فى اتجاه عبدان ، وعلى الجبهة الوسطى فى اتجاه قصر شرين .

وكانت صحف الغرب ، بما فيها صحف لندن ونيويورك وواشنطن وحتى باريس ، تخصص صفحاتها الأولى ومكان الصدارة من صورها للجيش العراقى المنتصر ، وتكرر نعت « البطل العربى » مرات كثيرة فى وصف الرئيس « صدام حسين » . ولم تمض غير بضعة أسابيع حتى كان الجيش العراقى قد تمكن من احتلال مقاطعة « خوزستان » بكاملها ، وكان باديا أن الإيرانيين أخذوا بالمفاجأة ، ولم يكن جيشهم مستعدا للحرب ، وتطوعت أعداد كبيرة من الإيرانيين للقتال بأساليب الحرب الشعبية ، وكان القتال تطبيقا لنظرية « الخمينى » عن أن « الشهيد ـ وليس البطل ـ هو روح التاريخ » .

كانت المدرعات العراقية فى تلك الفترة من الحرب تكتسح ميادين القتال ، وكانت جحافل الشباب الإيرانى المتطوع للقتال قد ربطوا حول جباههم الأشرطة الحمراء التى تشير لانتمائهم لجيش « منتظرى الشهادة » ـ تكرارا مأساويا لمشاهد شهيرة فى تاريخ الشيعة .

□

وبعد شهور قليلة من بدء القتال (مارس ١٩٨١) سقطت داخل الأراضى السوفيتية قرب الحدود مع تركيا طائرة نقل ـ حادت عن طريقها فدخلت المجال الجوى السوفيتى ،

وسقطت دون أن يتضح بصفة قاطعة ما إذا كان سقوطها نتيجة لحادثة ، أو نتيجة لصاروخ أطلق عليها عندما دخلت المجال الجوى السوفيتى . وكانت المفاجأة أن الطائرة التى سقطت أو أسقطت كانت معبأة على الآخر بشحنة من السلاح الإسرائيلى . وكانت وجهتها إيران . وحاول السوفيت أن يحصروا الموضوع فى نطاق ضيق ، ولكن القصة تسربت إلى الأطراف بما فيها العراق . وتكفل بعض العرب بنقلها إلى « آية الله الخمينى » عتابا ، وكان تعبيره عن ضيقه شديدا فأمر بإجراء تحقيق تبين منه أن عددا من الضباط السابقين فى الجيش الشاهانى الإيرانى تحولوا إلى تجارة السلاح ، وبحكم صلاتهم السابقة بنظراء لهم فى إسرائيل ، فقد سهل عليهم شراء السلاح من هناك خصوصا وأن المصادر الأخرى كانت مراقبة ، ثم أن الضغوط كانت شديدة من طهران التى كانت تلح فى طلب السلاح ، وتبدى الاستعداد لدفع أى ثمن فى سبيل الحصول عليه .

ولم يهدأ غضب « الخمينى » وإنما انتهى بعزل الجنرال « عمر فاخورى » وزير الدفاع الإيرانى وقتها - رغم أن شواهد كثيرة كانت تبرئه من التواطؤ فى شراء السلاح من إسرائيل .

ومع تقلبات السياسة والحرب ظهر أن القضية كانت أكبر من مجرد صفقة قام بها ضباط إيرانيون سابقون فى الخفاء مع إسرائيل ، وأدت إلى غضب « آية الله » العجوز ، وإلى عزل وزير الدفاع .

ظهر أن هناك مصالح دولية كبرى تؤثر فى مسار الحرب من وراء الستار ، وتقود تطوراتها إلى قصد يتعدى إرادات الأطراف المتقاتلة فى الميدان ، ويتخطى وسائلها فى السيطرة عليه .

وانكشفت لمحة من الأبعاد الحقيقية لحركة هذه المصالح الدولية الكبرى عندما أزيح الستار عن جانب منها بانكشاف فضيحة « ايران - كونترا » التى أظهرت وقائعها أن الرئيس الأمريكى دخل فى صفقات سلاح مع إيران من وراء ظهر الكونجرس وضد قرار رسمى منه بفرض حظر على بيع السلاح لإيران بسبب احتجازها للرهائن ، ودورها فيما يسميه الكونجرس بـ « الإرهاب الدولى » !

٣

لقد انكشفت هذه الفضيحة سنة ١٩٨٦ وأحرج الرئيس الأمريكى وقتها « رونالد ريجان » ، واضطر إلى تشكيل لجنة تحقيق رئاسية خاصة عهد برئاستها إلى السناتور « جون تاور » ، واشترك فى عضويتها ، وفى التوقيع مع « تاور » على تقريرها النهائى الذى قدم للرئيس يوم ٢٦ فبراير ١٩٨٧ ـ كل من السناتور « ادموند ماسكى » المرشح السابق للرئاسة ، و« برنت سكوكروفت » .

لقد احتوى تقرير هذه اللجنة الرئاسية الخاصة ـ والذى يزيد من أهميته أن أحد أعضائها ، وهو « برنت سكوكروفت » يوصف بأنه المهندس الحقيقى لحرب الخليج بوصفه مستشار الأمن القومى الحالى مع الرئيس « جورج بوش » ـ على حقائق بالغة الأهمية تتوالى ابتداء من الصفحة الثالثة من الجزء الثالث من تقرير اللجنة الذى تصل صفحاته إلى قرابة مائتين وخمسين صفحة .

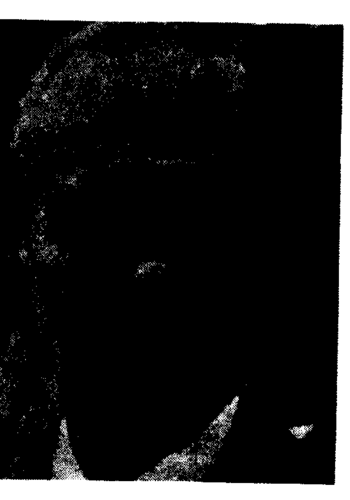
يروى التقرير أنه فى سنة ١٩٨٣ عقد مجلس الأمن القومى بالبيت الأبيض عدة اجتماعات برئاسة « روبرت ماكفرلين » مستشار الأمن القومى للرئيس « ريجان » ـ لبحث السياسة الأمريكية تجاه إيران . وكانت هناك خشية من أن هذا البلد الهام يمكن أن يضيع نهائيا بالنسبة للولايات المتحدة . وكان أهم عوامل القلق المستجد على الأحوال فى إيران هو مسار الحرب مع العراق ، وهو فى غير صالح إيران ، ثم الإحساس بأن صحة « الخمينى » تتدهور ، وأن صراعا داخليا على السلطة يمكن أن ينشأ فى ايران ويقودها لحالة من الفوضى تنتهى بإطلاق يد العراق فى منطقة الخليج . وخلصت الدراسات إلى أن الولايات المتحدة فى الأوقات الراهنة لا تملك خطة سياسية كاملة للتصرف حيال التطورات فى إيران ، وكذلك فإنها لا تحتفظ بصلات لها قيمة مع أية عناصر مؤثرة داخل إيران يمكن أن تساعد على تنفيذ هذه السياسة .

ثم عرضت على لجنة مجلس الأمن القومى مذكرة كتبها أحد خبرائه ، وهو « جراهام فولير » مسئول المجلس عن شئون الشرق الأدنى وجنوب آسيا ، وجاء فيها أن الصراع الداخلى فى إيران يمكن أن ينفجر حتى فى حياة « الخمينى » ، وأن الاتحاد السوفيتى ، وليس فقط العراق ، قد يستفيد من مثل هذا الانفجار .

وفى ١١ يونيو ١٩٨٥ كانت الدراسات فى مجلس الأمن القومى الأمريكى قد توصلت إلى نتيجة مؤداها أن ترك إيران تحصل على احتياجاتها من السلاح بطريقة عشوائية يجب أن يتغير . وظهرت فى توصيات اللجنة الخاصة فقرة لافتة للنظر تقول : « إن الولايات


أوليفر نورث


روبرت ماكفرلين


برنت سكوكروفت

المتحدة يتعين عليها أن تشجع حلفاءها الغربيين وأصدقاءها على مساعدة إيران فى الحصول على طلباتها واحتياجاتها ، بما فى ذلك المعدات الحربية التى تحتاج إليها . »

ثم يشير تقرير لجنة « تاور » إلى أن إسرائيل ظهرت فى الأفق بعلاقات ومصالح خاصة مع إيران . ويستطرد ليقول فى فقرة منه بالنص : « إن إسرائيل لها مصالح وعلاقات طويلة المدى مع إيران ، كما أن هذه العلاقات تهم أيضا صناعة السلاح الإسرائيلى . فبيع السلاح إلى إيران يمكن أن يحقق الهدفين فى نفس الوقت : تقوية إيران فى حربها ضد العراق وهو عدو قديم لإسرائيل ، كما أنه يساعد صناعة السلاح فى إسرائيل .(٤) ولما كان معظم السلاح الإيرانى سلاح جرى شراؤه من الولايات المتحدة (فى وقت الشاه) فإن إسرائيل طلبت موافقة الولايات المتحدة لأسباب قانونية وعملية . ثم إن بعض العناصر فى إسرائيل تريد بلا شك إشراك الولايات المتحدة فى هذه السياسة لأسباب كثيرة متعلقة بها ، أهمها أن تباعد بين الولايات المتحدة والعالم العربى مما يحقق دور إسرائيل كشريك استراتيجى وحيد للولايات المتحدة الأمريكية . »

---

(٤) يقدر الكولونيل « أوليفر نورث » ـ من مساعدى مستشار الأمن القومى فى البيت الأبيض ، وهو المسئول الأول فى ترتيب التعاون العسكرى بين إسرائيل وإيران ـ أن حجم مبيعات السلاح الإسرائيلى لإيران وصل إلى « عدة بلايين من الدولارات » . وقد ذكر ذلك فى مذكراته التى نشرها أواخر سنة ١٩٩١ بعنوان « تحت النار » .

ثم يمضى التقرير فيشرح « أن عناصر فى الحكومة الإيرانية كانت فى ذلك الوقت تبحث عن سلاح أمريكى وقطع غيار وذخائر له فى أى مكان . وأن رئيس وزراء اسرائيل « شيمون بيريز » أخذ ذلك الموضوع تحت اهتمامه الشخصى مباشرة ، وكلف اثنين من مساعديه هما « أدولف سكويمر » و « ياكوف نامرودى » بمتابعة هذا الأمر . ثم تولى « أميرام مير » وهو المستشار الخاص لـ « بيريز » مهمة إشراك رجل الأعمال العربى « عدنان خاشقجى » فى هذا الأمر ليكون وسيطا وغطاء ملائما . وأن هذه المجموعة من الرجال كانوا يؤمنون بوجود مصلحة أمريكية ـ إسرائيلية ـ إيرانية يلائمها فتح قناة اتصال مع ايران تشمل ضمن ما تشمل عمليات بيع أسلحة . »

ثم يشير التقرير إلى اجتماع جرى فى مستشفى أجرى الرئيس « رونالد ريجان » فيه عملية جراحية لإزالة ورم سرطانى ، وذهب إليه « ماكفرلين » مستشاره للأمن القومى طالبا إذنه وعلى عجل لفتح خط اتصال مع إيران دون انتظار . وكان رد « ريجان » بالحرف : "Yes, go ahead, open it up" ـ أى « نعم اذهب قدما وافتحه » .

وبدأت صفقات السلاح تصل إلى إيران . والغريب أن مستشار الرئيس للأمن القومى ومعه أحد مساعديه وهو الكولونيل « أوليفر نورث » ـ ذهبا فى زيارة سرية لإيران .

وكان الترتيب الذى جرى لإخفاء التفاصيل عن الكونجرس ، ولعدم طلب اعتمادات مالية بقوانين منه هو أن تقوم إسرائيل ببيع سلاح من انتاجها لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية لتقديمه لجماعات « الكونترا » المعارضة لحكومة نيكاراجوا (وكان الكونجرس يوافق على مساعدتهم) ـ ثم يحتسب البيع لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية بسعر أعلى ، ويذهب الفرق إلى تمويل تصدير السلاح لإيران مضافا إليه ما تدفعه إيران لشراء هذا السلاح .

□

إن هذا الترتيب لم يستطع أن يؤمن لإيران كميات كانت تحتاجها من السلاح ، فلم **يزد ما وصل إيران عن طريقه على أكثر من** ١٥٠٨ صواريخ « تاو » ، و ١٨ صاروخ **« هوك » . ثم قامت إيران برد هذه الصواريخ لأنها لم تجدها مطابقة للمواصفات** . لكن الأهم **من ذلك كله أن أبواب السلاح بدأت تتفتح أمامها من كل مكان** ، مع الإحساس بأن الولايات **المتحدة راغبة ومحبذة** .

وكانت أسواق بيع السلاح سرا فى ذلك الوقت أشد ما تكون ازدهارا .

كانت تلك فترة تفتحت أبواب الجنة فيها لتجار السلاح ، فقد كان شرر الحرب يتطاير فوق آفاق كثيرة فى السنوات الأخيرة اليائسة من الحرب الباردة .

كانت هناك حروب القرن الإفريقى بين دول ودول ، وشعوب وشعوب ، وقبائل وقبائل . وبجوار حروب القرن الإفريقى ، كانت هناك الحرب الأهلية فى جنوب السودان ، والحرب فى تشاد التى زاد عليها أن قوى عظمى دخلت فيها بجنودها مباشرة .

وكانت هناك الحرب اللبنانية التى أباحت لنفسها أموال البنوك المنهوبة من بيروت بمئات الملايين ، والتى كانت فى مقدور أطرافها شراء أى سلاح يرون صورة له فى مجلة من المجلات .

وكانت هناك حروب أمريكا الوسطى : نيكاراجوا ، وكوستاريكا ، وسان سلفادور - فضلا عن أن الأرجنتين كانت تحاول تعويض خسائرها فى حرب الفوكلاند .

وكانت هناك حروب صغيرة كثيرة تغطى وجه آسيا ابتداء من حركات انفصالية فى الهند وباكستان ، إلى امبراطوريات لجنرالات المخدرات فى منطقة المثلث الذهبى على الحدود بين تايلاند وبورما . وكانت تجارة المخدرات قد دخلت فى حلف غير مقدس مع تجارة السلاح من هذا المثلث الذهبى إلى سهل البقاع فى لبنان مارا بأفغانستان مستعملا نفس طريق التجارة القديم الذى أطلق عليه وصف « طريق الحرير » والذى أصبح اسمه الآن « طريق الحشيش » .

وكانت أفغانستان قصة وحدها فى تجارة السلاح . فقد كان « المجاهدون » الأفغان فى حاجة للكثير منه ، وأنشىء صندوق خاص مشترك فى سويسرا مولته المخابرات السعودية بالاشتراك مع المخابرات المركزية الأمريكية . وكانت ميزانية هذا الصندوق تتكون من ٢٥٠ مليون دولار (أودعت كحساب دوار ، أى حساب تزيد ودائعه بمقدار ما يصرف منه باستمرار ليظل رصيده كاملا وجاهزا للمطالب والطوارىء . وكان بعض هذه المطالب والطوارىء غريبا ، فقد طلب « المجاهدون الأفغان » ذات مرة سنة ١٩٨٥ عشرة آلاف بغل ، وقد جرى شراؤها من قبرص (بعمليات وساطة فى القاهرة) وتم شحنها عن طريق قناة السويس إلى كاراتشى فى باكستان ، ومنها بالبر إلى الحدود الأفغانية . وكانت البغال قد أصبحت أفضل المركبات فى الجبال الوعرة لأفغانستان) .

□

وبدأ اتجاه الريح يتغير فى المعارك بين العراق وإيران . وبعد أن كانت اليد الطولى فى الحرب للعراق - أصبحت الريح مواتية لإيران التى بدأت تأخذ جانب الهجوم . كان الحصول على السلاح قد أصبح متاحا لطهران ، وكانت المقاومة الإيرانية تشتد كلما تقدم الجيش العراقى فى العمق الإيرانى ، كما أن خطوط المواصلات العراقية كانت قد طالت ، وتكاليف الحرب زادت .

وراح العراق يعبىء موارده . وينظم امكانياته الصناعية والعسكرية . ويشتد فى طلب المساعدة المالية من عرب الخليج الذين كانوا يخشون الخطر الايرانى ، ويقلقون من نداءاته للكتل الشيعية فى بلادهم .

وكان العراق منذ وقت مبكر قد بدأ يشترى ذخائر من مصر صنعت فيها لملاءمة الأسلحة السوفيتية التى كان الجيش المصرى يستخدمها حتى وقت قريب . وكان الرئيس « السادات » هو الذى أصدر أمرا بالاستجابة لأول طلب عراقى قدم لمصر عن طريق سلطنة عمان مبكرا سنة ١٩٨١ . ولم تمض إلا شهور قليلة حتى كانت معظم خطوط الانتاج فى مصانع الذخيرة المصرية تعمل للجيش العراقى . واستمر الحال على ذلك سنوات .

وبعد تصدير الذخائر جاء الفور على تصدير المعدات وبالذات المدفعية(٥) ، فقد كان لدى مصر كثير من السلاح السوفيتى فى الوقت الذى كانت تتجه فيه لشراء السلاح الأمريكى ، وأصبح المنطق السائد وقتها هو أن تبيع مصر من مخزون سلاحها الروسى كل ما تستطيع بيعه للعراق ، وتشترى بثمنه سلاحا تريده من الولايات المتحدة . ولسنوات متصلة بلغ متوسط مبيعات مصر من الأسلحة السوفيتية للعراق ما حجمه ألف مليون دولار سنويا . وكانت الجهات المعنية فى مصر سعيدة بهذا الترتيب لأنها تتخلص من معدات لا تريدها ، وكان جهاز التسليح فى العراق سعيدا لأنه يحصل على معدات يريدها ، وإن اشتكى فى بعض المرات من أن أسعار السلاح الذى تبيعه مصر كانت غالية . وفى بعض الأحيان كانت الشكوى أن سعر بعض أنواع المدفعية وصل إلى ضعف الثمن الذى دفعه العراق لشرائها من يوجوسلافيا .

□

لكن احتياجات العراق من السلاح كانت تتزايد خصوصا بعد الهجوم الإيرانى المفاجىء الذى نجح فى احتلال شبه جزيرة « الفاو » التى تطل مباشرة على جزر « بوبيان » و « وربة » التابعة للكويت . وكان الخليج كله فى هذه اللحظة على استعداد لأن يعطى العراق كل ما يطلبه ، وبالفعل فإن العراق حصل من دول الخليج فى هذه الفترة وحدها على ما يقرب من ١٢ بليون دولار . ولم يعد ما تصدره مصر من السلاح الذى لم تعد تحتاجه كافيا . ولم يكن العراق يستطيع أن ينزل بنفسه إلى أسواق السلاح مشتريا ، وبدأ إعداد ترتيبات تنشأ بمقتضاها واجهات عربية تشارك فيها عناصر مصرية ، ويكون دورها شراء السلاح للعراق من أوروبا الغربية وغيرها . وكانت الصعوبة الوحيدة فى هذه العملية أن كل بائع للسلاح فى العالم لابد لكى يحصل على الإذن بالتصدير من حكومة بلاده (وهى

---

(٥) لسنوات طويلة كان كل انتاج مصر من ذخائر المدفعية عيار ١٢٢ ملليمترا يباع للعراق .

بلد المنشأ) أن يقدم « شهادة مشتر نهائى » لهذا السلاح لا يكون خاضعا لأى حظر من أى نوع ، وهى شهادة تسمى "End User Certificate" . وكان صدور مثل هذه الشهادات عن أى بلد عربى من الداخلين فى العملية يمكن أن يحرج الشركات البائعة . وجرت اتصالات مع الجنرال « موبوتو » رئيس زائير الذى كان مستعدا لإصدار أى عدد من الشهادات المطلوبة مقابل أن يدفع الذين يطلبونها . وهكذا أمكن تصدير أسلحة كثيرة من أماكن عديدة تصاحبها شهادات تشير إلى أن وجهتها النهائية هى زائير . ولكن هذه الشحنات كانت تنقل إلى بواخر أخرى فى مكان ما من البحر الأبيض ، وتجد طريقها على نحو أو آخر إلى العراق .

ثم اتسع المجال بعد ذلك بشدة لأن العراق بدأ يدخل من أوسع الأبواب إلى مجال تصنيع السلاح .

٤

كان تصنيع السلاح فى العالم العربى قد بدأ يفرض نفسه على الاهتمام بعد حرب ١٩٤٨ . وفى العصر الملكى أنشئت فى مصر أول مصانع للذخيرة فى العالم العربى . وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ حدثت طفرة كبيرة فى مجال إنتاج السلاح . ثم حدثت نقلة نوعية رئيسية بعد حرب سنة ١٩٥٦ ، حين خرجت إسرائيل من معركة السويس دون أن تحقق أياً من أهدافها ، وأحست أن بريطانيا وفرنسا ـ شركاؤها فى هذه المعركة ـ تخلوا عنها فى ساعة الشدة ، وأن عليها إذا ما أرادت تحقيق أهدافها أن تعتمد بالدرجة الأولى على نفسها وعلى الصهيونية الدولية .

وبدأت إسرائيل برنامجا ضخما لتصنيع الأسلحة ، من الطائرات والصواريخ إلى الأسلحة النووية والكيماوية وحتى البيولوجية . واتخذت مصر قرارا استراتيجيا سنة ١٩٥٧ بألا تتخلف فى هذه المجالات كلها ، وإنما عليها أن تدخل السباق وتختار من مجالاته ما يمكنها من تحقيق نوع من التوازن فى وسائل العمل العسكرى المحتمل فى المنطقة .

ودخلت مصر برنامجا لإنتاج الطائرات ، ومنها « القاهرة ١٠٠ » و « القاهرة ٢٠٠ » و « القاهرة ٣٠٠ » ، وكان المشروع مشتركا مع الهند . وشارك فى التخطيط له وتنفيذه

عدد من الخبراء الألمان . وحدث نفس الشيء تماما فى مجال الصواريخ ، فتم إنتاج طراز « القاهر » و « الظافر » ، ثم ظهر الصاروخ من طراز « الرائد » ، وكان صاروخا من مرحلتين يصل مداه إلى أكثر من مائتي كيلومتر .

وفى نفس الوقت راحت مصر تحاول فى المجال النووى . وفى أوائل السبعينات توقفت هذه المحاولات جميعا لأسباب متعددة . ولكن بعض العلماء والخبراء الذين ارتبطت أعمالهم وآمالهم بهذه المشروعات ، راحوا يبحثون حولهم فى العالم العربى عن فرصة تمكنهم من مواصلة ما بدأوه . وكان العراق الذى بدأ بالفعل عملية دخول صناعة الأسلحة بكل أنواعها ، هو الذى أعطاهم الفرصة . ولم يشعر هؤلاء وهم يتوجهون بعلمهم وخبراتهم إلى بغداد أنهم مرتزقة ، وإنما كان شعورهم أن خدماتهم مازالت فى إطارها القومى لم تبتعد عنه ، وكان بين هؤلاء عالم الذرة المصرى الدكتور « يحيى المشد » الذى اغتالته المخابرات الإسرائيلية (الموساد) بعد ذلك فى فندق « ميريديان » فى باريس . ولم تكتف إسرائيل باغتيال الدكتور « المشد » ، وإنما مدت جهودها لنسف توربينات المفاعل « أوزيراك » النووى الذى كان العراق يبنيه . وتمت عملية النسف قبل شحن التوربينات من ميناء مارسيليا بيوم واحد . ثم انتهى الأمر بإسرائيل إلى ضرب المفاعل العراقى كله فى يناير ١٩٨١ .

ولم يتوقف العراق بضرب مفاعله ، بل لعله يصح القول بأن برنامجه النووى أعطى نفسه انطلاقة جديدة بالكامل فى مواجهة التحدى ، واستطاع رئيسه الدكتور « جعفر ضياء جعفر »[٦] أن يحقق نجاحا مشهودا فى عديد من المجالات التمهيدية لمشروع نووى يعتبر أكثر المشروعات النووية تقدما فى العالم العربى .

□

لقد بدأ الجهد العربى فى مجال الأسلحة الكيماوية فى مصر أيضاً ـ وضمن نفس الخطة الاستراتيجية التى اتخذ بها قرار ملاحقة إسرائيل سنة ١٩٥٧ . وكان مجال الأسلحة الكيماوية من أصعب المجالات فى ذلك الوقت ، ذلك لأن الأبحاث العلمية بشأنها توقف نشرها منذ سنة ١٩١٤ . كان البحث العلمى فى العالم متصلا لكن النشر كان محظورا . وكانت إسرائيل فى وضع يمكنها من الوصول للمحظور ، وهكذا كان على مصر أن تبدأ منذ البداية . وأسندت إدارة المشروع سنة ١٩٥٧ إلى خبير كيميائى من أبرز الخبراء

---

(٦) من عائلة عراقية كبيرة (كان والده أحد وزراء « نورى السعيد ») ، وقد تخصص فى العلوم النووية فى الكلية الإمبراطورية فى لندن سنة ١٩٦٠ . ولم تكن شخصيته معروفة ، ولكن المخابرات المركزية الأمريكية والموساد قامتا بجهد مكثف للكشف عنه ، وقد أذاعتا اسمه وصورته .

المصريين[٧] ، وكان تقديره أن التمهيد الصحيح للمشروع يكمن فى عنصرين : العنصر الأول هو عنصر إعداد العلماء والخبراء الذين يحملون مسئولية المشروع . والعنصر الثانى هو إعداد مكتبة خاصة تتجمع فيها كل المواد العلمية المتاحة التى يمكن الحصول عليها . وفى سنة ١٩٦٠ كانت المرحلة التمهيدية قد انتهت ، وأصبحت المرحلة التنفيذية قابلة للتحقيق . ودارت فى أوساط صنع القرار الاستراتيجى المصرى مناقشة عميقة ومكتومة ، فالآن وقد أصبح التنفيذ ممكنا تعلقت بالقرار أسباب قانونية وأسباب أخلاقية . أما السبب القانونى فكان مرده إلى واقع أن إنتاج الأسلحة الكيماوية واستعمالها محظور دوليا . وكان الرد على هذا السبب هو أن دول العالم الكبرى كلها ، بما فيها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا ، تنتج أسلحة كيماوية وتحتفظ بمخزونات كبيرة منها . وأما السبب الأخلاقى فقد تولى علماء المشروع الذين هيأوا لمرحلته التنفيذية الرد عليه ، وكان رأيهم - وقد أيدهم فيه عدد من العسكريين - أن الغازات ليست أكثر فتكا من الأسلحة التقليدية ، وفى حين أنه ليست هناك وقاية ضد أسلحة النار التقليدية (الرصاص والقنابل والصواريخ) - فإن الأسلحة الكيماوية يمكن توقى خطرها عن طريق الأقنعة . ثم إن الأسلحة الكيماوية لا تؤثر على المعدات والمنشآت ، أو البنية الأساسية .

وأخيرا أعطى « جمال عبد الناصر » موافقته على البدء بإنتاج الأسلحة الكيماوية ، وكان منطقه أنه مادامت إسرائيل تنتج هذا النوع من الأسلحة ، فليس هناك سبيل غير أن تلحق بها مصر . وكان القرار يتضمن إبقاء المشروع المصرى سرا حتى على السوفيت رغم اقترابهم من مجمل مشروعات التسليح المصرى . وعندما جاءت معركة سنة ١٩٦٧ كان المشروع المصرى قد حقق تقدما كبيرا فى إنتاج نوعين من الأسلحة الكيماوية : نوع يعتمد على غاز الـ « خردل » "Mustard" (وهو كاو) ، ونوع آخر يعتمد على غاز الـ « فوسيجين » "Phosegen" (وتأثيره يتركز على الجهاز العصبى) . ولم تستعمل الغازات فى معركة ١٩٦٧ ، وإن بدا أن الحاجة قد تدعو إليها فى المعركة القادمة لإزالة آثار العدوان . وبالفعل فإن الفترة الثانية من معركة ١٩٦٧ شهدت خطوات كبيرة فى مجال الأسلحة الكيماوية ، فقد أمكن تطويع موادها لتستعمل بواسطة الصواريخ ، كذلك أمكن التوصل إلى غاز الـ « سارين » "Sarin" .

ثم تحقق بعد ذلك الوصول إلى غاز الـ « سارين الثنائى » أو « المزدوج (Binary Sarin) » وأثناء الإعداد للخطة « جرانيت -١ » التى بدأ وضعها سنة ١٩٦٩ لعبور قناة السويس كانت احتمالات الخطة تشتمل على إمكانية استخدام الأسلحة الكيماوية للتغلب على

---

(٧) يتحتم حتى هذه اللحظة وحفاظا على أمنه الشخصى ، إبقاء اسمه سرا لا يذاع .

مقاومة النقاط الاسرائيلية على الشاطىء الشرقى للقناة . وكانت خطة العمل على الجبهة الشرقية ، وسوريا مشاركة فيها ، قد أخذت فى اعتبارها احتمال الاحتياج إلى أسلحة كيماوية فى المعركة من أجل مرتفعات الجولان . وفى ذلك الوقت ذهب مسئول المشروع إلى سوريا ، وقابل الرئيس « حافظ الأسد » وهو وقتها وزير الدفاع فى سوريا ، وبالفعل اشترى الجيش السورى ما قيمته ٦ ملايين دولار من أسلحة الحرب الكيماوية من المصانع المصرية .

وعندما وقعت معركة أكتوبر كان القرار السياسى هو تأجيل استعمال الأسلحة الكيماوية رغم أن أقنعة واقية وزعت على الوحدات العسكرية المصرية . وعندما وقعت الثغرة ، وبدأ الاختراق الإسرائيلى المضاد إلى الشاطىء الغربى من قناة السويس ، كان رأى بعض عناصر القيادة أن الوقت قد حان لاستخدام الأسلحة الكيماوية . وعندما عرض الأمر على الرئيس « السادات » ، كان رأيه المسجل فى إشارات الحرب من كلمتين : « لا تصعيد » ـ وكان قراره سليما .

وضمن التحولات التى وقعت بعد ذلك فى الاستراتيجية المصرية ، جاء (١٩٧٤) قرار بوقف أى نشاط فى مجال الأسلحة الكيماوية .

□

وأثناء احتدام المعارك على جبهات الحرب العراقية ـ الإيرانية بدأ العراقيون يلتفتون إلى الأسلحة الكيماوية ، وكان ظنهم أنها تمثل الوسيلة الوحيدة لوقف تقدم الموجات البشرية الإيرانية . وقد بدأوا فى المراحل الأولى من الحرب فى شراء الغازات من إيطاليا وألمانيا ، ثم تحول اهتمامهم إلى ضرورة إنتاجها . ومرة أخرى كان المشروع المصرى قريبا على البال . وسنة ١٩٨٢ كان اللواء « نزار عبد الحميد » مدير الحرب الكيماوية فى العراق ـ فى زيارة لمصر هدفها محاولة جمع ما تبقى من المشروع المصرى لإعطائه حياة جديدة فى العراق . واعترض الرئيس « حسنى مبارك » على بيع المخزونات المتبقية من المشروع المصرى للعراق ، ولكن الحكومة المصرية لم يكن فى وسعها أن تعترض على اشتراك علماء مصريين فى المشروع العراقى .

ومرة أخرى لم يشعر العلماء المصريون الذين ذهبوا للمعاونة فى المشروع العراقى أنهم يبيعون خدماتهم ، وإنما أحسوا أنهم داخل نطاق ولائهم القومى لم يخرجوا عنه . وفى العراق ، وتحت ضغوط الحرب وبموارد كثيفة ، أمكن تحقيق قدر من التقدم كبير فى مجال الأسلحة الكيماوية . وقد تمكن العراق بالفعل قبل أن تجىء حرب الخليج من تعبئة أكثر من ألف صاروخ متعددة الطرز من « سكود » إلى « صقر » بغازات الـ « خردل » والـ « سارين » .

□

وكانت تجربة أسلحة الحرب البيولوجية فى مصر قضية أقصر عمرا بكثير . فقد بدأ الاهتمام بها فى نفس الوقت مع الأسلحة الكيماوية . ورئى أن كل الأبحاث المتعلقة بها يجب أن تتم فى عزلة كاملة عن التجمعات السكنية . وبالفعل خصصت لها جزيرة صغيرة فى البحر الأحمر أمام رأس بناس . وشحن إلى هذه الجزيرة قطيع من القرود جرى استيراده من الهند لإجراء التجارب عليه . وبدأت بالفعل تجارب لتربية ميكروبات يمكن تعبئتها فى قنابل . ومع ذلك فإنه برغم النجاح الذى حققته المراحل الأولى فى مجال الأسلحة البيولوجية ، فإن « جمال عبد الناصر » طلب إيقاف المشروع بالكامل لأن مخاطره كبيرة ، فالميكروبات لها حياة طبيعية فى حد ذاتها ، وقد تنتشر بالعدوى بغير وسيلة القنابل ، كما أن أية أسلحة يمكن متابعتها بالنظر ، وأما الميكروبات فإن متابعة حركتها وتسربها قد يكون صعبا مهما أحكمت الرقابة . ومع ذلك فإن العراقيين فى مرحلة من المراحل اهتموا بأسلحة الحرب البيولوجية ، ولكنهم على الأرجح توصلوا إلى نفس النتيجة التى توصل إليها المشروع المصرى من قبل ، ولم يقوموا بتوسع يذكر فى مجالها .

□

ومع تزايد اتفاقيات الأسلحة التقليدية بين مصر والعراق فى منتصف الثمانينات - وقعت نقطة انطلاق جديدة فى مجال الصواريخ . فقد بدأت مصر والعراق والأرجنتين تتعاون معا فى مشروع واحد لإنتاج الصواريخ عرف باسم « كوندور » . وكانت الفكرة الأساسية فيه أن الأرجنتين استطاعت أن تتحصل على قدر كاف من تكنولوجيا الصواريخ بسبب من لجأوا إليها من العلماء الألمان . وأن العراق الذى يبدى اهتماما كبيرا بهذا السلاح لديه الموارد المالية اللازمة . وأن مصر بخبرتها السابقة تستطيع أن تقوم بالتنظيم الضرورى بين التكنولوجيا والموارد . وبالفعل فإن هذا المشروع وجد طريقه للتنفيذ ، ولكن بداياته كانت متعثرة . فقد تكلفت الأعمال التحضيرية الإدارية مبالغ تصل إلى ٥٠٠ مليون دولار . كذلك فإن إسرائيل أحست مبكرا ، وعلى الأرجح من مصادر أرجنتينية ، أن هناك مشروعا مشتركا لإنتاج الصواريخ . وبدأت « الموساد » حملة ضد بعض العلماء من جنسيات مختلفة الذين سعى إليهم المشروع المشترك ، أو سعوا هم إليه . وقد رافقت ذلك حملة ضد بعض الشركات الأوروبية (الألمانية بالذات) التى قامت بتوريد معدات هذا المشروع . ووصلت الحملات إلى حد قتل الأفراد ونسف المنشآت - حتى فى ألمانيا وسويسرا . وكانت إدارة المشروع تحاول أن تعمل فى الخفاء ، وقد بدأت من مقر فى مونت كارلو ثم انتقلت لمقر فى النمسا . ثم وقع المشروع كله فى مأزق لم يستطع الخروج منه ، وذلك حينما استطاع أن يضم إليه عالما مصريا يعمل فى الولايات المتحدة ، ومقيما

فيها ، وحاصلا على الجنسية الأمريكية . واستطاعت إدارة التحقيقات الفيدرالية الأمريكية (F. B. I.) أن تسجل مكالمة تليفونية بين أحد الضباط المصريين العاملين فى المشروع ، وكان يتحدث من النمسا ، وبين هذا العالم المصرى فى كاليفورنيا ـ انكشف فيها أن هذا العالم كان مكلفا بالحصول على مادة « كاربون فايبر » التى تستعمل فى طلاء الطائرات والصواريخ لكى يجعلها تتغلب على الكشف الرادارى المبكر . وكانت هذه المادة من أهم أسرار صناعة السلاح العسكرية فى الولايات المتحدة ، إذ كانت تستعمل فى الطائرات من طراز « الشبح » (Stealth) . وبالتالى فإن حكومة الولايات المتحدة التى تمكنت من ضبط كمية من هذه المادة التى كان مقررا تحميلها سرا على ظهر طائرة مصرية عسكرية خاصة ـ قررت التصرف على أرفع مستوى ممكن . فلم تكتف بضبط مادة الـ « كاربون فايبر » ، ولم تكتف بالقبض على العالم المصرى ومحاكمته ، وإنما وصل الأمر إلى حد أن قام الرئيس الأمريكى « جورج بوش » بإثارة الموضوع مع الرئيس « حسنى مبارك » فى أول مرة اجتمعا فيها بعد تولى « بوش » لرئاسة الولايات المتحدة ، وكان اجتماعهما يوم ٣ أبريل ١٩٨٩ .

وتوقف مشروع « كوندور » . وكانت مضاعفات الأزمة الناشئة عنه بين الأسباب التى دعت إلى خروج المشير « عبد الحليم أبو غزالة » من منصب وزير الحربية .

□

ولم يكن العراق قد قصر اهتمامه فى مجال الصواريخ على مشروع « كوندور » وحده ، وإنما كان توسعه فى صناعة الصواريخ فى داخل العراق كبيرا . وكان الجزء الأكبر منه مركزا على تطوير صاروخ « سكود » الروسى الذى كان له دور كبير فى إنهاء الحرب مع إيران .

والحاصل أنه فى المراحل الأخيرة من الحرب العراقية ـ الإيرانية كان العراق قد تمكن من أن يعطى نفسه تفوقا ساحقا فى ميدان القتال . ولقد حارب الجيش العراقى خمس معارك رئيسية[٨] فى الفترة ما بين أبريل وأغسطس ١٩٨٨ ـ لاح معها وكأن القيادة العراقية وضعت لنفسها جدول أعمال مرتب ومنظم مضت فى تنفيذه خطوة بعد خطوة :

● جرت **المعركة الأولى** ما بين ١٧ و ١٨ أبريل ، وفيها استطاع الجيش العراقى أن يستعيد شبه جزيرة الفاو .

---

(٨) تقرير مركز الدراسات الاستراتيجية التابع لقيادة القوات الأمريكية المشتركة ، والصادر فى ابريل سنة ١٩٩٠ .

● ثم لحقتها المعركة الثانية ، وقد استمرت لمدة ثلاثة أسابيع ، واستطاع الجيش العراقى فيها أن يستعيد كل الأراضى المحيطة بميناء البصرة .

● ثم دارت المعركة الثالثة ، وتم فيها استرداد حقول البترول فى منطقة « مجنون » الواقعة وسط المستنقعات الجنوبية شمال البصرة .

● وأما المعركة الرابعة ، فقد استهدفت تطهير الطريق الرئيسى بين البصرة وبغداد وما حوله .

● ثم كانت المعركة الخامسة ، وفيها استطاع الجيش العراقى التقدم إلى عمق ٦٠ كيلومترا داخل الأراضى الإيرانية .

وفى ١٨ يوليو ١٩٨٨ جاء الإعلان الشهير لـ « آية الله الخمينى » والذى قال فيه إنه « **يأمر القوات الإيرانية بوقف إطلاق النار شاعراً أنه يتجرع كأسا من السم** » .

والواقع أن ضرب طهران بصواريخ « سكود » ـ كان هو العامل الحاسم الذى جعل « آية الله الخمينى » يتجرع كأس السم ـ على حد تعبيره . ذلك أن العراق الذى تحمل طويلا ضربات الصواريخ الإيرانية قد أصبح أخيرا فى وضع يمكنه من الرد عليها بطريقة مكثفة ومركزة على طهران بقصد إحداث أكبر قدر ممكن من التأثير النفسى .

كان العراق قد حقق بالفعل تقدما فى مجال القدرة العسكرية الشاملة لا يمكن إنكاره ، ولابد أن يحسب حسابه . وكانت إسرائيل تتابع ما يحدث وتراقب عن كثب . وفى نفس الوقت فإن العراق بدأ بعدها يسعى إلى دور إقليمى أكبر تبدت ملامحه . ولكى يعبىء الرأى العام العربى لقبول هذا الدور ، فإن بغداد بدأت تأخذ دورا أكثر ظهورا فى أزمة الشرق الأوسط ، خصوصا مع معرفتها بمدى الدعم الإسرائيلى لإيران من خلال فضيحة « إيران ـ كونترا » التى بدأت أسرارها تنكشف يوما بعد يوم فى تحقيقات الكونجرس .

وربما كانت أوضح إشارة إلى التحول المستجد على أوضاع القوة فى الشرق الأوسط هى فقرة جاءت فى مقدمة التقرير العسكرى الصادر عن مركز الدراسات الاستراتيجية التابع لهيئة أركان حرب القوات المسلحة الأمريكية ، وجاء فيها بالحرف :

● **إن التهديد الحقيقى كما يراه النظام البعثى فى العراق هو إسرائيل . إن الإسرائيليين قد اهتموا لأبعد حد بالنصر العراقى الذى لم يكونوا يتوقعونه . مضافا إلى ذلك أن نجاح بغداد فى تطوير صواريخ بعيدة المدى يلاشى إلى حد ما الميزة الإسرائيلية فى هذا النوع من الأسلحة . وليس هناك مجال للشك أن تل أبيب تحاول الاحتفاظ بالتفوق على العراق فى مجال تطوير أسلحة أكثر فتكا . بل وهناك أيضا احتمال أن إسرائيل سوف تعمل على تعويق الجهود التكنولوجية للعراق ، وذلك بواسطة تدمير**

مواقع الصواريخ العراقية ومراكز الأبحاث . ولن هجوما مفاجئا تشنه إسرائيل على العراق سوف يكون مغامرة محفوفة بالخطر قد تؤدى إلى إشعال نار حرب واسعة تؤثر على مصالح الولايات المتحدة » .

ثم يمضى التقرير فيقول فى نهاية مقدمته بالحرف :

« وفى المجال العسكرى فإنه يتعين على الولايات المتحدة أن تعيد تقدير سياستها فى الشرق الأوسط . فهناك فيما نقدر احتمال انفجار كبير لا تستطيع الولايات المتحدة إلا أن تتدخل فيه لضبط الاستقرار فى المنطقة ، خصوصا إذا انطوى احتمال هذا الانفجار على تهديد للمصالح البترولية للغرب . وعلينا أن نسأل أنفسنا ما إذا كنا مستعدين لهذا العمل . وفى تقديرنا أننا لسنا مستعدين . إن أساليب الحرب فى الشرق الأوسط قد تغيرت بطريقة حاسمة ، الأمر الذى يدعونا إذا كنا نريد أن نتصرف بكفاءة إلى إعادة تنظيم وتدريب وتسليح قواتنا . ●

كان هذا التقرير الذى نشر فى أبريل ١٩٩٠ ، أى قبل أزمة الكويت بشهور قليلة - وكأنه محاولة فى قراءة الغيب . ومن المفارقات أن أحد واضعيه ، وهو الكولونيل « دوجلاس جونسون » أصبح فيما بعد أحد المساعدين الرئيسيين للجنرال « شوارتزكوبف » ، وكان هو الذى كلف بشرح المعارك الدائرة على الجبهة للصحافة ولمحطات الإذاعة والتليفزيون .

□

كان السلاح يتكدس ، وكان التوتر يزداد حدة ، وكانت العصبية تنتاب جميع الأطراف فى منطقة هى بالطبيعة والتاريخ منطقة حقول ألغام دينية وعرقية ومذهبية واقتصادية وحضارية وسياسية . وكان العراق فى قلب هذه المنطقة .

إن نظرة واحدة على خريطة للشرق الأوسط توضح أن أرض العراق كانت برزخا بريا وحيدا بين الشرق الأوسط ووراءه أوروبا عبر البحر الأبيض ، وبين آسيا حتى المحيط الهادى . لقد كان العراق معبرا محفوفا بالبحار ، ما بين الخليج وبحر قزوين والبحر الأبيض ، وفى وسطها جميعا يكاد العراق أن يكون بوابة برية وحيدة ... مفتوحة .

وكانت تلك هى المنطقة التى تصارعت فيها أولى امبراطوريات العالم القديم : المصرية ، والفارسية ، واليونانية ، والرومانية . وكانت هى المعبر إلى فارس والهند ، وكانت هى ممر الإسلام إلى آسيا ، ومهد الفتنة الكبرى ووقودها ، ومقر عز الخلافة وعاصمتها ، ومقصد التتار وطريقهم إلى الشام ... هى باختصار أرض الاسكندر ،

وبختنصر ، وكسرى ، والحجاج ، وخلفاء العباسيين الكبار والصغار ، والأرض التى سيطر فيها الجنود المرتزقة الترك على الخلافة ... الخ .

ونقط العبور الجغرافية والتاريخية عادة مثيرة ، وعادة ملتقى تيارات وتناقضات ، وعادة مشكلة أمن داخلى وخارجى تتشابك مسبباته ، وأول ما يتداعى منه هو ضرورة وجود « قوة الدولة » وقبضتها القوية على كل شىء من الأرض إلى الأمن !

وربما كان الدكتور « غسان سلامة » (أستاذ العلوم السياسية بجامعة السوربون) قريبا من مناخ الحقيقة حين قال فى مدخل كتابه عن « المجتمع والدولة فى المشرق العربى » واصفا منطقة الهلال الخصيب :

« إن رائحة الموت هى الرائحة التى تملأ أجواء هذه المنطقة ، والأعلام السوداء وصور الشهداء هى أول ما يطالع العين أينما توجهت » !



الفصل السادس

تجارة التهديد والحماية !

« الولايات المتحدة لا تتعامل بالأسرار مهما ختمت الأوراق بعبارة « سرى جدا » بالحبر الأحمر » .

[مذكرة رسمية لوزارة الخارجية الكويتية ـ أبريل ١٩٨٧] .

١

علاقة الثروة بالقوة علاقة معقدة ، فالثروة فى حد ذاتها لا تعنى القوة . لأن الثروة قد تنشأ دون أن تؤدى بالضرورة إلى إيجاد قوة ، فالقوة تركيب متعدد الجوانب : حجم من البشر وحجم من الموارد يتم التفاعل بينهما ، وتنهض عملية الإنتاج وتتصاعد آثارها بالتنمية ، ويترتب على ذلك بنيان اجتماعى كامل له قيمه وقواعده ومؤسساته وأدواته المعبرة عن قوته بالنفوذ أو بالسلاح أو بالهيبة الكامنة وراء النفوذ والسلاح .

لكن المشكلة تطرأ حين يحدث الانفصال أو التباعد بين الثروة والقوة ، وتلك ظاهرة متكررة فى التاريخ تتصل بصعود الإمبراطوريات وسقوطها . فاتحاد الموارد والبشر يمكن أن يصل بتفاعلاته إلى نشأة الامبراطوريات . والامبراطوريات تتمدد باتساع مصالحها وأحلامها ، ثم يجىء وقت تصبح فيه التكاليف أكبر من المزايا ، وتبدأ عملية الانكماش .[1]

---

(١) طور الأستاذ « بول كنيدى » أستاذ التاريخ فى جامعة « ييل » الأمريكية نظرية كاملة عن « ارتفاع وسقوط القوى العظمى » ضمنها كتابا تحت هذا العنوان نفسه ـ كان من أهم الكتب التى صدرت فى حقبة الثمانينات .

ويبدأ الانكماش عادة فى الثروة بحكم التأثير المباشر لاستنزاف الموارد . وتظل القوة موجودة بحكم دواعى الاستمرار إلى زمان تتوقف مدته على العجز عن السيطرة على الاستنزاف ، أو ظهور امبراطورية منافسة أخرى . وتلك هى التجربة التى تتعرض لها الولايات المتحدة الآن ، ومن قبل تعرضت لها الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية ، وقبلهما إمبراطوريات أخرى فى التاريخ .

إن الامبراطورية هى الصورة الأمثل لاتحاد الثروة والقوة . على أن هذا الاتحاد بين الاثنين يصعب أن يكون قابلا للدوام إلى الأبد . وفى حالة الامبراطورية الأمريكية ، فهى بالقطع لم تسقط ، ولكنها على وجه اليقين ضعفت ، وأبسط دليل على ذلك هو قياس قوة إنتاجها إلى حجم الإنتاج العالمى : ففى مطلع الستينات كان الانتاج الأمريكى يمثل ٣٤٪ من حجم الانتاج العالمى ، وفى مطلع التسعينات كان الإنتاج الأمريكى يمثل ١٩٪ من حجم الإنتاج العالمى . وهذا ما حدا بجريدة « نيويورك تيمس » إلى أن تنشر مقالا افتتاحيا مثيرا تضع له عنوانا يقول : « لا تزال الأولى ـ ولكن » !

ولعل الجنرال « شارل ديجول » الرئيس الفرنسى الأشهر فى التاريخ الحديث ـ كان نافذ البصيرة حين قال : « **إن الولايات المتحدة الأمريكية تريد أن تصل بالاتحاد السوفيتى إلى الخراب والإفلاس عن طريق سباق فى التسلح لا نهاية له .**

وقد تنجح فى تحقيق ما تريد ، لكنها سوف ترهق نفسها بأكثر مما تستطيع تحمله ، وقد تصل بنفسها هى الأخرى إلى حالة الإفلاس وتصل بنا جميعا إلى حالة خطرة لأنها قد تحاول إنقاذ نفسها من ذلك المصير بابتزاز الآخرين ، والسطو على مواردهم . »(٢)

والحاصل أن التاريخ يعرف نماذج شديدة التباين للعلاقة بين الثروة والقوة :

● **هناك نموذج دولة كثيرة التعداد فى البشر ، قليلة الموارد فى الثروة ، ومع ذلك ففى مقدورها بناء قوة مسلحة مؤثرة ـ نموذج ذلك الصين وفيتنام .**

● **وهناك نموذج دولة كثيرة التعداد فى البشر ، كثيرة الموارد فى الثروة ، ولكنها لأسباب تاريخية معينة لا تستطيع بناء القوة المسلحة ـ ونموذج ذلك ألمانيا واليابان .**

---

(٢) تظهر الأزمة الاقتصادية الأمريكية الآن مدى صدق « ديجول » فى نبوءته ، وقد ذكرها فى حديث مع محمد حسنين هيكل فى يوم ١١ سبتمبر ١٩٦٥ ، أثناء مقابلة فى قصر الأليزيه .

● وهناك نموذج دولة قليلة التعداد ، وقليلة الموارد ، ومع ذلك تقدر على بناء قوة عسكرية مؤثرة لأنها تبيع فعل قوتها لأطراف غيرها ـ ونموذج ذلك إسرائيل (وربما الأردن فى فترة من الفترات) .

● وهناك نموذج دولة تملك تعداد السكان الى حد ما ، وتملك وفرة الموارد إلى أكبر حد ، ولكنها لا تريد بناء القوة العسكرية لأسباب متعلقة بفكرها الاجتماعى والسياسى ـ ونموذج ذلك المملكة العربية السعودية (وربما بعض دول اسكندنافيا) .

● وهناك نموذج دولة نادرة التعداد ، ومتخمة بالثروة ، وهذه لا تستطيع أن تبنى قوة عسكرية مؤثرة مهما فعلت ، ويكون الحل الوحيد أمامها هو العثور على قوة مسلحة تحميها ، ولو بالإعارة أو بالإيجار ـ ونموذج ذلك دول الخليج ، وسلطنة بروناى .

وبالطبع فإن هناك دولا أخرى فى العالم خارج هذه النماذج لأنها لسوء حظها خارج الحساب . فلا هى تملك أسبابا للثروة ولا عناصر للقوة ، والأمثلة كثيرة فى أفريقيا وآسيا على دول تكاد أن تكون خارجة تماما عن مدار الحركة السياسية للمجتمع الدولى .

□

إن النموذج الخطر فى هذه العلاقة المعقدة بين الثروة والقوة هو نموذج الدولة نادرة التعداد والمتخمة بالموارد . وفى الواقع فإن أزمة الخليج هى نتيجة مباشرة لهذه الحالة .

إن كل كنز فى الدنيا يغرى أطرافا غير أصحابه ، وبمقدار ما تزيد قيمة الكنز بمقدار ما يشتد الإغراء ، ويتحول إلى مطامع . والمطامع خطوة واحدة ويظهر التهديد . والتهديد يستدعى قوة ترده . وبما أن القوة من الخارج وليست من الداخل .. مستعارة أو مستأجرة ـ فإن موقفها من الكنز يصبح واحدا من احتمالين :

● إما أن تأخذه بالكامل لنفسها إذا استطاعت وكان ما فيه يهمها .

● وإما أن تأخذ نصيبا منه فى مقابل حمايته . وهذا النصيب يتوقف على حجم التهديد ، وعدد الأطراف المشاركة فيه ، وقوتهم النسبية والموازين الحاكمة فى علاقاتهم .

وهنا تنشأ ظاهرة التجارة في التهديد والحماية . ولعل هذه التجارة فى التهديد والحماية سابقة فى مجتمعات الأفراد قبل أن تحل فى مجتمعات الدول ، وأشهر النماذج المعاصرة لذلك هى عصابات المافيا . فهى من ناحية تهدد ضحاياها ، فإذا دفعوا لها أعطتهم الحماية من الناحية الثانية . وقد أعادت العلاقة تمثيل دورها فى مجتمعات الدول بعد مجتمعات الأفراد ، وربما يكون مجتمع الأفراد هو المعمل الذى يختبر فيه مجتمع الدول أول درس فى العلاقات والصراعات الإنسانية !

ولقد اتسعت تجارة التهديد والحماية ، فأصبحت من أكبر الظواهر فى النظام الدولى المعاصر . فالولايات المتحدة الأمريكية كانت تبيع لألمانيا الغربية (قبل الوحدة) خطر التهديد المتمثل فى الاتحاد السوفيتى ، وكانت ألمانيا تدفع . ونفس الخطر المتمثل فى التهديد السوفيتى كانت الولايات المتحدة تبيعه لليابان ، وكانت اليابان تدفع .

وكان الدور الذى تقوم به إسرائيل فى الشرق الأوسط نموذجا متطورا ومركبا فى تجارة التهديد والحماية .

● كانت إسرائيل تمثل تهديدا على كل العرب .

● وكانت الولايات المتحدة هى التى تعطى لإسرائيل الموارد التى تصنع هذا التهديد ، سواء كانت بالمساعدات المالية أو بصفقات السلاح .

● ويروح العرب يجربون الوقوف أمام التهديد الإسرائيلى بسلاحهم السوفيتى . وكان هذا السلاح السوفيتى فى واقع أمره عملية بيع للحماية على طريقة المحلات التى تبيع الطعام لزبائنها لكى يأخذوه معهم ، ويستهلكونه فى بيوتهم "Take away" ، ولكن هذا النظام لم ينجح بالكامل فى بلوغ أهدافه لأن صفقة الحماية فيه بدت ناقصة .

● وفى نهاية المطاف ، وحينما كان خطر التهديد بإسرائيل يثقل على العرب فإنه -- وهذا ما حدث فعلا ـ كان يدفعهم دفعا إلى الالتجاء بأنفسهم إلى الولايات المتحدة تبيع لهم نوعا من الحماية ، بينما هى التى باعت لإسرائيل أدوات التهديد الأصلية .

☐

إن كنز الشرق الأوسط والمتمثل أساسا فى البترول أصبح مجالا مفتوحا لسياسات التهديد والحماية . فهذا الكنز لفت انتباه ومطامع أطراف إمبراطورية متعددة حصلت عليه بالكامل مباشرة . ثم تنازلت درجة فأعطت جزءا منه لأصحابه ، ثم تنازلت درجة ثانية فأعطت أجزاء أخرى منه لأطراف غيرها تنازعها القوة ، ثم وجدت نفسها أمام مطالب من أطراف محليين تصور بعضهم أنه أولى ، أو أنه أقرب ، أو أنه أقوى لأنه جاهز على الساحة ، ولأن الآخرين حتى وإن كانوا الأقوى فى المطلق إلا أنهم بأحكام المسافات على بعد شاسع ، وبالتالى فإن قدرتهم على الحماية محدودة إزاء التهديد الماثل فعلا والواقع على الأرض ذاتها .

ولقد كانت هناك ظلال من الحقيقة فى هذه التصورات ، وكادت الممارسات المعتادة لسياسات التهديد والحماية أن تختل . وبدا هذا الخلل ماثلا للعيان منذ اضطرار بريطانيا إلى اعتماد سياسة الانسحاب من شرق السويس (١٩٧٠) ـ وإذا شاه إيران يسارع إلى احتلال

بعض الجزر الاستراتيجية فيه (١٩٧١) ، وتتبدى مطامعه في باقيه . ثم جاءت الثورة الإيرانية بنداءاتها المدوية (١٩٧٨) ، ثم سكتت نداءات الثورة وبدأ دوى مدافع الحرب العراقية ـ الإيرانية (١٩٨٠) .

لقد كانت الكويت أقرب أجزاء الكنز إلى مخاطر التهديد الطارىء . ولم يكن صدى دوى المدافع وحده الذى يصل إليها ، وإنما طالتها شظايا الحرب ، خصوصا عندما سقطت شبه جزيرة « الفاو » وجزر « مجنون » في يد القوات الإيرانية (١٩٨٦) .

والواقع أنه منذ بدأت الحرب أصبحت الكويت ميدانا من ميادين القتال . ومع أنه كان ميدانا جانبيا إلا أن التأثير عليه ، وعلى أعصابه كان كبيرا . فالكويت لا تبعد عن ميناء « عبدان » بأكثر من ٦٠ كيلومترا ، ولا تبعد عن ميناء البصرة بأكثر من ٤٠ كيلومترا ، وكلا الميناءين بقيام الحرب تحول لشعلة من النار . فلقد بدأ الطرفان المتحاربان ـ العراق وإيران ـ كل منهما بضربة أولى موجهة للمنشآت البترولية للطرف الآخر ، وكان التركيز بالدرجة الأولى على الموانى والمصافى وخطوط الأنابيب . وراحت القوات الجوية المتقاتلة تمرق ذاهبة إلى معاركها ، أو عائدة منها بقرب سماء الكويت ، وأحيانا باختراقها . وتصادمت قطع من البحرية على أمواج الخليج ، وزرعت تحت سطح هذه الأمواج حقول ألغام مس تأثيرها كل السفن العابرة دون تمييز .. لأن الألغام لا تختار أهدافها ، ولكن الأهداف هى التى تختار . ثم استقر في ظن الإيرانيين أن الكويت تقف في صف العراق ، وإلى حد كبير فإن هذا الظن كان له ما يبرره . واقتربت يد التهديد أكثر من الكويت ، فقد حدثت عملية تخريب واسعة النطاق في ميناء « عبد الله » ، ثم انفجر مصنع لتسييل الغاز في منطقة « الشعيبة » ، ووصل تأثيره إلى دائرة قطرها عشرون كيلومترا . ثم زادت على ذلك عمليات قصف صاروخى مباشر بالطائرات على موانى شحن البترول ، وعلى مركز تجمع الأنابيب المعروف بالمركز رقم ١٥ .

كانت إيران قد نجحت أولا في قطع كل وسائل نقل البترول العراقى ، وكانت سوريا قد أغلقت خط الأنابيب الذى يحمل صادرات البترول العراقى إلى البحر الأبيض المتوسط . ولم يكن العراق قد بنى بعد خطوط أنابيبه عبر السعودية إلى ميناء ينبع على البحر الأحمر ، ولا عبر الأردن عن طريق العقبة ، ولا عبر تركيا إلى بحر مرمرة ـ وبالتالى نجحت إيران في حصار البترول العراقى حصارا كاملا . ورد العراق ، ونجح الطيران العراقى في ضرب موانى إيرانية لتصدير البترول بنيت عند أقصى الجنوب من مضيق « هرمز » تحت ظن أن مدى عمل الطيران العراقى لا يمكن أن يطولها . ولكن العراق بواسطة طائرات الـ « سوخوى ٢٣ » السوفيتية وصواريخ الـ « اكزوسيت » الفرنسية ـ استطاع أن يصل إلى أبعد من كل الظنون السابقة ، وكانت النتيجة أن البترول الإيرانى حوصر هو الآخر بنفس الطريقة التى تم بها حصار البترول العراقى .

وردت إيران بمقتضى بيت الشعر العربى الذى يقول فى أحد شطريه : « **إذا مت ظمآن فلا نزل القطر** » ، ومعناه فى هذه الحالة أنه إذا استحال على إيران أن تصدر بترولها للعالم ، فإن كل بترول المنطقة الواصل إلى العالم من الخليج على ناقلات عربية لابد له أن يتوقف . وكان فى حسابات الإيرانيين أن بعض دول الخليج تصدر كميات من بترولها لحساب العراق ، وفاءً ببعض التزاماته إزاء المصدرين المتعاملين معه .

وهكذا بدأت تلك المرحلة من الحرب العراقية ـ الإيرانية التى اشتهرت بوصف حرب الناقلات . وكان معظم التركيز على الناقلات الكويتية . فقد أصيبت فى حرب الناقلات ١٦٠ ناقلة ، كان بينها ٤٨ ناقلة للكويت وحدها .

٣

ويبدو أن الكويت فى ذلك الوقت قررت شراء الحماية إزاء التهديد ـ بطريقة مبتكرة . وكانت خطوتها الأولى أن تذهب لمجلس الأمن تعرض عليه مشكلة المخاطر التى تتعرض لها الملاحة فى الكويت . وبالفعل أصدر مجلس الأمن قراره رقم ٥٥٢ وفيه يشير إلى الاعتداءات الإيرانية على الناقلات العاملة ذهابا وإيابا من موانى الكويت والسعودية إلى العالم الخارجى . ثم يطلب إيقاف هذه الأعمال . وتقدمت الكويت بعد ذلك خطوة ثانية ، فقد قررت حكومتها الاتصال بعدد من أعضاء مجلس الأمن ، بادئة بالولايات المتحدة ، طالبة تأجير ناقلات تحمل أعلام بلادهم إلى أسواق البترول الخارجية ملوحة من بعيد بقرار مجلس الأمن .

وتقول مذكرة رسمية لوزارة الخارجية الكويتية « أنها قررت أن تبدأ بالاتصال بالولايات المتحدة ، لأن الولايات المتحدة هى المستفيدة الكبرى من نفط الخليج العربى ، وبالتالى الخاسرة الأولى فى حالة توقفه ، وكذلك فإنها الأكثر اهتماما بمجريات الأحداث فى المنطقة لأسباب استراتيجية واضحة » . ثم تمضى مذكرة وزارة الخارجية الكويتية فتقول « إن الحكومة الكويتية أبلغت الولايات المتحدة رسميا برغبة الكويت فى نقل نفطها على ناقلات أمريكية بالاتفاق على استئجارها لهذا الغرض ، وفى حالة تعذر ذلك فإن الكويت تطرح بديلا آخر يتمثل فى تسجيل عدد من الناقلات الكويتية لدى الولايات المتحدة ، وترك الأمر فى يد الإدارة الأمريكية مع علمنا المسبق بأن الولايات المتحدة لا تتعامل

بالأسرار مهما ختمت الأوراق بعبارة « سرى جدا » الحمراء . » وكان لهذه العبارة الأخيرة مدلول هام لأن دول الخليج بصفة عامة كانت تتابع ما يدور من مناقشات فى لجان الكونجرس ، وما ينشر فى الصحف الأمريكية الكبرى من أخبار ـ وتشعر دائما أنها تتعامل مع مجتمع يصعب فيه حفظ الأسرار . وكان هذا الوضع يثير قلق كل الأسر الحاكمة فى الخليج ، فما قد تتفق عليه اليوم وتحسبه مكتوما أو محظورا ، لا تلبث أن تفاجأ به غدا منكوزا ومنشورا فى لجان الكونجرس ، وفى صدر الصفحات الأولى للجرائد الأمريكية الكبرى .

□

والغريب أن الولايات المتحدة فى ذلك الوقت لم تظهر حماسة كبيرة لهذا العرض الكويتى ، وقد قامت « كاثرين كوتشى » ، وهي المسئولة عن مكتب الكويت بوزارة الخارجية الأمريكية ـ بزيارة للكويت يوم ١٩ أبريل ١٩٨٧ ، وأثناء حديث لها مع الشيخ « صباح الأحمد الصباح » نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية ـ قالت له (كانت الحرب الباردة بين الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى لم تنته بعد) ـ ما نصه طبقا لمذكرة رسمية لوزارة الخارجية الكويتية : « إن الولايات المتحدة تخشى من احتمال صدام عسكرى سوفيتى أمريكى ، لأن الولايات المتحدة إن قبلت هذا العرض ، فليس هناك ضمان ألا يطلب السوفيت منحهم تسهيلات ، أو ما شابه ذلك كثمن لأية حماية يوفرونها للملاحة فى الخليج . كما أن مثل تلك الحماية ستعطى السوفيت مبررا للتواجد العسكرى فى المنطقة بكل ما قد يجره ذلك من تعقيدات . » ثم انتقلت « كاثرين كوتشى » لتعدد أسبابا أخرى فرعية بعد هذا السبب الرئيسى ، ومن هذه الأسباب : « أن بعض دول الخليج غير الكويت قد تطلب ترتيبات مشابهة ، والولايات المتحدة لا تستطيع أن تقدم هذه الخدمة للجميع ـ ثم إن رد الفعل الإيرانى تجاه هذه الخطوة لابد أن يحسب حسابه ـ وأخيرا فإن قانون خفر السواحل الأمريكية وشروطه عند تسجيل أى باخرة أو ناقلة ، يشترط أن يكون قبطانها وطاقمها أمريكيين ، وأن تستوفى هذه السفن والناقلات شروط السلامة وفقا للمستوى الأمريكى المطلوب . »

وعندما وجدت حكومة الكويت أن الولايات المتحدة مترددة فى بيع الحماية إزاء التهديد ، لجأت إلى مناورة بارعة . فقد قصد وفد كويتى إلى موسكو ، وهناك اجتمع بممثلين عن وزارة البحرية التجارية السوفيتية ، وكان السوفيت الراغبون فى الدخول إلى الخليج بأى ثمن وإلى علاقات مع دوله بأى شكل ـ على استعداد لبحث الموضوع جديا . ولقد طرحوا أولا صيغة شبه تآمرية لتحقيق الطلب الكويتى . كانت صيغتهم أن تقوم الكويت بتأجير عدد من ناقلاتها فارغة إلى الاتحاد السوفيتى ، ثم يقوم الاتحاد السوفيتى بتأجير هذه

الناقلات من الباطن للكويت ، وبالتالى فإن عقد الإيجار الأصلى (من الكويت للاتحاد السوفيتى) ـ يسمح برفع الأعلام السوفيتية على هذه الناقلات ، ويكون من شأن وجود هذا العلم أن يوفر الحماية المطلوبة عن طريق الإيجار المزدوج . ثم قامت عقبات اعترضت تنفيذ هذا الاتفاق على هذا النحو الغريب ، ثم أمكن التوصل فيما بعد إلى صيغة أخرى تعكس بطريقة حادة رغبة الاتحاد السوفيتى فى مد نطاق تعاملاته مع دول الخليج مهما تعرجت الطرق . وهكذا تم توقيع عقد أتاح للكويت استئجار ثلاث ناقلات سوفيتية ترفع العلم السوفيتى ، وتحمل به شحنات البترول الكويتية . وكانت هذه الناقلات الثلاث هى الناقلة « مارشال شويكوف » والناقلة « مارشال باجراميان » والناقلة « مارشال مايكوب » .

٣

واللافت للنظر أن حكومة الولايات المتحدة لم تعترض على هذا الاتفاق ، بل صرح متحدث رسمى باسم وزارة الخارجية الأمريكية يوم ١٧ أبريل ١٩٨٧ بأن « الولايات المتحدة ليست راغبة فى زيادة الوجود العسكرى السوفيتى فى الخليج ، ولكنها لا تملك وسيلة لتغيير هذا الاتفاق أو تعطيل مفعوله . وعلى أى حال فحكومة الولايات المتحدة الأمريكية تجرى اتصالات مع الكويت ، ودول أخرى فى الخليج حول وسائل حماية الملاحة هناك ، وأن بين الوسائل التى يجرى بحثها توقيع اتفاقيات يتم بمقتضاها رفع الأعلام الأمريكية على ناقلات البترول التابعة لهذه الدول . »

وتدور أسئلة عديدة وشكوك حول تداعى الحوادث على النحو الذى تداعت إليه . فهل كان الطلب الكويتى للسوفيت مناورة للتغلب على مخاوف سوفيتية ، أو عربية قد تعترض على الدخول الأمريكى للحماية ابتداء وبطريقة مباشرة ؟ ـ أو هل كان الهدف من إدخال السوفيت فى الموضوع هو استعمالهم للتغلب على أىّ معارضة فى الكونجرس أو وسائل الإعلام ؟ ـ أو هل كان الهدف إعطاء غطاء لتواجد عسكرى أمريكى أكبر فى المنطقة تستتبعه بالضرورة تسهيلات وترتيبات أمنية على شواطىء الخليج ؟

وبالفعل فقد راجت فى ذلك الوقت أخبار عن أن الكويت أعطت تسهيلات عسكرية على أراضيها ، وفى موانيها للولايات المتحدة . ولم تكن هذه الأخبار التى راجت إشاعات بغير أساس ، فإن الشيخ « صباح الأحمد الصباح » عقد مؤتمرا صحفيا فى لندن أجاب فيه

عن سؤال وجه إليه صراحة عن هذه المسألة ، قائلا بالنص : « إن الكويت لم تتفق مع أى طرف على منحه قاعدة برية أو بحرية ، وإنما هى أرادت الحفاظ على الممرات البحرية الدولية فى الخليج مفتوحة ، وبكل أمان للملاحة التجارية ، ولذلك فالواجب عليها تقديم المساعدات الفنية والإنسانية فى الحالات التى تستوجبها الظروف والأحوال الطارئة التى قد تحتاجها الأطراف الدولية المتعاونة للإبقاء على طرق الملاحة الدولية بعيدة عن أى تهديد أو تخريب . »

وفى اليوم الذى أعلن فيه رسميا أن الكويت رفعت العلم الأمريكى على إحدى عشرة ناقلة كويتية بهدف شراء الحماية لها ، وقف الرئيس الأمريكى « رونالد ريجان » يوم ٢٩ مايو ١٩٨٧ يوجه خطابا إلى الشعب الأمريكى فى أعقاب اجتماع طارىء لمجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض . وقال « ريجان » بالحرف فى هذا الخطاب : « إننى أود أن أتحدث إليكم اليوم عن المصالح الحيوية للولايات المتحدة وشعبها ، وهى مصالح تتعرض للخطر فى منطقة الخليج . إننى أتمنى ألا يكون البعض قد نسوا بعد أن عاشرا فترة من الازدهار الاقتصادى (يقصد بدء رئاسته للولايات المتحدة) ذلك التأثير الهام لأزمة بترول الشرق الأوسط التى عانينا منها قبل سنوات ، حينما كان الناس ينتظرون صفوفا طويلة للحصول على الوقود الذى لم يكن متوافرا ، مما أدى بنا إلى تقنين استخدامه وزيادة أسعاره ، وهو أمر دفعنا إلى التضخم الذى أصاب اقتصادنا ، وإلى أزمة هزت القواعد الاقتصادية فى بلادنا . » ـ واستطرد « ريجان » يقول فى هذا الخطاب بالنص : « إن هذه الأزمة التى عشناها هزت العالم كله وأثرت على اقتصادياته ، وزادت من التوتر الدولى ، وأعطت الفرصة لمخاطر النزاعات الاقليمية ، وأدت لتعميقها . إن الولايات المتحدة وهى القوة الأساسية فى العالم ، وكذلك الدول الديمقراطية المتحالفة معها ـ قد أدركوا مدى ضعفهم عندما يصبح اقتصادهم وشعوبهم رهينة للأنظمة المنتجة للنفط والمصدرة له فى منطقة الشرق الأوسط . إن الأزمة التى عانينا منها مرة قد تتكرر مرة ثانية لو تمكنت إيران ، أو الاتحاد السوفيتى من ممارسة هيمنتهما على الدول العربية الصديقة فى الخليج ، وقامتا باعتراض حرية المرور فيها . » ثم ختم « رونالد ريجان » خطابه بعبارة ذات معنى قال فيها : « **إننى مصمم على أن الاقتصاد الأمريكى لن يصبح مرة أخرى رهينة لتلك الأوضاع ، ولن نعود لأيام الصفوف الطويلة المنتظرة للوقود ، ولا للتضخم وعدم الاستقرار الاقتصادى والإهانة الدولية . وسجلوا جيدا هذه النقطة** » .

وتأكيدا لبيان « ريجان » فإن مساعد وزير الخارجية الأمريكى « ريتشارد ميرفى » أضاف فى اليوم التالى أمام لجنة الشئون الخارجية لمجلس الشيوخ الأمريكى قائلا :

« إن علينا جميعا أن ندرك أنه فى حالة تسجيل الناقلات الكويتية ـ أو أية ناقلات

خليجية أخرى - فى الولايات المتحدة ، فإن حكومتنا سوف تكون ملتزمة بتوفير حماية عسكرية لسفنها المبحرة فى الخليج ، الأمر الذى سوف يتطلب وجود قوة عسكرية بحرية فى المنطقة قادرة على القيام بهذه المهمة . »

ولقد أحست حكومة الكويت فيما يبدو بحرج إزاء هذه التصرفات ، وحاولت تخفيف وقعها ، وربما من ذلك أنها اتصلت فى ذلك الوقت بالصين ، وبغيرها من الدول ، راغبة فى توسيع عمليات شراء الحماية على نطاق دولى أوسع يمكن أن تختفى فى زحامه ملامح الدور الأمريكى الذى راح يبرز بشدة . ولكن حكومة الصين اعتذرت عن قبول العرض - ربما لأنها كانت تشعر بأنها عاجزة عن بيع الحماية فى الخليج ، أو ربما لأنها فى ذلك الوقت كانت قد ارتبطت بعقد مع إيران على صفقة سلاح تقدر قيمتها بستة بلايين دولار ، تتضمن فيما تتضمنه نظما للصواريخ من طراز « سيلك وورم » ومجموعة من أسراب الطائرات من طراز « ميج ٢٣ » . ولعل الصين أيضا كانت تفضل بيع الحماية الجاهزة يستهلكها المشترون فى بيوتهم على الطريقة السوفيتية !

وعلى أى حال فإن حكومة الكويت راحت تذيع تفصيلات عن مواقفها تؤكد فيها أنها لم تعط الولايات المتحدة أية تسهيلات على أراضيها ، أو فى موانيها .

٤

ولم تمض هذه العمليات المتشابكة بدون تعقيدات ، فقد كانت فرنسا غاضبة من الدخول الأمريكى المنفرد على هذا النحو فى الخليج . وقال السفير الفرنسى فى الكويت يوم إعلان الاتفاق فى تصريح علنى : « إن هذا الموضوع من أوله إلى آخره نوع من مسرح اللامعقول » . ثم غادر الكويت عائدا إلى باريس لمشاورات مع حكومته . واكتشفت الحكومة الفرنسية أثناء المشاورات مع سفيرها أنها لا تستطيع المشاركة فى سوق بيع الحماية بالخليج ، لأن القانون الفرنسى صريح فى منع رفع الأعلام الفرنسية على سفن أو بواخر أجنبية .

ولم تكن فرنسا جديدة أو مستجدة على قضية التهديد والحماية ، فقد سبق لها من قبل أن فعلتها فى أفريقيا ، وبالذات فى مناطق المناجم الكبرى للنحاس والماس فى « كاتنجا » (والتى أصبح اسمها الآن « شابا ») وهى الجزء الجنوبى الأغنى فى الكونجو . وكان

تدخلها هناك عسكريا لحساب مصالح تقوم عليها شركات فرنسية - وكانت الظروف فى هذه المرة فى الخليج ، وعن طريق تأجير الأعلام - معقدة ، فالمانع القانونى من ناحية ، وسبق الآخرين إلى الأدوار الرئيسية من ناحية أخرى - جعل باريس تتردد مستاءة وغاضبة .

ثم طرأت على هذه العملية مضاعفات من نوع مختلف . ففى يوم ١٨ مايو ١٩٨٧ أخطأت إحدى الطائرات العراقية فى تحديد جنسية طراد أمريكى قرب ساحل البحرين ، وهو الطراد « ستارك » ، فحسبته قطعة إيرانية وقذفته بصاروخ من طراز « اكزوسيت » فقتلت ٢٨ من ضباطه وبحارته ، وأعطبت أحد محركاته . والغريب أن الرئيس « رونالد ريجان » حينما بلغه النبأ كان تعليقه على الفور « هؤلاء الإيرانيون ... » - ولم يكن الإيرانيون هم الذين أطلقوا الصاروخ ، لكنهم فى ذلك الوقت كانوا يمثلون الطرف المعادى ، ولم يكن العراق بعد قد أصبح هذا الطرف .

وقد اعتذر العراق عن الحادث ببيان صادر من الرئيس « صدام حسين » شخصيا ، وقررت الحكومة العراقية دفع تعويضات لكل القتلى بلغت قيمتها ٨٠٠ ألف دولار عن كل ضحية .

□

كانت سوق التهديد والحماية على وشك أن تدخل مرحلة فلكية من ناحية أسعارها ، وفيما بعد ، وأثناء حرب الخليج ، وصلت هذه السوق إلى حالة من الازدهار لم يسبق لها مثيل فى التاريخ إلى حد أنها أصبحت فى حد ذاتها تجارة مجزية :

● إن الولايات المتحدة جمعت أثناء حرب الخليج (وطبقا لكتاب الإحصاءات الاقتصادية الأمريكية) مبلغ ٥٤ بليون دولار . ولكن تكاليفها فى حرب الخليج ٣١ بليون دولار - أى بربح صاف مباشر قدره ٢٣ بليون دولار .

● والحكومة البريطانية جمعت أثناء نفس الحرب مبلغ ٦ بلايين دولار ، ولم تزد نفقاتها على ثلاثة بلايين - أى أنها ربحت مثل ما تكلفته تماما .

● وفى نفس الوقت فإن ألمانيا الغربية واليابان ، وكلاهما لم يتمكن من المشاركة فى الحرب لأسباب متعددة تتعلق بهما - كان عليهما أن تدفعا تكاليف تأمين وصول البترول إليهما ، وبالفعل دفعت ألمانيا ١٠ بلايين دولار ، كما دفعت اليابان مبلغا مماثلا .

● وحصلت تركيا على ٣ بلايين دولار .

● وكانت إسرائيل كالعادة أحد أساطين سوق التهديد والحماية . وكان دورها فى حرب الخليج هو دور الساكت الصامت ، فقد وصلت إليها وأصابتها صواريخ العراق من طراز « سكود » ، وجرى الإلحاح عليها حتى لا ترد ، وامتنعت بالفعل - لأول مرة فى تاريخها - عن الرد . وكان نصيبها فى سوق التهديد والحماية هائلا : فالفاتورة التى قدمتها اشتملت على حوالى البليون دولار لضحايا صواريخ « سكود » العراقية ، غير بليون آخر أخذته من بند المساعدات العسكرية (وبلغ مجمل المساعدات التي قدمتها حكومة الولايات المتحدة لإسرائيل سنة ١٩٩١ ما مقداره ٥,٦ بليون دولار)[٣] ، ثم تقدمت بطلب تسهيلات مقدارها عشرة بلايين من الدولارات لتستطيع تنفيذ مشروعاتها لتوطين المهاجرين السوفيت - هذا غير المعونات السياسية التى حصلت عليها ، حتى عندما راحت تملى شروطها للاشتراك فى عملية السلام .

---

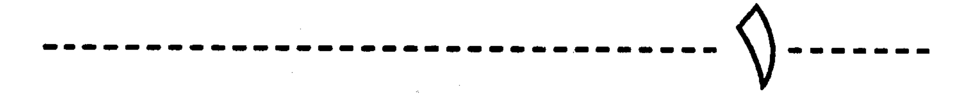
(٣) تقرير أعده « باركر بايسون » ، وهو أستاذ متخصص فى شئون إسرائيل ، وقد نشر فى دورية « تقرير واشنطن عن شئون الشرق الأوسط » - عدد أغسطس / سبتمبر ١٩٩١ .

الفصل السابع

التجديد بأفكار معلبة

« ما هى حكاية اليمن ؟ » .

[الملك « فهد » لوزير الخارجية
المصرى ـ مايو ١٩٨٨] .



حينما سكتت مدافع حرب البترول الثانية بعد قبول كل من إيران والعراق بقرار مجلس الأمن رقم ٥٧٩ ـ خرج الجنود من خنادقهم ليروا ضوء الشمس ، ولكن بقية الناس من غير الجنود ظلوا فى الخنادق النفسية التى حفرتها تجربة الحرب ، وما أحاط بها من أجواء ملبدة بالغيوم .

كانت تجربة الماضى قاتمة دامية ، وكان الأفق مكفهرا ومعبأ باحتمالات مجهولة .

كانت المنطقة ما بين حرب البترول الأولي (١٩٧٣) ـ وحرب البترول الثانية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) ـ قد فعلت بنفسها وفعل بها الآخرون ما لم يخطر ببال أحد قبل أن تجىء سنوات الوهم لتثبت للجميع كيف يمكن أن تتحول الأحلام الذهبية إلى كوابيس دموية .

كانت للمنطقة بالقفزات المتوالية لأسعار البترول قد حصلت على كنز من الثروة السائلة لم يتح لأغنى إمبراطوريات التاريخ . ثم بددت المنطقة ما جاءها فى سباق للسلاح عقيم ، وفى حروب حركتها يد الفتنة ، وفى مجاهل انساقت إليها وفقدت فى ظلماتها الكثير .

فقد خرجت أكبر عاصمة عربية من معادلات المنطقة بتوقيع مصر لاتفاقية « كامب دافيد » ، وسقطت عاصمة عربية متلألئة ، وهي بيروت ـ عندما دخلت إليها طلائع الجيش الإسرائيلي سنة ١٩٨٢ ، ثم لوثت المنطقة يدها بالدم في ذلك المشهد الحزين لمذبحة صبرا وشاتيلا . وأهدرت دما وموارد بغير حساب خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات .

وفي خاتمة المطاف برزت سوق التهديد والحماية لتحدث في المنطقة نوعا من الاختراق المباشر الذي لم يسبق له مثيل .

إن الذين لم يخرجوا من خنادقهم النفسية راحوا ينظرون إلى هذه الصور خلفهم وأمامهم بكثير من الإحباط وكثير من القلق ، يضاعف منهما أنه في ذلك الوقت بدت المقارنة مخيفة بين ما يجري في الشرق الأوسط ، وما يجري إلى جواره عبر البحر في أوروبا . ففي أوروبا الشرقية كانت رياح الديمقراطية تهب ، أو هكذا بدا . وتغيرت خريطة أوروبا الشرقية في ظرف أيام قليلة ، كما تغيرت خريطة وسط أوروبا . لقد توالت الثورات وتغييرات نظم الحكم في تشيكوسلوفاكيا وبولندا والمجر ورومانيا وبلغاريا . كما أن الثورة في ألمانيا الشرقية فتحت الباب لحلم وحدة ألمانيا التي كان الظن أن موعدها مؤجل لحقب في المستقبل . وفي الاتحاد السوفيتي نفسه كان « جورباتشوف » يطرح ما أسماه بالتفكير الجديد المتمثل في الـ « جلاسنوست » (حرية التعبير) ، والـ « بيروسترويكا » (إعادة البناء) . وحتى في الصين لاح لوهلة أن تغييرات كبيرة قد تجيء بعد مظاهرات ميدان « تيان آن منه » .

وأما في أوروبا الغربية ، فقد كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق لتحقيق وحدة أوروبا مع نهاية عام ١٩٩٢ . وتمثلت أوروبا الموحدة من بعيد قوة بازغة هائلة تومىء إلى أن الشعوب التي تملك إرادة الحياة قادرة على مسابقة الزمن نحو تحقيق أكبر أحلامها .

وبالطبع فقد كانت شعوب الأمة العربية تتابع ما يدور بالقرب منها ، وتساءل نفسها : « متى يجيء دورها في ثورة الديمقراطية وحرية التعبير وإعادة البناء ، وكيف ؟ ـ ومتى يجيء دورها في إقامة وحدتها ، وهي تملك من أسبابها ودواعيها ما لا تملكه أوروبا الغربية ؟ وكيف ؟ »

وكان هناك إلى جانب التساؤلات الحائرة ـ نوع من الإحساس بالمهانة . فدول أوروبا الشرقية المتحررة كلها تتجه في المنطقة نحو إسرائيل ، وليس نحو العرب ، كما أن الشغل الشاغل لأوروبا الموحدة أصبح إقامة الأسوار في وجه هجرة العمالة العربية عبر البحر إليها ، إلى درجة قال معها أحد وزراء السوق الأوروبية في ندوة علنية في مقر الجامعة

العربية(١) بالقاهرة (سنة ١٩٨٨) : « إن على العرب ، خصوصا عرب شمال أفريقيا ، أن يتوقفوا طواعية عن الهجرة إلى أوروبا ، وإلا فإننا سنضطر إلى وضع حرس مسلح على شواطئنا يمنعهم ، ولو بالسلاح من النزول عليها » !

□

ولم يكن الشرق الأوسط ، والعالم العربى فى قلبه ، فى أوضاع تسمح له بمواجهة المستقبل ، وظل الناس فى خنادقهم يفكرون .

إن كل منطقة من مناطق العالم لها فى العادة مراكز مؤثرة تقود حركتها وتوجهها . ففى أوروبا مثلا تمثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا هذه المراكز المؤثرة والقائدة لحركة أوروبا الغربية . وفى الشرق الأوسط فإن المراكز المؤثرة كانت بحقائق الحياة هى مصر وسوريا والعراق والسعودية ، والجزائر أحيانا ، والمغرب أحيانا أخرى - فى الامتداد العربى إلى شمال أفريقيا ، هذا إلى جانب إيران على طرف المشرق العربى .

وبينما الناس مازالوا فى الخنادق النفسية التى لجأوا إليها فى جزء كبير من الثمانينات - لم تكن هذه المراكز القائدة والمؤثرة فى أفضل أحوالها .

● **فالقاهرة** مثلا كانت لا تزال بعيدة عن الجامعة العربية بعد اتفاقية « كامب دافيد » ، وكانت الديون تثقل كاهلها إلى درجة أن فوائد الدين العسكرى وحده وصلت إلى ٩٠٠ مليون دولار سنويا . وتراكم من أصل وخدمة هذا الدين على مصر مبلغ قدره ٧ بلايين دولار . وكادت مصر أن تتوقف عن دفع الفوائد لولا الخشية من النص الدستورى الأمريكى المعروف باسم « تعديل بروك » إشارة إلى عضو مجلس النواب الأمريكى الذى حوله إلى قانون ، وهو ينص على حرمان أى دولة تتخلف عن دفع فوائد ديونها - من أية مساعدات أمريكية . وهكذا فإن التخلف عن دفع هذا المبلغ الضخم من فوائد هذا الدين العسكرى - كان معناه أن تتوقف المساعدات الاقتصادية لمصر ، وحجمها فى ذلك الوقت ٢ بليون دولار ، وكانت لا تزال تعتبر مصدرا للسيولة لا تستطيع مصر الاستغناء عنه فى أزمتها الاقتصادية الطاحنة . وفى نفس الوقت فإن صندوق النقد الدولى كان يطالب مصر بإصلاحات فى هيكل بنيانها الاقتصادى لم تكن مصر مستعدة لها ، فقد كان من شأن هذه الإصلاحات أن تؤدى إلى مشاكل اجتماعية ، وربما سياسية يتحسب لها الجميع ويتخوفون من نتائجها .

---

(١) « كلود شيسون » ، وكان من قبل وزيرا لخارجية فرنسا .

وكانت مصر على علاقة طيبة بعدد من دول الخليج ـ لكن هذه الدول كانت مهتمة أكثر بالحرب العراقية الإيرانية ، ومرهقة بما تحملته أثناءها من تقلبات سوق التهديد والحماية .

وكانت مصر أيضا على علاقة طيبة بالعراق ، وكانت مشكلة هذه العلاقة أنها نشأت فى كنف تصنيع السلاح هنا وهناك ، وتوريده . ومع أن هذه العلاقة اتسعت فيما بعد ، خصوصا بهجرة كثيفة للعمالة المصرية إلى العراق ـ إلا أن هذه العلاقة ظلت مهددة بين وقت وآخر بأزمات طارئة بعضها صنعته يد الفتنة ، وبعضها الآخر طبيعة البشر . ثم إن انتهاء الحرب العراقية ـ الإيرانية أعاد إلى مجالات الإنتاج والخدمات فى العراق مئات الألوف من الجنود المسرحين ، رجعوا من ميادين الموت يبحثون عن فرصة للحياة .

● **ولم تكن دمشق** أسعد حالا من القاهرة ، فقد كانت بعيدة عن قلب العالم العربى الذى انشغل تماما بحرب الخليج ، وكانت دمشق فيها حليفا لإيران . ولم يؤد ذلك إلى زيادة الفتنة بين دمشق وبغداد فحسب ، وإنما أضيف إلى الفتنة سوء فهم مع دول الخليج . وتعثرت مساعدات كانت تصل إلى سوريا بمقتضى قرارات قمة بغداد سنة ١٩٧٩ التى حاولت تعويض غياب مصر عن الصراع العربى الإسرائيلى ـ بزيادة المساعدات إلى بقية الدول الواقفة ـ كما كان يقال ـ على خط المواجهة . ثم إن التدخل السورى فى لبنان بدأ يضيف لسوريا أعباء اقتصادية وسياسية ونفسية أخرى . ولم تكن سوريا على علاقة خطاب مع القاهرة ، وإنما تعطلت كل الخطوط فيما عدا اتصالات عابرة ، ونادرة لم تؤد فى معظمها إلى نتائج سياسية تجعل العاصمتين الكبيرتين فى قلب العالم العربى قادرتين على التأثير فى توجهات العالم العربى وأهدافه . وضاعف من أثر ذلك فى تلك الفترة أن دمشق أصبحت متهمة فى الغرب بأنها قاعدة رئيسية من قواعد الإرهاب الدولى .

● **وكانت بغداد** الخارجة من الحرب بعد ثمانى سنوات مرهقة ـ شديدة القلق والعصبية ، فقد وجدت فى السنوات الأخيرة من الحرب أن الولايات المتحدة تتجه لوضع ثقلها فى صف إيران . كذلك بدت إسرائيل نشيطة فى العمل ضد العراق على جبهات مختلفة ومتعددة . وكانت تكاليف الحرب مع إيران قد استنفدت الاحتياطى العراقى ، ومقداره ٣٦ بليون دولار . ثم أضافت إلى هذا الرقم رقما آخر لا يقل فداحة ، وهو مقدار الديون التى تراكمت على العراق بسبب أعباء الحرب ، وكانت هذه الديون قد بلغت قرابة ٦٠ بليون دولار . وكانت هناك مطالب ملحة سواء فى مجال إعادة التعمير والبناء ، أو فى مجال فتح فرص العمل أمام مئات الألوف من الشباب العائد من خنادق الحرب وميادينها . وكان ظن العراق أنه يستطيع استعادة توازنه بفضل البترول ، لكن سوق البترول لم تكن على استعداد للاستجابة بهذه السرعة ، أو بهذا المقدار .

● **وكانت الرياض** مثقلة بهموم الثروة ، وبحجم الاستنزاف الذى تعرضت له بسبب التقلبات فى سوق التهديد والحماية ، وبسبب الاستغراق فى الاستهلاك ، والسعى وراء أحلام براقة فى التنمية لها مصروف ، وليس لها عائد ، مثل زراعة القمح بتكاليف تجعل الناتج منه أغلى عشر مرات على الأقل من سعر القمح العالمى . ولقد وصل الاستنزاف المالى للسعودية إلى درجة أنها سنة ١٩٨٨ طلبت الإفراج عن ودائع في سندات الخزانة الأمريكية مقدارها ٢٠ بليون دولار . ثم زادت سنة ١٩٨٩ أنها استدانت لأول مرة فى سوق لندن للأوراق المالية ٨ بلايين دولار لكى تغطى العجز فى ميزانيتها الجارية . كانت السعودية قد رتبت ميزانيتها على أساس عوائد البترول فى مطلع الثمانينات ، وكانت هذه العوائد تزيد على مائة بليون دولار فى السنة ، ونتيجة لذلك كانت ميزانيات السعودية تخصص ٢٠ بليون دولار للنفقات الجارية ، وكانت تخصص مبلغا مماثلا (٢٠ بليون دولار أخرى) لخطة الإعمار . لكن دخل البترول تدنى سنة ١٩٨٩ إلى أقل من ١٩ بليون دولار ـ أى أقل مما هو لازم حتى لتغطية النفقات الجارية . ولم يكن ذلك وضعا سعيدا لدولة تحسب على أنها من أغنى دول العالم . وقد أدى مجمل ذلك إلى قلق فى الداخل عبر عن نفسه فى اتجاهات مختلفة .

ولم يكن هناك بلد عربى إلا وهو مشغول مع الآخر بجبهة مفتوحة تستغرق اهتمامه . فالسودان فى خضم حربه الأهلية بين الشمال والجنوب ـ وليبيا إلى ركبتيها فى رمال تشاد ـ والمغرب والجزائر كلاهما فى شبه قطيعة بسبب النزاع فى الصحراء الغربية . وزاد على ذلك أن العالم الخارجى لم يعد يبدى اهتماما بما يجرى على الأرض العربية ، كما كان يحدث فى مراحل سابقة . فالاتحاد السوفيتى أدار رأسه وانشغل بمشاكله ومشاكل الكتلة التى كانت محيطة به وقد راحت تتفكك وتتبعثر وتتباعد عنه متجهة إلى غيره . فالعرب إزاء السوفيت عندهم فى الغالب ما يطلبونه ، وليس لديهم ـ إلا القليل ـ يعطونه ـ حتى فوائد الديون العسكرية وغير العسكرية . وقد ظن الاتحاد السوفيتى فى يوم من الأيام أن بعض فوائض النفط يمكن أن تتسرب إليه ، لكن كل الحواجز أقيمت لمنع التسرب . ووقعت بعض المفارقات ، ومنها أن الرئيس « ليونيد بريجنيف » شكا للرئيس « السادات » فى أواخر سنة ١٩٧٣ أن أموال البترول يجرى تدويرها ، ويذهب الكثير منها إلى أعداء العرب ، بينما لا يحصل أصدقاؤهم على شيء . وفكر الرئيس « السادات » فى أنه قد يكون مفيدا إعطاء « لقمة » للاتحاد السوفيتى ـ على حد تعبيره ـ وتحدث فى ذلك الأمر مع الملك « فيصل » ، ولكن الملك رفض فى البداية ، ثم عاود التفكير ، وأبلغ الرئيس « السادات » باستعداده لإعطاء الاتحاد السوفيتى معونة مقدارها مائة مليون دولار على أن تخصص لبناء خمسين مسجدا فى مختلف جمهوريات الاتحاد السوفيتى . وتردد الرئيس « السادات » في

نقل عرض الملك « فيصل » ، ثم نقله . وسيطر « بريجنيف » على أعصابه بمعجزة لكى يعتذر عن العرض السعودى .(٢)

والولايات المتحدة هى الأخرى ـ خصوصا بعد خروج مصر من الصراع العربى الإسرائيلى ، وبعد دخولها هى (أى الولايات المتحدة) إلى سوق التهديد والحماية فى الخليج من أوسع أبوابه ـ راحت تأخذ العالم العربى كله قضية مسلما بها . وقد حلت المفارقات بالعلاقات المصرية الأمريكية أيضا ، فالولايات المتحدة التى كانت تهاجم مصر فى السابق بدعوى أن مشترياتها من السلاح تؤثر سلبيا على اقتصادياتها ، والتى كانت تدعو مصر بالتالى إلى السلام مع إسرائيل لتوفير نفقات السلاح ـ كانت هى نفسها التى باعت لمصر فى خمس سنوات بعد اتفاقية السلام مع إسرائيل ـ سلاحا تبلغ تكاليفه عشر مرات أكثر من كل السلاح الذى اشترته مصر من الاتحاد السوفيتى . وقد حارب السلاح السوفيتى فى كل معارك مصر ، ولم يحارب السلاح الأمريكى أى معركة . ولم تدفع مصر من ثمن السلاح السوفيتى إلا أقل من ثلث ثمنه ، فى حين أنها دفعت ثمن السلاح الأمريكى عدة مرات ـ سددت فوائده واحتفظت بأصله حتى جرى إسقاطه بعد أزمة الخليج !

والشاهد أنه لولا انتفاضة الشعب الفلسطينى لاختفى كل أثر للإرادة المستقلة من فوق خريطة العالم العربى .

ولم يكن معقولا أن تتواصل الأمور على هذا النحو ، فقد بدا أن البيت العربى كله آيل للسقوط رغم ما تحتويه طوابقه المختلفة من غنى أسطورى ، ومن أوهام ضبابية ، ومن أحزان توارت خلف جدران متآكلة فى بيت لم تعد له أبواب أو نوافذ ، وإنما تحولت كل الفتحات فيه إلى فجوات مستباحة !

كانت كل الحقائق والضرورات تصرخ فى طلب شىء جديد تواجه به دنيا بأكملها فى الشرق والغرب هبت عليها رياح التغيير .

ولم يكن العالم العربى لأسباب عديدة فى وضع يسمح له بالمراجعة ، ولعل القوى التى تصدت لمطلب التغيير كانت هى نفسها القوى التى لا مصلحة لها فيه .

والحقيقة أنه باسم إعادة ترتيب البيت العربى ، كان الخيار الذى طرح نفسه هو تثبيت الأمر الواقع ، مع تغيير الدهانات الخارجية وترميم بعض الشقوق !

---

(٢) فيما بعد ، وفى أيام « جورباتشوف » ، قامت السعودية بالفعل ببناء أعداد كبيرة من المساجد فى الجمهوريات الإسلامية للاتحاد السوفيتى ، ولكن هذه المساجد الآن استولى عليها شيوخ الطرق الصوفية ، وأهمها « الطريقة النقشبندية » .

٣

إن فكرة إنشاء مجالس للتعاون الإقليمى بين أجزاء العالم العربى المتلاصقة بالجغرافيا ، أو بالمصالح الذاتية لم تكن ـ أولاً ـ جديدة .

ثم إن هذه الفكرة لم تكن ـ ثانياً ـ خطوة إلى الأمام ، بل خطوة إلى الخلف من حيث أنها استغنت عن الإطار الواحد الذى كان مفروضا أن يجمع العالم العربى الواحد فى منظمة واحدة ، وعلى احترام ميثاق واحد ـ ثم استبدلت ذلك بتقسيم الأمة إلى ثلاث مجموعات ضمت بعض دولها ، ثم تركت بقية دول الأمة فى العراء أو فى التيه .

إن هذه الفكرة ظهرت فى الواقع من قبل إنشاء الجامعة العربية ، ثم جرى الترويج لها فى بعض الأحيان كبديل لها ، وفى وقت من الأوقات اعتمدتها هيئات المعونة والتنمية الدولية ، والغربية بالذات ، كأساس لنشاطها فى المنطقة .

كانت الفكرة تقول إنه ليس هناك عالم عربى واحد ، ولكن أربعة عوالم لكل منها خصوصيته وقاعدته وشبكة علاقاته الطبيعية :

شبه الجزيرة العربية عالم وحده له خصوصيته ، والرياض فيه هى المفتاح ـ والهلال الخصيب عالم ثان وحده له خصوصيته ، ودمشق فيه هى المفتاح ـ والمغرب العربى عالم ثالث وحده له خصوصيته ، والرباط فيه هى المفتاح ـ ووادى النيل (مصر والسودان) عالم رابع وحده له خصوصيته ، والقاهرة فيه هى المفتاح .

وقد عادت هذه الفكرة تتردد أثناء أزمات الجامعة العربية المتكررة ، ونوقشت مرة فى مجلس الوزراء المصرى سنة ١٩٦٢ ، وكان رأى « جمال عبد الناصر » فيها « أنها محاولة لتقسيم الأمة ، ولعزل مصر على وجه التحديد وإبطال دورها . فشبه الجزيرة العربية سوف يبتعد ، والهلال الخصيب أيضاً ـ والمغرب العربى سوف يلحقهما ـ والسودان سوف يجد نفسه بمشاكل الجنوب مشدودا إلى شرق أفريقيا ـ وهكذا فإن مصر حتى فى المجموعة التى يراد تصنيفها فيها سوف تجد نفسها وسط عالم عربى تفرقت بينه السبل ، وهى وحدها فى قلبه وعليها بمفردها مواجهة إسرائيل . »

وبعد سنوات طويلة ـ إذا الفكرة تعود وتطرح نفسها ، ثم يجرى تقديمها للأمة العربية ، وكأنها الاستجابة المطلوبة لدواعى التغيير المنشود . وكان الأمر فى جوهره مختلفا ، فالعالم العربى الجائع إلى تفكير جديد لم يجد أمامه غير فكرة معلبة انتهت مدة صلاحيتها من سنين طويلة ـ وراح يمضغ ، ويبلع !

ولقد ساعد على عودة الفكرة وفتح الطريق إلى تنفيذها حقيقة أن القاهرة كانت فى ذلك الوقت غائبة عن مجال العمل العربى بمعناه الواسع . فالعلاقة القائمة بالدرجة الأولى على صناعة السلاح المشتركة مع العراق ليست كافية ، والعلاقة القائمة بالدرجة الأولى على طلب بعض المساعدات غير المعلنة من دول الخليج ليست كافية ، والعلاقة المتوترة مع سوريا تحت دعوى « ارفعوا أيديكم عن لبنان » ليست كافية ، كما أن العلاقات المتقلبة فى درجة حرارتها مع ليبيا والسودان ومنظمة التحرير الفلسطينية ـ هى الأخرى ليست كافية .

كانت مصر بعيدة ، بينما هى فى العادة أهم محركات العمل العربى ، وإن لم تكن محركه الوحيد . وفى تلك الفترة كان المحرك المصرى الرئيسى تحت الإصلاح ، وكانت بقية المحركات تعمل ، ولكن كلا منها كان يدفع فى اتجاه .

والحقيقة أن توازنات القوة الداخلية فى العالم العربى كانت قد تغيرت ، وأصبح من الصعب على محرك واحد أن يدفع العمل العربى العام . وقد أجرى مركز دراسات الوحدة العربية دراسة عن المستقبل العربى[٣] استغرق إعدادها خمس سنوات واشترك فيها مئات من المفكرين وأساتذة الجامعات العرب ، وكان بين ما توصلوا إليه تأسيسا على مجموعة من المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية والعسكرية ـ أن « **دولة واحدة ، وهى مصر ، كان فى استطاعتها أن تقود فى الخمسينات والستينات ، ولكن تغير الموازين أثر فى هذا الوضع وأصبح يحتاج إلى قيادة مشتركة للعمل العربى لا تستطيع دولة واحدة أن تنهض بمسئولياتها ـ بحكم الحقائق .** »

ولقد بدأت سلسلة المجالس الإقليمية بمجلس التعاون الخليجى . ولم تكن فى ذلك غرابة ولا عجب . فدول الخليج كلها يضمها رباط واحد أقوى من أى رباط آخر ، وهو رباط البترول . وهى جميعا أطراف مشترية فى سوق التهديد والحماية . وهى جميعا متقاربة على نحو ما فى نظم الحكم وطبائع السلطة . بل إن الجزء الأكبر من حكامها ينتمون إلى نفس القبيلة النجدية « عنزة » . فمن هذه القبيلة جاء « آل سعود » فى الدولة التى تحمل اسمهم ، و « آل الصباح » فى الكويت ، و « آل خليفة » فى البحرين .. إلى آخره . ونتيجة ذلك أن السياسات كانت متقاربة ، والرغبات ليست متباعدة . ثم إن الضغوط الواقعة على الكل واحدة . ولذلك فقد كان سهلا على الجميع أن يلتقوا فى تنظيم إقليمى واحد (رغم

---

(٣) دراسة استشراف المستقبل العربى . وقد أشرف على توجيهها وإدارتها الدكتور ، خير الدين حسيب ، مدير مركز دراسات الوحدة العربية ، وهو من أفضل مراكز الدراسات العربية ، وأكثرها جدية ونشاطا وإسهاما فى حركة التنوير العربى .

الخلافات بين بعض السكان ، ومرجعها إلى بقايا قبلية وعائلية وشخصية) ، وكذلك لم يكن مفاجئا أن يحدث ذلك سنة ١٩٨٠ ـ كرد فعل مباشر لقيام الثورة الإسلامية فى إيران . وفى لحظة من اللحظات ظن العراق أن باب التعاون مع دول الخليج مفتوح له بحكم وقوفه فى الصف الأول أمام إيران . وتبين بعد قليل أن ظن العراق كان على غير أساس ، فقد حضر اجتماعا واحدا فى التمهيد لمجلس التعاون الخليجى ، ثم جرى استبعاده بعد ذلك بلطف ولين .

وليست هناك عقدة من أى نوع تعترض فهم طبيعة ودور وعمل مجلس التعاون الخليجى . فالأمور فيه واضحة والخطوط بسيطة ، فهذه كلها دول تعرف حتى بالغريزة من هو صديقها الذى تعتمد عليه ، ومن هو عدوها الذى تحاذره ، وما هى وسائلها وأساليبها فى صراع البقاء والسيادة . وهى أول من يعرف قيمة الكنز الذى تجلس عليه ، وأول من يستشعر المطامع التى تتربص به ، وأول من يعرف إلى من تتجه إذا ما تعرضت للتهديد . ولقد كان يمكن ، والحال كذلك ، أن تستغنى هذه الدول جميعا عن أى تنظيم عملى يضمها ، مكتفية بالحقائق ، مستغنية عن المظاهر . لكن الذين ينحون إلى مثل هذا التصور ينسون أن للأمن جانبين : أمن خارجى يتكفل به واقع الحال ـ وأمن داخلى لابد من السهر عليه والتأكد من ضوابطه وروادعه . **والحقيقة أن الهدف الرئيسى من مجلس التعاون الخليجى كان هو اعتبار الأمن الداخلى للنظم الحاكمة فى دول الخليج قبل أى هدف . وبالتالى فإنه يمكن القول أن مجلس التعاون الخليجى ظهر كإفراز طبيعى لواقع حال فرض نفسه على أواخر حقبة السبعينات ، والتوقعات المنتظرة للأرصاد السياسية فى أجواء الثمانينات وما بعدها . وبالتالى فإنه لا سر هناك ، ولا لغز .**

□

وربما كان ذلك هو نفس الوضع بالنسبة لفكرة تجمع آخر فى شمال أفريقيا ، وهو التجمع الذى حركته دعوة الوحدة المغاربية . كانت الفكرة سابقة من أيام الكفاح فى طلب الاستقلال . وبعد الاستقلال فقد ظلت الفكرة معلقة يعلو صوت الدعوة إليها أحيانا ، ويخفت فى أحيان أخرى ، مسايرة لتقلبات الظروف فى العالم العربى . وعندما تراخت قوة الجذب بين المشرق والمغرب فى العالم العربى . ثم عندما بدأ الحديث والتخطيط والتنفيذ لسوق أوروبية موحدة ـ فإن دول المغرب العربى التى كانت تستشعر مدى ارتباطها الاقتصادى بأوروبا الغربية ـ عادت إلى فكرة الوحدة المغاربية كوسيلة لتنظيم علاقاتها بأوروبا الموحدة . وكانت هذه العلاقات متشابكة ، من الزراعة إلى الصناعة إلى العمالة إلى الاتصالات . وهكذا فإن الوحدة المغاربية بدت هى الأخرى فى إطارها الخاص إفرازا طبيعيا لواقع حال من نوع مختلف !

ولقد كان الداعى إلى الحيرة والتساؤل ـ بالفعل ـ هو فكرة مجلس التعاون العربى الذى ظهر فجأة على المسرح العربى ، وطرح نفسه بسرعة على جماهير عربية لم تعرف كيف تكيف نفسها ومشاعرها إزاءه .

ومن الواضح ، سواء باستقراء الوقائع ، أو قراءة الوثائق ، أن فكرة مجلس التعاون العربى ظهرت ابتداء فى عمان ، ومنها انتقلت إلى بغداد ، ثم وصلت مع الخطوة الثالثة إلى القاهرة . كذلك يعطى استقراء الوقائع وقراءة الوثائق مجموعةً من المؤشرات المبكرة التى تبين أن هذا المجلس كان خطوة غير ثابتة ، على طريق غير ممهد :

● كان التواصل الجغرافى بين أطرافه مفرطحا دون عامود فقرى ـ فكرى أو سياسى أو استراتيجى ثابت فى الأرض يشد إليه الأطراف المبعثرةُ ، ويمسك بحركتها جميعا لكى يوجه خط سيرها ومجال انتشارها .

● إن الفكرة بشكل من الأشكال تبدت وكأنها نوع من رد الفعل ، فقد جاءت تالية لظهور وبروز مجلس التعاون الخليجى ، كما جاءت تالية لاتساع دائرة الاهتمام بتكوين مجلس الوحدة المغاربية . وفى العادة فإن المسافة شاسعة بين فعل أصلى سبق ، وردة فعل تجىء بعده ، وربما تأثرا به ـ رغم اختلاف الظروف .

● إن تنفيذ الفكرة بما يعنيه قيام ثلاثة مجالس مختلفة للتعاون العربى كان معناه ترك عدد من البلاد العربية بعيدة ، أو معطلة عن المشاركة فى الفعل العربى . فإذا كانت الدعوى فى هذه المجالس أنها تنشيط وتجديد للفعل العربى ـ إذن فإن تقسيم العالم العربى إلى كتل ، وترك دول عربية كثيرة خارج هذه الكتل ـ كان خصما من قوة الفعل ، وليس إضافة عليها .

● وقد كان واضحا علاوة على ذلك ، أن الأهداف بين الأطراف ليست متجانسة ، بل لعلها كانت أقرب إلى الاختلاف منها إلى الاتفاق أو التجانس . فقد كان ظاهرا أن هدف الأردن هو مواجهة أزمته الاقتصادية ونتائجها السياسية المحتملة . كما أن هدف العراق كان مواجهة ظروف ما بعد حربه مع إيران وأثرها . كما أن هدف مصر كان كسر طوق العزلة ، والدخول إلى العمل العربى من أى باب قد يؤدى إلى اجتياز مشكلاتها المستعصية .

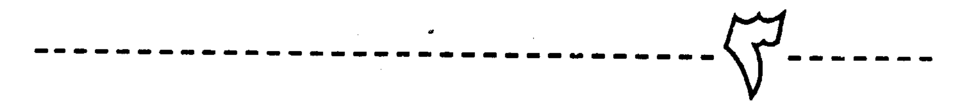
● وأما اليمن الذى انضم إلى المجلس فى اللحظة الأخيرة قبل إعلان قيامه ، فقد كان يبحث عن داع للاقتراب من القلب العربى ـ كما أنه كان يبحث عن مطالب أمن مبهمة ، ومطالب اقتصادية لا تريد أن تعلن عن نفسها إلا عندما يجىء الأوان ، وهو أوان غير محدد بأجل !

وإذن فقد كان التجمع فى الواقع تجمع اختلافات ، وليس انسجام مقاصد .

● وحتى على مستوى القيادات التى تولت مسئولية التبشير بالفكرة وطرحها وتنفيذها ـ فإن التباين بين الرجال ، وخلفية كل منهم وتكوينه ، ونوع سلطته ، وطموحات نظامه ـ كانت كل منها فى واد . وبذلك فإن اللقاء بينهم كان حكم ضرورات غير قادر على الصمود للتحديات . وكان خليقا أن يؤدى إلى انفجار لدى أول صدمة .

● وقد أضيف إلى ذلك التباس تمكن من الآراء على مستوى الصفوة وعلى مستوى الرأى العام ، فقد انساق فى الصخب الذى رافق إنشاء هذا المجلس كثيرون غاب عنهم أن هذه السياسات ، مهما تزينت ، ليست غير تكريس لانقسام الأمة العربية إلى تجمعات متفرقة ، تحل محل الجامعة العربية وميثاقها الذى بدا وكأنه أكبر من طاقة العرب فى المرحلة الراهنة من تطورهم . وكان محزنا أن العمل العربى الذى استطاع فى الأربعينات أن يقيم بناء الجامعة ويكتب ميثاقها ـ يجيء على مشارف التسعينات ليقر ويعترف أن فكرة الجامعة العربية تفوق طاقته بكثير ، وأن عجزه إزاءها ليس حكما على الماضى بمقدار ما هو حكم على الحاضر .

ورغم الصخب الشديد ، فإن نغمة الافتعال كانت ملحوظة مسموعة !



إن فكرة مجلس التعاون العربى ظهرت لأول مرة فى عمان ، وفى صيف سنة ١٩٨٨ كانت مناقشتها تجرى بطريقة هادئة فى محافل صنع القرار السياسى فى العاصمة الأردنية . وكان « منتدى الفكر العربى » ، وهو هيئة للدراسات السياسية يرأسها الأمير « الحسن بن طلال » شقيق الملك « حسين » ـ إحدى الهيئات التى تولت بحث التفاصيل وتعميقها .(٤)

---

(٤) كان مدير « منتدى الفكر العربى » فى ذلك الوقت هو الدكتور « سعد الدين إبراهيم » أستاذ العلوم الاجتماعية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وكان هو الذى تولى صياغة المشروع الأردنى ، وكان المنتدى فى ذلك الوقت يقوم بدور المطبخ الداخلى لبعض جوانب السياسة الخارجية الأردنية . وكانت الثمانينات هى الفترة التى حاول فيها بعض الأكاديميين فى العالم العربى أن يقتربوا من صناع القرار فى العالم العربى ، طبقا لفكرة عبر عنها الدكتور « سعد الدين إبراهيم » فى بحث بعنوان « تجسير العلاقة بين المثقف والأمير » .

كانت المناقشة فى البداية تتحدث عن « تجمع مشرقى » تدخله الأردن ، والعراق ، ومصر . ولم تكن اليمن قد ظهرت بعد فى الأفق .

وتبين ورقة عمل أعدها « منتدى الفكر العربى » الأردنى - أكثر من أى وثيقة أخرى عن هذا الموضوع فى هذه الفترة - نوع التفكير الإجمالى والتفصيلى الذى مهد للمشروع وأعطاه دفعة الحياة .

تبدأ ورقة العمل بدراسة المزايا التى يمكن أن يحققها إنشاء مجلس التعاون العربى بالنسبة لكل طرف من أطرافه الثلاثة الأصليين . وتتعرض بالتفصيل لما يمكن أن يمنحه المجلس من مزايا استراتيجية وسياسية واقتصادية واجتماعية لكل منهم . وبالطبع فإن ورقة العمل تستفتح بالأردن فتقول ما يلى :

« إن الأردن دولة صغيرة محاطة بدول أكبر وأقوى بكثير ، مما يجعلها دائما مهددة في أمنها العسكرى والسياسى . وأهم هذه التهديدات يأتى من إسرائيل التى تستطيع احتلال الأردن بسهولة نسبية ، خاصة إذا ما أرادت حل القضية الفلسطينية على حسابه (أى تحويل الأردن إلى وطن بديل لفلسطين وفقا لمشروع « شارون ») . وبعد فك الارتباط مع الضفة الغربية أصبح الأردن بحاجة إلى خطوة تكاملية أو وحدوية لإثبات منطلقاته القومية ، والحفاظ على دوره العربى المتميز ، والذى فاق طوال العقود الماضية حجم الأردن المادى . »

ثم تنتقل ورقة العمل إلى المشكلة الاقتصادية فتقول :

« يعانى الأردن فى الوقت الراهن من معدل بطالة مرتفع يصل إلى حوالى ١٦٪ ، ومن عدم الاتساق فى هيكل قواه العاملة - حيث يوجد فائض من المتعلمين والفنيين ، ونقص فى العمال غير المهرة ، مما يضطره إلى استيرادها ، كما تعانى الصادرات الأردنية الزراعية والصناعية من عجز عن فتح أسواق جديدة ، أو حتى المحافظة على الأسواق القديمة لارتفاع كلفتها . كما أن الطاقة الاستيعابية للاستثمارات الجديدة محدودة لقلة الموارد الطبيعية (باستثناء الفوسفات والبوتاس) ، وتناقص التحويلات من الخارج ، ونضوب فرص العمل فى الخليج التى كانت تستوعب ثلث القوى العاملة الأردنية ، وهذه كلها عوامل أدت إلى زيادة الاختلال فى ميزان المدفوعات وتضخم المديونية الخارجية بالقياس إلى عدد السكان وحجم الاقتصاد ، وإلى نضوب الاحتياطى من العملات الأجنبية لدى البنك المركزى إلى حده الأدنى ، وانعكس ذلك بدوره على تآكل قيمة الدينار الأردنى فى مواجهة العملات الأخرى بحوالى ٢٥٪ فى السنوات الثلاث الأخيرة . إن هذه المشكلات يمكن أن تهدد الاستقرار والاستمرار الذى نعم به الأردن خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة . فالبطالة من ناحية ، وغموض مستقبل العلاقات الأردنية الفلسطينية من ناحية ثانية ، وتضخم نسبة

الشباب فى المجتمع الأردنى من ناحية ثالثة ، هى بمثابة قنابل زمنية يمكن أن تهدد استقرار الأردن فى الوقت الحاضر ، أكثر من أى وقت مضى فى العقدين الأخيرين . »

ثم تصل ورقة العمل إلى تعداد المزايا الاستراتيجية والاقتصادية التى يمكن أن يحصل عليها الأردن من خلال مجلس التعاون المشرقى المقترح ، كما كان اسمه فى وثائق تلك الفترة . وتبدأ ورقة العمل بتعداد المزايا الاستراتيجية فتعددها على النحو التالى :

« (أ) تأمين ظهر الأردن من التآمر الإسرائيلى الأمريكى (القصد هو الخشية من اعتبار الأردن وطنا بديلا لفلسطين ، مما يترتب عليه حل القضية الفلسطينية على حسابه ، كما أسلفت الورقة عندما عرضت المشاكل) ـ كذلك تأمين ظهر الأردن من الابتزاز السورى والضغط السعودى .

(ب) توفير مجال حيوى أوسع تستطيع القيادة الأردنية من خلاله أن تمارس مهاراتها السياسية المتميزة لصالح الأردن ومشروع التكامل عموما .

(جـ) إزالة الحساسية الديموغرافية نتيجة الاستقطاب الأردنى ـ الفلسطينى حيث سيكون كل من الأردنيين والفلسطينيين أجزاء من كيان إقليمى أكبر .

(د) سيكون الكيان المشرقى المقترح قوة ردع هائلة لإسرائيل (كان هذا البند يحتوى على قدر كبير من التمنى ، حيث أن مصر كانت مرتبطة باتفاقية سلام مع إسرائيل ، كما أن الجبهة الشرقية كانت مختلة التوازن بسبب وجود سوريا خارج التجمع المشرقى المقترح) . »

ثم تنتقل ورقة العمل إلى المزايا الاقتصادية التى تعود على الأردن ، فتعددها على النحو التالى :

« (أ) فتح أسواق العراق ومصر أمام الصادرات الأردنية التى يلزمها معاملة تفضيلية .

(ب) يستطيع العراق استيعاب فائض القوة العاملة الأردنية العاطلة عن العمل أو العائدة من الخليج ، وبخاصة المهندسون والفنيون والإداريون .

(جـ) يستطيع قطاع المقاولات الأردنى أن يوظف كاملا فى العراق خلال فترة التعمير وإعادة البناء طوال السنوات العشر القادمة .

(د) إمكانية الاستفادة من مياه الفرات لإحياء الأراضى الشرقية الأردنية الخصبة التى لا ينقصها سوى الرى .

(هـ) تستطيع مصر توفير العمالة غير الماهرة ، ونصف الماهرة للأردن .

(و) تقوية المركز المالى للأردن إذا أصبح جزءا من كيان اقليمى نفطى وزراعى كبير بوجود مصر والعراق فيه . وهذا يمكن أن يجعل من سوق عمان المالى سوقا رئيسية جاذبة تتجاوز حتى حدود الأقطار الثلاثة . »

ثم تلمس ورقة العمل « المزايا الاجتماعية التى تتحقق للأردن بالقضاء على مشكلة البطالة وتداعياتها السيئة - ثم توفير مجال حيوى أوسع للشباب الأردنى - وأخيرا نزع الفتيل من إمكانية استقطاب أردنى - فلسطينى . »

□

ثم تنتقل ورقة العمل إلى العراق ، فتروح تعدد مشاكله الاستراتيجية والاقتصادية والاجتماعية ، ثم تلحقها بالمزايا التى يمكن أن يحققها التجمع المشرقى (مجلس التعاون العربى) للعراق حتى يتغلب على كل هذه المشكلات .

وتدخل الورقة فى عرض مشكلات العراق الاستراتيجية - على نحو ما فعلت فى النموذج الأردنى قبله - وتعدد هذه المشكلات على النحو التالى :

« (أ) سيظل العراق مهددا أمنيا من إيران خلال العقدين القادمين حيث تتفوق إيران عليه من حيث القدرات المتاحة والكامنة - مساحة وبشرا واقتصادا بمعدل ثلاثة إلى واحد على الأقل . والانكسار الإيرانى الأخير ناتج بالأساس عن سوء القيادة ، وعزلة إيران الإقليمية والدولية ، وهى مثالب يمكن تلافيها فى غضون سنوات قليلة .

(ب) ستظل المشكلة الكردية تمثل نزيفا داخليا للعراق ، ويمكن تحريكها بواسطة أعدائه كلما تراءى لهم ذلك ، كما تثبت خبرة العقود الثلاثة الماضية .

(جـ) يعانى الداخل السياسى العراقى من فراغ ، وتآكل فى الشرعية نتيجة غياب المشاركة السياسية بالقوى والأحزاب والتكوينات الطائفية الأخرى - غير حزب البعث والعرب السنّة .

(د) رغم الانتصار العسكرى العراقى ، إلا أن هذا القطر سيظل مستهدفا للتجزئة إلى ثلاث دويلات : كردية فى الشمال ، وسنية فى الوسط ، وشيعية فى الجنوب .

(هـ) يواجه العراق احتمال استدراجه إلى مواجهة استنزافية مع سوريا . »

ثم تنتقل الورقة إلى مشكلات العراق الاقتصادية وتعددها على النحو التالى :

« (أ) يعانى العراق من مشكلة مديونية هائلة بسبب نفقات الحرب .

(ب) سيظل العراق يحتاج إلى إنفاق عسكرى باهظ بسبب استمرار التهديد الإيرانى .

(جـ) يواجه العراق مشكلة التكيف من اقتصاديات الحرب إلى اقتصاديات السلام ، أو شبه السلام ، خلال العقد القادم .

(د) يواجه العراق مشكلة التعمير وإعادة البناء ، وهى تحتاج لموارد بشرية ومادية ليست متوافرة له بسهولة فى الوقت الحاضر . »

ثم تصل الورقة إلى المشكلات الاجتماعية ـ تعددها بنفس الطريقة :

« (أ) سيعانى العراق لمدة جيل على الأقل من الاختلال فى الهرم أو الهيكل السكانى نتيجة فقد نسبة كبيرة من الفئات العمرية الشبابية فى حربه مع إيران .

(ب) يواجه العراق مشكلة إعادة تأهيل حوالى مليون من قواه البشرية فى سن العمل ـ للحياة المدنية .

(جـ) يواجه العراق مشكلة رعاية عشرات الآلاف من أرامل الشباب ، والعناية بعشرات الآلاف من مشوهى الحرب وإعادة تأهيلهم وتدريبهم ، والرعاية النفسية لعشرات الآلاف من أسرى الحرب العائدين الذين تعرضوا لعمليات غسل المخ فى إيران . »

ثم تنتقل الورقة إلى تعداد المزايا التى تتحقق للعراق فى المجلس الجديد فى جميع المجالات ، وتبدأ بالمزايا الاستراتيجية ، فتذكر :

« (أ) إن المجلس الجديد سيعطى للعراق عمقا استراتيجيا لا يتوافر له الآن .

(ب) إنه سيؤدى إلى تحييد التفوق الإيرانى البشرى والاقتصادى على العراق ، وسيكون الكيان المشرقى المقترح قوة ردع هائلة لإيران .

(جـ) سيعطى الكيان المقترح للعراق منافذ جديدة على العالم الخارجى حيث سيكون مسيطرا من الخليج إلى الخليج . (وتقصد المذكرة الخليج العربى ، أو الفارسى ، كذلك تقصد فى المرة الثانية خليج السويس) .

(د) إن امتداد الكيان المقترح من الخليج إلى الخليج يمكن أن يعزل سوريا برا وجوا عن باقى الوطن العربى ، وعن آسيا وأفريقيا إلا عن طريق البحر ، مما سوف يفرض عليها التخلى عن سياسة العداء للعراق . وربما يغريها بالاقتراب من هذا الكيان المشرقى ، إن لم يكن الإنضمام إليه .

(هـ) سيتيح الكيان المقترح للعراق المحافظة على مقدراته العسكرية بما فى ذلك التصنيع الحربى ، وتنمية هذه المقدرات من خلال التعاون التكنولوجى مع مصر والأردن .

(و) يوفر هذا الكيان الأكبر للعراق المناخ النفسى ، والاجتماعى للتعامل الأفضل مع المشكلة الكردية ، دونما خوف من تميع هويته العربية .

(ز) سيجعل الكيان المقترح من العراق دولة مواجهة فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى ، مما يعطيه دورا أكبر فى أى تسويات مستقبلية .

(ح) إن الكيان المقترح سوف يؤدى إلى تعظيم قدرة العراقِ على الحصول على مساعدات مالية من دول الخليج . »

ثم تنتقل الورقة إلى المزايا الاقتصادية التى سوف يجنيها العراق من اشتراكه فى إقامة مجلس التعاون العربى ، وتعددها ورقة العمل على النحو التالى :

« (أ) سيتوافر للعراق وعاء بشرى هائل يقدم له كل القوى العاملة اللازمة للتعمير ولإعادة البناء من ناحية ـ وإبقاء أعداد كبيرة من أبنائه تحت السلاح من ناحية أخرى .

(ب) سوف يعظم الكيان المقترح من فرص العراق للحصول على أفضل شروط فى تعاقداته الاقتصادية الدولية التى تتطلبها إعادة البناء والحصول على السلاح .

(جـ) ستسمح إمكانيات السوق الواحدةِ الكبيرة لدول المجلس ـ للصناعات العراقية ، بما فيها الصناعات الحربية ، من الإنتاج بكلفة اقتصادية مثلى .

(د) يمكن للعراق من خلال العمالة الزراعية المصرية الفائضة من النهوض بالقطاع الزراعى فيه ، بما فى ذلك استصلاح مساحات شاسعة من أراضيه .

(هـ) سوف يتيح الكيان المقترح للعراق أن يلعب دورا أكبر فى منظمتى « الأوبك » و « أوابك » .

(و) يتيح المجلس المقترح للعراق الحصول على شروط أفضل فى تعاملاته مع تركيا ، وهى أحد المنافذ البديلة فى تجارته . »

ثم تصل الورقة إلى المزايا الاجتماعية التى يحققها مجلس التعاون العربى للعراق :

« (أ) يعطى مشروع التكامل للعراق الفرصة الوحيدة لتصحيح هياكله السكانية العمرية ، والجنسية فى مدى زمنى قصير من خلال الهجرة المصرية / الأردنية / الفلسطينية ، وخاصة من فئات الذكور الشباب .

(ب) تدفق الهجرة العربية من طرفى الكيان المقترح إلى العراق يمثل ضمانا فى الأمد المتوسط ، والطويل للحفاظ على الهوية البشرية ، والثقافية العربية للقطر العراقى ، ويقلص من إمكانيات الاستقطاب السنى ـ الشيعى فى العراق . »

وأخيرا تصل الورقة إلى مشكلات مصر الاستراتيجية والاقتصادية والاجتماعية ، والمزايا التى يحققها لها مجلس التعاون العربى . وتبدأ ورقة العمل بعرض لمشاكل مصر الاستراتيجية على النحو التالى :

« (أ) مازالت مصر تعانى من بقايا عزلتها العربية بسبب كامب دافيد .

(ب) تعانى مصر من الاختلال الاستراتيجى فى مواجهة إسرائيل .

(جـ) تعانى مصر سياسيا من تبعيتها الاقتصادية للغرب عموما ، وللولايات المتحدة خصوصا . »

ثم تنتقل إلى المشكلات الاقتصادية فى مصر ، وتعددها كما يلى :

« (أ) تفاقم مشكلة البطالة ، وهى تصل إلى ١٥٪ من حجم قوة العمل ، وكذلك التضخم السكانى عموما ، والتركز فى الوادى والدلتا خصوصا .

(ب) تفاقم مشكلة المديونية وخدمة الدين ، والصعوبات المتزايدة فى الاقتراض .

(جـ) الاختلال الهائل فى ميزان المدفوعات .

(د) الصعوبات المتزايدة فى فتح أسواق جديدة للصناعات التصديرية لقوة المنافسة من ناحية ، ولوجود تكتلات اقتصادية تفرض الحماية من ناحية أخرى .

(هـ) زيادة التبعية الاقتصادية للغرب عموما ، وللولايات المتحدة خصوصا لاعتمادها على القروض والمساعدات لتمويل العجز فى احتياجاتها من الغذاء والسلاح . »

ثم تصل الورقة إلى المشكلات الاجتماعية لتعرضها كما يلى :

« (أ) التداعيات الاجتماعية لانتشار البطالة بين الشباب وانتشار الفقر بين قطاعات واسعة من السكان ، فحوالى ٤٠٪ من سكان مصر هم تحت خط الفقر .

(ب) التكدس الحضرى يجعل من المدن المصرية الكبيرة قنابل زمنية موقوتة ، خاصة عند تفكير الحكومة فى إلغاء ، أو تخفيض الدعم على السلع الأساسية .

(جـ) انتشار التطرف ، وخاصة الدينى منه ، وزيادة المواجهات الدموية العنيفة بين المتطرفين منهم ، والقوات المصرية .

(د) انتشار المخدرات على نطاق واسع بين الشباب فى السنوات الأخيرة نتيجة غياب مشروع حضارى قومى يلهم الشباب ، ويستوعب طاقاتهم . »

ثم تنتقل ورقة العمل إلى المزايا التى تتحقق لمصر من مجلس التعاون العربى ، وتبدأ بالمزايا الاستراتيجية فتقول :

« (أ) استكمال عودة مصر للصف العربى ، وإنهاء بقايا عزلتها .

(ب) تصحيح الخلل الاستراتيجى فى مواجهة إسرائيل ، حيث تمثل المقدرات العسكرية المشتركة لأطراف الكيان المشرقى تفوقا على إسرائيل فى الرجال والسلاح التقليدى .

(جـ) تقليص التبعية السياسية المصرية للغرب عموما ، والولايات المتحدة خصوصا .

(د) تكريس مركز مصر الدولى . »

ثم تنتقل ورقة العمل إلى المزايا الاقتصادية التى يمكن أن تجنيها مصر ، وتعددها كما يلى :

« (أ) تصدير العمالة المصرية الفائضة ، وخاصة غير الماهرة ونصف الماهرة ، إلى العراق بشكل أساسى ، وإلى الأردن بشكل ثانوى .

(ب) فتح أسواق العراق والأردن أمام الصادرات المصرية .

(جـ) التوظيف الكامل لقطاع البناء والتشييد المصرى فى العراق ، خلال العقد القادم .

(د) الاستغلال الاقتصادى الأمثل لطاقات الصناعات العسكرية المصرية ، وتطويرها تكنولوجيا للمساعدة فى تلبية حاجات الأقطار الثلاثة .

(هـ) التفاوض الجماعى (مع العراق والأردن) للحصول على أفضل شروط لإعادة جدولة الديون ، وإلغاء بعضها .»

وأخيرا تصل ورقة العمل إلى المزايا الاجتماعية التى يمكن أن تتحقق لمصر من خلال عضويتها فى مجلس التعاون العربى المقترح :

« (أ) يمثل الكيان الثلاثى المقترح نوع المشروعات الحضارية القومية الكبرى التى يمكن أن تلهم وتستوعب طاقات الشباب المصرى ، ومن ثم تبعده عن التطرف الدينى من ناحية ، وعن المخدرات من ناحية ثانية .

(ب) إن فرص العمالة والتنقل فى المجال الحيوى الأوسع الذى يوفره الكيان الثلاثى لابد أن تساعد على تقليص الفقر والتكدس السكانى والحضرى الموجود حاليا فى دلتا ووادى النيل .

(جـ) التكريس الثقافى والحضارى لعروبة مصر التى عانت بعض التآكل فى حكم الرئيس السادات .

كان ذلك هو الإطار الفكرى والسياسى الذى جرى على خطوطه طرح مشروع مجلس التعاون العربى ، ومن نظرة واحدة على هذا الإطار فإنه يتبدى فى حقيقة أمره باعتباره مجمعا للمشاكل أكثر منه مجلسا للتعاون .

وفى المحصلة النهائية ، فإن المجالس الثلاثة للتعاون الإقليمى بدت وكأنها ثلاث قفزات فى المجهول ، كل منها فى ناحية مختلفة .

● **مجلس التعاون الخليجى** : وقد بدا تجمع أغنياء يشغلهم أمن ثرواتهم وأمن أشخاصهم ـ وتلك طبيعة الغنى .

● **ومجلس التعاون العربى** : وقد بدا تجمع محتاجين تضغط عليهم المشاكل والضرورات ، وتملى عليهم أحكامها ـ وتلك طبيعة الأحتياج .

● **ومجلس الوحدة المغاربية** : وقد بدا تجمعا يؤقلم فيه البر الإفريقى نفسه مع البر الأوروبى ، ودون الاثنين بحر لا أحد يستطيع أن يعبره سباحة !

والغريب أن مشروع مجلس التعاون العربى طرح على مصر وقبلته فى أربع وعشرين ساعة ، وتقرر أن يسافر الدكتور « عاطف صدقى » رئيس الوزراء المصرى إلى عمان على الفور لتوقيع اتفاق بإنشائه ، وقد أخذ معه فى حقيبته مذكرة تم إعدادها فى ساعات قليلة .

وعندما أعلن نبأ الاتفاق صاحبته ضجة عالية ، لكن هذه الضجة كانت فى أغلبها كلاما رسميا مجردا من أية حماسة شعبية ، كما أنه أثار على الفور ردود فعل حركتها الحساسية ، خصوصا لدى المملكة العربية السعودية .

كانت اليمن قد انضمت إلى الميثاق على غير توقع ، وكان انضمامها باقتراح من العراق ، ورأت السعودية أن انضمام اليمن إليه يطوقها من الشمال وسن الجنوب ، كما قدرت أن ذلك كان قصدا مقصودا .

وأحس الرئيس « حسنى مبارك » فى القاهرة بالشكوك السعودية ، ورجا الملك « حسين » فى سفرة قادمة له إلى السعودية أن يشرح للملك « فهد » أن مجلس التعاون العربى لم ينشأ كرد فعل للنشاط المتزايد لمجلس التعاون الخليجى ، كما أن انضمام اليمن فى اللحظة الأخيرة ليس عملا موجها للسعودية .

وسافر الملك « حسين » إلى السعودية ، والتقى بالملك « فهد » ـ لكن الملك « فهد » لأسباب رآها تجنب أن تقترب مناقشاته مع الملك « حسين » من هذا الموضوع . ثم حدث فى اليوم المقرر لمغادرة الملك « حسين » للسعودية أنه طلب من الملك « فهد » تحديد فرصة لقاء لأمر هام يريد أن يحدثه فيه قبل أن يغادر المملكة . وكان رد الملك « فهد » أنه « اليوم مقيد بحضور حفل تخريج دفعة جديدة من الطيارين ، وهو يريد أن يصحبه الملك (« حسين ») إلى هذه المناسبة لأنه يعرف شغفه بالطيران » . ثم كان اقتراح الملك « فهد » بأنه « بعد انتهاء حفل تخريج الطيارين ، فإنه سوف يصحب الملك لوداعه فى المطار ، وفى السيارة وعلى الطريق من حفل التخرج إلى المطار قرابة ساعة يستطيع الملك (« حسين ») أن يتحدث فى أى موضوع يشاء . »

وانتهى حفل تخريج الطيارين ، وركب الملكان فى سيارة واحدة ، لكن السيارة كان فيها إلى جوارهما وأمامهما وخلفهما عدد من المرافقين المدنيين والعسكريين . وأبدى الملك « حسين » ملاحظة قال فيها « إنه كان لديه ما يريد أن يحدث الملك فيه ، ولكن الجو الآن غير مناسب » . ورد الملك « فهد » بأن « هناك فرصة للقاء قادم بينهما يبحثان فيه على مهل كل ما يعن لأى منهما » .

ورأى الرئيس « حسنى مبارك » ألا يترك الأمر عند هذا الحد ، فقرر إرسال وزير الخارجية المصرى إلى السعودية ليتحدث إلى الملك « فهد » عن موضوع انضمام اليمن إلى مجلس التعاون العربى .

وسافر الدكتور « عصمت عبد المجيد » إلى السعودية ، والتقى بالملك « فهد » واستمر الحديث لمدة ساعة كاملة ، والملك يدير أطرافه بما لا يسمح لغيره بأن يفتح موضوعا من عنده .

وفى نهاية الساعة ، وقد قاربت المقابلة على الانتهاء ، وجد وزير الخارجية المصرى أن مهمته تفرض عليه الإشارة إلى موضوع اليمن ، وكان تعليق الملك بسرعة « خير إن شاء الله » . وألح الدكتور « عصمت عبد المجيد » وزاد من إلحاحه . وعندها فقط راح الملك يسأل « **ما هى حكاية اليمن هذه ؟** »

وشرح الدكتور « عصمت عبد المجيد » رسالته . ولم يكن الملك « فهد » مقتنعا . وكان فى كلامه ما يوحى بالإشارة إلى أنه « **لا يعتبر مصر مسئولة عن انضمام اليمن ، وإنما هو يضع المسئولية على غيرها .** »

□

ومضت أسابيع قليلة وانفجر الموقف فى جنوب الأردن بقيام مظاهرات معادية لنظام الحكم فى عمان ، وكان احتجاجها على غلاء الأسعار ونقص المؤن ، ولفت النظر أنه بين الهتافات التى ترددت بشدة فى المظاهرات هتافات تطالب بالانضمام إلى المملكة العربية السعودية .

كانت بؤرة المظاهرات هى منطقة « الكرك » ، وهى منطقة تسكنها قبائل وعشائر تتمتع فيها السعودية بنفوذ كبير .

وأدت المظاهرات التى انتقلت من « الكرك » فى جنوب الأردن إلى بعض المدن فى الشمال ـ لسقوط حكومة السيد « زيد الرفاعى » ، كما أدت إلى هروب لرأس المال من الأردن بلغ حجمه فى بعض التقديرات خمسمائة مليون دولار فى بحر أسبوع واحد ، وانخفضت قيمة الدينار الأردنى بعد الاضطرابات إلى نصف ما كانت عليه قبلها .

كانت لغة الإشارات بين الملوك مبارزات سيوف ، وبدا كأن الملك « فهد » يقول للملك « حسين » : « **إذا كنت تقصد مضايقتنا باليمن فى الجنوب ، فنحن قادرون على مضايقتك فى الجنوب أيضا ... لكنه جنوب الأردن نفسه .** »

وكان الملك « حسين » فى تلك الفترة يشعر بكثير من الضيق ، وقد بعث برسالة إلى الملك « فهد » يقول له فيها ما مؤداه « **إنه لا داعى لهذه الأساليب فى الإحراج . وإنه إذا وصلت الأمور إلى هذا الحد ، فهو لا يقبل بتعريض الأردن لأية هزات عنيفة مع موقعه الخطر ، وهو فى هذه الحالة على استعداد لأن يبتعد إذا كانت السعودية جاهزة لتحمل مسئوليات الأردن كله ، وليس جنوبه فقط !** »

كان الملك « حسين » فى تلك الفترة فى حالة نفسية سيئة ، فلم يكن يواجه هذه المشاكل مع السعودية فقط ، وإنما كان متشائما من ناحية القضية الفلسطينية ، ذلك أنه بحكم اتصاله بكل أطراف الصراع ، كان واثقا أن اسرائيل لن تبادل أى قطعة من الأرض بأى قدر من السلام ، وكانت خشيته أن الأردن أصبح فى مهب العاصفة بمشروعات « شارون » ، كما أن دور الأردن كجسر بين العرب والغرب قد انتهى باقتراب مصر مباشرة من الغرب . وحتى فيما يتعلق بإسرائيل ، فإن مصر التى عقدت معاهدة سلام منفرد معها كانت تتصل بالقادة الاسرائيليين جهارا نهارا ، وتعرف توجهاتهم وأفكارهم .

وكان الضيق الاقتصادى يخنق الأردن ، فقد انتهت المساعدات التى تقررت سنة ١٩٧٩ فى بغداد لمدة عشر سنوات ، وهى مساعدات قصد بها أن تكون سخية لدول المواجهة ، لأن دول المساندة أخذت فى اعتبارها وهى تقبل التزاماتها أن المعادلة تأثرت كثيرا بخروج مصر من الصف العربى .

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت التشققات تظهر على سطح الدهانات الخارجية التى ساحت طبقة فوق طبقة على بنيان مجلس التعاون العربى .

ورغم كل شيء ، فإن العلاقات لم تكن سلسة بين المؤسسات أو بين القيادات ، ثم تعقدت الأمور عندما اقترح الأردن تكوين فيلق عربى مشترك ليكون للمجلس درع واحدة تحميه . واعتذرت مصر . ومضى العراق والأردن وحدهما إلى نوع التنسيق العسكرى ، وبالذات فى مجال الدفاع الجوى .

ثم اقترح العراق نوعا من التوحيد لعملية المعلومات بما فيها المخابرات ـ ومرة أخرى رفضت مصر .

وبدا واضحا أن مصر تريد أن تحصر مجلس التعاون العربى كله فى إطار المنافع الاقتصادية لا يتجاوزها ، وأما بالنسبة للأمن العسكرى ، والأمن السياسى ، فإن رؤاها فيهما كانت على نقيض مع رؤية بقية الشركاء .

كان العالم العربى فى أسوأ حالاته .

منقسما فى الظاهر وفى الباطن ، ومتضاربا فى النوايا وكلها غامضة ، ومنهمكا فى المظاهر وكلها خداعة ، والأزمة تأخذ بخناق الجميع اقتصادية وعسكرية وسياسية وفكرية ، وحتى إنسانية !

الفصل الثامن

وساوس إسرائيليــــة

« إذا كان اليهود هم شعب الله المختار ، فمن نكــون نحن ــ المسيحيين ــ يــا صاحب الفخامة ؟ »

[البابا « شنـودة » للرئـيس الأمريكى « جيمى كارتر » فى لقاء بين الاثنين سنة ١٩٨٩] .

١

لم يكن هناك بلد يتابع ما يجرى فى العالم العربى بدقة ويقظة أكثر من إسرائيل . وكانت متابعتها أيضا بشىء من العصبية والقلق . إن العالم العربى استقر فى وعيه منذ سنوات أن اسرائيل قادرة وقوية سواء من الناحية العسكرية أو السياسية ـ ولم يكن ذلك هو احساس اسرائيل . فالبلد الذى كان العرب يتوهمون فيه القدرة ، كان فى داخله مصابا بالوساوس وعرضة فى كثير من الأوقات لأزمات الشك فى الذات . وتلك قضية مركبة ، وهى متصلة بجذور التاريخ اليهودى نفسه . فاليهود منذ زمن التوراة يرون أنفسهم قبائل داخلة فى صراع حياة أو موت مع قبائل أخرى . وقد استقر فى وجدانهم أنهم دائما المحاصرون والمطاردون . وحتى عندما ذهبوا إلى التيه ، فلقد حملوا معهم عقدهم الدفينة . وعندما وصلوا فى ترحالهم إلى أوروبا ، لم يكن فى مقدور أى مناخ خارجى أن يمنحهم

اليقين الذى فقدوه من الداخل . وهكذا فإنهم حتى فى ملاذهم الأوروبى كانوا هم الذين عزلوا أنفسهم بأكثر مما عزلهم الآخرون . ولقد كان هذا الانعزال نفسه هو مبعث الاضطهاد الذى لحق بهم فى بعض العصور وفى بعض الأوطان . فقد كانوا هم الذين بدأوا باعتبار أنفسهم شيئا مختلفا ـ بدعوى أنهم شعب مختار باتفاق مباشر بينهم وبين الرب ـ وعندما تعامل معهم الآخرون وفق شروط الاختلاف التى وضعوها بأنفسهم ، كانت شكواهم من الاضطهاد . إن هناك رأيا فى العالم العربى له وجاهته يرى أن ادعاء الاضطهاد اليهودى ليس له ما يبرره ، وإنما هو مجرد ذريعة لاستثارة عطف الآخرين أو ابتزازهم . ولكن الحقيقة أكثر تعقيدا من هذا الظن الذى يبدو عقلانيا ، ذلك أن ضمائر البشر لا تصنعها العقلانية وحدها ، وإنما تتفاعل فيها وتكونها عناصر كثيرة تدخل فيها الأساطير والمواريث والعقد ، وحتى الصور التى تريد المجتمعات أن ترسمها لنفسها ، وإن كانت زائفة ، فحتى الزيف لدى أصحابه يتحول إلى عنصر واقعى مؤثر وفاعل !

وعندما صدر « وعد بلفور » ليعطى اليهود تعهدا بوطن قومى فى فلسطين ، فإن اليهود الذين جاءوا من أوروبا الشرقية عادوا يحملون معهم نفس نظرتهم التقليدية إلى « الجوييم » (كلمة عبرية تترجمها المعاجم العبرية بالكلمة العربية « الأغيار » (الآخرون)) ، وهو الوصف الذى يطلقه اليهود على كل من هو غير يهودى . أى أن المنظور اليهودى يقسم البشر جميعا إلى نوعين من الناس : اليهود ـ و « الأغيار » ، أى الآخرون جميعا على اختلاف قاراتهم وأوطانهم وثقافاتهم . وتلك عقدة نفسية مزعجة ، خصوصا إذا ما تملكت مجتمعا بحاله ، وكان لديه فعلا من ظواهر الأحوال ما يوقع فى ظنه أنه محاط به من كل جانب .

وفى حين أن العالم العربى كان يجد نفسه منقسما ، ومنهكا ، وضعيفا فى حقبة الثمانينات ـ فإن إسرائيل راحت تنظر إلى شكل التكتلات العربية الناشئة من حولها وتشعر بالتطير والشك . والغريب أن الحقيقة العربية بالتفاصيل والأرقام كانت متاحة لإسرائيل وموجودة تحت تصرفها ، فلم تكن هناك فى الواقع العربى أسرار ، وحتى إذا كانت هناك أسرار ، فإن وسائل إسرائيل الخفية كانت قادرة على الوصول اليها ـ ومع ذلك فإن إسرائيل راحت تشعر بقلق حقيقى ، ولم يكن فى الحقيقة العربية شىء يمكن أن يخيف إسرائيل ، ومع ذلك خافت . ولعله كان حوارا بين الأوهام . أوهام عربية ظاهرة ، فى حوار مع أوهام إسرائيلية غائرة !

□

وعندما قام مجلس التعاون العربى ، فإن إسرائيل عبر قنوات اتصال متعددة أبدت قلقها لمصر ، واعتبرت اشتراك مصر فى هذا المجلس نوعا من الخروج على روح اتفاقية

« كامب دافيد » . وعندما طرحت فكرة إنشاء فيلق عربى مشترك لدول مجلس التعاون العربى ، أبدت إسرائيل قلقا حقيقيا . وعندما اعتذرت مصر عن الاشتراك فى هذا الفيلق المقترح ، لم تسترح إسرائيل لأنها راحت ترصد المعلومات عن مضى العراق والأردن معا فى تنفيذ الفكرة ثنائيا .

كانت إسرائيل قد رصدت تطور ونمو القوة العسكرية العراقية ، كما تابعت قدراتها فى المرحلة الأخيرة من العمليات على جبهة الحرب مع إيران . وعندما دخل العراق بالتعاون مع مصر إلى مجالات من التقدم التكنولوجى العسكرى استمر حتى بعد تحقيق النصر على إيران ـ اعتبرت إسرائيل من وجهة نظرها أن مجرد اشتراك العراق مع مصر ومع الأردن يمثل نوعا من المزيج الخطر الذى تكمن فيه ـ ولو حتى بالرمز ـ احتمالات تهديد فى يوم من الأيام .

وكان العراق بالتحديد موضع حيرة اسرائيلية لا تستقر على رأى . فاليهود لهم تاريخ قديم فى بغداد ، وبين المهاجرين إلى إسرائيل من البلاد العربية ، فإن نسبة القادمين من العراق كانت من أعلى النسب قياسا بغيرها . وبالتالى فإن إسرائيل كانت تتصور أنها تعرف الكثير عن العراق ، ومع ذلك فقد ظلت لديها شكوك قوية فى توجهاته :

١ ـ فالعراق لم يعقد اتفاقية هدنة مع اسرائيل ، كما فعلت بقية الدول العربية .

٢ ـ والعراق لم يكن مضطرا إلى ذلك ، لأنه ليس على خطوط تماس مباشر مع إسرائيل ، ومعنى ذلك أن قوة إسرائيل لا تطوله مباشرة .

٣ ـ وهذا الوضع يعطى للعراق حرية فى ممارسة سياسة غير مقيدة فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى ، وهذا يسمح له بأن يكون طرفا عنيفا ، ومغاليا بأكثر من غيره .

٤ ـ والعراق قوة عسكرية لا بأس بها ، وتلك القوة من تقاليده . فهى لازمة للحفاظ على تماسكه ، ثم إن الذين قاموا على مشروع بنائه فى العصر الحديث ، وفى مقدمتهم « نورى السعيد » (باشا) ، كانوا ضباطا فى الجيش العثمانى .

٥ ـ والعراق دولة تملك ثروات هائلة فى موارد البترول والمياه ، ومعنى هذا أنه قوة محتملة ـ اقتصادية وعسكرية .

٦ ـ والعراق فى وضعه الجغرافى يستطيع أن يضغط على الأردن ، وعلى سوريا لمنعهما من أية تسويات ممكنة مع إسرائيل .

٧ ـ والعراق ـ أخيرا ـ ولحقبتين متواليتين ظل تحت حكم حزب البعث العربى الاشتراكى ، وهو حزب له أفكاره والتزاماته القومية ، ومهما اختلفت الآراء حوله ، فإن الحزب له نواة صلبة ، وله قاعدة يسعى إلى توسيعها ، وله برنامج يريد تنفيذه ـ

وهو فى سبيل تحقيق ذلك كله يواصل عملية تعبئة عقائدية وسياسية وجماهيرية لا يستطيع أحد أن يقدر سلفا إلى أين تصل ، وإلى أى النتائج تؤدى ؟

وإذن ، فقد كان دخول العراق مع مصر والأردن واليمن الذى يمسك بالمداخل الجنوبية للبحر الأحمر ـ هاجسا ، ولم تكن إسرائيل قد نسيت أن بغداد كانت صاحبة الدعوة إلى مؤتمر القمة العربى الذى قاطع مصر بعد اتفاقيات « كامب دافيد » (١٩٧٩) ـ كما أنها كانت مقرا لهذا المؤتمر .

وفى سنة ١٩٨٨ كانت إسرائيل تحتفل بمناسبة مرور أربعين سنة على تأسيس الدولة ، وكان جو الاحتفالات تظلله مسحة قاتمة لم يكن لها فى الحقيقة والواقع ما يبررها . فالدولة اليهودية كانت عند أقصى درجات القوة ، وكانت ترسانتها النووية معبأة بأكثر من مائتى قنبلة ذرية . وكان سيل المساعدات الأمريكية ، إلى جانب مساعدات اليهود فى العالم ، مازال يتدفق أسرع وأكبر . ففى تلك السنة ١٩٨٨ حصلت إسرائيل على مساعدات ومعونات وهبات وتبرعات بلغت قيمتها ٩ بلايين دولار[١] ، أى بمعدل ثلاثة آلاف دولار سنويا لكل يهودى يعيش داخل حدودها . ومع ذلك كان مزاجها حادا وأعصابها مستثارة .

كان هناك سبب واضح لهذه الحالة النفسية ، وهو الانتفاضة . وهذه الانتفاضة أزعجت إسرئيل بالفعل ، فالشعب الفلسطينى الذى كانت تتمنى أن تنسى الدنيا مجرد وجوده ، هب فجأة متجسدا فى جيل جديد غاضب ، وكان ذلك مزعجا لإسرائيل ، لكن الذى أزعجها فيها أكثر ، هو أن مئات الصحفيين الذين كانوا فى المنطقة يغطون الحرب العراقية ـ الإيرانية ، أو عمليات إنشاء مجالس التعاون الإقليمى المختلفة ، أو قضايا البترول والمال فى الخليج ، أو عمليات التفجير والنسف والخطف فى بيروت ـ تركوا فجأة شواغلهم السابقة ، وأقبلوا بأقلامهم وعدساتهم يتابعون مأساة شعب أعزل يواجه قوة نووية بإلقاء الحجارة على قواتها فى القدس ، ونابلس ، والخليل ، وبيت لحم ، وغزة ، وغيرها ...

وبالطبع فإن الانتفاضة ، كما شدت اهتمام العالم الخارجى ، فعلت نفس الشىء إلى حد ما فى العالم العربى . إن معظم دول العالم العربى حاولت إلى حد ما أن تتجاهل الانتفاضة خوفا من تأثيراتها المحتملة على جماهير تلك الدول . لكن عنصر المنافسة بدأ يطرح استغلال الانتفاضة بدلا من تجاهلها . وكان الأساس الذى استندت عليه هذه المحاولة هو : من الذى يساعد الانتفاضة ، ومن الذى لا يساعدها . وتبارت بعض الدول العربية فى الإعلان عن أرقام للمساعدة لم يكن هناك ما يؤيدها غير قول أصحابها . ذلك أن بعض

---

(١) ٤ بلايين دولار من الحكومة الأمريكية ، والباقى تكفلت به حركة تبرعات وسندات إلى آخره .

دول الخليج أعلنت أنها تساعد ، ولكن عن غير طريق منظمة التحرير ، وكانت الحجة أن منظمة التحرير داخلة فى معارك على جبهات شتى بينها لبنان ، كما أن هذه المنظمة التى حولت نفسها لشبه حكومة راحت تستهلك جزءا كبيرا من مواردها فى نفقات إدارية لا تتصل بالضرورة باحتياجات الانتفاضة . وعندما تعلن دولة أنها تساعد وبغير طريق المنظمة ، فمعنى ذلك أنها تعتمد على وسائل وترتيبات هى وحدها تعرفها ، وهى وحدها تعلن حساباتها دون أن يكون لأحد غيرها وسيلة للجمع والطرح . وعلى أى حال ، فقد كانت مساعدة العراق فى دعم الانتفاضة هى المساعدة المعلنة والمفتوحة التى تمر عن طريق المنظمة بإسهام قدره أربعون مليون دولار فى السنة .

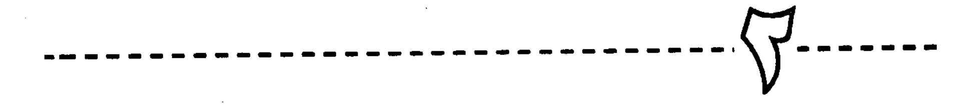
□

كان موضوع الهجرة أيضا داعيا لقلق إسرائيل ، فهى فى أساس إنشائها وطن قومى لليهود فى العالم ، ويهود العالم كله لا يزيد تعدادهم على ١٤ مليون نسمة : خمسة منهم فى أمريكا ، وأقل من أربعة فى إسرائيل ، ومليونان فى بلاد مختلفة من أوروبا الغربية وجنوب أفريقيا وأمريكا اللاتينية . وكل هذه المواقع لا تمثل مصدرا محتملا للهجرة ، فهم إما هناك فعلا فى إسرائيل (أقل من أربعة ملايين) ، وإما أنهم مستقرون حيث هم مثل يهود أمريكا وأوروبا الغربية وأمريكا اللاتينية وإلى آخره . وإذن يتبقى يهود الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية ، وعددهم لا يتجاوز المليونين . وهؤلاء هم مصدر الهجرة اليهودية المرغوب فيه والمأمول والمنتظر . وكانت التطورات الجارية فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية تعطى إسرائيل أملا كبيرا فى انفتاح أبواب الهجرة اليها على مصاريعها ، ومع ذلك فإن هذه الأبواب كانت تتبدى مفتوحة فى بعض الأحيان ، وفى بعض الأحيان الأخرى كانت تبدو مواربة . وفى كل الأحوال ، فإن يهود الاتحاد السوفيتى الذين كانوا يهاجرون منه راحوا يفضلون الولايات المتحدة الأمريكية حلما ذهبيا وفردوسا موعودا . وسعت إسرائيل بكل الوسائل حتى جعلت هجرة اليهود السوفيت إليها فرضا بالقسر على المهاجرين ، فقد نجحت فى استصدار قانون من الكونجرس يمنع عمليا يهود الاتحاد السوفيتى من الهجرة إلى الولايات المتحدة ، ويفرض عليهم رغم إرادتهم ، وضد رغبتهم أن يتوجهوا لإسرائيل . وكان ذهاب بعضهم لاسرائيل فاتحة لنوع جديد من المشاكل تتصل بالتمويل وبفرص العمل وبالإسكان ، مع توفير حد أدنى من الخدمات الاجتماعية . وفى نهاية سنة ١٩٨٨ وإسرائيل تتصور أنها بقرب تحقيق أملها الواسع ، كانت المشاكل تحاصر هذا الأمل حتى بالكلمات . فإن أحد الحاخامات القادمين من الاتحاد السوفيتى وقف ليقول : **« إن اليهود السوفيت يبحثون عن أرض الميعاد التى هى بالنسبة لهم جنة الله على الأرض ، ورسالتى لهم بسيطة ومحددة ، وهى أن الجنة ليست هنا » .**

وأدى النشاط الظاهر فى عملية تهجير اليهود السوفيت إلى إسرائيل ـ إلى تعقيدات من نوع آخر ، فقد بدأ يثير انتباه العالم العربى ، والأردن بالتحديد ، وقد زادت مخاوفه من أن تكون هجرة اليهود السوفيت إلى اسرائيل على حسابه ، فتضيق الأرض الموعودة بالقادمين إليها ، ويشتد الزحام إلى درجة الانفجار ، ولا يكون هناك بديل عن ترحيل سكان الضفة الغربية وغزة والعرب الذين اختاروا الإقامة فى إسرائيل بعد سنة ١٩٤٨ ـ إلى الأردن ليكون وطنا بديلا للفلسطينيين ، وحتى تصبح إسرائيل من النهر إلى البحر دولة يهودية صافية .

وكان القلق العربى يتخطى حدود الأردن ، ويصل فى تأثيره إلى إحراج الولايات المتحدة فى علاقات القرب الوثيق بين واشنطن ، وبين معظم عواصم العالم العربى ، ذلك أن إسرائيل راحت تطالب بزيادة فى المعونات ، تليها زيادة فى التسهيلات بهدف استيعاب هجرة اليهود السوفيت ، وكان ذلك محرجا للولايات المتحدة .

وكانت الولايات المتحدة ترى أن الاتحاد السوفيتى يحزم حقائبه من المنطقة تأهبا لرحيل كامل عنها ، وخطر لها ـ ضمن ما خطر ـ أن الفرصة مهيأة لوضع المنطقة بأسرها ، وجملة واحدة ، داخل إطار أو أسار سلام أمريكى . وراحت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تتخذ لنفسها خطا متعرجا أثار قلق إسرائيل ، وفاض القلق فتخطى موضوع الهجرة ، وطرح نفسه على قضية التسوية السلمية لأزمة الشرق الأوسط بكاملها .



وطرأ فى ديسمبر ١٩٨٨ حدث استثنائى زاد من شعور إسرائيل بالقلق . ذلك أن الجمعية العامة للأمم المتحدة انتقلت بكامل هيئتها إلى جنيف لتسمع خطابا من السيد « ياسر عرفات » . وكان ذلك المشهد تتمة لخطوات سبقته منذ بداية السنة .

كانت الانتفاضة الفلسطينية قد طرحت بطريقة مِلحة على المجتمع الدولى ضرورة الاقتراب من القضية الفلسطينية . وفى الواقع فإن هذه القضية كانت قد توارت عن الاهتمام منذ توقيع اتفاقية « كامب دافيد » . ولم يكن اهتمام العالم الخارجى وحده هو الذى تحول عن القضية الفلسطينية ، وإنما كان العالم العربى نفسه قد فقد تركيزه فى زحام المقترحات والمشروعات والصيغ . وزاد من الإحساس بالضياع أن التفكير السياسى الجديد للرئيس

السوفيتى « ميخائيل جورباتشوف » راح يتكشف مع كل يوم ، ويقنع أطرافا متعددة أن أولويات الاتحاد السوفيتى قد تغيرت ، وأن القيادة الجديدة مهتمة بالسياسة الداخلية لبلادها ، وتعتبر نفسها دوليا منسحبة من السباق أمام الولايات المتحدة . وكانت تلك صدمة لكثيرين فى العالم الثالث اعتبروا الاتحاد السوفيتى عنصرا رئيسيا فى حساباتهم . ومع أن شواهد الانسحاب كانت بادية من السبعينات ـ إلا أنها الآن تحولت إلى سياسة معلنة يسمعها الكل ، وأولهم الولايات المتحدة التى بدأ يترسخ لديها يوما بعد يوم أنها فى فترة ليست بعيدة سوف تجد نفسها منفردة بإدارة شئون العالم ، والفصل فى قضاياه . ووسط هذا الضياع اندلعت شرارة الثورة فى الأرض المحتلة ، واضطر الكل أن يلتفتوا إلى ما يجرى هناك .

وقد أحست القيادة الفلسطينية التى أرهقتها حالة الضياع ـ أنها الآن في وضع يسمح لها بمرونة فى مواقفها ، علها تفتح الطريق أمام امكانية حل للقضية الفلسطينية تقول الولايات المتحدة الأمريكية إنها قادرة عليه بشروط ، ويطالب قسم كبير من العالم العربى بإعطاء فرصته للولايات المتحدة . كما أن غياب الاتحاد السوفيتى عن الساحة نقل الأمر كله من موقف اختيار إلى موقف اضطرار . وأضيف إلى تلك العناصر كلها عنصر هام ، ذلك أن الانتفاضة تعطى لمنظمة التحرير غطاء معقولا للحركة السياسية ، فإذا لم تنتهز المنظمة هذه الفرصة وتراجعت الانتفاضة أمام بطش الإرهاب الإسرائيلى ـ إذن فإن المنظمة سوف تكون بلا قاعدة ، وأيضا ـ بمجمل الأوضاع العربية والدولية ـ بلا قضية .

وفى نوفمبر ١٩٨٨ انعقد مؤتمر وطنى فلسطينى خاص انتهى إلى القبول بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ أساسا لحل سلمى . وكان ذلك تنازلا كبيرا أقدمت عليه منظمة التحرير . وقد كان مؤلما بمقدار ما هو كبير . فإن « ياسر عرفات » كان هو بنفسه القائل منذ سنوات : « **تقطع يدى ، ولا أوقع على القرار ٢٤٢** » ، وفى الليلة التى وافق فيها المؤتمر الوطنى الفلسطينى على هذه التنازلات ـ راح يشرح موقفه بحجتين ـ كل منهما صحيحة :

- **إنه وافق على هذه التنازلات لأن شعب ثورة الحجارة فى فلسطين لابد له من أرضية سياسية تعزز موقفه . فالقيادة الفلسطينية فى الخارج لا تستطيع أن تكتفى بتحريضه على المقاومة دون أن تتبع هذه المقاومة بعمل سياسى يواكبها ، ويعطيها نقطة وصول تبدو آمنة وممكنة .**

- **وأما حجته الثانية ، فكانت أنه وافق على ما وافق عليه من تنازلات لكى تقتنع الدول العربية أن الفلسطينيين ليسوا العقبة فى طريق السلام ، وإنما العقبة الأساسية هى إسرائيل مهما قدم لها الفلسطينيون من تنازلات ـ إلا أن يسلموا لها بكامل التراب الفلسطينى . وإذن ، فإنه كان يقدم هذه التنازلات للعرب وليس لإسرائيل .**

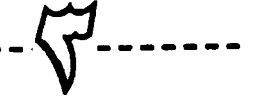
وربما كان فى ذهن « ياسر عرفات » بعد ذلك تفصيلات ما رآه وسمعه فى موسكو ، وفى غيرها من عواصم أوروبا الشرقية . وبالتالى فإنه لا يملك إلا أن يتوجه فى محاولاته إلى السياسة الأمريكية ، ومهما كانت شكوكه فى نواياها نتيجة لتجربة ممتدة ومريرة .

والغريب أن الولايات المتحدة التى كان « ياسر عرفات » الآن يستجيب لمطلبها الرئيسى ويعترف بالقرار ٢٤٢ ، بما يعنيه من الاعتراف بإسرائيل ، ويستجيب أيضا لمطلبها الفرعى فى نبذ الإرهاب ـ كانت هى نفسها التى رفضت أن تمنحه تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة ، لكى يقدم هذه التنازلات إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة .

وهكذا كانت الولايات المتحدة تتصرف مستهينة بما سبق أن طلبته هى من الفلسطينيين ، ومستهينة كذلك باتفاقية « المقر » التى تلزم الولايات المتحدة بمراعاة حصانة خاصة للأمم المتحدة وأعمالها ، وضمن بنودها أنها لا تستطيع أن تحجب تأشيرات الدخول إليها عن وفود الدول الأعضاء وممثليها .

وقررت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، مع احتجاجها على التعسف الأمريكى ، أن تنتقل بكامل هيئتها إلى المقر الأوروبى للأمم المتحدة فى جنيف ، لكى تسمع « ياسر عرفات » هناك ـ مادام قد استحال عليها أن تسمعه فى نيويورك .

وفى حين اهتمّ العالم بما قاله « ياسر عرفات » فى جنيف ، حتى أن الولايات المتحدة اعتبرته أساسا ممكنا يسمح لها بإجراء حوار مباشر مع منظمة التحرير الفلسطينية ـ إلا أن إسرائيل لم تسمع ، ولم تكن تريد أن تسمع . فقد كانت حالة القلق الداخلى مازالت مستبدة بها .



وفى بعض الدول العربية المعتدلة ـ كما يسمونها ـ لم يكن اللوم موجها لإسرائيل ، وإنما اقتصر اللوم على المتشددين وحدهم ، وفى مقدمتهم ـ حسب ما شاع وقتها ـ حزب الليكود الذى يرأسه « إسحاق شامير » . ومن المفارقات أن بعض هذه العواصم العربية المعتدلة راودها فى وقت من الأوقات تصور بأنه إذا نجح حزب العمل برئاسة « شيمون بيريز » فى الانتخابات ، فإن الصورة يمكن أن تتغير ، ويتغير معها الموقف الإسرائيلى

الجامد والمعاند . وكان أن انشغلت عواصم عربية ـ بينها القاهرة ـ بتحسين الفرص الانتخابية أمام حزب العمل ، وأمام زعامة « شيمون بيريز » .

وكان الرهان على « بيريز » خاسرا منذ البداية ، ومع ذلك فقد كان هناك من زادوا رهانهم عليه أملا فى مضاعفة المكاسب ـ وذلك منطق المقامرة ـ وكان أن فعلوا كل ما قدروا عليه وزيادة لتحسين موقفه . وفى فترة من الفترات وقع فى وهم البعض أنهم يلعبون دورا فى السياسة الداخلية الإسرائيلية ، ومن الإنصاف القول بأن عددا من الساسة الإسرائيليين كانوا يشجعون على مثل هذه التوجهات .

ولم يكن واضحا بالضبط من يستغل من ؟ ومن يلعب بمن على موائد القمار ، أو بعيدا عنها ؟

ولكن قيمة الرهان ظلت ترتفع ، والأمل فى المكسب ظل يراود كثيرين .

وفى بعض العواصم العربية كانت ألعاب الرهان انطباعية ، وفى عواصم عربية أخرى كان الرهان على أساس حساب احتمالات أدق ، وإن لم تصل هذه الحسابات إلى نتيجة .

كان الملك « الحسن » ملك المغرب فى وضع فريد يسمح له بمتابعة ما يجرى فى اسرائيل متابعة دقيقة . ففى يوم من الأيام كانت الجالية اليهودية فى المغرب جالية كبيرة ومؤثرة ، وقد ارتبطت حياتها بحياة المسلمين فيه منذ خروج الاثنين معا من الأندلس بعد سقوطه واستسلام آخر قلاعه فى غرناطة . ولم يقف العرش المغربى فى أى وقت من الأوقات ضد هجرة من شاء من يهود المغرب إلى إسرائيل ، بل تمت هذه الهجرة بالرضا وبطريقة شبه مفتوحة . ومن نتيجة ذلك أن اليهود المغاربة الذين هاجروا إلى إسرائيل ظلوا على علاقة ـ بشكلٍ ما ـ مع المغرب ، وبالذات مع العرش . وكان الملك « الحسن » يقول : « **إنه السياسى العربى الوحيد الذى له حزب سياسى فى إسرائيل** » . وإلى درجة معينة كان هناك أساس لمثل هذه المقولة خصوصا بين اليهود « السفارديم » (الشرقيين) ، ومن أبرز ساستهم الآن « دافيد ليفى » وزير خارجية إسرائيل الحالى .

ولم يخف الملك صلاته بالساسة الإسرائيليين ، بل إنه استقبل « شيمون بيريز » رئيس الوزراء قبل سنوات ، وكانت الزيارة معلنة ، وأثارت على الملك عاصفة من النقد ، وكان رده : « **إذا كانت هناك فرصة لتحقيق السلام ، فإننى سوف أتابعها** » .

وعندما انهارت حكومة الائتلاف الإسرائيلى فى يونيو ١٩٩٠ تلقى الملك « الحسن » رسالتين : إحداهما من « شيمون بيريز » ، والثانية من « اسحاق شامير » . وكان فى نص رسالة « بيريز » قوله : « إننى آمل ألا يطرأ على بالكم أن خروجنا من الوزارة يعنى انتهاء

تأثيرنا على السياسة الإسرائيلية ، فأنتم تعلمون ولاشك أن هناك لجنة رباعية تنسق الخطوط السياسية بين الحزبين الكبيرين فى إسرائيل ، وبالتالى فإننى آمل أن نظل على اتصال حتى رغم خروج حزبنا من الوزارة . »

(وكانت لجنة التنسيق الخاصة التى أشار إليها « بيريز » فى خطابه هى تلك اللجنة التى تضم « بيريز » و « رابين » عن حزب العمل ، و « شامير » و « آرينز » عن تكتل الليكود) .

وأما رسالة « اسحاق شامير » ـ الذى تولى رئاسة الوزارة ـ فقد كانت متأثرة بفنون العلاقات العامة ، واستغرقت أربع صفحات . وجاء فيها قول « شامير » : « إننى أعرف أن الصورة التى ترسمها لى وسائل الإعلام العربى هى صورة كئيبة ، فهى تظهرنى كرجل شديد التعصب ، وهذه الصورة ليست صحيحة » . ثم يمضى « شامير » فى رسالته ، فيروى تفاصيل معاناته ومعاناة أصدقاء له ، وأقارب فى ظروف « الجحيم » الذى سيق إليه اليهود فى أوروبا . ثم يصل ليقول « إنه رجل يعرف معنى الألم ، وقد عاشه فى تجربته ، ويستطيع أن يشعر به لدى الآخرين . ثم إنه رجل حمل معه حلما بأمة وبدولة ، وهو أيضا على استعداد لفهم أحلام الآخرين ومنهم الفلسطينيون . » ثم يضيف : « إننى أعرف أنكم قد تكونون غاضبين منا بسبب ما ينقل إليكم عن تصرفنا إزاء الانتفاضة الفلسطينية.ودعنى أؤكد أننا نفهم أحلامهم ولا نعترضها ـ **إن تحققت خارج وطننا : إسرائيل** . »

☐

ومن وجهة نظر عملية ، فإن موقف « شامير » كان على الأقل واضحا حتى وإن بدا الصدام معه محققا . وأما فيما يتعلق بـ « بيريز » فإن القضايا كانت دائما عائمة . فالرجل غير قادر على تحديد موقفه بطريقة كاملة ، كما أنه لايملك الجانبية الشخصية أو الفكرية التى تجعله مقنعا أمام الآخرين . ومع ذلك فإن الاتجاه العربى الرسمى راح يخدع نفسه ، ويتعلق بوهم أن وجود « بيريز » رئيسا لوزراء إسرائيل أفضل للعرب بكثير من وجود « شامير » .

وفى أواخر السبعينات ، وأوائل الثمانينات كثرت فى القاهرة ظاهرة الخطوط الساخنة المباشرة مع القدس . وظهرت فى تلك الفترة على الأقل خمسة خطوط مباشرة ، ويذكر أحد الساسة العرب أنه كان جالسا مع أحد كبار المسئولين المصريين ، فإذا جرس التليفون يدق والمسئول المصرى الكبير يرفع السماعة ، ويرحب بمحدثه مباشرة قائلا له : « هالو شيمون » .

كان الكل يريد مساعدة « شيمون » . ثم إن الخطوط الساخنة أعطت لأصحابها الإحساس بامكانية التأثير ، كما أشاعت وهم النفاذ فى السياسة الإسرائيلية . ولقد كان لدى

عدد من الساسة الأمريكيين نفس الوهم عن امكانية التأثير فى السياسة الإسرائيلية ، لكن الأمريكيين كان لديهم ـ بسبب مواردهم الاقتصادية وغلبتهم السياسة وتفوقهم العسكرى ـ سبب أو أسباب عملية تستند إليها الأوهام . وأما بالنسبة للعرب ، فإن الأوهام كانت غير مبررة على الإطلاق .

□

ولقد ضاعف من شعور الإسرائيليين بالقلق والعصبية أنهم وجدوا استثماراتهم السياسية والعسكرية فى إيران أثناء الحرب مع العراق ـ عاجزة عن تحقيق مراميها بعد انتهاء الحرب . فقد باعوا السلاح لطهران ، وشاركوا مع الولايات المتحدة فى فتح جسور للاتصال مع عناصر على قمة السلطة فى الجمهورية الاسلامية ، ومع ذلك فإنه ما كادت مدافع الحرب تسكت حتى تجلى موقف الثورة الاسلامية من إسرائيل عدائيا ، كما كان من قبل وأكثر . فقد أدرك الإيرانيون أن الموقف الإسرائيلى خلال الحرب لم يكن إلا نوعا من الانتهازية السياسية مارستها إسرائيل . ولم تكن إسرائيل على استعداد لأن تنسى الموضوع برمته وتعتبر مغامرتها الإيرانية وكأنها لم تكن . ولذلك فقد ظلت تحاول الاقتراب من أبواب طهران الظاهرة والخفية ، ولكن الإيرانيين حددوا موقفهم بطريقة قاطعة وراء القضية الفلسطينية .

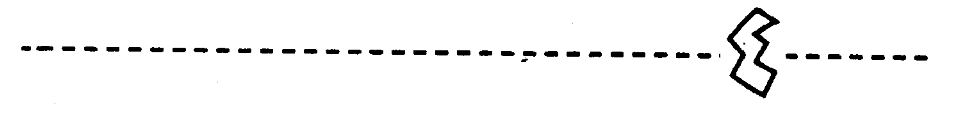
□

وإذا كان الموقف الإيرانى قد بدا غير مفهوم فى المنظور الإسرائيلى ـ فلم يكن ذلك الموقف هو اللغز الوحيد . كان هناك أيضا لغز الملك « حسين » . وكانت إسرائيل تظن أنها « أخذت مقاس الملك » ، وعرفت حدوده . لكنه الآن راح يتصرف بطريقة خارجة عن المألوف من سابق تصرفاته . وكان أمر الفيلق الأردنى ـ العراقى المشترك محيرا بالنسبة لإسرائيل ، فلم تكن المقاصد وراء إنشاء هذا الفيلق مفهومة ، ولا كان واضحا أيضا السبب الذى دعا الملك إلى السماح للعراق بإنشاء عدد من قواعد الصواريخ على حدوده مع العراق مباشرة مما يجعل مداها واصلا لإسرائيل ، ولمفاعلها النووى فى ديمونة بالتحديد .

كان فى إسرائيل من يدركون مخاوف الملك من الدعوات المتصاعدة من جانب بعض الساسة الإسرائيليين تطالب باعتبار الأردن وطنا بديلا للفلسطينيين ، ولكن تقديرات الساسة الإسرائيليين كانت تنزع إلى حساب أن مخاوف الملك سوف تجعله أكثر حذرا . ولقد رأوه بدلا من ذلك يغامر بتصرفات قد تثير ردة فعل إسرائيلية عنيفة ، مع أنه فى الماضى كان يحاذر ويتحوط ضد أى سبب يثير سوء الفهم على الناحية الأخرى من خطوطه مع إسرائيل ، ولا يتوانى عن إرسال إشارات تاكيد الثقة والطمأنينة .

وتشير بعض الدلائل إلى أن الحسابات الإسرائيلية لموقف الملك « حسين » فى ذلك الوقت راحت تعتبر أن الملك « حسين » راهن على احتمالات القوة العراقية مدفوعا إلى ذلك باحساس مزدوج : ضغوط المخاطر التى تحيط بمملكته من ناحية ـ وإغراء المكاسب التى تتحقق للأردن من علاقة اقتصادية خاصة مع العراق ، فقد تحولت مملكته أثناء الحرب مع إيران إلى قاعدة خلفية لتموين المجهود العسكرى العراقى حين أصبح ميناء العقبة هو المنفذ الوحيد على البحر ، والمخزن الجاهز لاستقبال شحنات الغذاء والسلاح من العالم الخارجى .

وهناك شواهد أخرى تشير إلى أن الملك « حسين » قبل بوجود قواعد للصواريخ العراقية على حدود بلاده ، لأن ذلك كان لازما لحماية الامكانية النووية العراقية التى راحت تثير مخاوف القيادة الإسرائيلية فى ذلك الوقت .



كانت إسرائيل قد وجهت ضربة شديدة إلى المفاعل النووى العراقى (« أوزيراك ») سنة ١٩٨١ . ثم عرفت المخابرات الإسرائيلية أن العراقيين استطاعوا انقاذ ١٢,٣ كيلو جرام من الـ « يورانيوم ٢٣٥ » والمخصبة بنسبة ٩٣٪ . وفى ذلك الوقت ذكر تقرير للجنة القوات المسلحة فى الكونجرس أن هذه الكمية من اليورانيوم المخصب تكفى لصنع قنبلة ذرية واحدة إذا استطاع العراقيون الحصول على التكنولوجيا المتقدمة اللازمة لتحويلها إلى قنبلة . ومع أن الوكالة الدولية للطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة فى فيينا قامت بالتفتيش أكثر من مرة على الامكانيات النووية العراقية ، ونشرت تقارير متعددة ـ آخرها سنة ١٩٨٨ ـ تقول فيها إنها لم تعثر على دليل يوحى باستخدامات عسكرية للمشروع النووى العراقى ـ فإن مخاوف الإسرائيليين لم تهدأ . فوجود هذه الكمية من اليورانيوم المخصب كان إغراء لا يقاوم ، كما أن « الموساد » كانت قد توصلت إلى معلومات وافية من مصادر مختلفة عن وجود برنامج نووى عراقى طموح .

والغريب أن إسرائيل نفسها كانت تملك امكانية نووية محققة فى مخازنها ، وليست امكانية محتملة على أوراق المشروعات ، كما هو الحال بالنسبة للعراق . ولم يكن هناك شك حول حجم المخزون النووى الإسرائيلى . فإن أحد الخبراء الإسرائيليين ، وهو

« موردخاى فانونو » أفشى كل الأسرار ودعمها بالصور والرسوم لصحيفة الـ « صنداى تيمس » البريطانية . وفى الواقع فإن إسرائيل أكدت معلومات « فانونو » عندما قامت المخابرات الإسرائيلية (« الموساد ») بخطفه ونقله إلى إسرائيل حيث حوكم ، وصدر عليه حكم بالسجن مدى الحياة بتهمة الخيانة ، وإفشاء أسرار عسكرية محظورة .

ومع ذلك فإن إسرائيل كانت قلقة من احتمالات المشروع العراقى ، لأن واحدا من أهم مطالبها الاستراتيجية هو احتكار القوة النووية فى المنطقة . وبشكل ما فإن اسرائيل ربطت هذه المخاوف بالتقارير التى راحت تتواتر فى ذلك الوقت عن امكانيات القوة التقليدية للجيش العراقى . فقد ذكر تقرير لمركز الدراسات الاستراتيجية التابع لهيئة أركان حرب القوات المسلحة الأمريكية ـ فى ذلك الوقت ـ أن المعلومات المتاحة والمؤكدة عن قوة الجيش العراقى حسبتها واصلة إلى ٩٥٥ ألف جندى تحت السلاح ، و ٥٥٠٠ دبابة ، و ١٠٠٠ مركبة قتال مدرعة للمشاه ، و ٧١٠٠ ناقلة مدرعة للجنود ، و ٣٠٠٠ قطعة من المدفعية الثقيلة بينها ٥٠٠ قطعة ذاتية الحركة ، و ٢٠٠ قاعدة لإطلاق الصواريخ . وأشار نفس التقرير إلى الامكانيات القتالية للجيش العراقى ، كما تبدت للمراقبين الأجانب ـ بقوله :

« فى ابريل سنة ١٩٨٨ ، وحين بدأ الجيش العراقى يهاجم على طول الجبهة مع إيران ، رفض بعض المراقبين أن يقبلوا تصديق ما رأوه واقعا أمامهم . ولقد تصوروا أن العراقيين سوف تنفد طاقتهم بسرعة من حجم المجهود الذى يبذلونه ، ثم ينكشف عجزهم عن مواصلته . فقد كان أمرا غير قابل للتصديق أن يمتلك الجيش العراقى مقدرة الهجوم بهذه السرعة . وعندما تأكد أن العراقيين فى طريقهم للنصر راحت بعض النظريات تبحث عن تفسير لهذه الظاهرة الاستثنائية ، وقيل إنهم اعتمدوا على الأسلحة الكيماوية . وكان هناك تفسير آخر هو أن العراقيين اعتمدوا فى هذه المرحلة الحاسمة فى الحرب على المصريين أو السوفيت . إن اختبار كل الشواهد والأدلة وراء هذه الظنون أظهر أنها جميعا غير مقنعة . » .

ولقد خلص التقرير إلى أن العراقيين كانوا مقاتلين أفضل مما تصورت الأطراف الأخرى . ومع أن الحرب فى الخليج أظهرت مبالغات شديدة فى القوة العسكرية العراقية ـ فإنه فى المنظور الإسرائيلى ، وفى حينه ، كانت هذه التقارير والتقديرات مصدر تشاؤم حقيقى لإسرائيل . ولم يكن الاهتمام بالقدرة العراقية ـ كما صورت فى ذلك الوقت ـ مقصورا على الإسرائيليين ، بل إن وزير الخارجية السوفيتى « ادوارد شيفرنادزه » وقف فى فيينا سنة ١٩٨٩ يقول أمام اجتماع من اجتماعات مؤتمر الأمن الأوروبى ما نصه :

« لابد أن نلتفت إلى أنه توجد على حافة أوروبا ، ولصيقة بها ، ترسانة حربية هائلة يجرى إعدادها . فهناك ٢٥ ألف دبابة ، و ٤٥٠٠ طائرة ـ على استعداد للصدام مع

بعضها فى أى وقت فى الشرق الأوسط . وهناك مخاطر حقيقية من امكانيات أسلحة كيماوية ونووية تكمن فى تلك المنطقة . لقد بدأت تظهر هناك صواريخ يصل مداها إلى ٢٥٠٠ كيلومتر . وعلينا أن نستنتج من ذلك ما لابد من استنتاجه ، وهو أنه لا يمكن أن يدور كلام عن نزع السلاح فى أوروبا بدون أن يتماشى مع ذلك نزع للسلاح فيما حولها . » ـ وكان ذلك سببا اضافيا آخر لمخاوف اسرائيل ، فهى آخر طرف فى الشرق الأوسط يناسبه الحديث عن نزع السلاح أو عن تحديده . فالقوة العسكرية بالنسبة لإسرائيل هى الضامن الوحيد لأمنها ، بل لوجودها فى حد ذاته .

□

ولقد كان مزعجا لإسرائيل بعد هذا كله وفوقه ، أن تكتشف أن حلمها الكبير فى السلام مع مصر لم يحقق نتائجه . فالتطبيع يتعثر فى العلاقات بين البلدين . والانبهار الذى ساد فى المرحلة الأولى من الصلح المنفرد يبهت بريقه فى مصر . وأكثر من ذلك فإن صوت الرصاص الموجه إلى الإسرائيليين يسمع في البلد العربى الوحيد الذى عقد معها صلحا منفردا ، ولا يسمع فى أى بلد عربى آخر .

ففى أكتوبر ١٩٨٥ أطلق الجندي « سليمان خاطر » من موقعه فى « رأس بركة » قرب طابا رصاص مدفعه الرشاش على مجموعة من الإسرائيليين فقتل سبعة . وبعد الحكم عليه وجد « سليمان خاطر » مشنوقا فى زنزانته ، وصدر تقرير رسمى يقول إنه انتحر بشنق نفسه . وسرت إشاعات تقول إن المخابرات الإسرائيلية (« الموساد ») وصلت إليه فى سجنه ، ونفذت فيه حكما بالإعدام .

وفى فبراير ١٩٩٠ تعرض أوتوبيس سياحى إسرائيلى لإطلاق النار عليه ، مما أدى إلى مقتل ٨ من ركابه الإسرائيليين وجرح ١٧ ، وكان ذلك على الطريق من الاسماعيلية إلى القاهرة . ولم يعثر لمرتكبى ذلك الحادث على أثر .

وفى نوفمبر ١٩٩٠ أطلق الجندى المصرى « أيمن حسن » وهو من قوات الحدود نيران مدفعه الرشاش على أوتوبيس إسرائيلى آخر فى منطقة « رأس النقب » ، وقتل خمسة من الإسرائيليين وجرح ٢٧ .

وكانت هذه الحوادث فى حد ذاتها مقلقة ، ولكن المناخ الذى أحاط بها جاء أشد إثارة للقلق . وأبدت اسرائيل امتعاضها من أن « أيمن حسن » خرج بعد محاكمته بعقوبة لا تزيد على ١٢ سنة من السجن . وكان تقدير المجلس العسكرى الذى حاكمه أن « أيمن حسن » قام بعمليته تحت استفزاز قدرته المحكمة ، وراعته فى الحكم المخفف الذى صدر عليه .

□



الرئيس كارتر فى حديث ضاحك مع البابا شنودة .

كانت إسرائيل أيضا قلقة من أنها لم تستطع النفاذ داخل قطاعات من المجتمع المصرى ، تصورت فى البداية أن النفاذ فيها ممكن والمجال مهيأ . وكان أبرز هذه القطاعات فى التقدير الإسرائيلى هو المجتمع القبطى فى مصر . ثم أثبت أقباط مصر بصلابة وحزم وحدة المجتمع المصرى مسلمين وأقباطا . فبابا الأقباط ، البابا « شنودة الثالث » ظل على موقفه الثابت فى منع الحجاج الأقباط من الذهاب إلى القدس قبل الوصول إلى تسوية مرضية . ولم يترك لدى أى طرف فرصة يمكن النفاذ منها بين عنصرى الشعب المصرى .

وفى لقاء بين البابا « شنودة » والرئيس الأمريكى السابق « جيمى كارتر » ـ سنة ١٩٨٩ ـ قال « كارتر » للبابا « شنودة » : « أليس صحيحا يا صاحب القداسة أن اليهود هم شعب الله المختار ؟ » ـ وكان رد البابا « شنودة » : « يا صاحب الفخامة ، إذا كانوا هم

شعب الله المختار ، فمن نكون نحن ؟ » ـ ثم استطرد البابا « شنودة » يقول : « ربما استطاعوا أن يصفوا أنفسهم أنهم شعب الله المختار حين بدأت بهم ديانات التوحيد وجاءهم أول كتاب سماوى (يقصد التوراة) ـ أما بعد مجىء السيد المسيح وبعد الانجيل ، فإن ذلك الامتياز لم يعد لهم . »

□

وكانت الانتفاضة فى الأراضى المحتلة تتصاعد يوما بعد يوم ، وتتزايد أسباب القلق فى إسرائيل .

الفصل التاسع

القرن الواحد والعشرون

« من المحتم على الولايات المتحدة أن تدير شئون البترول فى العالم ، حتى خارج حدود سيادتها الإقليمية وخارج قيود القانون الدولى » .

[« جورج والدن » رئيس مجلس إدارة شركة « سوكونى فاكوم » فى شهادة أمام الكونجرس فى نوفمبر ١٩٤٥] .

١

وقف الرئيس الأمريكى « جورج بوش » يوم ٢٤ يناير ١٩٩٠ على منصة الكونجرس يلقى الخطاب التقليدى السنوى الذى يقدمه كل رئيس أمريكى فى بداية كل عام إلى الأمة ، وهو الخطاب المشهور باسم « حالة الاتحاد » ـ وكان أهم ما قاله « جورج بوش » فى هذا الخطاب هو قوله بالنص : « إن الولايات المتحدة تقف على أبواب القرن الواحد والعشرين ، ولابد أن يكون هذا القرن الجديد أمريكيا بمقدار ما كان القرن الذى سبقه ـ وهو القرن العشرون ـ قرنا أمريكيا . » .

ولم يكن هناك مجال للشك لدى كل من سمع هذه العبارة على لسان « جورج بوش » فى حقيقة ما تعنيه بالنسبة لأوضاع القوة فى العالم . لقد كان القرن العشرون أمريكيا نتيجة

لعصر البترول ـ فإذا كان مطلوبا أن يكون القرن الواحد والعشرون أمريكيا ، فمعنى هذا ـ بدون لبس ـ أن القرن الواحد والعشرين يستحيل أن يكون قرنا أمريكيا إلا إذا تحققت للولايات المتحدة الأمريكية سيطرة كاملة على البترول .

وكان « هارولد ايكس » وزير الداخلية الأمريكي والمختص الأول بشئون البترول في فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها ـ هو صاحب القول المأثور بأن « البشرية صنعت تطورها الهائل إلى الحضارة عبر عصور » حددها « هارولد ايكس » على النحو التالى : « العصر الحجرى ـ العصر البرونزى ـ العصر الحديدى ـ وأخيرا عصر البترول » .[1]

ثم كان « هارولد ايكس » هو الذى أضاف بهذا التحليل لعصور التاريخ حكمه النهائى القائل بأنه : « **بدون البترول فإن الولايات المتحدة الأمريكية بالشكل الذى نراه الآن لم تكن ممكنة قط** » .

وتلك مقولة سليمة ، فقد كان البترول هو المحرك الجبار للقوة الأمريكية التى برزت فى نهاية القرن التاسع عشر ، وتقدمت إلى قيادة العالم حتى بلغت أوج صعودها عند منتصف القرن العشرين . وكان البترول الذى اكتشف أول ما اكتشف وتم تطويعه للاستغلال الصناعى والتجارى ـ منتجا أمريكيا . وأصبح هو صانع الرخاء وقت السلام ، وضامن النصر وقت الحرب . وهذه حقيقة لم تعد موضوعا للمناقشة ، ولا داعية لطول الجدل .

ولقد تحققت للولايات المتحدة موارد بترولية كفتها وزيادة حتى الحرب العالمية الثانية . وفى هذه الحرب فإن البترول الأمريكى كان هو الذى قدم لمسرح العمليات فى أوروبا أكثر من ٨٠٪ من الطاقة اللازمة لانتصار جيوش الحلفاء على « هتلر » . وبعد هذه الحرب فإن الولايات المتحدة التى راح يقلقها الخوف على مواردها ، استطاعت ـ كما سلف القول ـ أن تزيح الامبراطورية البريطانية عن امتيازاتها البترولية فى الشرق الأوسط لتحتل هى مكانها ، وتلك هى العملية التى وصفها « ونستون تشرشل » رئيس وزراء بريطانيا فى خطاب شهير له موجه إلى الرئيس الأمريكى « فرانكلين روزفلت » بقوله : « إننى مضطر أن أصارحك القول بأن سياسة الولايات المتحدة فى مسائل بترول الشرق الأوسط تبدو لكثيرين من زملائى فى مجلس الوزراء محاولة لإرث تركة رجل مازال على قيد الحياة » .

ولم تغير احتجاجات « تشرشل » من الأمر شيئا . فقد انتهى الصراع على بترول الشرق الأوسط حوالى سنة ١٩٥٣ ـ عندما تمت تصفية ثورة « مصدق » فى إيران بالتحديد ـ باستيلاء الولايات المتحدة على معظم الامتيازات البريطانية ، ووصلت الولايات

---

(١) تقرير « هارولد ايكس » إلى الرئيس الأمريكى « فرانكلين روزفلت » بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٤٣ .

المتحدة إلى ذروة القوة فى العالم ، وبذلك تحققت بالكامل مقولة إن القرن العشرين « كان قرنا أمريكيا » ـ وكان البترول هو صاحب الفضل . وكان البترول العربى هو صاحب الإسهام الأكبر فى إسداء هذا الفضل . وتكلفت حرب البترول الأولى سنة ١٩٧٣ (وهى حرب أكتوبر أيضا) بإظهار الحقيقة فى دور البترول العربى على نحو خطير ، وبالنسبة للبعض مخيف !

□

إن البترول سلعة مختلفة عن أى سلعة أخرى سبقت فى تاريخ التطور الانسانى ، وذلك نابع من حقيقتين رئيسيتين :

□ **الأولى** : أن البترول سلعة حيوية لاستمرار الحياة سواء فى السلم ، أو فى الحرب .

□ **والثانية** : أن البترول سلعة قابلة للنفاد . فهى لا تتجدد مثل أى سلعة أخرى مما تنتجه الصناعة أو الزراعة ، وبالتالى فإن كل استعمال لها هو خصم من مخزونها ، سواء كان كامنا تحت الأرض لم يستكشف بعد ، أو كان اكتشافه قد تحقق ـ وسواء وجد طريقه إلى الاستهلاك ، أو بقى جاهزا للضخ ـ أو حملته الناقلات ، أو جرى فى خطوط الأنابيب .

ولقد ترتب على هاتين الحقيقتين الرئيسيتين وضع لم يتوافر لأى سلعة حيوية أخرى فى العالم قبل البترول . وانعكس هذا الوضع الفريد للبترول فى نتائج أعطت نفسها قوة الحقيقة ، وبينها :

١ ـ إن البترول سلعة لا يمكن تركها لعوامل السوق بحيث تقوم هذه العوامل بآلياتها التقليدية فى تحديد العرض والطلب ، وبالتالى مستويات الانتاج ومستويات الأسعار . بمعنى آخر فإن البترول بطبيعة ظروفه سلعة يحددها الطلب أكثر من أى عامل آخر .

٢ ـ ينبنى على ذلك أنه إذا كان الطلب يحدد الانتاج ، فإن الطلب لابد له أيضا أن يحدد السعر . ومعنى ذلك أن نوعا من الاستقرار يجب أن يسود أسواق البترول ، وإلا وقعت فوضى فى الاقتصاد العالمى يصنعها ، ويتحكم فيها منتجو البترول .

٣ ـ إن الحيوية القصوى لهذه السلعة ترتب حقا ضروريا فيها لكل بلد فى الدنيا يتوازى مع حقه فى الحياة . وهكذا تنشأ إشكالية ضخمة ، وهى إشكالية من الذى يشرف على توزيع هذه السلعة ما دامت حيوية بهذا القدر للجميع ، ومع وجود حق لكل دولة فى حصة ضرورية منها .

٤ ـ إن هذه السلعة تحتاج قبل استخدامها فى عجلات الانتاج إلى مقدمات وتجهيزات تختلف عما هو لازم لأية سلعة أخرى ، حتى إذا كانت هى الأخرى متصلة بضرورات

الحياة . فهذه السلعة لابد أولا من استكشاف مكامن وجودها فى أى مكان فى العالم ، بصرف النظر عن الحدود السياسية ـ وذلك عن طريق أدوات علمية وتكنولوجية غالية التكاليف وعالية المخاطر . وبعد الاستكشاف تجىء عملية الانتاج ، ثم عملية النقل ، ثم عملية التكرير ، ثم عملية التوزيع . وهذه العمليات كلها ـ إلى جانب ما تقتضيه من رؤوس الأموال ، والعلم ، والتكنولوجيا ـ تحتاج فى كل مرحلة منها إلى حماية تؤمنها ابتداء من المكامن الخفية تحت سطح الأرض ، إلى استخراجها فوق الأرض ، إلى محطات الضخ التى تحملها إلى مواقع الانتاج ، وحتى إلى محطات البنزين .

٥ ـ إن هذه السلعة تفرض بطبيعتها وجود مخزونات استراتيجية منها لدى كل مستعمل لها ، كبيرا كان أو صغيرا ـ ببساطة لأنها سلعة يصعب تركها تحت رحمة أى طوارىء أو مفاجآت (من ذلك أنها سلعة يصعب نقلها فى الطائرات) والسبب أن البترول ليس سلعة مرنة يمكن زيادة أو خفض استهلاكها ، ولا حتى مؤقتا استجابة لأى نوع من التقلبات .

وهكذا صدقت النبوءة المبكرة لـ « جورج والدن » الذى كان رئيسا لشركة « سوكونى فاكوم » (واحدة من أكبر شركات البترول الأمريكية) ـ حين قال سنة ١٩٤٥ : « **إن إدارة شئون البترول تختلف عن إدارة شئون أى سلعة أخرى . فإدارة شئون البترول فى ٩٠٪ منها سياسة ، وفى ١٠٪ منها فقط بترول** » !

ثم زاد « والدن » على ذلك قوله : « إذا كان محتما على الولايات المتحدة أن تدير شئون البترول فى العالم ، فإن عليها أن تدرك طوال الوقت بأنها مطالبة بأن تفعل ذلك « حتى خارج حدود سيادتها الإقليمية ، وخارج قيود القانون الدولى » ـ إذا دعا الأمر .»(٢)

وبالفعل فإن السياسة الأمريكية فى كل فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية تولت إدارة شئون البترول ، وتصرفت فيها طبقا لنفس القانون الذى صاغ « جورج والدن » كلماته ونصوصه .

ومع أن شركات البترول الأمريكية الكبرى تعاملت طوال الوقت فى المنطقة وكأنها دول ، وفى بعض الأحيان كأنها « دول كبرى » ـ على حد تعبير « روبرت آندرسون » وزير الخزانة الأمريكى فى رئاسة « ايزنهاور » ـ فإنها حرصت طوال الوقت على أن تظل غير بعيدة عن واشنطن ، ذلك أن واشنطن ظلت السيد المتصرف باستمرار ، وإن أعطت

---

(٢) شهادة « جورج والدن » أمام لجنة الاستماع الخاصة للكونجرس حول مشاكل الطاقة يوم ١٤ نوفمبر ١٩٤٥ .

لبعض وكلائها (الشركات الأمريكية الكبرى فى هذه الحالة) الحق فى نوع من الاستقلال الذاتى طالما الأحوال طبيعية والريح رخاء !

وبدأ الحال يتغير بعض الشيء عندما أنشئت منظمة « أوبك » التى أقامها المنتجون لمواجهة سيطرة المستهلكين على الأسعار . وكان صاحب فكرتها الجنينية هو وزير البترول الفنزويلى « بيريز ألفونسو » ، وكان اجتماعها التأسيسى الأول يوم ٩ سبتمبر ١٩٦٠ ، ومن المفارقات أنه عقد فى بغداد .

كان رأى « بيريز ألفونسو » أنه إذا كان البترول سلعة قابلة للنفاد - وهي حقيقة مؤكدة - إذن فإن الدول المنتجة لابد أن يكون لها رأى فى شئون البترول هى الأخرى . وإذا كانت للمستهلكين مصالحهم التى يتحتم مراعاتها بطبيعة السلعة ، فإن المنتجين أيضا لهم حقوق فى سلعة غير قابلة للتجدد . فنضوب مواردها فى بلد يؤدى على الفور لمضاعفات قاتلة . ففى حين أن المستهلك قد يستطيع الحصول على طلباته من بلد منتج آخر ، فإن البلد الذى تنضب موارده مكشوف بالكامل أمام أحكام الطبيعة ، وفى مواجهة القوة الدولية المسيطرة على موارده . كذلك كان « بيريز ألفونسو » يرى أن من حق كل دولة منتجة للبترول أن تستعمل الفرصة المحدودة زمنيا لوجوده فيها لبناء قاعدة للتنمية .

ومن هذه المنطلقات قامت منظمة « أوبك » بدورها على نحو معقول فى الفترة ما بين قيامها سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٧٣ ، حينما اندلعت حرب البترول الأولى ، ثم قررت الدول العربية استخدام البترول كسلاح فى المعركة ، وانقلبت الموازين ، وامتد انقلاب هذه الموازين على جبهة عريضة . فإن استخدام العرب للبترول كسلاح فى معركتهم أدى إلى وضع المنتجين - كما تمثلهم منظمة « أوبك » (منظمة الدول المصدرة للبترول) ، ومنظمة « أوابك » (منظمة الدول العربية المصدرة للبترول) - فى الوضع الأقوى . ذلك أن الخطوة التى أقدموا عليها أعطتهم السلطة لكى يفرضوا حظرا على تصدير البترول إلى دول وجدوها تناصبهم العداء وتقف موقفا مناهضا لمطالب لهم مشروعة ، أو أنهم من وجهة نظرهم يرونها مشروعة .

٣

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هى التى تصدت للتحدى من اعتبارين : اعتبار أنها كانت القوة المديرة لشئون البترول فى العالم ، والقوة المستهلكة لأكبر قدر منه فى

السلام ، وفى الحرب بنفس الدرجة ـ ثم اعتبار أنها الدولة التى انصب عليها قبل غيرها قرار الحظر .

وكانت الولايات المتحدة تتصرف إزاء هذا الوضع الطارىء على كل الجبهات : الجبهة السياسية الاستراتيجية من ناحية ، والجبهة العلمية التكنولوجية من ناحية أخرى ـ إلى جانب أى وسيلة من وسائل العمل الظاهر أو الخفى .

كان من أهم بنود الخطة الأمريكية لمواجهة حرب البترول الأُولى وآثارها هو البحث عن بدائل جديدة للبترول تستخدم فوائضه فى تمويلها . وفى أعقاب حرب البترول الأولى ، وحتى نهاية حقبة السبعينات كانت عملية البحث على قدم وساق ـ ولكن النتائج جاءت مخيبة للآمال .

وتكشف فى النهاية أن بدائل البترول التى طرحت للبحث قاصرة عن بلوغ الهدف الذى حاولت تحقيقه :

١ ـ بعض هذه البدائل أثبت أنه غير اقتصادى ، ومن نماذج ذلك محاولات استغلال طاقة الرياح وطاقة أمواج المحيطات . ومن الناحية العلمية كانت الرياح والأمواج مصادر محتملة لطاقة محركة ، لكن التكاليف الاقتصادية لتطويع هذا النوع من الطاقة كانت باهظة إلى درجة فرضت تأجيل البحث عن استغلال الطاقة فيها إلى مستقبل غير منظور .

٢ ـ وبعض هذه البدائل أثبت أنه غير فعال ، فقد علت فى تلك الأيام صيحة تؤكد أن الكيمياء الصناعية يمكن أن تفتح مجالات كثيرة مغلقة . وقد جرت بالفعل تجارب على استعمال الكحول المستخرج من الذرة والشعير كوقود محرك للسيارات ـ وكانت النتائج هزيلة لدرجة دعت إلى إيقاف البحث فى مجال الكيمياء الصناعية عن احتمال لمصدر طاقة مستقبلى يمكن التخطيط له فى المستقبل المنظور .

٣ ـ وبعض هذه البدائل كان غير مأمون . ومن ذلك مثلا استخدام الطاقة النووية كمصدر للوقود فى مجالات الانتاج السلمية . وقد أثبتت حوادث مثل كارثة « تشرنوبيل » أن الطاقة النووية مازالت وحشا مفترسا لم يستطع الإنسان ترويضه حتى هذه اللحظة . وقبل « تشرنوبيل » ، وقعت حوادث تسرب وتلوث وصلت إلى حد الكارثة على الطبيعة وعلى الناس فى فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ، وإن ظلت « تشرنوبيل » هى الصورة المفزعة العالقة فى الأذهان بسبب حجمها ، وبسبب التركيز السياسى والاعلامى الذى ألح عليها .

٤ ـ وبعض هذه البدائل كان غير ملائم . مثل العودة إلى استخدام الفحم على نطاق واسع فى عمليات الانتاج ، ذلك لأن الفحم لم يعد يتلاءم مع كل الاعتبارات الجديدة التى

سادت عن ضرورات حماية البيئة ، ثم إنه خطوة إلى الوراء فى تكنولوجيا الانتاج . فقد كان التقدم الضخم فى هذه التكنولوجيا هو الاستغناء عن انتاج المداخن ـ كما يسمونه . وكانت كل المجتمعات الصناعية المتقدمة تتخلص منه بأسرع ما يمكن ، حتى أن اليابان قامت بتصدير كل ما تملكه من صناعات المداخن إلى كوريا مثلا ، لكى تحتفظ لنفسها بأجواء أكثر نقاء ، وطاقة انتاج أكثر كفاءة .

وهكذا قاربت حقبة السبعينات نهايتها واقتربت حقبة الثمانينات والبترول مازال سيدا على مجالات التنمية بأنواعها المختلفة ، وبالتالى حكما أو حاكما رئيسيا فى سياسات عالم هدفه التنمية والسباق على طريقها :

□

وعند مطالع الثمانينات برزت حقائق مستجدة تؤكد السيادة المطلقة للبترول ، ففى الوقت الذى تعثرت فيه كل بدائله إذا الحقائق المستجدة تشير إلى :

١ ـ إن استهلاك الدول الصناعية للبترول يتزايد باطراد بسبب الارتفاع المستمر فى مستويات المعيشة فى الغرب ، وبرغم كل محاولات ترشيد استخدام الطاقة فى المجتمعات المتقدمة فإن مؤشرات الطلب فى صعود دائم ، والتوجه باستمرار هو إلى بترول الشرق الأوسط لأن المصادر الأخرى غيره شحيحة رغم كشوف لا بأس بها فى « بحر الشمال » وفى « النيجر » .

وهكذا فإن الولايات المتحدة أصبحت تستورد ٥٠٪ من استهلاكها الكلى من البترول ، بعد أن كانت مصدرة له فى مرحلة من المراحل ، ومكتفية بانتاجها منه فى مرحلة تالية . وأصبح النصف فيما تستورده الولايات المتحدة من الخارج ذاهبا إليها من الشرق الأوسط ، ومن الخليج بالذات .

وأما اليابان وأوروبا الغربية ، فقد وصل اعتمادهما على بترول الشرق الأوسط إلى أكثر من ٩٠٪ ، وكان معظمه أيضا من الخليج بالذات .

٢ ـ إن الاتحاد السوفيتى الذى كان واحدا من أكبر مصدرى البترول يتراجع فى معدلات انتاجه ، ثم إن الدراسات تظهر أن الاتحاد السوفيتى قد يتحول إلى مستورد للطاقة ، وفى أحسن الأحوال مكتف بموارده على شرط ألا تتجاوز طموحاته فى التنمية حدود أوضاعها الراهنة .

٣ ـ فوق ذلك بدت على الأفق مطالب « العمالقة النائمين » وهم مجموعة الدول الكبيرة ذات الكثافة السكانية العالية ، والمتجهة إلى التنمية حديثا ، والتى كانت تعتمد فى

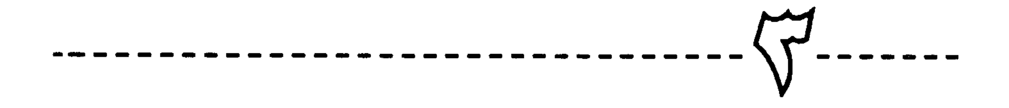
حاجاتها للطاقة على مصادر بدائية مثل الفحم والخشب أو غيرهما . فبلاد مثل الصين والهند متجهة إلى مراحل فى التنمية متقدمة ، وسوف تتزايد معدلات التنمية المستهدفة لديها فى العقود الثلاثة القادمة ، ومع زيادة التصنيع فإن طلب هذه الدول على البترول سوف يشكل عنصر ضغط إضافيا على أسواقه .

٤ ـ وغير العمالقة ، هناك مطالب التنمية الطبيعية للدول العادية الحجم والعادية الطموح ، وهى جميعا تشترك في مطلب واحد هو مطلب التنمية الصناعية ، وإن تفاوتت أحجام المطالب من بلد لآخر ، أو من قارة لأخرى .

كانت الأرقام تقول إن الدول الصناعية المتقدمة تستهلك ٧٥٪ من بترول العالم .

وأما الدول النامية فإنها تستهلك الباقى ، أى بنسبة ٢٥٪ فقط .

وأما الآن فالأرقام والتوقعات تشير إلى جديد لا يمكن دفعه ويصعب تأجيله ، وهو أن استهلاك « العمالقة النائمين » وغيرهم من الدول النامية ، سوف يزيد فى الثلاثين سنة القادمة بنسبة الضعف على الأقل ، ومعنى ذلك أن المنافسة على البترول سوف تكون قاسية وخطرة فى القرن الذى يلوح فجره ، بأكثر مما كانت قاسية أو خطرة فى القرن الذى أوشكت شمسه على الغروب !



نتيجة ذلك أن منطقة الشرق الأوسط ، والعالم العربى فى قلبها ، تتعاظم أهميتها مع بداية عقد التسعينات ، ذلك لأن المنابع التقليدية للبترول فى العالم تجف أو تخف ، بينما منابعها هى تزيد وتفيض .

وبينما تقول الاحصاءات إن بقية المنابع التقليدية للبترول فى جنوب الولايات المتحدة ، وفى القوقاز ، وفى جنوب شرق آسيا ـ تتراوح مدة عطائها الباقى إلى ما بين ٢٥ أو ٣٠ سنة ، فإن بترول منطقة الخليج أمامه ـ على نفس معدلات الإنتاج الحالية ـ ما بين ٥٠ إلى ٧٠ سنة ، ثم إن كل الاكتشافات الجديدة المؤثرة فى مجال البترول تكاد

تنحصر فيها إلى درجة أنها تحتوى فى باطنها الآن على ما بين ٦٠٪ إلى ٦٥٪ من الاحتياطيات المحققة للبترول فى العالم .

والواقع أن نظرة على تركيبة منظمة « أوبك » تكشف على الفور أن أغلبية أعضائها هم المنتجون العرب للبترول . فهناك : السعودية ـ الكويت ـ الإمارات ـ البحرين ـ قطر ـ عمان (ست من دول الخليج) ـ ثم العراق والجزائر ـ وبعد ذلك يجىء الباقون : أندونيسيا ـ كولومبيا ـ الإكوادور ـ الجابون ـ فنزويلا . والمجموعة العربية وحدها تمثل أغلبية عددية هى : ٨ إلى ٥ ، وهى أغلبية يتصاعد وزنها عندما تنتقل النظرة من عدد الدول إلى حجم انتاجها . فالدول العربية المصدرة للبترول تنتج أكثر من ثلثى بترول الأوبك طبقا لنظام الحصص المتفق عليه ، ولو رفعت القيود التى يفرضها نظام الحصص ، لزادت النسبة إلى أكثر من ثمانين فى المائة لصالح البترول العربى .

وإذن فإن منطقة الخليج هى المنطقة المؤثرة مباشرة فى القرن الواحد والعشرين ، وعلى أرضها يتقرر شكل هذا القرن وهويته .

□

ومن نتائج الطلب المتسارع على البترول ـ مع غياب بدائله وزيادة استهلاكه والتسابق على موارده ـ أن أسعاره معرضة للزيادة ما لم تتدخل عناصر خارج حركة السوق لتفرض إرادتها ، كما حدث وكما يحدث .

وتظهر دراسة قامت بها وزارة الطاقة فى الولايات المتحدة ، ونشرت نتائجها سنة ١٩٨٨ ، مجموعة الحقائق التالية :

١ ـ إن انتاج دول « أوبك » الذى بلغ حجم صادراته ١٧ مليون برميل فى اليوم ، لابد أن يصل سنة ١٩٩٠ إلى ما بين ٢٤ ـ ٢٦ مليون برميل فى اليوم ، والسبب هو زيادة الطلب إلى جانب نزول مستويات الانتاج فى « بحر الشمال » (السعر الآن ١٨ دولاراً للبرميل) .

٢ ـ إن أسعار البترول ـ إذا ترك الأمر لعوامل السوق وحدها ـ لابد أن تبدأ فى الارتفاع إلى ٣٦ دولاراً للبرميل الواحد قبل حلول عام ١٩٩٥ .

٣ ـ إنه مع سنة ٢٠٠٠ لابد أن ترتفع أسعار البترول إلى ٧٥ دولاراً للبرميل الواحد .

٤ ـ إنه مع سنة ٢٠١٠ لابد أن يرتفع سعر البترول إلى ١١٠ دولارات للبرميل الواحد .

وهذه الزيادات كلها عبء يصعب على اقتصاديات العالم أن تجاريه .

□

لكن المشكلة يظل لها جانب آخر ، وهو الفوائض المالية .

إن دول الخليج المنتجة للبترول كلها دول ذات طابع خاص ، لعبت فيها مصادفات الجغرافيا دورا أسطوريا . فهى جميعا دول قليلة السكان ، وبالتالى فإن قدرتها الاستيعابية لاستثمار عوائدها فى بلادها محدودة ، ومن ثم فإن فوائضها المالية متناهية .

وعندما قفزت الأسعار بعد حرب البترول الأولى (أكتوبر ١٩٧٣) ، وعندما عادت القفزة فى الأسعار تعيد نفسها مرة أخرى على نحو أكبر عند بواكير حرب البترول الثانية (من الثورة الاسلامية فى إيران سنة ١٩٧٨ حتى الحرب العراقية الإيرانية سنة ١٩٨٠) ـ استطاعت الدول الصناعية أن تستوعب الفوائض لأنها وضعت سياسة ذكية لتدويرها ، أو فى الحقيقة امتصاصها .

نشطت تجارة السلاح لغير عدو ، وزادت معدلات الاستهلاك المستورد من الخارج لغير حاجة ، ووضعت القيود على حركة المال بنظم من نوع سندات الخزانة المرهونة بغير ضرورة للرهن ـ والحاصل أنها كانت جميعا وسائل لاستعادة المال خصوصا وقد فاض عن احتياجات من وصل المال إليهم .. لقد عجزوا عن استخدامه واستباحه الآخرون .

لكن الزيادات المقبلة فى الأسعار إذا تركت وشأنها ، يمكن أن تجىء بمخاطر لا يجدى معها التدوير ولا الامتصاص .

وإذن فلابد من سياسات أخرى تضبط الأمور وتحكمها هناك فى الخليج عند المنابع ، وليس هنا فى الغرب عندما يتدفق التيار العارم من الذهب الأسود إلى أسواق العالم ، ويدور فى محركات الحضارة والحياة .

□

وأضيف إلى ذلك ثقل آخر محسوس .

ذلك أن دول الخليج بأوضاعها التقليدية ، وبتركيبها السكانى المحدود ، تتحول إلى كيانات هشة لا تقدر على تحمل المفاجآت . ثم إن غناها المفرط ، ومن حولها كثافات سكانية فقيرة فى جنوب شرق آسيا (باكستان والهند) ، وفى الهلال الخصيب (سوريا ولبنان والعراق والأردن وفلسطين) ، وفى وادى النيل (مصر والسودان) ـ هذا غير الأغنياء الأقوياء الذين يريدون بترولها (الشرق الأقصى وأوروبا الغربية) ـ كل ذلك يشكل عوامل

تدافع متصادمة الاتجاهات تؤدى إلى مخاطر لا تستطيع هذه الكيانات الهشة أن تتحمل ضغوطها .

وإذن فالمنطقة تطرح نفسها على التفكير والتخطيط من جانب هؤلاء الذين يملكون حرية وامكانية التفكير والتخطيط والفعل .

٤

إن كنزا بهذا الغنى ، وبهذه الأهمية كان يتطلب ، وبإلحاح شديد ـ حماية تصد غارات المطامع والأهواء . وكانت هناك باستمرار خطة عسكرية لحماية الخليج . وكانت هذه الخطة تتصور الخطر على المنطقة (فى ذلك الوقت) من مصدرين :

● خطر من الاتحاد السوفيتى الذى قد تراوده غواية الكنز نفسه ، إلى جانب حلم « بطرس الأكبر » التاريخى بالوصول إلى المياه الدافئة فى الخليج والمحيط الهندى . وكان الاستعداد لهذا الاحتمال يتصل بما هو أكبر من المنطقة ، وهو المواجهة الشاملة بين القوتين الأعظم إذا حدث واقترب الاتحاد السوفيتى من منابع البترول العربى . ساعتها سوف تكون الحرب عالمية ، وسوف تستخدم فيها أسلحة نووية دون جدال . وكانت الولايات المتحدة تستبعد مثل هذا الاحتمال ، لأنها تدرك بيقين أن الاتحاد السوفيتى يفهم بدقة أن استيلاءه على بترول الخليج يعنى حربا عالمية . والحقيقة أن الاتحاد السوفيتى كان يعى ذلك تماما ويفهمه .

● وخطر محلى قد ينشأ نتيجة مغامرة إقليمية يقوم بها طرف من الأطراف . وكان تخطيط الولايات المتحدة إزاء هذا الاحتمال هو دور رجل البوليس الإقليمى ، وهو دور عهد به لشاه إيران ، ومن أجله فتحت أبواب مخازن السلاح الأمريكية على الآخر أمامه ليأخذ منها ما يشاء بإذن على بياض أعطاه الرئيس « ريتشارد نيكسون » للشاه « محمد رضا بهلوى » ، وظل مفعوله ساريا فى رئاسة « فورد » و « كارتر » بعد اختفاء « نيكسون » من البيت الأبيض بسبب فضيحة « ووترجيت » .

ثم حدث أن سقطت أسرة « بهلوى » تحت مطرقة الثورة الاسلامية فى إيران ، ولعدة شهور كان القلق يستبد بالولايات المتحدة الأمريكية بسبب غياب دور رجل البوليس

المحلى ، وبسبب القلق على مصير السلاح الأمريكى المكدس فى إيران وفى يد من يقع ؟ وليس هناك مجال للشك فى أن الولايات المتحدة ارتاحت كثيرا عندما نشبت الحرب العراقية الإيرانية سنة ١٩٨٠ . ويذكر الاميرال « ستانسفيلد تيرنر » الذى كان مديرا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، فى مذكراته بعنوان « الإرهاب والديمقراطية » ، أن **واشنطن استقبلت أنباء نشوب المعارك على الجبهة العراقية الإيرانية بسعادة ترجع فى جزء منها إلى أن الثورة الاسلامية التى تملكت أسلحة الشاه ، سوف تصبح مرغمة على استهلاكها فى حرب ضروس أمام العراق . وراحت واشنطن تتابع سير المعارك ، وتحصى خسائرها باهتمام وتشوق إلى مزيد .**

□

وقبل احتدام المعارك دموية وقاسية على جبهات الحرب العراقية الإيرانية ـ كانت الولايات المتحدة قد استيقظت على خطوة سوفيتية بدت لها متناقضة تماما مع ما أعدت له وتوقعته . فقد فوجئت الولايات المتحدة فى أواخر شهر ديسمبر ١٩٧٩ بالجيش السوفيتى يجتاز حدود أفغانستان ، ووحداته المدرعة تتسابق نحو العاصمة الأفغانية « كابول » . وكان أول ما خطر لأعضاء مجلس الأمن القومى الأمريكى الذين دعوا إلى اجتماع عاجل مع الرئيس « جيمى كارتر » ـ هو أن الاتحاد السوفيتى قام بقفزة طويلة فى اتجاه بترول الخليج ، وأن هذه القفزة قد تكون خطوة وراءها أغلب الظن ما وراءها . وتقررت فى هذا الاجتماع العاجل اجراءات ضد الاتحاد السوفيتى اعتبرت بمثابة افتتاحية تمهيدية لمعركة قد تدور على بترول الخليج . وكان بين هذه الاجراءات فرض عقوبات اقتصادية على الاتحاد السوفيتى ، ودعوة إلى مقاطعته ، وحملة دعائية ضخمة للتشهير بأهدافه .

ولم تمض غير أيام حتى أدركت الولايات المتحدة أن القفزة السوفيتية إلى أفغانستان لم تكن كما ظنت فى الساعات الأولى بعدها . وبدأت التقارير تصل إلى واشنطن من مراكزها المتقدمة فى المنطقة تشير إلى أن التدخل السوفيتى فى أفغانستان لا يتعدى حدود هذا البلد ، وأن القوات المسلحة السوفيتية دخلت فى الواقع للحيلولة دون انقلاب ضد نظام موال لموسكو فى كابول . ولم تكن المخابرات المركزية الأمريكية بعيدة عن مدبرى هذا الانقلاب ، وإن كانت لم تتحسب ولا قدرت أن الرد السوفيتى على المحاولة سوف يكون بالتدخل العسكرى المباشر . ولم يكن فى مقدور أحد أن يقطع بطريقة حازمة أن الاتحاد السوفيتى سوف يظل حبيسا وراء جبال أفغانستان . والنتيجة أن الولايات المتحدة بدأت تطرح على مائدة البحث ما كانت ترضى بتأجيله فى ظروف سابقة ، وهو : **التواجد عسكريا على أرض الشرق الأوسط .**

كانت هناك أطراف عديدة قد طرحت نفسها لدور رجل البوليس المحلى بدلا من شاه إيران الذى تهاوى عرشه فى طهران ، ولكن معظم الترشيحات التى طرحت نفسها لهذه المهمة كانت دون المواصفات المطلوبة لمن يقوم بها . فإسرائيل مثلا لا تستطيع لأن إسناد هذه المهمة إليها كفيل بأن يغرق مهمة حماية البترول العربى فى دوامات الصراع العربى - الإسرائيلى . كما أن قيام أى طرف عربى بهذا الدور معناه تسليحه بقوة عسكرية يمكن له أن يستخدمها فى معركته ضد إسرائيل ، وهى معركة لا تحتاج إلى أسباب جديدة لأن أسبابها قائمة ومستمرة .

وفى نفس الوقت فإن الولايات المتحدة كانت تخشى - فى أزمنة خلت - أن يؤدى تواجدها المباشر عسكريا على الأرض العربية إلى تعقيدات متشابكة سياسيا ، ونفسيا ، وربما عسكريا أيضا . وأبسط الاحتمالات أن تصبح القوات الأمريكية فى المنطقة هدفا دعائيا يحرض جماهير المنطقة ضد السياسة الأمريكية ، ويستفز عداءها الكامن للولايات المتحدة .

وفى النهاية برزت فكرة قوة الانتشار السريع ، وطرحت على الساحة ، وتحمس لها البعض . لكن الفكرة منذ اللحظة الأولى لطرحها أثارت رياحا وعواصف شديدة ، ثم طويت صفحتها مؤقتا ، وانهمكت الولايات المتحدة فى البحث عن بديل عسكرى آخر يوفر حماية الخليج ، ولا يستثير حساسية أحد ، خصوصا أنظمة تقليدية تسعى إلى التهدئة وصرف الأنظار عن أحوالها ، ولا تسعى بالقطع إلى الاستثارة أو الإثارة فى أجواء معبأة ومشحونة .

□

كان القرار الأمريكى فى النهاية هو إنشاء قوة تدخل سريع أمريكية تتمركز فى الولايات المتحدة نفسها ، وتكون جاهزة لكى تحمل جوا وبحرا إلى المنطقة عند أى طارىء . وبذلك تكون الولايات المتحدة مستعدة ، وتكون قواتها المخصصة لحماية الخليج على أراضيها ، وليست على أراضى المنطقة حيث يمكن أن يؤدى تواجدها إلى عكس الهدف من إنشائها . وأطلق على قيادة هذه القوات قيادة المنطقة المركزية . ويقول تقرير صادر عن هذه القيادة ذاتها سنة ١٩٨٨(٣) فى المقدمة التمهيدية له ما نصه : « بالخلفية السياسية

---

(٣) تم تقديم التقرير الى لجنة القوات المسلحة فى الكونجرس ضمن تقارير وزارة الدفاع سنة ١٩٨٨ . وعلى أساسه اعتمدت ميزانية قوات الانتشار السريع لتلك السنة ، وقد قام الدكتور ، أنتونى كوردسمان ، بنشره كاملا فى كتابه ، الخليج والغرب ، الذى صدر فى لندن سنة ١٩٩٠ .

والاقتصادية لمنطقة الخليج فإنه من الواضح أن الولايات المتحدة الأمريكية هى القوة الوحيدة فى الغرب التى تستطيع أن تتدخل فى الخليج فى معارك متوسطة أو كبيرة » . ثم يمضى التقرير فيقول : « إن الفكرة فى إنشاء هذه القيادة هو أن قوات الولايات المتحدة لا تملك الحرية الكافية للعمل العسكرى فى المنطقة عند الضرورة لأنها محددة بعدة قيود ، منها امكانية ما يمكن نقله بالجو وبالبحر فورا عندما تطرأ الحاجة إلى ذلك ، ومنها عدم وجود قواعد وتسهيلات كافية فى المنطقة تستطيع أن تخدم أهداف المعركة » . ثم يستطرد التقرير فيشرح الحاجة إلى مخازن متقدمة للمهمات والذخائر فى المنطقة بحيث يخصص المجهود الرئيسى فى حالة العمليات لنقل القوات .

ثم يورد التقرير جدولا بالقوات التى خصصت لقوة التدخل السريع الأمريكية ، فيحسبها على النحو التالى طبقا للميزانية المرصودة لهذه القيادة سنة ١٩٨٩ :

« ● **مجموعة القيادة المركزية** ـ هيئة الأركان ـ وعدد أفرادها ١١٠٠
وحدات تحت تصرف القيادة ـ وعدد أفرادها ١٣١٠٠٠
مكونة من مجموعة قيادة من الجيش الثالث الأمريكى
الفرقة ١٨ المحمولة جوا
الفرقة ٨٢ المحمولة جوا
الفرقة ١٠١ المحمولة جوا
الفرقة ٢٤ مشاه ميكانيكية
اللواء السادس المدرع المنقول جوا
فرقة الخدمات الأولى

● **القوات البحرية للقيادة المركزية** ـ وعدد أفرادها ١٢٣٠٠٠
وهى مكونة من :
مجموعة القيادة البحرية لقوات القيادة المركزية
٣ حاملات طائرات ـ مجموعة قتال طراز ‘‘A-P’’»
مجموعة عمل فوق الأرض
٣ مجموعات برمائية
٥ مجموعات دورية
قوة طوارىء الشرق الأوسط (موجودة فى البحرين)

● **قوات المارينز** (مشاه أسطول) ـ وعدد أفرادها ٧٠٠٠٠
وهى مكونة من :
١ فرقة مشاه أسطول

١ فرقة مشاه أسطول طائرة
١ مجموعة قوة خدمات سريعة
١ كتيبة مارينز
١ مجموعة قوة مارينز جوية
١ لواء خدمة ومساعدة

- **قوة طيران القيادة المركزية** (القوة الجوية السابعة) ـ وعدد أفرادها ٣٣٠٠٠

وهى مكونة من :
٧ أسراب قتال تكتيكى
٣ أسراب قتال
٢ مجموعة قاذفات استراتيجية
١ مجموعة استطلاع وإنذار
١ مجموعة استطلاع جوى تكتيكى خاصة
١ مجموعة قتال الكترونى
١ مجموعة سرب عمليات خاصة

- **قوات خاصة غير تقليدية** ـ وعدد أفرادها ٣٥٠٠

بذلك يكون المجموع الكلى لأفراد القوات المتخصصة للقيادة المركزية ٢٩١٦٠٠»

□

وفى جزء آخر منه يركز التقرير على المناطق التى توجد فيها قواعد ، أو تسهيلات مفتوحة للتعاون مع القيادة المركزية الأمريكية لقوات التدخل السريع ، سواء ما كان منها متفقا عليه مبكرا قبل إنشاء القوة ، أو ما جد لاحقا بعد إنشائها ـ فيعددها تحت عنوان : « تسهيلات الطوارىء العسكرية فى منطقة الشرق الأدنى » ـ مضيفا إلى كل منها نوعا من الوصف التفصيلى لأوضاعها ، فيقول كما يلى :

- **منطقة شمال أفريقيا وما يحيط بها :**

□ **المغرب** : قاعدة سليمانى : تم الاتفاق بشأنها فى مايو ١٩٨٠ . كانت فى الأصل قاعدة لطائرات P 47 وقد جرى إغلاقها سنة ١٩٧٣ ، ثم أعيد تحديثها وفتحها لتمركز مجموعات **العمليات** س ١٤١ و س ٥ .
قاعدة النواصر : يجرى تجديدها ، وستكون جاهزة فى مرحلة لاحقة .

□ **ليبيريا** : قاعدة مونروفيا : تم الاتفاق بشأنها فى فبراير ١٩٨٣ لكى توفر للقوات الأمريكية امكانية استعمال مطار دولى للطوارىء لأغراض النقل الجوى أثناء العمليات . وسوف تقوم الولايات المتحدة بتمويل عملية توسيع المطار بما يسمح باستعماله بواسطة طائرات س ٥ ، و س ١٧ ، و س ١٤١ .

● **منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر :**

□ **مصر** : حصلت الولايات المتحدة على موافقة ضمنية لتحريك قطعها البحرية عبر قناة السويس .

مطار غرب القاهرة : تستعمل القوات الأمريكية ممرا جويا لا يطلق عليه اسم ، وهى فى العادة تستخدم هناك مجموعة من مائة فرد من العسكريين . وقد استعمل هذا الممر لنشاط مشترك قامت به طائرات « ف ـ ١٥ » و « أ ٣ أ » لنشاط « الأواكس » .

رأس بناس : لاتزال رهن التفاوض ، وتستطيع رأس بناس أن توفر امكانية ارتكاز لمجموعة طائرات « س ٥ » . وكذلك لتفريغ ونقل وحدات « س ل ـ ٧ » وغيرها من سفن النقل البحرى السريعة .

□ **جيبوتى** : تم التوصل إلى ترتيبات وتسهيلات مع الحكومة الفرنسية بما يسمح بدخول وعمل القوات الجوية للدوريات البحرية .

□ **تركيا** : قواعد موس وباتمان وأرضروم : حصلت الولايات المتحدة على الحق فى ترتيبات غير رسمية لاستعمال ثلاث قواعد جوية تركية قرب الحدود مع الاتحاد السوفيتى وإيران والعراق . وهذه القواعد تابعة لحلف الأطلنطى ، وقد تم تمويلها بما يسمح باستعمالها بواسطة قوات الولايات المتحدة لطائرات النقل السريع والمقاتلات .

● **منطقة الخليج والبحر الأحمر :**

قاعدة دييجو جارسيا : يتم استخدامها باتفاق خاص مع المملكة المتحدة ، مدته خمسون سنة ، وجرى توقيعه سنة ١٩٦٥ . وتوجد فى القاعدة ممرات جوية طول كل منها ١٢ ألف قدم ، بما يسمح بعمل القاذفات وطائرات النقل الثقيلة . كما توجد هناك سبع سفن لإمداد العمليات المختلفة فى منطقة الخليج . وقد بدأ تجهيز وتجديد تسهيلات القاعدة ما بين ١٩٨٠ و ١٩٨٨ بمبلغ قدره ٥٤٢ مليون دولار .

جزيرة سيشل : يوجد مركز اتصال تابع لهيئة الفضاء الأمريكية « ناسا » ، كما توجد أيضا قوة طيران .

□ **كينيا :** قواعد « مومباسا » ومطار « نان يوكى » وقاعدة « كينيا البحرية الرئيسية » : وهى تقدم مراكز اتصال ونقل وصيانة وشحن ، وقد تم الاتفاق الخاص بها فى منتصف السبعينات ، وتم توسيعها سنة ١٩٨٣ ، وبلغت تكاليف إعدادها من ميزانية ١٩٨٠ إلى ميزانية ١٩٨٨ مبلغ ٦٦ مليون دولار . كما صرفت الولايات المتحدة مبلغ ٣٠ مليون دولار لتعميق مياه « مومباسا » بما يسمح بدخول حاملات الطائرات إليها .

□ **الصومال:** قاعدة « مقديشيو » الجوية ، وقاعدة « بربرة » : وهما تقدمان للقوات الجوية الأمريكية خدمات نقل برى وبحرى وامكانيات صيانة وإصلاح محدودة ، وقد جرى توسيعهما سنة ١٩٨٣ ، وبلغت تكاليف ذلك فى ميزانية ١٩٨٠ إلى ميزانية ١٩٨٨ مبلغ ٢٤ مليون دولار .

ويلاحظ أن الصومال تبعد ١٤٠٠ ميل عن الخليج ، وبالتالى فإن كل تسهيلات فيها يمكن أن تستعمل فى الرقابة البحرية وفى النقل الوسيط .

□ **عمان :** بلغت قيمة المنشآت العسكرية فيها من ميزانية ١٩٨٠ إلى ميزانية ١٩٨٨ مبلغ ٢٧٠ مليون دولار .

وتضم التسهيلات فى عمان ما يأتى :

قاعدة الخصب : قاعدة جوية صغيرة فى شبه جزيرة موسانديم قريبة من جزيرة المعيز ومضيق هرمز ، وامكانياتها محدودة ، وهى ملائمة لأعمال الدوريات البحرية والجوية .

قاعدة نصيرة : وقد تم توسيعها لتصبح قاعدة جوية وبحرية فعالة بتكلفة قدرها ١٧٠ مليون دولار ، كما جرى تشوين مهمات ومعدات فيها بما يساوى ١٢١ مليون دولار . وبين مخزوناتها مواد تموينية ولوريات وأجهزة الكترونية للنقل الجوى ، وذخيرة مدفعية وصواريخ جو ـ جو .

قاعدتا ثوماريت وسيب : وهما قاعدتا طوارىء جوية وتسهيلات تقوم باستعمالهما الآن مجموعة دورية بحرية وجوية .

□ **المملكة العربية السعودية :**

لم توقع حتى الآن رسميا اتفاقية قواعد مع المملكة السعودية ، ولكن الولايات المتحدة تستخدم فى المملكة أسراب من طائرات « ف ـ ١٥ » و « ك . س ـ ١٠ » ، وكذلك حاملات وقود من طراز « ك .س ـ ١٣٥ » و « أ ـ ٣ ـ أ » ، وتعمل هذه القوات من قواعد سعودية فى حالات الطوارىء ، كما تستعمل مجموعة « أ ـ ٣ ـ أ » فى قاعدة الرياض . إن كل القواعد الجوية الرئيسية فى السعودية تتمتع بامكانيات

الحماية والتسهيلات اللازمة لأى تعزيزات أمريكية جوية ، أو لأية قوات إمداد أمريكية ثقيلة ، وتوجد قواعد رئيسية ضخمة فى الظهران وفى حفر الباطن ، وهى جاهزة للاستعمال عند الضرورة .

□ **البحرين** : إن مجموعة قوة الشرق الأوسط الأمريكية تستخدم قواعد فى البحرين . وكان هناك اتفاق رسمى بهذا الشأن انقضت مدته . وتحتفظ الولايات المتحدة بقوة إمداد تعدادها ٦٥ عسكريا ، كما أنها صرفت حوالى ٣ ملايين دولار على إنشاءات عسكرية ، كما توجد فى البحرين أيضا مجموعة قيادة تابعة لقوة التدخل السريع تعمل من على ظهر قطعة بحرية جهزت لتكون وحدة قيادة .

□ **الكويت** : وافقت الكويت فى نهاية سنة ١٩٨٧ على أن تسمح للولايات المتحدة باستئجار رصيف عائم يقف فى مياهها الإقليمية ، وأهمية هذا التسهيل أنه يخلق سابقة مهمة ، ويظهر استعداد الكويت لقبول أكثر فى حالة شعورها بالضرورة .

وهكذا كانت الحقائق فى التفكير والتخطيط والتنفيذ تفرض نفسها نطاقا من حديد يحيط بالبترول ويحميه .

كان الكنز محصنا إلى درجة لا تدعو أحدا إلى الاقتراب منه .

وكانت الصورة من حوله خطيرة ومخيفة .

وباختصار كانت تلك هى الحقائق بالنسبة للمنطقة التى تكمن فيها مقادير القرن الواحد والعشرين ، وهوية هذا القرن التى كان بعضهم يريد أن يجعلها هوية أمريكية ، خصوصا إذا كان يملك عوامل القوة اللازمة .

والواقع أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت مؤهلة للهدف الذى أخذت على عاتقها تحقيقه .

فهى القوة الأولى التى اكتشفت البترول وطوعته للانتاج ، وهى القوة الأولى فى انتاجه فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، وهى القوة الأولى التى بنت نفسها ومستقبلها على وجوده ، وهى القوة الأولى التى سادت فى أسواقه ، وهى القوة الأولى التى اكتشفت أكبر موارده فى المملكة العربية السعودية ، وهى القوة التى استطاعت فى النهاية أن تمسك بمنابعه الرئيسية فى العالم ، وأهمها منابع الخليج ، وهى القوة التى وضعت الترتيبات اللازمة لحمايته .

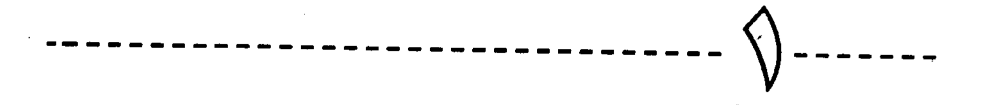
فهى إذن متسقة مع نفسها عندما تلحق القرن الأمريكى الأول بقرن أمريكى ثان اعتمادا على البترول ، خصوصا إذا كانت الوحيدة التى تملك القدرة الكافية والجاهزة لحمايته .

الفصل العاشر

قوة تبحث عن هدف !

« ليس هناك عمدة لأى مدينة يفكر جديا فى تسريح قوة البوليس الموضوعة تحت تصرفه - وإذا فعل ذلك فإن السلام فى مدينته سوف ينحل ويختفى » .

[الجنرال « كولين باول » أمام لجنة الشئون الخارجية لمجلس الشيوخ الأمريكى - فى مارس ١٩٩٠] .



من طبائع الصراعات التاريخية أن كل قائد سياسى (أو عسكرى) يقاس بحجم الميدان الذى تحرك فيه وترك آثاره على ساحته ، أو بحجم خصومه أو أعدائه - لأنهم فى النهاية معايير مجسدة للتحديات التى واجهها فى عصره .

فـ « الاسكندر الأكبر » يقاس بحجم المسافة التى يحتلها مثلث ترتكز أضلاعه على مقدونيا من ناحية ، وفارس من ناحية ، ومصر من ناحية ثالثة . و « نابليون بونابرت » يقاس بحجم أوروبا التى حلم يوما بالسيطرة عليها . و« بسمارك » يقاس بحجم الدولة الألمانية الكبرى التى صنع وحدتها وتركها لدورها الكبير فى وسط أوروبا .

وفى العصر الحديث ، ومع تنامى تأثير وسائل الإعلام والاتصالات ، زاد بروز العنصر الإنسانى على حساب العنصر الجغرافى ، فقد أصبحت المواجهة رجلا أمام رجل بكل ما يمثله كل واحد منهما . وكانت الحرب العالمية الثانية فى صورتها البسيطة والشائعة - مبارزة بين « تشرشل » و« هتلر » بكل ما يرمز إليه كل واحد منهما . كما أن الحرب الباردة التى أعقبتها تحولت إلى شبه مبارزة بين « خروشوف » و« ايزنهاور » ، ثم بين « خروشوف » و« كنيدى » فى فترة لاحقة .

وتكررت فى السنوات القريبة صورة الرجل وخصمه أو عدوه ، والعلاقة الوثيقة بين الاثنين بالصراع . وربما لم يكن أحد فى العالم ليسمع باسم الزعيم الفيتنامى « هوتشى منه » لولا ثلاثة من الرؤساء الأمريكيين جعلوه هدفا لصراعاتهم التاريخية . ونفس الشيء ينطبق على « جمال عبد الناصر » إذا لم يستهدفه « انتونى ايدن » ، و« كاسترو » لو لم يتقصده « جون كنيدى » .

والواقع أن كل رئيس أمريكى لم يكن ليستطيع أن يجد إطارا ملائما لصورته فى أبهاء التاريخ إلا إذا عثر على الخصم أو العدو الذى يؤكد نفسه أمامه ، ويفرض إرادته عليه . فعصر ثورة الإعلام والاتصالات يستدعى تجسيدا للصراعات يستطيع تحويلها إلى صور حية وناطقة .

ولقد كان من حظ الرؤساء الأمريكيين فى الأربعين سنة الأخيرة أن كان لديهم خصم جاهز ، وعدو ينتظر فى أى لحظة يقررون فيها - طبقا لاعتبارات موضوعية بالطبع - أن وقت التصعيد قد حان . وكان هذا الخصم الجاهز والعدو المنتظر هو الاتحاد السوفيتى والشيوعية الدولية . وكان « رونالد ريجان » أسعد هؤلاء الرؤساء الأمريكيين حظا ، ففى مدة رئاسته الأولى أعلنها حربا شعواء على ما أسماه « امبراطورية الشر » - يقصد الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية . وفى المدة الثانية لرئاسة « رونالد ريجان » كانت المفاجأة أن « امبراطورية الشر » راحت تتداعى وتتساقط قوائمها وجدرانها ، ثم تحولت إلى أنقاض دول ، وبقايا شعوب تحت بصر عالم لا يكاد يصدق ما يرى ، وأمام رئيس أمريكى استبدت به النشوة وأخذه الزهو معتبرا أنه حقق انتصارا لا يعادله انتصار فى تاريخ الامبراطورية الأمريكية .

لقد ذابت « امبراطورية الشر » بطريقة لم تحدث من قبل لأية امبراطورية فى التاريخ : سقط الحزب الشيوعى البولندى فى أول انتخابات حرة دخلها . ثم لحقه الحزب الشيوعى المجرى الذى قام بحل نفسه ، وغير اسمه قبل أن يتقدم للناخبين . ثم استقال « ايريك هونيكر » زعيم ألمانيا الشرقية ، وتحول سور برلين إلى حجارة وتراب ، وبدون أية مقاومة ألحقت ألمانيا الشرقية نفسها بألمانيا الغربية . وفى تشيكوسلوفاكيا اختفى

« ميلوس جاكيس » هو وكل المكتب السياسى للحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى ، ولم يظهر لهم أثر . ولحق بقافلة الهاربين « تيودور جيفكوف » زعيم الحزب الشيوعى البلغارى . وحاول « نيكولاى شاوشيسكو » أن يصلب عوده أمام عاصفة التغيير الجارفة ، ولكنه أهدر دمه فى موقف أخير يائس ، وحكم عليه بالإعدام وطويت صفحته .

وفى خاتمة المطاف كان الدور على عاصمة « امبراطورية الشر » فى موسكو التى بدت كمصاب بمرض « الايدز » (المرض الذى يعنى انهيار نظام المناعة الطبيعية فى أى جسم حى) ـ فإذا عاصمة الامبراطورية بلا إرادة ، وبلا عضلات ، وبلا مقاومة .

□

كانت القوة العسكرية الأمريكية ومعها قوة حلف الأطلنطي ، مهيأة لمواجهة « امبراطورية الشر » ـ فى وضع غريب . فالعدو الذى استعدت من أجله لم يعد له وجود ، بل إنه اختفى فجأة وكأن وجوده من الأصل كان مجرد سراب . وكان بعض جوانب الصورة شبه هزلية ، فقد كان مقررا فى ربيع ١٩٨٩ أن تقوم قوات حلف الأطلنطى بمناورة واسعة لصد هجوم يفترض أن تقوم به قوات حلف وارسو مندفعة إلى غرب أوروبا . وكان مشروع المناورة قد درس لآخر تفصيل فيه . واعترض المستشار « هيلموت كول » على إجراء هذه المناورة أساسا لأن اجراءها سوف يجعل حلف الأطلنطى أضحوكة العالم ، وكانت ملاحظته لسكرتير حلف الأطلنطى ، وهو الجنرال « مانفرد فورنر » الذى ذهب إلى موعد معه يصحبه الجنرال « جون جالفين » القائد العام لقوات الحلف : « لابد أنكم تهزلون إذا تصورتم أن الحكومة الفيدرالية يمكن أن توافق على استمرار مثل هذا المشروع » . ثم أضاف « كول » : « إن الظروف تغيرت ، ويبدو لى أن مؤسساتنا العسكرية لم تأخذ بعد علما بالحقائق الجديدة » .

وبدأت دول عديدة من أعضاء حلف الأطلنطى تراجع التزاماتها العسكرية إزاء الحلف الذى أصبح بلا وظيفة ، مثله مثل الحلف الآخر الذى يقابله على خطوط مواجهة لم تعد قائمة رغم وجود قرابة ثلاثين ألف رأس نووى تنتصب ، أو تكمن متربصة وراء كل ناحية .

وبدأت عملية المراجعة تعبر الأطلنطى واصلة إلى الولايات المتحدة ، حيث أخذت لجان عديدة فى الكونجرس ـ الذى كان منهمكا فى نظر الميزانية الجديدة للولايات المتحدة سنة ١٩٩٠ ـ تتحدث بجد وحزم عن تخفيضات كبيرة فى ميزانيات الدفاع ، واتجاهها الذى قارب حد التصميم هو أن الوقت أصبح مناسبا لتحويل جزء من الأعباء الباهظة لسباق السلاح إلى الخدمات ، حتى يشعر المواطن الأمريكى العادى بمزايا الانتصار الذى تحقق للولايات المتحدة وانهزمت فيه « امبراطورية الشر » .

كان موقف قيادة القوات الأمريكية المسلحة متناقضا مع ذلك الاتجاه فى تلك الظروف من أواخر سنة ١٩٨٩ وأوائل سنة ١٩٩٠ ، فليست هناك قوة مسلحة تستطيع أن تتصور لنفسها دورا غير استعمال قوتها ، أو دور الإضافة إلى امكانيات هذه القوة تحسبا لأخطار قادمة . وإلى جانب ذلك ، فليست هناك قيادة لقوة مسلحة تقبل تخفيض الميزانيات المخصصة لها تخطيطا وسلاحا ورجالا . ومع ذلك فها هى القيادة العليا للقوات المسلحة الأمريكية لا تستطيع فيما بينها وبين نفسها إلا أن تسلم بأن العدو الذى كانت مهيأة ومستعدة لقتاله ـ لم يعد موجودا ، وأسوأ من ذلك فليس هناك فى الأفق مصدر آخر محتمل للخطر . وصحيح أن المصالح الأمريكية شاسعة على امتداد القارات والمحيطات ، ولكن المناخ السائد فى كل هذه القارات والمحيطات لم تظهر عليه علامات تشير إلى خطر معين يستدعى وقفة من جانب القيادة العليا للجيش الأمريكى تصد عنها ، وعن قواتها ضغوط هؤلاء الذين راحوا ينادون بأن النصر ضد « امبراطورية الشر » تحقق ، وأن السلام جاء ، وبالتالى فإن ميزانيات القوات المسلحة أصبح محتما تخفيضها لصالح مزايا السلام .

والغريب أن الرئيس الأمريكى « جورج بوش » كان فى نفس الوضع ، فسلفه « ريجان » كان فى البيت الأبيض عندما تهاوت « امبراطورية الشر » ، وبالتالى فهو الرجل الذى من حقه أن يضع على صدره ميداليات الشرف ويمنحها لغيره أيضا . كما أن حقائق الأحوال لم تكن تسمح لرئيس أمريكى واحد تصادف وجوده فى البيت الأبيض عند لحظة الانتصار ـ أن يدعى لنفسه فضله . فهذا الفضل حتى إذا جازت نسبته لرئيس أمريكى ـ فضل شائع موزع على كل الرؤساء الأمريكيين ابتداء من « ترومان » وحتى « ريجان » ، فكلهم فى زمانه تصدى « لامبراطورية الشر » وأرهقها بالاستنزاف حتى نزلت جاثية على ركبتيها .

□ □ □

كان الرئيس الأمريكى يبحث عن طرف يواجهه ، وميدان يثبت نفسه فيه ، وكذلك كانت المؤسسة العسكرية ، وكذلك أيضا كانت مؤسسة الأمن الأمريكى .

وفى أول خطاب عن « حالة الاتحاد » ألقاه « جورج بوش » فى يناير ١٩٨٩ ، ركز على قضية مكافحة المخدرات ، وأعلن أنه سوف يرضيه أن يدخل التاريخ باعتباره الرئيس الأمريكى الذى خلص البشرية من هذا الوباء الذى يفتك بشبابها . وطلب أن تخصص ميزانية مقدارها ٨ بلايين دولار دفعة أولى للحرب ضد المخدرات . ومضى خطوة أبعد من ذلك ، فعرض على حكومة كولومبيا ، التى كانت داخلة فى معركة مع « بارونات » المخدرات ، أن تشترك القوات الأمريكية معها مباشرة فى الحرب ضد العصابات المنظمة فى « موداين » (المدينة الكولومبية التى تحولت إلى عاصمة لتجارة المخدرات فى العالم) .

وبعد هدف مكافحة المخدرات ، كان هدف « بوش » الثانى هو مكافحة الإرهاب الدولى . وكانت صور مأساة حادث الانفجار الذى تعرضت له طائرة تابعة لشركة « بان أمريكان » فوق قرية « لوكربى » فى بريطانيا ـ لا تزال حاضرة فى الأذهان . كما أن عددا من الرهائن الأمريكيين كانوا لا يزالون فى أعماق الظلام فى سراديب لبنان الموحشة .

وللوهلة الأولى تبدى ما قاله « جورج بوش » مقنعا ـ لكن الرأى العام فى الدول المتقدمة لا يكتفى بنظرة واحدة على الأمور ، وإنما يتبع النظرة الأولى عادة بثانية وثالثة ـ ومع التأمل والفحص ظهر أن ما قاله « جورج بوش » لم يكن قادرا على تعبئة الناس أو إقناعهم أن تلك رسالة مقدسة للقوة الأعظم الوحيدة الباقية ، ثم إنه فى كل الأحوال لا يحتاج لقوة عسكرية هائلة بقدر ما يحتاج لقوة بوليس نشيطة .

وطوال سنة ١٩٨٩ ـ السنة الأولى من رئاسة « جورج بوش » ـ كان الهدف الاستراتيجى الأمريكى ضبابيا ، غير واضح المعالم وغير محدد القسمات ، وكانت الدعوات لاختصار ميزانية القوات المسلحة تزداد الحاحا ، وحركة المطالبة بتخفيضها تزداد اتساعا .

□

كان لابد من خطر مقنع يبرر حجم الإنفاق وحجم القوة العسكرية الأمريكية ، ويعطى الاثنين هدفا استراتيجيا له معنى وله موضوع .

وفى أول مارس ١٩٩٠ وقف « ريتشارد تشينى » وزير الدفاع الأمريكى أمام لجنة العلاقات الخارجية فى الكونجرس يطلب الموافقة على زيادة فى ميزانية الدفاع ـ وهذه هى العادة فى كل ميزانية (والمؤسسات لا تتخلى عن عاداتها بسهولة مهما كان من شأن المتغيرات حولها) .

وبدأ « تشينى » كلامه أمام اللجنة فقال : « إننا نشهد ونحن نبدأ حقبة التسعينات متغيرات عميقة الأثر أمامنا ، وهى اختلاف مناخ الأمن الذى نعمل فيه بأعمق مما رأيناه طوال الأربعين سنة الماضية . إن هذه الحقبة تعطينا آمالا كبيرة ، وهى فى نفس الوقت تطالعنا بشىء من عدم اليقين . إن التغييرات التى وقعت فى أوروبا الشرقية مذهلة ، ففى ظرف شهور من سنة ١٩٨٩ لم يتبق أمامنا من كل الزعماء الذين عرفناهم فى إطار حلف وارسو سوى « ميخائيل جورباتشوف » . »

ثم استطرد « تشينى » يقول : « إن الثورة السياسية التى رأيناها فى معسكر حلف وارسو تعدنا بتغيرات عسكرية مهمة » . ولم يجد « تشينى » شيئا مؤثرا يقوله عن خطر « امبراطورية الشر » سوى قوله : « مع أن خطر المواجهة العسكرية بيننا وبين الاتحاد السوفيتى قد زال ، إلا أن الاتحاد السوفيتى لا يزال يدعم أنظمة قمعية كتلك التى تحكم فى

أفغانستان وكوريا الشمالية وليبيا وأثيوبيا وكوبا . وعلينا هنا أن نراقب موسكو لكى نتأكد أن كلامها عن التفكير الجديد قد تحول إلى واقع من السلوك الجديد . »

ثم وصل « تشينى » إلى الشرق الأوسط فقال : « **إن الأوضاع الاقتصادية فى تلك المنطقة تضعف النظم المحلية وتؤجج سباق السلاح بينها ، وربما تؤدى إلى مخاطر حروب مسلحة بين هذه الدول . ثم إن عدم الاستقرار المزمن فى هذه المنطقة قد يؤدى إلى اعتراض تدفق البترول فى الخليج الفارسى .** »

ولم تكن تلك كلها مخاطر تستدعى زيادة القوة العسكرية . ولذلك فإن « ريتشارد تشينى » عاد مرة أخرى إلى نفس الأهداف التى سبق لـ « جورج بوش » أن تحدث عنها ـ فأشار إلى المعركة ضد المخدرات قائلاً إن « التدفق غير الشرعى للمخدرات إلى أسواق الولايات المتحدة ، وكذلك الطلب المتزايد على هذه المخدرات ـ مشكلة عويصة تمس الأمن القومى على نطاق واسع . إن وزارة الدفاع تتحمل مسئوليتها كاملة فى المعركة القومية ضد المخدرات . »

ثم جاء الدور على الإرهاب الدولى ، فقال « تشينى » : « إن الإرهاب الدولى زاد زيادة درامية فى حقبة الثمانينات ، والمعلومات المؤكدة لدينا تجعلنا معتقدين أن هذه الزيادة متصاعدة فى حقبة التسعينات . والرعايا الأمريكيون المحتجزون الذين كانوا فى الماضى مستهدفين من هذا الإرهاب ، سوف يظلون مستهدفين . »

ومرة أخرى لم تكن تلك أهدافا حقيقية للقوات المسلحة للقوة الأعظم التى بقيت وحيدة على قمة العالم .

وكانت عملية البحث عن هدف للقوة العسكرية الأمريكية مازالت مستمرة .

□

وجاء الدور على الجنرال « كولين باول » رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية ، الذى وقف يوم أول مارس ١٩٩٠ أيضا يتحدث إلى لجنة العلاقات الخارجية ويبدأ حديثه قائلا : « يجب أن ننظر إلى التاريخ وإلى الحوادث الجارية وعيوننا على المستقبل ـ ومهما كانت الظروف فإن هدفنا لا يمكن أن يصبح حل أو تفكيك أوصال القوة الأمريكية . إننى توليت مسئولية منصبى كرئيس لهيئة أركان الحرب **آملا أن أساعد على تشكيل القوة الأمريكية لمواجهة تحديات المستقبل ، وليس لأقوم بتسريح الجيش الأمريكى ، وأضعف موقف الولايات المتحدة فى العالم .** »

ثم بدأ الجنرال « كولين باول » يحدد أهداف القوة الأمريكية ، وراح يعددها على النحو التالى :

« ١ ـ ردع أى هجوم عسكرى ضد الولايات المتحدة ، وحلفائها ، وأى بلد مهم بالنسبة لها ، والتأكد من أن هذا الهجوم قد تم ردعه وهزيمته (ولم يحدد الجنرال « كولين باول » مصدرا لهذا الهجوم أو قوة دولية قادرة عليه) .

٢ ـ زيادة نفوذ الولايات المتحدة فى العالم بما يخلق مناخا يساعد على التطور الديمقراطى ، والتجارة الحرة ، وفتح أسواق العالم أمام الولايات المتحدة بما ييسر لها الحصول على كل الموارد ، والوصول إلى كل المحيطات ، وحرية الحركة فى الفضاء .

(وكانت هذه مجموعة أهداف لا تحققها القوة العسكرية ، وإنما تحققها الكفاءة الاقتصادية والتفوق التكنولوجى) .

٣ ـ إن هذه الأهداف لابد أن تذكرنا جميعا فى أمريكا بأننا لا نستطيع أن نفرق بين الأمن العسكرى والأمن الاقتصادى ، فكل واحد منهما مندمج فى الآخر ، وإذا أردت أن أضرب مثلا بسيطا فإن التجارة الآمنة والازدهار الاقتصادى فى مدينة ما يعتمد على الوجود النشيط لرجل بوليس حازم ، وليس هناك عمدة لأى مدينة يفكر جديا فى تسريح قوة البوليس الموضوعة تحت تصرفه ، وإذا فعل فإن السلام فى مدينته سوف ينحل ويختفى . »

(وكان الجنرال « باول » يقوم بتنصيب الولايات المتحدة عمدة على العالم ، ويوكل لقواتها المسلحة بأكبر ترسانة نووية ـ دور البوليس الموجود تحت تصرف العمدة !)

ثم خلص الجنرال « باول » وهو يشعر فى أعماقه أن كلامه ليس مبررا لزيادة القوة الأمريكية : « إننا يجب أن نكون مستعدين لحفظ السلام ، وأن تكون قواتنا المسلحة جاهزة لتمنع الأزمات الصغيرة فى العالم من أن تتحول لأزمات كبيرة ، ونكون قادرين على مواجهة الطوارئ من أى اتجاه تظهر فيه . »

وكان الهدف العسكرى الأمريكى لا يزال ضبابيا بكل ما يثيره ذلك من شكوك فى النفس ، وحتى فى الإحساس بالقوة ، فليست هناك قوة يمكن أن تشعر بأهميتها إلا بالقياس إلى قوة أخرى أمامها ، ذلك أن القوة بالدرجة الأولى تصبح حقيقية بمقدار التحدى الذى تواجهه ، فإذا اختفى التحدى فقدت القوة مرجعيتها ، وحتى شخصيتها ، فلم تعرف من هى ؟ إذا لم تعد تعرف من هو الآخر !

٣

إن التطورات المفاجئة التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى ، وأدت إلى ذوبان واحدة من القوتين الأعظم فى بحر شهور قليلة ـ لم تؤد فقط إلى حالة ارتباك سياسى واستراتيجى فى الولايات المتحدة ابتداء من رئيسها « جورج بوش » ، إلى وزير دفاعها « ريتشارد تشينى » ، وإلى رئيس أركان حربها « كولين باول » ـ بل وأكثر من ذلك فقد شاع الارتباك فى أوساط أساطين الفكر الاستراتيجى فى الولايات المتحدة ، وانتقل منهم إلى آخرين على اتساع العالم .

فى هذه الفترة خرج مفكر أمريكى من أصل يابانى ، هو « فوكوياما » ، بنظرية عن « نهاية التاريخ » ، معتبرا أن تناقضات الفكر فى العالم قد انتهت بانتصار الرأسمالية ، وبالتالى فإن هذه الخاتمة للصراعات المذهبية معناها أن التاريخ وصل إلى نهايته . (ولم تكن مقولته صحيحة ، واضطر هو بنفسه أن يعترف بعدم صحتها بعد أن شغلت العقول ، وأثارت الجدل عاما بأكمله) .

وفى هذه الفترة أيضا راجت مقولة لـ « ميخائيل جورباتشوف » عن أن « توازن المصالح » فى العالم سوف يحل محل « توازن القوى » كمعيار فى إدارة العلاقات الدولية . (ولم تكن هذه المقولة بدورها صحيحة أيضا لأن توازن المصالح لا يمكن أن يتحقق فى غيبة من توازن القوى ، وعلى أى حال فإن « جورباتشوف » قالها فى تبرير « تفكيره الجديد » فى مرحلة من المراحل السابقة على تسليمه الكامل بإفلاس التجربة الشيوعية) .

وهكذا فلم تكن الولايات المتحدة وحدها فى عملية بحث عن فكر استراتيجى جديد يتلاءم مع ظروف متغيرة ، وإنما كان العالم بأسره معها فى حيرتها وتخبطها فى تلك المرحلة .

كانت تلك فترة حائرة بالنسبة لكثيرين ، ولم يكونوا جميعا من مجالات التخطيط أو الفكر ، وإنما تجلت الحيرة أيضا ، وربما أكثر ، فى دوائر الاقتصاد العالمى . فالسياسة تصنع الاقتصاد بمقدار ما أن الاقتصاد يصنع السياسة ، ثم إن بعض الصناعات ، وربما أكبرها ، تتصل مباشرة بالرؤى الاستراتيجية للدول ، وأولها بالطبع صناعات السلاح ، والفضاء ، وغيرها .

□

ولقد كانت الولايات المتحدة ترى مقدمات تناقض قادم ـ لكن هذا التناقض لم يكن قائما بعد ، كان أقرب ما يكون إلى تناقض فى مرحلة التكوين .

إن أوروبا الموحدة تبدو من بعيد عملاقا اقتصاديا يجمع دول السوق الأوروبية ، وسوف يضيف إليها مجموعة دول « الافتا » (وهى مجموعة دول أوروبا الغربية التى تكون رابطة التجارة الحرة) . كذلك فمن المحقق أن عددا من دول أوروبا الوسطى ، والتى كانت فى إطار الغرب من قبل (مثل المجر ورومانيا وبولندا) ، سوف تنجذب يقينا إلى أوروبا الموحدة ـ الأمر الذى يجعل من القارة الأوروبية كيانا أقوى مرتين على الأقل من الولايات المتحدة .

كذلك فإن وحدة من نوع آخر تتشكل فى الشرق الأقصى ، وهى وحدة يمكن أن تكون نواتها اليابان بمقدار ما أن ألمانيا هى النواة المركزية للوحدة الأوروبية .

وإذا أمكن تصور إطار يضم اليابان مع نمور آسيا الجديدة ، إذن فإن القوة البازغة فى الشرق سوف تكون عملاقا آخر .

ولقد كان الفكر الأمريكى لوقت طويل عاجزا عن تصور يوم تلعب فيه ألمانيا دور القلب لوحدة أوروبية ، ونفس الشىء بالنسبة لليابان فى وحدة آسيوية ـ وكان ظن هذا الفكر الأمريكى أن من الصعب على الآخرين أن ينسوا تجربة النازية الألمانية أو العسكرية اليابانية ، ثم تأكد أن المصالح الاقتصادية المستقبلية أقوى من الذكريات السياسية المتخلفة عن ماض غاب منذ نصف قرن من الزمان .

ولقد لاحت بالفعل بدايات اشتباك هادىء بين واشنطن وبرلين برز ظاهرا عندما تحققت الوحدة الألمانية ، كما لاحت بدايات اشتباك بارد بين واشنطن وطوكيو عبر عن نفسه بطريقة سافرة فى الذكرى الخمسين لمعركة « بيرل هاربر » .

لكن هذه الاشتباكات الهادئة أو الباردة مازالت نوعا من الحمل فى رحم التاريخ ، وقد يجىء مولده بعد سنين أو بعد حقب ، وبالتالى ـ وبواقع الحال كما هو قائم الآن ، وبطبيعة علاقات مشتركة مازالت مفيدة لكل الأطراف ـ فإن التخطيط لتناقض لم يولد بعد يصعب التفكير فيه ، كما أنه تصعب التعبئة توقيا له أو تحسبا لخطره ، خصوصا وأن كليهما ـ اليابان وألمانيا ـ لا ينافسان بالسلاح ، وإنما ينافسان بالاقتصاد وارتفاع كفاءة الانتاج ، وبالزحف المنظم والصامت لتراكم الغنى ... وإذن فهى حتى الآن مناوشات المارك والين والدولار لم تتحول بعد إلى معارك بالنار . وقد لا تتحول أبدا ، فحروب الحقب القادمة قد تحدث بغير حاجة إلى ميادين قتال ، وقد يحدث فيها النصر أو تحل الهزيمة بأرقام على شاشة جهاز كمبيوتر دون حاجة إلى رصاصة أو صاروخ أو قنبلة نووية !

□

وكانت هذه المستجدات كلها تجد طريقها إلى العالم العربى الذى كان هو الآخر يعيش حالة من الفوضى السياسية لم يكن منشؤها اختفاء العدو الذى يهدد الأمن القومى العربى - وإنما اختفاء المعادلة التى قام عليها الأمن القومى العربى ابتداء من سنة ١٩٥٥ حين عقدت مصر أول صفقة للسلاح مع الاتحاد السوفيتى الذى أصبح بعدها عاملا رئيسيا فى كل الحسابات العربية أثناء معارك السويس (١٩٥٦) - سيناء (١٩٦٧) - الاستنزاف (١٩٦٨ - ١٩٧٠) - أكتوبر (١٩٧٣) . كما أنه كان سندا للقضية الفلسطينية وغيرها من معارك التحرر العربى . كان سلاحه حاضرا ، وكان اقتصاده متعاونا ، وكانت مواقفه ودية خصوصا إذا قورنت بمواقف غيره .

وفجأة خرج الاتحاد السوفيتى من معادلة الصراع فى الشرق الأوسط ، وحل محله فراغ واسع ومخيف .

فى نفس الوقت تقريبا كانت مصر أيضا قد ابتعدت عن قلب الصراع فى الشرق الأوسط ، ووقفت على أطرافه تنتظر وتراقب ... وأدى انسحاب مصر بدوره إلى فراغ .

وحاولت الولايات المتحدة أن تملأ هذا الفراغ ، فتقدمت إلى دور انفتحت أبوابه لها . ولأن سياستها فى التجربة العربية المعاصرة لم تكن متوازنة ولا عادلة فى نظر أغلبية ساحقة من العرب ، فإن الدخول الأمريكى إلى المنطقة بعد انفرادها بالقوة على قمة العالم - زاد من حدة الفوضى فى المنطقة ولم يقلل منها . وأضيف إلى ذلك أن الولايات المتحدة التى تقدمت من أوسع الأبواب عائدة إلى الشرق الأوسط ، كانت هى نفسها فى حالة حيرة أمنية وتخبط استراتيجى .

وكانت القضية الفلسطينية أولى القضايا التى تأثرت وعانت بالفوضى التى أنشأتها حالة الفراغ الاستراتيجى الزاحفة على المنطقة - فالشعب الفلسطينى الذى صمد فى انتفاضته سنوات طويلة ، راح يجد نفسه وحيدا فى صراعه ، والجو حوله قاتم وموحش لا يجدد أملا .. ولا يعيد ثقة فى مستقبل أفضل تصورته ثورة الحجارة فى متناول اليد وقريبا . وكانت إسرائيل بالطبع أول الأطراف التى استغلت الظروف المستجدة واستفادت منها ، فموازين القوة الإقليمية فى صالحها ، وحتى موازين الكثافة السكانية التى كانت ضدها أخذت تتحول بعض الشيء عن طريق زيادة الهجرة من الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية التى تفككت أوصالها ولنهارت حدودها المعنوية مثل الستار الحديدى ، والمادية مثل حائط برلين .

وكانت سوريا قد يئست من مقولتها التقليدية عن ضرورة استعادة التوازن الاستراتيجى فى المنطقة . فقد كان هذا الهدف معلقا بامكانية الحصول على أسلحة متطورة

من الاتحاد السوفيتى ، ولكن الرئيس « حافظ الأسد » سمعها بنفسه من الرئيس « ميخائيل جورباتشوف » فى زيارته لموسكو سنة ١٩٨٨ : « **إن الاتحاد السوفيتى لسنوات طويلة قادمة مشغول بإعادة ترتيب بيته من الداخل ، وليس مستعدا فى هذه الفترة ولا فى المدى المنظور ـ لأن يلعب دورا فى صراعات إقليمية لا يرى أن هناك سقفا أو قاعا لها .** »

وكانت دول الخليج تزداد انطواء على نفسها ، وتحاول أن تحتفظ لنفسها ببترولها خشية أن تتخاطفها المطالب من كل ناحية ، مع إحساس بحالة الفراغ والفوضى التى أطبقت على المنطقة . وكانت هذه الدول الصغيرة والغنية تمنى نفسها ، وتطمئن وساوسها بادعاء أن التغيرات التى طرأت على العالم جميعا لصالحها ، فالذى انتصر فى الصراع الدولى هو الطرف الذى يحميها باعتباره المستفيد الأول من مواردها ، ثم إن أنظمتها التقليدية كانت تحسب نفسها بدرجة أو بأخرى كجزء من النظام الرأسمالى العالمى ، وبالتالى فانتصار هذا النظام هو فى جزء منه انتصار لها . وكان مجمل هذا المنطق يؤدى إلى زيادة عزل الثروة العربية عن مجمل العمل العربى ، خصوصا فى حالته الحائرة والمرتبكة بتأثير المتغيرات الفادحة التى جرت .

وكان العراق فى وضع خطر ، فقد انتهت الحرب العراقية ـ الإيرانية فجأة عندما اقتنع « آية الله الخمينى » فى الدقيقة الأخيرة أن استمرارها لم يعد ممكنا . وأدى الانهيار المفاجىء لإيران إلى مشاعر متناقضة فى بغداد . وبشكل ما فإن العراق أحس بالفراغ المباشر نتيجة لتوقف حرب شغلته واستغرقته بالكامل سياسيا وعسكريا واقتصاديا ونفسيا . وبتوقف المعارك بدأت قوة العراق تواجه نوعا من البطالة قريب الشبه من الفراغ الذى دهم القوات المسلحة الأمريكية بعد سقوط التهديد السوفيتى .

ومن ناحية أخرى فإن الفراغ العربى العام الذى غطى المنطقة كلها راح يشد العراق إلى دور إقليمى أوسع من حدوده . وكانت القضية الفلسطينية هى الساحة المهيأة لأى طرف محلى تشده امكانياته أو ظروفه أو رؤاه إلى دور إقليمى .

وكانت بعض الأطراف الفلسطينية تعلق آمالا واسعة على الجيش العراقى . وفى حديث هامس بين زعيم فلسطينى بارز وسياسى مصرى مخضرم ، أشار الزعيم الفلسطينى إلى أن « قوة الجيش العراقى تزيد عن ٥٥ فرقة ، وقد أصبح هذا الجيش هو الجيش العربى الذى عرف خبرة قتال طويل » .

ثم أبدى الزعيم الفلسطينى ثقته فى « **أن العراق بعد انتهاء حربه مع إيران داخل بلا شك فى معركة مع إسرائيل** » . وأبدى السياسى المصرى المخضرم شكه فى هذه

الامكانية ، **على أساس أن العراق سوف يخرج من المعركة فى حاجة شديدة إلى إعادة تعمير بلده واسترداد خطته الطموحة للتنمية »** .

وكان الزعيم الفلسطينى واثقا يستشهد بحقيقة أن العراق هو الذى يقدم أكبر المساعدات للانتفاضة حتى يبقى جذوتها مشتعلة لحين تواتيه الفرصة .

٣

كانت تلك أيضا هى الفترة التى تكونت فيها مجالس التعاون الإقليمى فى الخليج وفى المغرب وفى المشرق .

وكانت إسرائيل تتابع ، وكذلك كانت الولايات المتحدة ، بينما كانت أوروبا الغربية التى أغراها الفراغ إلى حلم بالعودة لمواقع نفوذ تقليدى سابقة في العالم العربى ـ تجىء وراء الاثنين (إسرائيل والولايات المتحدة) وتحاول فى بعض الأحيان سباقهما . وبادرت أوروبا إلى طرح مشروع لحل أزمة الشرق الأوسط ، وكان اقتراحها مؤتمرا عاما للأمن والتعاون فى المنطقة ، جرى استيحاؤه من التجربة الأوروبية السابقة لمؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا . لكن الفكرة ظلت مستلقية على الأرض غير قادرة على التحليق لسبب بسيط هو أن تجربة مؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا جاءت بعد أن كانت الدول الـ ٣٥ التى اشتركت فيه قد أسقطت الحواجز العقائدية والعسكرية والنفسية التى باعدت بينها طوال سنوات الحرب الباردة . وأما فى منطقة الشرق الأوسط ، فإن الأسوار والحواجز كانت عالية ، وبعضها زاد ارتفاعه بسبب الانتفاضة ومشروعات الاستيطان التى لم يقترب منها أحد بحل مقبول ، وبالتالى فإن أى تصور لمؤتمر ينقل الحوار بالنار عبر ميدان القتال إلى حوار بالكلمات عبر مائدة لمؤتمر أمن وتعاون ـ كان ضربا من الخيال .

□

وفى وسط هذا الجو المعبأ بالفراغ والفوضى والإحساس بالحيرة والضياع ، وقع اجتماع مجلس التعاون العربى (فبراير ١٩٩٠) فى عمان على مستوى القمة . ووقف الرئيس « صدام حسين » يتحدث فى هذا الاجتماع قائلا : « **إننا من هنا فى عمان نستطيع أن نرى أضواء القدس** » . ثم استطرد فى خطاب حماسى وطويل يتحدث عن اغتصاب

فلسطين وضياع الأرض الفلسطينية قطعة بعد قطعة من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٦٧ . ثم توقف طويلا أمام قضية الاستيطان الذى يهدد بتغيير نهائى فى عروبة الضفة الغربية وغزة . ثم انتقل إلى الأوضاع الدولية قائلا : « إن انسحاب الاتحاد السوفيتى من المنطقة قد أدى لفراغ انتهزته الولايات المتحدة فرصة للعربدة غير المسئولة فى مصائر العرب » . ثم أشار إلى أن الاتحاد السوفيتى ركع على ركبتيه أمام الولايات المتحدة التى تفرض هيمنتها كل يوم على المصائر والموارد العربية . (كانت تلك إشارة واضحة إلى بترول الخليج) - ثم ختم الرئيس « صدام حسين » كلامه بقوله : « إننا نريد صداقة الولايات المتحدة ، ولكن الصداقة لا تكون من جانب واحد . وإذا تصور بعضنا أنهم أصدقاء الولايات المتحدة ، فإن تصورهم هذا على غير أساس ، وليس أمامنا إلا أن نؤكد أنفسنا وحقوقنا ، أو نركع مثل الآخرين . »

وعندما انتهت الجلسة ، وكانت مذاعة بالكامل على الهواء ، خرج الرئيس « صدام حسين » والرئيس « حسنى مبارك » جنبا إلى جنب ، وأثناء سيرهما إلى خارج القاعة قال الرئيس « صدام حسين » للرئيس « مبارك » : « **يا أبو علاء .. هل تظن أن هجومى على الأمريكان كان عنيفا ؟** » ورد الرئيس « حسنى مبارك » قائلا : « **إن كل واحد منا له الحق فى رأيه** » .

وقال له الرئيس « صدام حسين » : « **الحقيقة أننى قصدت أن أتحدث بلهجة قوية من هنا لأننى أعلم أن التليفزيون الأردنى يصل لداخل الأرض المحتلة ، وقد قصدت باستعمال هذه اللهجة أن أقوى عزائم إخواننا فى الانتفاضة** » .

٤

كانت الولايات المتحدة والعراق كلاهما - وبشكل مثير - فى وضع قريب الشبه بالآخر فى تلك اللحظة .

- كلاهما كانت لديه حرب طويلة :

٤٠ سنة من الحرب الباردة فى حالة الولايات المتحدة .

وثمانى سنوات من الحرب الساخنة فى حالة العراق مع إيران .

● وكلاهما كلفته الحرب غاليا فى موارده . فالولايات المتحدة أرادت إرهاق الاتحاد السوفيتى بسباق سلاح لا نهاية له ، وقطع الاتحاد السوفيتى أنفاسه فى محاولة اللحاق ، ولم يلحق ـ لكن الولايات المتحدة هى الأخرى تحملت بعبء أثقل كاهلها ، وراحت تطلب مشاركة فيه من قوى استفادت منه وازدهرت مثل ألمانيا واليابان .

والعراق نفس الشيء إلى حد كبير : فقد بدأ الحرب مع إيران باحتياطى يصل إلى ٣٦ بليون دولار ، وحصل على قروض ومساعدات من السعودية ودول الخليج زادت على عشرين بليون دولار . واستدان فوق هذا كله للخارج بقرابة أربعين بليون دولار أخرى . لكنه فى تقديره كان يحمى البوابة الشرقية للأمة العربية ، وكانت كل دول الخليج تقر له بذلك . لكن هذه الدول ، منذ بدأت حروب البترول سنة ١٩٧٣ ـ ثم سنة ١٩٨٠ ـ جنت فوائد لم تكن تخطر لأحد على بال . والعراق خارج من الحرب الطويلة ولديه خطة لتعويض ما فاته أو ما خسره .

● والولايات المتحدة وجدت عدوها فى الحرب الباردة يخرج من الميدان فجأة .

والعراق وجد عدوه فى الحرب الساخنة يقبل وقف إطلاق النار بكلمة قصيرة حزينة من « آية الله الخمينى » يقول فيها إنه « كان أهون عليه أن يتجرع كأسا من السم ولا يقبل بوقف اطلاق النار ـ لكنه الآن يقبله » .

● والولايات المتحدة تشعر بعد الحرب بفراغ . وكذلك العراق .

● والولايات المتحدة تبحث عن عدو فى عالم تغير . والعراق يبحث عن دور فى منطقة ملأها الفراغ !

وفى قاعة قصر المؤتمرات فى عمان ، فى شهر فبراير ١٩٩٠ ، التقى الطرفان واحتك كل منهما بالآخر فى الزحام . ولم يلتفت أحد ، فقد بدا الاحتكاك عارضا ـ والواقع أنه لم يكن عارضا إلى هذا الحد !

الفصل الحادي عشر

على طريق تصادم محقق

« مع الأسف لا يوجد في إسرائيل « جورباتشوف » . »

[« طارق عزيز » للسناتور « روبرت دول » زعيم الأقلية الجمهورية في مجلس الشيوخ - ابريل ١٩٩٠]

١

لم يكن الاحتكاك الذى شهده قصر المؤتمرات فى عمان عارضا وسط الزحام ، كما بدا . ولا كان مفاجئا . ولعله كان أقرب ما يكون إلى نقلة ظاهرة وعنيفة فى لعبة كبيرة ومتشعبة ، قليل فيها واضح للعيان ، وكثير منها غاطس تحت السطح .

إن العلاقات بين واشنطن وبغداد كانت دائما ضرورية ، وإن سادها القلق فى فترات عديدة . وكانت دائما متشابكة بالود أو بالعداء . فالعلاقات بين البلدين موصولة بقضايا حيوية منها : الصراع على الشرق الأوسط - والصراع على البترول - والصراع مع الاتحاد السوفيتى .

وكانت للولايات المتحدة علاقات وثيقة مع النظام الملكى فى بغداد قبل ثورة سنة ١٩٥٨ - قبلها كان العراق عضوا فى حلف بغداد ، بل وكانت بغداد هى عاصمة العراق وعاصمة الحلف فى الوقت نفسه .

وبعد ثورة سنة ١٩٥٨ لم تسمح الولايات المتحدة لنفسها بأن تنعزل عما هو جار فى بغداد ، خصوصا وأن الحزب الشيوعى العراقى استطاع بعد ثلاثة أشهر من قيام ثورة سنة ١٩٥٨ أن يستغل الصراع الشخصى الذى وقع بين اللواء « عبد الكريم قاسم » واللواء « عبد السلام عارف » ، فأصبح الشيوعيون سندا رئيسيا لـ « عبد الكريم قاسم » ، وأصبحوا هم قوته الضاربة فى معركته التى اتسع نطاقها فلم تعد مقصورة على « عبد السلام عارف » وحده ، وإنما أصبحت معركة « عبد الكريم قاسم » ضد كل القوى القومية والوطنية فى العراق . ونتيجة لذلك اتسع دور الشيوعيين فى العراق فى أواخر سنة ١٩٥٨ ـ إلى درجة أصبحوا فيها القوة الأساسية فى نظام الحكم . ومن قوانين الصراع العالمى فى تلك الفترة أنه حيث يظهر الشيوعيون فإن الأمريكيين لابد أن يتواجدوا فى مكان ما بالقرب منهم ـ والعكس صحيح . فلقد كان مستحيلا فى تلك الفترة على إحدى القوتين الأعظم أن تترك القوة الأخرى منفردة بحرية العمل فى بقعة من الأرض . فضلا عن أن تكون هذه البقعة ذات حساسية خاصة ، فبغداد هى نصف المسافة تقريبا من حدود الاتحاد السوفيتى ، وحتى تخوم الخليج العربى وبتروله .

وكانت الولايات المتحدة متصلة بكل القوى المعارضة لـ « عبد الكريم قاسم » ، رغم أن « عبد الكريم قاسم » نفسه وصل إلى لحظة توجس فيها من الشيوعيين وساورته الظنون بأنهم ربما سبقوا غيرهم من القوى فى الانقلاب عليه .

والذى حدث فعلا هو أن غير الشيوعيين هم الذين سبقوا ، وأما الشيوعيون فقد تخلفوا . ويروى الملك « حسين » ملك الأردن أنه « أثناء عملية الانقلاب على « عبد الكريم قاسم » فى فبراير سنة ١٩٦٣ ، كانت هناك موجة إذاعية سرية موجهة إلى العراق ، تنقل للقائمين بالحركة أسماء وعناوين الشيوعيين هناك ليتم القبض عليهم . »[١]

وتوالت الانقلابات والنظم فى بغداد ، والولايات المتحدة الأمريكية تتابع عن كثب ما يجرى فيها ، سواء من طهران التى انتقل إليها حلف بغداد ، وأعاد تسمية نفسه باسم « الحلف المركزى » ، أو من أنقرة التى كانت مشغولة إلى أقصى حد بالعراق ، حالمة فى يوم من الأيام أن تمد يدها إليه لتخطف قضاء الموصل الغنى بالبترول ، وتضمه إليها طبقا لحلم قديم ، وطلبا لمورد بترول تعتمد عليه وتملكه بنفسها .

□

---

(١) حديث للملك « حسين » مع محمد حسنين هيكل فى فندق « الكريون » فى باريس فى شهر سبتمبر سنة ١٩٦٣ . وقد تأكدت الرواية فيما بعد ، وقيل إن هذه الإذاعة السرية كانت تعمل من الكويت !

وحين وقعت ثورة سنة ١٩٦٨ ، وتمكن حزب « البعث » لأول مرة من أن يأخذ فى يده سلطة الحكم منفردا ـ أصبح الفريق « أحمد حسن البكر » رئيس المجموعة العسكرية للحزب ـ رئيسا للجمهورية . وبدا نائب الرئيس الجديد « صدام حسين » شخصية غامضة ، فقد كان مستغربا فى ثورة قامت بها عناصر عسكرية من الجيش بالدرجة الأولى ـ أن يبرز مدنى لم يصل بعد إلى الثلاثين من عمره ليصبح الرجل القوى فى بغداد .

ولم يتنبه أحد بالقدر الكافى إلى أن « صدام حسين » كان قد سيطر فى السنوات السابقة على جهاز الحزب ، وتولى مكتب الفلاحين ، ثم تولى مكتب العسكريين فى الحزب ، وأخيرا تولى من هذا المكتب دور حلقة الاتصال مع التنظيمات العسكرية الحزبية فى بقية العالم العربى . وهكذا فإنه عندما وقعت أحداث ١٩٦٨ كان « صدام حسين » فى الموقع الأكثر حساسية وأهمية .

ولم يكن « صدام حسين » فى موقعه الجديد يستقبل سفراء أو مراسلى صحف ، وقليلا ما كان يتحدث علنا . ومن الواضح أنه فى تلك الفترة شغل نفسه بعدة مهام أعطاها أولوية على كل ما عداها ، كانت مهمته الأولى تقوية تنظيم الحزب وإحكام سيطرته على أجهزة الدولة ، وذلك طبيعى من شاب تربى منذ سن السادسة عشرة فى تنظيمات الحزب ، واستوعب مقولة كل الأحزاب العقائدية بأن الاستيلاء على سلطة الدولة والاحتفاظ بها هو السبيل الوحيد أمام هذا الحزب العقائدى لكى يضع للتنفيذ برامجه التى يطرحها على الناس .

ثم كانت المهمة الثانية التى بدأ رجل العراق القوى يركز عليها هى التخطيط ، وكانت لدى العراق موارد البترول الكافية لتمويل خطة تنمية طموحة ، واقترب « صدام حسين » فى تلك الفترة من السياسة الخارجية ، والعلاقات الدولية عن طريق أبواب تتصل فى الواقع بخطة التنمية :

● وجد أن الحرب مع الأكراد فى الشمال تستنفد جزءا كبيرا من جهد العراق وموارده ، وهكذا دخل مع الأكراد فى مفاوضات أدت إلى اتفاق يمنحهم نوعا من الحكم الذاتى جرى توقيعه سنة ١٩٧٠ .

● ثم وجد أن موارد البترول هى عماد الخطة وليس هناك غيرها ، وكانت دعوى تأميم بترول العراق قضية مثارة على أوسع نطاق ، وكانت النقطة الوحيدة الباقية هى القرار بالتأميم ، وتحمل المسئولية الناشئة عن القرار .

● ثم وجد « صدام حسين » أن شاه إيران يستخدم جماعات من الأكراد فى إشعال نار الحرب مرة أخرى ، واختار أن يتجه إلى العمل المباشر فعقد مع شاه إيران « محمد رضا بهلوى » اتفاق شط العرب سنة ١٩٧٥ ليسد أبواب استنزاف العراق من البابين فى

خطوة واحدة : الباب الكردى ، والباب الإيرانى . وفيما عدا هذا لم يبد فى ذلك الوقت دليل على أن السياسات الدولية تشغله بأكثر من القدر الذى ينعكس على الصراع العربى ـ الإسرائيلى ، وهو ما كان يشغل كل فرد فى العالم العربى .

ولم يكن العراق على أى حال دولة مواجهة ساخنة مع اسرائيل ، وإن اعتبر نفسه كذلك بحكم ارتباط شعبه بالقضية الفلسطينية ، ولكن الحقائق الجغرافية والسياسية ، وأهمها عدم وجود خطوط تماس مباشر بين العراق وإسرائيل ، لم تكن تفرض على العراق ما تفرضه خطوط التماس على غيره ـ وكان هذا البعد يعطى للعراق ميزة كبيرة ، فهو قريب من خطوط المواجهة إذا أراد ، ومعزول عنها إذا اختار ، وكان هو الدولة العربية الوحيدة التى شاركت بقوات فى حرب سنة ١٩٤٨ ولم تجد داعيا بعدها لعقد هدنة مع إسرائيل ، كما فعلت مصر وسوريا والأردن . فقد كان يكفى العراق أن يسحب قواته من ميدان القتال ، فإذا هو فى وضع هدنة عملية .. حاصلة وغير موقعة .

وكان العراق يستخدم بعده الجغرافى عن إسرائيل لدعوة طليقة اليد إلى مواجهة معها مطمئنا إلى أن أحدا لا يطوله برد ، كما أن المسئولية واقعة بالدرجة الأولى على دول الخط الأول . وهكذا بدت مواقف العراق نقية من الناحية المبدئية ، وفى نفس الوقت فإن حساب المخاطر كان محدودا . (وكانت واشنطن تتابع) .

ثم اختلفت حسابات المخاطر فجأة سنة ١٩٧٧ عندما توجه الرئيس « أنور السادات » إلى القدس ، وبان وكأن مصر فى طريقها إلى الابتعاد عن العمل العربى بما فيه خطوط المواجهة . كان معنى ابتعاد مصر أن الجبهة الجنوبية أمام إسرائيل سوف تتجمد وتسكن ، وأن المسئولية لابد واقعة على الجبهة الشرقية وحدها .

وكان العراق فى وضع لا خيار فيه . فهو أكبر دولة عربية على الجبهة الشرقية بتعداد سكانه ، وهو أغنى دولة عربية على هذه الجبهة بموارده البترولية ، وهو صاحب أعلى الأصوات فى الدعوة إلى النضال من أجل فلسطين وعروبتها .

وسنة ١٩٧٨ كانت بغداد مقرا لاجتماع القمة العربية الطارئة التى دعى إليها لمواجهة العواقب المترتبة على خروج مصر من الصف العربى وتوقيعها اتفاق صلح منفرد مع إسرائيل . ولم تكن حقائق الجغرافيا قد تغيرت بما يسمح للعراق أن يصبح دولة مواجهة ، ولكن وقائع السياسة تغيرت لتجعل بغداد عاصمة المواجهة . (وكانت واشنطن مازالت تتابع) .

وفى يوليو ١٩٧٩ انتهز الرئيس « أحمد حسن البكر » فرصة ذكرى ثورة ١٩٦٨ وتنازل عن رئاسة الجمهورية لنائبه ، وأصبح « صدام حسين » رئيسا للجمهورية العراقية عند منعطف خطير فى التاريخ العربى .

وفى ٢٢ سبتمبر ١٩٨٠ ـ قامت الحرب بين العراق وإيران . (وكانت واشنطن تتابع أيضا ، ولعل دورها أصبح أكثر من مجرد المتابعة لأن الحرب كانت بالنسبة لها فرصة لا تعوض !)

☐

كان التصور العراقى لمسار الحرب مع إيران متأثرا إلى حد كبير بسوابق حروب جرت من قبل فى المنطقة وخارجها . فالقتال فى العادة يستمر لأسبوعين أو ثلاثة ، أو شهر على أكثر تقدير ، ثم يعقبه قرار من مجلس الأمن بوقف إطلاق النار ، ودعوة الطرفين إلى التفاوض تحت إشراف دولى مناسب لحل أسباب النزاع بينهما .

ولعل ذلك هو السبب فى أن الجيش العراقى ركز قوته ومجهوده فى الاندفاعة الأولى نحو مقاطعة « خوزستان » ، وكان التقدير أنه إذا استطاع الجيش العراقى تحقيق هذه المهمة بسرعة ، وقبل صدور قرار بوقف اطلاق النار ، فإن العراق سوف تكون له اليد العليا فى المفاوضات .

لكن مجلس الأمن تحرك على مهل وببطء شديد على غير عادته عندما تقوم أى حرب فى أى بقعة من العالم ، فضلا عن أن تكون هذه البقعة هى الشرق الأوسط بالذات ، ومناطق البترول فيه بالتحديد .

وراح العراق وغير العراق يتساءلون عن الأسباب الداعية إلى مسلك مخالف تماما لكل ما سبق فى الصراعات المسلحة ، وكانت الإجابات دائما مبهمة تتذرع بالرفض الإيرانى وبالعناد الشخصى لـ « آية الله الخمينى » . وبدأت الوساوس تراود العراق وغير العراق ، فقد ثارت ظنون بأن هناك خطة خفية تقصد إطالة أمد الحرب إلى أقصى حد ممكن . (ولم تكن هذه الظنون بعيدة عن الحقيقة كما أظهرت الوقائع فيما بعد) .

ولم يكن لدى العراق ما يفعله ـ مهما بلغت ظنونه ـ سوى أن يواصل الحرب وأن يحاول كسبها .

☐

ودخل العراق إلى كل أسواق السلاح فى العالم مشتريا ، وتوقف الاتحاد السوفيتى لبعض الوقت عن الوفاء بصفقات عقدها مع العراق ، وبرر توقفه بأن العراق هو الذى بدأ الحرب . وركز العراق على أسواق الغرب ، ولم يكن يشترى السلاح فقط ، وإنما راح يشترى مصانع السلاح . ولم تقتصر مشترياته على السلاح ومصانع السلاح التقليدى ، وإنما خطا خطوة أبعد فى مجالات السلاح المتطور تكنولوجيا .

ولم يكن في هذا كله سر على من يعنيهم الأمر فى دول الغرب الكبرى ، فالسلاح ومصانع السلاح بأنواعه التقليدية وغير التقليدية لا تباع فى الظلام مهما نزلت الستائر . فكل دول الغرب الكبرى لها رقابة محكمة على بيع الأسلحة ومصانعها وتصديرها من أراضيها . فمعظم الشركات الدولية الكبيرة العاملة فى مجال السلاح لا تعمل بعيدا عن دولها ، وإذا لم تكن وزارة الخارجية فى تلك الدول تعرف ، فإن وزارة الدفاع تعرف . وإذا غابت صفقة عن علم وزارة الدفاع ، فإنه من الصعب أن تفوت هذه الصفقة على أجهزة المخابرات فى هذه الدولة . ومن المسلم به أن هناك عمليات تهريب فى سوق السلاح ، لكن هذا التهريب يصعب تصوره فى حالة الصفقات الكبيرة المتصلة بأنظمة من السلاح المتقدم والمتطور كالطائرات والدبابات والمدمرات البحرية والغواصات ، إلى آخره . وإذن فإن دول الغرب الكبرى ، وفى مقدمتها الولايات المتحدة ـ لم تكن غافلة تماما عن مشتريات السلاح العراقية .

ولعل هذه الدول الكبرى فى الغرب لم تكن تمانع كثيرا فى مشتريات السلاح العراقية ، فقد كانت هذه الصفقات إلى جانب فوائدها المالية الغزيرة ـ كفيلة بتحقيق استمرار أمد الحرب .

والغريب أنه بمقدار ما كان العراقيون سعداء بهذه الفرصة لبناء قوتهم العسكرية ، فإن تساؤلاتهم عن طول أمد الحرب و« متى تجيء نهايتها ؟ » و« كيف ؟ » راحت تلح عليهم بشكوك لا تهدأ .

كان نزيف الحرب فى الدم غاليا ، وكان نزيف الحرب فى المال مرهقا .

كل ذلك وميادين القتال تزداد ضراوة ، والأعوام تجيء وتذهب وطاحونة الحرب دائرة .

□

كانت وقائع فضيحة « إيران ـ كونترا » قد تركت تأثيرا عميقا على التفكير الرسمى العراقى . وقد اعتبرت دليلا حاسما على وجود مؤامرة تستهدف العراق تشترك فيها كل من الولايات المتحدة وإسرائيل وبريطانيا . بل ووصل البعض إلى حد اتهام أطراف عربية بالضلوع فى هذه المؤامرة . وقد حدث سنة ١٩٨٦ أن رئيس إحدى الدول (ولا داعي لتسميته الآن لأسباب مختلفة) قام بزيارة للعراق وأسرّ للرئيس « صدام حسين » بأنه سمع **من السفير الأمريكى فى بلاده أن هناك تفاهما بين الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة العربية السعودية والكويت للحيلولة دون انتصار عراقى فى الحرب ضد إيران ، لأن العراق إذا خرج من الحرب منتصرا فإنه سوف يثير فى المنطقة مشاكل لا حدود لها ،**

وأن هؤلاء الأطراف الذين تحدث عنهم السفير الأمريكى إلى رئيس الدولة الذى نقل الرواية ـ مستعدين لكل الاحتمالات حتى وإن أدت إلى تقسيم العراق . وأضاف رئيس الدولة المعنية فى حديثه مع الرئيس « صدام حسين » قوله إنه فى زيارة له للسعودية أثار الرواية مع الملك « فهد » ، وأن الملك « فهد » نفاها له بشدة .

ويبدو أن الرواية بأكملها شغلت الرئيس « صدام حسين » الذى رأى أن يقطع الشك باليقين ، فأرسل مبعوثا خاصا لمقابلة الملك « فهد » وليروى له ما حدث . وكان الملك « فهد » مرة أخرى قاطعا فى نفيه للرواية برمتها ، ثم أضاف إلى النفى نصيحته للعراق بأن يحاول الدخول مع واشنطن فى حوار مباشر لإزالة شكوك متبادلة يراها تتراكم فى الأجواء بين البلدين (يقصد العراق والولايات المتحدة الامريكية) ولا يرى مصلحة فيها لطرف . وأضاف الملك إنه « أما وقد انتهت الحرب العراقية الإيرانية وكانت نهايتها بانتصار العراق ، فإن الفرصة ملائمة للعراق ليعيد بناء نفسه ويسترد عافيته فى جو من الهدوء والصفاء .»

٢

وفى أكتوبر ١٩٨٩ توجه السيد « طارق عزيز » نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية العراقى ـ إلى واشنطن والتقى مع « جيمس بيكر » وزير الخارجية الأمريكى ، ثم التقى والرئيس « جورج بوش » نفسه ، ودار حوار صريح بين الطرفين . ويبدو أن الزيارة كانت ناجحة ، فإن الرئيس الأمريكى بعدها أصدر توجيها داخليا يطلب فيه إلى إدارته أن تحرص على تنمية علاقات طبيعية مع العراق ، قائلا فيه : « إن ذلك قد يساعد على تحقيق الاستقرار فى الشرق الأوسط » . ثم عاد الرئيس « بوش » بعد ذلك فأصدر أمرا رئاسيا فى ١٦ يناير ١٩٩٠ جاء فيه « إن زيادة حجم التجارة مع العراق يمكن أن تكون مفيدة للمصالح الأمريكية » . وكان « بوش » محقا ، ففى تلك الفترة من أواخر سنة ١٩٨٩ وأوائل سنة ١٩٩٠ كانت الشركات الأمريكية قد حصلت على عقود مغرية فى العراق ، بما فى ذلك أن واحدة من أكبر شركات المقاولات الأمريكية وهى شركة « بكتيل » حصلت على عقود فى العراق تصل قيمتها إلى حوالى ١٢٠٠ مليون دولار . وبدا أن العراق من جانبه يحاول أن يساعد توجهات بناءة تصور أنه لمح بوادرها فى واشنطن ، وأراد أن يدعمها بعقود مغرية للشركات الأمريكية .

وأكثر من ذلك ، فإن العراق فى أكتوبر ١٩٨٩ خطا من جانبه خطوات اعتبرت ايجابية فى تقدير السياسة الأمريكية . فقد أوقف معوناته العسكرية للواء « ميشيل عون » فى لبنان ، واشترك فى مؤتمرين لنزع السلاح فى جنيف ، أحدهما مخصص لنزع الأسلحة الكيماوية حضره العراق كمراقب . كذلك اتخذ العراق موقفا بدا مرنا فى محاولات الوصول إلى تسوية للصراع العربى الإسرائيلى ـ إذ أعلن أنه يترك لدول المواجهة مثل مصر والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية ـ حرية الحركة فى هذه المحاولات .

ولم يقدر لشهر العسل المنتظر أن يدوم طويلا ، ذلك لأن هناك عناصر كثيرة فى الولايات المتحدة لها أغراض متباينة ، ولها سياسات مختلفة ، وهى قادرة ـ سواء فى الكونجرس أو فى وسائل الإعلام ـ على التأثير فى توجهات الرأى العام ، وفى مجريات الحوادث . ويبدو على نحو أو آخر أن هناك جهات نافذة فى الولايات المتحدة يناسبها على نحو ما أن تبحث عن « وحش أسود » فى الشرق الأوسط تركز عليه حملاتها بحق أو بغير حق .

كانت الحملات فى يوم من الأيام مركزة على « آية الله الخمينى » ، ثم انتقل التركيز إلى العقيد « معمر القذافى » ، ثم انتقل مرة ثالثة إلى الرئيس « حافظ الأسد » . وطوال الوقت كان « ياسر عرفات » هدفا مستباحا ، بل إن الحملات وصلت إلى الملك « فهد » نفسه الذى تقصدته الصحافة الأمريكية لفترة من مطلع الثمانينات . وزادت الحملات إلى درجة جعلت الملك « فهد » يستدعى الأمير « بندر بن سلطان » سفير السعودية فى واشنطن ، وهو يملك شبكة علاقات اجتماعية واسعة فى واشنطن ، ويطلب منه التعاقد مع إحدى مؤسسات العلاقات العامة لكى تقوم بحملة لحسابه تحسن فيها صورته أمام الرأى العام الأمريكى .

وفى الشهور الأولى من سنة ١٩٩٠ كان التركيز كله فى وسائل الإعلام الأمريكية المختلفة على الرئيس « صدام حسين » ، وراحت الأجواء تتلبد ، وراح الملك « فهد » والرئيس « مبارك » والملك « حسين » ، كل منهم بدوره يحاول تلطيف الأجواء فى واشنطن .

وكانت إسرائيل طوال الوقت على الخط ، وتركيزها بالدرجة الأولى على القوة العسكرية العراقية التى خرج بها العراق بعد انتصاره فى الحرب مع إيران .

□

فى الشهور الأولى من سنة ١٩٩٠ بدا أن حرب الكلمات قد تحولت إلى حرب أعصاب ، وأن حرب الأعصاب قد تتحول إلى حرب كراهية ، وأن حرب الكراهية يمكن أن تؤدى إلى حرب دم ، وكانت التعقيدات تتلاحق يوما بعد يوم تقريبا :

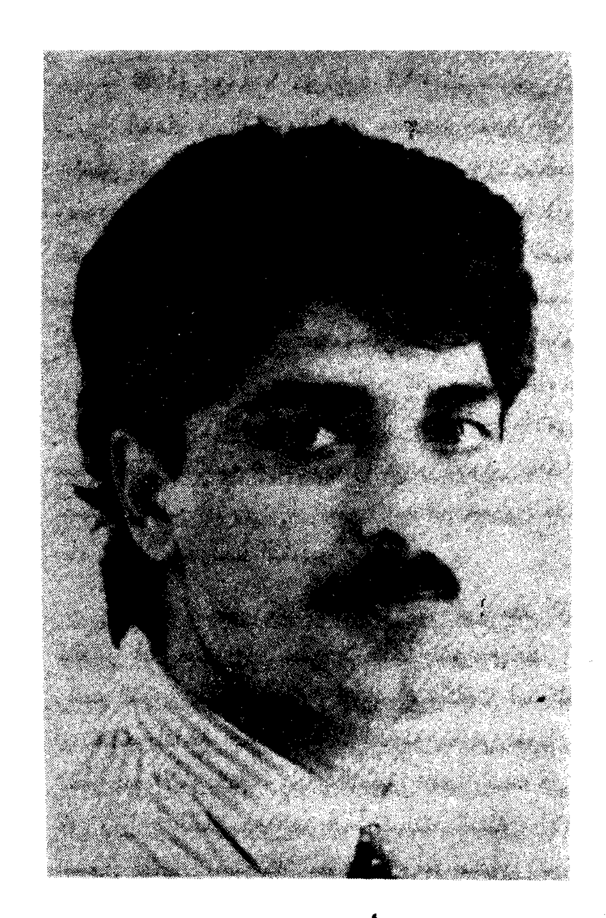
● **في يوم ١١ فبراير ١٩٩٠** قام « جون كيللى » مساعد وزير الخارجية الأمريكية بزيارة لبغداد ، والتقى بالرئيس « صدام حسين » ، وجرى استعراض لمسار العلاقات بين البلدين تميز ـ طبقا لمحضره ـ بروح من المصالحة . فقد لاحظ الرئيس « صدام حسين » وجود حملات منظمة توجه ضد العراق وقيادته . وحاول « جون كيللى » أن يشرح طبيعة الحياة السياسية فى بلد مفتوح مثل الولايات المتحدة ، وأبدى الرئيس « صدام حسين » تفهما ، ولكنه نبه إلى أن الحملات زادت عن الحد وأنها تركز على جهود يبذلها العراق للتطور التكنولوجى . وعندما قاربت المقابلة نهايتها قال « جون كيللى » للرئيس العراقى « إنه حرصا على روح المصالحة التى سادت لقاءهما ، يريد أن يلفت نظر الرئيس إلى أن التقرير السنوى الذى تصدره وزارة الخارجية الأمريكية عن حالة حقوق الإنسان فى العالم سوف ينشر الأسبوع القادم ، والتقرير يحوى انتقادا للعراق ، وهو يرجو أن يتقبله الرئيس بصدر رحب » . ورد الرئيس « صدام حسين » قائلا : « نحن لا نغضب من النقد إذا كان بناء ، ولا يستهدف التشهير » .(٢)

وأراد « جون كيللى » فيما يبدو من هذه الملاحظة أن يهيىء ذهن القيادة العراقية للتقرير قبل صدوره ، حتى لا تفاجأ بنشره وتعتبره جزءا من الحملة ضدها فى واشنطن . وأذيع التقرير فعلا يوم ١٥ فبراير ، وكانت المشكلة أن إذاعة صوت أمريكا باللغة العربية لم تكتف بإذاعة التقرير وإنما أعقبته بتعليق طويل قدمت له بأنه يمثل وجهة نظر وزارة الخارجية الأمريكية ، وكان التعليق قاسيا وحادا فى لهجته . ولم تقف الأمور عند هذا الحد لأن وزارة الخارجية العراقية اتصلت بالسفارة الأمريكية فى بغداد تقول لها ما مؤداه أن صدور التقرير نفسه كان متوقعا ، وأما صدور تعليق عن وزارة الخارجية بهذه اللهجة فإنه مخالف لروح المصالحة التى سادت الاجتماع بين الرئيس « صدام حسين » ومساعد وزير الخارجية ، بل وهو متناقض أيضا مع فكرة التحذير المبكر الذى قدمه « جون كيللى » . وردت السفارة الأمريكية فى بغداد فى اليوم التالى قائلة ما مؤداه أنها مكلفة بالاعتذار عن لهجة التعليق المعبرْ عن وزارة الخارجية ، و« الحقيقة أن الخطأ حدث لأن هذا التعليق كان معدا للإذاعة بلغات أخرى غير اللغة العربية ، وقد أخطأت إذاعة صوت أمريكا العربية بإذاعته » . وعندما نقل هذا التفسير إلى الرئيس « صدام حسين » ، كان تعليقه أنه لا يفهم من هذا التفسير إلا « أن المسألة سياسة ذات وجهين » .

● **وفى يوم ١٧ فبراير** كان هناك اجتماع لوزراء خارجية دول مجلس التعاون العربى فى بغداد ، واستقبل الرئيس « صدام حسين » وزراء الخارجية الأربعة لدول مجلس

---

(٢) تقرير مساعد وزير الخارجية الأمريكية كما عرضه أمام لجنة العلاقات الخارجية فى الكونجرس فى ابريل ١٩٩٠ .



فـارزاد بــــازوفت اتهمـــه العـــراق بالتجسس

التعاون ، وانتهز الفرصة فيما يظهر ليرد على التعليق الأمريكى بصدد حقوق الإنسان ، واختار أن يركز على التواجد العسكرى البحرى المتزايد فى الخليج قائلا « **إنه كان مستعدا لفهم أسباب هذا التواجد أثناء معارك الحرب العراقية الإيرانية ، وأما بعد انتهاء هذه الحرب وزوال الأخطار عن الملاحة فى الخليج فإن استمرار الأساطيل الأمريكية فى مياهه ، وزيادة هذه الأساطيل لا تعنى إلا أنها تهديد بالقوة ماثل قرب « شواطئنا » .** »

● **وفى يوم ١٩ فبراير** أعلنت واشنطن أنها ألقت القبض على مواطن عراقى فى كاليفورنيا متهم بالشروع فى قتل ، وكان المستهدف بالمحاولة مواطن عراقى آخر لاجىء فى الولايات المتحدة . ثم أعلنت واشنطن أن المتهم كان على صلة بالبعثة العراقية الدبلوماسية لدى الأمم المتحدة ، وبناء عليه أصدرت أمرا بطرد أحد الدبلوماسيين العراقيين من نيويورك . وردت بغداد فى نفس اليوم بطرد دبلوماسى أمريكى من سفارة الولايات المتحدة فى بغداد .

● **وفى يوم ٢٠ فبراير** أعلنت إسرائيل أنها أكتشفت وجود وحدات عسكرية عراقية في الأردن ، وأضافت للإعلان أنها لا تنوى السكوت على أى تواجد عراقى عسكرى فى الأردن .

وفى هذا الوقت قامت طائرات أمريكية بالاستطلاع فى الأجواء العالية فى المنطقة ، ثم أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية أنها أكتشفت وجود ستة قواعد صواريخ عراقية قرب قاعدة « هـ ٢ » الجوية الأردنية . وانتهزت إسرائيل فرصة الإعلان الأمريكى وكثفت حملتها .

وكان الكونجرس فى حالة فوران شديد ، وإذا مجلس الشيوخ الأمريكى يقر فى جلسة لم تستغرق أكثر من ساعتين ـ بوقف مبيعات القمح الأمريكى إلى العراق . وتصورت بغداد لعدة أيام أن القرار دعائى أكثر مما هو واقعى ، ثم فوجئت بتوقف شحنات القمح لأن الحكومة الأمريكية لا تستطيع أن تخالف قانونا أقره الكونجرس .

● **وفى يوم ٩ مارس** ألقت السلطات العراقية القبض على صحفى إيرانى يحمل جواز سفر بريطانيا ، ويعمل مراسلا لجريدة « الأوبزرفر » ، واسمه « فارزاد بازوفت » . وقد قبض عليه بعد أن قام بزيارة بدت مريبة دخل فيها منطقة عسكرية محظورة ، والراجح أنها كانت تضم مجمعا لصناعة الصواريخ . واتهمته السلطات العراقية بالتجسس ، وقدمته للمحاكمة ، وأذاعت على التليفزيون اعترافا كاملا بصورته وبصوته . وقامت القيامة فى الصحافة البريطانية وفى الصحافة الأمريكية وراءها تدافع عن « بازوفت » ، وتتهم العراق بتلفيق التهمة له . والواقع أن شخصية « بازوفت » كانت مريبة ، فقد خرجت أسرته من إيران بعد الثورة الإسلامية ، وقصدت إلى لندن ، وبعد سنتين اثنتين من وصولها قبض على « بازوفت » وعمره فى ذلك الوقت ٢٤ سنة ، واتهم بالاشتراك فى سرقة بنك ، وحكم عليه بالسجن سنتين . ثم خرج ، ولم تمض غير سنوات قليلة إلا وقد أصبح حاملا لجواز سفر بريطانى ، ومراسلا لصحيفة « الأوبزرفر » .

وجرت محاولات واسعة فى الغرب للضغط على العراق للافراج عنه ، لكن الحكم صدر عليه بالاعدام ، ونفذ فيه بالشنق فعلا يوم ١٥ مارس .

وتصاعدت حدة الحملات فى الغرب كله ضد العراق ، وأطلقت صحيفة « الأوبزرفر » على الرئيس « صدام حسين » وصف « **جزار بغداد** » . ورد العراق بحملات من نفس النوع .

● **وفى يوم ٢٢ مارس** اغتيل فى بروكسل الدكتور « جيرالد بول » وهو خبير فى صنع مدافع ضخمة ، وكانت الاشاعات تحوم حول « جيرالد بول » تتهمه بأنه قدم للعراق

تصميمات مدفع عملاق أشرف بنفسه على تصنيع أجزاء منه فى بريطانيا تحت دعوى أن ما يجرى تصنيعه هو مواسير ضخمة من الصلب يحتاجها أحد مشروعات البترول العراقية . وقد كان أول تعليق لأفراد أسرة الدكتور « بول » هو قولهم إن « الموساد » (المخابرات الاسرائيلية) هى التى قتلته ، وأنه تلقى تهديدات بقتله قبل شهور ، وأطلع أسرته عليها ، وقال لهم إن « الموساد » وراءه .

وعلت الحملة على العراق الذى يستخدم العلماء الغربيين فى صنع مدافع عملاقة ، وفى تطوير نظم صواريخ لأنه يعد لحرب مع إسرائيل ، ولم يتحدث أحد عن الارهاب الذى راح ضحيته واحد من أشهر علماء الغرب .

● **وفى يوم ٢٧ مارس** كان الرئيس « صدام حسين » قد قلم بزيارة استغرقت ساعات لمنطقة « حفر الباطن » فى السعودية حيث قابل فيها الملك « فهد » أثناء رحلة صيد كان الملك يقوم بها هناك . وكان لدى الرئيس « صدام حسين » شكوى من الكويت ، لأن الكويت زادت انتاجها من البترول عن الحصة المقررة لها طبقا لقرارات « الأوبك » ، وهذا يؤدى إلى خفض أسعار البترول ، وبالتالى يؤثر على اقتصاديات العراق فى وقت يتعرض فيه لضغوط من كل جانب . وكان رأى الملك « فهد » : « إن الإخوان فى الكويت يضرون حتى بمصالح السعودية بانتاجهم الزائد عن حصتهم ، ولكنه على اتصال بهم ، وسوف يحاول اقناعهم بالالتزام بحصة الأوبك . »

وتطرق الرئيس « صدام حسين » بعد ذلك إلى الموقف الأمريكى من العراق ، وأبدى شكوكه فى أن الولايات المتحدة تضمر شرا للعراق . وكان تعليق الملك « فهد » : « إنه يعرف الرئيس « جورج بوش » شخصيا ، ويعرف أنه « رجل طيب » ، ثم إن الرئيس « بوش » يزهو الآن بانتصار الولايات المتحدة فى معركتها العقائدية والاستراتيجية ضد الاتحاد السوفيتى الذى انهار ، وهو فى هذا الوضع آخر من يرغب فى تحويل الأنظار عن انتصاره فى أوروبا إلى جهة أخرى فى الشرق الأوسط . »

● **وفى يوم ٢٨ مارس** أعلنت السلطات البريطانية أنها عثرت على شحنات من أجهزة « الكريترون » التى تستخدم فى التفجيرات النووية . ثم أعلنت هذه السلطات أن هذه الشحنات كانت متجهة للعراق ، وأنها قامت بمصادرتها . وفى نفس اليوم وقف الرئيس « صدام حسين » فى اجتماع علنى ، وقد وضع أمامه على المنصة مجموعة من أجهزة « الكريترون » ـ قائلا « إنها أجهزة بريئة تستعمل فى بعض الصناعات البتروكيماوية ، وأن العراق ينتجها فعلا ، ولا يحتاج أن يستوردها من الخارج » ـ مضيفا لهذا قوله « إن القصة كلها ملفقة بتنسيق بين مكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى (F.B.I.) وإدارة المخابرات البريطانية ، وأن الهدف منها هو التشهير بالعراق . »

● **وفى يوم ٢٩ مارس** أعلنت السلطات البريطانية أنها عثرت على قطعة من مواسير المدفع العملاق الذى تتردد الأقاويل من حوله وأنها صادرتها ، وأنها تحذر العراق من التورط فى مغامرات من هذا النوع .

● **وفى يوم ٣٠ مارس** أعلن الجنرال « اوهود باراك » رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى الجديد ـ « أن إسرائيل لابد أن تكون جاهزة لضربة وقائية ضد العراق فى أى وقت تشعر فيه أن قوته خطر عليها » . ثم تبعه « اسحاق شامير » رئيس وزراء إسرائيل إلى ساحة التهديد بقوله : « إن إسرائيل سوف تهاجم العراق إذا أحست أنه اقترب من انتاج أسلحة نووية » .

● **وفى يوم أول ابريل** رد الرئيس « صدام حسين » بخطابه المشهور الذى قال فيه « إننا سنرد على إسرائيل إذا استعملت ضدنا أسلحة نووية » . ثم أقسم بعد ذلك فى خطابه أنه « إذا تعرض العراق لهجوم نووى إسرائيلى ، فإنه سوف يستعمل أسلحة متطورة تحرق بالنار نصف إسرائيل » .

وتصاعدت حدة الموقف بطريقة تثير القلق عندما أطلقت إسرائيل فى يوم ٣ ابريل قمرا صناعيا للتجسس العسكرى أطلق عليه اسم « أوفوك » (وهى كلمة عبرية تعنى أفق) .

واتصل الملك « فهد » بالرئيس « صدام حسين » مبديا خشيته من تصاعد حدة الحملات والحملات المضادة على هذا النحو ، وأثناء الحديث بينهما اقترح الملك « فهد » على الرئيس « صدام حسين » أن يبعث برسائل تطمين إلى كل من الرئيس « بوش » والسيدة « مارجريت تاتشر » رئيسة وزراء بريطانيا . ووافق الرئيس « صدام حسين » واقترح على الملك أن يرسل إليه الأمير « بندر » سفير المملكة العربية السعودية فى الولايات المتحدة ليكون رسوله إلى « بوش » و« تاتشر » . وبالفعل وصل الأمير « بندر » يوم ٥ ابريل إلى مدينة « سرسنك » فى الموصل حيث كان الرئيس « صدام حسين » هناك ، واجتمع به ودار بينهما حديث طويل .

وفى نفس الوقت كان هناك آخرون فى العالم العربى يحاولون تهدئة الأمور والإمساك بزمامها قبل أن يفلت . وفى ذلك الوقت قام الرئيس « حسنى مبارك » باتصال مع الرئيس « بوش » لطمأنته إلى أن الرئيس « صدام حسين » رجل سلام . كذلك بعث الرئيس « مبارك » بنفس الرسالة إلى إسرائيل طالبا عدم تصعيد الموقف لأن الأمور على هذا النحو سوف تؤدى إلى عواقب خطيرة . ثم وجد الرئيس « مبارك » أن الأمر يقتضى علاجا أوسع ، وفى ٨ ابريل أعاد تأكيد اقتراح مصرى مطروح منذ سنوات بجعل الشرق الأوسط منطقة خالية من الأسلحة النووية .

٣

فى ذلك الوقت من شهر ابريل ١٩٩٠ زار القاهرة وفد من أعضاء الكونجرس يرأسه السناتور « روبرت دول » زعيم الأعضاء الجمهوريين فى مجلس الشيوخ . والتقى الوفد مع الرئيس « حسنى مبارك » ، وكان الموضوع الذى ركز عليه أعضاء الوفد جميعا ، بما فيهم « روبرت دول » نفسه - هو القلق من برنامج التسليح العراقى ، وبالذات فى المجال غير التقليدى . وتحدث الرئيس « حسنى مبارك » طويلا فى هذا الموضوع شارحا أن هناك مبالغات مقصودة فيه من بعض الأطراف ، كما أن القادة السياسيين للولايات المتحدة لا يبذلون جهدا للتعرف مباشرة على وجهة نظر العراق ، وأن اتصالاتهم المباشرة مع بغداد قليلة . ثم توقف لحظة وقال موجها كلامه مباشرة لـ « روبرت دول » : « لقد خطر لى الآن ونحن نتحدث أن أقترح عليكم جميعا (وأشار إلى باقى أعضاء الوفد) أن تتوجهوا إلى بغداد ، وأن تقابلوا الرئيس « صدام حسين » شخصيا ، وأن تتحدثوا معه فى كل ما تشاءون » . وأبدى السناتور « دول » ملاحظة مؤداها « أن زيارة بغداد لم تكن ضمن برنامج الوفد » . ورد الرئيس « مبارك » بأن « القضية كبيرة ، وعلى أى حال فإنكم تستطيعون أن تذهبوا وتجيئوا فى ساعات » . وفكر السناتور « دول » ثم قال للرئيس « مبارك » ما مؤداه « إنه يحتاج أن يتشاور مع زملائه فى الوفد فى الاقتراح ، وحتى إذا استقر رأيهم على قبوله ، فهو يرى من الأنسب ألا يقوم به إلا بعد استطلاع رأى الرئيس « بوش » ، فهو لا يريد أن تتقاطع الخطوط . » - وقال الرئيس « مبارك » إنه « سوف يحاول من جانبه أن يستطلع رأى الرئيس « صدام حسين » ليعرف مدى استعداده لاستقبال الوفد فى ظرف ساعات ، فقد تكون لديه ارتباطات لا يستطيع تأجيلها . » وأضاف الرئيس « مبارك » : « إنه واثق أن ذلك هو السبب الوحيد الذى يمكن أن يمنع الرئيس « صدام » من مقابلة الوفد لأنه من الأساس يعرف مبلغ حرصه على تخفيف حدة التوتر فى علاقاته مع الولايات المتحدة الأمريكية . »

وهكذا تم الاتفاق على أن يتوجه وفد الكونجرس مع السفير الأمريكى فى القاهرة وقتها « فرانك ويزنر » إلى السفارة الأمريكية ، وهناك يتصلون عن طريق تليفون مأمون بالرئيس « بوش » فى البيت الأبيض ، ويتشاورون معه ، ثم يكون على السفير « فرانك ويزنر » أن يبلغ قرارهم النهائى إلى الرئيس « مبارك » ، ويكون هو (الرئيس « مبارك ») قد علم من الرئيس « صدام حسين » بإمكانية لقائه مع الوفد .

واتصل الرئيس « مبارك » بالرئيس « صدام » الذى كان مازال فى الموصل ، وأبلغه

بمجمل حواره مع الشيوخ والنواب الأمريكيين ، مضيفا « إنه يرى اللقاء مفيدا لأن الكونجرس عنصر رئيسى مؤثر فى صنع القرار الأمريكى » . ووافق الرئيس « صدام » على الفور قائلا « إنه سينتظر إبلاغه بالموعد الذى يستطيع فيه الوفد أن يطير إلى « سرسنك » مباشرة من القاهرة . »

□

وفى تلك الأثناء كان الوفد فى طريقة للسفارة الأمريكية للاتصال بالرئيس « بوش » ، وأثناء الطريق إلى السفارة كان أعضاء الوفد يناقشون اقتراح اللقاء مع الرئيس « صدام حسين » ، وكان رأى بعض أعضائه أن الوفد إذا ذهب إلى مقابلة الرئيس « صدام حسين » ـ فإنه يجب أن يكون فى وضع يجعل رأيه معروفا مسبقا بحيث لا تجره المناقشات بعيدا . ودارت مناقشة حول الوسيلة التى يستطيع بها الوفد أن يحقق ذلك ، واستُبعد على الفور اقتراح بإعلان بيان صحفى من الوفد قبل المقابلة لأن ذلك قد يؤدى إلى نسفها . ثم اقترح السناتور « دول » أن يكون تسجيل رأى الوفد المسبق عن طريق خطاب مكتوب يقدمه أعضاء الوفد إلى الرئيس « صدام حسين » فور بدء المقابلة . وبالفعل فإن السناتور « دول » كتب مشروعا لهذا الخطاب وافق عليه الوفد ، ثم تولى السفير « فرانك ويزنر » طلب مستشار الأمن القومى الجنرال « برنت سكوكروفت » وأبلغه بما حدث . ورد عليه « سكوكروفت » بأنه سيذهب الآن لمكتب الرئيس ، وسيطلب إلى مكتب الاتصالات بالبيت الأبيض أن يحول المكالمة هناك حتى يستطيع السناتور « دول » أن يتحدث للرئيس « بوش » . وجرى ذلك بالفعل ، وراح السناتور « دول » يشرح للرئيس « بوش » تفاصيل حوار وفد الكونجرس مع الرئيس « مبارك » ، ثم مداولات الوفد بشأن بيان مسبق يعلن به وفد الكونجرس موقفه ويسجله منعا لأى التباس . ولم يكن لدى الرئيس « بوش » اعتراض ، وقد طلب من السناتور « دول » أن يقرأ عليه نص الخطاب الذى أعده ليسلمه للرئيس « صدام حسين » فى بداية المقابلة . وقرأه السناتور « دول » على التليفون ، وكان الرئيس « بوش » يسمع باهتمام ، وكانت له ملاحظة على إحدى العبارات ، ثم استدرك قائلا للسناتور « دول » : « بوب (اختصارا لاسم « روبرت ») إننى أريدك أن تعيد قراءة هذا النص مرة أخرى لبرن (اختصارا لاسم « برنت سكوكروفت ») » . وعاد السناتور « دول » يقرأ نص الخطاب ، وكان نص الخطاب كما يلى :

● **عزيزنا الرئيس صدام حسين**

رئيس الجمهورية العراقية

إننا نقدر استعدادكم لاستقبالنا خلال شهر رمضان (المقدس) وخاصة بهذه السرعة . ولقد أتينا إلى بغداد وفدا من الكونجرس يمثل الحزبين السياسيين

الرئيسيين فى الولايات المتحدة ، وذلك تعبيرا عن اقتناعنا بأن العراق يقوم بدور أساسى فى الشرق الأوسط . إننا نرغب فى أن يتحقق تحسن طيب فى العلاقات الثنائية بين بلدينا .. وقد اتضح لنا أننا لن نستطيع تحقيق هذه الرغبة وحل الخلافات الخطيرة القائمة بيننا إذا نحن لم نتحدث إليكم بوضوح ، وأخفقنا فى استغلال هذه الفرصة السانحة لنا للتحدث إليكم مباشرة بوضوح وصراحة .

وانطلاقا من هذا ، فإننا نعتقد أنه من أهم الأمور أن نعبر لكم مباشرة عن قلقنا العميق والشديد إزاء سياسات ونشاطات تقوم بها حكومتكم ، ونعتقد من جانبنا أنها تمثل مانعا يعوق قيام علاقات متطورة بين بلدينا .

إننا نعرف أن بلدكم خرج للتو من حرب طويلة وباهظة التكاليف ، وقد تركت هذه الحرب عندكم قلقا عميقا بشأن أمن بلادكم ـ لكننا لا نكون مبالغين إذا قلنا لكم أننا نخشى أن مساعيكم لتطوير قدرات نووية وكيماوية وبيولوجية تعرض أمن بلادكم لخطر جدى بدلا من أن تعزز هذا الأمن ، كما أنها تهدد دولا أخرى فى المنطقة وتثير اضطرابا خطيرا فى كل أنحاء الشرق الأوسط . إن تصريحاتكم الأخيرة التى هددتم فيها باستخدام الأسلحة الكيماوية ضد إسرائيل قد أحدثت قلقا كبيرا لدى كل دول العالم ، ومن مصلحتكم ومصلحة السلام فى الشرق الأوسط أن تعيدوا النظر فى هذه البرامج الخطيرة ، وتكفوا عن الاستمرار فيها ، وكذلك أن تكفوا عن التصريحات الاستفزازية . إننا نريد أن نعرب عن جزعنا بشأن النشاطات الإرهابية التى أدت إلى طرد أحد أفراد بعثتكم الدبلوماسية فى الأمم المتحدة متهما بالتورط فى مؤامرة قتل ، وإننا نود القول بأنه إذا ما أريد لعلاقات بلدينا أن تتحسن ، فإن نشاطات من هذا النوع يجب ألا تتكرر ثانية .

وفي النهاية فإننا نحثكم يا سيادة الرئيس أن يكون لكم إسهامكم النشيط والبناء فى عملية السلام الجارية الآن بين مصر وإسرائيل وممثلين عن الشعب الفلسطينى برعاية حكومة الولايات المتحدة .

سيادة الرئيس

إننا نشكركم مرة أخرى لاستقبالكم لنا اليوم ، ونتطلع إلى تبادل حر للآراء والأفكار فى اللقاء .

(إمضاءات)
سناتور دول ـ سناتور سيمون ـ سناتور ماكلور ـ
سناتور متبيرت ـ سناتور ميتزن بوم ●

وطلب « سكوكروفت » من السناتور « دول » أن ينتظر لحظة على التليفون ، ويبدو أنه أرادها فرصة لتشاور سريع مع الرئيس « بوش » الذى تناول سماعة التليفون بعدها قائلا

للسناتور « دول » إنه « يوافق ويتمنى للوفد رحلة موفقة » . ثم طلب أن يتحدث إلى كل عضو من أعضاء الوفد ، ويسمع منه تعليقه ، وتم له ما أراد .

وسافر الوفد بطائرته الخاصة من القاهرة إلى « سرسنك » . وكان فى استقباله السيد « طارق عزيز » نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية . وفى الطريق من المطار إلى قصر الضيافة الذى تقرر أن يجرى فيه لقاء الوفد مع الرئيس « صدام حسين » ، أثار السناتور « دول » مع السيد « طارق عزيز » رغبة الوفد فى تحسين العلاقات بين البلدين ، وأشار إلى أن ذلك هو الدافع الحقيقى الذى جعل الوفد يقبل اقتراح الرئيس « مبارك » . ثم أخرج من جيبه تقريرين صحفيين : أولهما منقول من محطة تليفزيون « إن . بى . سى . » ، وهو يدور حول نشاط العراق فى مجال تطوير الأسلحة البيولوجية ، والتقرير الثانى يحوى ملخصا لما نقلته بعض وكالات الأنباء عن اقتراحات قدمت إلى الكونجرس بفرض عقوبات على العراق إذا لم يتوقف عن برامج صنع أسلحة متطورة . وكان تعليق « طارق عزيز » هو أن الوفد سيسمع كل شيء من الرئيس « صدام حسين » عندما يلقاه . وكانت السيارات قد وصلت فعلا إلى مدخل قصر الضيافة .

وبدأت وقائع اللقاء . دخل الرئيس « صدام حسين » يصافح أعضاء الوفد مرحبا بهم فى العراق ، ثم بدأ السناتور « دول » على الفور فسلم الرئيس « صدام حسين » نسخة من الخطاب الذى كتبه ، ثم أخرج فى نفس الوقت ترجمة عربية له جرى إعدادها على الأرجح بواسطة السفارة الأمريكية بالقاهرة ـ وناولها للمترجم العراقى الذى كان حاضرا لترجمة الحديث بين الوفد الأمريكى والرئيس العراقى ـ طالبا منه أن يقرأها لكى تسجل بنصها فى محضر الجلسة ، وقرأها المترجم ، وكان الرئيس « صدام حسين » يستمع صامتا .

وعندما إنتهى المترجم من قراءة نص الرسالة أحس السناتور « دول » أنه مطالب بنوع من الشرح لمهمة الوفد ، فراح يروى للرئيس « صدام حسين » تفاصيل لقائهم بالرئيس « مبارك » ، واتصالاتهم بالرئيس « بوش » وبمستشاره لشئون الأمن القومى « سكوكروفت » ، ثم قال « إن الرئيس « بوش » يعلق أهمية كبيرة على هذه الزيارة ، وقد أبدى ارتياحه لقيامنا بها . » ثم تدخل السناتور « ماكلور » فى الحديث قائلا للرئيس « صدام حسين » : « إننا نحن الخمسة أعضاء بارزون فى الكونجرس ، وإذا جمعنا خبراتنا نحن الخمسة فى الكونجرس فسنجد أنها تصل إلى ٧٥ سنة خبرة . خبراتنا طويلة ونحن نريد أن نوظفها فى خدمة هذه الزيارة . إن الرئيس « بوش » قال لنا حين تحدث إلينا أمس إنه يريد تحسين علاقتنا مع بلادكم ومع حكومتكم ، ولكن هناك أسبابا خطيرة تدعونا إلى القلق ، وربما تكون لكم أيضا أسبابكم فى القلق ، وعلى أى حال فإننا جئنا هنا بدون أى أحكام مسبقة ، ونريد أن نسمع منكم . »

وبدأ الرئيس « صدام حسين » يتكلم ، فقال طبقا لمحضر الجلسة :

« أنا مسرور من قولكم بأنكم لم تأتوا بأفكار مسبقة تمنعنا من التفاعل مع الحقائق كما هى » .

ثم استطرد الرئيس « صدام حسين » إلى مقدمة عن أهمية الفهم المتبادل بين أطراف مختلفين حتى وإن تفاوتت أحجامهم . ثم وصل ليقول : « أنا أشكركم لهذه الصراحة التى وردت على لسانكم ، وأعتبر أن الصراحة مفتاح للمستقبل القائم على وضوح كاف ، وأقول لكم إننا لا نزعل من الصراحة لأن الصراحة تقدم لنا خدمة فى ميدانين على الأقل : تدلنا عندما نخطىء ، وتدلنا عندما نصيب . واعتقادى أن العراقيين السياسيين والأمريكان السياسيين بحاجة لأن يتعرف بعضهم على بعض فى جوانب أساسية من الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية ، لأن هذا التعرف لا غنى عنه كخلفية لاستنتاجات صحيحة . إذن مثلما أنتم قلقون من أخبار تصلكم عن العراق وسياسات تنتقدونها ـ نحن أيضا قلقون من أخبار تصلنا عن الولايات المتحدة الأمريكية وسياسات تنتهجونها . »

ثم مضى الرئيس « صدام حسين » يقول « إن بعض الغربيين يخلط أحيانا فيتصور أن أيا من العرب عندما يتحدث عن الأمة العربية وكأنه يبحث عن الزعامة للأمة العربية . ومع أننا لا نجد إنسانيا وديمقراطيا أن مثل هذا الباب ينبغى أن يوصد ، فإننا نود أن نوضح أننا نعتقد أن أى ضعف فى أى حالة عربية كوننا أمة واحدة ، سينعكس سلبيا على الأقطار الأخرى . »

واستطرد الرئيس « صدام حسين » فى شرح لحقيقة وحدة الأمة العربية ، ثم دار حوار بينه ، وبين السناتور « دول » مباشرة ، وطبقا لمحضر الاجتماع فإن بعض المواقف فى الحوار لمست كثيرا من القضايا الحساسة .

فقد قال الرئيس « صدام » : « نحن نعرف أن هناك حملة واسعة تؤجه ضدنا فى أمريكا ، وفى دول أوروبا . »

ورد السناتور « دول » قائلا : « ليس من الرئيس بوش ، هو قال لنا ذلك أمس . »

وقال الرئيس « صدام » : « نحن لم نطلب من العرب أن يشنوا حملة مقابلة ، وكان يمكن أن نفعل ذلك لكن الناس فى كل مكان وقفوا ضد سياساتكم ، ألا تسألون أنفسكم لماذا ؟ ـ ألا تقولون أنكم تحترمون حرية الشعوب ؟ »

ورد السناتور « دول » : « هى فعلا قضية أساسية بالنسبة لنا » .

وتساءل الرئيس « صدام » : « ألا ينبئكم هذا بضرورة إعادة النظر فى الأفكار

والسياسات عندما تعرفون أن أمة بكاملها تعتبر الموقف الأمريكي - الإسرائيلي والانجليزي ينطوي على استفزاز للأمة ككل ، وهو غير عادل تجاه العراق ؟ أنتم تعرفون وأنا أعرف بأن الإعلام الغربي أقوى من الإعلام العربي ، إذن يفترض بالإعلام الغربي أن يكون ضمن هذه الفترة التي حصلت فيها الحملة قد أقنع الرأي العام العربي بحججه ونواياه ، فإن لم يكن قد أقنع المواطن العربي ، فهذا يعني وجود شيء ما ، وأن الخلل ليس تقنيا وإنما يدخل ضمن مفهوم الحق والباطل . »

ورد السناتور « دول » : « مرة أخرى أؤكد لكم أن الحكومة الأمريكية ليست هي موجه الحملة . »

وقاطعه الرئيس « صدام » قائلا : « على أية حال هي حملة في أمريكا . يقال إن العراق هدد إسرائيل ، مع أن الخطاب واضح ، وهو مترجم إلى الانجليزية . أنا قلت « إذا ضربت إسرائيل سنضربها » . إذن أنا قلت إذا ضربت ، إذا ضربت سنضربها ، وأنا أعتقد أن هذا موقف عادل ، وربما يساعد على السلام إذ قد تحجم إسرائيل عن الضرب عندما تعرف أنها ستضرب . كلامنا واضح ، مكتوب بالعربي ومكتوب بالانجليزي ومسجل صورة وصوتا ، فنحن لا نتراجع عن كلامنا ، فإذا ضربت إسرائيل واستخدمت الأسلحة الذرية ، فسنستخدم الكيمائي المزدوج . هذا هو موقفنا ، وليست هناك زيادة أو نقصان في هذا الموقف . أما أن يحلو للبعض القول إن العراق يهدد ، فنحن لا نعتذر عن تصريحنا الذي أطلقناه ، فهو واضح ، وعادل ، ودفاعي ، وهو حق .

أنا أعرف كذلك أن هناك فرقا بين أن تمتلك أسلحة وبين أن تستخدمها . وأنا أعتبر أنه من حق العرب أن يمتلكوا أي سلاح يمتلكه عدوهم . فالعراق لا يمتلك القنبلة الذرية ، ولو كان يمتلكها لأعلناها لنحفظ السلام ولنمنع إسرائيل من أن تستخدم القنبلة الذرية . ولكن لو أعلن بعد شهر أو الآن من أي دولة عربية بأنها تمتلك القنبلة الذرية ، لكنت والعراقيون أول من يعلن تأييده واحترامه لهذا العمل . »

ثم استطرد الرئيس « صدام حسين » في حديث طويل عن الصراع العربي الإسرائيلي ، وعن الرغبة الشديدة في الولايات المتحدة وإسرائيل في وضع القيود على التطور التكنولوجي العربي . وتدخل السناتور « دول » قائلا « إن المضي في برنامج تسليح على النحو الذي يشاع عنه في العراق سوف يؤدي إلى موافقة الكونجرس على مشروعات أو قوانين أمامه قدمها بعض أعضائه بفرض عقوبات اقتصادية على العراق » . ورد الرئيس « صدام حسين » - وبدت لهجته عنيفة - قائلا للسناتور « دول » : « لا تزعل من صراحتي ، أنت تقول لي إن بعض أعضاء الكونجرس قد يطرح عقوبات على العراق ، وأريد أن أسألك على أي شيء تعاقبون العراق ، وبأي شيء تعاقبون العراق ؟ »

ووصل الحديث إلى نقطة أثار فيها السناتور « دول » موضوع استخدام الغازات ضد الأكراد فى شمال العراق ، وبدا رد الرئيس « صدام حسين » عنيفا وإن ظلت كلماته هادئة ، كما يظهر من نصها فى محضر الجلسة . فقال للسناتور « دول » : « إذا لم تكن متعبا ، وإذا لم يكن أصدقاؤنا هنا متعبين ، فنحن نهيىء طائرات سمتية (هليكوبتر) وأضع أمامكم خريطة للعراق ، وننزل فى أى مدينة تعجبكم وخاصة المدن الكردية ، وقابلوا الناس واسمعوا منهم » . ورد السناتور « دول » بأنه « لا يستطيع قبول هذا الاقتراح دون أن يناقشه مع زملائه على انفراد » . ثم استطرد السناتور « دول » يقول « إننا نريدكم أن تعرفوا أهمية العراق بالنسبة لنا ، أنتم البلد الثانى فى الاحتياطى النفطى (بعد السعودية) ، وأنتم ثانى أكبر بلد فى المنطقة (بعد مصر) ، ودوركم مهم فى عملية السلام لكل بلدان المنطقة وشعوبها . »

واستمر الحوار حول الأسلحة النووية والكيماوية لقرابة نصف ساعة ، ثم تدخل السناتور « ميتزن بوم » فنقل الحديث إلى مجال آخر قائلا : « إننا نريدك أن تعرف يا سيادة الرئيس أن وزير الخارجية « بيكر » ووزير الخارجية « شيفرنادزه » أصبحا صديقين ، ويذهبان لصيد السمك سويا فى النهر ، وأن الفيلد مارشال « أخراميف » والجنرال « كرو » رئيس الأركان الأمريكية يؤسسان الآن منظمة لبحوث السلام بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى » . ورد الرئيس « صدام حسين » قائلا : « لأن كليكما يريد السلام ولديكما الإرادة على السلام » . وتدخل « طارق عزيز » فى الحوار لأول مرة فقال : « مع الأسف لا يوجد فى إسرائيل « جورباتشوف » . »

ولم تصل الزيارة إلى نتائج ملموسة ، ولكنها كانت على أى حال فرصة لحوار صريح بين القيادة العراقية ، وزعامة الكونجرس الأمريكى .

٤

على أن أثر الزيارة – على فرض أنها أحدثت أثرا – ما لبث أن تبدد بسرعة . ففى الوقت الذى كان أعضاء الكونجرس الخمسة يغادرون فيه « سرسنك » كان الكونجرس الأمريكى قد أقر اقتراحا بمشروع قانون يعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل . وصحيح أن السناتور « دول » عقب على هذا القرار بقوله « إنه قرار غير موفق فى توقيته ، وفى موضوعه » ، لكن هذا التصريح لم يغير من واقع الأمر شيئا .

وبدا أن قرار مجلس الشيوخ الأمريكى بشأن القدس ، ومشروع القرار الآخر المعروض عليه بشأن فرض عقوبات على العراق ـ قد زادا من تشجيع إسرائيل ، فوقف « شامير » يوم ١٤ ابريل يقول : « إن إسرائيل تحتفظ لنفسها بحرية العمل لتدمير قواعد الصواريخ العراقية » .

وكان الرئيس « صدام حسين » على موعد يوم ١٨ ابريل لمقابلة وفد عربى من اتحاد نقابات العمال العرب ، فانتهز الفرصة ليقول : « إن أى هجوم إسرائيلى على العراق سوف يواجه بحرب شاملة لن تتوقف إلا بتحرير كل الأراضى العربية المحتلة » .

ويوم ١٩ ابريل أعلن قصر « الاليزيه » فى باريس على لسان الرئيس « فرانسوا ميتران » قوله « إن فرنسا تؤيد جعل منطقة الشرق الأوسط منطقة مجردة من الأسلحة النووية ، وأن الأعضاء الخمسة الدائمين فى مجلس الأمن سوف يجتمعون فى لبحث هذا الموضوع » ـ وكان التساؤل المهم بعد هذا التصريح هو : ما الذى سيفعله الأعضاء الدائمون الخمسة فى شأن القوة النووية الوحيدة المؤكدة فى المنطقة ، وهى إسرائيل .

ويوم ٢١ ابريل أعلنت بغداد أن طائرات الاستطلاع الأمريكية بما فيها طائرات من طراز « أواكس » ـ قامت باستطلاع فوق العراق ، وأضاف الإعلان العراقى تفصيلات وافية عن المسار الذى اتخذته عملية الاستطلاع .

ثم أعلنت بغداد بعد أيام أنها تستخدم جهاز كمبيوتر عملاقا فى مشروعاتها للصواريخ . ونشرت بعض الصحف الأمريكية أن حكومة الولايات المتحدة تخشى من أنها باعت للسعودية قبل عدة شهور جهاز كمبيوتر تنطبق عليه هذه المواصفات ، وذهبت بعض الصحف ـ وبينها « نيويورك تيمس » إلى الظن أن السعودية قدمت هذا الجهاز إلى العراق . وبادرت المملكة بإصدار بيان ينفى أن شيئا من ذلك حدث .

ويوم ٣ مايو عاد العراق إلى شكاويه المزمنة من الكويت بسبب انتاجها الزائد عن حصتها فى اتفاقيات « الأوبك » . وصدر بيان عراقى يقول « إن الأسعار الحقيقية للبترول الآن ـ مع حساب انخفاض قيمة الدولار ـ تقل عما كانت عليه قبل ١٩٧٢ » . ثم أضاف البيان « إن العراق يتحمل مسئوليات التعمير بعد حرب دامت مع إيران ثمانى سنوات ، وكانت حربا من أجل أمن الخليج كله ، وفى سبيل عروبته » .

كان كل تعقيد فى الجو المتأزم يسلم نفسه إلى تعقيد آخر أشد ، وكانت التعقيدات تتراكم فوق بعضها تلالا .

□

ويوم ٣٠ مايو طرأ تصاعد كيفي فى الأزمة أضيف إلى كل التراكمات الكمية قبله .

فقد قام تنظيم فلسطيني يقوده « أبو العباس » بمحاولة للإغارة بمجموعة قوارب على الشواطىء الإسرائيلية فى المنطقة بين عسقلان وتل أبيب . ولم تنجح المحاولة بل أدت إلى قتل وأسر ١٦ فدائيا فلسطينيا مسلحا كانوا فى القوارب التى رصدتها البحرية الإسرائيلية قبل أن تدخل المياه الإقليمية لإسرائيل ، وتابعتها ، وظلت فى انتظارها حتى أطبقت عليها من كل مكان بنيرانها وجنودها .

ثم راجت أنباء عن أن هذه القوارب نزلت من باخرة قامت من ميناء ليبى قبل ثمان وأربعين ساعة . وهددت إسرائيل بانتقام يشمل كل من شارك فى هذه العملية بالتخطيط أو بالتسهيلات . ووصل الرئيس « معمر القذافى » إلى القاهرة يطلب إلى الرئيس « حسنى مبارك » أن يبذل مساعيه ليدرأ عن ليبيا أى عمل انتقامى بدعوى أن الباخرة الأم التى نزلت منها القوارب قامت من ليبيا .

وأعلنت الولايات المتحدة الأمريكية أن « أبو العباس » ـ قائد المنظمة التى تبنت المسئولية عن الغارة ـ هو عضو فى مجلس قيادة منظمة التحرير ، وبالتالى فإن معنى ذلك أن المنظمة رجعت عن تعهدها بنبذ الإرهاب ، وهو التعهد الذى قدمه « ياسر عرفات » فى خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى اجتماعها الاستثنائى فى جنيف . ومن ثم فإن الولايات المتحدة تجمد حوارها مع منظمة التحرير إلا إذا قامت بفصل « أبو العباس » من قيادتها وأدانت أعمال منظمته .

وتوقف الحوار فعلا بين المنظمة وحكومة الولايات المتحدة .

ولم يكن توقف هذا الحوار خسارة كبيرة من ناحية الموضوع . فقد كانت الاتصالات بين منظمة التحرير الفلسطينية ، وبين الحكومة الأمريكية اتصالات من نوع غريب . وطبقا لشهادة الزعيم الفلسطينى الكبير « أبو اياد » (والذى استشهد فيما بعد) ـ فإن هذا الحوار كان مجموعة لقاءات متباعدة بين أحد مسئولى المنظمة ، وأحد دبلوماسى السفارة الأمريكية فى تونس (حيث مقر المنظمة) .

وفى هذه اللقاءات التى تمت أحيانا على مستوى عال (بين السفير الأمريكى[٣] و« أبو اياد » نفسه) ـ فإن الحوار كان عبارة عن أسئلة توجهها الولايات المتحدة إلى المنظمة تسألها عن رأيها فى قضايا شبه نظرية : « تصوراتها للسلام النهائى » مثلا ،

---

(٣) السفير « روبرت بللترو » ، وكان سفير الولايات المتحدة فى تونس ، وهو الآن سفيرها فى القاهرة ، وهو واحد من الخبراء الأمريكيين المعدودين فى شئون العالم العربى .

أو « تصوراتها للعلاقة مع الأردن » ، أو « تصوراتها لوضع المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة الغربية » مثلا . ولقد كان يمكن لهذه الأسئلة أن تكون ذات قيمة لو أنها كانت فى إطار حوار ، لكنها كانت تجيء دائما فى صورة سؤال محدد من طرف ، وإجابة محددة تجيء من طرف آخر - أى أنها ليست جزءا من مناقشة بالعمق يستطيع كل طرف فيها أن يقيس مواقف نظيره ، وأن يتبين نقاط خلافه ، أو اتفاقه معه ، وإلى أى حد ؟

ويضيف « أبو أياد » : « كنا نشعر وكأننا أمام امتحان مرة كل شهر ، ورقة أسئلة من عندهم وورقة إجابة من عندنا ، ونحن لا نعرف حتى نتيجة هذا الامتحان » .

□

كانت المنطقة كلها تركز أنظارها على التهديدات الإسرائيلية وردود الفعل العراقية ، أو كانت تلتفت إلى حرب الكلمات أو حرب الأعصاب بين بغداد وواشنطن .

ولم يلتفت أحد ، أو لم يربط أحد هذا كله بالكويت .

كان ذكر الكويت يرد بين فترة وأخرى فى معرض الشكوى من الأسعار .

وكانت السعودية دائما محط الشكوى ، وهى الوسيط فيها بين الطرفين . ولم يلتفت أحد بالقدر الكافى إلى واقعة جرت قبل ذلك بوقت ، وهى أن الرئيس « صدام حسين » وصل إلى الرياض قبل شهور ، وعرض على الملك « فهد » مشروع اتفاقية بعدم الاعتداء بين البلدين (السعودية والعراق) وبأن تحل كل القضايا بينهما بالحوار الأخوى الصادق - يوقعها الملك والرئيس . وأبدى الملك « فهد » ما مؤداه أنه فوجىء بمشروع المعاهدة الذى قدمه له الرئيس « صدام حسين » - ووصل إلى حد أن سأله صراحة : « هل توقيع مثل هذه المعاهدة ضرورى؟ »

ورد الرئيس « صدام حسين » بما مؤداه : « إن توقيع هذه المعاهدة ، وإن لم يكن ضروريا ، فقد يكون ملائما لأن هناك أطرافا كثيرة تسعى بالدس والوقيعة ، وتحاول أن تصور العراق الخارج من الحرب مع إيران منتصرا - على أنه يضمر نوايا عدائية لإخوانه وأشقائه » .

وقال الملك « فهد » : « إنه على استعداد لتوقيع المعاهدة ، وإن كان يشعر أن العلاقات التى يربطها الدم أقوى من العلاقات التى توقع بالحبر » .

وبعد شهور ، وعندما انفجرت الأزمة بين العراق والكويت ، كان هناك فى السعودية من عادوا إلى الوقائع بظن أن الرئيس « صدام حسين » كان منذ وقت طويل يرتب لمواجهة قادمة مع الكويت ، وأراد مبكرا تحييد السعودية .

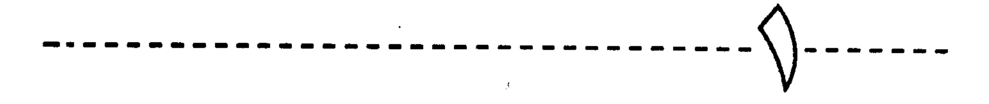


الفصل الثانى عشر

الكويت

« إنكم لا تعرفون مدى حساسية الغرب فى موضوع الكويت » .

[« جمال عبد الناصر » لنائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقى فى ابريل ١٩٦٣] .



كان اسم الكويت يتردد من بعيد خافتا وبطيئا فى الضوضاء التى ملأت مسرح الشرق الأوسط من أواخر مايو إلى أوائل يوليو ١٩٩٠ . ثم بدأ اسم الكويت يقترب ويقترب مثل لحن فرعى يوشك أن يتحول ليصبح هو اللحن الرئيسى . كانت الأصوات قبل ذلك متناثرة ، وكان توزيعها على مساحة واسعة ، وكان تركيز السامعين يتنقل من صوت إلى صوت فى معزوفة متسارعة ، وفجأة دوت ضربة الأطباق النحاسية وتنبه الجميع .

كانت المنطقة فى حالة صخب بالفعل ، لكنها ظلت فى الدرجة الثانية من الاهتمام الدولى الذى كان مركزا على أوروبا يتابع عملية الوحدة الألمانية ، واتفاقيات انسحاب القوات السوفيتية من القارة ، وعمليات الاصلاح الجارية فى الاتحاد السوفيتى ، والتوجس من أن انحلال حلف وارسو قد يؤدى لانحلال حلف الأطلنطى . وإلى جانب ذلك كانت أزمة الاقتصاد الأمريكى تشغل بال كثيرين .

وحتى فيما يتعلق بالشرق الأوسط ، فقد كان الاهتمام كله موجها للتوتر المتزايد بين العراق وإسرائيل ، أو بين العراق وواشنطن . وأما موضوع علاقة العراق بالكويت فلم يشغل بال أحد . ولعله من اللافت للنظر ـ طبقا لجريدة « الواشنطن بوست » ـ أن مجلس الأمن القومى الأمريكى لم يدرج على جدول أعماله أى بند يخص العراق ابتداء من أكتوبر ١٩٨٩ حتى ٢ أغسطس ١٩٩٠ حين وقع الغزو .

وعلى مستوى وكلاء الوزارة فى الخارجية الأمريكية ، فقد بدا أثناء اجتماع لهم عقد فى شهر يونيو ١٩٩٠ ، بعد أن اقتحم اسم الكويت أسماع الكل كموضوع لأزمة من الدرجة الأولى ـ أن بغداد قامت بتغيير مفاجىء فى أولوياتها ، وبدا لهم كما لو أن العراق نقل اهتمامه من إسرائيل إلى الكويت فى ظرف أيام قليلة . وكان هذا الرأى تبسيطا للأمور بأكثر مما هو لازم .

على السطح بدا الانتقال مفاجئا ، وفى الحقيقة فإنه لم يكن كذلك . كان الواضح أن العراق خرج من حربه مع إيران ومشكلته الرئيسية هى المشكلة الاقتصادية . فالحرب كلفته كثيرا : استهلكت كل احتياطياته ، وراكمت عليه ديونا عربية وغير عربية ، وكان أمله الحقيقى فى تخفيف ضائقته هو دخله من البترول . والمشكلة أن حصص الأوبك كانت تقيد سقف انتاجه ، كما أن انخفاض أسعارِ البترول فى أسواق العالم كان ينزل بدخله إلى أقل مما هو منتظر . وكان السبب فى رأيه ـ وفى رأى غيره بما فيهم السعودية ـ أن انخفاض أسعار البترول إلى ١١ دولارا للبرميل وأقل ، يعود إلى أن سوق البترول متخمة بفائض يزحم الأسواق ، والسبب أن عددا من المنتجين يتجاوزون حصصهم فى الانتاج ، كما هى مقررة باتفاقيات « الأوبك » . والشواهد كثيرة على أن جزءا كبيرا من العمل السياسى العراقى طوال سنة ١٩٨٩ وأوائل سنة ١٩٩٠ كان موجها إلى قضية انخفاض أسعار البترول ، وأن الشكوك والاتهامات المتصاعدة بين إسرائيل والعراق ، وبين الولايات المتحدة والعراق ـ اقتحمت المسرح على غير انتظار وانحشرت فى وسطه بسبب مضاعفات طرأت فى الشهور الأولى من سنة ١٩٩٠ .

وعندما بدأ الزحام يخف ولو قليلا على المسرح بعد جهود التهدئة التى راح يبذلها آخرون ، وبينهم الملك « فهد » والرئيس « مبارك » والملك « حسين » وغيرهم ، بدأت المشكلة الاقتصادية تصبح ـ قبل غيرها ـ شاغل العراق وهمه ، وظهرت قضية أسعار البترول فى وسط المسرح وقلبه .

□

إن قضية أسعار البترول بصفة عامة قضية معقدة ، وهى تعتمد بالدرجة الأولى على

انضباط كامل يفرضه أعضاء « الأوبك » على أنفسهم . ثم إن العامل النفسى يلعب فى أسواقها دورا كبيرا ، فإذا تخلى عضو واحد فى « الأوبك » عن انضباطه وأنتج أكثر ، أحس السوق على الفور بما يحدث وكون لنفسه رؤيته الخاصة فى اتجاه الأسعار ، وتصرف بما يؤدى إلى تغييرات كبيرة فى العقود قد لا تتناسب مع حجم النقص الحقيقى أو الزيادة فى السوق . فالمسألة فى النهاية مسألة رؤى وتقديرات وحسابات يدخل فيها عنصر المضاربة . وطبقا لآراء كل الخبراء بما فيهم الخبراء السعوديون ، فإن الانفلات من حصص « الأوبك » والذى غمر السوق بفائض بترولى أدى إلى انخفاض أسعاره ـ كان يعود أساسا إلى دولتين اثنتين من دول الخليج هما الامارات العربية المتحدة ، والكويت . والغريب أنه فى هذا الموقف بدا وكأن العراق وإيران يقفان على نفس الخط . فقد بدأ كلاهما يتهم الامارات والكويت بالضغط على أسعار البترول عن طريق عرض زائد عن مقررات « الأوبك » ، وكانت السعودية معهما فى هذا الرأى . كان سعر البترول يتخذ اتجاها نزوليا شهرا بعد شهر . وكانت اجتماعات « الأوبك » العادية والطارئة تتوالى لتدارك النزول ، وتتم فيها إعادة التأكيدات على الحدود المقررة سلفا ، ويتعهد الجميع ثم تنفض الاجتماعات ، وإذا المشاكل تتجدد لأن بعض الدول لا تلتزم .

والمشكلة أن الكويت لم تكن تخفى ما تفعله . فأثناء اجتماع « للأوبك » فى فيينا فى شهر يونيو ١٩٨٩ ، لم يخف الشيخ « على خليفة الصباح » وزير البترول الكويتى رأيه على أحد . بل إنه أدلى لصحيفة « وول ستريت جورنال » ، وهى الصحيفة ذات التأثير القوى فى دوائر المال فى نيويورك ، بحديث نشرته يوم ١٢ يونيو ١٩٨٩ ، وكان ما قاله أشبه ما يكون بإملاء قوة عظمى تفرض شروطها دون أن تكترث بأحد . وكان بين ما قاله الشيخ « على خليفة الصباح » إن « الكويت لا تنوى الالتزام بحصتها المقررة وهى ١٠٣٧٠٠٠ برميل فى اليوم ، وأنها سوف تصر على حصة مقدارها ١٣٥٠٠٠٠ برميل فى اليوم » . وعلقت صحيفة « وول ستريت جورنال » من جانبها قائلة : « إنه فى الوقت الحالى تنتج الكويت ١٧٠٠٠٠٠ برميل فى اليوم » .

ثم شن الشيخ « على خليفة الصباح » هجوما مركزا على السعودية قال فيه :

« إن الكويت والسعودية على طريق تصادم محقق بسبب الحصص ، ونحن لا ننوى أن نتراجع » .

ثم أضاف :

« إن السعودية مثل شركة كبيرة منهارة تجرى فى كل اتجاه محاولة أن تفلت من قوانين الافلاس » .

وربما كان الكلام عن السعودية مقصودا به أن يسمع غيرها ، وكان الخطر يتأتى من أن السعودية تستطيع أن تصبر ، وأما العراق فقد كان الصبر عزيزا عليه لأن دخله بسبب انخفاض أسعار البترول نزل بمقدار سبعة بلايين دولار سنة ١٩٨٩ ، وهو مبلغ يعادل المطلوب منه لخدمة ديونه فى ميزانية تلك السنة !

وكان العراق يتوقع زيادة فى خسائره ، فقد كان انخفاض دولار واحد فى سعر البرميل يعنى نقصا قدره بليون دولار كل سنة فى دخله .

□

وكان المأزق أن الكويت هى الأخرى ، مثل العراق ، تحتاج لزيادة فى دخلها وإن اختلفت الأسباب ، رغم أن كليهما كان يعتمد على نفس المصدر وهو البترول . كان وضع الكويت المختلف يتمثل فى طبيعة تركيب ثروتها المالية والاقتصادية ، فالكويت استثمرت على نطاق واسع فى شركات كبرى فى الغرب لتكرير البترول وتسويقه ، وأصبح ربحها يتأتى من بيعه فى الأسواق مباشرة للمستهلكين ، وليس من بيعه خاما للشركات الكبرى . كذلك كانت استثمارات الكويت فى الخارج مركزة فى شركات صناعية قد لا يناسبها ارتفاع أسعار البترول ، وبالتالى كانت قادرة على تعويض انخفاض دخلها من سعر البترول الخام عن طريق زيادة أرباحها من الشركات الصناعية ، وشركات توزيع البترول التى تملكها أو تساهم فيها .

وهكذا اتفق مورد الدخل ، واختلفت أساليب التعامل معه ، أى أن سعر البترول الخام يؤثر مباشرة فى دخل العراق ـ لكنه لا يؤثر فى دخل الكويت .

كانت الكويت كمستثمر فى السوق الصناعية العالمية غير قلقة من بترول رخيص ، وأما العراق كمصدر مباشر للبترول الخام فقد كانت أسبابه للقلق حادة .

والواقع أن دخل الكويت لم يتأثر بانخفاض سعر البترول فى النصف الثانى من الثمانينات ، فقد كان نصف دخلها منه ، ونصف دخلها الآخر من استثماراتها فى الخارج . وأما العراق فدخله الرئيسى بترولا ، وأى شىء غيره فرعى وجانبى .

وربما كان التناقض بين الاثنين فى جزء منه هو التناقض بين دولة مصدرة للمواد الخام الطبيعية ، ودولة أخرى تقبل لعبة السوق محددا للسعر .

وقد يرى البعض أن هذه السياسة من جانب الكويت كانت سياسة أنانية تتبعها دولة بالغة الغنى لا تعنيها كثيرا مصالح الآخرين حتى وإن كانوا عربا مثلها ـ لكن مشاكل الاقتصاد دائما مركبة !

□

كانت للكويت أسباب تراها من وجهة نظرها موضوعية ، وتبرر احتياجها الشديد إلى المال :

● **كانت هناك أولا رغبة الكويت** فى تعويض خسائرها أثناء الحرب العراقية الايرانية ، فقد انخفضت صادراتها فى تلك الفترة ، كما أنها تحملت خسائر فى منشآتها ، وتحملت تكاليف إضافية فى عملية حماية سفنها فى الخليج عن طريق استئجار أعلام أجنبية لناقلاتها . وربما قيل إن خسائر العراق وإيران كانت أكبر مئات المرات من خسائر الكويت ، ولكن الكويت كانت تعتبر نفسها ضحية بين الاثنين ، وليست طرفا فى الحرب بينهما . وإذا كانت بعض الأضرار قد أصابتها ، فإنها تحملت ما تحملته بسبب الآخرين ، ومن حقها الآن أن تعوض خسائرها .

● **وكان هناك ثانيا إحساس الكويت** بأن أمنها مكشوف ومعرض . وكان شأنها شأن أى ثروة تعرف قيمة نفسها ، ولكنها فى ذات الوقت تشعر بحجم الخطر المحيق بها ، وتفكر فى كيفية مواجهته . وربما أخطأت كل دول الثروة قليلة السكان فى تقدير ضرورات أمنها ، فزيادة مشتريات السلاح لا تعنى فى حد ذاتها أمانا . ومع ذلك فإن الكويت اندفعت فى برنامج كبير للتسليح . وفى سنوات مبكرة تبنت الكويت نظرية لحماية أمنها قدمها لها بعض الخبراء مستلهمة فى الحقيقة نظرية الأمن الاسرائيلى :

- □ **دولة قليلة السكان لا تستطيع أن تجند جيشا كبيرا**
- □ **معرضة للمخاطر من كل جانب**
- □ **لا تملك عمقا كافيا من الأرض**

إذن فنظريتها لأمنها القومى ينبغى أن تستند على سلاح قوى للطيران لا يحتاج إلى أعداد كبيرة من العسكريين ، ويملك سرعة فائقة فى الحركة ، ويتميز بكثافة عالية فى قوة النيران . ومعنى ذلك أنه يمثل قوة ردع تلائم ظروف أصحابه وتفى بمطالبهم . على الأقل تصد العدو حتى تكسب فرصة من الوقت يتحرك فيها الصديق ويبادر لنجدتها .

وفى العشرين سنة السابقة على الغزو العراقى صرفت الكويت على دفاعها الجوى ٢٢ بليون دولار ، تمثلت فى طائرات ونظم صواريخ مشتراة من كل مكان : الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا ، وحتى الاتحاد السوفيتى ومصر .

ولم يؤد انتهاء الحرب العراقية ـ الايرانية إلى طمأنينة فى الكويت ، بل حدث العكس . فطالما كانت إيران مشتبكة فى حرب مع العراق ـ كانت الحرب تكفيها هم الاثنين معا وفى نفس الوقت لأن كلا منهما انشغل بالآخر . ولكن انتهاء الحرب أعاد هاجس الأمن مرة أخرى للكويت التى تجد نفسها محصورة بين ثلاث قوى إقليمية أكبر منها ، كل منها

له مشاكله معها سواء كانت المشاكل عائلية وحدودية (كما هو الحال مع السعودية) ، أو عرقية ومذهبية (كما هو الحال مع إيران) ، أو سياسية واقتصادية (كما هو الحال مع العراق) . وهكذا زادت صفقات السلاح الكويتية بعد الحرب ، وزادت تكلفتها المالية ، وكان التركيز كما هى العادة على الطيران (ولم ينفع ذلك كثيرا ، فعندما وقع الغزو لم تقم طائرة كويتية واحدة باعتراض قواته) .

● **وكان هناك سبب ثالث أكثر إلحاحا** ، وأكثر حرجا فى نفس الوقت ، ذلك أن الاقتصاد الكويتى كان قد سقط فى براثن فضيحة مدوية كبرى ، وهى أزمة سوق المناخ .

كان التدفق الهائل للأموال بعد ارتفاع أسعار البترول فى النصف الثانى من السبعينات ـ قد خلق حالة من شبه الجنون بالثراء السريع فى الكويت (كما فى غيرها) . وكانت الظروف تسمح لجنون الثراء فى الكويت بأن يتجاوز حدوده ، فالبلد صغير ، والثراء وفير ، وكل فرد يريد نصيبا مضاعفا وبأسرع ما يمكن . وهكذا قامت سوق المناخ كسوق موازية لبورصة الكويت ، وراحت تتعامل فى أوراق وهمية تحركها دواعى المضاربة والمقامرة ، وليس دواعى الاستثمار الحقيقى ، أو التنمية من أى نوع . وبدأ حجم السوق يتضخم خارج كل الحدود لأن الأرباح كانت خيالية . ومع سنة ١٩٨٢ كانت سوق المناخ أشبه ما تكون ببالون منفوخ على آخره ، لا ينتظر إلا لمسة وينفجر . وانفجرت السوق فعلا فى تلك السنة . وقدر البنك المركزى فى الكويت أن الخسائر وصلت إلى مبلغ يتراوح بين ثمانين إلى تسعين بليون دولار (حجم الدخل القومى المصرى السنوى أربع مرات) . واضطرت الحكومة الكويتية إلى التدخل لتعويض الخسائر ، وكان قرارها الأول هو اقتطاع ٨٪ من الدخل السنوى فى الكويت لتعويض بعض هذه الخسائر فى السنة الأولى من الانفجار . وكان الأمر يتطلب علاجا طويل المدى تقسط تكاليفه على عدة سنوات .

وهكذا كانت الكويت محتاجة إلى المال بنفس مقدار احتياج العراق له ، وإن اختلفت الأسباب . ومن هنا جاء خروجها على مقررات « الأوبك » . ومن هنا أيضا كان قول الشيخ « على خليفة الصباح » بأن « الكويت لا تقبل ولا تلتزم بحصص الأوبك » . وقد بدا القول متعسفا وأكبر من مقاس الكويت ، خصوصا فى تحديه للدول الثلاث الاقليمية الأقوى المحيطة بالكويت ، وهى : العراق ، وإيران ، والسعودية ـ وجميعها كانت معارضة لموقف الكويت ومتأذية من الخروج على حصص « الأوبك » .

وبدأ الشد والجذب عنيفا وخطرا .

□

كان العراق مندهشا من التحدى الكويتى ، وبما أنه وجد السعودية وإيران فى صفه ،

فقد أخذته الظنون بأن الكويت تنفذ سياسة مرسومة ، وهذه السياسة المرسومة لا يمكن أن تستقوى على السعودية بالذات إلا إذا كان وراءها من يساندها ، أو يحرضها على خفض الأسعار .

وراحت لهجة العراق تعلو وتحتد بينما سعر البترول يواصل انحداره .

واجتمعت دول « الأوبك » فى نوفمبر ١٩٨٩ ، وبدأ الاجتماع بتحذير قوى وجهه العراق ، وأضاف إليه طلبه بإلحاح للعمل على رفع السعر إلى ٢٥ دولارا للبرميل ، وعدم السماح له بأن ينزل عن حد ١٨ دولارا للبرميل مهما كان الأمر . وكانت السعودية تقر هذا الحد وتؤيده ، ولعل خط ١٨ دولارا فى البرميل وليس أقل كان واحدا من أهم الأسباب التى دعت الملك « فهد » قبل ذلك إلى إخراج الشيخ « أحمد زكى اليمانى » وزير البترول العتيد فى السعودية ، فقد طالبه الملك بذلك تحديدا ، ولم ينجح « اليمانى » رغم خبرته العميقة بشئون البترول ظاهرا وباطنا ، وكان رأيه أن « سعر البترول سوف ينخفض أكثر فى أواخر الثمانينات قبل أن يرتفع أكثر فى أوائل التسعينات » ، وكانت للشيخ « اليمانى » فى ذلك حساباته ، وكانت للملك « فهد » طلباته ، وكانت للعراق احتياجاته .

وعادت دول « الأوبك » إلى الاجتماع مرة أخرى فى مارس ١٩٩٠ . وبعث الرئيس « صدام حسين » إلى أمير الكويت الشيخ « جابر الأحمد الصباح » برسالة يطالبه فيها باتخاذ كل الوسائل نحو إعادة سعر البترول إلى حده المعقول . ولم تأت الرسالة بنتائجها رغم الحزم فى كلماتها .

إن المصالح أقوى دائما من الكلمات ، وقد كانت الكويت ترى أن مصالحها محققة بأسعار البترول كما هى ، والدليل على ذلك أن ميزانية الكويت سنة ١٩٨٩ حققت زيادة مقدارها ٣٧,٦٪ عن التقديرات الأولية لها ، وأعلن الشيخ « على خليفة الصباح » وزير البترول الكويتى أن « اتفاقيات الأوبك يجب الغاؤها ، وكلما حدث ذلك أسرع كان ذلك أفضل » .

وحاول الملك « فهد » والملك « حسين » أن يتوسطا بين العراق والكويت ، ثم اتضح لهما أن الفجوة بين البلدين اتسعت بأكثر من خلاف على حصص « الأوبك » وأسعار البترول ـ ذلك أنه فى الخلافات بين الأفراد والمجتمعات تكون للمضاعفات المستجدة دائما قوة استدعاء للتراكمات المترسبة من أسباب قديمة . والذى حدث هو أن الملك « فهد » والملك « حسين » راحا يسمعان كشف حصر للخلافات سابق .

☐ **بغداد تقول** « إنهم فى الكويت نسوا أننا حاربنا ثمانى سنوات دفاعا عن الخليج ، وتحملنا فى سبيل ذلك ما تحملنا . »

■ **وترد الكويت** بـ « أنهم فى العراق نسوا أننا ساعدنا . فبعد أسابيع قليلة من الحرب قدمنا للعراق ٥ بلايين دولار قرضا يساعد على أغراض الحرب ، ثم لم تتوقف مساعداتنا ، فقد كنا نصدر لحسابهم يوميا ١٢٥ ألف برميل وفاء لالتزامات تعاقدوا عليها فى الأسواق ، ثم توقفوا عن الوفاء بالتزاماتهم نتيجة ظروف الحرب . »

□ **وبغداد تقول** « إن المال أرخص تكاليف الحرب ، ولقد كان ما أعطوه لنا دينا مازلنا مطالبين بسداده . ومع ذلك فإن تكاليف الحرب على العراق كانت بمئات البلايين ، ولم تدفع الكويت سوى قدر يسير من التكاليف الحقيقية ، ومع ذلك فإن المال أرخص شىء . »

■ **وترد الكويت** بـ « أن تكاليفنا لم تكن مالا فقط ، فقد طالتنا الصواريخ الإيرانية ، ودليل دمارها قائم على منشآتنا البترولية ، كما أن استقرارنا الداخلى اهتز ، وسال دم على أرض الكويت . »

□ **وبغداد تقول** « إنهم لم يساعدوا بشىء فى مجهودنا الحربى ، ولقد طلبنا منهم تسهيلات فى جزيرتى « بوبيان » و « وربة » ، ولو حصلنا على مثل هذه التسهيلات لأمكن تحرير « الفاو » قبل الموعد الذى تحررت فيه بكثير . »

■ **وترد الكويت** بالإشارة وبما معناه « لو أنهم أخذوا مثل هذه التسهيلات لما تركوا الجزيرتين بعد الحرب ، فنحن نعلم أن لديهم مشروعا لتعميق مجرى ملاحى حول الجزر يخدم ميناء شحن فى خور عبد الله . »

□ **وبغداد تقول** إن « هذه جزر عراقية ، وليس هناك شك فى ملكيتنا لها » !

■ **وترد الكويت** بأن « العراق يكاد يفصح عن مطامعه » !

وهكذا فإن الخلاف على الأسعار والحصص ، استدعى تجربة الحرب والديون . وتجربة الحرب والديون بدورها استدعت قضية الجزر ، وقضية الحقوق التاريخية فى الكويت كلها .

وتناثرت بذور الخلافات القديمة مرة أخرى ـ ولكن على أرضية جديدة ، وفى أجواء مغايرة . وفى حين راح العراق يبحث فى ملفات التاريخ ، راحت الكويت تتمسك بالوقائع الراهنة .

٣

للتاريخ فى الخليج حكايات طويلة يصعب أن يمسكها أحد بيديه ويقبض على الحقائق فيها لأنه سوف يكتشف أن إحدى يديه تملؤها قبضة من رمال الصحراء ، كلما زاد الضغط عليها تمسكا بها تسربت الرمال ، ولم يبق منها غير ما يعلق بالكف ، وأما اليد الثانية فقبضة من مياه الخليج يفتحها صاحبها فإذا بالماء كله يسيل ، ولا يترك إلا أثرا من بلل !

كانت منطقة الخليج جزءا من دول الخلافة الاسلامية حتى سقطت الدولة العباسية وتفككت أقاليمها إلى شام وعراق ومصر ، إلى آخره . وجاءت الدولة العثمانية ، وإذا بها تجد أن ولايتها على العالم الاسلامى موضع تحد من فارس (إيران اليوم) . ومع تحول إيران ـ فى عهد الصفويين ـ إلى المذهب الشيعى الذى أصبح العقيدة الرسمية للدولة الفارسية ـ فإن النزاع مع الدولة العثمانية لم يعد مجرد خلافة اسلامية ودولة اسلامية ترفض ولايتها ، وإنما أصبح ـ فى جانب منه ـ قضية سنّة (دولة الخلافة) ـ وشيعة (دولة الصفويين) . وكانت بغداد هى المركز المتقدم لدولة الخلافة ، فى حين أن أصفهان أو طهران ـ بالتعاقب ـ أصبحتا مقر قيادة الدولة الفارسية .

فى ذلك الوقت كان الحجاز هو الجزء الأهم فى غرب شبه الجزيرة العربية ، فهو موطن الأماكن المقدسة ، وممر طرق التجارة من اليمن إلى الشام ـ فى حين أن سلطنة عمان كانت الدولة البحرية النشيطة فى الجنوب ـ وبين الاثنين صحارى نجد ، وهى مساحات رمال شاسعة تسكنها قبائل يتصارع شيوخها على المراعى ، وطرق القوافل ، ومدن التجارة الصغيرة ، وموانى الساحل الذى لم تكن تعمره إلا بعض القرى المتباعدة ، تجيء اليها السفن بالمؤن والعبيد ، وينزل منها الصيادون إلى البحر وراء السمك واللؤلؤ .

وفى حين كان الحجاز إقليما عهد به إلى ولاة مصر فى معظم العهود لقربه منها عبر سيناء والبحر الأحمر ، وفى حين انطلقت أساطيل عمان إلى سواحل افريقيا ـ فإن الجانب الشرقى من الصحراء الواصلة إلى الخليج كان فى عهدة ولاة بغداد .

وكان العراق فى ذلك الوقت ـ كما كان مع استمرار عصور التاريخ ـ وكما هو الآن ـ ثلاث ولايات : بغداد ، والموصل ، والبصرة .

وكانت ولاية البصرة ـ وهى على رأس الخليج ـ نافذة فى الصحراء إلى قرب حفر الباطن ، وواصلة فى مسئولياتها إلى أبعد مدى تستطيع أن تؤكد عليه سلطاتها باسم الخليفة العثمانى .

وظل هذا الوضع قائما حتى القرن السادس عشر : ساحل الخليج الشرقى فى إيران تحكمه دولة واحدة هى الدولة الفارسية ، والساحل الآخر من رأس الخليج إلى عمان وبحر العرب يعيش فى ظل الدولة العثمانية .

ثم بدأ الحال يتغير مع اكتشاف طريق الهند بالدوران حول رأس الرجاء الصالح ، ثم استقرت هناك شركات الدول الاستعمارية الكبرى التى تحولت إلى حكومات ، ثم بدأت الغارات على الخليج تستهدف فتح الطريق إلى القلب العربى الاسلامى المتحكم فى طرق التجارة بين الشرق والغرب ، بموقعه الفريد بين بحار العالم القديم ، وبواقع أن كل طرق القوافل البرية تقع فيه .

وبظروف الجغرافيا والتاريخ ، فإن شاه فارس (إيران) كان بالجغرافيا أقرب إلى الشركات ، الحكومات المتقدمة من الشرق ، كما أنه بالتاريخ كان معها يستقوى بها على دولة الخلافة العثمانية التى لها الولاية الشرعية على العالم العربى فى ذلك الوقت .

وربما كان خير ما يشرح أحداث وأجواء ودسائس وصراعات الشركات والحكومات والقبائل والأساطيل فى هذه الفترة من التاريخ ـ تقرير كتبه المقيم السياسى البريطانى فى الخليج (الفارسى) ـ المقدم « هوورث » ـ ومقره فى ذلك الوقت ميناء « بوشهر » (فى إيران) ـ ووجهه إلى وزير خارجيّة حكومة الهند البريطانية بتاريخ سبتمبر سنة ١٩٢٧ (رقم ١٠٦ ـ س) ، ويلاحظ أن التقرير يتعرض لتاريخ الدخول والسيطرة البريطانية على الخليج ، ويتابع ذلك من سنة ١٦١٦ إلى سنة ١٩٢٧ (وقت كتابته) ، وهو بذلك يعطى رؤية بريطانية متكاملة من الداخل للسياسة البريطانية للخليج منذ البداية إلى تلك الفترة الحرجة بين الحرب العالمية الأولى ، والحرب العالمية الثانية .

ويجىء نص التقرير على النحو التالى :[١]

● **المقيمية السياسية والقنصلية العامة البريطانية**

بوشهر ، ١٠ أيلول / سبتمبر ١٩٢٧

من صاحب الفخامة المقدم ل . ب . هوورث المقيم
السياسى فى الخليج الفارسى .
إلى وزير خارجية حكومة الهند

سيدى ،

---

(١) مجموعة الوثائق البريطانية عن الكويت ، وقد قام بترجمتها ودراستها السيد ، وليد حمدى الأعظمى ، ، ونشرتها دار ، رياض نجيب الريس ، فى لندن فى كتاب عنوانه ، الكويت فى الوثائق البريطانية ، ، ونشر الكتاب سنة ١٩٩١ . وقد تمت مراجعة أصل الوثائق مع ترجمتها ، وبما أن الترجمة دقيقة ، والدار اللندنية هى صاحبة السبق فى الإشارة إلى هذه المجموعة من الوثائق . فقد جرت الاستعانة بها اعترافا بالسبق لأصحابة .

....

....

١ ـ يعود تاريخ مصالحنا فى الخليج الفارسى إلى سنة ١٦١٦ ، إذ كان من الضرورى سنة ١٦١٥ إيجاد أسواق لتصريف منتجاتنا الفائضة فى مصنع سورات (فى الهند) . وفى سنة ١٦١٦ أبحرت السفينة « جيمس » وهى تقل بعثة يرأسها « ادوارد كونوك » متجهة إلى بلاد فارس . وكانت النتيجة أننا قمنا سنة ١٦٢٤ ببناء مصنع فى بندر عباس . لذا فقد كانت مصالحنا فى البداية تجارية محضة .

٢ ـ وخلال المائة والخمسين عاما التالية لهذا التاريخ كانت مصالحنا متداخلة مع مصالح البرتغاليين أو الهولنديين أو الفرنسيين . وكانت تجارتنا تحميها سفن مسلحة أو ترافقها قوافل مسلحة ، كما كانت القوات العسكرية تقوم بحماية مصانع تجهيز البضائع التى قمنا بانشائها فى سنة ١٦٤٣ فى البصرة ، وفى بوشهر فى سنة ١٧٦٣ .

٣ ـ وعندما زال خطر المنافسين الأوروبيين ، استمرت مشكلة حماية تجارتنا من القرصنة العربية ، وخصوصا من القواسم(٢) ، لذا قمنا بتشكيل قوة بوليسية من البحرية الهندية لحماية مصالحنا فى الخليج .

....

....

٤ ـ وسنة ١٨٢٠ قام السير « مونسيتارت ألفرستون » بتحرير المذكرة التالية :

« إن وجهة نظر الضباط السياسيين والبحرية والعسكريين كافة بأنه من دون إنشاء محطة وقود للسفن فى هذا الجزء من البحر ، فلن يكون بإمكاننا القضاء على القرصنة ... » .

ومن هنا قمنا ببناء محطة لنا فى باسيدو ، والتى تم جلاؤنا عنها بسبب الأحوال المناخية .

٥ ـ ....

....

٦ ـ قمنا فى سنة ١٨٦٩ بإبلاغ الحكومة الفارسية بأن : « الهدف الوحيد للحكومة البريطانية من إشراك شيوخ البحرين فى هذه الاتفاقات ، كان لغرض منع القرصنة ، وتجارة العبيد واستمرار حماية الخليج . ولو أن أهدافنا كانت تجارية فقط لتركنا البحرين لمصلحة بلاد فارس . »

---

(٢) قبيلة عربية بحرية عاشت على الشطآن الشرقية للخليج وعلا شأنها فى تجارته ، واشتبكت سفنها فى معارك كثيرة مع الأساطيل البرتغالية والبريطانية .

٧ ـ إلا أنه فى سنة ١٨٨٠ بدأت روسيا تبدى اهتمامها بالخليج الفارسى ، وقامت فى سنة ١٨٨١ بفتح قنصلية روسية لها فى بغداد . ومنذ سنة ١٨٨٨ وصاعدا كانت المراسلات الخاصة بالشئون السياسية الفارسية تتعلق بالمجابهة القائمة بين بريطانيا العظمى وروسيا . وظهرت مؤشرات على قيام سياسة مشتركة بين فرنسا وروسيا معادية لبريطانيا العظمى .

٨ ـ وابتداء من الأعوام ١٨٩٤ ـ ١٨٩٩ ظهرت بوادر حركة خطيرة أضفت أهميتها على الخليج الفارسى ووضعته فى موقع بارز . وكانت العوامل الرئيسيّة وراء ذلك هى التفاهم بين روسيا وفرنسا والمخططات الأجنبية ، لانشاء سكة حديد لربط البحر الأبيض المتوسط بالخليج الفارسى .

وكانت الأهمية الاستراتيجية للمضايق التى كانت تشكل المدخل للخليج الفارسى ، والتى كانت روسيا تعلق عليها آمالها ، تعود إلى الرحلة التى قام بها مهندس روسى من كرمان ، وبندر عباس إلى هرمز فى ربيع سنة ١٨٩٣ ، إذ بقى هناك لمدة يومين ، وقام بإجراء مسح (طوبوغرافى) لهرمز ، وكان الاعتقاد بعد رحيله أن روسيا تزمع انشاء محطة وقود للفحم فى الجزيرة .

٩ ـ ....

....

١٠ ـ وأصبح من الواضح فى سنة ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠ التهديد الذى تواجهه الهيمنة البريطانية على الخليج الفارسى ، مع تهديد أمن الهند البريطانية بسبب سياسة القوى الأجنبية ، وخصوصا روسيا وفرنسا وألمانيا ، إذ كانت مخططات روسيا البحرية فى الخليج الفارسى وخططها الخاصة بإقامة سكة حديد فى بلاد فارس ، والمشروع الفرنسى لاقامة قاعدة بحرية فى خليج عمان ، والامتيازات التى حصلت عليها ألمانيا لانشاء سكة حديد من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسى ، كلها ظروف بالغة الأهمية .

١١ ـ لم تعد مصالحنا فى الخليج الفارسى تجارية فحسب ، إذ أصبحت سياسية أيضا .

....

....

١٢ ـ كان هذا موقفنا حتى عام ١٩١٤ ، عام الحرب الذى احتللنا فيه البصرة . وحصلنا بنتيجة الحرب على الانتداب فى العراق ، واختفت روسيا القيصرية وتركيا من مسرح الأحداث . ولم يكن هناك بعد ذلك أى خطر ، آنذاك ، لاحتلال الخليج الفارسى من قبل قوة أجنبية . وبالنتيجة ، فقد تراجعت أهمية هذه المنطقة بعد ذلك بشكل مؤقت .

١٣ ـ إلا أنه فى الوقت نفسه ، طورت شركة النفط البريطانية ـ الإيرانية عملياتها ، إذ تم بناء مصفى عبدان ، وكان يتم امداد قواتنا البحرية بجزء كبير من احتياجاتها من النفط والبنزين ، واحتياجات بلادنا من النفط المعد فى رأس الخليج الفارسى . كما أصبح من الواضح أيضا أن للخليج الفارسى أهمية استراتيجية من الدرجة الأولى ، نظرا لوقوعه بين العراق والهند ، ولعلاقته بالطريق الجوى إلى الشرق ، ونظرا إلى أنه لا يمكن الاعتماد على إيران كبلد يقع على الطريق الجوى ، فقد أصبح الساحل العربى ذا أهمية حيوية بالنسبة إلينا .

١٤ ـ وبالنتيجة ، أصبح الساحل الجنوبى وشيوخه ، الذين أرغمنا على عقد اتفاقات معهم من أجل أمن البحار وسلامتها ، من الأهمية بمكان لخطوطنا الجوية المارة هناك .

وكنا مقتنعين فى الماضى بابرام معاهدات عامة ، إلا أننا لم نكن نهدف إلى احتلال أى جزء من الساحل ، إذ أن وضع قواتنا هناك فى إيران ، أو فى الجزيرة العربية ، سيورطنا عاجلا أم آجلا فى سياسة هذه الأقطار .

١٥ ـ إلا أن ظروفنا تبدلت مرة أخرى . فاليوم نحن متورطون فى سياسات هذه البلدان . وسياستنا فى السابق كانت تتجنب الحماية ، فهل بالامكان الاستمرار باتباع هذه السياسة ؟

هناك مسلكان مفتوحان أمامنا للتحرك لمواجهة الموقف الجديد :

(١) أن نستمر فى الانتظار إلى حين اندلاع الحرب ، وعندها ، وكما حصل فى الحرب الماضية ، نقوم باستغلال هذه الفرصة كما نرغب .

(٢) أن نتهيأ مسبقا للحصول على « محمية » ، أو (٣) إعلان الحماية على الأقطار التى نعلم بأننا سنحصل عليها .

١٦ ـ إننا ، وكما أشرت فى مكان آخر هنا ، وكما هو واضح ، بدأنا نخسر موقعنا القوى على الساحل الفارسى بتطور إيران وتقدمها . ولا يمكننا أن نتعرض للشىء نفسه على الساحل الجنوبى .

ومهما كان موقفنا من ابن سعود فى ساحل الحسا ، فقد أصبح بامكاننا استخدام المجال الجوى العربى بطائراتنا ذات المحركات الثلاثة ، أو فى حال نشوب الحرب بعد القيام ببعض الترتيبات .

١٧ ـ ولكن إذا ما سمحنا لابن سعود بأن يستحوذ على المشيخات العربية على الساحل ، فلا يمكننا بعد ذلك استخدام هذا المجال وسنقطع خطوطنا الجوية . لذا يتوجب علينا تشديد قبضتنا على المشيخات ، كما يتوجب علينا احتلال شبه جزيرة موسيندام ، للسيطرة على الخليج ولحماية تدفق النفط .

لذا ، فإن ما ورد أعلاه ، يعتبر حجر الأساس الذى اعتمدت عليه فى تقديم التوصيات التى كتبتها .

١٨ ـ كما أوصي أيضا بعدم التمسك دوما بالانتداب علي العراق ، إذ أنه من الممكن أن يكون موقفنا فى العراق شبيه بما هو حاصل فى إيران . وأجد من الضرورى تحديد مدى استمرار بقائنا فى البحرين ، وفى مدخل الخليج الفارسى فى كساب . إذ تتمتع البحرين بميناء ممتاز وبمناخ جيد جدا أفضل من شبه جزيرة موسيندام ، ويجب أن تكون مقرا لأسطولنا البحرى فى وقت السلم على الأقل . أما بالنسبة إلى المقر في وقت الحرب ، فإن ذلك تقرره البحرية .

ولم أتناول منطقتى مسقط وجوادور ، لأنهما لا تقعان داخل الخليج الفارسى .

وفى الحقيقة أن مسقط محمية من محمياتنا بالتأكيد ، كما هو الحال فى البحرين ، رغم عدم الاعتراف بذلك رسميا ، ولقضية مسقط تعقيداتها هى الأخرى كالمعاهدات الأجنبية . وهى على أى حال مرتبطة بالقضايا نفسها الخاصة بالدفاع عن الهند والطريق الجوى . وطالما السلطان (سلطان عمان) فى السلطة فإننا ندعمه ، ولاشك أن الأحداث السياسية سترغمنا على القبول بشكل رسمى بجعل ساحل عمان محمية ، وهو كذلك بالفعل من الناحية العملية فى الوقت الحاضر .

أتشرف أن أكون خادمكم المطيع
(توقيع) ل . هوورث
المقدم
المقيم السياسى فى الخليج الفارسى ●

□

كانت الكويت خلال هذه التطورات المتعاقبة كلها امتدادا لولاية البصرة ، ولكنها كانت تحت إدارة أسرة « الصباح » التى اختارها سكان الميناء الصغير لترعى شئون « عوائلهم » عندما يكون الرجال فى رحلات صيد السمك واللؤلؤ ، أو فى رحلات التجارة فى البحر إلى المحيط الهندى .

كان الشيخ السادس منهم قد توفى وترك ثلاثة أبناء هم « محمد » و « جراح » و « مبارك » ، وقد اختلفوا فيما بينهم على إرث أبيهم ، واتفق اثنان هما « محمد » و « جراح » ، واختلف معهما الثالث ـ « مبارك » ـ واستحكم الخلاف على قائمة حساب تحتوى على عشرين ليرة عثمانية ، وسيف يتكلف إصلاحه ٩ ليرات ، وبند ثالث غير محدد (طبقا لرواية نقيب أشراف البصرة ، وهو « خلف (باشا) النقيب ») .(٣)

---

(٣) سمعها منه ورواها عنه الشيخ « عبد العزيز الرشيد » عمدة المؤرخين التقليديين لمنطقة الخليج فى كتابه « تاريخ الكويت » .

وبدأ الخلاف بين الأخوة بمشادة على قائمة الحساب ، ثم انتهى إلى أن أحد الأخوين وهو « جراح » دخل إلى سوق الجزارين فى الكويت ، وصاح مناديا أصحاب الدكاكين : « إياكم أن تعطوا مبارك شيئا ، فقد تبين أنه من المفلسين ، وأن عليه ديونا عظيمة » .

ويقول الشيخ « عبد العزيز الرشيد » :(٤)

« بعد هذا الحادث صمم مبارك على التضحية بأخويه على مذبح الغضب والانتقام . صمم على هتك حرمتهما وقطع رحمهما وإسالة دمائهما الطاهرة ... »

ثم يصل الشيخ « عبد العزيز الرشيد » ليصف كيف وقع القتل ، فيقول :

« فى ليلة من ليالى ذى القعدة المظلمة سنة ١٣١٣ هجرية (١٨٩٦ ميلادية) بعد أن مضى هزيع من الليل وبعد أن هجع القوم ، نهض مبارك مسرعا فقتل أخويه ـ محمد وجراح ـ يسانده ابناه جابر وسالم ، ولفيف من الخدام ، وجعل من كان معه أقساما ثلاثة : هو لأخيه محمد ، وجابر وبعض الخدام لجراح ، وابنه الثانى سالم وبعض الخدام حراسا فى صحن الدار .

صعد مبارك توا إلى محمد فأيقظه من نومه ، وبعد أن انتبه أطلق عليه البندقية ولكنها لم تجهز عليه ، فاستغاث هناك الأخ بأخيه ، وذكره بما له من الحق والحرمة ، فما وجد ذلك الصوت المحزن ، ولا ذلك الاستعطاف الحار سبيلا إلى قلب مبارك الذى امتلأ حقدا وغضبا ، فصوب اليه البندقية ثانية متصامما عن سماع النداء حتى تركه لا حراك به يتخبط بدمه ويجود بنفسه العزيزة .

أما جابر فذهب إلى عمه فى حينه فألفاه يقظان وزوجته إلى جانبه ، فسدد البندقية إليه ، ولكنها لم تنطلق ، فعاجله عمه بالقبض عليه وكان له من زوجته ساعد ومعين ، وكادا يتغلبان عليه لولا مبادرة أحد الخدام إلى مساعدة جابر بتصويب بندقية إلى نحره فأرداه صريعا ، ووقفت زوجته عليه تبكى وتنوح وتندب .... »

ونصب « مبارك » نفسه حاكما على الكويت بينما كان أهلها فى حالة « ضجيج وعويل لهذه المصيبة التى لم يحدث لها نظير » .

□

وذهب بعض أهالى الكويت إلى البصرة يشكون إلى السلطات هناك مما وقع فى

---

(٤) صفحة ١١٩ من [illegible] « تاريخ الكويت » .

مدينتهم[٥] ، وكذلك فعل الشيخ « مبارك الصباح » الذى أراد أن يطمئن والى البصرة ومن ورائه « باشا » بغداد إلى أنه مقيم على العهد ، وحافظ للولاء ، وكان طموحه أن تثبته استانبول فى موقعه ، وتعينه « قائمقام » على الكويت .

ولم تكن بريطانيا على استعداد للانتظار حتى تحزم عاصمة الخلافة أمرها فتقر القتل وما ترتب عليه ، أو تتخذ لنفسها طريقا آخر . وظهر الكولونيل « ميد » المقيم البريطانى فى الخليج ليوقع معاهدة حماية للشيخ « مبارك » .

كانت المعاهدة بتاريخ ٢٣ يناير ١٨٩٩ ، وقد بدأت على النحو التالى :[٦]

- **الحمد لله وحده ـ باسم الله تعالى شأنه .**
الغرض من تحرير هذا السند الملزم والقانونى ، هو أنه قد تم التعهد والاتفاق بين المقدم مالكولم جون ميد ، حامل وسام الصليب الامبريالى ، المقيم السياسى لصاحب الجلالة البريطانية (فى الخليج الفارسى) نيابة عن الحكومة البريطانية من ناحية ، والشيخ مبارك بن الشيخ صباح شيخ الكويت من ناحية ثانية ، بأن الشيخ المذكور مبارك بن الشيخ صباح قد ألزم نفسه هنا بارادته ورغبته الحرة ، وورثته ومن يخلفه ، ألا يستقبل وكيل أو ممثل أى قوة أو حكومة فى الكويت ، أو فى أى مكان آخر ضمن حدود أراضيه ، دون الموافقة المسبقة للحكومة البريطانية ، كما يلزم نفسه أيضا وورثته ومن يخلفه ، بأن لا يتنازل أو يبيع أو يؤجر أو يرهن أو يعطى لغرض الاحتلال أو لأى غرض آخر ، أى جزء من أراضيه لحكومة أو رعايا أى دولة أخرى دون الموافقة المسبقة لحكومة صاحب الجلالة . ويشمل هذا الاتفاق أيضا أى جزء من أراضى الشيخ المذكور مبارك ، التى قد تكون فى حوزة رعايا أى حكومة فى الوقت الحاضر . وتعبيرا عن ابرام هذا السند الملزم والقانونى ، وقع الطرفان ، المقدم مالكولم جون ميد حامل وسام الصليب الامبريالى والمقيم السياسى لصاحب الجلالة البريطانية فى الخليج الفارسى ، والشيخ مبارك بن الشيخ صباح ، الأول نيابة عن الحكومة البريطانية ، والثانى نيابة عن نفسه وعن ورثته ومن يخلفه ،

---

(٥) لجأ إلى البصرة أيضا فى ذلك الوقت أبناء وزوجات الشيوخ القتلى ، وقد ظلت عائلاتهم هناك حتى سمح لبعضهم بالعودة بعد عشرات السنين . وكان بين العائدين الشيخ « على خليفة الصباح » وزير المالية الكويتى ووزير النفط أثناء مقدمات أزمة الخليج .

(٦) مجموعة وثائق وزارة المستعمرات البريطانية عن الكويت .

أمام الشهود بتاريخ العاشر من رمضان عام ١٣١٦ هـ ، الموافق فى اليوم الثالث والعشرين من كانون الثانى/ يناير ١٨٩٩ .

(توقيع)
م . ج . ميد
المقيم السياسى فى الخليج الفارسى

(توقيع)
مبارك الصباح

الشهود :

(توقيع)
أ . ويكهام هور
قبطان السفينة الهند لصاحب الجلالة

(توقيع)
ج . جاسكن

الشاهد :

(توقيع)
محمد رحيم بن عبد النبى صفر ●

ولكن الشيخ لم يقطع على نفسه خط الرجعة ، فقد ظل يحاول الحصول على اعتراف من السلطان بحكمه ، وحينما راجعه المعتمد البريطانى فى شأن اتصالات يجريها مع استانبول ، كان رده : « إنه يملك مزارع نخيل فى « الفاو » (فى العراق) تدر عليه دخلا قدره أربعة آلاف جنيه فى السنة » . وعلقت جريدة « التيمس » على ذلك بقولها « إن الشيخ يريد قدما فى المعسكر البريطانى ، وقدما فى المعسكر التركى » - ولم تكن نتيجة الصراع بين « المعسكر البريطانى » و « المعسكر التركى » فى حاجة إلى ذكاء شديد ، فنجم لندن كان يعلو ، ونجم استانبول كان يخبو ، والشيخ مازال حريصا ، وبريطانيا تدفعه (طبقا لجريدة « التيمس ») إلى توسيع نطاق أراضيه ، وتقوم بتهديد الأتراك كلما تعرضوا له ، ثم تقترح عليه أن يتخذ للكويت علما مستقلا يختلف عن العلم العثمانى ترفعه سفن الكويت بداية إعلان لاستقلالها .

وكتب المقيم البريطانى فى بوشهر « بيرسى كوكس » بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٠٥ تقريرا (رقم ١٥٤ / ٣٧١ . ف) إلى سكرتير حكومة الهند « فريزر » يقول فيه :(٧)

● ١ - بالإشارة إلى برقية وزارة الخارجية رقم ٩٤٣ ، والحاقا ببرقيتى يوم ١٤ الجارى - أتشرف بابلاغكم بالاجراء الذى قمت به بصدد تقديم المشورة لشيخ الكويت باتخاذ علم متميز لاستخدامه فى السفن التى تعود إليه ، أو إلى مواطنيه .

---

(٧) مجموعة وثائق وزارة المستعمرات البريطانية عن الكويت .

٢ ـ فاتحت الشيخ مبارك لأول مرة بالموضوع فى نهاية شهر ابريل ، إلا أنه كان آنذاك فى المخيم فى الصحراء ، ولم يكن المجال متاحا للتحدث فى الموضوع بشكل شخصى وبالتفاصيل ، وخصوصا فى شكل النماذج .

إن الشيخ مبارك لم يحبذ الفكرة فى النهاية لأن شعبه لن يعرف الفرق فى التغيير الحاصل ، وإن مثل هذا العمل سيضاعف من عداوة الأتراك نحوه . لهذا السبب فإنه لا يوافق على اتخاذ علم جديد له ـ إلا أننى وضحت له بأن ذلك ليس بالأمر الضرورى أو المهم ، وإن كل ما هو مطلوب أن ترفع سفنه علما خاصا بحيث يصبح من السهل بالنسبة لسلطات الجمارك فى الخليج الفارسى تمييزه عن الأعلام الأخرى التى تحمل الهلال والنجمة . وقلت إنه بالإمكان إضافة شىء أو تغيير تصميم العلم الحالى الذى يرفعه ، وطلبت منه أن يسمح لى بوضع بعض التصاميم للعلم .....

٣ ـ وقمت بمقابلة طويلة مع الشيخ مبارك حول هذا الموضوع ومواضيع أخرى بتاريخ ١٢ من الشهر الجارى ، وقمت أولا بعرض نماذج من الأعلام المرفقة طيه . العلم الأول (أ) هو علم مشابه لعلم خديوى مصر ، أردت أن يشاهده الشيخ مبارك لعله يرغب به على الرغم من أنه يقوم أساسا على الهلال والنجمة ، ثم شاهد الأعلام الثلاثة الأخرى وشرحت له مزايا كل علم وفوائده ، وأخيرا قرر أن يكون العلم هو التركى ، وتكتب عليه كلمة كويت بالعربية . وإذا ما كانت الحكومة تفضل علما آخر فإن الشيخ سيرفض أى تغيير بسيط فى العلم التركى .... ●

□

كان ممثلو الحكومة البريطانية هم راسمى الخرائط فى الخليج ، وهم حكم المنازعات ، وهم أصحاب الكلمة التى لا ترد . وكان المرجع من قبل هو مصالح التجارة ، ومواقع السيطرة . ومع اكتشاف البترول فى إيران وفى العراق ـ أضيفت مرجعية احتمالات ظهوره إلى ما سبقها من مرجعيات ، وأعدت خرائط وترتيبات ما بعد الحرب العالمية الأولى على أساسها . وكان الضابط « بيرسى كوكس » ـ المقيم السابق فى بوشهر ـ قد أصبح « السير بيرسى كوكس » مفوض حكومة الهند ومندوبها السامى فى الخليج ، ومقره الآن بغداد !

وتروى محفوظات الوثائق البريطانية مشهدا غريبا من المشاهد التى تم بها رسم خطوط بين الكويت والمملكة العربية السعودية . كان السلطان « عبد العزيز آل سعود » وقتها سلطانا على « نجد » فقط ، وطلب إليه السير « بيرسى كوكس » أن يلقاه فى « العقير »

لحل مشكلة المنازعات على الحدود مع الكويت . ويروى مرافق لـ « كوكس » فى تقرير له إلى وزارة المستعمرات بالنص ما يلى :(٨)

« بعد خمسة أيام من المساومات قام السير بيرسى كوكس باستدعاء السلطان إلى خيمته ، وقد أدهشنى أن أراه يعامل السلطان مثل تلميذ مدرسة شقى ، ثم يخطره فى النهاية أنه هو ـ السير « بيرسى كوكس » ـ سوف يقوم بنفسه برسم خط الحدود . وقد أذهلنى أن ابن سعود انهار بطريقة محزنة ، وراح يقول لبيرسى كوكس إنه أبوه وأمه ، وأنه هو الذى أخذ بيده وأعطاه المركز الذى هو فيه ، وأنه بإشارة منه على استعداد لأن يسلم مملكته ذاتها . »

وأمسك السير « بيرسى كوكس » بقلم ورسم خطا على خريطة ، وأصبح الخط حدودا دولية . وكان خط الحدود مع العراق أصعب ، ذلك أن العراق كان كيانا أظهر وأكبر . وعلى أى حال ، فقد كان السير « بيرسى كوكس » ومساعدوه هم الذين اختاروا له ـ بمساعدة المكتب البريطانى فى القاهرة ـ ملكا هو « فيصل » ابن « الشريف حسين » الذى تولى عرش العراق باسم « فيصل الأول » .

والملاحظ أن « فيصل » الذى تولى العرش بإرادة بريطانية لم يستطع أن يقبل خط الحدود الذى وضعته السلطات البريطانية فاصلا ما بين العراق والكويت ، وكذلك فعل رجال بريطانيا فى بغداد ، وأولهم « نورى السعيد » باشا .

ومات الملك « فيصل » ، وجاء بعده ابنه الملك « غازى » ، وإذا هو يأخذ موضوع تبعية الكويت للعراق بمنتهى الجد إلى درجة أنه أنشأ اذاعة خاصة فى قصر « الزهور » راح يذيع منها بيانات تنادى بعودة الكويت إلى الوطن الأم .

ويكشف تقرير بعث به السير « موريس بيترسون » ، المندوب السامى فى العراق ، (رقم ٢٣١٨٠ / ٣٧١) ـ أن « بيترسون » احتج على « نورى السعيد » بسبب هذه الإذاعة الموجهة من قصر « الزهور » . وجاء فى التقرير ما يلى :

« أخبرنى الجنرال نورى السعيد الذى كان مع الملك طيلة هذا الصباح ، بأن البث من إذاعة القصر سببه تسلم الملك برقيات معنونة إليه شخصيا عن هذا الموضوع . وقد عبرت الحكومة الموالية لنا عن أسفها لاستمرار هذا البث ، وأعربت عن أملها أن ذلك سوف يتوقف . وقلت إن الصحف العراقية مازالت تنشر المقالات ، وبأن طلبة كلية الحقوق قد

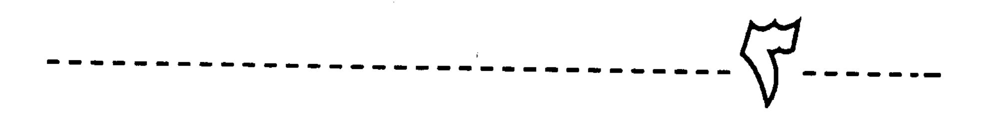
---

(٨) مجموعة وثائق وزارة المستعمرات البريطانية عن الكويت .

طلبوا السماح لهم بالقيام بتظاهرات ، وأن هذا كله يجب أن يتوقف . ثم أظهرت استغرابى من أن الصحف العراقية تطلب من الحكومة أن تقوم بتسليح الجيش العراقى ليقوم بعد ذلك بضم الكويت . وقلت إن هذا كله هراء خطير ! »

ويأخذ هذا الموضوع حيزا واسعا فى تقارير المندوب السامى من بغداد ، ويقوم المندوب السامى بتوجيه إنذار مباشر للملك « غازى » .

وعشية الحرب العالمية الثانية ـ ١٩٣٩ ـ قتل الملك « غازى » فى حادث سيارة فى قصر « الزهور » ، وراجت أقوال على أن الملك لقى مصرعه فى الواقع بسبب مشكلة الكويت .



وظلت القضية معلقة فى الأجواء تظهر مرة وتختفى مرة ، حتى جاءت سنة ١٩٥٨ وفى وقائعها ذلك الفوران الشديد الذى عاشته المنطقة مع حلم الوحدة بقيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا ، ثم حاول الملوك الهاشميون أن يردوا عليه بانشاء الاتحاد الهاشمى ليجمع بين العراق والأردن ، وتكشف الوثائق البريطانية أن البلدين طالبا الحكومة البريطانية بأن حل مشكلة العلاقات بين العراق والكويت يمكن حله بدخول الكويت طرفا فيه . ثم كتب السفير البريطانى فى بغداد فى شهر يونيو ١٩٥٨ « **أنه سمع أن هناك تفكيرا بأنه اذا لم توافق الحكومة البريطانية على الطلب الهاشمى ، فإن الاتحاد الجديد يستطيع أن يتدخل ويضم الكويت إليه ـ عارفا أن بريطانيا لا تستطيع عمل شىء لمقاومة ذلك ، وإلا كان معناه أنها ستحارب الطرف العربى الوحيد الذى يساندها فى عدائها لـ « عبد الناصر » الذى يطارد بقايا نفوذها فى المنطقة بعد معركة السويس ، ويجد له أنصارا كثيرين بين العناصر القومية والثورية فى دول الخليج .** »

ولم تمض أسابيع حتى قامت ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ فى العراق وبدأ نظام حكم اللواء « عبد الكريم قاسم » . وبدوره قام اللواء « عبد الكريم قاسم » بالعودة إلى موضوع تبعية الكويت للعراق . فأثاره فى مناسبة اتفاق تم التوصل إليه بين بريطانيا وشيخ الكويت سنة ١٩٦١ يقضى باعلان إمارة الكويت دولة مستقلة ، وتقدمت الدولة الجديدة لعضوية الأمم

المتحدة ولعضوية جامعة الدول العربية . وبادر « عبد الكريم قاسم » إلى حشد جيش العراق حول البصرة مهددا بالتدخل العسكرى ، وحاول الانجليز أن يؤخروا انسحاب قواتهم من الكويت وأن يعيدوا بعض القوات التى انسحبت منها راجعة مرة أخرى إليها . وكانت مصر هى التى تصدت للأزمة ، فقد وجد « جمال عبد الناصر » أن مصر يتعين عليها أن تحافظ على استقلال الكويت لعدة أسباب رآها تتعلق بالحقائق العربية والدولية السائدة فى ذلك الوقت .

ووقف السيد « عدنان الباجهجى » وهو واحد من خيرة الدبلوماسيين العراقيين والشبان القوميين فى العراق وقتها ، كما أنه ابن لأحد رؤساء وزاراتها البارزين وهو السيد « حمدى الباجهجى » - يشرح وجهة نظر الحكومة العراقية(٩) فى مجلس الأمن بادئا بطلب رفض شكوى حكومة الكويت من التهديدات العراقية ، وقائلا (فى جلسة مجلس الأمن بتاريخ ٢ يوليو ١٩٦١) : « **إن الكويت ليست الآن ، ولم تكن فى أى وقت فى الماضى ، دولة مستقلة ، وقانونيا وتاريخيا فإن الكويت كانت باستمرار جزءا لا يتجزأ من ولاية البصرة العراقية** » . ثم يمضى فى شرح الحجج التاريخية والقانونية التى يعزز بها هذا الرأى .

كان العرب قد سبقوا مجلس الأمن إلى التصرف فى القضية ، فقد عرضت مصر على جامعة الدول العربية مشروع قرار بارسال قوات عربية لحماية الكويت حتى لا يكون استقلالها فى حماية قوات بريطانية . واستجاب مجلس الجامعة ، ووصلت إلى الكويت فعلا قوات أمن عربية - مصرية بالدرجة الأولى .

ومع ذلك نجح العراق فى تعطيل انضمام الكويت إلى عضوية الأمم المتحدة لمدة سنتين ، ولم ينفتح الطريق أمام الكويت إلا بحملة علاقات عامة (وخاصة) تكلفت قرابة مليون دولار وتضمنت بين ما تضمنته « تأمين الحصول » على أصوات بعض الدول الافريقية والآسيوية الصغيرة - فى الجمعية العامة . وتحقق ذلك سنة ١٩٦٣ - وكانت الظروف فى العراق على وشك أن تتغير .

وكانت الأزمة مؤجلة أكثر منها منتهية .

والحاصل أن القضية ظلت مطروحة حتى سقط نظام اللواء « عبد الكريم قاسم » سنة ١٩٦٣ ، وسقط الحكم الانفصالى فى دمشق بعده بشهر واحد . وطلب البلدان - وحزب

---

(٩) يختلف رأى السيد عدنان الباجهجى الآن عن الرأى الذى عرضه باسم حكومته سنه ١٩٦١ ، عن اعتقاد بأن الأمور تغيرت ، وأصبح استقلال الكويت أمرا واقعا مارس العراق نفسه علاقاته السياسية مع الكويت على أساسه .

البعث أظهر الأطراف الحاكمة فى التغييرات الجديدة ـ إقامة وحدة مع مصر تضم سوريا والعراق . وبدأت مباحثات الوحدة الثلاثية فى مصر ، وجرى اجتماع تمهيدى فى بيت الرئيس « جمال عبد الناصر » حضره رئيسا وفدى سوريا والعراق . وكانت المفاجأة أن وفد العراق ، ورئيسه يومئذ السيد « على صالح السعدى » نائب رئيس الوزراء ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة ـ فتح موضوع الكويت من زاوية تعيين حدود دولة الوحدة الجديدة ، فإذا هو يطرح قضية الكويت وحق العراق الذى هو لا ينازع فيها . وكان الوفد العراقى يحفظ عن ظهر قلب كل الحجج والوقائع التاريخية والوثائق التى تعزز دعاويه . وكان لـ « جمال عبد الناصر » رأى مختلف وقد شرحه على النحو التالى . قال :(١٠)

« إنكم تعلمون بالطبع أننا لنا رأى آخر فى هذا الموضوع ، فنحن وقفنا ضد عبد الكريم قاسم عندما أراد أن يضم الكويت . إننا لم نفعل ذلك عن عداء لعبد الكريم قاسم ، كما قال البعض فى العراق وقتها ، وإنما اتخذنا موقفنا على أسس موضوعية أريد أن أشرحها لكم الآن لأن فيها ما لم يكن ممكنا الجهر به علنا فى ذلك الوقت . »

ثم مضى « جمال عبد الناصر » يعدد أسبابه قائلا :

« عليكم أولا ان تتذكروا أن مجىء دول الخليج إلى اطار العمل العربى مكسب كبير فى حد ذاته ، وينبغى لنا أن نشجع عليه مهما اختلفت اجتهادات كل منا . فهذه بلاد تعرفون أكثر منى طبيعة الأوضاع الاجتماعية والسياسية فيها ، وهى كلها تركيبات هشة ، ولكنها غنية وتخشى على نفسها . والسلطة فيها لأسر حاكمة تتشكك فى الحركة القومية عموما ، لأنها محافظة وتقليدية بطبيعتها . وما هو أهم من غنى شيوخها هو المصدر الذى يجىء منه الغنى ، وهذا المصدر هو البترول . والبترول قضية كبيرة وخطيرة لا يستطيع أحد أن يتعرض لها ؛ ببساطة لأنها تمثل مصالح دولية لن يفرط فيها أصحابها مهما كان . إننا صدقنا بالكاد أن هذه المنطقة من العالم جاءت إلى الحركة القومية العامة بمحض رضاها ، وسوف تكون كارثة إذا تصور الناس فى هذه المنطقة أنها تخلصت من الوجود الانجليزى السافر لكى يبتلعها العالم العربى الواسع . وأنا مستعد أن أتفهم بعض دعاواكم ، وقد سمعت وقرأت الكثير من وثائقكم ، **ولكنى أقول لكم فى منتهى الوضوح أن ما تطلبونه شىء فات أوانه بحكم الحقائق العربية والدولية . إن الانجليز لم يعودوا وحدهم فى السيطرة على بترول الخليج ، وإنما هذه السيطرة انتقلت أكثر إلى يد الأمريكان ، فإذا أراد أحد**

---

(١٠) كانت الجلسة مسجلة ، وقد تم تفريغ محضرها ، وجرى توزيع نسخ منه على قيادة القوات المسلحة ، ووزارة الخارجية ، والمخابرات العامة .

أن يضم دولة فى الخليج على غير رضا أهلها ، فيجب أن يعرف سلفا أنه سيواجه قوة الولايات المتحدة . إن الاتحاد السوفيتى نفسه يسلم للغرب وللولايات المتحدة بأهمية بترول الخليج بالنسبة لهم ، وبالتالى يجب أن نعرف أن هذه المعركة فوق طاقتنا ، وأقول لكم أيضا أنها ضد مصلحتنا لأننا يجب أن نشجع شعوب الخليج ودوله على الاطمئنان على أمنهم فى ظل الحركة القومية العربية . إن وجود البترول والثروة المتولدة منه سوف يفرض حدود تنمية على نطاق واسع تبرز معها قوة شعبية كبيرة يمكن بالتفاعل معها أن يتحقق نوع من التعاون الوثيق أقوى مائة مرة من الوحدة الدستورية . إننا كنا فى وحدة اندماجية مع سوريا ، وكنا بلدا واحدا ، ولكن لأن التفاعل بين الناس لم يحدث ، فإن الانفصال جاء سهلا . »

وواصل « جمال عبد الناصر » حديثه قائلا :

« إنكم لا تعرفون مدى حساسية الغرب فى موضوع الكويت . إن علاقاتنا بانجلترا بعد السويس كانت مقطوعة ، وبعد اتصالات طويلة بعثوا إلينا هنا دبلوماسيا بريطانيا (كان « جمال عبد الناصر » يقصد السير « كولين كرو » الذى تولى هذه المهمة فى القاهرة وقتها) يشرف على شئون الرعايا ، وأرسلنا نحن بدورنا دبلوماسيا مصريا للندن ليقوم بنفس المهمة ، واعتبروا واعتبرنا أن هذه خطوة أولى فى سبيل إعادة العلاقات بين البلدين . وأثناء هذه العملية طلب الانجليز فتح خمس قنصليات بريطانية لهم بالجمهورية العربية المتحدة ، وأرادوها فى القاهرة والاسكندرية وبورسعيد ودمشق وحلب . ولم يكن عندنا مانع من الموافقة بشرط أن تكون لنا خمس قنصليات مقابلها فى بريطانيا وممتلكاتها ، وطلبنا أن تكون هذه القنصليات العربية فى لندن وليفربول ودار السلام وعدن والكويت . وعندما ذكرنا له اسم الكويت انتفض كأن عقربا لدغه ، وقال لنا « **أبدا .. كله إلا الكويت** » . لم يكونوا على استعداد لقبول قنصلية لنا فى الكويت ، فهذه بالنسبة لهم مناطق ليس فيها « هزار » !

وعندما قامت الثورة فى العراق ، وذهبت لمقابلة خرشوف ، وكنت فى يوجوسلافيا وأردت أن أراه فى موسكو قبل أن أعود للجمهورية العربية المتحدة ، لأتأكد من موقفهم من التهديدات الموجهة لثورة العراق (١٩٥٨) ولنا بسبب تأييدنا لها ، لم يخف علىّ خرشوف أن الأزمة خطيرة ، وأن الغرب يمكن أن يدخل الحرب بسبب خوفه من أى تهديد على مصالح البترول ، وأن علينا مسئولية تهدئة الموقف وطمأنة الغرب بكل الوسائل . إن الأمريكان كانوا فى حالة ثورة مجنونة ، وحتى ايزنهاور وهو رجل أعتبره عاقلا ـ دفع بالأسطول السادس الأمريكى وأنزل قواته على شواطىء لبنان ، وكانوا بالفعل مستعدين لحرب عالمية لو أن مصالحهم البترولية اقترب منها تهديد من أى مصدر . »

وخلص « جمال عبد الناصر » إلى القول :

« مهما كانت آراؤكم وحججكم القانونية والتاريخية ، فأنا لا أنصحكم بإثارتها . إن العالم اختلف ، والمنطقة تتغير كل يوم ، وعلينا أن نقبل بهذه المتغيرات كحقائق واقعة ، ولكم أن تتذكروا تجربة مصر مع السودان . قبل الثورة كان هناك كلام كثير عن حقوق تاريخية ووثائق ، ونحن لنا روابط أخوة وثيقة مع أهل السودان ، ولنا مصالح كبيرة تتمثل فى المياه ، ولكننا أدركنا أن البقاء فى السودان يعنى اعتراضا لحق أهله فى تقرير مصيرهم ، ومعنى ذلك أنها الحرب . ونحن لا نريد حربا مصرية ـ سودانية ، ولا حربا عربية ـ عربية . وهكذا أجرينا الاستفتاء وتركنا الشعب السودانى يقرر مصيره لنفسه . وعلاقاتنا مع السودان طيبة الآن وسوف تتحسن ، وسوف يحدث ذلك بالتفاعل الحر ، وليس بالحق المفروض بقوة السلاح . وعلى أى حال فإذا بقيتم على اصراركم فى ضرورة اعتبار الكويت جزءا من الدولة الجديدة يتحتم ضمه لها ، فإننى أقول لكم أن معنى ذلك أن دولة الوحدة الجديدة سوف تجد نفسها لحظة ميلادها داخلة فى حرب لا تستطيع تحمل مسئوليتها . وفيما يتعلق بمصر وبى فإننى أصارحكم القول بأننا لن نكون طرفا فى مثل هذه المغامرة . ورأيى ـ وأنا أقوله باخلاص سواء قامت دولة الوحدة التى نتحدث عنها أو لم تقم ـ أن تتركوا هذه القضية للتفاعل الحر بين الناس ، فالأمور فى الخليج لن تبقى على حالها ، وإنما سوف تنشأ تغييرات اجتماعية واسعة نستطيع باطمئنان أن نتفاعل معها فى مناخ من الثقة بالمصير العربى الواحد أقوى من أى اعتبار آخر . »

٤

والحقيقة أن كثيرا مما تصوره « جمال عبد الناصر » وتوقعه كان صحيحا ، ذلك أن البترول غير المنطقة بمقدار ما غير العالم . وإذا كان استهلاك العالم قد ارتفع إلى ٨,٧ مليون برميل فى اليوم سنة ١٩٤٨ ـ فإنه وصل إلى ٤٢ مليون برميل فى اليوم سنة ١٩٧٢ . وكانت الكويت من أكبر المنتجين . ولم تكن ثروة البترول مجرد حسابات فى البنوك بشكل مطلق ، وإنما ذهب جزء مؤثر منها بالضرورة إلى محاولة للتنمية الاجتماعية .

وكانت الكويت من أهم المواقع التى أثرت فيها ثروة البترول . وربما كان من حظها أن شيخها فى ذلك الوقت ، وهو الشيخ « عبد الله السالم الصباح » ، كان رجلا عاقلا ومدركا

لحقائق الداخل الكويتى والمحيط العربى . والشاهد أن هذا الشيخ هو واضع الأساس لما يمكن اعتباره مشروع دولة رفاهية فى الكويت يعتمد على عائدات البترول فى جهد مكثف لبناء الهيكل الأساسى ، ثم يتوجه إلى الخدمات خصوصا فى مجالات التعليم والصحة .

كان الشيخ « عبد الله السالم الصباح » قد تولى الإمارة سنة ١٩٥٠ مع بدء طفرة البترول فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وظل فى الحكم حتى سنة ١٩٦٥ ، ثم توفى وترك الإمارة لشقيقه الشيخ « صباح السالم الصباح » ، وتواصلت نفس السياسة حتى توفى سنة ١٩٧٧ ، فخلفه الشيخ « جابر الأحمد الصباح » .

وكانت الكويت ما زالت تتغير فى هذه السنوات الحافلة . كان التعليم قد نزل بنسبة الأمية فيها إلى ٢٥٪ سنة ١٩٨٥ . وفى نفس السنة كان عدد طلبة جامعة الكويت ١٨ ألفا . وكانت خدمات الصحة قد رفعت متوسط العمر إلى ٧١ سنة للرجال ، و ٧٥ سنة للنساء ، وهى من أعلى النسب فى العالم العربى . كذلك كانت شبكات الكهرباء تغطى الكويت كلها ، وكذلك شبكات توزيع المياه والصرف الصحى . ولم تزد نسبة البطالة على ٠,٣٪ فى احصاء سنة ١٩٨٥ .

كان العقد الأساسى لسكان الكويت مع أسرة « الصباح » حينما جاءت لمدينتهم يقوم على مفهوم يترك التجارة فى يدى أهل الكويت ، ويترك الإمارة لأسرة « الصباح » بشرط ألا تزاول التجارة ، مكتفية فى إدارة شئون البلاد بالضرائب التى يدفعها السكان حتى تستقر الحدود بين العنصرين الضروريين لاستمرار الكويت : التجارة والإمارة . ثم جاء اكتشاف البترول ، وانتاجه ، وتدفق ثرواته . وهنا اختلت الموازين بين الإمارة والتجارة ، فقد أصبحت عوائد البترول بطبائع الأشياء فى يد الإمارة ، وأصبحت هى التى توزع من فوائضها ما تشاء ـ أو لا تشاء ـ على التجارة ، وبالتالى تغير عقد السلطة مع الناس . فقد استطاعت الكويت بعقلية تاجر ماهر يتحوط لمفاجآت المستقبل أن تستثمر فوائض أموالها عن طريق التوسع فى الاستثمار الخارجى . وفى وقت من الأوقات بدت الكويت واحة من الرخاء وسط عالم مضطرب بالمشاكل . وفى سنة ١٩٨٥ وصل متوسط الدخل للفرد فى الكويت إلى ١٣٦٨٠ دولارا فى السنة . وكان وجود مجلس نيابى عنصرا مساعدا على تحقيق قدر لا بأس به من المشاركة فى الحياة العامة . ثم نشأت صحافة كويتية استفادت من غياب مركز بيروت الإعلامى السابق ، فخلقت مركزا بديلا على رأس الخليج .

□

الفقر له مشاكله والثراء أيضا له مشاكله ، وأصعب ما تكون مشاكل الثراء حين يقترن بالضعف .

وكانت المشاكل كامنة . وقد بدأت كالعادة تزيد مع زيادة الثروة :

● كانت المشكلة الأولى هى مشكلة التركيب السكانى . ففى سنة ١٩٩٠ كان تعداد سكان الكويت ٢ مليون نسمة ـ ولكنهم كانوا مقسمين إلى فئات هى فى حقيقة أمرها طبقات . فقد بلغ عدد مواطنى الكويت الأصليين (وهم مواطنو الدرجة الأولى) ٦٢٠ ألفا ـ وبلغ عدد البدو الذين يجوز لهم الحصول على الجنسية الكويتية بشروط ٣٠٠ ألف ، وكان الباقون وعددهم مليون و ١٠٠ ألف (أى ٥٥٪ من السكان) من الذين يطلق عليهم ذلك الوصف المؤذى ، وهو وصف « **بدون** » ـ أى الذين بدون جنسية كويتية ، ولا حق لهم فيها إلا بمعجزة . وكان هؤلاء فى معظمهم من العرب غير الكويتيين (كالفلسطينيين مثلا) ، وكذلك من الإيرانيين ، إلى جانب عناصر آسيوية أخرى .

● إن ذلك التركيب الطبقى خلق فى قلب المجتمع الكويتى تناقضات يصعب إغفال أثرها . ومهما كان من أمر الفرص المتاحة للجميع فإن التفاوت الشديد فى الدخول كان من شأنه أن يزرع فى قلب المجتمع الكويتى أسبابا للقلق الاجتماعى . وفى الحقيقة أن تركيب الكويت أصبح هرما اجتماعيا لا يظهر على سطحه ـ بتأثير الرخاء الظاهر ـ ما يجرى فى داخله بسبب التناقضات من حساسيات ومشاكل . وكانت قمة الهرم بالطبع هى الأسرة الحاكمة . وتحتها تجىء طبقة كبار التجار من عائلات الكويت الأصلية . وقد نشأت بين الاثنين علاقات شد وجذب مردها أن التجار يعتبرون الشيوخ موظفين للخدمة العامة بما فى ذلك الأمير الذى كان يتقاضى مرتبا رسميا قدره مليون دينار كويتى فى الشهر . ولم يكن ذلك بالضبط رأى الشيوخ (خصوصا ودخل البترول تحت تصرفهم) . وتحت طبقة التجار كانت هناك طبقة حاملى الجنسية الكويتية ، وقد شغلوا معظم مناصب الدولة العليا ووظائف الشركات . وتحت هؤلاء جميعا قاعدة عريضة تضم خليطا واسعا من الجنسيات يعملون فى كل مكان ، وفيهم من يعتقد أنه شارك فى بناء الكويت الحديثة بأكثر من أبنائها الأصليين ، ومع ذلك فإنهم مازالوا « بدون » .

● وعندما فاضت الثروة بدأ الشيوخ فى الكويت يتصرفون فى ثراء لم يكونوا على استعداد له ، وقد خيل إليهم أنه ملك شخصى لهم . ذلك أن عوائد البترول ـ اختلافا عن فوائد التجارة ـ تركزت فى أيديهم . فالإمارة هى الدولة ، والدولة هى الأسرة .

وجرت محاولات لعقد صفقة مشاركة أوسع .

لم تكن التجارة تستطيع أن تستغنى الآن عن البترول ، وما يتصل به ـ فذلك مستحيل .

ولم تعد الإمارة تريد أن تبتعد إلى الأبد عن التجارة ـ فالأوانى مستطرقة .

ولقد خلطت العقود والصفقات والاستثمارات كل العناصر ببعضها ، وجرى الاحتكاك بين الشيوخ وبين طبقة التجار ، وبينهم وبين كثيرين من طبقة « بدون » وكانت لدى بعضهم من الخبرة والمؤهلات ما يسمح لهم بحق أكبر فى صنع القرار ، لكن وضعهم الاجتماعى يضع سقفا غير منظور على صعودهم مهما فعلوا . ثم زادت الأمور صعوبة عندما بدأ الشيوخ يتحولون تدريجيا - بضغط الثراء ومظاهره - من أسرة تدير إلى أسرة تحكم ، ومن أسرة تحكم إلى أسرة تملك . ولم تعد الأسرة إمارة فقط ، وإنما أصبحت وزارة أيضا . فرئيس الوزراء هو ولى العهد ، ثم إن مناصب الخارجية والدفاع والداخلية يجب أن تكون لأفراد من الأسرة ، وكذلك البترول والمالية والإعلام إلا فيما ندر . وحدثت ، وكان لابد أن تحدث ، تقلصات داخل المجتمع الكويتى نجمت عنها توترات مكتومة .

● وكانت هذه الضغوط الخارجية ، والتقلصات والتوترات الداخلية ، تتجاوب مع الظروف القلقة فى المنطقة طوال السبعينات والثمانينات . ذلك أن اختلال المعادلة العربية بعد معركة ١٩٧٣ ، وابتعاد مصر - أدى إلى خلل شديد لأن إيران اعتقدت أن المجال أصبح مفتوحا لها .

وكان الشاه فى السنوات الأخيرة من حكمه ، وبكل ما يمثله ، عنصرا لابد من حسابه فى سياسة الكويت . وكذلك أصبحت الثورة الإسلامية بعد سقوط الشاه . وكانت الحرب العراقية الإيرانية هى حقل الألغام الذى أحاط بالكويت . وراح مجال الحركة الذى كان واسعا يضيق ، والصدور التى كانت رحبة فى الكويت تفقد صبرها خشية المحيط الهائج حول جزيرة صغيرة . وجرى حل مجلس الأمة الكويتى أكثر من مرة ، وفرضت الرقابة على الصحافة قاسية وعمياء فى بعض الأحيان . وعندما زادت حركة المطالبة بالمشاركة كان المخرج السهل هو استعمال العنف القانونى أو العنف خارج القانون فى عدد من المرات !

ولكن أى عنف قانونى أو غير قانونى لم يكن قادرا على تصفية المراكز التى تعددت فى الكويت ، فطبقة التجار أنشأت صفوة جديدة ، وكذلك فعلت طبقة كبار الموظفين ، وكذلك أضافت جماعات من الوافدين من العرب . ولأن الأنساب جمعت بين عناصر متعددة فقد أصبح فى الكويت شىء أقرب ما يكون إلى حركة الرأى العام المؤثر بالفعل وبالكلمة ، وحين كان المجال الرسمى - كمجلس الأمة - يضيق بالكلام ، فإن تلك المؤسسة الفريدة فى الكويت ، وهى « الديوانية » - قاعات فى كل بيت كبير مخصصة للضيوف ومفتوحة كل ليلة للحوار - كانت تؤدى دورها حتى وصلت إليها يد السلطة فى السنة الأخيرة السابقة للغزو .

● وكانت الكويت ضحية حصار من نوع خاص . ذلك أن النظم التقليدية من حولها

كانت تبدو شامتة فى مأزقها ، مجاهرة بأنها طالما حذرت هى منه . فكثيرا ما نصحوا الشيوخ فى أيام الصفاء السابقة بأن الانفتاح الديمقراطى سوف يؤدى لانفلات فوضوى . وفى نفس الوقت فإن بعض النظم والقوى الجديدة فى العالم العربى راحت تطالب الكويت بأكثر مما تستطيع بنيتها الاجتماعية وطبيعتها السياسية وموقعها الجغرافى أن يحتمل . وبين هذين النوعين من الضغوط راح الكيان الكويتى الهش يعانى من رضوض وكسور . وتكررت حوادث العنف فيه ، وضمنها محاولة لاغتيال الأمير قامت بها عناصر من الشيعة ، وكان أول آثارها هو حدوث نوع من الردة العامة أثرت على معظم المظاهر التى تجعل التجربة الكويتية متميزة عما حولها فى شبه الجزيرة العربية والخليج . ولقد أدت هذه الردة ـ ضمن ما أدت إليه ـ إلى زيادة الاعتماد الظاهر على الحماية الأجنبية .

كانت الحماية الأجنبية بحكم أهمية البترول وضعف الكيان الذى ظهر فيه ـ نموذجا لمعادلة التهديد والحماية . وكان الذكاء الكويتى قادرا فى ظروف سابقة على مدارة التهديد ، وبالتالى على تغطية أدوات الحماية ، فلما بدأت الرقعة تضيق لم تعد المداراة كافية ، وكذلك التغطية .

● وراح وهم الاستقلال يتبدد يوما بعد يوم ، ذلك لأن الاعتماد على القوى الخارجية أصبح خياراً لا مفر منه ، وقد بدت سياسة التسليح الكويتية مضيعة للجهد والمال . وكانت اشكالية الأمن الكويتى أن السلاح الذى يشتريه بعشرات البلايين من الدولارات لا يستطيع الصمود أمام تهديد خارجى ، وهو فى نفس الوقت لا يصلح لمواجهة أى تهديد داخلى . فالطائرات والصواريخ لا تصلح لفض المظاهرات ولا لمواجهة معارضة فى مجلس الأمة ، ولا لإسكات حوار الديوانيات .

● ثم أضيف إلى هذا كله أثره على الشخصية الكويتية . فقد راحت تتمسك بتميزها معتبرة أنه خاصية مخلوقة فيها مهما كانت الظروف . وساعد على ذلك بالطبع أن الغنى الفادح المحاط بالفقر المدقع يورث أصحابه نوعا من الكبرياء يمكن أن يحسب كنوع من الاستكبار . وكانت النتيجة أن الكويت بدت للآخرين بلدا أصابه داء التعالى بغير مبرر حقيقى . وأدى ذلك إلى حساسيات أصابت كثيرين من العرب ، حتى هؤلاء الذين كانوا يحاولون فهم مشاكل الكويت ويتعاطفون معها .

□

فى هذه الاجواء المكفهرة انفجرت فضيحة سوق « المناخ » . وكانت بداية انفجارها شيكا بمبلغ ١٨٧ مليون دولار كتبته إحدى السيدات من الأسرة الحاكمة ، ولم تكن هناك تغطية كافية له فى السوق ، واضطربت أحوالها وانفجرت الفقاعة الضخمة وكأنها قنبلة

موقوتة تطايرات شظاياها فى كل مكان . وفى يوم واحد توقف عن الدفع ثمانية أفراد بلغت مديونياتهم لأوراق السوق ٩ بلايين دولار . ثم اتضح أن هذا المبلغ يمثل عشر المديونيات المكشوفة فى سوق « المناخ » ، ومعنى ذلك أن الخسارة العامة بالسوق تتجاوز ٩٠ بليون دولار . ولم يكن فى استطاعة الحكومة أن تترك أزمة سوق « المناخ » تتحول إلى أزمة عامة تؤذن بانهيار الكويت كلها . وفى نفس الوقت فإن الحكومة لم تكن تملك ـ على حد تعبير الدكتور « عبد اللطيف الحمد » وزير المالية وقتها فى الكويت ـ « أن تحمى المغفلين » . وفى حين وقف « عبد اللطيف الحمد » (وهو من ألمع شخصيات الكويت) موقفا مبدئيا وصلبا فى حدود التعويضات التى يتعين على الحكومة دفعها انقاذا للموقف ـ فإن الحكم قرر أن يتدخل ، وكانت المشكلة الحقيقية أن كثيرين من أفراد الأسرة الحاكمة كانوا بين المنتظرين للتعويضات ، ونالهم بالفعل منها الكثير . واضطر « عبد اللطيف الحمد » إلى تقديم استقالته . وبدأ تعويض « المغفلين » ، ودفعت الخزانة الكويتية بأكثر مما تطيق .

□

وهكذا فإنه فى بداية سنة ١٩٩٠ كانت الكويت مكشوفة بالكامل . وكان ذلك هو الوقت الذى بدأ فيه ضيق العراق يتجه إليها ، وشكاواه تتحول نحوها ، وشكوكه تحوم من حولها .

كانت المشاكل الاقتصادية التى نجمت عن انهيار أسعار البترول ـ هى البداية ، ثم استدعت الأسعار قضية تضحيات العراق فى الحرب مع إيران ، ثم استدعت تضحيات الحرب قضية أوضاع الحدود فى المنطقة ، ثم استدعت الحدود كل حكايات الجغرافيا والتاريخ ـ واختلط الحابل بالنابل .



الجزء الثانى

حرب البترول الثالثة



الفصل الأول

نقطة اللاعودة

« أحسست أن النار تخرج من خشمى ! »

[الرئيس « صدام حسين » للملك « فهد » فى بغداد ـ مايو ١٩٩٠] .

١

مع قرب نهاية سنة ١٩٨٩ ـ واقتراب بداية سنة ١٩٩٠ ـ كانت نذر العواصف تتجمع فوق الخليج،، ولكن الاهتمام العربى بدا منصرفا عن الشحنات المعبأة بالخطر ، مركزا هناك على شاطىء الأطلنطى ينتظر مؤتمر قمة عربى يجرى الترتيب لعقده فى الدار البيضاء . وكانت القمم العربيّة قد أصبحت وحدها محركات العمل العربى !

□

وفى مأثور الأقوال أن كل شعب يحصل على نوع الحكم الذى يستحقه . وهذه قاعدة صحيحة ، أو يجب أن تكون صحيحة فى مجملها . وربما أن خير ما يعبر عنها هو الحديث المنقول عن النبى محمد ﷺ : « **كيفما تكونوا يول عليكم** » . لكن القاعدة لا تنطبق فى مطلق الأحوال . ولعلها تصدق فى المجتمعات التى يكون فيها للأمم والشعوب حق اختيار

السلطة التى تمثلها والمفوضة للحكم باسمها . أما فى العالم الثالث عموما ، والعرب ضمنه ، فإن الشعوب لم تتملك بعد هذا الحق .

والحاصل أن سلطة الحكم فى العالم العربى موروثة فى معظمها :

- **إما** من تقاليد قبلية يصعب عليها التصالح مع الأزمنة الحديثة .
- **وإما** من أحلام مشروعات سابقة مضى أوانها ، وتآكلت شرعيتها لسبب أو آخر .
- **وإما** من مصادفات تاريخية جاءت كرهان الحظ يصدق أحيانا ، ويخيب أحيانا أخرى .

وغير إشكالية إرث السلطة ، فإن هناك عبئا يلازمها ، ولعله من تأثير فكرة الإرث أيضا . ذلك أن السلطة ـ مهما كان مصدر إرثها ـ تتمتع بنوع من الثبات النسبى لا يعرف الحركة المؤدية للتداول ، كما تعرفها مجتمعات عديدة . ففى غياب آليات التغيير التى تستند إلى قوى اجتماعية حقيقية تظهر وتنمو من خلال تقدم وتطور الأمم والشعوب ـ تتعطل حركة تداول السلطة ، وينفسح المجال لتكنولوجيا الأمن تجمد الأوضاع الراهنة بدعوى الحرص على الاستقرار ، أو الحفاظ على الصالح القومى . ويلاحظ فى هذا الصدد أن متوسط بقاء الجيل الراهن من الحكام العرب هو ١٨ سنة متصلة فى السلطة ، ولا تظهر على الأفق احتمالات لتداولها لينة أو طيعة !

ولعل ذلك كان انعاكسا لأحوال مرحلة من التطور العربى ، دون أن يكون بالضرورة تعبيرا عن نوع الحكم الذى تستحقه شعوب الأمة العربية .

وربما جاز القول أن الحكم فى العالم العربى خلال أكثر من ألف سنة ، لم يعرف غير نوعين اثنين من السلطة :

- **سلطة عصور الخلافة** (الأموية أو العباسية أو العثمانية) ـ وهى سلطة تحمل ادعاء دينيا ظاهرا أو خفيا .
- **وسلطة عصور المماليك** (بكل مدارسهم المتعاقبة) ـ وهى سلطة تحمل ادعاء عسكريا ـ وعنصريا حتى وإن كان باعثه الشعور الدفين لدى المملوك بالنقص .

ثم كان التطور اللاحق بعد انقضاء هذين العصرين ـ هو أن الحكم فى العالم العربى ـ أو على الأقل فى أكثره ـ ورث مزيجا من سلطة كليهما ، فأصبحت له عمامة خليفة ، وسيف مملوك . وزاد القرن العشرون على ذلك أنواعا من السلطة الالكترونية ، ابتداء من أجهزة الإذاعة والتليفزيون ، إلى أجهزة التصنت والتسجيل !

طوال حقبة الثمانينات ، وفى التمهيد لما بعدها ـ كانت أحوال العالم العربى على غير ما يرام :

● إن العالم العربى تائه فى دنيا متغيرة ، وهو لا يعرف كنه هذه المتغيرات ، ولا هو قادر على تحديد موقعه وموقفه منها .

● إن العالم العربى لم يعد له مركز مرجعى يتطلع إليه الكل وقت الأزمات ، وينتظرون منه الرأى والاجتهاد فى قضايا عصر متغير .

● إن العالم العربى أصيب باختلال شديد فى توازنه نتيجة لاختفاء الصيغة التى اعتمد عليها فى إدارة علاقاته الدولية . وكان العرب على درجات متفاوتة يعتمدون على ثنائية ـ أمريكية ـ سوفيتية ، تحكم القمة الدولية ، وقد توصلوا إلى صيغة للتعامل معها ، ولكن الثنائية القديمة سقطت وأخذت معها توازن التفكير العربى ، أو محاولته للتوازن !

● إن العالم العربى راح يعانى من حالة اختراق خارجى له . وقد تنوعت دواعي هذا الاختراق ، ولكن النتائج فى النهاية كانت واحدة .

● إن العالم العربى انقسم اجتماعيا إلى فقراء وأغنياء ، وإلى دول فائض مالى ودول فائض سكانى ، ودول عمل ودول ريع ، وأدى ذلك إلى تنافر فى مجموعات القيم ، وفى قواعد السلوك ، حتى على مستوى الحياة اليومية .

● إن تركيز السلطة فى كل بلد عربى وصل إلى درجة غير مسبوقة .

● إن كل بلد عربى ـ ونتيجة لما سبق ـ راح يركز على شئونه الداخلية بالدرجة الأولى ، وتوارى المشروع العربى العام ، وبرز المشروع الفردى الخاص لأن كل بلد راح يقصر همه على مشاكله الذاتية ، كما أن كل فرد لم يعد باقيا له غير مطالبه الشخصية .

● إن العالم العربى شهد فى هذه الفترة حالة من فقدان الثقة بالنفس واللا مبالاة والإحباط استبدت بجماهير واسعة نتيجة إحساسها بأنها ليست فقط معزولة عن المشاركة فى صنع القرار ، وإنما هى معزولة أيضا عن المعلومات والوقائع المؤدية إليه ـ وترتب على ذلك أن الجماهير أسلمت نفسها مضطرة لمصادر إعلامية من الخارج ، وكان هذا الخارج يسلط على العرب ٤١٢ ساعة كل يوم من الاذاعات الموجهة الناطقة باللغة العربية ، والتى تهدف إلى التأثير عليهم سياسيا بالدرجة الأولى ، وإن حشرت موجاتها بألوان من المواد الثقافية والأدبية والفنية وحتى الدينية . فهذه الإذاعات ممولة من حكوماتها ، ومطلبها

هو تطويع الانسان العربى ، وذلك مشروع فى صراعات الأمم والثقافات والمصالح والنفوذ .(١) .

وكل ذلك تفاعل وامتزج مع بعضه ليصنع أزمة فى العقل والنفس والمزاج العربى ـ كان انعاكسها على أحوال الأمة مقلقا .

□

كان العمل العربى ما زال مطلوبا بالقصور الذاتى أو بالعادة ، كما أن مؤسساته كانت لا تزال قائمة تذكر بنفسها رغم خوائها وعجزها نتيجة لظروف الأمة وأحوالها . وفى النهاية وقع اكتشاف أن هناك مؤسسة واحدة فى العالم العربى ما زالت قابلة للحركة ، وهى ما اصطلح على تسميته « **بمؤسسة القمة** »(٢) ، وكان ذلك بشكل من الأشكال متسقا مع سلطة الحكم الموروثة ، ومع أحوال المجتمعات المقلقة .

كان منطقيا فى هذه الظروف أن يجرى اختزال دور المجتمع فى إطار الدولة ، وأن يجرى اختزال دور الدولة فى مستوى القمة منها .

ولم تكن اجتماعات القمة شيئا جديدا ، فقد بدأت أول ما بدأت فى الأربعينات بقمة « أنشاص » التى دعا لها الملك « فاروق » قبل حرب فلسطين .

ثم دعيت مرة أخرى فى بداية سنة ١٩٦٤ لموضوع أساسى فرض نفسه وقتها وهو مشروعات تحويل مياه الأردن ، ومن هذه القمة خرجت منظمة التحرير الفلسطينية .

أى أن القمم العربية كانت دعوة استثنائية فى ظروف استثنائية ـ لكنه عندما بدأ العمل العربى يتدحرج إلى أزمته لم يعد هناك غير « القمة » ـ وهكذا يطرأ حدث فإذا أول ما يخطر على بال الراغبين فى مواجهته بعمل عربى موحد ـ هو الدعوة إلى مؤتمر عربى على مستوى القمة لأنها وحدها تستطيع أن تحل وتربط .

وقد توالت القمم وتكررت ، ثم تبدت لها هى الأخرى مشاكل :

---

(١) يقتضى الإنصاف أن يكون هناك تفريق بين الأهداف التى تعمل لها هذه الإذاعات ، وبين مجموعات العرب ـ رجالا ونساء ـ من العاملين فى هذه الإذاعات ، فهؤلاء يضمون بينهم بعض خيرة الكفاءات فى دنيا الإعلام العربى ، وكثيرون منهم يبذلون جهدا خارقا يضيف لمسة تنوير حقيقية ، بصرف النظر عن الأهداف الأصلية التى تتوخاها الحكومات الأجنبية التى تملك وتدير هذه الإذاعات .

(٢) الأستاذ « جميل مطر » وهو مفكر سياسى وكاتب ، وقد وصل إلى حد المطالبة بتحويل « القمة » إلى مؤسسة دائمة طالما أن غيرها من المستويات فى العمل العربى سقطت فاعليته ، وقد طرح اقتراحه فى عدد من الأبحاث والمقالات .

● **أولى المشاكل** أن أصحاب القمم يذهبون اليها - فى العادة - مترددين ، فهم هناك مدعوون إلى اتخاذ قرارات ، وهم إزاء القرار أنواع ، فريق لا يستطيع وفريق لا يريد ، وفريق يستطيع ويريد ولكنه يفضل ألا يربط نفسه بآخرين يعطلون سيره إلى نية نواها ، أو قصد يقصده .

● **والمشكلة الثانية** أن القمم - فى العادة - تلفت الانتباه وتثير توقعات لا تسمح بها الظروف في رأى المدعوين إليها ، وهى إذن تضع مسئوليات تحاسب عليها القمم دون أن يكون لها رأى فى تشكيلها .

● **والمشكلة الثالثة** أن القمم تحاول تعويض نقص الفعل بزيادة الكلام ، ومن ثم فإن المناقشات والقرارات تتحول إلى مباريات فى البلاغة ، أو فى إعادة تأويل التاريخ .

● **والمشكلة الرابعة** أن هناك توافقا بين أصحاب القمم - على غير اتفاق - بأن يحاول كل منهم تجنب المشاكل التى تؤدى إلى إحراج غيره ، فالعالم العربى - وبقاع أخرى فى العالم غيره - لا يعرف السر ، وما يدور فى القمم المغلقة اليوم سوف يكون حديث المجالس غدا ، وليس من أحد راغب فى إحراج نفسه ومن ثم فسبيله إلى ذلك ألا يحرج غيره . وهكذا يجىء التوافق ، وبغير اتفاق .

● **والمشكلة الخامسة** أن كل قمة لابد لها أن تنجح ، ونجاحها مرهون بالإجماع بحيث تبدو إرادة الفعل واحدة ، موجودة وقائمة ، وذلك من شأنه أن يحول الإجماع فى النهاية إلى عبارات تعنى كل شىء ، ولا تعنى أى شىء فى نفس الوقت .

● **والمشكلة السادسة** - وهى تتصل بذلك - أن أصحاب القمة طبائع ، فهناك الصامتون وهناك المتكلمون ، والصمت والكلام فى حاجة إلى ترجمة ، وأحيانا فى حاجة إلى خبراء فى فك الشفرة والرموز ، فلا الصمت دليل إحجام ، ولا الكلام دليل إقدام .

● **والمشكلة السابعة** أن القمم فى العالم الثالث كله ليست مستودعا للحكمة الجماعية لشعوبه لأنهم بذواتهم مصدرها ، وأجهزة الدولة كلها مسخرة لتجسيد هذا الوهم ، وبالتالى فإن القمم حين تلتقى لا تحمل معها جديدا ، وبالتالى فهى استعراض ظواهر ليس مستعدا أن يغوص فى العمق مع غيره ويستكشف ، وإلا عرض نفسه لمخاطر الاستكشاف .

● **والمشكلة الثامنة** أن القمم على نحو ما تعكس ما حولها ، ذلك أنه يستحيل أن ترتفع قمة على غير قاعدة ، كما أنه من الطبيعى أن الموج المتلاطم عند القواعد يصل برذاذه إلى ما فوقها ، ومن ثم فإن القمم أيضا فيها أغنياء وفقراء ، وتقدميون ومحافظون - على الأقل فى ظن كل واحد منهم . ثم إن لها حساسيات من الحاضر أو من التاريخ ، ولها عقد موروثة أو مكتسبة - لها حساسيتها .

(وكانت المشكلة ـ وهى مشكلة تتفرد بها القمم العربية ـ أن القمم لا تجتمع إلا إذا كان أهل الفقر فيها يريدون توريط أهل الغنى فى تكاليف مالية لها سطح وليس لها قاع ، ولذلك كان أهل الغنى دائما آخر من يقبل الدعوة وأول من يغادر قاعة الاجتماع متمنيا على الله ألا يعود لها مهما اختلف المكان والزمان .)

● **والمشكلة التاسعة** أن أصحاب القمم يعرفون عن بعضهم أكثر مما هو لازم ، فالتقارير والروايات والقصص متواترة فى أجواء القصور ، ومن ثم فاللقاءات مهما بدت حارة أمام الآخرين ـ مطوية على كثير لا يظهر للعيان ، وليس هناك من يريد أن يذهب إلى قمة ليفجر فيها لغما ، أو لينفجر فيه هو لغم .

● **والمشكلة الأخيرة** أن القمم العربية لأنها عربية ـ وليس لأنها قمم ـ لابد لها من مراسم واحتفالات وطقوس ، حتى وإن كان اللقاء يوما أو يومين . وفى أوروبا مثلا يتقابل رؤساء حكومات مجموعة السوق الأوروبية فى مطعم على حدود بلد من بلدانهم ، أو فى إحدى قرى جبل من جبالهم ، ويتحدثون فى أجواء طبيعية وعملية . لكن القمم العربية مهرجانات أبهة وعز يقصد بها الإيحاء ، أو الإلهاء (بدليل أن العالم المتقدم كله لم يعد لديه الوقت ، أو الأعصاب لنسيان النفس والظروف فيها) .

ومن الغريب أنه فى بحر سنة من تصاعد أزمة الخليج ـ أى من أغسطس سنة ١٩٨٩ إلى أغسطس سنة ١٩٩٠ ـ تكررت القمم دون أن تتعرض جميعها للكارثة المطلة على حافة الأفق ، باستثناء قمة القاهرة فى أغسطس ١٩٩٠ ، وقد انعقدت هذه القمة وكان الأوان قد فات .

٣

فى بداية ظهور الأزمة كان العالم العربى ـ إذن ـ على موعد لقمة فى الدار البيضاء على شاطىء المحيط ، والغريب أن عوامل المد والجزر والشد والجذب كانت تمارس دورها وتعيد فرز الأوراق وترتيب الصفوف ، ولا أحد يتنبه إلى أن تلك حركة رئيسية على مسرح الشرق الأوسط لم يخطط لها أحد مسبقا ، وإنما هى كيمياء العناصر المختلفة حين تتلاقى ، وتختلط ، أو تتنافر ، أو تتفاعل فى مناخ معين ، أو درجة حرارة معينة .

إن المناخ الذى أحاط بمؤتمر القمة العربى فى الدار البيضاء فى شهر نوفمبر ١٩٨٩ يستحق عملية رصد دقيقة تحيط قدر الإمكان بآفاقه .

كان الهدف الأصلى لعقد مؤتمر قمة فى تلك الظروف من سنة ١٩٨٩ ـ هدفاً واحداً محدداً هو « **دعم الانتفاضة** » . وكان السبب الذى حرك الأصوات والجهود للدعوة إليه هو تصاعد حدة القمع الإسرائيلى الذى ضاق باستمرار الانتفاضة ، وأقلقه تأثيرها على الرأى العام ، خصوصا فى أوروبا وأمريكا .

وكان طبيعيا أن يهتز الرأى العام العربى إلى الأعماق رغم الحصار الإعلامى الشديد الذى فرضته بعض العواصم العربية على ما يجرى فى الأرض المحتلة ، وبالذات فى القدس التى برزت فجأة وكأنها عاصمة الانتفاضة رغم كل محاولات إسرائيل لضبط الأمور فيها بأى ثمن .

وعندما علت الأصوات تطالب بعقد مؤتمر قمة عربى لمواجهة هذا التصاعد الدموى فى القمع الإسرائيلى ـ كان طبيعيا أن يأخذ الملك « الحسن » على عاتقه مهمة الترتيب لعقد هذا المؤتمر باعتباره رئيسا للجنة القدس العربية العليا المسئولة من مؤتمرات سابقة عن متابعة أحوال هذه المدينة المقدسة . وبالفعل فإن الملك « الحسن » بدأ بتوجيه الدعوات ، واقتراحه لجدول الأعمال بند واحد هو « دعم الانتفاضة » . وربما كان إصرار الملك على تحديد هذا البند ، والاقتصار عليه جدولا لأعمال القمة ـ راجعا فى جزء منه إلى إحساس الملك بأن العالم العربى منقسم فى أوضاعه الراهنة إزاء كافة القضايا ـ إلا أن نداء القدس وحده يلقى الإجماع ويلقى الاستجابة . وبالفعل فإن كل الدول العربية التى تلقت دعوة الملك ردت عليه بقبولها ؛ وعلى أساس جدول الأعمال المحدد والمختصر الذى اقترحه .

□

فى العمل السياسى يكون كل هدف مباشر ملحوقا بأسباب أخرى غير مباشرة تريدها الأطراف دون أن تفصح عنها حتى لا تتسبب فى تعقيد الأمور قبل الأوان ، وهذه الأطراف تحمل فى العادة أهدافها غير المباشرة فى جيوبها إلى أى مؤتمر ، وإن حملت فى ملفاتها جدول أعماله الرسمى ـ أى المباشر .

وكانت أهم الأسباب غير المباشرة التى حملتها الجيوب ، وإن لم تحملها الملفات ، خمسة أسباب واضحة :

١ ـ منظمة التحرير الفلسطينية تريد تصديقا وإقرارا من مؤتمر عربى على مستوى القمة بمجمل التنازلات التى قدمتها ابتداء من اجتماع المجلس الوطنى الفلسطينى فى الجزائر يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩٨٨ ، وحتى اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة الاستثنائى فى جنيف يوم ٥ ديسمبر سنة ١٩٨٨ ـ وكانت هذه التنازلات قد تضمنت اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ كأساس لتسوية سلمية ترعاها الولايات

المتحدة الأمريكية التى أبدت استعدادها للحوار مع المنظمة إذا هى اعترفت بهذا القرار..

واستجابت المنظمة فى خطوة واسعة وجريئة ، ولكنها كانت تريد تقوية موقفها بغطاء عربى شامل .

٢ ـ وكان لبنان يريد نهاية منظمة لحربه الأهلية التى اندلع حريقها سنة ١٩٧٥ وظل مشتعلا رغم كل المحاولات لإطفائه أو للسيطرة على لهيبه . وكان الدافع الرئيسى لطلب تسوية منظمة هو أن كل الأطراف فى الحرب الأهلية اللبنانية أصابها إعياء شديد لم تعد بعده قادرة على مواصلة جنون الشهوات الجامحة والمدمرة . وبالتالى فإن كل هذه الأطراف كانت على استعداد للحل ولو كفرصة لالتقاط الأنفاس . وكان هناك كثيرون يعتقدون أن الحرب الأهلية اللبنانية هى فى حقيقة أمرها حربا أهلية عربية اختار أصحابها أن يقاتلوا معاركها على الأرض اللبنانية بحكم كونها مفتوحة ومكشوفة .

وربما أن سوريا أيضا كانت تريد تسوية منظمة للحرب الأهلية فى لبنان ، ومثل هذه التسوية المنظمة لا تستطيع أن تبدأ إلا بالحقائق الراهنة فى لبنان ، والدور السورى هو أهم هذه الحقائق ـ ومن ثم فإن أية تسوية منظمة سوف تحمل فى طياتها اعترافا عربيا ضمنيا بوضع خاص لسوريا فى لبنان .

٣ ـ وكانت دول البترول العربية المشاركة فى مؤتمر بغداد سنة ١٩٧٩ الذى أعقب ابتعاد مصر عن الصف العربى بعد صلحها المنفرد مع إسرائيل ، قد قدمت لدول المواجهة الباقية (سوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية) ـ مساعدات طويلة الأمد تمتد على عشر سنوات . والآن (سنة ١٩٨٩) فقد انقضت السنوات العشر ، وكانت دول المواجهة تريد تجديد الدعم . ولم تكن القضية قضية مواجهة ، فإن الأوضاع العربية كلها لم يكن فيها ما يسمح باحتمال قائم لأى مواجهة ، وإنما كان واقع الأمر أن هذه المساعدات التى استمرت عشر سنوات أصبحت ـ بحكم العادة ـ مصدرا من مصادر تمويل ميزانية هذه الدول ، وبندا تعتمد عليه فى حياتها بصرف النظر عن عنوان المواجهة . وكانت الدول المعنية تعرف مسبقا أن الدول المقدمة للدعم ترى الحقيقة ، وتعرف أن اتجاه الحوادث ماض على طريق التسوية ، وأن مقولات الدعم وتعزيز الصمود فات وقتها ، خصوصا بعد ما جرى فى الكتلة الشرقية التى كانت مصدر السلاح ومصدر التأييد السياسي الذى تتصوره دول المواجهة . ثم إن قبول منظمة التحرير الفلسطينية بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ هو منعطف بالغ الأهمية على طريق التسوية ، وهى مرحلة مختلفة عما سبقها .

٤ ـ وكان العراق يريد اعترافا من الجميع بدوره فى الدفاع عن البوابة الشرقية للعالم العربى ـ كما كان الوصف العربى الشائع لحربه مع إيران ـ ولعله كان يريد ترجمة هذا

الدور إلى اعتراف به كفوة إقليمية بارزة ، خصوصا وأنه يدخل القمة العربية المقترحة وهو طرف رئيسى فى إنشاء مجلس التعاون العربى الذى دخلته مصر بوزنها التاريخى ، كما دخله اليمن بموقعه الاستراتيجى فى جنوب شبه الجزيرة العربية ـ إلى جانب الأردن النشيط فى حركته السياسية والمفتوح على كل الاتجاهات .

وربما كان العراق أيضا يريد مساندة لموقفه فى قضية أسعار البترول ، كما كان يريد تعزيزا إضافيا أمام سوريا التى اشتدت عزلتها فى ذلك الوقت .

٥ ـ وكانت مصر تريد العودة الى صفوف جامعة الدول العربية . وقد كان بين أسبابها لدخول مجلس التعاون العربى الذى شاركت فيه مع العراق والأردن واليمن ـ أنه باب من أبواب العودة إلى مجالات العمل العربى يكسر عزلتها الرسمية ، ويمهد لعودتها الرسمية أيضا . وفى الحقيقة فإن موضوع عودة مصر إلى الجامعة العربية كان قد طرح من قبل فى مؤتمر القمة العربى السابق مباشرة (فى الجزائر) ، وكان الذى طرحه هو الملك « فهد » وتصدى لمعارضته آخرون بينهم الرئيس « حافظ الأسد » ، والرئيس « معمر القذافى » ، والرئيس « الشاذلى بن جديد » ، وغيرهم . وبعد اشتراك مصر فى مجلس التعاون العربى ، فقد بان للجميع أن ثغرة واسعة قد انفتحت فى الطوق المحيط بمصر . وكان دول مجلس التعاون العربى على استعداد للإصرار على عودة مصر إلى الجامعة ـ شرطا لاشتراكها هي فى أعمال القمة المدعوة إلى الاجتماع فى الدار البيضاء .

وكانت النقطة الهامة أن مصر دخلت مجلس التعاون العربى حاملة اتفاقيتها للسلام مع إسرائيل ، كما أنها سوف تذهب إلى الدار البيضاء ـ إذا دعيت ـ حاملة نفس اتفاقية السلام مع إسرائيل . وهكذا فإن اشتراكها فى المؤتمر له دلالة عامة أوسع ، هى أن الاتجاه إلى التسوية يعزز مواقعه ، ذلك أن وجود مصر فى الجامعة العربية يصنع ـ بقصد أو بغير قصد ـ جسرا أو صلة من نوع ما بين الجامعة العربية وإسرائيل .

كان ذلك هو جدول الأعمال غير المباشر ، وهو مختلف كثيرا عن جدول الأعمال المقترح المباشر ، ولعله كان أقوى بحكم عدد من الظروف الغلابة .

وكانت هذه الظروف الغلابة مجموعة ظواهر يصعب إنكارها :

١ ـ أن هناك متغيرات دولية تفرض نفسها على العصر ، وهى كفيلة بأن تجعل منه عصرا أمريكيا ـ على الأقل إلى مدى معين .

٢ ـ أن هذا العصر الأمريكى له أولوياته المحددة ، وهو يريد طرحها ، أو فرضها على الآخرين بإلحاح وحزم .

٣ ـ أن هذه الأولويات الأمريكية تقتضى تسوية لأزمة الشرق الأوسط نزيل أى احتمالات تهدد أو تقلق المصالح الأمريكية فى هذه المنطقة الحساسة ، وهما مصلحتان بالتحديد :

- موارد وفوائض البترول العربى (الذى يستطيع أن يؤمن هوية القرن الواحد والعشرين كقرن أمريكى) .
- أمن إسرائيل (وهى إلى جانب اعتبارات سياسية مختلفة ، الضامن المحلى الرئيسى للمصالح البترولية فى المنطقة) .

□

عندما تلقى الملك « الحسن » موافقة ملوك ورؤساء الدول العربية على حضور قمة الدار البيضاء ، راح يعد تصوره لسير أعمال المؤتمر . وقد بدأت تصلهُ بالطرق الدبلوماسية وغيرها طلبات ، أو إشارات بإدراج موضوعات إضافية . وكان أهم طلب تلقاه الملك فى هذه الفترة هو طلب دول مجلس التعاون العربى بإدراج بند عودة مصر إلى الجامعة العربية ـ على جدول الأعمال .

وكان الملك يقدر حساسية الموضوع ، لكنه فى صميم قلبه كان مؤيدا لعودة مصر . وراح يجرى اتصالات مع ملوك ورؤساء الدول العربية الأخرى يسألهم فى هذا الموضوع ، وأحس أن هناك أغلبية تؤيده . وتركزت المعارضة لإدراج البند المقترح فى سوريا وفى ليبيا .

وفى حين كان الرئيس « حافظ الأسد » هادئا فى اعتراضه ، فإن الرئيس « معمر القذافى » كان حادا لدرجة أنه لم يهدد بمقاطعة مؤتمر القمة فحسب ، وإنما هدد بالانسحاب من الجامعة العربية كلها ، وبقطع العلاقات الدبلوماسية مع دول المغرب العربى إذا هى تحدت ليبيا شريكتها فى التجمع المغاربى ، وقبلت إدراج بند عودة مصر على جدول أعمال القمة المقترحة .

وراح الملك « الحسن » يحاول مع الاثنين ، كما أنه حرص آخرين كالملك « فهد » على المحاولة معه . واقتنع الرئيس « الأسد » ، وكان اقتناعه فى الغالب لأسباب خاصة بتقديراته السياسية ، فقد أحس فى زيارة أخيرة له إلى الاتحاد السوفيتى بأن « ميخائيل جورباتشوف » ليس مستعدا حتى للحديث فى طلبات سوريا . وكان مجمل هذه الطلبات ما أسماه الرئيس « الأسد » بنفسه « **تحقيق نوع من التوازن الاستراتيجى مع إسرائيل** » . وأكثر من ذلك فإن « جورباتشوف » قال للرئيس « الأسد » إن « **أى كلام عن توازن استراتيجى إزاء إسرائيل لا فائدة منه ، وأن ضرورات « الحالة » العالمية الراهنة تفرض تسوية سلمية بشكل ما فى الشرق الأوسط** . »

وأما الرئيس « القذافى » فقصارى ما أمكن التوصل إليه فى الاتصالات معه هو أن يعدل عن مقاطعة المؤتمر ، وأن يتجاوز عن تهديداته بالانسحاب من الجامعة العربية ، أو بقطع علاقاته بدول المغرب العربى إذا أُدرج بند عودة مصر للجامعة العربية على جدول أعمال القمة . وكان الطلب الأخير للرئيس « القذافى » ألا يكون مقعد الوفد الليبى مجاورا ـ بحكم ترتيب الحروف الأبجدية ـ لمقعد مصر .

ومضى الملك يعد ما أسماه « سيناريو » العودة ، وقد اختار أن يكون عنوان البند الخاص به تعبير « **إنهاء تجميد عضوية جمهورية مصر العربية فى جامعة الدول العربية** » . وكانت هذه الصيغة فى رأية الكفيلة بإلغاء الصيغة السابقة التى قررها مؤتمر بغداد سنة ١٩٧٩ ، وهى « تجميد عضوية جمهورية مصر العربية فى جامعة الدول العربية » . وكان تقديره أن ذلك النص يعيد الأمور إلى نصابها ، ويجعل سجلات جامعة الدول العربية متسقة مع بعضها . ثم كان تصوره « للسيناريو » بعد ذلك هو أن يجتمع وزراء خارجية دول الجامعة ـ دون اشتراك وزير خارجية مصر ـ ثم يناقشون قرار العودة ويوافقون عليه ، ومن ثم توجه الدعوة لوزير خارجية مصر لكى ينضم إليهم فى مناقشة بقية بنود جدول الأعمال . ثم يقدم وزراء الخارجية مشروع جدول أعمالهم المقترح إلى اجتماع تمهيدى للقمة فتناقشه وتوافق عليه ، ثم يقوم الملك بوصفه رئيسا للقمة ـ كرئيس للدولة المضيفة ـ بالاتصال بالرئيس « حسنى مبارك » داعيا إياه إلى الاشتراك فى أعمال القمة .

وفى ذلك الوقت كان الرئيس « مبارك » فى رحلة من القاهرة إلى عمان ، ثم من عمان إلى بغداد . ثم تلقى الملك « الحسن » رسالة من الرئيس « صدام حسين » يقول فيها « إن دول مجلس التعاون العربى ترى أن رئيس جمهورية مصر العربية لا يستطيع أن يجلس بجوار التليفون فى انتظار مكالمة من المغرب يسافر بعدها إلى الدار البيضاء ، وأن هذه الدول ترى أنه لا بد من اشتراك رئيس مصر فى القمة من الدقيقة الأولى لبدء عملها . »

وكان رأى الخبراء القانونيين المحيطين بالملك أن هذا الطلب مستغرب ، فلابد من إجراءات تثبت بالوثائق المكتوبة فى سجلات الجامعة إنهاء تجميد عضوية مصر بمقدار ما أثبتت بالوثائق المكتوبة قرار تجميد عضويتها فى بغداد . وقال الملك لخبرائه « إنه فى الظروف الراهنة مهتم بالوقائع أكثر مما هو مهتم بالوثائق » . وقد لاحظ الملك أنه فى ذلك الوقت بالتحديد صدر عن رئاسة الجمهورية السورية فى دمشق بيان رسمى يرحب بعودة مصر إلى الجامعة العربية .

وانعقد المؤتمر فى موعده ، وشاركت مصر منذ الدقيقة الأولى فى أعماله . وطغى اشتراكها على بقية بنود جدول الأعمال ، وغطى عليها .

٣

وحدثت فى كواليس المؤتمر مشاكل ضخمة . ولم يلتفت إليها أحد لأن حضور مصر شد كل الأنظار إليه . ولعل المشكلة الكبرى فى الكواليس كانت مشكلة الدعم الذى تقدمه دول الخليج إلى دول المواجهة . فقد لاحظ الملك « فهد » أن مشروع جدول الأعمال المعروض على الملوك والرؤساء يحوى بندا عن الدعم العربى لدول المواجهة ، فاستدعى أمين عام الجامعة العربية ، وهو السيد « الشاذلى القليبى » فى ذلك الوقت ، وسأله عمن وضع هذا البند فى جدول الأعمال رغم أنه من الثابت أن وزير خارجية المملكة ، الأمير « سعود الفيصل » ، اعترض عليه أثناء اجتماع وزراء الخارجية . وفوجىء أمين الجامعة بسؤال الملك ، ورد عليه بـ « أنه بالفعل سمع فى الجلسة اعتراضا من الأمير « سعود » ، لكنه رأى أغلبية تؤيد الإدراج ، وربما اختلط الأمر على سكرتارية المؤتمر فرأت عرضه على القمة » . وثارت ثورة الملك « فهد » واتهم أمانة الجامعة العربية كلها بـ « عدم الأمانة » . وأضاف الملك « فهد » إلى ذلك قوله إنه يحس أن صياغة البند « سورية » . ثم أبدى الملك « فهد » ملاحظة أخرى فرعية حول نص البند الذى أنشأ وزراء الخارجية بمقتضاه لجنة توفيق خاصة بحل مشكلة الحرب الأهلية فى لبنان ، وقال إنه يرى أن النص المكتوب فى البند يخول أعضاء اللجنة « حق الاتصال بجميع الأطراف » . وكان تعليق الملك « فهد » على هذا النص أنه نص مطلق ، وهو بهذا الشكل « يعطى أعضاء اللجنة حق الاتصال بإسرائيل بما أنها تحتل جنوب لبنان ، وبالتالى فهى طرف فى الأزمة اللبنانية . »

□

ولعل ما جرى فى كواليس المؤتمر كان أهم مما جرى فى جلساته الرسمية . فالجلسات الرسمية كانت قصيرة لأن الملك « الحسن » كان يصر على استقبال الملوك والرؤساء واحدا واحدا على باب القصر الذى انعقد فيه المؤتمر ، وكان كل ملك أو رئيس يستقبل بحرس شرف يعزف نشيده الوطنى ، وفى المتوسط كانت مراسم الاستقبال ـ لاثنين وعشرين ملك ورئيسا ـ تأخذ بين ساعة وساعة ونصف . ثم إن معظم الجلسات الرسمية لم تحتو إلا على خطب متكررة بالحفاوة بعودة مصر إلى الجامعة العربية .

ولقد شهدت الجلسات الرسمية أيضا بعض الصور الإنسانية المثيرة . فالرئيس « القذافى » الذى طلب إبعاد مقاعد الوفد الليبى عن مقاعد الوفد المصرى ما لبث حين دخل القاعة أن تلاقت عيناه بعينى الرئيس « مبارك » . ونظرة وابتسامة وإشارة ، وإذا الرئيس

« القذافى » فى أحضان الرئيس « مبارك » . وفى الجلسة الثانية وصل الرئيسان إلى مقر المؤتمر فى سيارة واحدة . ومن يومها لم يفترقا . وأما الرئيس « الأسد » فإنه دخل بطريقته الهادئة ، وأقبل على الرئيس « مبارك » مصافحا ومهنئا بالعودة ، وانطوت صفحة الماضى .

وكان الماضى الذى لا يريد أن تنطوى صفحاته هو ماضى العلاقات بين بعث سوريا وبعث العراق . فما كاد الرئيسان « صدام حسين » و« حافظ الأسد » يلتقيان حتى انفجرت المشادات بينهما ، وتحولت المشادات فى بعض اللحظات إلى شتائم مست الأصول والفروع ، وتبودلت فيها الاتهامات قاسية وجارحة .

وكانت نقطة الخلاف التى بدأت بها تلك المشاهد المؤلمة فى العلاقات بين الرجلين هى نقطة لبنان ، من واقع شكوى الرئيس « الأسد » أن العراق يقف فى هذه المرحلة النهائية للحرب الأهلية اللبنانية وراء اللواء « ميشيل عون » ، ويزوده بالأسلحة التى يقتل بها أنصاره جنودا سوريين .

وربما كان أهم ما أسفرت عنه هذه المواجهة الصاخبة بين الرجلين هو أن الرئيس « مبارك » فى محاولته للوساطة بينهما ـ اتخذ موقفا معتدلا اعتبره الرئيس « صدام » مجاملا أكثر من اللازم لسوريا ولرئيسها . وكان آخر لقاء بين الرئيسين المصرى والعراقى فى مؤتمر الدار البيضاء لقاء مشوبا بالتشجن والأسى . فقد كان ظن الرئيس « صدام » أن الرئيس « مبارك » انحاز إلى الناحية الثانية ، وكان آخر ما قاله له وهو يودعه ، وقد قرر السفر عائدا لبغداد قبل انتهاء جلسات المؤتمر :

« يا أبو علاء .. إنك لا تعرف حافظ الأسد كما أعرفه . وسوف تكتشفه ذات يوم ، وحينئذ سوف يكون لك رأى آخر . »

كانت الأهداف المباشرة ، وغير المباشرة فى الدار البيضاء قد تداخلت ، وكان المعلن وغير المعلن منها قد عبر عن نفسه فى الخطب أو فى الكواليس ، وكانت التوترات المكتومة فى العالم العربى قد نفثت بعض المعبأ فيها .

ويشير استقراء الحوادث إلى أن الرئيس « صدام حسين » عاد من الدار البيضاء إلى بغداد ، وقد فقد بعض حماسه لمجلس التعاون العربى . فقد أزعجه ما تصوره من انحياز مصر إلى دمشق ، وقد لاحظ أحد أعضاء الوفد العراقى ضيقه بما جرى ، وأبدى أمامه ملاحظة مؤداها « **أن المصريين استعملوا العراقيين فى العودة إلى الجامعة العربية ، وحين تحقق لهم ما أرادوا لم يعد لديهم الحرص الكافى على شريكهم السابق فى مجلس التعاون العربى** » . واختار الرئيس العراقى أن يتجاوز عن هذه الملاحظة ، وقال « **إنه يثق بمصر ، وعلى أى حال فإن عودتها إلى الجامعة العربية ضرورية** » ، وأنه فى كل

الأحوال « لابد من المحافظة على فرصة مصر فى الأمة ، وفرصة الأمة فى مصر » .

على أنه من المؤكد أن التقارب المصرى ـ السورى الذى جرى فوريا فى الدار البيضاء ضايقه .

ولعله أحس أيضا أنه بلقاء مصر وسوريا ، فإن الدور المركزى فى قضية الشرق الأوسط سوف ينتقل إلى محور القاهرة ودمشق ، بدلا من محور القاهرة وبغداد .

---- ٤ ----

فى ذلك الوقت كانت العلاقات بين بغداد والكويت تجتاز منطقة صخور وعرة . فلقد أثارت الفترة الأخيرة من الحرب العراقية ـ الإيرانية مشاكل كبيرة ، قديمة وجديدة تداخلت معها ـ كما سبق القول ـ عوامل التاريخ والجغرافيا والبترول . ثم راح ذلك كله يعكس نفسه فى الممارسة السياسية للعلاقات بين البلدين . وطرأت حوادث كان يمكن حصر نطاقها ، ولكنها فى المناخ العام بين البلدين أخذت أبعاداً أكثر مما كان مقدرا لها .

وعلى سبيل المثال ، فإن العراق استطاع التقاط برقيات ورسائل متبادلة بين وزارة الخارجية فى الكويت والسفارة الكويتية فى إيران ، تحمل الأولى منها ـ وهى مرسلة فى أعقاب انتهاء الحرب العراقية الإيرانية مباشرة ـ تعليمات إلى القائم بالأعمال الكويتى فى طهران تطلب منه أن يقابل السيد « على أكبر ولاياتى » وزير الخارجية الإيرانى ، وأن يبلغه بسعادة الكويت لانتهاء الحرب بين العراق وإيران ، وبتأكيد حكومة الكويت لرسائل سابقة تطلب فتح صفحة جديدة تتحسن فيها العلاقات بين البلدين ، ثم سؤاله عما إذا كان فى مقدور الكويت أن تقدم شيئا لإيران يساعدها فى الظروف الصعبة التى تواجهها بعد انتهاء الحرب .

وفى رسالة تالية يرد القائم بالأعمال الكويتى فى طهران على وزارة الخارجية بأنه فعل ما كلف به ، وأن أحد مساعدى وزير الخارجية الإيرانى أبلغه بعد اجتماعه بيومين مع وزير الخارجية أن إيران فى حاجة إلى كميات من مادة الكيروسين ، وأنها تكون شاكرة إذا استطاعت الكويت تقديمها لها .

ثم رسالة ثالثة تبلغ القائم بالأعمال الكويتى بطهران بقرار كويتى يستجيب لطلب

إيران . وكان التعليق العراقى على هذه الرسائل هو : « **لماذا لم يبدأوا بسؤالنا نحن عما نحتاج إليه ؟** » ـ وكان تعقيب أحد الوزراء العراقيين : « **الآن يخطبون ود العجم ، ولا يهتمون بالعرب** » . **ولم يكن ذلك للإنصاف دقيقا لأن الكويت قدمت بالفعل للمجهود الحربى العراقى مساعدات يصعب إنكارها ، وكان عليها الآن أن تستعيد نوعا من التوازن بين جارتيها الكبيرتين .**

ثم أضيفت لهذه الواقعة واقعة أخرى جرت أثناء زيارة الشيخ « سعد السالم الصباح » ولى العهد ورئيس الوزراء الكويتى ـ أثناء زيارته لواشنطن سنة ١٩٨٩ للتفاوض على شراء صفقة من طائرات « ف ـ ١٨ » ، وكان الطلب وقتها قيد المناقشة فى اللجنة الفرعية المختصة بمبيعات السلاح للخارج . وحضر بعض أعضاء الوفد الكويتى المرافق للشيخ « سعد » إحدى جلسات اللجنة ، وكانت جلسة استماع ، ووجه أحد أعضائها إلى أحد المسئولين الكويتيين سؤالا يقول : « **ما هى الضمانات التى تستطيع حكومتكم تقديمها للتأكيد أن هذه الطائرات لن تستعمل ضد إسرائيل بواسطتكم مباشرة ، أو بواسطة طرف ثالث عربى يحصل عليها منكم ؟** » ـ **ورد عضو الوفد الكويتى دون تفكير قائلا : « إننا نريد هذه الطائرات للدفاع عن أنفسنا ضد جيراننا ، ولا نفكر فى استعمالها ضد إسرائيل »** ! ـ كانت جلسة الاستماع مفتوحة ، ووصل ما دار فيها بالقطع إلى آذان العراقيين ، واعتبروا أنفسهم مقصودين به .

وكانت هذه الحوادث وغيرها صغيرة ، وكان يمكن تجاوزها لو أن جو العلاقات بين البلدين كان يسمح لهما بحوار لا تحكمه عقد التاريخ والجغرافيا وغيرها . ومع ذلك فإن عقد الجغرافيا على وجه التحديد ما لبثت أن اقتحمت ساحة العلاقات بين البلدين ، وعلى غير انتظار .

□

بعد انتهاء الحرب العراقية ـ الإيرانية تقاطرت على بغداد وفود دول عربية متعددة تهنىء العراق بالنصر ، ولم يظهر بين هذه الوفود وفد كويتى . وكان بين أعضاء مجلس الوزراء الكويتى أنفسهم فريق يشير على الأمير بأن يتوجه إلى بغداد مهنئا ، كما فعل غيره كثيرون ، ومن بينهم الرئيس « مبارك » والملك « حسين » والشيخ « زايد » ، وأمير قطر ورئيس تونس وغيرهم . ولأمر ما كان الأمير مترددا . وكان هناك رأى بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وخصوصا بين الشباب ، يرى أن العراق هو الذى يجب أن يبعث بوفد إلى الكويت ليقدم شكره للكويت على المساعدات التى قدمتها للعراق أثناء الحرب ، وتقديره للمخاطر التى تحملها أهل الكويت أثناء معاركها التى اتصلت ثمانى سنوات .

ثم برز فى النهاية رأى وسط مؤداه أن يذهب الشيخ « سعد السالم الصباح » ولى العهد ورئيس الوزراء – فى رحلة استطلاعية إلى بغداد قبل أن يذهب الأمير . ثم أن يثير هناك قضية ترسيم حدود نهائية بين البلدين فى مناسبة انتهاء الحرب التى دار الجزء الأخطر من معاركها حول البصرة وعلى مقربة من مناطق الحدود المختلف عليها ، وكان الرأى أن الفرصة الآن مناسبة ، ذلك أن الشيخ « سعد » – وهو يذكّر العراقيين بما قدمته الكويت لهم أثناء الحرب – يستطيع فى نفس الوقت أن يثير قضية الحدود . وكان التقدير الكويتى أن العراق سوف تكون لديه طلبات بمساعدات جديدة ، وما بين المساعدات السابقة التى وصلت والمساعدات اللاحقة المطلوبة ، فإن الشيخ « سعد » يستطيع أن يجد فرصة ملائمة لإثارة قضية الحدود .

وكان بين مستشارى الأمير من يخشون حتى من هذا الحل الوسط ، وكان رأيهم « أن الوقت مازال مبكرا جدا لإثارة موضوع الحدود . وأن العراق قد يساوره الظن أن الكويت تريد استغلال مصاعبه الراهنة . ثم إن الخلاف حول قضية أسعار البترول يلقى بظلال من الشك الإضافى على مجمل العلاقات بين البلدين . »

ثم استقر الرأى فى النهاية على أن الفرصة قد تكون سانحة لإثارة قضية الحدود . فقد بدأت بعض الاحتكاكات تحدث بالفعل على الخطوط بين البلدين . فقد وقع تصادم برى بين دورية كويتية ودورية عراقية . ثم شكى الكويتيون من دخول زورق مسلح عراقى إلى مياههم الإقليمية ، واشتبك بالنار مع زورق كويتى . ثم شكى العراق من عمليات تهريب سلاح إليه من الكويت ، وكذلك شكى من عمليات استصلاح واستزراع أراضٍ يقوم بها كويتيون داخل الحدود العراقية .

□

ويبدو أنه فى التمهيد لزيارة الشيخ « سعد » قامت بعض الصحف الكويتية بحملة إعلامية أثارت قضية ترسيم الحدود مع العراق . وفى اليوم الذى وصل فيه الشيخ « سعد » إلى بغداد (٦ فبراير ١٩٨٩) كان الدور على الصحف العراقية لترد . وهكذا حل الشيخ « سعد » على العاصمة العراقية وسط عاصفة من القصف الإعلامى فجرت قضية الحدود علنا فى الصحف وبعنف ، قبل أن يطرحها الشيخ « سعد » بالدبلوماسية على مائدة المفاوضات .

وكان بين منشورات الصحف العراقية مقال له معنى خاص ، فقد ظهر فى جريدة « القادسية » – وراج بين أوساط الوفد الكويتى أن الرئيس « صدام حسين » أملاه على الجريدة . كان المقال يتحدث عن مشكلة الحدود ، ويقول « **إن العراق لا يطلب فقط**

جزيرتى « بوبيان » و « وربة » كما هو شائع ، فهاتان الجزيرتان لم تعودا محل مناقشة لأن ملكيتهما للعراق ثابتة . » ثم أضاف المقال « أن هناك أراضى فى الكويت تخص العراق ، كما أنه اتضح أن الكويت انتهزت فرصة الحرب العراقية - الإيرانية وانشغال بغداد ، وغيرت خط الحدود فأزاحته عن مكانه وأعادته من جديد بعد أن قضمت معه قطعة ضخمة من أراضى العراق . »

وكان أول اجتماع فى برنامج محادثات الشيخ « سعد » مع وزير الدفاع العراقى الفريق « عدنان خير الله » . وفى هذا الاجتماع بدأ الشيخ « سعد » فأثار قضية الحملة الإعلامية التى قوبل بها لحظة وصوله لبغداد ، وقال إنه « فكر جديا فى قطع زيارته والعودة إلى الكويت لأن بعض ما نشر فى الصحف العراقية كان جارحا » . ورد الفريق « عدنان خير الله » ، وكانت تربطه بالشيخ « سعد » علاقة ود ، قائلا : « إنكم أنتم الذين بدأتم وأثرتم هذا الموضوع الآن ، ووقع فى تقدير الصحافة العراقية أنه لابد من الرد عليكم » . ثم راح وزير الدفاع العراقى يحاول إقناع ولى العهد الكويتى بالاستمرار فى زيارته « لأن قطعها مفاجأة يؤدى إلى مضاعفات خطيرة لا يفيد منها البلدان ولا يفيد منها العرب » . وأكمل الشيخ « سعد » لقاءاته ، فاجتمع بوزير الخارجية « طارق عزيز » ، وبالسيد « عزة إبراهيم » نائب رئيس مجلس قيادة الثورة . ولم تستطع المناقشات بواقع الأمور أن تبتعد عن قضية الحدود . ثم حان موعد اجتماع الشيخ « سعد » بالرئيس « صدام حسين » .

كان الرئيس العراقى ودودا إلى درجة طمأنت الشيخ « سعد » . فما أن أثار الشيخ « سعد » مسألة الحملة الصحفية حول قضية الحدود حتى أبدى الرئيس « صدام » ضيقه من كل الحملات الصحفية حول هذه القضية ، ثم قال : « إن هذا الموضوع عبء إضافى علىّ ، ولعلك تستطيع تسويته مباشرة مع « أبو زياد » (يقصد السيد « طارق عزيز ») ، إنه مخول بأن يحل معك كل شىء . » ثم التفت الرئيس « صدام حسين » إلى وزير خارجيته وقال له : « يا أخْ طارق لابد أن تحلوا هذا الموضوع . شكلوا لجنة على أعلى مستوى ودعونا ننتهى منه » . واقترح السيد « طارق عزيز » أنه بما أن الشيخ « سعد » سوف يرأس الجانب الكويتى فى هذه اللجنة ، فمن الملائم أن يكون نظيره العراقى أحد نواب رئيس مجلس قيادة الثورة ، وأن تضم اللجنة فى عضويتها وزير الخارجية فى كل من البلدين . ولم يبد أن الرئيس « صدام حسين » يرغب فى الدخول فى تفاصيل بروتوكول التفاوض ، فقد قاطع وزير خارجيته قائلا : « افعلوا ما تشاءون ، فأنا لا أريد أن أنحشر فى هذه المشكلة » . ثم التفت للشيخ « سعد » وقال له : « إن المسألة ليست أراضى ، فلدى مشكلة أهم بكثير من ذلك ، وهى أن الأسطول البحرى العراقى مبعثر فى كل مكان من أيام الحرب ، فهناك قطع منه فى ميناء العقبة فى الأردن ، وقطع منه فى موانىء مصر ، وقطع

أخرى فى موانىء إيطاليا حيث اشتريناها ولم نأمرها بالتوجه إلى العراق لأن العراق لا يملك ميناء عميقا على الخليج يسمح لغاطسها بالملاحة » . ثم استطرد الرئيس « صدام حسين » يتحدث عن « الأسطول العراقى ، ويؤكد على الحاجة الماسة لتواجده فى مياه الخليج ، وأن هذا الأمر ليس مهما للعراق فحسب ، ولكنه مهم لكل العرب . فهناك أساطيل غريبة من كل نوع فى الخليج ، وليس بينها أسطول عربى واحد » . وأبدى الشيخ « سعد » ملاحظة مؤداها « أن هذا موضوع يحتاج تعاون كل مجموعة دول الخليج »، وهو لا يظن أن هناك عقبة » . وفيما يتعلق بالكويت أشار الشيخ « سعد » بطريق غير مباشر إلى « أن الكويت تستطيع أن تعطى تسهيلات للعراق بجزيرتى بوبيان ووربة ، دون أن يؤدى ذلك إلى تغيير وضعهما » . ولم يكون ظاهرا أن الرئيس « صدام حسين » يريد أن يواصل الحديث فى هذا الموضوع ، فقد انتقل لغيره .

□

وكان لابد من تعزيز امكانية التفاهم بين البلدين ، وهكذا جرى الترتيب لزيارة يقوم بها أمير الكويت الشيخ « جابر الأحمد الصباح » للعراق . وكانت الزيارة ودية من كافة النواحى ، وانتهزها الرئيس « صدام حسين » ليقدم لأمير الكويت أعلى وسام عراقى ويقلده له بنفسه تقديرا للموقف الذى اتخذته الكويت أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية . ولم يثر موضوع الحدود بين الشيخ « جابر » وبين الرئيس « صدام » ، ويبدو أن كليهما آثر عامدا تجنبه حتى لا يفسد جو الزيارة . ولكن أحد الوزراء الكويتيين المرافقين للأمير أثار نقطة تتصل به مع الدكتور « سعدون حمادى » نائب رئيس الوزراء العراقى للعلاقات الخارجية ، فقد سأله عما إذا كان يرى الفرصة مناسبة لعقد معاهدة عدم اعتداء بين العراق والكويت على نمط المعاهدة التى عقدت قبل شهور بين العراق والسعودية ، ثم تكرر عقد معاهدة مماثلة لها بين العراق والبحرين ؟ وكان رأى الوزير الكويتى أن عقد مثل هذه المعاهدة بين الكويت والعراق يؤدى إلى تطمين الخواطر . وكان تعليق الدكتور « سعدون حمادى » أنه قد يكون من الملائم ترتيب الخطى ، فتنتهى أولا مفاوضات ترسيم الحدود ، ثم تبحث بعد ذلك مسألة معاهدة عدم الاعتداء .

كانت زيارة الأمير لبغداد فى نهاية شهر سبتمبر ١٩٨٩ . وبعدها ، ولعدة شهور ، احتدمت الخلافات حول موضوع أسعار البترول وحصص « الأوبك » وتزايدت درجة الحرارة بين البلدين .

وفى يناير سنة ١٩٩٠ توجه الدكتور « سعدون حمادى » إلى زيارة للكويت التقى فيها نظيره هناك الشيخ « صباح الأحمد الصباح » نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية

الكويتى . ثم تبين أن مهمة الدكتور « سعدون حمادى » هى طلب قرض بمبلغ عشرة بلايين دولار يستطيع بها العراق مواجهة ظروفه الصعبة بعد الحرب .

وتداخلت القضايا واختلطت .

تداخلت واختلطت قضية المساعدات المالية ، مع قضية الحدود ، مع قضية أسعار البترول ـ وتعقدت الزيارة .

وبعدها بشهر واحد قام الشيخ « صباح الأحمد الصباح » بزيارة للعراق ، ردا على زيارة الدكتور « سعدون حمادى » من ناحية ، ومتابعة لبقية القضايا المتداخلة من ناحية أخرى .

وفى هذه الزيارة أشار الشيخ « صباح » من بعيد مرة أخرى إلى الديون السابقة المعلقة على العراق للكويت ، وألمح بسرعة إلى أن الكويت قد تستطيع تقديم ٥٠٠ مليون دولار للعراق تضاف إلى الدين القديم ، وأنه سيقترح شيئا من هذا النوع عندما يعود إلى الكويت . وعندما جاء الدور على بقية البنود التى عرضت للبحث ، وقع سوء تفاهم من نوع غريب لكنه شائع فى العلاقات العربية بسبب غلبة حديث المجاملات الفضفاضة على حديث الحقائق المحددة . فقد حسب الطرفان أنهما اتفقا ، بينما الواقع أن كلا منهما كان على موقفه لم يغيره . طلب العراق تسهيلات بحرية مثيلة للتسهيلات التى حصل عليها أثناء الحرب مع إيران ، وطلب كذلك تطبيق معاهدة الدفاع المشترك بين البلدين ، وإعمال عدد من نصوصها يعطى للعراق ميزات اقتصادية واستراتيجية . وظن الدكتور « حمادى » أن نظيره الكويتى وافق . وطلب الشيخ « صباح » تشكيل لجنة لترسيم الحدود ، وظن أن نظيره العراقى وافق .

وعندما عاد الشيخ « صباح » إلى الكويت كتب إلى الدكتور « سعدون حمادى » لتعزيز الاتفاق (كما تصوره) مقترحا تشكيل لجنة « فنية » لترسيم الحدود . وفوجىء الدكتور « سعدون حمادى » (من واقع تصوره المختلف) عندما وجد أن الأمر فيما يتعلق بالطلبين العراقيين (التسهيلات والمعاهدة) قد أغفل ذكره ، وأن لجنة ترسيم الحدود يراد لها أن تكون لجنة « فنية » .

ولم يكن ذلك رأى العراق فى موضوع ترسيم الحدود ، ففى حين كانت الكويت تعتبر الأمر « فنيا » ، كان العراق يعتبره « سياسيا » .

كان خط الحدود ـ فى حساب العراق ـ مجرد نقط رسمها بقلمه السير « بيرسى كوكس » عندما كان يتصرف فى حدود بلدان الخليج الجديدة وكأنها خطوط فى كراسة رسم !

وكان نفس الخط ـ فى حساب الكويت ـ حقيقة أمر واقع ، بصرف النظر عما جرى فى يوم من الأيام .



وكان ذلك كله دائرا بين البلدين على خلفية الأزمة المتصاعدة بين العراق والغرب بسبب الصواريخ والأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية ، ثم قصة المدفع العملاق ، ومحاكمة الصحفى الإيرانى « بازوفت » وإعدامه . وكالعادة ارتفعت أصوات تنادى بعقد قمة عربية لمواجهة المخاطر المحدقة بالعراق . وأضاف السيد « ياسر عرفات » إلى فكرة القمة تحبيذ عقدها فى بغداد لتكون مظاهرة تأييد للعراق فى مواجهة تهديدات أمريكية وإسرائيلية ضده .

وتتالت ردود دول عربية تؤيد عقد القمة المقترحة ، وفى بغداد . وكان اللافت للنظر أن كلا من القاهرة والرياض ودمشق لم تبعث برد . وكان أمر دمشق مفهوما بعد أن جرى ما جرى فى الدار البيضاء وحتى بدونه ، فلم يكن منتظرا أن يذهب الرئيس « حافظ الأسد » إلى العراق مهما كانت الأسباب والمبررات . وأما تأخر القاهرة والرياض فى الرد ، فقد راح على الفور يثير تساؤلات كثيرة ، وراجت إشاعات بأن العاصمتين ليست لديهما الحماسة لحضور مؤتمر قمة عربى فى بغداد فى هذه الظروف ، ولهذه الأسباب . وكان ذلك صحيحا إلى حد ما ، فقد وصل إلى القاهرة الأمير « عبد الله » ولى العهد فى السعودية ، وتباحث مع الرئيس « مبارك » ، والتقى رأيهما فيما عرف عن اجتماعهما من تفاصيل على أنه « **قد يكون من الأنسب تأجيل القمة المقترحة حتى يمكن الإعداد لها على نحو يكفل نجاحها** » . ثم سافر الأمير « عبد الله » فى اليوم التالى إلى دمشق متابعا استطلاعه لمختلف وجهات النظر ، ثم كر عائدا فى اليوم التالى إلى القاهرة يحمل رأيا مختلفا مؤداه « أنه قد يكون من الأفضل عقد القمة فى الموعد المقترح وفى المكان المقترح » . ويبدو أن ذلك تم بناء على تعليمات جديدة من الملك « فهد » الذى كان الرئيس « صدام حسين » على اتصال تليفونى به طوال تلك الساعات . وقبل الرئيس « مبارك » وجهة النظر السعودية الجديدة ، وتلقت بغداد موافقة القاهرة والرياض على حضور القمة المقترحة .

□

وبدأت بغداد تعد للقمة الجديدة .

كان العنوان المقترح للقمة منذ البداية هو : **« التحديات التى تواجه الأمن القومى العربى من إسرائيل »** .

وعندما أخذ العراقيون فى وضع بنود جدول الأعمال تحت هذا العنوان الواسع ، توصلوا فى النهاية إلى أربعة بنود على النحو التالى :

١ ـ التهديدات التى يتعرض لها العراق من جانب الولايات المتحدة وإسرائيل .

٢ ـ القيود التى يفرضها الغرب على تصدير التكنولوجيا المتطورة إلى العالم العربى .

٣ ـ المقررات الاقتصادية لقمة عمان سنة ١٩٨٠ (وهى القمة التى ناقشت مشروعا واسعا للتنمية فى العالم العربى) .

٤ ـ القضايا الخاصة التى ترى وفود عربية أن تطرحها على المؤتمر .

وحين بدأت الأعمال التمهيدية للمؤتمر بات واضحا أن الأمور فيه تستأنف من حيث توقفت فى الدار البيضاء قبل عدة شهور . بدا أن زيارات عديدة وخطابات وخطب دافئة بين القاهرة وبغداد خلال هذه الشهور لم تفلح فى إزالة الشكوك التى داخلت العلاقة بينهما أثناء قمة الدار البيضاء وما بعدها : شعور فى بغداد بأن القاهرة ما كادت تلتقى بدمشق حتى نسيت بغداد وانحازت لهؤلاء الذين عرقلوا عودتها للجامعة العربية ـ وشعور فى القاهرة بأن العراق يشد القاهرة للتورط معه فى مشاكل خطيرة قد تؤدى إلى عواقب وخيمة . وزاد على ذلك حملة منظمة ثارت فى مصر حول قضية العمالة المصرية فى العراق . وكانت هناك شكوك لدى بغداد أن هذه الحملة وراءها من يغذيها ، وإلى حد ما فإن هذه الشكوك لم تكن بغير أساس . فقد كان هناك فعلا من انتهزوا الفرصة لتأجيج نار الفتنة بين البلدين ، ومع ذلك من الحق أن يقال إن الرئيس « حسنى مبارك » كان هو الذى تصدى للحملة فى مصر ، وحاول كبح جماحها فى محاولة لحصر المشكلة داخل حدودها الطبيعية .

لكن الشكوك المتبادلة كانت قد نفذت من مسام الجلد وراحت تسرى تحته .

□

وشهد اجتماع وزراء الخارجية العرب ـ تمهيدا لاجتماع الملوك والرؤساء ـ مبارزات كلامية حادة . وقد بدأت المشكلة حين تحفظت مصر على ذكر الولايات المتحدة بالاسم فى البند الأول من جدول الأعمال . وهو البند الذى يتحدث عن التهديدات التى يتعرض لها العراق من الولايات المتحدة وإسرائيل . وانضمت السعودية إلى مصر فى هذا

التحفظ ، وأضافت إليه رأيها بأنه « يستحيل على القمة أن توجه اتهاما بغير دليل . وصحيح أن هناك حملات ضارية ضد العراق فى الصحف الأمريكية ـ لكن أمريكا فيها حرية صحافة ، ولا يمكن توجيه اتهام للحكومة الأمريكية على أساس ما ينشر فى صحفها . »

كان الدكتور « عصمت عبد المجيد » ـ وزير الخارجية وقتئذ ـ هو الذى تحفظ باسم الحكومة المصرية ـ وتلاه الأمير « سعود الفيصل » الذى تحفظ باسم الحكومة السعودية . وطلب السيد « طارق عزيز » ـ وزير الخارجية العراقى ـ أن يرد باسم الحكومة العراقية ، ولما كانت رئاسة اجتماعات وزراء الخارجية له (باعتباره وزير خارجية البلد المضيف) فقد ترك مقعد الرئاسة لزميله السيد « لطيف نصيف جاسم » وزير الإعلام وقتئذ .

وكان رد « طارق عزيز » شديدا ، فقد أشار لتضحيات العراق السابقة ، ثم إلى الحملة الضارية الموجهة له الآن ، مركزا على أنها ليست مسألة أخبار ومقالات صحف ، وإنما هى إلى جانب ذلك تصريحات لمسئولين على أعلى المستويات ، واجراءات عقابية وصلت إلى حد وقف تصدير الأغذية للعراق . وألمح « طارق عزيز » إلى أن « معركة الاستعمار والصهيونية ضد العرب مازالت مستمرة ، ولا يحق لأحد أن يتهرب من مسئولياته حيالها تحت أى عذر أو سبب » .

وتكهرب جو الاجتماع ، وقام وزير الخارجية المصرى ليقول « **إنه لم يأت إلى بغداد لكى يتلقى درسا فى الوطنية من أحد** » ، ثم أشار إلى أنه « **إذا كان البعض يتحدث عن تضحياته ، فإن الأمة العربية كلها تعرف حجم التضحيات المصرية فى سبيل قضاياها** » .

ثم وقف وزير خارجية المملكة السعودية ليقول إنه « يرفض جو المهاترات السائد فى هذا المؤتمر» ، وأصر على حذف اسم الولايات المتحدة من النص المقترح للبند الأول من جدول الأعمال . وأشار بعد ذلك إلى ما قدمته السعودية للعراق أثناء حربه مع إيران .

وكان زمام الجلسة يوشك أن يفلت ، ولم تكن المناقشات من فوق منصة القاعة وحدها ، وإنما بدا وكأن كل مقاعد القاعة تشابكت مع بعضها بالكلمات وتوشك أن تتشابك مع بعضها بالأيدى .

وحدث فى إحدى اللحظات أن قال الأمير « سعود الفيصل » موجها كلامه للسيد « طارق عزيز » : **لابد أن نلتزم بالشرعية الدولية** » . ورد عليه السيد « طارق عزيز » بقوله : **ماذا تطلب الشرعية الدولية فى شأن الصراع العربى الإسرائيلى أكثر من اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ . إن العراق لم يعترض طريقهم إلى هذا الاعتراف ، وإن كنا نعرف أنه جرى وراء السراب ، ولن**

يطولوا شيئا . » وتدخل السيد « فاروق قدومى » (وزير خارجية دولة فلسطين) فى الحوار قبل أن ينفلت ، واقترح أن تبقى الإشارة إلى الولايات المتحدة بالاسم كما هى وتعرض الفقرة على القمة ترى فيها ما تشاء . ثم ظهر اتجاه بتشكيل لجنة فرعية من وزراء خارجية مصر ، والعراق ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، والأردن لإعادة صياغة الفقرة قبل عرضها على القمة . وأضاف السيد « فاروق قدومى » فى محاولة لتلطيف الأجواء : **إننى أريد أن أسجل للأمانة أننا قبلنا قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ من وقت طويل ، وسلمنا ردنا على ورقة مكتوبة للأمير « الحسن » ولى عهد الأردن . ومع ذلك فنحن نقول للدول العربية كلها « اتركوا لنا نحن التطرف ، وتصرفوا أنتم كمعتدلين » . »**

وانتقلت المناقشات إلى مشروع قرار بإدانة هجرة اليهود السوفيت إلى إسرائيل ، وإدانة الدعم الأمريكى الذى يقدم لمشروعات الاستيطان .

ومرة أخرى ثار الخلاف ، فقد أراد الوفد المصرى والوفد السعودى إدانة الهجرة السوفيتية لأن الدليل قائم عليها ، وأما الدعم الأمريكى فليس فى علم أحد أن الكونجرس أقر قانونا باعتمادات مالية لدعم هذه المشروعات .

وأكد السيد « فاروق قدومى » أن هناك مساعدات .

ورد عليه وزير الخارجية المصرى بأنه يطلب منه صورة من القرار الأمريكى فى هذا الشأن قبل أن يوافق على إدانة السياسة الأمريكية .

وفى حقيقة الأمر ، فإن خطا غير منظور بدأ يرتسم فى أجواء القمة .

العراق يصر على إدانة الولايات المتحدة بأوضح عبارة ممكنة .

ومصر والسعودية علنا ـ وباقى دول الخليج من طرف خفى ـ يرون أنه من الصعب إدانة دولة بالاسم دون وجود دليل مادى يشير إلى اتهامها.

□

وفى هذه الأجواء الملبدة ألقى الرئيس « صدام حسين » خطاب افتتاح القمة ، وكان هذا الخطاب هو البداية الحقيقية لأزمة الخليج . فقد برزت فيه عدة نقاط أهمها قوله : « يجدر بنا أن نعلن بوضوح بأن إسرائيل إذا ما اعتدت وضربت فإننا سنضرب بقوة ، وإذا ما استخدمت أسلحة دمار شامل ضد أمتنا سنستخدم ضدها ما نملك من أسلحة دمار شامل ، وأن لا تنازل عن تحرير فلسطين . ومن الحقائق التى أكدتها التجارب أن الولايات المتحدة الأمريكية تتحمل مسئولية رئيسية ، بل مسئولية أولى فى السياسات العدوانية والتوسعية التى

يمارسها الكيان الصهيونى ضد الشعب الفلسطينى والأمة العربية » . ثم قوله : « إننا كعرب مستهدفون فى صميم أمننا ومصالحنا من هذه السياسات الأمريكية ، وعلينا أن نقول ذلك لأمريكا صراحة ، وعلينا أن نقول لها إنها لا يمكن أن تواصل هذه السياسة فى الوقت الذى تدعى فيه الصداقة للعرب ، فهذه السياسة ليست سياسة صداقة ، وإنما هى سياسة تضر وتهدد أمن الأمة العربية والمصالح الجوهرية للأمة العربية . وعندما نقول لها هذا بصوت واحد وبنفس النظرة والقوة والوضوح فإننا على ثقة أنها ستتدارس هذا بعمق وستنظر لمصالحها بدقة » . ثم قوله فى النهاية : « علينا أن نعلن بصوت قوى بأنه لا يحق لكائن من يكون أن يتمتع بحظوة فى مواردنا وثرواتنا فى الوقت الذى يحاربنا أو يناهض تقدمنا العلمى والتكنولوجى ، وأن نحول هذا المبدأ إلى سياسة ومفردات تطبق ويلتزم بها بصورة جماعية » .

□

كان افتتاح أعمال القمة يوم ٢٨ مايو ١٩٩٠ . وأثناء جلساتها وقعت محاولة إغارة على الشواطىء الإسرائيلية استشهد فيها أربعة من الفدائيين الفلسطينيين وأسر اثنا عشر آخرون ، وأعلنت منظمة تحرير فلسطين التى يتزعمها « أبو العباس » مسئوليتها عن هذه الغارة . واتخذتها الولايات المتحدة فرصة لتجميد حوارها مع منظمة التحرير الفلسطينية .

وزاد جو مؤتمر القمة كآبة فوق ما كان سائدا فيه أصلا .

وحين ظهر القلق على بعض المشاركين فى القمة من دول الخليج ، قال الرئيس « صدام حسين » :

- « إن الأمة العربية كلها مستهدفة ، والعراق أول المستهدفين ، فهو الآن فى مواجهة مؤامرة أمريكية عسكرية واقتصادية ، وحصار تكنولوجى وإعلامى . ويتحتم على الأمة أن تتصرف على اعتبار أنها كلها « **حالة واحدة** » لأن الأعداء يعاملونها كحالة واحدة ، حتى وإن استعملوا البعض منا أحيانا ضد البعض الآخر . ونحن جميعا على فوهة بركان ، ولا يتصور أحد أن بمقدوره أن يجرى بسرعة ليبتعد عن مركز الانفجار أو مجرى الحمم . »

وكان السكوت ممسكا بالجميع ، ولعله تجنب المشاكل حتى تمر الساعات وينفض المؤتمر ، ويذهب كل إلى حال سبيله . ولكن الساعات كانت تمشى ببطء .

وعندما طُرح طلب منظمة التحرير الفلسطينية بدعم مقداره ١٥٠ مليون دولار ، ران صمت على القاعة . وعندما عرض الأردن طلبا بتجديد دعم يعوض انتهاء دعم قمة بغداد

السابقة (١٩٧٩) ـ كان الرد أنه من الأفضل أن تجرى المساعدات على أساس اتصالات ثنائية .

ومرة أخرى وقف الرئيس « صدام حسين » غاضبا يقول : « عندما يطلب العراق مشاركة إخوانه له فى ظروفه الصعبة يتلقى دائما نصيحة بالصبر ، والعراق قادر على الصبر ولكن شعب الانتفاضة غير قادر عليه ، والعراق قادر على الصبر ولكن الأردن غير قادر عليه . »

ثم وقف الملك « حسين » وألقى خطابا مؤثرا وحزينا عن عالم عربى فقد رؤيته لحاضره ومصيره ، وختمه مستشهدا بشطرة من بيت شعر مشهور : « أضاعونى وأى فتى أضاعوا » .

وكان يقصد الأردن .

وعندما طرحت القرارات النهائية للمناقشة بدا كما لو أن الحاضرين جميعا على استعداد لأن يوافقوا على أى شىء فى سبيل أن ينزل الستار ، وتنطفىء الأنوار ، ويخرج الكل بسلام من بغداد .

والحاصل أن أى مراجعة لمقررات بغداد ، كما صدرت يوم ٣٠ مايو ١٩٩٠ ـ تظهر أن أكثر الدول تحفظا وافقت على أكثر القرارات عنفا وحدة . حتى الألفاظ التى توقف عندها وزراء الخارجية ـ حصلت على موافقة الملوك والرؤساء والشيوخ ، دفعة واحدة .

وكان هناك إحساس عام فى أروقة المؤتمر ، والستار يوشك أن ينزل على أعماله : « أنها **القمة العربية الأخيرة** » !

☐

ويظهر أن الملك « فهد » أراد تلطيف الأجواء فى الدقيقة الأخيرة ، فاختلى بالرئيس « صدام حسين » وسأله : « إننى لاحظت طوال المؤتمر أنك غاضب ؟ » ـ ولم ينتظر الرئيس « صدام حسين » وإنما قال للملك : « **الحقيقة أننى أكثر من غاضب . فى لحظة من اللحظات أحسست أن النار على وشك أن تخرج من « خشمى » (يقصد أنفه) ولكنى أمسكت بأعصابى .**

ياسر عرفات يقف ويبكى العيون والقلوب على الضيق الذى يخنق أهلنا تحت الاحتلال ، وإخواننا هنا ساكتون لا أحد منهم يستجيب .

والأردن يعانى والملك حسين يشكو ، وكل واحد منهم وضع على أذنيه حجارة . »

ثم سأله الملك فهد عن العلاقات مع الكويت ، ورد الرئيس « صدام حسين » : « **غير قابلين بشيء حتى الآن ، لا حصص البترول ، ولا تخطيط الحدود ، وهم الآن يخربون فى الداخل عندنا .**»

ثم راح الرئيس « صدام حسين » يشكو للملك « فهد » من أن الكويتيين يضاربون على الدينار العراقى لخفض سعره ، ويشترون كل « التحف والنفائس » من أسواق بغداد بطريقة مستفزة ومهينة حتى أنهم يحاولون إفساد « ماجدات العراق » ، وأنه سمع عن مشاجرة فى ناد ليلى شارك فيها دبلوماسى كويتى قائلا بصوت عال أثناءها « إنه سوف يجىء يوم يستطيع أن يحصل على أى واحدة منهن بعشرة دنانير » .

واقترح الملك « فهد » ، وقد أحس أن المشكلة الاقتصادية قد أصبحت ممسكة بخناق العراق ـ أنه من الضرورى البدء بموضوع الحصص المقررة فى « الأوبك » . ثم اقترح **الملك عقد اجتماع على مستوى القمة لعدد محدود من دول الخليج المنتجة للبترول بغية التوصل إلى حل حازم وحاسم لقضية الحصص (وبالتالى الأسعار)** . ثم قال الملك **أخيرا : « كل المشاكل ميسرة إن شاء الله ، وعندما نجتمع سويا ومعنا الشيخ زايد والشيخ جابر ، فإننا سوف نحل كل شىء »** .

□

وحدثت محاولة مشابهة من أمير الكويت ، فقد انتهز فرصة قيام الرئيس « صدام حسين » بمرافقته إلى المطار لوداعه واقترب من الجو الذى ساد أعمال القمة ، ومن المصادفات أن أمير الكويت بدأ حديثه فى السيارة مع الرئيس « صدام حسين » من حيث انتهى الملك « فهد » . فقد قال ما مؤداه : « **إن كل المشاكل لها حل ، ونحن أخوة وأول من يتفهم ظروف العراق** » .

ورد الرئيس « صدام حسين » بما مؤداه : « **الحقيقة أن العراق حائر معكم . حين نطالبكم بمساعدات ، تذكروننا بالديون . وحين نذكركم بحصص البترول المتفق عليها حتى لا تنخفض الأسعار ، تطلبون توقيعنا على التنازل عن أرض عراقية نحن فى حاجة إليها لكى نجد منفذا إلى البحر** » !

واختار أمير الكويت أن يبدأ بنقطة الديون ، فسأل الرئيس « صدام حسين » : « **هل طالبكم أحد بأن تدفعوا الديون ـ نحن لم نطالبكم ؟** »

ورد الرئيس « صدام حسين » قائلا : « **لماذا لا تتنازلون عنها صراحة ؟** »

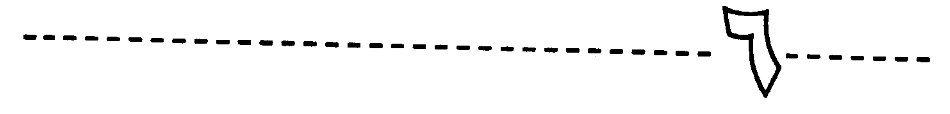
ورد أمير الكويت بقوله : « **لسببين : سبب يتعلق بمصالحنا لأننا لو تنازلنا عن**

ديوننا لديكم فسوف نجد كل مدين للكويت يطلب المعاملة بالمثل ، ونحن لنا ديون كبيرة عند أطراف كثر .

والسبب الثانى يتعلق بمصالحكم ، فلو أننا أعفيناكم من الديون فسوف تبدو مديونيتكم أقل فى صندوق النقد الدولى ، وسوف يضغط عليكم آخرون ليقتضوا منكم ديونهم ، ومن مصلحة العراق أن يبدو دينه كبيرا على الورق . »

ولم يكن الرئيس « صدام حسين » مقتنعا ، وكان تعليقه أنه يظن العكس ، فإنه كلما قلت مديونية العراق كما هى ظاهرة فى الورق ، فإن فرصة العراق للحصول على تسهيلات من الآخرين سوف تزيد .

وكان الركب قد وصل إلى المطار . وحين بدأ الرئيس « صدام حسين » ينتقل إلى موضوع الحدود ، كان رد أمير الكويت هو « **أنه لا بد من تنشيط عمل اللجان** » .



ولقد كتبت جريدة الـ « واشنطن بوست » افتتاحية فى التعليق على أوضاع الشرق الأوسط جاءت فيها فقرة لافتة للنظر ، وهى : « إن وقائع قمة بغداد ، وخطاب « صدام حسين » فيها كانت هى المناسبة التى تأكدت فيها أجهزة إدارة السياسة الخارجية الأمريكية من أن هدف « صدام حسين » ليس فى إسرائيل ، ولكنه فى الخليج . »

وكان الخليج يموج بتحركات فوارة .

ومن المفارقات أنه فى تلك الفترة تغيرت حكومتان فى المنطقة .

سقطت حكومة الائتلاف ، وانفرد « اسحاق شامير » بتأليف الوزارة فى إسرائيل يوم ٩ يونيو .

وتغيرت حكومة الكويت ، فقد أجريت انتخابات عامة يوم ١٠ يونيو فى جو مشحون بالتوتر ، وقررت المعارضة مقاطعة الانتخابات بسبب تدخلات السلطة ، وكان ٤٠٪ من المرشحين قد انسحبوا من المنافسة فى الأيام القليلة السابقة ليوم الانتخابات . فقد علموا أن الحكومة لديها قائمة ، وأن هذه القائمة هى الناجحة مهما فعل الآخرون . ومن الغريب أن

عدد الذين يحق لهم الانتخاب فى الكويت لا يزيد على ستين ألفا هم مواطنو الدرجة الأولى ، ومع ذلك فإن كل التقديرات أشارت إلى أن ثلثهم فقط أقبل على الإدلاء بأصواته . وجرت اشتباكات فى الشوارع ، وظهرت يد الضغط سافرة .

وانعقد يوم ١٠ يونيو اجتماع لدول « الأوبك » فى جدة . ثم دُعىَ وزير البترول العراقى إلى اجتماع خاص يضم وزراء بترول السعودية والإمارات والكويت وقطر ـ والعراق . وقيل لوزير البترول العراقى إن هذا الاجتماع بديل لاجتماع على مستوى القمة بين الخمسة جرى الحديث عنه فى بغداد بين الملك « فهد » وبين الرئيس « صدام حسين ».

ولم يكن ذلك ما فهمه الرئيس « صدام حسين » من الحديث الأخير مع الملك فى بغداد .

ثم كان أن حصلت المخابرات العراقية على نص حديث تليفونى مسجل بين الملك « فهد » وبين أمير قطر الشيخ « خليفة بن حمد آل ثانى » ، وفى هذا الحديث كان الملك « فهد » يشير إلى المشاكل التى يثيرها العراق ، ويقول :

ـ « أنا لا أعرف ما يريد صدام حسين ؟

هو بهذا الشكل سائر إلى مواجهة مع الإسرائيليين . نسى ما نشر من أن إسرائيل عندها ٢٠٠ قنبلة نووية .

نسى أيضا ما حصل لجمال عبد الناصر حين استفز الغرب .

يا ليته يأخذ الدرس مما يحدث فى الاتحاد السوفيتى .

الاتحاد السوفيتى تحدى أمريكا سنوات ، وهو الآن ينهار .

والله أنا أخشى أنه سوف يودى بنفسه إلى داهية . . »

كان التقاط هذا الحديث التليفونى وتسجيله مبعث دهشة فى بغداد . وفيما بعد أذيع الحديث بأصوات أطرافه .

وكان الحديث فى الغالب صحيحا ، وإن قال الإعلام السعودى إنه جرى تلاعب فنى فى بعض أجزائه .

وكانت الأمور تقترب كثيرا من نقطة اللا عودة !

الفصل الثانى

على طريق اللاعودة !

« الأضواء الحمراء لم توقد بعد فى المنطقة لكن الأضواء الخضراء انطفأت ... الضوء البرتقالى هو الذى أوقد الآن » .

[الجنرال « ايهود باراك » رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى - يونيو ١٩٩٠] .

١

إن المفاجأة الحقيقية فى الغزو العراقى للكويت هى أن هذا الغزو جاء متناقضا مع كل الحسابات والتقديرات العراقية ، كما عبر عنها صانعو القرار العراقى بأنفسهم فى المرحلة السابقة على هذا الغزو .

كان الرئيس « صدام حسين » بشير فى كل تحليلاته التى يعرضها حتى أثناء خطبه العامة - إلى فترة حرجة فى العلاقات الدولية ، وهى فترة سوف تكون السيادة المطلقة فيها على شئون العالم وإدارة صراعاته فى يد الولايات المتحدة الأمريكية لا ينازعها فيها أحد ، والسبب الرئيسى هو انسحاب الاتحاد السوفيتى الكامل وتسليمه بغير شروط أمام الهيمنة الأمريكية .

وكان الرئيس « صدام حسين » فى أحاديثه الصحفية وفى خطبه العامة ، وحتى فى

مداخلاته أثناء اجتماعات القمم التى عقدت فى ذلك الوقت ، بما فيها مداخلته أمام قمة مجلس التعاون العربى فى عمان فى شهر فبراير ١٩٩٠ ـ يتحدث بواقعية عن هيمنة أمريكية تفرض نفسها على الجميع . وكان يقدر ـ كما قال فى عمان ـ أن هذه الهيمنة سوف تستمر لخمس سنوات على الأقل تبدأ بعدها حركة الموازين فى إجراء تعديلات وتغييرات يصعب التنبؤ بها الآن .

ومن ناحية أخرى فإن كل صناع القرار العراقى ـ وبلا استثناء ـ كان يساورهم إحساس بأن هناك مؤامرة على العراق تستهدف ضربه وتصفية قوته ، وإنهاء دوره فى المنطقة لسنوات قادمة .

وكان لابد لهذه التقديرات والحسابات أن تدعو إلى مزيد من الحذر والحيطة .

ولكن الذى حدث لسوء الحظ كان على العكس مما توحى به التقديرات والحسابات العراقية ، **فإن الإقدام على غزو الكويت فى هذه الظروف أصبح قفزة إلى الأمام على الطريق إلى كارثة ، بينما المنطق المستمد من التقديرات والحسابات كان يستدعى خطوة إلى الوراء لاتقائها .**

ويميل بعض صناع القرار العراقى ـ بنوع من القدرية ـ إلى تشبيه ما حدث للعراق ـ بما حدث لمصر قبل ذلك فى معركة سنة ١٩٦٧ . بينما الواقع أن الفارق بين الحالتين كبير :

● **ففى سنة ١٩٦٧** ـ كان التصرف المصرى بطلب جلاء قوات الطوارىء الدولية عن خطوط الهدنة مع إسرائيل قرارا داخليا مصريا ، ولم يكن دخولا بالقوة فى أرض دولة أخرى . وبالتالى فإن مصر سنة ١٩٦٧ كانت فى وضع الدفاع عن النفس ، وكان ذلك يعطى لموقفها شرعية قانونية لا شك فيها .

كما أن الداعى إلى هذا القرار كان رغبة مصر فى المشاركة فى الدفاع عن سوريا بغير حاجز أو عائق ، وبالتالى فإن الرأى العام العربى كان يمكن تعبئته بالكامل وراء الموقف المصرى .

□ **وفى سنة ١٩٩٠** بدأ العراق مبادئا بالغزو ، والهدف دولة عربية ثانية .

● **وفى سنة ١٩٦٧** ـ كان التربص بمصر والتآمر عليها تربصا وتآمرا موجهان إلى فكرة حية ونشيطة ، وهى فكرة القومية العربية التى استطاعت مقدما تعبئة جماهير واسعة فى العالم العربى ووراءه .

□ **وأما فى سنة ١٩٩٠** ، فإن هذه الحركة كانت فى حالة تراجع عام وانكسار شبه محقق .

● **وفى سنة ١٩٦٧** ـ فإن التوازن الدولى بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى كان مازال قائما . مع أن الاتحاد السوفيتى لم يستطع أن يشارك بدور فعال فى رد العدوان ، فقد أمكن فى ظل وجوده تحقيق ثلاثة أهداف :

١ ـ تعويض مصر عن خسائرها فى الأيام الأولى من المعركة بما يسمح لها بالاستعداد ، والعودة إلى ميدان القتال بأسرع ما يمكن . وبالفعل فإن القتال الذى توقف يوم ٩ يونيو ، لم يلبث أن استؤنف فى أواخر نفس الشهر عندما اندلعت معركة « رأس العش » الشهيرة ، والتى كانت مقدمة فعلية لحرب الاستنزاف ، وكانت حرب الاستنزاف بدورها مقدمة حقيقية لحرب أكتوبر .

□ **وفى سنة ١٩٩٠** ، كان الاتحاد السوفيتى أقرب إلى العداء مع العراق منه إلى الصداقة معه .

٢ ـ ثم استطاع التوازن الدولى بعد ذلك أن يفرض سقفا على عمليات العدوان نفسه ، فلم يجر تدمير للمرافق الحيوية فى مصر ، ولا حدث مساس بالهيكل الأساسى للاقتصاد ، وذلك بدوره ساعد على عودة مصر سريعا إلى ميدان العمل المسلح .

□ **وفى سنة ١٩٩٠** ، كان التدمير الذى لحق بالعراق شديدا ومؤلما .

٣ ـ ثم استطاعت مصر دفع الاتحاد السوفيتى خطوة أبعد أقدم عليها مترددا ومضطرا ، لكنه فعل . ذلك أنه فى يناير سنة ١٩٧٠ قبل بنوع من التواجد العسكرى المباشر مشاركا فى الدفاع عن العمق المصرى ، وتكفلت هذه الخطوة بنقل جزء من المواجهة من المستوى الإقليمى فى الشرق الأوسط (مصر وإسرائيل) ـ إلى المستوى الدولى الأعلى (الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة) ـ وأدى ذلك إلى تعديلات هامة فى موازين القوة بين طرفى ميدان القتال .

□ **وأما فى سنة ١٩٩٠** ، فقد كان « بوش » صادقا إلى حد ما حينما وصف الأزمة بأنها « مواجهة بين العراق وبين العالم » .

● **وفى سنة ١٩٦٧** ـ فإن الحقائق الجغرافية أوحت باستخدام إسرائيل لضرب مصر . فوجود حدود مباشرة بين الاثنين استطاع أن يكيف شكل التهديد الموجه لها . كما أن شكل التهديد كان هو الذى حدد حجمه .

□ **وأما فى سنة ١٩٩٠** ، فإن عدم وجود حدود للعراق مع إسرائيل فرض أن يكون التهديد الموجه له أمريكيا مباشرا ـ وهناك فارق فادح بين تهديد تنفذه إسرائيل ، وبين تهديد تنفذه القوة الأعظم الوحيدة الباقية فى العالم ، وتنفذه بكل آلة الحرب التى كانت معدة لحلف وارسو بأكمله .

● **وفى سنة ١٩٦٧** ـ لم يكن خطر الفكرة القومية المستهدفة من ضرب مصر يصل مباشرة إلى المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية ، وهى مصالح البترول .

□ **وأما فى سنة ١٩٩٠** ، فقد كان الخطر مباشرا على المصالح البترولية الأمريكية ، وهى المصالح التى يتوقف عليها أن يكون القرن الواحد والعشرون أمريكيا ، أو لا يكون . ومعنى ذلك أن الولايات المتحدة سوف تكون هى التى تضرب يقينا ، وتضرب بغير رحمة .

● **وفى سنة ١٩٦٧** ـ وبوقائع الجغرافيا والتاريخ فى المنطقة ـ فإن مصر عندما واجهت آثار العدوان لم تكن وحدها ، وإنما كانت الأمة بأسرها وراءها . فالجماهير التى استقبلت « جمال عبد الناصر » عند وصوله إلى الخرطوم في أغسطس ١٩٦٧ ـ لم تدع مجالا للشك على مستوى العالم كله أنها تعتبر معركة إزالة آثار العدوان معركتها ، وأن وقفة مصر لتصحيح آثار ما جرى سنة ١٩٦٧ هى وقفتها ، كما أن الدول المنتجة للبترول كانت هى التى قدمت الدعم المادى الضرورى للصمود . كما أن أطرافا عربية عديدة كانت بذاتها فى ميدان القتال . ففى حين أن الجبهة المصرية كانت هى الجبهة الجنوبية من ميادين القتال ـ فإن سوريا كانت جبهة شمالية ، وكان الأردن ووراءه العراق نفسه يمثلان جبهة شرقية .

□ **وفى سنة ١٩٩٠** ، كان العراق على كل الجبهات جزيرة محاطة ببحار من العداء : دول الخليج فى الجنوب ، وإيران فى الشرق ، وسوريا فى الغرب ، وإسرائيل قريبة متحفزة ومتربصة .

٣

إن العراق سنة ١٩٩٠ كان لديه ما يدعوه إلى الشك بأنه يواجه مؤامرة واسعة النطاق شاركت فيها أطراف عربية بصرف النظر عما إذا كانت هذه الأطراف العربية على علم

كاف بالمدى الذى يمكن أن تصل إليه الولايات المتحدة إذا جاءت ظروف تفرض عليها - من وجهة نظرها ووجهة نظر مصالحها الحيوية - أن تتصرف - أو أن هذه الأطراف لم تكن على علم .

وتكشف وثيقة كويتية عثر عليها العراقيون فى القصر الأميرى فى الكويت بعد الغزو عن صورة تستحق الدرس والتأمل فى التورط الذى انزلقت إليه أطراف عربية . والوثيقة مسجلة على أوراق إدارة أمن الدولة - أى المخابرات - فى وزارة الداخلية الكويتية . وهى برقم « س / ٥٤٠ » ، ونصها الحرفى كما يلى :

● وزارة الداخلية
الإدارة العامة لأمن الدولة
سرى للغاية وخاص
سعادة الشيخ سالم صباح السالم الصباح الموقر
وزير الداخلية

تنفيذا لأمر سموكم الكريم أثناء اجتماعنا معكم بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩٨٩ فقد قمنا والعقيد اسحق عبد الهادى شداد / مدير مباحث محافظة الأحمدى بزيارة إلى مقر وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، حرص الجانب الأمريكى على أن تكون سرية للغاية حتى لا تثير الحساسية لدى الأشقاء فى مجلس التعاون لدول الخليج العربية وإيران والعراق خلال الفترة من ١٢ - ١٨ نوفمبر ١٩٨٩ .

أطلع سموكم الموقر على أهم ما تم الاتفاق عليه مع القاضى وليم وبستر مدير عام وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، وذلك خلال اجتماعى الخاص به يوم الثلاثاء ١٤ نوفمبر ١٩٨٩ .

١ - يتكفلَ الجانب الأمريكى بتدريب العناصر التى اخترناها كى تكون مسؤولة عن حماية سمو أمير البلاد ، وسمو الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح حفظه الله ، بحيث تتم التدريبات والتأهيلات فى مقر وكالة المخابرات الأمريكية نفسها ، وقد حددنا العدد بـ ١٢٨ شخصا للاستفادة من بعضهم فى مهمات خاصة بالعائلة الأميرية ، وخصوصا خدمة سمو ولى العهد الكريم .

وفى هذا المجال أبلغنا الجانب الأمريكى عن عدم رضاه لطريقة أداء قوات الحرس الأميرى عندما تعرض سمو أمير البلاد المفدى لحادث الاعتداء الأثيم .

٢ - اتفقنا والجانب الأمريكى على تبادل الزيارات ، وعلى كافة المستويات بين إدارة أمن الدولة ووكالة المخابرات المركزية وتبادل المعلومات حول إيران والعراق فى مجال التسليح والبنية الاجتماعية والسياسية .

٣ ـ الاستعانة بخبراء من الوكالة للمساهمة فى إعادة النظر بهيكلية الإدارة العامة لأمن الدولة التى أمر سمو أمير البلاد المفدى إعطاءها الاهتمام الكبير عند لقائنا بالجانب الأمريكى ، والاستفادة من خبراتهم فى مجال وضع استراتيجية جديدة للعمل تتوافق والمتغيرات فى منطقة الخليج ، وظروف البلاد الداخلية من خلال تطوير نظام الكمبيوتر ومكننة وظائف العمل فى الإدارة العامة لأمن الدولة .
٤ ـ أبدى الجانب الأمريكى استعداده التام لتلبية طلبنا فى مجال تبادل المعلومات حول نشاط الجماعات الشيعية المتطرفة فى البلاد وبعض دول مجلس التعاون ، وقد أشاد القاضى وبستر بإجراءاتنا بخصوص مكافحة التيارات المدعومة من إيران ، وأبدى استعداد الوكالة فى اتخاذ خطوات مشتركة لإنهاء بؤر التوتر فى منطقة الخليج .
٥ ـ اتفقنا والجانب الأمريكى على أهمية الاستفادة من الوضع الاقتصادى المتدهور فى العراق للضغط على حكومته للعمل على ترسيم الحدود معها .. وقد زودتنا وكالة المخابرات المركزية بتصورها حول طرق الضغط المناسبة بحيث يبدأ التعاون الواسع بيننا وبينهم على شرط أن يكون تنسيق هذه الفعاليات على مستوى عال .
٦ ـ يرى الجانب الأمريكى أن نبرمج علاقاتنا مع إيران بما يضمن تحاشيها من جهة ، والضغط عليها اقتصاديا قدر الإمكان من جهة ثانية ، والتركيز على دعم تحالفها مع سوريا بشكل فعال . ويسهل الاتفاق مع الأمريكان أن تتحاشى الكويت الحديث سلبا عن إيران فى الإعلام ، وحصر التأثير عليها من خلال الاجتماعات العربية .
٧ ـ اتفقنا والجانب الأمريكى على أهمية مكافحة المخدرات فى البلاد ، بعد أن أطلعنا خبراء مكافحة المخدرات فى الوكالة المركزية على أن رأس المال الكويتى يستخدم بشكل كبير فى ترويج تجارة المخدرات فى كل من الباكستان وإيران .. وأن رواج هذه التجارة ستكون له آثار سلبية على مستقبل الكويت .
٨ ـ وضع الجانب الأمريكى تحت تصرفنا هاتف خاص لغرض تنظيم عملية التبادل السريع فى الآراء والمعلومات التى لا تتطلب اتصالات ورقية ، وهو هاتف خاص بالقاضى وبستر ورقمه / ٥٢٤٦ ـ ٦٥٩ ـ ٢٠٢ / .

بانتظار توجيهات سموكم حفظكم الله مع أطيب التمنيات .

مدير عام الإدارة العامة لأمن الدولة
(إمضاء)
العميد / فهد الأحمد الفهد

(وفيما بعد قام العراق بإيداع هذه الوثيقة فى الأمم المتحدة ، وقد قبلتها السكرتارية العامة للأمم المتحدة وقامت بترجمتها كوثيقة . وخصص لها الكاتب البريطانى الأشهر « أليستر كوك » حديثا بأكمله فى برنامجه العالمى « رسالة من أمريكا » ، واستغرق الحديث

ربع الساعة من هيئة الإذاعة البريطانية باللغة الإنجليزية ، وكان ذلك فى شهر أكتوبر ١٩٩٠ . وروى « أليستر كوك » فى حديثه الإذاعى أنه تأكد من أن رقم التليفون المذكور فى الوثيقة صحيح ، وأنه كان أحد أرقام مكتب مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، وأن هذا الرقم تغير فى ظرف ساعة واحدة من إعلانه بعد إيداع الوثيقة فى سجلات الأمم المتحدة .)

□ □ □

كان العراق إزاء هذا كله وغيره مطالبا بأقصى قدر من ضبط النفس ، ومع ذلك فإن نزعات الغضب فاقت ضرورات الصبر . وربما أن أكثر ما أثار غضبه فى تلك الفترة هو القرار الذى أصدرته لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ الأمريكى ـ بقانون يفرض العقوبات التجارية والاقتصادية عليه بسبب انتهاك حقوق الإنسان فيه ، وكأن تلك قضية جرى اكتشافها فى الساعة واللحظة .

والحاصل أن فرض العقوبات الاقتصادية على العراق بدأ يشعره بأن هناك محاولة لخنقه . وراحت بغداد تفكر فيما يمكن أن تفعله ، وعقد مجلس قيادة الثورة العراقى سلسلة اجتماعات فى الأسبوع الأول من يوليو ، وصدر بيان رسمى يقول إن هذه الاجتماعات كانت مخصصة لبحث امكانيات التحول نحو التعددية الحزبية فى العراق ، وكان الواقع أن هذا الموضوع لم يستغرق من وقت المجلس إلا أقله فى حين كان أكثره مخصصا لمناقشة التطورات المتلاحقة والبحث عن سبيل لمواجهتها . وكان الاعتقاد السائد فى مناقشات المجلس أن العقوبات الاقتصادية مقدمة لإجراءات تأتى بعدها ، وليست عقابا أخيرا فى سلسلة من الأفعال وردود الأفعال .

ومن الواضح الآن أن مناقشات المجلس اتجهت إلى تصعيد الأزمة بدلا من تهدئتها ، وذلك بمنطق أن الهجوم خير وسيلة للدفاع . وكان ذلك خطأ رئيسيا فى الظروف الموضوعية السائدة فى ذلك الوقت على مستوى الإقليم ، وعلى مستوى العالم .

ولم يلتفت أحد بالاهتمام الواجب إلى تصريح أدلى به الجنرال « ايهود باراك » الرئيس الجديد لهيئة أركان حرب الجيش الإسرائيلى ـ عقب الاحتفال الذى جرى لتنصيبه فى هذا المركز ، فقد قال الجنرال « باراك » : « إن الذين يتحدثون عن حرب وشيكة فى المنطقة متشائمون أكثر من اللازم » . ثم وجه كلامه للصحفيين المحيطين به قائلا : « إذا طلبتم منى تشخيصا للموقف فأنا أصفه لكم كما يلى : إن الأضواء الحمراء لم توقد بعد فى المنطقة ـ لكن الأضواء الخضراء انطفأت ، وربما قلت لكم إن الضوء البرتقالى هو الذى أوقد الآن » .

ويوم ١٧ يوليو وقف الرئيس « صدام حسين » يلقى خطابه التقليدى فى ذكرى ثورة ١٩٦٨ ، وراح يستعرض أهم الحوادث فى السنة التى انقضت منذ احتفال العام الماضى . وبدأ فقال :

« إن أهم وأخطر الأحداث خلال الفترة الماضية هى الحملة الواسعة المدبرة التى تشنها الدوائر الامبريالية والصهيونية الرسمية وغير الرسمية ضد العراق بصورة خاصة ، وضد الأمة العربية بوجه عام . لقد بدأت هذه الحملة عندما تأكدت الامبريالية أننا انتصرنا فى الحق ، وأننا له مجندون ... وعندما تأكد لها أيضا اقتدارنا الاقتصادى والعلمى وما حققناه فى ميادين التصنيع العسكرى ... لقد أثارت هذه الإنجازات حقد الدوائر الامبريالية والصهيونية ، فاستخدمت كل وسائلها للنيل من سمعة العراق ومقاصده ، ولم يبق فى جعبتها ما لم تستخدمه سوى العدوان العسكرى المباشر ... » .

ثم انتقل بعد ذلك ليقول :

« إن القوى الامبريالية والصهيونية لم تستخدم فى حملتها الأخيرة السلاح حتى الآن وتقتل به أبناء الأمة ، ولم تهدد بالأساطيل والقواعد الجوية المنتشرة فى العالم وفى المنطقة ... ولكنها بدأت تمارس القتل وإضعاف القدرة التى تحمى الكرامة والسيادة بأدوات أخرى ، وبأسلوب آخر أخطر من حيث نتائجه من الأسلوب الأول ... إنه الأسلوب الجديد الذى ظهر من بين صفوف العرب ، والذى يستهدف قطع الأرزاق بعد أن تم تطويق الأسلوب الأول الذى كان يستهدف قطع الأعناق . ولذلك تمنى الصهيونية والامبريالية نفسها بأنها ستنجح من خلال هذه الوسيلة حيث تفشل بوسائلها التقليدية .»

ثم وصل الرئيس « صدام حسين » إلى الأزمة الراهنة فقال :

« إن الأساليب الجديدة ينفذها عرب ... أفراد ... وربما الدول فى المنطقة ، وأعنى بذلك السياسة البترولية الجديدة التى يتبعها منذ حين بعض الحكام فى دول الخليج تعمدا فى تخفيض أسعار النفط بدون مسوغ اقتصادى ، وعلى الضد من إرادة غالبية المنتجين فى الأوبك ، وعلى الضد من مصلحة الأمة العربية ... وعلى سبيل المثال ، فإن انخفاض دولار واحد فى سعر النفط من جراء هذه السياسة يؤدى إلى انخفاض ألف مليون دولار من عائدات العراق سنويا . وإن تخفيض سعر النفط عن السعر الذى كان سائدا قبل وقت ليس ببعيد ، وهو ٢٧ ـ ٢٨ دولارا ، إلى الأسعار المتدهورة التى وصل إليها سعر البترول حاليا أدى إلى خسارة أربعة عشر مليار دولار سنويا ، فى الوقت الذى تحل فيه بضعة مليارات من الدولارات الكثير مما هو موقوف ومؤجل فى حياة العراقيين . »

ثم أورد الرئيس « صدام حسين » بعد ذلك تشخيصا دقيقا للصورة العامة فى الموقف كله ـ فقال :

« لم يعد هناك خفايا أو أسرار فى مرامى هذه السياسة المخربة ، ذلك أن حاجة الولايات المتحدة إلى استيراد النفط تتزايد بمعدلات كبيرة ... وقد تكون حاجتها إلى البترول أكثر بكثير مما نحن مطلعون عليه ، وإن بترول الشرق الأوسط والعربى منه بوجه خاص هو المرشح لسد احتياجاتها . وبعد أن تهيأت أمامها الفرصة تصر الولايات المتحدة على العمل للإمساك بموقع الدولة العظمى الوحيدة من غير منازع ... ولكى يتحقق لها ذلك تعمل على ضمان تدفق النفط إليها بأبخس الأسعار ، والتحكم فيه وبمصير مالكيه لتتحكم فيما بعد بمصير مستهلكيه الآخرين أيضا ، وبالذات دول أوروبا واليابان وربما الاتحاد السوفيتى فى وقت لاحق إذا ما أصبح هو الآخر مستوردا للبترول . ولكى تتحكم أمريكا بمصائر منتجى البترول ، يقتضى بألا تسمح بنمو امكاناتهم المادية ومصادر ثروتهم بما يتيح لهم فرصة المناورة الطبيعية فى العلاقة بين المالك والبائع وبين المشترى . ولأن العدوانية الإسرائيلية وسياسة التوسع باقية ، يضاف إليها ما تقتضيه أهداف الدولة الأمريكية العظمى فى المنطقة ، فإن أمريكا حريصة على أن نحقق خزينا استراتيجيا متزايدا (من البترول) لتضمن كل تلك الأهداف ، وفى مقدمتها التحكم بمتى وكيف تثير أو تسمح بإثارة الحروب والفتن ، وكل ما يضع المنطقة فى حلق ذئب . ومتى وكيف توعز باستقرارها إلى حين . ثم إن المخزون من البترول إذا ما تم شراؤه بأقل من قيمته فإن ثقله على خزينة أمريكا لن يكون كبيرا كما لو تم شراؤه بالقيمة التى يساويها حقيقة . وإن تلاقى مصلحة المضاربين فى أسواق البترول من الأمريكان لشراء النفط عندما ينخفض سعره ، وخزنه ، وعرضه للبيع عندما يرتفع سعره ، مع سياسة بعض تجار البترول والسياسة من العرب ، وبعضهم من وزراء البترول ، أو أعلى منصبا منهم هى من أخطر حلقات هذه السياسة المخربة .»

٣

كان خطاب الرئيس « صدام حسين » عاما ، ولم يتطرق إلى تحديد مسئوليات تقع تبعاتها على جهة أو دولة أو مسئول عربى بالذات ، وكان يمكن أن يمر بسلام لو لم تتلوه قنبلة فجرها فى تونس السيد « طارق عزيز » نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية الذى كان يحضر فى ذلك الوقت اجتماعا لوزراء خارجية الدول العربية خصص لموضوع هجرة اليهود السوفيت إلى إسرائيل .

فى المقر المؤقت لجامعة الدول العربية فى تونس توجه السيد « طارق عزيز » إلى

مكتب الأمين العام السيد « الشاذلى القليبى » ـ وسلمه رسالة من الحكومة العراقية . ووقع الانفجار .

بدأت الرسالة العراقية بمقدمة إنشائية طويلة ، ثم وصلت إلى صميم الموضوع فطرحت قضيتين :

● **قضية الحدود** : وفى صددها قالت الرسالة إن حكومة الكويت استغلت انشغال العراق بالحرب مع إيران ومضت فى تنفيذ مخطط يهدف إلى تصعيد وتيرة الزحف التدريجى والمبرمج باتجاه أرض العراق ، فصارت تقيم المنشآت العسكرية والمخافر والمنشآت النفطية والمزارع على أرض العراق . وقد سكتنا على كل ذلك واكتفينا بالتلميح والإشارات ، ولكن تلك الاجراءات استمرت وبأساليب ماكرة وإصرار يؤكد التعمد ... وقد صبرنا على هذه التصرفات بدواعى الحكمة والحلم . وكان استعدادنا لمزيد من التحمل كبيرا لولا انتقال الأمور إلى مستوى خطير لم يعد ممكنا السكوت عليه .

● **وكانت النقطة الثانية هى** : أن حكومة الكويت اشتركت مع حكومة الإمارات العربية المتحدة فى تنفيذ عملية مدبرة لإغراق سوق النفط بمزيد من الانتاج خارج حصتهما المقررة فى الأوبك بمبررات واهية ... وبذرائع لن يشاركهما فيها أى من الأشقاء من الدول المنتجة . وقد أدت هذه السياسة المدبرة إلى تدهور أسعار النفط تدهورا خطيرا ، فبعد التدهور الذى حصل قبل سنوات فى السعر من المعدلات العالية التى كان قد بلغها وهى ٢٤ و٢٩ و٢٨ دولارا للبرميل الواحد ، أدت تصرفات حكومتى الكويت والإمارات إلى انهيار سعر الحد الأدنى المتواضع الذى تم الاتفاق عليه فى الأوبك أخيرا ، وهو ١٨ دولارا للبرميل ، إلى ما بين ١١ ـ ١٣ دولارا للبرميل . وبعملية حسابية بسيطة يمكننا أن نقدر مقدار الخسائر الباهظة التى لحقت بالدول العربية المنتجة للنفط .

وقد أجرت الرسالة العراقية إلى الجامعة العربية عملية الحساب البسيطة التى اقترحتها ، ووصلت إلى نتيجة مؤداها أن هذه الدول خسرت فى الفترة من ١٩٨١ إلى ١٩٩٠ ما قيمته خمسمائة مليار دولار ، كانت حصة العراق منها خسارة ٨٩ مليار دولار . ثم أضافت الرسالة العراقية إلى ذلك اتهاما للكويت بأنها انتهزت فرصة ظروف الحرب ، فأقامت منشآت نفطية على الجزء الجنوبى من حقل « الرميلة » العراقى وراحت تسحب النفط منه ، « وبهذا تلحق الضرر بالعراق مرتين . مرة بإضعاف اقتصاده ، وهو أحوج ما يكون إلى عوائده ، ومرة أخرى بسرقة ثروته » . وقدرت الرسالة العراقية ما سحبته الكويت من بترول حقل « الرميلة » بما قيمته ٢٤٠٠ مليون دولار . وكان الأخطر بعد ذلك ما ورد فى نص الرسالة بأن ما فعلته حكومتا الكويت والإمارات يمثل عدوانا على العراق .

ورأى الأمين العام للجامعة العربية أن يعرض الرسالة العراقية على مجلس وزراء خارجية دول الجامعة ، وهم يومها فى تونس يبحثون هجرة اليهود السوفيت إلى إسرائيل . ودارت مناقشات كانت مشوشة فى معظمها لأن وزراء الخارجية لم يكونوا على استعداد للقنبلة التى تفجرت فى مجلسهم فجأة .

وكان السيد « ياسر عرفات » قد حضر بنفسه بعض اجتماعات وزراء الخارجية ليلفت النظر لخطورة موضوع هجرة اليهود السوفيت إلى إسرائيل .

وفى الجو المشوش الذى ساد مجلس الجامعة العربية بانفجار قنبلة الرسالة العراقية ، جرى كلام كثير ، وتناثرت ألفاظ وحكايات نقل بعضها إلى القاهرة بما فيه عبارات بدا بعضها غير مناسب فى حق الزعيم المصرى « مصطفى النحاس » (باشا) . فقد نقل عن السيد « ياسر عرفات » (فى معرض حديثه عن خطورة الهجرة السوفيتية إلى فلسطين وضياع الأرض ، وعدم تنبه المسئولين العرب) - قوله : إنه يذكر كلمة لـ « مصطفى النحاس » (باشا) عندما كان « رئيسا لحكومة مصر سنة ١٩٣٩ » واستقبل وفدا فلسطينيا مسافرا إلى لندن لمؤتمر عقد هناك حول القضية الفلسطينية ، وأن « النحاس » (باشا) قال لأعضاء الوفد « إنكم تمنعون اليهود من الوصول إلى حائط المبكى ، فاعطوهم الحائط وخلصونا » . وعقب السيد « طارق عزيز » على ذلك بقوله : « إن النحاس (باشا) وغيره من زعماء تلك الفترة أطيح بهم فى الخمسينات ، وأن هذا هو مصير المسئولين الذين لا يقومون بمسئولياتهم » .

وكان أبسط رد على مثل هذه الروايات والأقوال - كما جرى نقلها - هو أن « النحاس » (باشا) لم يكن رئيسا لوزراء مصر سنة ١٩٣٩ ، وبالتالى فالواقعة من أساسها مشوشة ، شأنها شأن كثير مما دار فى تلك الجلسة الغريبة .

وعندما تبين أن الجلسة تتفكك ، وقف السيد « طارق عزيز » وقال لزملائه من وزراء الخارجية : « **إننى أحدثكم عن موقف يعتبره العراق عدوانا مباشرا عليه ، ومعنى ذلك أن العراق سوف يرد على هذا العدوان ، وإذن حالة حرب . ومع ذلك فالمناقشات تشعبت بنا وخرجت عن الموضوع ، وأنتم تتصرفون وكأنكم لم تسمعوا .** » وكان الاجتماع على وشك أن ينهار ، بل إنه كان قد انهار فعلا .

□

وتجاوبت أرجاء الوطن العربى بردود فعل متضاربة .

● **ففى القاهرة** بدا أن هناك غضبا من التعريض بـ « مصطفى النحاس » (باشا) باعتبار أن التعريض به فى هذا السياق اتهام لمصر بالتفريط فى الحقوق الفلسطينية .

● **وفى الكويت** أذاعت وزارة الخارجية نص مذكرة رسمية وجهتها إلى الجامعة العربية ترفض فيها الاتهامات العراقية ، وتقول إن العراق هو الذى اعتدى على أراضى الكويت وحفر آبارا داخلها استولى منها على بترول كويتى . ثم طلبت المذكرة تشكيل لجنة تابعة للجامعة العربية تتولى تسوية نزاع الحدود مع العراق .

● **وفى أبو ظبى** أصدرت حكومة الإمارات بيانا رسميا تستغرب فيه الاتهامات العراقية الموجهة لها .

واتصل الرئيس « صدام حسين » تليفونيا بالرئيس « حسنى مبارك » مبديا انزعاجه من سوء تأويل ما نسب إلى السيد « طارق عزيز » من أنه أساء إلى مصر فى معرض حديثه عن « النحاس » (باشا) ، وقال الرئيس « صدام حسين » للرئيس « حسنى مبارك » إنه أمر وزير خارجيته بأن يحمل شريطا مسجلا لاجتماع وزراء الخارجية العرب فى تونس ويتوجه به إلى لقاء الرئيس « مبارك » فى الاسكندرية . وبعد أن يسمع الرئيس « مبارك » شريط التسجيل ، فله أن يفعل بوزير الخارجية العراقى ما يشاء .

وكان رأى الرئيس « مبارك » فى هذه المكالمة التليفونية أنه سوف يرى « طارق عزيز » فور وصوله إلى الاسكندرية ، غير أن هذا ليس هو الموضوع الهام ، لكن الموضوع الهام هو كيف يمكن احتواء الأزمة ؟ ـ وكان تعليق الرئيس العراقى « إننا حاضرون لأى شىء تراه » .

وأجرى الرئيس « مبارك » عقب ذلك اتصالات تليفونية مع كل من الملك « فهد » ، والشيخ « جابر الصباح » ، والشيخ « زايد » ، والملك « حسين » . ثم وقف الرئيس « مبارك » فى احتفال الذكرى الثامنة والثلاثين لثورة ٢٣ يوليو ، وقال ضمن خطابه فى الاحتفال : « **إن الخلافات العربية سحابة صيف لابد أن تنقشع لأننا كلنا أخوة** » .

ومساء نفس اليوم استقبل « طارق عزيز » الذى دخل إليه فى مكتبه فى قصر رأس التين يقول له : « إن الرئيس صدام حسين أمرنى بأن أضع نفسى تحت تصرفكم بالكامل ، وهذا هو شريط تسجيل مجلس الجامعة الذى نقلت منه عبارات محرفة » . ثم أضاف « طارق عزيز » قائلا : « إننى على كل حال جئت إلى هنا بحقيبة ملابس صغيرة ومستعد للخروج من هنا لسجن طره إذا رأيتم أننى أخطأت » . وقدم للرئيس « مبارك » شريط التسجيل . ورد الرئيس « مبارك » بأنه يكفيه أن يقول « طارق عزيز » إن ما نقل عنه كان محرفا . ثم أضاف « إن الوقت لا يسمح بالاستماع لشرائط تسجيل ، وأن الأولى أن نواجه الموقف العصيب الذى نحن فيه الآن » .



الرئيس مبارك وطارق عزيز .

وخرج « طارق عزيز » ليقول للصحفيين على باب قصر رأس التين « إن من يظن أنى يمكن أن أقول كلمة واحدة تسىء إلى مصر ، أو إلى أحد رجالاتها مخطىء » .

وفى نفس الوقت كان مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى القاهرة يصدر بيانا باسم السيد « ياسر عرفات » ينفى فيه تماما أنه يمكن أن يسىء لمصر ، أو لذكرى « مصطفى النحاس » (باشا) ، وقال إن كل خطابه أمام مجلس الجامعة فى تونس ركز على المخاطر والتهديدات التى تعرضت لها الأمة العربية فى الماضى ، وتتعرض لها اليوم .

وفى الوقت نفسه كانت حكومة الكويت تتلقى برقيات من سفيرها فى بغداد السفير « ابراهيم البحو » ، وكانت البرقيات مثيرة للقلق .

ففى برقية منها قال السفير « البحو » إنه « لا يريد أن يتسبب فى إثارة ذعر لا مبرر له ، ولكنه يتلقى معلومات كثيرة عن تحركات قوات عراقية إلى الجنوب ، وهو لا يريد أن يسأل لأنه مقدما يعرف الجواب الذى يتوقع أن يسمعه من العراقيين ، وهو أن هذه التحركات مقصود بها إيران لأن الاتفاق النهائى بين البلدين لم يوقع بعد ، وما وقع هو اتفاق لوقف إطلاق النار . » .

ثم توقف السفير « ابراهيم البحو » عن إرسال برقيات ، وراح يعتمد على التقارير ، وفى واحد منها روى أنه تحدث مع السفيرة الأمريكية فى بغداد السيدة « ابريل جلاسبى » ، وأنه اقترح عليها أن تقابل الرئيس « صدام حسين » وتستوضحه عن نوايا العراق ، ولكن السفيرة قالت له إن « صدام حسين » لا يقابل السفراء ، وأنه لا فائدة من المحاولة .

وفى رسالة أخرى روى السفير « البحو » أنه التقى مع السفير السويدى فى بغداد المستر « هنريك أمنيوس » ، وأن السفير السويدى روى له عن مقابلة جرت بينه وبين السيد « عزة إبراهيم » نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ، وخلالها قال السيد « عزة إبراهيم » للسفير « **إن العراق ليس على استعداد لأن يموت بالخنق الاقتصادى فى صمت ، وأن العراق على استعداد لأن يضحى بستة عشر مليونا من أبنائه فى سبيل أن يعيش المليون الباقى فى عز وكرامة** » .

وكانت وكالات الأنباء تؤكد تحركات حشود عسكرية متجهة إلى الجنوب ، ونسبت جريدة الـ « واشنطن بوست » إلى أحد الملحقين العسكريين الأجانب فى بغداد أنه **أستطاع أن يعد بنفسه أكثر من ٢٠٠٠ مركبة عسكرية فى قافلة واحدة متجهة إلى البصرة ، وكان تقديره أنها تحمل فرقتين كاملتين من قوات الحرس الجمهورى .**

وتوجه الأمير « سعود الفيصل » وزير الخارجية السعودى يحمل رسالة من الملك « فهد » إلى الرئيس « صدام حسين » ، كما وصل الدكتور « عبد الرحمن العوضى » وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء الكويتى . وفى ظرف ساعات وصل الملك « حسين » إلى الاسكندرية ، وقضى فيها ساعات مع الرئيس « حسنى مبارك » فى قصر رأس التين ، وانضم إليهما السيد « طارق عزيز » بطلب من الرئيس « حسنى مبارك » .

وفى الصباح الباكر من اليوم التالى أصدرت حكومة الكويت بيانا تنفى فيه أنباء ترددت بأن الكويت قدمت شكوى ضد العراق إلى مجلس الأمن ، وقال البيان الكويتى « إن الكويت تعلن التزامها بميثاق الجامعة العربية » .

وبدا أن الأزمة يمكن تطويقها خصوصا عندما أعلن مبكرا يوم ٢٤ يوليو أن الرئيس « حسنى مبارك » توجه بالطائرة من القاهرة إلى بغداد لمقابلة الرئيس « صدام حسين » ، وأن فى نيته أن يتوجه بعد ذلك إلى الكويت لمقابلة الشيخ « جابر » ، ثم ينتهى به المطاف فى جدة لمقابلة الملك « فهد » .

وكان الرئيس « مبارك » يحمل معه مشروع تهدئة من نقطتين :

- **النقطة الأولى** : وقف الحملات الإعلامية بين جميع الأطراف فورا .
- **والنقطة الثانية** : أن تبدأ الأطراف المعنية مباشرة مفاوضات هادئة على مستوى عال لبحث مشكلة الحدود بين البلدين باعتبارها المشكلة الحساسة التى عكرت جو العلاقات بين البلدين لسنوات طويلة .

وأما بالنسبة لموضوع الأسعار فقد رئى تركه لاجتماع يعقده وزراء « الأوبك » بعد يومين فى جنيف ، وكان هناك شبه تراض على أن « الأوبك » سوف تضع سياسة من شأنها ربط حصص الانتاج بما يضمن رفع سعر البترول إلى ١٨ دولارا للبرميل .

وفى بغداد يوم ٢٤ يوليو ١٩٩٠ تم اللقاء بين الرئيس « حسنى مبارك » والرئيس « صدام حسين » .

كانت محادثات الأمير « سعود الفيصل » قبلها بيومين قد ركزت على أهمية عقد لقاء على مستوى عال بين الكويت والعراق ، وتم الاتفاق على أن يكون الوفد الكويتى برئاسة الشيخ « سعد السالم الصباح » ولى العهد ورئيس الوزراء ، وأن يكون الوفد العراقى برئاسة السيد « عزة إبراهيم » نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقى ، وأن تجرى المفاوضات فى جدة برعاية من الملك « فهد » الذى يتمنى أن تنتهى الأزمة على خير . وكان الرئيس « مبارك » على علم بهذا الاتفاق ، وكان مؤيدا له .



الرئيسان مبارك وصدام فى بغداد فى يوليو ١٩٩٠ .

وكان اللقاء بين الرئيس « حسنى مبارك » والرئيس « صدام حسين » مغلقا اقتصر عليهما هما الاثنان فقط . وهذه الاجتماعات المغلقة على رجلين إحدى أكثر مشاكل العمل العربى الراهنة ، لأن ما يجرى فيها لا يشهد عليه إلا أصحابه ، وقد يكن لكل منهم تفسيره أو فهمه أو تقديره لمواقف غيره . وعندما لا تكون هناك محاضر للجلسات وتختلف الروايات ، فإن المشاكل تزداد حدة وتعقيدا ، ذلك أن تضارب الروايات وعلو مستوى الرواة يجعل عملية البحث عن الحقيقة مأزقا مستعصيا .

وهذا بالضبط ما حدث فى اللقاء المغلق الذى اقتصر على الرئيسين فى بغداد يوم ٢٤ يوليو ١٩٩٠ .

فهم الرئيس « مبارك » من الرئيس « صدام حسين » أنه لا ينوى استخدام القوة ضد الكويت .

وفهم الرئيس « صدام » أنه قال للرئيس « مبارك » إنه لا ينوى استخدام القوة مادامت المفاوضات جارية .

ولم يكن هناك شهود ، ولا كان هناك محضر للجلسة .[1]

ولقد كان المشهد الذى رآه آخرون هو المشهد الذى دار بعد انتهاء الجلسة المغلقة بين الزعيمين ، وقد خرجا ليجدا عددا من المرافقين والصحفيين فى بهو خارجى أمام القاعة التى اجتمعا فيها على انفراد .

ووقف الرئيس « صدام حسين » أمام المرافقين والصحفيين يقول للرئيس « مبارك » ضاحكا : « **بالله عليك لا تطمئنهم يا أبو علاء ، هؤلاء ناس لا يعرفون الحياء ... وهذا الرجل الشيخ جابر ، إن لديه مال قارون وهو يكنزه ولا يصرفه على شعبه . لديه ثروة مقدارها ١٧ بليون دولار .** »

ثم وجه الرئيس « صدام حسين » حديثه إلى الصحفيين المصريين المرافقين للرئيس « مبارك » وقال لهم :

« **لو أن هذا المبلغ كان تحت تصرف الشعب المصرى .. ؟ كم من الأزمات الخانقة كان يمكن حلها ؟** »

وانتهى اللقاء ، ولا أحد يدرى أن اختلاف الفهم بين الرجلين عن احتمال استعمال القوة من جانب العراق ضد الكويت سوف يضيف إلى الأزمة بأكثر مما يأخذ منها .

وفى الطائرة على الطريق من بغداد إلى الكويت (المحطة التالية فى رحلة الرئيس « مبارك ») جد شىء أضاف إلى الحساسيات الإنسانية لمسة ضيق جديدة . فقد تلقى الرئيس

---

(١) الغريب أن مشكلة عدم وجود محاضر لجلسات الملوك والرؤساء العرب لا تقتصر فقط على اجتماعاتهم الثنائية أو الثلاثية ، وإنما تمتد أيضا إلى مؤتمرات القمة العربية ذاتها ، وإن اختلفت الأسباب . ففى الاجتماعات الثنائية أو الثلاثية مثلا ـ يرى الملوك والرؤساء أن يتحدثوا بدون مساعدين أو سكرتارية ـ وفى مؤتمرات القمة الرسمية ، وفى السنوات الأخيرة ، أصرت الدول المضيفة للقمم دائما أن تكون هى القائمة بأعمال التحضير للمؤتمرات ، بما فيها تسجيل محاضر الجلسات ، وفى النهاية فإن كل دولة مضيفة احتفظت لنفسها بالمحاضر ولم تسلم حتى نسخة منها للأمانة العامة للجامعة العربية ، ولو لمجرد استيفاء الشكل . وفى قمة الدار البيضاء اعتذر المغرب عن إعطاء محاضر لأن الترتيبات الالكترونية قامت بها شركة فرنسية لم تفرغ من أعمالها بعد . وفى قمة بغداد لم يستطع أحد أن يحصل على محاضر . وفى قمة القاهرة لم تحدث استجابة لأى طلب بمحضر الجلسة الوحيدة التى عقدتها القمة ، وقيل إن التسجيل كان مشوشا .

« مبارك » تصريحا صحفيا منسوبا إلى السيد « طارق عزيز » قال فيه « **إن زيارة الرئيس « مبارك » لبغداد واجتماعه بالرئيس « صدام حسين » كان مخصصا لبحث قضايا ثنائية فى العلاقات بين البلدين ، ولم يكن عن أزمة الخليج ، كما روجت الأنباء السابقة .** »

وأحس الرئيس « مبارك » أن هذا التصريح « ليس منصفا فى حق الجهود التى يبذلها ، وأنه محاولة لإفراغ رحلته من مضمونها الحقيقى وتحجيم دوره فى محاولات حل أزمة دهمت العالم العربى » .

والحاصل أن الرئيس « مبارك » مر على الكويت وزكى فكرة اجتماع جدة ، ورجا أن يتم الاجتماع ، ويكون بداية لحل الأزمة . ثم رأى أن يطمئن الكويتيين بقوله : « **إنه فهم من الرئيس صدام أنه لا ينوى استخدام القوة فى حل النزاع** » .

ثم توقف الرئيس « مبارك » للقاء سريع مع الملك « فهد » فى مطار جدة ، وكرر نفس الشىء ، خصوصا عندما سمع من الملك « فهد » أن هناك تحركات عسكرية ، وكان تعليق الملك « فهد » : « إن الأمير « سعود الفيصل » عاد من بغداد بتطمينات ، **ولكن تحرك القوات فى حد ذاته يثير القلق والشك ، كما أنه يتمنى أن يرى الكويتيون إشارات الخطر ويتساهلوا بعض الشىء خصوصا فى قضية الأسعار** . »

□

كان الأمير « سعود الفيصل » قد عاد من بغداد باتفاق مبدئى على أن يكون اجتماع الوفدين الكويتى والعراقى فى جدة يوم ٣١ يوليو ١٩٩٠ . ووجه الملك « فهد » الدعوة إلى رؤساء الوفود للحضور إلى جدة ، كما تقضى بذلك المراسيم .

وكانت رسالة الدعوة الموجهة من الملك « فهد » إلى أمير الكويت بالنص التالى :

● المملكة العربية السعودية
ديوان رئاسة مجلس الوزراء

برقية رقم ٣٥٣
التاريخ ٧ / ١ / ١٤١١ هـ

صاحب السمو الأخ العزيز الشيخ جابر الأحمد الصباح

أمير دولة الكويت حفظه الله

فإننى أود أن أشير إلى الاتصالات الأخوية التى جرت مع سموكم وفخامة الأخ الرئيس صدام حسين رئيس الجمهورية العراقية ، وما تم التفاهم عليه بأن يجتمع سمو الأخ الشيخ سعد العبد الله الصباح ودولة الأخ عزة إبراهيم فى بلدكم الثانى

المملكة العربية السعودية . وإنه لمن دواعى سرورى أن نرحب بسمو الأخ الشيخ سعد العبد الله فى مدينة جدة يوم الثلاثاء التاسع من شهر محرم ١٤١١ هـ الموافق الحادى والثلاثين من شهر يوليو / تموز عام ١٩٩٠ وفقا لما تم التفاهم عليه . وفى الوقت الذى أتطلع فيه لهذا الاجتماع الأخوى فإننى أثق كل الثقة بأن حكمة سموكم وثاقب بصيرتكم ستحقق بمشيئة الله ما نتطلع إليه (أشقاء لكم فى البلاد العربية) من تذليل كل الصعاب وتجاوز كل العقبات ، وتأكيد الصحبة والوئام بين البلدين الشقيقين .

وفى الختام أغتنم هذه الفرصة لأعبر عن صادق مودتى وتقديرى المقرون بأخلص تمنياتى الأخوية لسمو الأخ بموفور الصحة والسعادة ، وللشعب الكويتى الشقيق بالمزيد من التقدم والرخاء والازدهار . والله يحفظكم ويرعاكم .

أخوكم
خادم الحرمين الشريفين
فهد بن عبد العزيز آل سعود ●

وفيما بعد عثر العراقيون على هذا الخطاب فى مكتب الأمير بقصر دسمان عندما دخلوه بعد الغزو . وكانت فى أسفله تأشيرة بخط الأمير الشيخ « جابر الأحمد الصباح » نصها كما يلى :

● الشيخ سعد
نحضر الاجتماع بنفس شروطنا المتفق عليها ، والأهم بالنسبة لنا مصالحنا الوطنية . ومهما ستسمعونه من السعوديين والعراقيين عن الأخوة والتضامن العربى لا تصغوا إليه . كل واحد منهم له مصالحه . السعوديين يريدون إضعافنا واستغلال تنازلنا للعراقيين لكى نتنازل لهم مستقبلا عن المنطقة المقصودة . والعراقيين يريدون تعويض حربهم من حساباتنا .
لا هذا يحصل ولا ذاك . وهو رأى أصدقاؤنا فى مصر وواشنطن ولندن ... أصروا فى مباحثاتكم ، نحن أقوى مما يتصورون .

تمنياتنا بالتوفيق
(إمضاء)
جـابـــر ●

ولم تكن هذه أحسن ولا أفضل التوجيهات التى يحملها معه وفد كويتى للتفاوض فى هذه الظروف الحساسة . ومع ذلك فإن التوجيهات التى حملها الوفد العراقى معه من بغداد لم تكن أكثر رقة أو عذوبة ، فقد كان توجيه الرئيس « صدام حسين » للسيد « عزة إبراهيم » قبل سفره إلى جدة تقضى بالتشدد ، وبأنه « **إذا أبدى الكويتيون عنادهم المعروف فقل لهم إن لدينا صورا فوتوغرافية لسور الطين القديم حول مدينة الكويت ، وهذا هو خط الحدود الذى نحن على استعداد للاعتراف به** » .

□

وبهذه التوجيهات من الناحيتين ، ذهب الوفدان لإنقاذ موقف وتفادى أزمة ، والبحث عن صلح فى جدة !

الفصل الثالث

الأزمة عند الذروة

« أريد أن أكون دقيقا مع حكومتى . هل هذا رأيك أو رأى أمير الكويت ؟ »

[السفير الأمريكى فى الكويت للشيخ « سعد الصباح » - فجر يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠] .

١

فى الأيام القليلة السابقة على الغزو - كانت هناك اختلافات فى الرؤى والتصورات بين ست من العواصم المهتمة بالأزمة ، أو المشاركة فيها بدور ما .

كانت رؤى وتصورات هذه العواصم جميعا متقاطعة ، تلتقى عند بعض المواقع ثم لا تلبث أن تفترق ، وبعضها يقف عند حد معين ، وبعضها لا توقفه حدود :

● **كانت الرياض** مشغولة بالاجتماع القادم فى جدة ، وكان موقف الملك « فهد » متموجا ، فهو من ناحية مع العراق كلية فى موضوع الأسعار ، ومع العراق جزئيا فى موضوع الحدود لأن السعودية لها إشكال مماثل مع الكويت من أيام الخط الشهير الذى رسمه السير « بيرسى كوكس » على خريطة فى مؤتمر العقير . لكنه فى الوقت نفسه ضد العراق فى التهديد باللجوء للقوة لأن استخدامها فى منطقة الخليج يضع سابقة لا يمكن قبولها ، كما

أن الملك ـ ورغم علاقته الوثيقة بالرئيس « صدام حسين » ـ كان يخشى أن خروجه من الحرب مع إيران منتصرا سوف يجعله سيدا على الخليج ما لم يتصد له أحد .

● **وكانت عمان** غير راضية عن شيوخ البترول بالجملة ، فالأزمات الاقتصادية تعصرها والأثرياء لا يساعدونها بالقدر المنتظر . ولعل الملك « حسين » ، وهو السليل الوحيد الباقى على عرش هاشمى كان يحس فى أعماقه بأن « شيوخ البدو » الذين كانوا يتطلعون إلى أجداده باعتبارهم « أشراف الشيوخ » ـ أصبحوا الآن فى وضع من يعطى ويمنع ، وربما أنه لم يكن يضايقه كثيرا أن يشعر أصحاب البترول ـ الذين نزل عليهم الغنى دون حساب ـ بخطر يهددهم ويعيدهم إلى الأرض من طبقات السحاب التى حلقوا إليها بغير أجنحة .

● **وكانت القاهرة** بحكم عضويتها فى مجلس التعاون العربى ـ على صلة قريبة بالعراق . وربما كان الرئيس « مبارك » واحدا من الذين يرون أن للعراق فى موضوع الحدود وجهة نظر لا بد من سماعها ، ونفس الشىء بالنسبة لموضوع بترول الرميلة ـ كما أنه على وجه اليقين كان يرى أن انخفاض أسعار البترول يؤثر أيضا على مصر التى أصبحت مصدرا للبترول من الحجم المتوسط . لكن الرئيس المصرى كان يختلف مع أسلوب الرئيس العراقى . ولعله أيضا لم يكن يشعر بالراحة مع شخصية « صدام حسين » المتأثرة بتكوينه العقائدى وطموحاته إلى دور إقليمى يراه الرئيس « مبارك » على حساب مصر . كذلك كان الرئيس « مبارك » يتصور مما فهمه فى بغداد أن نظيره العراقى لن يقدم على شىء يؤدى إلى حرب . وقد وقف هو بنفسه أكثر من مرة ، وقال فى خطب علنية إنه واثق من أن « صدام حسين » رجل سلام .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه العواصم الثلاث : الرياض وعمان والقاهرة ـ وملوكها ورؤساؤها الثلاثة : « فهد » و « حسين » و « مبارك » ـ كانوا تحت انطباع أوحى إلى كل منهم ـ على انفراد وربما دون اتفاق ـ أن أخطر المتوقع والمنتظر هو عملية محدودة على « بوبيان » و « وربة » يحتل بها العراق هاتين الجزيرتين ، ثم يقف لينتظر رد الفعل لعل الكويت تكون بعدها أكثر استعدادا للتفاهم .

● **أما العاصمة الرابعة ، وهى الكويت** ، فقد كانت بما لديها من حسابات ومعلومات تستبعد استعمال القوة ، وترى فى التهديد العراقى حرب أعصاب وليس أكثر ـ ومع ذلك فإنها كانت قلقة من الأسلحة غير التقليدية التى يملكها العراق ، ويبدو أنها كانت بالفعل قد أجرت اتصالات حول هذا الموضوع بالولايات المتحدة الأمريكية . وفيما بعد عثر

العراقيون فى مكتب وزير الخارجية الكويتى على تقرير(١) بتوقيع السفير « أحمد الابراهيم » سفير الكويت فى بروكسل (عاصمة بلجيكا ـ وعاصمة السوق الأوروبية فى نفس الوقت) ـ جاء فى البند الثالث منه قوله : « التقيت فى نفس اليوم ، وبعد خروجى من مكتب السيد « مانوتيس » (المفوض الأوروبى المسئول عن الشئون الشرق أوسطية) مع السيد « ج . أ . ماكوين »(٢) الذى يقوم بجولة أوروبية ، وأثناء تباحثى مع السيد « ماكوين » تلمست الأمور التالية :

● **١ ـ أن أساليب الضغط على العراق التى اقترحها سمو أمير البلاد المفدى بما فيها السعى الأمريكى والغربى لتدمير الأسلحة العراقية المتطورة ، وجد حماسا لدى الولايات المتحدة لأنه أول طلب عربى بهذا الخصوص .**

٢ ـ تختلف الادارة الأمريكية فى النقطة الثانية مما ورد فى رسالة أمير البلاد المفدى التى يعتقد بها بأن الضغوط الاقتصادية لا تكفى لوحدها فى توقيف الصناعة العسكرية العراقية المتطورة ، حيث تعتقد الولايات المتحدة أن بإمكان هذه الضغوط أن تؤثر فى نمو الصناعات العسكرية العراقية إذا لعبت كل من مصر والسعودية الدور المتفق عليه . »(٣) ●

● **وأما العاصمة الخامسة ، وهى بغداد** ، فقد كانت تفكر وشعورها أن الأزمة أوشكت أن تصل إلى ذروتها ـ وأنها وصلت إلى مفترق طرق حاسم .

● **وأما العاصمة السادسة ، وهى واشنطن** ، فقد انتقل تركيزها بسرعة إلى الخليج . فقد وجدت الأزمة تتصاعد بحساب الساعات وليس بحساب الأيام . وقد يكون ما لفت تركيز واشنطن إلى منطقة الخليج هو التلاحق السريع بين خطاب الرئيس « صدام حسين » فى مناسبة ١٧ يوليو ، ثم رسالة السيد « طارق عزيز » إلى الأمين العام للجامعة العربية بعدها بيوم واحد .

ولم تكن لدى واشنطن ، فيما تقول به الشواهد ، حتى تلك اللحظة ، خطة نهائية للعراق ، وإنما كانت لديها خطة لمنطقة الشرق الأوسط أساسها أن تتوصل الأطراف فى

---

(١) التقرير برقم ١٠٢ / ٩٠ بتاريخ ٣١ يوليو ١٩٩٠ .

(٢) أحد مساعدى وزير الخارجية الأمريكية .

(٣) كانت الإشارة فى الغالب إلى انسحاب مصر من مشروع صواريخ « كوندور » الذى كان قد جرى فى فترة سابقة بين مصر والعراق والأرجنتين ، كما أن السعودية كانت قد بدأت تقبض يدها عن تمويل مشاريع السلاح العراقى ، ولعل رأى مصر والسعودية فى ذلك الوقت كان إحساسا بأن هدف المشروع العسكرى العراقى غير واضح ـ وعنصر المخاطرة فيه كبير .

المنطقة إلى تسوية سلمية للصراع العربى الاسرائيلى تضبط حرارة التفاعلات فيها حتى لا تتجاوز سخونتها حدا معينا يؤثر على الاستقرار العام فيها ، ومن ثم على أمن إسرائيل ، أو على تدفق البترول من المنطقة وفق ترتيبات مقبولة من ناحية الانتاج والأسعار ، ومن ناحية المحافظة على سلامة الدول المنتجة للبترول .

وفى وقت من الأوقات بدا لواشنطن أن العراق يمكن أن يكون له دور مفيد : فهو من ناحية قادر على كبح جماح إيران إذا ما استطاع الجناح المتشدد فى الثورة الإسلامية أن يزيح الجناح المعتدل الذى يمثله الرئيس « على أكبر هاشمى رافسنجانى » ، وهو الجناح الذى كان الرئيس « ريجان » يقصد إلى مساعدته فى عملية « كونترا جيت » ويظن أنه يستطيع استعادة إيران من ظل « الخمينى » عن طريقه .

ثم إن العراق أيضا يمكن أن يكون عامل تخويف محسوبا لدول النفط فى الخليج يدفعها باستمرار إلى طلب الطمأنينة من الولايات المتحدة ، كما أنه فى نفس الوقت يمكن أن يكون عنصر توازن إزاء سوريا التى بدت فى ذلك الوقت وكأنها العدو رقم « ١ » .

لكن التصورات لم تلبث أن راحت تتغير ، والتغييرات فى التصورات السياسية لا تقع فجأة ، وإنما تمر بمراحل من الظلال المتنوعة ، كما يحدث فى التغيير بين الليل والنهار ، ذلك أن العراق خرج من حربه مع إيران بشكوك عميقة فى أهداف السياسة الأمريكية ، وهى شكوك جعلته نافرا وشاردا فى المنطقة . وأخطر من ذلك فإن العراق دخل إلى برامج واسعة فى مجال الأسلحة غير التقليدية ـ وكان ذلك مزعجا ، وأبسط مسببات الازعاج فيه أن الهدف منه لم يكن واضحا للولايات المتحدة ، كما أنه كان مثيرا إلى أقصى حد لاسرائيل . ووقع الشد والجذب فى الشهور الأخيرة من سنة ١٩٨٩ .

ثم سارت الأمور على النحو الذى سارت به فى الشهور الأولى من سنة ١٩٩٠ ، ابتداء من خطاب الرئيس « صدام حسين » فى عمان فى فبراير ، حتى جاء خطابه فى بغداد فى يوليو .

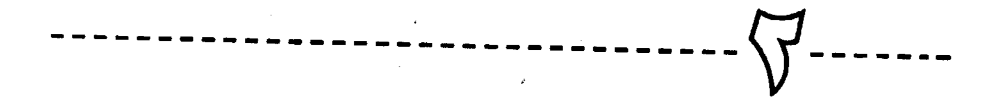
وهناك ظن شائع على نطاق واسع بأن الولايات المتحدة كانت فى تلك الشهور القلقة تحاول إسقاط النظام فى بغداد ، وربما أن استقراء الوقائع والاسترشاد بالوثائق يشير إلى أن الولايات المتحدة كانت تحاول تطويع وترويض النظام فى العراق أكثر مما تحاول إسقاطه .

وعندما ألقى الرئيس « صدام حسين » خطابه فى ١٧ يوليو ، وتبعته رسالة السيد « طارق عزيز » إلى مجلس وزراء خارجية دول الجامعة العربية ـ فإن التركيز الأمريكى

على بؤرة التوتر التى برزت فجأة أصبح أشد ، خصوصا وقد تزامنت مع خطاب ١٧ يوليو شواهد نذر تستدعى التأمل .

ففى يوم ١٦ يوليو لاحظ الكولونيل « والتر لانج » وهو مسئول وكالة المخابرات العسكرية للشرق الأوسط ـ أن تقارير الاستطلاع التى وصلته تظهر تحرك ثلاث فرق كاملة الاستعداد إلى الجنوب فى اتجاه البصرة والكويت ، وقد حددت تقارير الاستطلاع هذه الفرق بأنها : فرقة « حمورابى » ، وفرقة « المدينة المنورة » ، وفرقة « توكلنا على الله » .

وفى ذلك الوقت كان الجنرال « كولين باول » رئيس هيئة أركان حرب الجيش الأمريكى ـ يقوم بجولة فى الشرق الأوسط شملت المغرب ومصر والأردن وإسرائيل ، وكان موضوع نوايا العراق بين المسائل التى بحثها . وعندما عاد « كولين باول » إلى واشنطن استدعي إلى مكتبه الجنرال « نورمان شوارتزكوبف » قائد القيادة المركزية المخصصة للتدخل فى الشرق الأوسط ، وسأله عن رأيه فى تقارير الاستطلاع التى أعدها الكولونيل « والتر لانج » ، وكان رأى الجنرال « شوارتزكوبف » أن الحشد العراقى أمام الكويت حقيقة لا شك فيها ، وكان رأيه أن هذا الحشد قد يكون حشد تخويف ، أو حشد ضربة عقابية محدودة على أسوأ الظروف .



ويوم ٢٣ يوليو تلقت السفيرة الأمريكية فى بغداد السيدة « ابريل جلاسبى » تعليمات من واشنطن تطلب إليها إبلاغ الحكومة العراقية بقلق واشنطن من مسار الحوادث ، وأن تطلب كذلك إيضاحات من أعلى مستوى تستطيع أن تصل إليه عن خطاب الرئيس « صدام حسين » يوم ١٧ يوليو ، ورسالة السيد « طارق عزيز » التى لحقته فى اليوم التالى .

كانت السفيرة « ابريل جلاسبى » خبيرة بشئون المنطقة ، وكانت معرفتها باللغة العربية لا بأس بها ، وقد خدمت من قبل كمستشار فى السفارة الأمريكية بالقاهرة ، ثم نقلت إلى السفارة الأمريكية فى دمشق ، ثم رقيت إلى رتبة سفير ، وكان أول منصب لها فى وضعها الجديد هو سفارة الولايات المتحدة فى بغداد . وكانت الظروف الشخصية لـ « ابريل جلاسبى » صعبة إلى حد ما ، فقد جاوزت سن الخمسين دون أن تتزوج ، وكانت تعيش



ابـــريل جلاسبـــى
السفيرة الأمريكيــة
فى بغداد

مع والدتها التى رافقتها فى كل منصب شغلته . وبغداد فى حد ذاتها عاصمة مغلقة أمام الدبلوماسيين ، وحين يكون الدبلوماسى سيدة فإن حالة الانغلاق تصبح أشد ، وحين تكون السيدة غير متزوجة فإن حالة الانغلاق تتحول إلى حالة حصار . وبقدر ما كانت « ابريل جلاسبى » سعيدة بأنها أصبحت سفيرة ، بقدر ما كانت عصبية لأن سفارتها الأولى جاءت فى بغداد .

ولم يكن الرئيس « صدام حسين » يقابل السفراء الأجانب فى بغداد كقاعدة عامة . ولم يكن السيد « طارق عزيز » وزير الخارجية يقابلهم أيضا إلا فى حالات الضرورة التى تقتضى ذلك .

وفى الواقع فإن أعلى مستوى مفتوح أمام السفراء كان باب مكتب السيد « نزار حمدون » وكيل وزارة الخارجية ، وهو واحد من ألمع الدبلوماسيين العراقيين ، وقد سبق له العمل كسفير للعراق فى واشنطن .

وهكذا فإنه عندما تلقت « ابريل جلاسبى » تعليمات واشنطن التى وصلت يوم ٢٤ يوليو بتوقيت بغداد ، كان أول ما فعلته أنها اتصلت بمكتب السفير « نزار حمدون » طالبة موعدا عاجلا . وحدد لها « نزار حمدون » موعدا فى اليوم التالى ٢٥ يوليو . ولم يخرج ما دار بينهما فى هذا اللقاء عما هو متوقع . فقد أثارت السفيرة « ابريل جلاسبى » ما طلبت إليها واشنطن إثارته ، ورد عليها « نزار حمدون » فى الحدود التقليدية مستعرضا جذور الأزمة ومسارها والمحاولات العربية التى تبذل لاحتوائها .. وهكذا .

وفى اللحظة التى عادت فيها « ابريل جلاسبى » إلى مقر سفارتها بعد مقابلتها لـ « نزار حمدون » ـ إذا بجرس التليفون يدق ، والمتحدث هو « نزار حمدون » نفسه ـ يطلب من « ابريل جلاسبى » أن تعود لمكتبه فورا لأمر هام . وحين وصلت إلى مبنى وزارة الخارجية العراقية فوجئت « ابريل جلاسبى » حين وجدت السيد « نزار حمدون » ينتظرها فى سيارة واقفة على مدخل الوزارة . ودعاها إلى الركوب بجانبه قائلا لها إنهما ذاهبان إلى مقابلة هامة . وكان أول ما خطر لها أنها فى الطريق للقاء مع السيد « طارق عزيز » .

كان الوقت مساء . ولاحظت « ابريل جلاسبى » أن السيارة اتجهت إلى ميدان نصب الجندى المجهول ، وبعده دخلت إلى شارع جانبى ، ثم توقفت أمام بيت من بيوت الضيافة الرسمية . ولفت نظرها أن السكون داخل البيت غير عادى ، كما أن وجود بعض ضباط الحرس الجمهورى فى الردهة الداخلية للبيت ـ أوحى لها بأنها سوف تقابل شخصية عراقية أخرى غير « طارق عزيز » .

والغريب أنه حتى هذه اللحظة لم يخطر ببال « ابريل جلاسبى » ـ حسب روايتها ـ أنها سوف تقابل الرئيس « صدام حسين » لأنها تعرف يقينا أنه لا يقابل السفراء الأجانب .

ثم فوجئت بأن وجدته يدخل القاعة .

□

يقول الدبلوماسيون المخضرمون[٤] إن قراءة تقارير السفراء عن مقابلاتهم لرؤساء الدول المعتمدين لديهم ـ تقتضى احتياطا مبدئيا لا بد من مراعاته ، وإلا كانت القراءة

---

(٤) وبينهم السيد « الأخضر الابراهيمى » وزير خارجية الجزائر .

خاطئة ، ذلك لأنه إذا كان رئيس الدولة هو الذى استدعى السفير المعتمد لديه لمقابلته ، فإن ما يستحق القراءة فى التقرير هو ما قاله رئيس الدولة ، وليس ما قاله السفير . فقيام رئيس الدولة باستدعاء سفير أجنبى معتمد لديه ، يعنى أن هذا الرئيس لديه شىء محدد يريد أن يبعث به إلى الدولة التى يمثلها السفير ، وكلامه على هذا النحو هو الموضوع . وأما إذا كان العكس ، وكان السفير هو الذى طلب بأمر من حكومته مقابلة رئيس الدولة المعتمد لديه ، فإن ما يستحق القراءة - بالدرجة الأولى - هو كلام السفير لأنه فى هذه الحالة يصبح صميم الموضوع .

وتتصل بذلك ملاحظة عامة أخرى تتعلق بنظرة رؤساء الدول فى العالم الثالث عموما إلى سفراء القوى الكبرى . فرؤساء دول العالم الثالث ، والعالم العربى بالذات ، يتصورون فى كثير من الأحيان وهم يتحدثون إلى سفراء الدول الكبرى أنهم - فى واقع الأمر - يتحدثون إلى أشخاص رؤساء هذه الدول أنفسهم ، ولعل تلك بقية مترسبة فى اللا وعى من تأثير التجربة الاستعمارية ، وحين كان المعتمدون ، والمندوبون السامون ، والسفراء فوق العادة - يملكون سلطة التصرف والقرار أحيانا فى سياسة دولهم فى البلدان الخاضعة لسيطرتهم .

وينسى بعض رؤساء الدول المستقلة حديثا أن السفراء المعتمدين لديهم هم الآن مجرد موظفين يكتب الواحد منهم تقريره عما يراه ويسمعه ، ويبعث به إلى رئيس القسم المختص بهذه الدولة فى وزارة خارجية بلاده ، ومن عنده يحال تقريره إذا كانت له أهمية إلى وكيل الوزارة المختص بالمنطقة التى يتبعها هذا البلد المعين . وفى حالات نادرة يصل هذا التقرير إلى وزير الخارجية ، أو إلى المسئول عن الأمن القومى فى رئاسة الدولة لهذه القوة الكبرى .

ولقد وقع المحظور فى كلتا الحالتين فى المقابلة التى كانت على وشك أن تتم بين الرئيس « صدام حسين » والسفيرة « ابريل جلاسبى » :

● **من ناحية** ، أعطى لكلام السفيرة أكثر مما كان يستحق ، فى حين أن صميم الموضوع كان ما قاله الرئيس « صدام حسين » .

● **ومن ناحية ثانية** ، فقد بدا أن الطرف العراقى يتصور أنه يتحدث ويسمع من الرئيس « بوش » نفسه ، وليس من موظف رسمى سوف ينقل فحوى الحديث إلى مكتب العراق التابع لوكالة الوزارة لشئون الشرق الأدنى .

□

يبدأ المحضر الرسمى (وهو تفريغ لشريط مسجل) بنص كلام الرئيس « صدام حسين » بعد أن أبدى ترحيبه الودى بلقاء السفيرة الأمريكية ـ قائلا :

« أنا طلبتك اليوم لأتحدث معك حديثا سياسيا واسعا .. هو عبارة عن رسالة للرئيس بوش » .

ثم بدأ الرئيس « صدام حسين » يتكلم ، وقد استغرق كلامه إلى السفيرة قرابة ثلاثة أرباع الساعة امتدت على مساحة أربع عشرة صفحة فى محضر الجلسة .

ويظهر استقراء المضمون الحقيقى للرسالة بصرف النظر عن نصوصها المسهبة أن الرسالة التى أراد الرئيس « صدام حسين » إيصالها للرئيس « بوش » ـ هى على النحو التالى :

☐ **أولا** ـ مقدمة عامة مضمونها رغبة العراق فى أن تفهمه الولايات المتحدة الأمريكية ، وأن تعطيه الفرصة ليفهمها .

وفى هذا الجزء من الرسالة يتصل حديث الرئيس « صدام حسين » طبقا للمحضر ـ فيقول :

ـ « تعرفون أن علاقاتنا كانت مقطوعة بالولايات المتحدة إلى عام ١٩٨٤ ، وتعرفون الظروف والأسباب التى أدت إلى قطع العلاقة (موقف الولايات المتحدة فى معركة ١٩٦٧) ، وقد بينا لكم أن قرار إعادة العلاقة مع الولايات المتحدة كان قد اتخذ فى الواقع فى عام ١٩٨٠ ، وربما خلال الشهرين اللذين سبقا قيام الحرب بيننا وبين إيران . ولكن عندما قامت الحرب مع ملابساتها المعروفة ، ولأننا حريصون على أن نتصرف بالقضايا الكبيرة بما لا يجعل المقابل يفسر الأمور إلا فى إطارها الصحيح ، أجلنا إعادة العلاقة على أمل أن تنتهى الحرب . ولأن الحرب استمرت طويلا ، وتأكيدا لمبادئنا التى تقول إننا جهة غير منحازة ... كان لا بد أن نعيد العلاقات مع الولايات المتحدة ، فجاء التوقيت لاعادتها فى عام ١٩٨٤ .

ومن الطبيعى أن نقول إن الولايات المتحدة ليست مثل انكلترا مثلا من حيث قدم علاقاتها مع دول الشرق الأوسط العربية ومنها العراق ، وإذا أضفنا إلى هذا أن العلاقات بين البلدين كانت مقطوعة طيلة المدة من ١٩٦٧ ـ ١٩٨٤ لا بد أن نقول إنه سيصعب على الولايات المتحدة أن تفهم الكثير من الأمور فى العراق كما ينبغى . وكان مؤملا بالعلاقة الجديدة التى استؤنفت أن نعاون بعضنا كى يفهم كل منا الآخر ، لأننا أيضا كنا ومازلنا نجهل الكثير من الخلفيات والأمور التى يستند إليها القرار الأمريكى . »

□ **ثانيا** ـ تجيء بعد ذلك فى الحديث رسالة عتاب عن أخطاء ارتكبتها الولايات المتحدة فى حق العراق ، ومع ذلك فالعراق على استعداد لنسيان الماضى . وهكذا يقول الرئيس العراقى :

ـ « إن العلاقة بيننا ، وهى حديثة عهد تعرضت لبعض المنغصات والضربات ، وهى فى خط سيرها على الطريق . أهم ضربة تعرضت لها العلاقات كانت فى عام ١٩٨٦ أى بعد سنتين من إعادة العلاقات فيما سمى بقضية « إيران جيت » ، وصادف فى ذلك العام احتلال الفاو من قبل إيران . ومن الطبيعى أن نقول إن كل علاقة تستطيع مع قدمها ، وتشابك المصالح أن تغطى الأخطاء التى تحصل فيها ، ولكن عندما تكون المصالح فى هذه العلاقة صغيرة الحجم ولم تتسع بعد ، وعندما تكون العلاقة ليست قديمة بما يكفى لتوجه أطرافها لكى تتفهم بعضها البعض ، لا بد أن يترك كل خطأ فى طريقها نوعا من الأثر هو بحجم الخطأ ، وربما فى بعض الأحيان أكبر من حجمه . مع ذلك قبلنا الاعتذار الذى قدمه الرئيس الأمريكى عن « إيران جيت » عن طريق مبعوث إلينا ، واعتبرنا ذلك يكفى عن الماضى ، وينبغى أن لا نحيى الماضى إلا إذا ارتبطت به خطوات لاحقة تذكر بأن الخطأ الماضى ليس مجرد خطأ عابر . »

□ **ثالثا** ـ يجيء بعد ذلك فى الحديث ما يمكن أن يسمى رسالة لفت نظر إلى نقطة هامة يريد العراق أن يذكر بها الولايات المتحدة الأمريكية ، وهى أنه هو الذى وقف فى وجه الثورة الإيرانية ونفوذها فى المنطقة . ويتمثل ذلك فى قول الرئيس « صدام حسين » : « أنا اطلعت على تصريحات أمريكية عن مسئولياتكم تجاه أصدقائكم فى المنطقة ، وأقول إن من حق كل جهة أن تختار أصدقاءها فى المنطقة ، ولكن أنتم تعرفون أنكم لستم الذين حميتم أصدقاءكم خلال الحرب مع إيران . وأنا أجزم لو أن الإيرانيين اندلعوا فى المنطقة لما استطاعت الجيوش الأمريكية أن تصدهم وتوقفهم إلا باستخدام القنابل النووية . هذه ليست نظرة استصغار لكم ، وإنما مرتبطة بطبيعة الجغرافيا ، وبطبيعة المجتمع الأمريكى التى لا تجعله يستطيع أن يتحمل فى معركة واحدة عشرة آلاف قتيل ... فهل هذه هى مكافأة العراق على دوره فى استقرار المنطقة وحمايتها من طوفان لم نكن نعرف على أى شاطىء كان سيضعها . »

□ **رابعا** ـ ثم تصل الرسالة إلى طلبات يريدها العراق ويعتبرها حقا له ، وهو على استعداد للفهم إذا اختلف رأى الآخرين ـ فيقول الرئيس « صدام حسين » :

ـ « كان أملنا أن يكون فى مقدور المسئولين الأمريكيين أن يتخذوا قرارات أكثر صوابا فى العلاقة مع العراق ، فمن المسلم به أن العلاقة حتى وهى ترتقى لأى مستوى

من مستويات الصداقة لا تفترض التطابق ، بل وإن الأمريكان يرون حتى وأنه فى داخل القيادة الواحدة لا يفترض أن يكون هناك تطابق فى الآراء .

إن العراق يواجه حربا أخرى . لأن الحرب تقتل البشر بعد أن تسيح دمهم . والحرب الاقتصادية تقتل إنسانية البشر بعد أن تسلبها فرصتها فى الحياة الكريمة . ونحن كما تعلمون أعطينا أنهارا من الدم فى حرب استمرت ثمانى سنوات ، ولكننا لم نتنازل عن إنسانيتنا ، أى حق العراق فى أن يعيش بكرامة . وعليه فإننا لا نقبل على الإطلاق - وإذا كنا لم نقبل هذا بدرجة معينة قبل الحرب فالآن لا نقبله لدرجة مضاعفة - أن يخل أحد بكرامة العراقيين أو بحقهم فى العيش حياة سعيدة . الكويت والإمارات راحتا تخفضان أسعار البترول بشكل مخطط ومتعمد وبدون سبب تجارى أو اقتصادى . والهدف هو إذلال العراق وسلبه فرصة الحياة السعيدة .. وأنتم تعرفون أن علاقتنا كانت جيدة مع الإمارات والكويت .

نضيف إلى هذا أن دولة الكويت ونحن مشغولون بالحرب كانت توسع على حساب أراضينا . قد تقولون إن هذا فى حكم الدعاية ، ولكننا نقول بإمكانكم أن تعودوا لوثيقة واحدة ، والتى تسمى خط الدوريات ، وهو الخط الذى أعتمدته الجامعة العربية لتجعل أى قوة عسكرية فى عام ١٩٦١ بعيدة عن هذا الخط ، أى على الحافة القريبة منه . عاينوا وقفوا فى الحافة الأخرى التى هى باتجاه الكويت : أكانت توجد عليها مخافر شرطة ، أو مزارع ، أو منشآت نفطية ، وإلى عمق بعيد من هذا الخط ، أى خط الدوريات ؟ - إن كل هذه المرافق والمنشآت استحدثت بتخطيط مقصود لفرض الأمر الواقع على العراق .

ومن الطبيعى أن نقول إنه خلال هذه المدة كانت حكومة الكويت مستقرة بينما الحكومات فى العراق تتغير ... وحتى بعد ١٩٦٨ وإلى عشر سنوات بعدها كنا نحن مشغولون بأمور كثيرة ، مرة فى الشمال ، وأخرى فى حرب ١٩٧٣ ، وغيرها من الانشغالات . ثم جاءت بعد ذلك الحرب مع إيران . »

□ **خامسا** - ثم تحدد الرسالة هدف العراق فى الأزمة وإن ترك توقيته مفتوحا ، فيقول الرئيس « صدام حسين » :

- « ماذا يعنى قول أمريكا الآن إننا ملتزمون بحماية أصدقائنا بصورة فردية وجماعية . هذا الموقف فيه تشجيع واضح للكويت والإمارات حتى لا تحترمان حقوق العراق . وأقول لكم بوضوح إن حقوق العراق التى وردت بالمذكرة سنأخذها واحدة واحدة .. قد لا يحصل هذا الآن أو بعد شهر أو بعد سنة ، ولكننا سنحصلها كلها لأننا لسنا من النوع الذى يسكت على حقه . فإذا كانوا محتاجين ، فنحن أيضا محتاجون . »

□ **سادسا** - ثم تقصد الرسالة إلى طمأنة الولايات المتحدة إلى أن مصالح العراق

لا تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة بالضرورة ، فيقول الرئيس « صدام حسين » :

– « نحن نفهم تماما قول أمريكا إنها حريصة على تدفق النفط ، ونفهم قول أمريكا إنها تريد علاقات صداقة مع دول المنطقة ، وأن تتسع مساحة المصالح المشتركة فى المجالات المختلفة . ولكن لا يمكن أن نفهم محاولات تشجيع البعض لكى يلحق الضرر بالعراق .

تريد الولايات المتحدة ضمان تدفق النفط ... هذا مفهوم ومعروف .

تريد أمريكا السلام فى المنطقة ... وهذا هو الذى نسمعه .. هذا مفهوم .

ولكن عليها ألا تعمل بالطرق التى تقول إنها لا تحبها ، وهى طرق الضغط واستعراض القوة . إذا استعملتم طرق الضغط والاكراه ، نحن سنعمل بطريقة الضغط واستخدام القوة . »

☐ **سابعا** – ثم تشير الرسالة إلى استعداد العراق لمواجهة خطر ضربة عسكرية ، ولكنه سيرد عليها مباشرة فى المنطقة ، وحتى هناك فى أمريكا . فيقول الرئيس « صدام حسين » :

– « نحن نعرف أنكم قادرون على إلحاق أذى بنا . ونحن لا نستخدم التهديد ضدكم . ولكن نحن أيضا قادرون على إلحاق أذى بكم . وكل واحد يلحق أذى بقدر حجمه . نحن لا نستطيع أن نأتى إليكم فى الولايات المتحدة ... ربما يصل إليكم أفراد عرب . أنتم تستطيعون أن تأتوا إلى العراق بطائرات وبصواريخ ... نعرف هذا ، ولكن لا توصلوننا إلى أن نستخف بكل هذا .

متى نستخف بهذا ؟ عندما نشعر أنكم تريدون أن تذلونا وأن تنتزعوا فرصة العراقيين فى العيش بكرامة وسعادة . عند ذلك يكون الموت هو الأفضل . نحن لا نطلب منكم أن تحلوا مشاكلنا ، ولكن لا تشجعوا بعض الناس على أن يتصرفوا بأكبر من حجومهم وعلى الباطل . »

وختم الرئيس « صدام حسين » حديثه المسهب إلى السفيرة « ابريل جلاسبى » بقوله :

– « مع تحياتى للرئيس بوش ، وآمل أن يطلع الرئيس على هذا وألا يتركه بيد المجموعة بوزارة الخارجية ، وأستثنى من هذه المجموعة وزير الخارجية والمستر كيللى (وكيل الخارجية) لأنى رأيته ورأيت عقليته وتبادلت الحديث معه . »

☐

كانت السفيرة « ابريل جلاسبى » لا تزال مأخوذة بمفاجأة لقائها مع الرئيس « صدام

حسين » ، وقد بدأت ترد على رسالته المركبة بعقلية موظف دبلوماسى حتى وإن كان بدرجة سفيرة ، فقالت :

ـ « أشكركم سيادة الرئيس . من دواعى السعادة الكبيرة لدبلوماسى أن يلتقى ويتحدث مباشرة إلى الرئيس . وأنا أفهم بوضوح الرسالة التى تحدثتم بها . إننى وأنا أسمعكم تتحدثون تذكرت أننا درسنا فى المدرسة درس تاريخ . كانوا يعلموننا أن نقول الحرية أو الموت . وأعتقد أنكم تعلمون جيدا أننا كشعب لنا تجربتنا ضد المستعمر . »

ثم قالت « ابريل جلاسبى » إن هناك أشياء كثيرة ذكرها الرئيس خلال هذا اللقاء ، ولكنها تريد أن تعلق على مسألتين ، فقالت :

ـ « تحدثتم عن الصداقة ، وأعتقد أنه كان واضحا من رسائل رئيسنا إليكم بمناسبة العيد الوطنى أنه يؤكد .... »

وقاطعها الرئيس « صدام حسين » قائلا : « كان كريما وتعبيره محل تقديرنا واحترامنا » .

واستطردت السفيرة تكمل كلامها قائلة :

ـ « وكما تعرفون أنه وجّه الادارة الأمريكية بالرفض القاطع لاقتراحات فرض العقوبات التجارية ... »

ومرة أخرى قاطعها الرئيس « صدام حسين » قائلا :

ـ « لم يبق لدينا شىء نشتريه من أمريكا ، فقط الحنطة ... لأنه كلما نريد أن نشترى شيئا يقولون هذا ممنوع ... ونخشى أيضا أن تقولوا أن الحنطة أيضا تصلح للبارود . »

وعادت « ابريل جلاسبى » لمواصلة حديثها فقالت :

ـ « إن لدىّ توجيها مباشرا من الرئيس شخصيا أن أعمل على توسيع وتعميق العلاقات مع العراق » .

وهنا سألها الرئيس « صدام حسين » قائلا :

ـ « ولكن كيف ؟ .. نحن أيضا لدينا هذه الرغبة ، والأمور تجرى من حيث النتيجة خارج الرغبة » .

وكان الغريب أن السفيرة اندفعت بعد ذلك تهاجم الإعلام الأمريكى لأنه « المتسبب فى كثير من المشاكل » . وفى بعض عباراتها وصفت الإعلام الأمريكى بأنه « رخيص

وغير عادل » . ثم قالت إنه « لو كان بإمكان الرئيس الأمريكى أن يسيطر على الإعلام لكان أداؤه لوظيفته أسهل » .

ثم واصلت « ابريل جلاسبى » حديثها ، وتطرقت للمشاكل المحددة التى أثارها « صدام حسين » . وبدأت بموضوع أسعار البترول ، فقالت :

- « إننى أريد أن أقول لكم أولا إن الرئيس بوش لا يريد علاقة أفضل وأكثر عمقا مع العراق فحسب ، بل يريد أيضا أن يكون للعراق إسهاما تاريخى فى السلام والازدهار فى الشرق الأوسط . إن الرئيس بوش ذكى ، ولن يعلن أى حرب اقتصادية على العراق .

أنتم محقون فى أننا لا نريد أسعارا عالية للنفط ، ونحن نسألكم أن تتأملوا رغبتنا فى ألا تكون أسعار النفط مرتفعة جدا . »

ورد عليها الرئيس « صدام حسين » قائلا :

- « نحن لا نريد أسعاراً عالية جدا للنفط . إن سعر ٢٥ دولارا ليس غاليا . »

وعلقت « ابريل جلاسبى » بقولها :

- « عندنا كثيرون من الأمريكيين يتمنون أن يرتفع السعر إلى أكثر من ٢٥ دولارا لأنهم من ولايات تنتج النفط . »

وقال لها الرئيس « صدام حسين » :

- « إن سعر النفط فى هذه المرحلة وصل إلى ١٢ دولارا ، وهذا أدى إلى خفض ميزانية العراق المتواضعة ما بين ستة أو سبعة مليارات . وهذا تدمير . »

وعلقت السفيرة « ابريل جلاسبى » على هذا بقولها :

- « إنى أفهم هذا . وقد عشت سنين هنا ، وأنا أعجب بجهودكم غير الاعتيادية من أجل إعادة البناء . وأفهم أن هذا البناء يحتاج إلى أموال . »

ثم وصلت السفيرة إلى أخطر ما قالته فى هذا اللقاء مع الرئيس « صدام حسين » ، فقالت :

- « إن الذى لا يتوافر لدينا رأى حوله هو الخلافات العربية - العربية ، ومنها مثلا خلافكم الحدودى مع الكويت . وأنا خدمت فى أواخر الستينات فى سفارة أمريكا بالكويت ، وكانت التوجيهات لنا فى تلك الفترة هى أننا لا ينبغى أن نبدى رأيا حول هذه القضية ، ولا علاقة لأمريكا بهذه القضية . وقد وجه جيمس بيكر (تقصد وزير الخارجية) متحدثنا

الرسمي لأن يعيد التأكيد على هذا التوجيه . ونتمنى أن تتمكنوا من حل هذه المشكلة بأى طريقة مناسبة عن طريق القليبى ، أو الرئيس مبارك . »

وعلقت السفيرة « ابريل جلاسبى » على ذكر الرئيس « مبارك » فقالت :

ـ « إننى قضيت أربع سنوات جميلة فى مصر » .

ورد عليها الرئيس « صدام حسين » بقوله :

ـ « إن شعب مصر شعب كريم طيب عريق . ويفترض أن أهل النفط يساعدون شعب مصر ، ولكنهم حتى مع شعب مصر بخلاء . »

ومن المصادفات الغريبة أنه فى تلك اللحظة جاء أحد المرافقين يهمس بشىء للرئيس « صدام حسين » ، وإذا هو يقول للسفيرة التى أبدت دهشتها من المصادفة :

ـ « يقولون لى إن الرئيس مبارك على التليفون الآن ، وسأذهب لأحادثه » .

وبعد بضع دقائق عاد الرئيس « صدام حسين » إلى القاعة حيث كانت السفيرة تنتظره ليقول لها :

ـ « قال لى الأخ مبارك إن الكويتيين خايفين ، ويقولون يوجد عسكر على بعد ٢٠ مترا على خط الجامعة العربية . فقلت له : بغض النظر عما يوجد ، سواء كان الموجود شرطة أو جيش ، وكم عدد الموجود وماذا يفعل ؟ ـ طمئن الكويتيين ... ونحن من جانبنا لن يحصل أى شىء إلى أن نلتقى معهم ، وعندما نلتقي ونرى أن هناك أمل لن يحصل شىء ... وعندما نعجز عن إيجاد مخرج ، فأمر طبيعى ألا يقبل العراق أن يموت ... ومع ذلك الحكمة هى فوق كل شىء . »

واستأذنت السفيرة ، والرئيس « صدام حسين » يقول لها :

ـ « سلامى إلى الرئيس بوش . وأنا أريد أن تصله رسالتى بأسرع ما يمكن ، فهى له خاصة وليست لغيره ، ليست بالتأكيد لجماعة وزارة الخارجية ، وأستثنى منهم الوزير بيكر الذى مدح لى فيه الأخ طارق ، وفيما عدا وكيل الوزارة كيللى ، وقد قابلته شخصيا هنا ، وكان شخصا منفتحا ومتزنا . »

وكان الرئيس « صدام حسين » شأنه شأن آخرين فى المنطقة يتخوفون من المجموعة المسيطرة على قرار الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الأمريكية ، لأن معظمهم من اليهود المتعاطفين مع إسرائيل ، والمتعاونين مع « هنرى كيسنجر » حتى فى مكتبه الخاص للاستشارات السياسية .

وكان « لورانس ايجلبرجر » - أرفع وكلاء وزارة الخارجية - يهوديا ومن مساعدى « كيسنجر » ، وكذلك كان « دنيس روس » مدير التخطيط فى الوزارة وهو العقل المدبر لخطط التسوية السياسية فى الصراع العربى الاسرائيلى ، وكذلك كان « أهارون ميللر » رئيس مجموعة التخطيط ، وكذلك كان « دانييل كورتزر » وهو نائب المساعد الخاص لوزير الخارجية .

□

لقد ثار جدل كبير حول مقابلة الرئيس « صدام حسين » بالسفيرة « ابريل جلاسبى » . واعترفت وزارة الخارجية الأمريكية بأن المحضر الذى أذاعه العراق صحيح . ومع أن لجان الكونجرس المختلفة طلبت الاستماع إلى شهادة « ابريل جلاسبي » بعد الغزو عدة مرات ، إلا أن وزارة الخارجية لم تستجب للطلب إلا بعد ثلاثة شهور من انتهاء معركة عاصفة الصحراء . وحتى فى هذه المناسبة فإن « ابريل جلاسبى » ظهرت عصبية ، وتعاطف عدد من أعضاء الكونجرس مع حالتها النفسية أكثر مما تعاطفوا مع كفاءتها المهنية ، وقد حاولت أن تقول إنها حذرت « صدام حسين » من عواقب أى مغامرة ضد الكويت ، وعندما طلب أعضاء اللجنة أن يطلعوا على برقياتها السرية إلى وزارة الخارجية فى تلك الفترة - كان تقديرهم أن فشلها كان كاملا .

□

وكان الأكثر إثارة للدهشة فيما فعلته السفيرة « ابريل جلاسبى » بعد مقابلتها للرئيس « صدام حسين » - أنها قررت أن تقوم بإجازتها السنوية العادية فى الموعد الذى حددته من قبل ، وهو الاثنين ٣٠ يوليو . وكان بعض زملائها من الدبلوماسيين العرب فى دهشة من قرارها وقد رجوها أن تبقى حتى تنفرج الأزمة ، وكان تعليقها أنها تحدثت إلى السيد « طارق عزيز » نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وكان حاضرا لقاءها مع الرئيس « صدام حسين » - عن نيتها للسفر ، وأنه لم يعترض ، مما يدل على أن الأزمة فى طريقها إلى الحل ، ما دام الاجتماع الذى تم الاتفاق عليه بين الشيخ « سعد العبد الله الصباح » ولى العهد ورئيس الوزراء الكويتى ، والسيد « عزة ابراهيم » نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقى - على وشك أن ينعقد .

ولم يكن هذا رأى « ابريل جلاسبى » وحدها ، وإنما كان رأى « هارولد ووكر » السفير البريطانى فى العراق الذى غادر بغداد فى اليوم التالى .

ولقد راجت بعد ذلك أقوال أن السفيرة « ابريل جلاسبى » قامت بعملية تضليل متعمدة للرئيس « صدام حسين » ، سواء فيما قالته أو فى سفرها لإجازتها الاعتيادية بعد ذلك .

ولكن الوثائق المتاحة حتى الآن لا تسمح بتأكيد مثل هذه الأقوال . فلم تكن « ابريل جلاسبى » وحدها هى التى تصورت أن الأزمة فى طريقها للحل ، وإنما كان ذلك أيضا هو الرأى الذى بدا فى اجتماع على مستوى وكلاء وزارة الخارجية فى واشنطن شارك فيه عدد من خبراء الشرق الأوسط . كذلك كان هذا هو رأى الأمير « بندر بن سلطان » سفير السعودية فى واشنطن ، وهو فى نفس الوقت أحد أبناء الأمير « سلطان » وزير الدفاع السعودى . وكان أيضا رأى الملك « حسين » الذى قاله للرئيس « بوش » فى اتصالين تليفونيين يوم ٢٨ ويوم ٣٠ يوليو ١٩٩٠ .

وكان رهان الجميع على الاجتماع المنتظر بين الشيخ « سعد العبد الله الصباح » والسيد « عزة ابراهيم » .

٣

وصل الشيخ « سعد العبد الله الصباح » إلى مطار جدة فى الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء ٣١ يوليو ، واستقبله الأمير « عبد الله » ولى العهد السعودى الذى استقبل بعده أيضا السيد « عزة ابراهيم » .

واستقبلهما الملك « فهد » معا بعد ذلك ، واقترح عليهما فترة (٥) يستريح فيها كل منهما بعد الرحلة إلى جدة ، ثم يعقدان فيما بينهما اجتماعا أوليا ، ثم يلتقيان مع الملك وعدد من أفراد الأسرة والحكومة على العشاء . ولاحظ الملك أن كلا من ضيفيه أقبل على مصافحة زميله على الطريقة العربية التقليدية بما فيها العناق والتقبيل . ثم أبدى الملك ملاحظة للاثنين قائلا إنه لا يرى حضور طرف سعودى معهما فى اجتماع بعد الظهر . وأنه يفضل أن تترك لهما الفرصة وحدهما يتحاوران معا بكل الحرية اللازمة .

ويقول الملك إنه أبلغ بعد الظهر أن الاجتماع بين الاثنين بدأ . واستراح الملك . وحين جاء موعد العشاء سأل عن المراسم بما فيها موعد وصول كل من الضيفين إلى القصر لتناول العشاء معهم . ورد رئيس التشريفات السعودى على الملك بأن الضيفين سوف يأتيان معا

---

(٥) حديث للملك « فهد » مع عدد من أفراد أسرته . وكبار الشخصيات فى السعودية . وقد سجل الحديث على شريط .

فى نفس السيارة ، وأن السيد « عزة ابراهيم » قال لمندوب المراسم المقيم فى قصر الضيافة « إنه لا داعى لخروج موكبين ، وأنه اتفق مع الشيخ « سعد » على أن يكونا معا فى موكب واحد ، وأن يركبا سيارة واحدة ترفع على أحد جانبيها العلم العراقى ، وعلى الجانب الآخر العلم الكويتى » .

ويقول الملك « فهد » أن تعليقه للأخوة عندما سمع بذلك كان :

ـ « إنه فأل طيب . فمعنى ذلك أن كل شىء على ما يرام . »

وحرص الملك ـ طبقا لروايته ـ على ألا يسأل أحدا من ضيفيه عن تفاصيل ما دار بينهما ، وإنما اكتفى بسؤال عام تساءل فيه « خير إن شاء الله ؟ » ـ وكان رد الاثنين كل منهما بدوره « إنه خير إن شاء الله » . وعلى العشاء كان الملك مهتما بمسألة « الخلافات بيننا كأخوة عرب » وما هى أنجح الوسائل لحلها فى إطار عربى .

ثم انتقل الحوار كالعادة فى الاجتماعات العربية إلى الذكريات وحكايات الماضى .. إلى آخره .

وبعد العشاء عاد الاثنان معا (الشيخ « سعد الصباح » والسيد « عزة ابراهيم ») إلى قصر الضيافة . وعرف أنهما قضيا بعض الوقت فى حديث متصل . وفى الصباح علم الملك « فهد » أن السيد « عزة ابراهيم » سوف يعود إلى بغداد ، وأنه اتفق مع الشيخ « سعد » على اجتماع آخر بينهما يعقد هناك .

وكانت الصورة ملتبسة بعض الشىء . فاجتماع بغداد كان مقررا من قبل ، واجتماع جدة كان مفروضا أن يسبقه ويمهد له . فإذا لم تظهر نتائج واضحة لاجتماع جدة ـ إذن فإن اجتماع بغداد يظل احتمالا معلقا فى الهواء .

ولم يكن أحد قد عرف بعد تفاصيل ما دار بين الرجلين سواء فى الاجتماع الأول الذى عقداه بعد الظهر ، أو الاجتماع الثانى الذى عقداه بعد العشاء . وفيما بعد روى كل من الطرفين تفاصيل متعارضة ، **ففى حين ذكر الشيخ « سعد » أنه أبدى موقفا لينا تجاه المطالب العراقية ، وكان على استعداد لحلول وسط كثيرة ترضى مطالب العراق فيما يتعلق بالديون والمساعدات والالتزام بحصص الانتاج ـ فإن السيد « عزة ابراهيم » ذكر أنه لم يجد لدى نظيره الكويتى أى استعداد لبحث حلول عملية تفصيلية .**

□ □ □

كان الأمر إلى القوات العراقية بأن تدخل حدود الكويت على وشك أن يصدر .

وكان الظن الشائع من قبل أنه فى حالة إقدام العراق على عملية عسكرية ، فإن هذه العملية العسكرية سوف تكون محدودة ، والأرجح أن تقتصر على جزيرتى « بوبيان » و « وربة » . وكان ذلك تقدير عدد من الرؤساء العرب . وبالفعل فإن الخطط العراقية - كما تشير إلى ذلك مصادر موثوقة - كانت مرسومة على هذا الأساس حتى الأسبوع الأخير من شهر يوليو . ويبدو أن قرارا اتخذ بتوسيع العملية قبل أيام قليلة من الغزو . وقد صدرت الأوامر إلى القوات على الحدود بأن تكون جاهزة للتحرك فى أى وقت . وكان هناك احتمال لالغاء الأوامر فى أى لحظة إذا ما ظهر أن السيد « عزة ابراهيم » حقق شروط العراق فى اجتماعه مع الشيخ « سعد العبد الله » . فإذا لم تحدث هذه المعجزة فى اللحظة الأخيرة ، فإن أمر التحرك سوف يجرى تعزيزه ، وساعتها تندفع القوات إلى احتلال الكويت طبقا لخطة وضعت على عجل .

ومن الصعب أن يحسم أحد فى حقيقة الدوافع التى دعت العراق إلى توسيع نطاق العملية إلى درجة غزو الكويت كلها . والراجح أن العوامل التى دعت إلى ذلك من وجهة النظر العراقية كانت داخل إطار قريب من عدد من الخطوط نوقشت فى اجتماع لمجلس قيادة الثورة العراقى قبل ٤٨ ساعة من بدء الغزو :

١ - إن هناك عنصر مخاطرة لا شك فيه بدخول الكويت واحتلالها كلها ، لكن المخاطرة قد تكون أكبر إذا اقتصرت العملية على جزيرتى « بوبيان » و « وربة » - ففى هذه الحالة سوف يكون فى وسع أمير الكويت طلب نجدة من الولايات المتحدة ، وسوف ترسل الولايات المتحدة بقوات جوية كثيفة تنزل فى مطارات الكويت وتقوم بعمليات ضد العراق - أو يكون مجرد تمركزها فى قواعد كويتية تهديدا دائما للعراق ، معناه أن يتفرغ العراق لهذا التهديد أو يأخذه هذا التهديد على غرة بمفاجأة من الخارج أو من الداخل !

وبالتالى فإن احتلال الكويت كلها ، وأسر الأمير وأغضاء أسرته سوف يحرمهم من فرصة طلب قوات أجنبية بمبرر الدفاع الشرعى عن النفس يستند إلى المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة .

٢ - إذا تمكنت القوات العراقية من احتلال الكويت فى ظرف ساعات ، وهذا فى مقدورها ، وواجهت العالم بأمر واقع فى الصباح - فما الذى تستطيع الولايات المتحدة عمله :

- هل تتدخل عسكريا ؟ وأين هى القاعدة العسكرية التى تستطيع فيها إنزال وحشد قوات التدخل ؟ وإذا كانت الكويت قد احتلت بالكامل ، فأين تنزل هذه القوات ؟

٣ ـ وكان التقدير العراقى أنه لن توجد دولة فى الخليج تسمح لقوات أمريكية بالنزول فى أراضيها واستعمالها لشن حرب على العراق ، خصوصا بعد أن يكون احتلال الكويت قد أصبح حقيقة ماثلة أمام الجميع . وعلى أى حال فإن السعودية هى مفتاح الموقف بالنسبة لدول الخليج . والسعودية تقليديا لا تقبل نزول قوات عسكرية أجنبية على أراضيها لأسباب تاريخية وسياسية ـ ثم إن العراق عقد اتفاقية عدم اعتداء مع السعودية وقعها الملك « فهد » بنفسه مع الرئيس « صدام حسين » .

٤ ـ والسؤال الذى يلى ذلك هو : هل الرأى العام الأمريكى مستعد بعد تجربة فيتنام لحرب برية واسعة فى الشرق الأوسط ، فالعراق ليس « بناما » وليس « جرانادا » ، وإنما هو قوة تسابق الإعلام الأمريكى نفسه فى الدعاية لأسلحتها ولعملها ، وإذن فهى حرب برية طويلة فى الصحارى . وإذا كان الرئيس الأمريكى « رونالد ريجان » لم يستطع استبقاء مشاة الأسطول الأمريكى فى بيروت بعد هجوم فدائى أدى إلى مصرع عدة مئات منهم ، فكيف يستطيع « بوش » وهو الذى لا يملك تطرف « ريجان » وتشدده ـ أن يقبل ما هو أوسع نطاقا وأخطر ؟

٥ ـ وإذا كان الرأى العام فى الولايات المتحدة ضد أى حرب بعيدة ، فإن الكونجرس سوف يعبر عن نفس الاتجاه ويعارض ، وكذلك سوف تفعل بعض قطاعات الإعلام الأمريكى . إن الرئيس الأمريكى سعيد بانتصاره الضخم على الشيوعية فى أوروبا ، فهل يغامر بانتصاره أمام الاتحاد السوفيتى ويدخل فى معركة عسكرية مع العراق ؟

٦ ـ وصحيح أن الرئيس الأمريكى يتحتم عليه أن يظهر عضلاته أمام الرأى العام الأمريكى وأمام الكونجرس ، ولكنه بدون قاعدة صلبة يتدخل بواسطتها فليس أمامه إلا أن يلجأ إلى القوة الجوية يوجه بها ضربة إلى العراق مثلما فعل « ريجان » مع ليبيا ـ ومثل هذه الضربة يستطيع العراق أن يستوعبها .

٧ ـ ثم إن الاتحاد السوفيتى رغم تهالكه لا بد أن يكون له حساب . فالاتحاد السوفيتى لن يكون عنصرا مساعدا للعراق ، ولكنه يمكن أن يكون عنصر تثبيت لرد الفعل الأمريكى . وهذا دور لا يستطيع « جورباتشوف » أن يتهرب منه لأن القوات المسلحة السوفيتية لا تستطيع أن تقبل عملا عسكريا يستدعى وجود قوات عسكرية كبيرة فى الشرق الأوسط على مقربة من حدود الاتحاد السوفيتى والجمهوريات الاسلامية فى الجنوب .

٨ ـ وبالطبع فإن هناك احتمال أن يلجأ الرئيس الأمريكى إلى الاستعانة بإسرائيل ، ولكن ماذا تفعل إسرائيل مع العلم بأنها متحمسة للعمل مرددة كل يوم أن العراق هو الآن أخطر أعدائها .

لكن إسرائيل ليست لديها حدود مع العراق ، وإذن فهى أيضا على الأرجح ضربة جوية يمكن استيعابها .

فإذا أقدمت إسرائيل على حرب برية واسعة ، فمعنى ذلك أن جيشها لا بد أن يمر عبر الأردن ، وفى هذه الحالة فإن خطوطه سوف تكون طويلة ومكشوفة ، كما أن الانتفاضة الفلسطينية سوف تكون عبئا على المؤخرة ، وسوريا شوكة فى الجنب ، ويمكن أن تنتهزها فرصة وتأخذ الجولان أو ما هو أكثر .

ثم إن دخول إسرائيل إلى الأردن وصولا إلى العراق سوف يحدث جيشانا عربيا عميقا يحرك أوسع الجماهير ، حتى فى مصر ، ويفرض على حكومتها أن تتحرك ، وساعتها سوف تسقط معاهدة الصلح المصرية الاسرائيلية .

٩ ـ وبالطبع ، فلا ينبغى لأحد أن ينسى أن مصر عضو مع العراق فى مجلس التعاون العربى .

١٠ ـ وإذن فالعملية تحتوى على عنصر مخاطرة ، ولكنها مخاطرة يمكن حسابها ، وقصارى ما تحتاجه من العراق هو الصبر وقوة الأعصاب .(٦)

ومن المحتم أن تضاف إلى ذلك مؤثرات المناخ المحيط بالعملية ومؤداه :

... أن الكويت نفسها فى حالة انقسام عميق بسبب المشاكل الداخلية .

... وأن العالم العربى بعد الكويت منقسم والفوضى فيه شديدة .

... ثم ها هى سفيرة الولايات المتحدة الأمريكية تقول صراحة إن الولايات المتحدة ليس من سياستها أن تتدخل فى خلافات عربية ـ عربية ، وأن التعليمات صريحة للسفارات الأمريكية بأن تبتعد عن مشاكل الحدود بين الكويت والعراق .

١١ ـ وأخيرا فإن كنز الكويت يساوى المخاطرة ـ خصوصا إذا كانت محسوبة .

فالكويت هى الدولة العربية الثالثة فى حجم انتاجها البترولى (بعد السعودية والعراق) .

ثم إن فوائض أموالها فى الخارج تقدر بما بين ١٥٠ و ٢٠٠ بليون دولار .

---

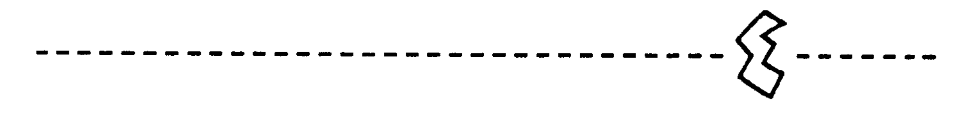
(٦) المعروف عن الرئيس ، صدام حسين ، أن أعصابه قوية . ويذكر المقربون منه أنه واحد من أشد المعجبين بقصة ، ارنست همنجواى ، ، العجوز والبحر ، ، وهى قصة صياد عجوز ظل أياما وليالى وحده وسط العواصف وظلام البحر فى صراع مع سمكة قرش ، وقد تحولت هذه القصة إلى فيلم سينمائى شاهده الرئيس ، صدام حسين ، أكثر من عشر مرات .

وأخيرا فإن انتاج الكويت مضافا إلى انتاج العراق يعنى الامساك بثلث انتاج بترول الخليج كله ، وهذا موقع فريد فى التأثير على الانتاج والأسعار .

هكذا كان إطار التفكير العراقى بالنسبة لقرار الغزو ، وفى الواقع فإن احتمالات نجاحه كانت ظاهرة . وليس كل ما هو ظاهر ـ حقيقى . فالشرق الأوسط كله عالم وحده يختلف ظاهره عن باطنه ـ وصحاريه اللا نهائية مشهورة برمالها المتحركة وأيضا بخدع السراب !

ولعل العقدة الكبرى فى الحسابات العراقية أنها كانت فى جانب منها محاولة لوضع أطراف عديدين ـ عربا وغير عرب ـ أمام أمر واقع سوف يصعب عليهم أن يتحركوا إزاءه ، وبالتالى فليس أمامهم ـ مهما كان طعم المرارة فى حلوقهم ـ إلا أن يبلعوه .

وكانت النقطة الحرجة أن الأمر الواقع العراقى لم يكن فى رأى الآخرين ـ عربا وغير عرب ـ مجرد نوع من الـ « مر » وإنما كان نوعا من الـ « سم » ـ وعندما رفضوا أن يبلعوه كان محتما أن يجد الكل أنفسهم أمام أمر واقع جديد ـ مرارته أشد ، وسمومه مؤكدة !



كانت واشنطن تتابع ما يجرى فى تلك الساعات ، وكانت هناك أكثر من جهة تشارك فى عملية المتابعة :

● **كانت وزارة الدفاع** ترصد التحركات العسكرية العراقية ، وكانت تقاريرها عن حجم القوات العراقية المحتشدة فى منطقة البصرة وحولها ـ تقديرات دقيقة كما اتضح فيما بعد . ولم ترصد وزارة الدفاع الأمريكية حجم القوات العراقية المحتشدة فحسب ، وإنما رصدت أيضا درجة استعدادها . وفى تقرير بتاريخ ٢٦ يوليو ١٩٩٠ ـ أرسلته إلى وزارة الخارجية ، وإلى مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض ـ قالت إدارة تنسيق المعلومات فى وزارة الدفاع : « إن القوات العراقية كاملة الاستعداد ، ولكنها لم تتخذ وضعا هجوميا » .

● **وكانت وزارة الخارجية** تتلقى تقاريرها من المنطقة إلى جانب ما تتلقاه من الأجهزة المشاركة معها فى صنع القرار فى واشنطن . وقد جاءت تقارير وزارة الدفاع

الأخيرة - يوم ٢٩ يوليو - بأن القوات العراقية رغم كامل استعدادها لم تتخذ وضعا هجوميا - مؤكدة لاستنتاجات وزارة الخارجية بأن العراق يتصرف بمنطق وضع الأزمة على حافة الهاوية ليثير الخوف فى أعصاب الآخرين فيسلموا له بمطالبه - فإذا خطر له أن يفعل ما هو أكثر من إثارة الخوف ، فإن تفكيره منحصر فى عملية محدودة لاحتلال « بوبيان » و « وربة » وربما منطقة « الرميلة » حيث حقل البترول المتنازع عليه .

● **وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية** تتابع أيضا ، ولعلها كانت أسرع من تنبه - يوم ٢٨ يوليو - إلى أن الخطط العراقية تغيرت ، وأن الذى يجرى الاعداد له الآن هو عملية غزو كامل . وقررت وكالة المخابرات المركزية أن تتصرف على هذا الأساس ، ولو من باب الاحتياط .

● **وكانت إدارة الاستطلاع فى وزارة الدفاع** لا تزال تعيد قراءة آخر صور أرسلتها الأقمار الصناعية . وقد أظهرت هذه الصور - صباح يوم ٣١ يوليو - **أن القوات العراقية غيرت مواقعها ، وأن الدبابات تقدمت إلى قرب خط الحدود بفاصل قدره ما بين ٥٠ و ٧٥ مترا بين كل دبابة ، وأن المدفعية أصبحت وراء المدرعات . وكان معنى هذا الوضع أن الأمر النهائى بالهجوم قد اتخذ ، وأن ساعة الصفر أصبحت معروفة للقوات** . ومع ذلك فقد كان رأى عدد من الخبراء العسكريين أن هذه الأوضاع الطارئة قد تكون مناورة مقصودة لتوجيه ضربة قاضية إلى أعصاب الذين يتابعون التحركات على الحدود حتى يقع فى تصورهم أن الهجوم وشيك ، ومن ثم يكون التنازل للمطالب العراقية فوريا كأنه سكتة قلبية .

وكانت وكالة المخابرات المركزية مصممة على أن ما تقول به الصور هو حقيقة النوايا والخطط العراقية . وكانت الوكالة قبلها بـ ٤٨ ساعة قد بدأت تتصرف على مسئوليتها .

□ □ □

منذ سنة ١٩٨٤ وعندما كانت القوات الإيرانية قد استوعبت الهجمات العراقية الأولى ، وبدأت تقوم بهجماتها المضادة - كانت وكالة المخابرات المركزية طرفا فى ترتيبات أمن مع كل من وزارة الداخلية ، ووزارة الدفاع فى الكويت . وكان هدف هذه الترتيبات فى البداية محددا لحماية الأمير وأعضاء الأسرة الحاكمة البارزين ، إلى جانب مواجهة احتمالات أى عمل تخريبى يستهدف من الداخل الاضرار بحقول البترول ومنشآت نقله وتكريره وشحنه . وأما غير ذلك من ضرورات الدفاع عن الكويت فكان متروكا لجهات أخرى .

وعندما قام الإيرانيون بالتقدم نحو منطقة البصرة ، قامت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بالتعاون مع كل من وزارة الدفاع والداخلية الكويتية بوضع خطة طوارىء لمواجهة أى عمل إيرانى ينطلق من جزيرة « الفاو » ، وبينها وبين الأرض الكويتية كيلومترات محدودة .

وفى ذلك الوقت عقدت سلسلة اجتماعات ممتدة بين ممثلى الوكالة ، وممثلين عن وزارتى الدفاع والداخلية ، وكانت النتيجة التى خلصوا إليها فى حساب احتمالات الخطر كما يلى :

١ ـ إن الإيرانيين قد يفكرون فى دخول الأراضى الكويتية لإحكام حصارهم حول البصرة ، وذلك لقطع طرق الامداد بين بغداد والبصرة ، وعزل القوات العراقية المدافعة فيها ـ عن قوات المنطقة المركزية للجيش العراقى . وربما وصل التفكير الإيرانى إلى أكثر من ذلك ، وفكر فى احتلال الكويت كلها لتمكين القبضة الإيرانية من أن تمسك بعصب منطقة الخليج كلها (وهناك من الدلائل ما يشير فعلا إلى أن أفكارا من هذا النوع جرت دراستها فى قيادة الحرس الثورى الإيرانى) .

٢ ـ إن أرجح الاحتمالات فيما يمكن أن يفكر فيه الإيرانيون هو أن يكون أى عمل عسكرى إيرانى على الحدود أو منها مصحوبا فى الداخل بقلاقل داخلية تقوم بها عناصر حزب « الدعوة » الموالى لإيران فى الكويت ، بحيث يساعد الانفجار الداخلى على إتاحة الفرصة للتقدم العسكرى الايرانى .

٣ ـ وكان التقدير أيضا أن ذلك إذا تحقق يمكن أن تصاحبه أعمال عنف موجهة إلى أمير الكويت ، وعدد من أفراد الأسرة الحاكمة المهيئين للامارة بعده ، لأن مثل ذلك يخلق فراغا فى الشرعية . وفى مجتمع شبه قبلى فإن اختفاء رأس القبيلة يجعل من القبيلة ذاتها جسدا مفكك الأوصال ، ويكون من نتيجة ذلك أن استسلام هذه الأجزاء المفككة يصبح سهلا ، كما أنه باختفاء الرأس أو الرؤوس لا يصبح فى سلطة أحد أن يطلب نجدة من قبائل أخرى قريبة ، أو من قوى صديقة بعيدة .

٤ ـ وعلى هذا الأساس ، فقد وضعت خطة طوارىء تقتضى ترحيل رؤوس الأسرة الحاكمة ، بما فيهم الأمير ، فى أى لحظة تطل فيها بادرة خطر ، وذلك بقصد الحفاظ على الشرعية التى تستطيع لوحدها الاحتفاظ بتماسك الوطن ، وتملك الحق الشرعى فى استدعاء القريب والبعيد لنجدة الكويت والدفاع عنها .

٥ ـ وإلى جانب خطة ترحيل الرؤوس من الكويت عند لحظة الطوارىء ، فقد وضعت خطة تكميلية لمراقبة تحركات واتصالات الكتل الشيعية داخل الكويت . وقد تحققت

مخاوف واضعى الخطط بعد ذلك عندما حدثت محاولة لاغتيال أمير الكويت سنة ١٩٨٥ ، ثم أعقبها فى السنة التالية ١٩٨٦ نجاح الإيرانيين فى احتلال شبه جزيرة « الفاو » وهى ملاصقة للجزر الكويتية . ولم يكن هناك شك فى طبيعة الجهات التى قامت بهذه المحاولة التى نجا منها الأمير بأعجوبة ، فإحدى الجماعات الاسلامية المتطرفة أعلنت مسئوليتها عن المحاولة .

وكان هناك شد وجذب بين المسئولين الكويتيين عن الأمن ، وبين غيرهم من المشاركين فى التخطيط لحماية الأمير . وكانت لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ملاحظات كثيرة على أداء الأمن الكويتى . ثم أحس الجميع بنوع من الاطمئنان السابق لأوانه حين بدأت القوات الإيرانية تنهزم خلال معارك المرحلة الأخيرة فى الحرب .

□

وحين بدأت السحب تتجمع مرة أخرى فى الخليج بسبب المشاكل التى تراكمت على العلاقات بين العراق والكويت ـ عاد الجميع إلى الخطط السابقة ، وفى ذلك الاطار جاءت سفرة العميد « فهد الأحمد الفهد » مدير عام الادارة العامة لأمن الدولة ، واجتماعاته فى واشنطن مع القاضى « وبليام وبستر » مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ـ لإعادة البحث بطريقة شاملة حول مقتضيات الأمن الكويتى . وفى هذا الصدد ، فقد أعيد تنشيط لجنة الاتصال الأمنى الخاصة المشتركة التى كان مقرها فى الكويت ، وأعيد بعث الخطط القديمة ومراجعتها .

وعندما بدأت وكالة المخابرات المركزية تتصرف على مسئوليتها فى مواجهة الأزمة الداهمة التى نشأت على حدود الكويت مع العراق فى أواخر يوليو ١٩٩٠ ، بعثت باثنين من خبرائها لتعزيز عمل لجنة الاتصال الأمنى الخاصة المشتركة . وقد وصل هذان الخبيران إلى الكويت يوم ٣٠ يوليو . وفى اليوم التالى (٣١ يوليو) لحق بهما اثنان آخران قادمان من واشنطن مباشرة بتعليمات جديدة .

وحوالى ظهر يوم ٣١ يوليو طلب أحد خبراء الأمن الأمريكيين الاتصال بمدير الأمن الكويتى . وطلب إليه إبلاغ وزير الداخلية ، ووزير الدفاع برسالة مؤداها ما يلى :

ـ « نحن لا نريد أن نثير القلق فى نفس أحد بدون داع ، ولكننا نعتقد أن خطة الطوارىء الموضوعة سابقا بشأن حماية سلامة الأمير والأفراد الرئيسيين للأسرة الحاكمة يجب أن توضع موضع التنفيذ من باب الاحتياط . »

وعلى الفور بدأ إجراء حصر بأماكن تواجد كل أفراد الأسرة الحاكمة . وظهر أن

الأمير الشيخ « جابر » لم يكن ينوى أن يقضى عطلة نهاية الأسبوع فى « البر » خارج مدينة الكويت ، كما هى عادته . وإنما كان يريد أن ينتظر فى قصر « السيف » حيث يعمل ، أو قصر « دسمان » حيث يسكن ، حتى يتمكن من انتظار الشيخ « سعد الصباح » القادم من جدة ، ويسمع منه تفاصيل ما جرى بينه وبين السيد « عزة ابراهيم » .

وبعد ساعتين عاد أحد ضباط الاتصال الأمريكيين برسالة مؤداها أنه تحت أى ظرف لا يجب أن يتواجد أمير الكويت فى المدينة هذه الليلة.، بل إنه يجب أن يخرج بكل سرعة ممكنة ، ويتوجه إلى أى بيت من بيوته القريبة من منطقة الحدود مع السعودية .

وحوالى الغروب عاد ضابط الاتصال مرة أخرى يطلب أن يكون كل أعضاء الأسرة الحاكمة على علم بأن خطة الطوارىء أصبحت نافذة المفعول ، وأنهم جميعا يجب أن يكونوا خارج المدينة فى ظرف ساعتين لا أكثر.[٧]

وبعد أن حل المساء أصبحت اجراءات خطة الطوارىء أكثر شدة وصرامة ، وطُلب إلى الأمير أن يتحرك إلى منطقة « الخافجى » فى السعودية ، مع رجاء ألا يكون موكب سفره طابورا طويلا من السيارات فاتحة مصابيحها القوية فى ظلام الليل . وبالفعل بدأ موكب الأمير يتحرك فى اتجاه منطقة « الخافجى » ، وكان الذهول يمسك بأعصاب الجميع .

وكان الغزو قد بدأ فعلا . فقد عبرت الطوابير المدرعة حدود الكويت فى نفس الوقت الذى كانت فيه طائرات الهليكوبتر العسكرية العراقية تحوم حول بقع حساسة من مدينة الكويت ، مركزة على قصور الأمير ، وعلى دور الوزارات ، وعلى مداخل ومخارج الطرق من المدينة . كذلك كانت القوات العراقية قد هبطت فى مطار الكويت واحتلته .

□

كان الشيخ « سعد السالم الصباح » قد وصل قبل ذلك قادما من جدة ، وقد هبطت طائرته فى مطار الكويت « بعد المغرب » ـ طبقا لرواية بعض الذين كانوا فى استقباله ـ وقد لاحظوا على الفور أن تقاطيعه كانت متجهمة لا توحى بأنه يحمل « بشرة خير » .

---

(٧) بالفعل خرج معظم الشيوخ الذين وصلهم إنذار الطوارىء فيما عدا الشيخ « فهد الأحمد الصباح » ـ رئيس اللجنة الأوليمبية الكويتية ـ الذى كان قد ترك بيته بعد الظهر وعاد فى ساعة متأخرة من الليل ، وقد فوجىء عندما وجد عددا من العسكريين لم يستطع معرفة سبب تواجدهم فى بيته ، وأخرج مسدسا كان معه يطلب إليهم الخروج ، ثم بدا وكأنه يهم بإطلاق النار ، وعاجله جندى عراقى برصاصة سقط على إثرها مضرجا بدمه .

وقد تضاربت الروايات (حتى الكويتية منها) فى شأن ما فعله « رجل الكويت القوى » فى تلك اللحظات الحرجة .

فهناك رواية تقول إنه ذهب إلى بيته فنام حتى أيقظوه على أنباء الغزو (وهى رواية يصعب تصديقها) .

وهناك رواية تقول إنه توجه إلى مقابلة الأمير ليطلعه على تفاصيل لقائه فى جدة (لكن الراجح أن الأمير كان قد تحرك من قصره فى ذلك الوقت ـ وربما يكون قد قابله على عجل أو التقاه فى مكان ما على الطريق) .

والأقرب من ذلك كله إلى المنطق رواية ثالثة تقول إن الشيخ « سعد » عاد من جدة متشائما ، ثم إنه أُخطر بعد عودته مباشرة بأن خطة الطوارىء وضعت موضع التنفيذ ، وأن عليه أن يقوم بدوره فيها . وعلى أى حال ، فمن المؤكد أنه أصدر بعض التعليمات إلى عدد من أجهزة الدولة ، وبينها الحرس الوطنى ، ثم غادر مدينة الكويت إلى « البر » فى الوقت الذى كان فيه دوى انفجارات القنابل يسمع بوضوح فى المدينة ، وطائرات الهليكوبتر العراقية تحوم فى سمائها .

والظاهر أن الشيخ « سعد » كان ثائر الأعصاب ومنفعلا إلى أقصى درجة (وهو شىء طبيعى فى مثل هذه الظروف) .

وبينما هو فى السيارة عصبيا ومنفعلا ، رفع سماعة التليفون يتصل بالسفير الأمريكى فى الكويت . وما أن سمع صوت السفير حتى تدافعت الكلمات على لسانه كأنها سيل . وقد نفس عن مشاعره كما أراد ، ثم قال للسفير :

ـ « نحن نعتمد عليكم ، وهذا هو الظرف الذى تثبت فيه أمريكا صداقتها للكويت ، وتثبت لكل العالم احترامها لتعهداتها . . »

وسأله السفير الأمريكى سؤالا محددا :

ـ « هل أستطيع أن أعتبر ما قلت طلبا رسميا من الحكومة الكويتية بالمساعدة الأمريكية ؟ »

ورد الشيخ « سعد » بدون انتظار :

ـ « طبعا .. نحن نطلب مساعدتكم . »

وعاد السفير يلح :

ـ « عذرا .. ولكنى أريد أن أكون دقيقا مع حكومتى . هل هذا رأيك الخاص ،

أو أنه يحق لى أن أعتبره طلبا رسميا من الحكومة الكويتية ؟ »

ورد الشيخ « سعد » بأنه طلب من الحكومة .

وربما وجد الشيخ « سعد » بعد ذلك أنه فى حاجة إلى أن يخطر الأمير بحديثه مع السفير الأمريكى ، وتمكن بالفعل من أن يتصل به على التليفون . وكان الأمير فعلا فى مدينة « الخافجى » على بعد ٢٠ كيلومترا داخل حدود السعودية . ثم عاد الشيخ « سعد » بعد بضع دقائق ، واتصل بالسفير الأمريكى من تليفون سيارته يقول له « **إن طلب المساعدة الذى أخبره به هو طلب الأمير ، وهو يعززه له مرة أخرى رسميا ، وباعتباره وليا للعهد ورئيسا للوزراء » . ثم أضاف الشيخ « سعد » إن « الكويت أميرا وحكومة وشعبا لا أمل لهم الآن إلا فى الرئيس بوش ، وصداقة الشعب الأمريكى » .**

وكانت القوات العراقية قد أحكمت قبضتها على مدينة الكويت ، ولم تعثر فيها للأمير ولا لأفراد حكومته البارزين على أثر ، ثم علم قائد القوة العراقية أن الجميع خرجوا على طريق « البر » وأمر طابورا من قواته بأن يقوم بملاحقتهم . ولكن كل « العصافير الأميرية » كانت قد طارت من كل الأقفاص الذهبية !

□

فجر يوم ٢ أغسطس كانت القوات العراقية قد حققت كل مهامها العسكرية بنجاح ، ولكن الأساس السياسى الذى قامت عليه الخطة لم ينجح ، ذلك أن خروج أمير الكويت والنافذين من أفراد أسرته سالمين من الكويت فتح ثغرة كبيرة فى الأساس السياسى للخطة العراقية .

كان المفروض أن يتم أسر الأمير وأفراد عائلته الأقربين ـ على الأقل ـ حتى لا يظل هناك من يملك حقا ، أو ظل حق شرعى فى طلب النجدة من القبائل ، أو الدول الأخرى .

والحاصل أن الشرعية فى هذا النوع من النظم التقليدية لا تقوم بدور الحكم فحسب ، وإنما تقوم بنوع من « الأبوية » التى يحق لها وحدها أن تتكلم طالما كانت قادرة على الكلام أو قادرة على الحياة ، فإذا تكلمت فإن كلامها المسموع ، وإذا بقيت حية فإن رأيها هو المنتظر . ولا يستطيع أحد أن يصم أذنيه ، أو يتصرف دون إشارتها .

وكان مؤدى ذلك أن الغزو العراقى للكويت وإن نجح فى احتلال البلد ، لم ينجح فى السيطرة على رموز الشرعية فيه . وحتى إذا كانت هذه الرموز قد خرجت من البلاد ، فإنها لم تترك شرعيتها وراءها ، وإنما أخذتها معها . وبها كانت تستطيع أن تتصرف على النحو الذى ترتئيه سواء مع القبائل القريبة ، أو مع الدول المهتمة .

وبلغت الأزمة ذروتها ، وتفتحت أبوابها على احتمالات لم تكن فى حساب أحد .

الفصل الرابع

ساعات فاصلة

« ٤٨ ساعة .. أرجوك يا سيادة الرئيس » .

[الملك « حسين » للرئيس « بوش » . يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠] .

١

دق جرس التليفون بجوار سرير الملك « فهد » فى الساعة الخامسة من فجر يوم الخميس ٢ أغسطس ١٩٩٠ . لم يكن هذا التليفون يدق فى العادة . ومعنى سماع صوته كان كفيلا بأن يوحى على الفور بحدوث أمر جلل . ثم عرف الملك « فهد » أن القوات العراقية قد دخلت الكويت . وكانت المفاجأة بالنسبة له غير قابلة للتصديق ، فهو قبل ساعات قليلة ودع كلا من الشيخ « سعد العبد الله الصباح » والسيد « عزة ابراهيم » ، على تصور بأن الأمور على ما يرام ، وبأن الاثنين على موعد للقاء فى بغداد بعد أيام .

وبالتأكيد أن الملك كان يعرف أكثر مما أبلغه به رئيسا الوفدين الكويتى والعراقى . وعلى الأرجح فإن المخابرات السعودية ، وهى جهاز قوى فى المملكة ، كانت قد استمعت بوسائلها الخاصة إلى ما دار بين الرجلين ، ومعنى ذلك أن الملك كان يعرف أكثر مما أبدى على السطح أنه يعرفه ـ ومع ذلك فمن المحقق أن مفاجأته بالغزو كانت كاملة .

واستدعى الملك أحد مساعديه ، وطلب إليه أن يصله تليفونيا بالسفير « عبد العزيز

السديرى » سفير المملكة العربية السعودية فى الكويت (وهو فى نفس الوقت قريب للملك من ناحية والدته ـ وهذه هى العادة فى الأسر الحاكمة فى شبه الجزيرة العربية والخليج . فسفراؤهم إلى بعضهم من الأقارب وليسوا من الدبلوماسيين بطبيعة العلاقات والصلات التقليدية بين الحكام .)

وبينما الملك ينتظر أن تصله المكالمة التى طلبها مع سفيره في الكويت ، راح يبدى عجبه مما سمعه ويسأل :

ـ « **هل احتلوا البلد ، أم احتلوا الجزر ؟** »

وجاءته المكالمة ، ولم يكن السفير « السديرى » على بينة من أية تفاصيل سوى أنه « عرف الآن أن القوات العراقية قريبة من مدينة الكويت » . ووضع الملك سماعة التليفون ودهشته لم تفارقه ، ولعلها زادت إلحاحا عليه . **وكان تعليقه « إنه زلزال ، وإنه لا يقدر على تجميع أفكاره »** . ثم عاد ورفع سماعة التليفون وطلب أن يصلوه بالرئيس « صدام حسين » فى بغداد . وبعد قليل دق جرس التليفون ، وكان سكرتير الملك المكلف بالاتصالات يقول له إن مكتب الرئيس « صدام حسين » معه على الخط لكن الرئيس العراقى نفسه ليس موجودا . وطلب الملك أن يحول الخط إليه . وقد اكتشف أن الطرف الآخر الموجود على خط بغداد هو السيد « أحمد حسين خضير » ، وهو أحد المستشارين المقربين من الرئيس « صدام حسين » (وقد أصبح وزيرا للخارجية فيما بعد) . وسأله الملك « أين الأخ صدام ؟ » ـ وجاءه الرد : « طال عمرك ... إنه الآن بعيد ، وسوف نبلغه بمكالمة جلالتكم ، ونطلب إليه الاتصال بكم على الفور » .

ولم يكن الملك « فهد » قادرا على الانتظار ، فطلب توصيله بالملك « حسين » وأيقظه بالفعل من نومه فى الساعة الخامسة والربع ـ وبادره بسؤاله :

ـ « **هل سمعت ؟** »

ورد عليه الملك « حسين » متسائلا :

ـ « **سمعت بماذا ؟** »

وروى له الملك « فهد » تفاصيل ما سمع عن دخول القوات العراقية إلى الكويت ، وكيف أنه حاول الاتصال بـ « الأخ صدام » ولم يوفق .

وكان الملك « حسين » مأخوذا بما سمع ، وقد شرد للحظة فى تصوراته ، وأحس الملك « فهد » أن الملك « حسين » شرد عنه ، فعاد يسائله فى خطورة ما حدث ، وقال الملك « حسين » :

– « اعطنى فرصة حتى أستوعب » .

ورد عليه الملك « فهد » مقترحا أن يحاول هو – أى الملك « حسين » – أن يتصل بـ « الأخ صدام » ليعرف منه « ما هى الحكاية ؟ »

وكان الملك « حسين » قد استجمع أفكاره ، وقال للملك « فهد » :

– « الغالب كما أظن أنها عملية محدودة ، وقد نستطيع تداركها وعلاجها فورا . سوف أتصل بـ « الأخ صدام » وأعود إليك فى ظرف دقائق . »

وراح الملك « حسين » يحاول بدوره أن يتصل ببغداد . ثم أبلغ أن الملك « فهد » على الخط مرة ثانية ، وجاءه صوت الملك « فهد » يقول بانفعال :

– « لأ .. إنها ليست عملية محدودة . إننى سمعت الآن أنهم داخل قصر « جابر » . »

وتمكن الملك « حسين » من إجراء اتصال ببغداد ، لكنه لم يوفق فى الوصول إلى الرئيس « صدام حسين » . فقد تلقى المكالمة السيد « طارق عزيز » الذى جاء صوته على التليفون يقول للملك « حسين » :

– « جلالة الملك إننى آسف ، لكننى رأيت أن أتلقى مكالمتكم إلى « السيد الرئيس » لأنه مازال بعيدا عن التليفون » .

وسأله الملك « حسين » بقلق عن هذا الذى يجرى ، وكان رد السيد « طارق عزيز » أنه « لم يكن هناك مع الأسف سبيل آخر » ، وعلى أية حال فإن « السيد الرئيس » سوف يشرح له بنفسه كل شىء عندما يتصل به فى ظرف دقائق قليلة . »

□

كان توقيت القاهرة متأخرا ساعة عن توقيت الكويت . وفى الساعة الرابعة صباحا استيقظ الدكتور « مصطفى الفقى » سكرتير الرئيس للمعلومات على تليفون من السفير « سعيد رفعت » السفير المصرى فى الكويت . وكان السفير يبلغه بأن القوات العراقية قد احتلت حقل « الرميلة » وأنها تزحف الآن إلى مدينة الكويت .

ولم يشأ الدكتور « مصطفى الفقى » أن يوقظ الرئيس « مبارك » الذى كان ليلتها فى استراحة برج العرب – قبل أن يتأكد من دقة ما لديه من معلومات . وقد أراد – فيما يبدو –

أن يستوثق من حجم العملية ، وما إذا كانت هى العملية المحدودة التى كان البعض يتوقعونها ، أو أنها شىء أكبر .

وقرابة الساعة الرابعة والنصف دق التليفون مرة ثانية بجوار الدكتور « مصطفى الفقى » وكان المتحدث هو السفير « عبد الرزاق الكندرى » سفير الكويت فى القاهرة ، ولقد قال للدكتور « مصطفى الفقى » : « **أرجوك إيقاظ الرئيس فورا .. فالعراقيون الآن فى قلب مدينة الكويت » . ثم راح السفير « الكندرى » يضيف بعض التفاصيل .**

وقام الدكتور « الفقى » بالفعل بإيقاظ الرئيس « مبارك » الذى راح يصغى إلى ما ينقله إليه الدكتور « مصطفى الفقى » ، ثم سأله فى دهشة :

ـ « إيه ؟ .. هل هى عمليات على الحدود ؟ »

ورد الدكتور « مصطفى الفقى » بأنها « عمليات فى العمق والمعلومات تشير إلى أن القوات العراقية احتلت قصر الأمير ، وقصر ولى العهد ، ووزارتى الدفاع والداخلية ، وعددا آخر من الوزارات . »

ولم يكن الرئيس « مبارك » أقل دهشة واستغراباً ، لا من الملك « فهد » ، ولا من الملك « حسين » قبله .

□

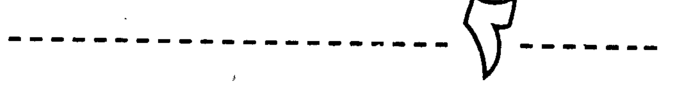
فى بغداد كان الرئيس « صدام حسين » موجودا فى مقر قيادة الجيش العراقى للعمليات ، وهو مركز كامل التجهيز أنشىء فى السنتين الأخيرتين للحرب مع إيران ، وكان يتابع عمليات انتشار الجيش العراقى فى الكويت ، وكانت التقارير تصله تباعا ، وقد أحس أن المهمة اكتملت تماما فى الساعة السابعة والنصف صباحا .

كان التنفيذ العسكرى للخطة دقيقا ومحكما ، ولكن هرب الأمير وولى العهد وعدد من كبار أفراد الأسرة الحاكمة ـ راح يلقى بظله على العملية العسكرية .

وصدرت أوامر بإجراء عمليات تفتيش دقيق وسريع لقصور الأمير وولى العهد ووزراء الخارجية والدفاع والداخلية والمخابرات ـ على توقع بأن هناك أسرارا قد تكشف عن خطط ، أو تلقى ضوءاً على ما يمكن أن يحدث من بعد . وكانت التعليمات أن يرسل كل شىء إلى بغداد لكى يفحص هناك بعناية بعد الفحص الأولى على الطبيعة .

□

وفى بغداد أيضا استيقظ السفير « إبراهيم البحو » سفير الكويت فى العراق على طرقات أحد حراس السفارة على باب غرفة نومه ، يقول له إن القوات العراقية تحاصر المبنى . وكان السفير « البحو » قد توقع أن المشاكل قاربت حد الانفجار ، وإن لم يستطع أن يحدد بالضبط حجم الانفجار ، أو متى يقع . وكان قبلها بيومين قد رأى من باب الاحتياط أن يقوم بإحراق بعض الأوراق التى تحتفظ بها السفارة . وكان أول ما خطر بباله عندما أوقظ من نومه فجر يوم ٢ أغسطس ، أن هناك مجموعة أخرى من الأوراق يجب أن يتخلص منها هى الأخرى . ثم لاحظ السفير الكويتى أن جميع تليفونات السفارة متوقفة ، ثم أبلغه حارس السفارة مرة أخرى أن آمر القوة العراقية المحاصرة يطلب مفاتيح كل السيارات الموجودة بالسفارة . ولم يكن أمامه إلا أن يسلم المفاتيح . وأدهشه أن يسمع بعد قليل صوت محركات سياراته الثلاث ، وفهم أن السيارات صودرت لمنعه من الحركة بعد أن جرى عزله عن أى اتصالات بتعطيل أجهزة التليفون بالمبنى . ثم أخطر السفير بضابط عراقى يريد مقابلته . وجاء الضابط العراقى يطلب إلى السفير الكويتى تسليم جواز سفره الدبلوماسى ، وجوازات سفر أفراد أسرته جميعا ـ إليه . ولم يكن هناك مجال لشىء آخر غير تسليم الجوازات وانتظار المفاجآت مع التحسب للأسوأ .(١)



فى واشنطن كانت الصورة مختلفة بالكامل :

● لم تكن المفاجأة صاعقة ، كما حدث فى العواصم العربية ، لأن واشنطن كانت تنتظر الضربة .

● ولم تكن هناك حاجة إلى إيقاظ رئيس أو مسئول من نومه ، لأنه حين بدأت مقدمات التحرك العسكرى العراقى إلى الكويت عند منتصف ليلة ١ ـ ٢ أغسطس ـ كانت الساعة لا تزال الرابعة بعد الظهر بتوقيت واشنطن .

---

(١) بعد ثلاثة أيام عاد نفس الضابط العراقى إلى مقابلة السفير « ابراهيم البحو » وأعاد إليه مفاتيح سياراته الثلاث ، وأخطره بإعادتها رسميا إليه قائلا : « إنها الآن تحمل لوحات أرقام عراقية . وفوق ذلك فقد سلمه جوازات سفر عراقية عادية بدلا من جوازات السفر الكويتية الدبلوماسية التى سحبها منه قبل ذلك !

والواقع أنه ابتداء من يوم ٢٧ يوليو ، وبينما العالم العربى مشغول بمحاولاته لاحتواء الأزمة ، قررت وزارة الدفاع الأمريكية أن يكون الاستطلاع على منطقة الحشد العراقى كل ساعتين .

وفى صباح ذلك اليوم كانت تقارير الاستكشاف تقول إن الحشد العراقى يتزايد ، ولكن هناك مجموعة من العناصر الضرورية لم تكتمل بعد رغم أن القوات فى وضع هجومى من ناحية ترتيب خطوطها :

- **الاتصالات مع شبكة الجيش العراقى مازالت محدودة .**
- **لا يبدو أنه حدث « التشوين » الكافى لذخيرة المدفعية .**
- **هناك ذخائر كثيرة مازالت ناقصة .**
- **الترتيبات الإدارية وطوابيرها المعهودة فى حالة العمليات لم تظهر بعد .**

وبعد ظهر نفس اليوم ، اتصل الجنرال « كولين باول » رئيس هيئة أركان حرب الجيش الأمريكى بالأمير « بندر بن سلطان » سفير السعودية فى واشنطن ، وطلب إليه أن يمر عليه لحديث غير رسمى .(٢)

كان الأمير « بندر » سفيرا غير عادى فى واشنطن ، وبحكم أنه سفير السعودية بأهميتها الكبرى بالنسبة للولايات المتحدة ، وبحكم أنه من أبناء الأمير « سلطان » وزير الدفاع ، وبحكم أنه متزوج من الأميرة « هيفاء » إحدى بنات الملك « فيصل » ، وبحكم أنه يتمتع بصلاحيات سياسية ومالية غير محدودة ـ فإن صلاته بالبيت الأبيض ، ووزارتى الخارجية والدفاع ، والبنتاجون ، ووكالة المخابرات المركزية ـ كانت وثيقة إلى درجة غير عادية .

وربما أن الذى ساعد الأمير « بندر » على هذه المكانة التى حققها فى واشنطن ، أنه كان ممثل السعودية فى العمليات السرية التى كانت الإدارة الأمريكية تحتاج فيها إلى اعتمادات لا تمر عن طريق الكونجرس لتنفذ بها سياسات معينة . وكان الأمير « بندر » مثلا هو الذى قام بتقديم مبلغ الخمسة والثلاثين مليون دولار التى استعملتها الولايات المتحدة

(٢) كتاب الصحفى الأمريكى الأشهر « بوب وودوارد » ، وهو من أحسن المراجع وأدقها فيما يتعلق بالأيام الحاسمة التى تقرر فيها التدخل العسكرى ضد العراق ، والكتاب بعنوان «Commanders» وقد نشرته دار « سيمون وشوستر » فى نيويورك ، ولم يستطع أحد أن يكذب واقعة فيه ، والمعتقد فى واشنطن على نطاق واسع أن الجنرال « كولين باول » كان من أهم المصادر التى اعتمد عليها « وودوارد » .

الأمريكية فى حربها الخفية ضد نظام « الساندنيستا » فى نيكاراجوا ، كذلك كانت سفارته هى « **صندوق الدفع** » فى حروب خفية أخرى .

وحينما وصل الأمير « بندر » إلى مكتب الجنرال « كولين باول » بعد ظهر يوم ٢٧ يوليو ـ كانت لدى رئيس هيئة أركان حرب الجيش الأمريكى أسئلة كثيرة يريد أن يستوضح إجاباتها من السفير السعودى الواسع الاطلاع والنفوذ .

وقد بادر « باول » بسؤال « بندر » : « **ما الذى يفعله صديقك صدام ؟** » (وكانت تلك إشارة إلى الرسالة السابقة التى حملها « بندر » من « صدام حسين » عندما كان الرئيس العراقى ـ بناء على نصيحة الملك « فهد » ـ يحاول أن يطمئن الولايات المتحدة) .

ورد الأمير « بندر » بقوله : « إنه لا يعرف بالضبط ، ولكنه يتصورها عملية استعراض عضلات لتخويف الكويتيين » .

ثم استطرد الأمير « بندر » يقول : « إن هذه ليست المشكلة ، ولكن المشكلة أن عمليات استعراض العضلات لن تتوقف ، فإذا مرت هذه الأزمة بسلام ، فالراجح أنها ستتكرر مرة أخرى ، ومعنى ذلك أن النظام فى العراق سوف يظل باستمرار ولسنوات طويلة مصدرا لقلق دائم . »

وحين سأل « كولين باول » عن الكويتيين ومدى صلابتهم ، كان رد الأمير « بندر » :

ـ « إن عائلة الصباح عائلة تجار ، وليست لهم هوية سياسية محددة . والكويت كلها أقرب إلى أن تكون شركة منها إلى أن تكون دولة . »

والظاهر أن الأمير « بندر » لم يكن يتوقع أكثر من استعراض العضلات هذه المرة ، والدليل أنه خرج بعد مقابلته لـ « كولين باول » فركب طائرته وسافر إلى أوروبا .

□

ويوم ٣٠ يوليو طرأ جديد على أوضاع القوات العراقية ، وكتب « والتر لانج » المسئول فى المخابرات العسكرية عن الشرق الأوسط تقريرا مختصرا يقول فيه « **إن تقارير الاستطلاع تظهر أن الحشد العراقى ليس مجرد استعراض عضلات يقصد إلى تخويف الكويت** » .

وعندما وصل تقرير « لانج » إلى الجنرال « كولين باول » كان تعليقه : « **إن الذى يحيره هو أن احتلال الكويت لا يحتاج إلى حجم الحشود العراقية ، ويستطيع صدام حسين أن يحتل الكويت كلها بقوة بوليس** » . وخطرت لرئيس هيئة أركان الحرب فكرة

رأى إبلاغها إلى وزير الدفاع « ريتشارد تشينى » . وكانت فكرته أنه قد يكون من الأوفق أن تصدر الولايات المتحدة تحذيرا إلى العراق من مخاطر قيامه بأى عمل عسكرى . وكان الجنرال « كولين باول » قد اطلع على تقرير السفيرة « ابريل جلاسبى » ، وفيه كانت السفيرة تطمئن الرئيس العراقى إلى أن الولايات المتحدة لن تتدخل فى أى نزاعات عربية ـ عربية . ولعل الجنرال « كولين باول » أحس أن السفيرة أخطأت فى الانطباع الذى تركه حديثها على تفكير « صدام حسين » ـ وكان تقديره الآن أن الموقف تغير ، والنوايا العراقية أصبحت أشد وضوحا ، واحتمال استخدام القوة المسلحة أصبح واردا يوم ٣٠ يوليو ، ولم يكن كذلك يوم ٢٥ يوليو حين جرى اللقاء بين السفيرة الأمريكية والرئيس العراقى ـ وإذن فإن تحذيرا أمريكيا واضحا قد يكون فى هذه اللحظة مفيدا ، وربما ضروريا لتصحيح أى انطباع تركه حديث السفيرة « ابريل جلاسبى » على الرئيس « صدام حسين » .

واستمع « ريتشارد تشينى » وزير الدفاع إلى فكرة الجنرال « باول » ، وقال إنه سوف يرد عليه بعد الاتصال بالرئيس « بوش » . **ثم عاد ورد عليه بأن « الرئيس لا يحبذ فكرة إصدار تحذير علنى لصدام حسين »** .

واستغرب الجنرال « باول » رفض اقتراحه لأنه لم يكن يكلف شيئا . ولعله كان يمكن أن يوفر أشياء من حيث أنه يفرض على الرئيس العراقى إعادة حساباته .

وفكر الجنرال « باول » أن يتصل بعد ذلك بالجنرال « شوارتزكويف » فى مقر القيادة المركزية ، ويسأله عن حالة استعداد القوات طبقا للخطة رقم « ١٠٠٢ ـ ٩٠ » ، **وهى الخطة الموضوعة للطوارىء العسكرية فى الخليج من وقت طويل ، وكانت قد روجعت أكثر من مرة ، وجرى تعديلها وفق تطورات الحرب العراقية الإيرانية واحتمال أن تحاول إيران (أو العراق) دخول مناطق البترول فى ظرف تراه مناسبا .**

ورد « شوارتزكويف » بأن القوات المخصصة للخطة مبعثرة ، وهى فى معظمها خارج المنطقة ، ولا يوجد منها قريبا من الخليج إلا عشرة آلاف جندى معظمهم من البحرية .(٣)

□

وكانت أول إشارة ببدء الغزو العراقى للكويت وصلت إلى واشنطن ـ رسالة من كلمتين بعث بها الأميرال « بيل أوينز » قائد الأسطول الأمريكى السادس فى البحر الأبيض ،

---

(٣) صفحة ٢٢١ من كتاب « بوب وودوارد » .

وكان « أوينز » قد تولى منصبه حديثا بعد فترة قضاها مساعدا خاصا لوزير الدفاع « تشيني » .

كانت الرسالة موجهة إلى « تشيني » ، وقد وصلت فى المساء المبكر بتوقيت واشنطن ، ونصها : « **العراقيون اخترقوا** » (والقصد مفهوم ، وهو أنهم اخترقوا حدود الكويت) .

ووصلت الاشارة إلى الجنرال « كولين باول » رئيس هيئة أركان الحرب ، فدعا نائبه الجنرال « دافيد جيرميا » ومساعده الجنرال « توم كيللى » إلى الاجتماع به لتقدير الموقف . فقد توقع « كولين باول » أنه بعد قليل سوف يستدعى إلى البيت الأبيض ، وعليه أن يكون مستعدا لأى مناقشات تجرى فى مجلس القرار الأعلى مع الرئيس .

وكان الرئيس « جورج بوش » قد أبلغ بما وقع ، وكان الذى أبلغه هو مستشاره للأمن القومى الجنرال « برنت سكوكروفت » .

ولم يكن « جيمس بيكر » وزير الخارجية موجودا فى واشنطن ، وإنما كان فى سيبيريا مع نظيره السوفيتى . وهكذا فإن البيت الأبيض تولى إدارة الأزمة فى ساعاتها الأولى . وكانت تلك مشكلة لأن مصادر ووسائل وزارة الخارجية فى إدارة أى أزمة ـ لها أدوات ووسائل وقنوات واضحة ، وأما فى البيت الأبيض فإن كل شيء متشابك ومتداخل ، كما أن القنوات نصف مضيئة ، أو نصف مظلمة !

ودخل « جورج بوش » إلى مكتبه فى البيت الأبيض حوالى الساعة التاسعة مساء ، ووراءه مجموعة من المساعدين اختارهم لتمثيل الإدارة الأمريكية عند مستواها الأعلى :

الجنرال « برنت سكوكروفت » مستشار الأمن القومى ، و « جون سنونو » رئيس هيئة مستشارى البيت الأبيض .

« ريتشارد تشينى » وزير الدفاع ، ومعه الجنرال « كولين باول » رئيس هيئة أركان الحرب ، والجنرال « دافيد جيرميا » نائبه ، و « بول وولفوويتز » مدير التقديرات الاستراتيجية فى وزارة الدفاع .

و « روبرت كيميت » مساعد وزير الخارجية نظرا لغيبة الوزير ، ثم « ويليام وبستر » مدير وكالة المخابرات المركزية ، ونائبه للعمليات « ريتشارد كير » ـ ثم المستشار القانونى « بويدن جراى » .

وفى الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق صدرت من مكتب الرئيس « بوش » مجموعة من القرارات :

١ ـ بيان باسم الرئيس يدين الغزو ، ويطالب بسرعة الانسحاب بلا قيد أو شرط ، ولا يقبل بديلا عن ذلك بشىء .

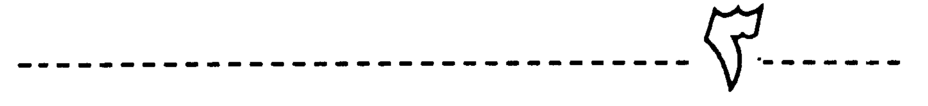
٢ ـ قرار بإرسال قوة من الطيران إلى السعودية فورا ـ ٢٤ طائرة من طراز « ف ـ ١٥ » .

٣ ـ قرار بتجميد كل الأموال الكويتية والعراقية فى كافة البنوك .

٤ ـ قرار بتشكيل لجنة طوارىء دائمة لمتابعة الأزمة تضم كلا من « كيميت » و « جيرميا » و « وولفوويتز » و « كير » .

٥ ـ إنشاء لجنة دائمة للطوارىء تعمل تحت رئاسة مستشار الأمن القومى « برنت سكوكروفت » .

وقال « بوش » موجها كلامه إلى وزير الدفاع « تشينى » : « إنه سوف يذهب الآن ليفكر ويتأمل ، ثم ينام ، وفى الصباح الباكر يعود الكل إلى مكتبه للتشاور من جديد فيما قد يكون طرأ على الأزمة أثناء الليل ، وكذلك فى خيارات المستقبل » . ثم أردف قائلا : « **إنه يريد أن يجىء الجنرال « شوارتزكوبف » إلى واشنطن ، وأن ينضم فى الصباح إلى الاجتماع المقرر فى مكتب الرئيس ، وعليه أن يجىء معه بكل أوراق خطط العملية** « ١٠٠٢ ـ ٩٠ » . »



من الصعب على أحد أن يعرف بالتحديد ما دار فى فكر الرئيس « جورج بوش » فى تلك الليلة وهو وحده فى جناحه الخاص يفكر ويتأمل كما قال ـ ومع ذلك فإن بعض ملامح فكره يمكن تقديرها .

فى تلك الفترة كانت رئاسة « بوش » تواجه مشاكل :

□ فالاقتصاد الأمريكى يعانى ـ والمنافسة الألمانية اليابانية مرهقة ـ واحتمالات أوروبا الموحدة تدعو إلى التحسب وعدم الارتياح .

□ ثم إن الانتصار الهائل الذى تحقق للولايات المتحدة الأمريكية بانهيار الاتحاد السوفيتى ، منسوب إلى سلفه « رونالد ريجان » وليس إلى « جورج بوش » . والناس

يقارنون بين رئيس أمريكى أيقظ مشاعر الوطنية والكبرياء فى الولايات المتحدة ، وبين رئيس آخر أعقبه دون أن تكون له نفس الجسارة ، ولا نفس الشعبية .

□ مضافا إلى هذا أن « بوش » ما كاد يدخل البيت الأبيض حتى انفجرت فضيحة ابنه « نيل » الذى كان يعمل فى « مؤسسة الإدخار والتأمين » وهى فضيحة قدرت خسائرها بعشرات البلايين من الدولارات .

□ وفوق ذلك كله فإن « جورج بوش » من أسرة عملت فى إنتاج البترول وتسويقه فى تكساس ـ وهو يعرف أكثر من غيره أهمية البترول الحيوية بالنسبة للولايات المتحدة ، وهو بنفسه قائل العبارة المشهورة عن « **أن القرن الواحد والعشرين سوف يكون قرنا أمريكيا ـ أى قرنا بتروليا** ».

وتبقى ملاحظة أن صانع القرار السياسى بشر ، وفى كل تقديرات البشر فإن الخاص يختلط بالعام ، والمفتاح الأساسى لفهم التاريخ أنه إنسانى ـ أى أنه دوافع ونزعات وتحركات مجتمعات وأفراد .

ولعل أدق ما يمكن أن يصف العوامل المتدافعة فى تفكير « بوش » تلك الليلة هو ذلك الحوار الذى دار بين الجنرال « كولين باول » رئيس هيئة أركان الحرب وبين سلفه المباشر الأميرال « ويليام كرو » . فقد قال « ويليام كرو » أثناء هذا الحوار :(٤)

« إننى أشعر أن الرئيس يتصرف بنفاد صبر . كلكم نفد صبره ، وكلكم يتحرق إلى الحرب ، والرئيس أكثركم .

أرجوك أن تنصح الرئيس أن يتذرع بالصبر . إننا بالصبر أربعين سنة انتصرنا على أكبر خصم واجهناه وهو الاتحاد السوفيتى . إن العراق هدف سهل ، وسوف نقتل عشرات ألوف من العرب هناك دون عناء ، وسوف يتحمس بعض العرب لنا فى البداية ، ولكن كل العرب بعد أن تمر السنين لن ينسوا . ومهما كان هدفك نبيلا فى أى معركة ، فإن عنصر النبل فيه سوف ينسى ، ويظل فقط عنصر القتل . »

والغريب أن الجنرال « كولين باول » لم يكن بعيدا عن أفكار سلفه الأميرال « ويليام كرو » ، وقد رد عليه بقوله : « **إننى أفهمك ، وأنا شخصيا من أنصار الضغط على العراق بالحصار الاقتصادى والدبلوماسى ، ولكن الآخرين عبر النهر يريدون شيئا آخر» . قالها الجنرال « باول » وأشار إلى اتجاه البيت الأبيض عبر النهر .**

---

(٤) أورده « بوب وودوارد » فى كتابه ـ صفحة ٣٧ و ٣٨ .

وعاد الأميرال « كرو » يلح : « **اسمع .. أنا أعرف أن كل رئيس عظيم فى تاريخ الولايات المتحدة ، يحتاج إلى حرب . والحرب المنطقية لأى رئيس هى حيث يواجهه الاستفزاز . والعراق تصرف بطريقة مستفزة ، ولكن هناك وسائل أخرى لردعه** . »

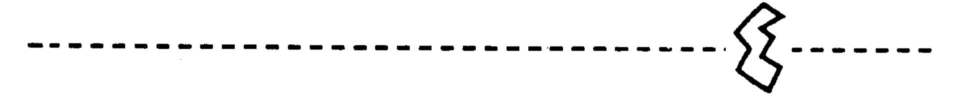
ورد « كولين باول » : « هذا صحيح » .

وعاد الأميرال « كرو » يلح على خلفه : « لماذا لا تقول له رأيك بالكامل ؟ »

وقال « كولين باول » : قلته له . ولكنى لا أستطيع أن ألح ، فإذا فعلت ذلك ورفض فعلىّ أن أستقيل واستقالتى لن توقف العملية لأن مستشاريه سوف يقولون له : « حسنا ، هذا رأى العسكريين ، والعنصر العسكرى مهم فى الموضوع لكن هناك عناصر أخرى فى المعادلة اقتصادية وسياسية ونفسية » .

وسأل الأميرال « ويليام كرو » : « **وماذا عن الأعباء الاقتصادية للحرب** ؟ »

ورد الجنرال « باول » : « **تقديرهم أن عرب البترول سيدفعون التكاليف** »!



صباح يوم ٢ أغسطس كانت القاهرة فى حالة نشاط مكثف ، فقد تصادف فى ذلك الوقت أن انعقد فيها مؤتمر لوزراء خارجية الدول الاسلامية ، وكان ذلك أول اجتماع يعقد على هذا المستوى بعد عودة مصر إلى عضوية الجامعة العربية .

وتقدمت سوريا (وغيرها من الدول العربية) بطلب عقد مؤتمر للقمة يسبقه على الفور اجتماع لوزراء الخارجية العرب ، وبما أن وزراء الخارجية العرب كلهم حاضرون فى القاهرة بحكم اشتراكهم فى اجتماع وزراء خارجية الدول الإسلامية ـ إذن فإن كل ما هو مطلوب هو توجيه دعوة لوزراء الخارجية العرب يجتمعون وحدهم فى ظرف ساعة ...

وهكذا حدث ، فقد طلب السيد « الشاذلى القليبى » الذى كان يحضر كمراقب اجتماع وزراء خارجية الدول الإسلامية ـ إلى وزراء الخارجية العرب ألا يتوجهوا هذا الصباح إلى قصر المؤتمرات فى مدينة نصر ، وبدلا من ذلك فهم مدعوون إلى اجتماع منفصل خاص بهم فى فندق « سميراميس انتركونتيننتال » الذى ينزل فيه معظمهم أثناء وجودهم فى القاهرة .

وفى الساعة العاشرة صباحا التأم عقد هذا الاجتماع الطارىء ، وبدأ وزراء الخارجية العرب يحاولون البحث عن تقدير مشترك لحقيقة ما جرى ، وكيف يمكن التصرف حياله .

كان رئيس الجلسة هو السيد « فاروق قدومى » وزير خارجية فلسطين بحكم أن رئاسة دورة مجلس الجامعة العربية فى ذلك الوقت كانت لها . وكان اتجاه الآراء فى التطورات على النحو التالى :

١ ـ إن احتمالات التدخل الخارجى من جانب الولايات المتحدة ومن غيرها قائمة ، والأخبار الدول العربية .

٢ ـ إن احتمالات التدخل الخارجى من جانب الولايات المتحدة ومن غيرها قائمة والأخبار الواردة من واشنطن صريحة فى أن هناك استعدادات عسكرية واجراءات عقوبات اقتصادية ، وأحوال طوارىء ـ وهذه هى البداية ، ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بالنهاية .

٣ ـ إن العرب لابد أن يخرجوا بقرارات تفرض على العراق أن ينسحب من الكويت قبل أن يتعقد الموقف .

٤ ـ إن الأزمة أكبر من وزراء الخارجية ، ولابد فيها من توجيهات من الملوك والرؤساء العرب قبل أن يستطيع وزراء الخارجية أن يخلصوا إلى توصيات يقدمونها لرؤسائهم . وفى كل الأحوال ، فإنه فى هذه اللحظات لا يصح إغلاق الأبواب وإنما تركها مفتوحة .

وهكذا فإن اجتماع الجلسة الصباحية لوزراء خارجية الدول العربية راح يدور حول نفسه دون أن يجد مخرجا .(٥)

وربما ساعد على الدوران حول النفس أن أيا من وزراء الخارجية العرب لم يكن قد تلقى تعليمات صريحة من رئيس دولته . كانوا جميعا قد اتصلوا برؤسائهم ، أو اتصل بهم رؤساؤهم فى الصباح الباكر . ولكن هؤلاء الرؤساء كانوا فى نفس الحيرة إزاء المفاجأة ، ولذلك فإن تعليماتهم جاءت عامة وعائمة !

وإلى جانب ذلك ، فقد كانت هناك شكوك تراود دول الخليج ، وأهمها سؤال : **« هل كانت الدول الأعضاء فى مجلس التعاون العربى مع العراق ـ على علم مسبق بخطوته المفاجئة لغزو الكويت ، أم أنها هى الأخرى فوجئت كما فوجىء غيرها ؟ »**

□

---

(٥) لقاء مع السيد « فاروق قدومى » على الغداء فى نفس اليوم فى مطعم « سويس اير » حضره السفير الفلسطينى فى القاهرة « سعيد كمال » .

وفى الوقت الذى كان فيه وزراء الخارجية العرب فى القاهرة ـ كان الرئيس « حسنى مبارك » فى استراحة « برج العرب » يقرأ تقدير موقف أعده مكتبه بالاشتراك مع وزارة الخارجية ، والمخابرات العامة . وكانت أهم النقاط فى هذا التقدير :

● إن الغزو العراقى للكويت كان ينبغى توقعه بحكم الأوضاع الإقليمية والدولية ، ورغبة العراق فى أن يؤكد نفسه كقوة إقليمية بعد انتصاره فى حربه مع إيران .

● إن هذه النية لابد أن تكون قديمة لدى العراق ، وقد تكون أحد دوافعه إلى الاشتراك فى مجلس التعاون العربى الذى يضم العراق والأردن واليمن مع مصر . فهذا المجلس كان هدفه عزل سوريا وتحييد مصر .

● إن الغزو ضربة للمصالح المصرية على أكثر من مستوى ، ذلك أنه يفرض على مصر أن تختار بين مجلس التعاون العربى ، وبين دول الخليج الغنية والقادرة على مساعدة مصر . ثم إن هذا الغزو يظهر مصر بمظهر الدولة التى تلاعب بها الآخرون .

● إن التدخل الأجنبى محتمل ، بل إنه أرجح الاحتمالات بسبب مصالح أمريكا البترولية والاستراتيجية ، وهى مصالح لا تسمح للولايات المتحدة بأن تترك العراق يسيطر على الكويت ، وغدا على الخليج وفيه ثلثا احتياطى العالم من البترول .

● إن العراق سوف يحاول بكل الوسائل أن يحتوى رد الفعل المصرى ، وقد يحاول استعمال صلاتها لتهدئة الولايات المتحدة ، وأيضا لتهدئة إسرائيل .

● إن القاهرة مطالبة بحصر نطاق الأزمة قدر ما تستطيع حتى بإعطاء الانسحاب العراقى الحتمى غطاء دبلوماسيا يسمح له بالخروج من الكويت دون إبطاء ، ودون إحراج إذا كان ذلك ممكنا . ويتحتم على مصر أن تجند العالم العربى كله لممارسة أقصى درجة من الضغط السياسى على بغداد ، ويمكن عمل ذلك عن طريق اجتماع وزراء الخارجية العرب .

ثم خلص التقدير إلى مجموعة توصيات عملية :

١ ـ من الأفضل الاتصال بالولايات المتحدة حتى لا تتصاعد بمظاهرتها العسكرية التى بدأت مقدماتها ، ولا بد لتدخلها فى الأزمة أن يجىء خطوة بعد خطوة ، وإلا أعطت للعراق فرصة لتعبئة الرأى العام العربى .

٢ ـ لا بد من رسالة واضحة لإسرائيل بألا تتدخل فى الأزمة لأن تدخلها يعقد الأمور ولا يساعد على حلها .(٦)

---

(٦) من المثير للاستفزاز أن إذاعة إسرائيل فى ذلك اليوم راحت تندد بالغزو العراقى ، للكويت الشقيقة ، وكانت تلك على الأرجح محاولة للصيد فى مياه عكرة .

٣ ـ **من المستحسن التأكد مبكرا من أن إيران ليست داخلة فى العملية سواء من زاوية الضغط لرفع الأسعار ، أو تقسيم مناطق النفوذ فى الخليج بين البلدين .**

٤ ـ **إنه يتحتم بذل كل جهد لإبقاء العقيد « معمر القذافى » بعيدا عن العراق بأى ثمن .»**

كان التقدير بعيد النظر إلى حد كبير ، ومنطقيا ومعقولا .

□

وكان وزراء الخارجية العرب مازالوا يدورون حول أنفسهم ، ذلك أن وزير الخارجية العراقى لم يكن مشاركا فى اجتماعات وزراء الخارجية ، وإنما كان يمثله أحد وكلاء الوزارة ، ومعه سفير العراق فى القاهرة السفير « نبيل نجم التكريتى » .

ومنذ البداية كان الإلحاح شديدا على ممثلى العراق ليقولوا شيئا ، ولكن عذرهم كان صريحا ، وهو أنه « لم تصلهم تعليمات بغداد ، وهم غير مخولين لحضور مؤتمر وزراء الخارجية العرب من الأساس ، ولقد حضروه بدافع الأخوة . لقد جاءوا بتعليمات محددة لاجتماع وزراء خارجية الدول الإسلامية ـ وأما اجتماع طارىء لوزراء خارجية الدول العربية فهو أمر مفاجىء لهم ، وقد طلبوا تعليمات بشأنه من بغداد ولم يتلقوها بعد ، وهم فى انتظارها أى لحظة . »

وقرابة الساعة الواحدة ظهرا دُعىَ سفير العراق إلى التليفون ، فغادر قاعة الاجتماع ، ثم عاد إليها بعد قليل يقول إن بغداد سوف ترسل وفدا على مستوى عال ليشرح وجهة نظر العراق فيما جرى أمام وزراء الخارجية العرب ، وأنه من المنتظر أن يصل هذا الوفد فى موعد يسمح له بالاشتراك فى جلسة مسائية .

وفى الساعة الثانية بعد الظهر تأجل الاجتماع إلى الساعة السادسة مساء . ثم عرف بعد ذلك أن الوفد العراقى القادم سوف يكون برئاسة الدكتور « سعدون حمادى » نائب رئيس الوزراء للشئون الخارجية ، وأن موعد وصول طائرته هو الساعة السابعة مساء ، وسوف يتوجه من المطار رأسا إلى فندق « سميراميس » وينضم إلى الاجتماع هناك .

ثم ترامت إلى أسماع وزراء الخارجية العرب أن هناك اتصالات بين الملوك والرؤساء العرب .



فى ذلك الوقت كان العمل قد بدأ في واشنطن ، وبالنسبة لها (من ناحية التوقيت) فقد كان يوم ٢ أغسطس هو اليوم الثانى للأزمة ، فى حين أنه كان اليوم الأول بتوقيت شرق البحر الأبيض والخليج .

واستيقظ الرئيس « بوش » مبكرا وبدأ باجراء اتصالات تليفونية تمت كلها قبل الساعة السابعة صباحا بتوقيت واشنطن (الثانية بعد الظهر بتوقيت القاهرة) .

وكانت اتصالات الرئيس « بوش » مع عدد من أصدقائه سألوا عنه فى المساء السابق ، ولم يستطع أن يتحدث معهم بسبب انشغاله مع مستشاريه .

وكان بين السائلين عدد من الأصدقاء من عالم الأعمال ، وبينهم رؤساء مجالس إدارات اثنتين على الأقل من شركات البترول ، وواحد من رؤساء مجالس إدارات البنوك ـ وكلهم وغيرهم من زملائهم فاجأهم الغزو ، وانقض على مصالح لهم طائلة فى الشرق الأوسط .

[وكل رئيس أمريكى ـ سواء فى ذلك « بوش » أو من سبقوه إلى البيت الأبيض ـ يعرف عمق التداخل بين السياسة والاقتصاد ، وهو أمر طبيعى فى العالم كله ، لكنه فى الولايات المتحدة يتخذ شكلا آخر هو العلاقة بين السياسة والمال ، وهما مثل « اللبن والقهوة » يمتزجان معا فى مشروب واحد تعرفه السياسة الأمريكية (على حد وصف مأثور عن الرئيس الأمريكى السابق « دوايت ايزنهاور ») .

والعلاقة بين السياسة والمال فى الولايات المتحدة ظاهرة مستفحلة . فالمال عصب الانتخابات من مقاعد مجالس الولايات حتى المقعد الأرفع فى البيت الأبيض . ثم إن المال هو الذى يكافىء كل سياسى أمريكى من أجر المحاضرات إلى تبرعات بناء المكتبات التى يخلد بها كل رئيس أمريكى اسمه .

ثم إن كل مسئول فى وظيفة حكومية كبيرة فى الولايات المتحدة يطمح بعد ترك الخدمة إلى وظيفة فى شركة من الشركات ، وبالتالى فإن مسئولى الحكومة يحتفظون دائما بعلاقات وثيقة مع الشركات ، كما أن الشركات تعرف أن الحكومة هى أكبر مشتر لمنتجاتهم (شركات السلاح والطيران وصناعات الفضاء) ، أو أنها أكبر راسم للسياسات المؤدية إلى الخسائر أو إلى الأرباح (البترول ، البنوك ، الاستثمار الخارجى ، إلى آخره) .]

وفى الساعة السابعة والنصف كان الرئيس الأمريكى « جورج بوش » فى طريقه إلى مكتبه البيضاوى ، وكان مستشاره لشئون الأمن القومى « برنت سكوكروفت » قد أعد له تقريرا بملخص ما تجمع لدى مكتبه من معلومات وردت إليه من كل أجهزة الإدارة الأمريكية ، سواء فى ذلك الأجهزة العلنية أو السرية .

ثم انتقل « بوش » ومعه « سكوكروفت » إلى غرفة العمليات الخاصة ، وهى غرفة مزودة بكل وسائل الأمان ضد الاختراق أو التصنت ، وكان فى انتظاره هناك وزير الدفاع « ريتشارد تشينى » ، ووزير الطاقة « جيمس واتكنز » ، ومساعد وزير الخرجية « روبرت كيميت » ، ورئيس الأركان الجنرال « كولين باول » ، وقائد القوات المركزية الجنرال « نورمان شوارتزكوبف » ، ووزير الخزانة « ريتشارد دارمان » ، ومدير وكالة المخابرات المركزية « ويليام وبستر » .

□

كان أول ما فعله « بوش » بعد أن اتخذ مقعده هو تحديد موقفه ، وقد بلوره فى ثلاث نقاط :

١ ـ لا يمكن قبول ما حدث ، وليس هناك فيه شىء قابل للتفاوض أو لحل وسط .

٢ ـ لا بد من تعبئة الرأى العام الأمريكى والعالمى فى صف الولايات المتحدة .

٣ ـ إن الولايات المتحدة هى المسئولة عن « العمل » ، وبالتالى فإن ما هو مطروح للبحث الآن هو خطط العمل .

وتلاه « جيمس واتكنز » وزير الطاقة الذى لخص كلامه فى قوله : « **إن ما حدث سوف يسبب فوضى فى أسواق البترول ـ انتاجه وإمداده وأسعاره . فضلا عن أنه لا يمكن للولايات المتحدة أن تسمح بزواج بين مليون جندى عراقى ، وثلثى انتاج البترول فى الشرق الأوسط** . »

ثم أثار وزير الخزانة « ريتشارد دارمان » ضرورة فرض حصار اقتصادى شامل يخنق العراق .

وتطلع الرئيس « بوش » ناحية العسكريين .

ونظر « كولين باول » إلى « شوارتزكوبف » الذى اعتبر أن دوره قد جاء ، وبدأ بعرض الاحتمالات المتاحة ، ولخصها فى احتمالين :

● ضربة جوية قوية موجعة ـ وكان تقديره أنه مهما بلغت قوة الضربة فإنها غير مؤثرة .

أو

● التدخل العسكرى الشامل على أوسع نطاق طبقا للخطة « ١٠٠٢ ـ ٩٠ » .

ثم وصل إلى النقطة المحورية فى عرضه ، وهى :

« أن هذه الخطة هى الخيار الحقيقى المؤثر ، ولكن شرطها الرئيسى هو وجود قاعدة لحشد القوات ـ وهذه القاعدة لا يمكن أن تكون إلا السعودية ».

وتدخل « ريتشارد دارمان » وزير الخزانة ، فعلق قائلا :

« بدون وجود قاعدة عربية نعمل منها ـ إذن فإننا نواجه « فيتنام » أخرى . »

وتفرعت المناقشات ، وكان واضحا أن الرئيس « بوش » قد استقر رأيه على الاحتمال الثانى الذى عرضه الجنرال « شوارتزكوبف » ، وهو التدخل العسكرى الشامل طبقا للخطة « ١٠٠٢ ـ ٩٠ » .

ثم خلصت المناقشات إلى ثلاث نقاط محددة رآها الجميع ضرورية :

□ **الأولى** : أنه لابد من الاتصال بالملك « فهد » لتأمين وجود القاعدة الوحيدة الممكنة لتنفيذ الخطة .

□ **والثانية** : هى أنه يستحسن المسارعة على الفور إلى إغلاق خطوط أنابيب البترول العراقى عبر تركيا وعبر السعودية .

□ **والثالثة** : هى أنه لابد من ترتيبات خاصة يتحمل بمقتضاها العرب المنتجون للبترول تكاليف الخطة العسكرية ، فميزانية الولايات المتحدة لا تحتمل عجزا فوق ما تعانيه من عجز . ثم إن المستفيد من أى عمل لا بد له أن يتحمل تكاليفه ـ وإذا كانت الولايات المتحدة على استعداد لأن تعطى الدم ، فلا أقل من أن يقدم أصحاب البترول من مالهم ما يغطى نفقات الحملة .

وكان « بوش » يستعد للذهاب بعد ظهر نفس اليوم ٢ أغسطس إلى « آسبن » فى ولاية « كولورادو » لحضور احتفال تشارك فيه « مارجريت تاتشر » رئيسة وزراء بريطانيا ، وكان تقدير الجميع أن « مارجريت تاتشر » سوف تكون متحمسة للعمل ، وسوف تكون على استعداد للمشاركة فى الخطط العسكرية المقبلة . وجرت مناقشة على الهامش حول الحدود التى يمكن فيها قبول مشاركة بريطانية .. وكان الاتجاه أن بريطانيا يجب أن تدعى للمشاركة حتى من قبل أن تطلب ، كما أنه يمكن التفكير فى دعوة آخرين .

ومما يستحق الملاحظة أن الرئيس « بوش » أُبلغ وهو فى الاجتماع أن هناك إلحاحا من الصحفيين الملحقين بالبيت الأبيض على ضرورة أن يظهر فى صورة أو يقول كلمة ، وقد زكى مستشاره الصحفى « مارلين فيتزووتر » هذا الطلب . وهكذا فإن الرئيس « بوش » رأى لمزيد من التأثير أن يجىء عدد من الصحفيين إلى غرفة الاجتماع ، ثم يقول لهم من مجلسه ما يريد . ولم ينس « بوش » أن يلفت نظر الجنرال « شوارتزكوبف » إلى تغطية

خرائطه وأوراقه قبل أن يدخل الصحفيون . وحين دخلوا كرر لهم ما سبق أن ذكره فى بيان الليلة السابقة عن إدانة الغزو ، وضرورة الانسحاب .(٧)

والذى يستحق الملاحظة أن الرئيس « بوش » سئل عن تقديره للنوايا العراقية بعد غزو الكويت ، فقال بالنص : « **معلوماتى أنه ليس هناك بلد آخر مهدد بالغزو - ورأيى فى نفس الوقت أن صدام يجب أن يخرج من الكويت** » .

ولقد قال الجنرال « باول » فيما بعد : « **إنه أحس أن الرئيس يريد أن يحتكر كل شىء فى إدارة الأزمة** » .

وكان تعليقه على ذلك - ولنفسه - كما روى هو فيما بعد : « إن ذلك حقه لأن الناس انتخبوا جورج بوش ، وليس أحدا غيره » !

□

وكان على الرئيس « جورج بوش » أن يبدأ على الفور بالنقطة الأولى فى ضرورات « العمل » وهى : الحصول على موافقة الملك « فهد » على نزول القوات الأمريكية فى المملكة العربية السعودية .

كان « بوش » يدرك أن هذه المهمة لا يمكن أن يقوم بها غيره . فلقد كان يعرف الملك « فهد » شخصيا من يوم كان مديرا لوكالة المخابرات المركزية ، و « فهد » وزيرا للداخلية - ثم إنه فهم أثناء اجتماعه مع مستشاريه أن السعودية لم ترسل موافقتها حتى الآن على قرار الأمس بإرسال طائرات « ف - ١٥ » - فإذا كانت السعودية لم توافق حتى الآن على استقبال ٢٤ طائرة ، فكيف يمكن إقناعها باستقبال مائة ألف جندى أمريكى على الأقل لازمين لتنفيذ الخطة « ١٠٠٢ - ٩٠ » .

وإذن فلا بد من تدخل الرئيس الأمريكى شخصيا مع ملك السعودية .

وبالفعل تم اتصال الرئيس « بوش » بالملك « فهد » .

ولخص الرئيس « بوش » تفاصيل ما سمعه من الملك « فهد » لمستشاريه ، فقال لهم ما يلى :(٨)

« **إن فهد فى حالة صدمة .**
ثم هو غاضب إلى أقصى درجة .

---

(٧) « بوب وودوارد » .

(٨) طبقا لرواية « بوب وودوارد » .

وهو يطالب بضرورة إجبار صدام حسين على الخروج من الكويت .
ولكنه مع ذلك (والرواية مازالت للرئيس « بوش ») فوجىء مفاجأة بدت غير سارة حينما طرح عليه « بوش » ضرورة السماح للقوات الأمريكية بالنزول فى السعودية ، لأن وضع المملكة الحساس يجعل شيئا من هذا النوع مستحيلا ، فالمملكة هى موطن للأماكن الإسلامية المقدسة ، ونزول قوات أجنبية فيها يثير ثائرة الدنيا ، ويعرض مركز « عائلة سعود » لخطر شديد . »

ومن الواضح ـ طبقا لهذه الرواية ـ أن الرئيس « بوش » لم يشأ أن يلح على الملك ، ومع ذلك فقد كان مصمما ، وبدأ يتصرف وكأنه رجل واتته فرصته التاريخية . ولم يعد يتحدث عن الكويت وحدها ، ولكنه بدأ يتحدث عن تسوية شاملة للأوضاع فى الشرق الأوسط ، وعن دور تتمكن فيه الولايات المتحدة من قيادة العالم ؛ وكان تحليله أمام مستشاريه :

« إن أوروبا الغربية سوف تمشى وراءنا ، فموضوع الطاقة بالنسبة لهم أخطر منه بالنسبة لنا لأن ٩٠ ٪ من بترولهم ـ عربى ،

والاتحاد السوفيتى ليس فى وضع يستطيع معه أن يتحدانا ، و« جوربى » (يقصد « جورباتشوف ») ينتظر اجتماعنا هنا-فى واشنطن بعد أسابيع قليلة ، ومجيئه إلى هنا وحصوله على مساعدات منا هو أمله الوحيد ، ولن يجازف بهذا الأمل لكى ينقذ أحدا . وعلى أى حال ، فإننا سوف نجعلهم يفهمون أن موقفهم من غزو الكويت هو الامتحان الذى يجب أن ينجحوا فيه قبل أن يجيئوا إلينا هنا .»

ولكن المسائل مازالت معلقة على موافقة الملك « فهد » . وبدأ « بوش » عملية التفاف غير مباشر .

٦

طلب الرئيس « بوش » توصيله بالملك « حسين » فى عمان .

وكان الملك « حسين » فى الطائرة فى طريقه إلى الاسكندرية ، فقد اتصل تليفونيا بالرئيس « مبارك » فى الساعة الثالثة وعشر دقائق ، وطلب أن يلتقى به فى أسرع

ما يمكن ، وقال إن طائرته جاهزة للإقلاع فورا ، والأمر يقتضى التشاور . ودعاه الرئيس « مبارك » إلى المجىء قائلا « إنه سوف يكون فى انتظاره » .

وحينما علم الرئيس « بوش » أن الملك « حسين » فى طائرته إلى الاسكندرية ، طلب توصيله بالرئيس « مبارك » وكان الرئيس « مبارك » قد توجه من برج العرب إلى الاسكندرية ليكون فى استقبال الملك « حسين » فى مطار النزهة .

وحين وصل الرئيس « مبارك » والملك « حسين » إلى قصر رأس التين ، علم كل منهما أن الرئيس « بوش » اتصل به . واتفق الاثنان على أن يتصلا سويا بالرئيس الأمريكى .

كان الرئيس « مبارك » مستفزا من كل ما حدث ، فقد بدا له غزو الكويت أمرا خطيرا تترتب عليه عواقب أكثر خطورة ـ كذلك كان هناك سبب إنسانى لشعوره بالاستفزاز ، فقد نقل إلى جميع الأطراف تأكيدات بأن الرئيس « صدام حسين » لا ينوى استخدام القوة ضد الكويت ، والآن فإن مصداقيته فى الميزان .

وجاءت مكالمة الرئيس « بوش » إلى قصر رأس التين ، وتحدث إليه الرئيس « مبارك » معبرا عن رأيه ومشاعره ، وقائلا إن وزراء الخارجية العرب مجتمعون لإيجاد مخرج ، وهو رغم مشاعره المستفزة يحاول منذ الصباح ، وقد تحدث أكثر من مرة إلى الملك « فهد » ، وأنه يفكر فى عقد قمة مصغرة يمكن من خلالها إعطاء « صدام » فرصة يخرج فيها من الكويت .

وأبدى الرئيس « بوش » ملاحظة معناها أنه يعتقد أن وقت مثل هذه القمم قد فات لأن « صدام » تجاوز نقطة اللا عودة . ثم طلب الرئيس « بوش » أن يتحدث إلى الملك « حسين » .

وطبقا لرواية الملك « حسين »[٩] فإن الرئيس « بوش » قال له « إن غزو الكويت عمل من أعمال العدوان لا يمكن أن تقبله الولايات المتحدة ، وأنه أصدر أمس بيانا بالموقف الرسمى للولايات المتحدة ». وقال الملك « إنه اطلع عليه » . واستطرد « بوش » بأنه « ثابت فى موقفه » . ثم أضاف الرئيس الأمريكى : « إن صدام يتحدى الولايات المتحدة ، وأنه (« بوش ») قرر قبول التحدى . »

ثم واصل الرئيس بوش كلامه للملك « حسين » فقال :

---

(٩) لقاء لمدة ست ساعات مع الملك « حسين » فى عمان يوم ٢٨ ابريل ١٩٩١ .

« إن الغزو العراقى تهديد مباشر لأمن الولايات المتحدة ومصالحها ، وأن الكونجرس والرأى العام ووسائل الإعلام الأمريكى - كلها تطالبه بالتصرف بالفعل العسكرى ، وليس بقرارات الإدانة .

وإنه فى دهشة من موقف العالم العربى . فهو لم يسمع حتى الآن إدانات صريحة ضد العدوان العراقى . وقد فهم أن وزراء الخارجية العرب مازالوا يتكلمون . »

ثم قال الرئيس « بوش » : إن أكثر ما أدهشه هو موقف الملك « فهد » الذى كان على اتصال معه قبل قليل . **ولقد كان يتوقع أن يبادر « فهد » إلى طلب مساعدة الولايات المتحدة « لكننا لم نتسلم مثل هذا الطلب حتى الآن . تسلمنا طلبا من الكويت بعد الغزو بنصف ساعة ، ولم نتسلم شيئا من السعودية » .** »

ثم قال الرئيس « بوش » للملك « حسين » :

« إننى قلت لفهد إن الولايات المتحدة قادرة على حماية مصالحها وبوسائلها ، ولكن إذا لم يتحرك الآخرون لحماية مصالحهم ، فلن يكون هذا ذنب الولايات المتحدة ، ومن ناحيتها فإن الولايات المتحدة لن تعود مهتمة بما يجرى لهم . وإذا لم يكن الناس قادرين على أن يقفوا ضد عدوان مسلح موجه إليهم ، فلماذا يتوقعون ذلك من الآخرين ؟ عليهم فى هذه الحالة أن يلوموا أنفسهم فقط . »

ثم قال « بوش » للملك :

« إن الولايات المتحدة سوف تتصرف وحدها ، ولن تنسق مع غيرها إذا لم يكن هذا الغير مستعدا للتنسيق » .

كان الرئيس « بوش » حادا فى لهجته ، وكانت الحدة تزداد مع اتصال الكلام ، وحاول الملك « حسين » أن يهدىء المشاعر قدر ما يستطيع راجيا الرئيس « بوش » أن يعطى « فرصة معقولة لحل الأزمة فى إطار عربى يناقشه الآن مع الأخ الرئيس مبارك » .

ولم يكن « بوش » مقتنعا ، وقال له الملك « حسين » :

« ألا تريد أن تعطينا فرصة ساعات ، فقد نستطيع خلالها عمل شىء ؟»

وكان « بوش » ما زال مصرا على أنه لا فائدة - وقال له الملك « حسين » :

« اعطنى ٤٨ ساعة ... » .

ثم كررها الملك :

« ٤٨ ساعة لا أكثر .. أرجوك يا سيادة الرئيس .»

☐

واستأنف الرئيس والملك مناقشتهما .

وقال الملك « حسين » إنه فهم من الملك « فهد » أنه نجح أخيرا فى الاتصال بالرئيس « صدام حسين » فى بغداد ، وأنه عندما أراد أن يستوضحه فيما جرى قال له إنه لا يستطيع أن يناقش كل شىء فى التليفون ، وهو يقترح أن يبعث للملك رسولا موثوقا يحكى له كل شىء . « وكان الملك فهد عندما اتصلت به آخر مرة فى انتظار الرسول العراقى » .

ثم خطر للملك « حسين » أن يسأل الرئيس « مبارك » : « **ألم يتصل بصدام حسين ، أو يتصل به صدام ؟** »

وقال الرئيس « مبارك » : « إنه لم يتصل بأحد ، ولا يريد أن يتصل بأحد فى بغداد لأنهم سوف يكذبون علينا مرة أخرى » . » ثم أضاف « إنه لا يعرف ماذا يقول للناس فى العالم . فهؤلاء الناس إما أن يتصوروا أنه (أى الرئيس « مبارك ») خدعهم لحساب « صدام حسين » ، أو أنه هو نفسه كان ضحية خداع (من « صدام حسين ») - وإن كلا الأمرين سيىء . »

وقال الملك « حسين » إنه فى اتصاله مع الرئيس « صدام حسين » ومع إحساسه بأن الرئيس العراقى لا يريد أن يشرح شيئا فى التليفون - اقترح عليه أن يتوجه بنفسه إلى بغداد يتحدث إليه ويسمع منه . وهو ينوى أن يذهب إلى هناك خلال ساعات .

ثم قال الملك إنه يقترح أن يطلب الاثنان معا الرئيس « صدام حسين » فى بغداد حتى إذا ذهب الملك بعد ذلك إلى العاصمة العراقية كانت مهمته ميسرة ، لأنه فى هذه الحالة يستطيع أن يعبر عن وجهة نظر الرئيس « مبارك » وعن وجهة نظره الشخصية .

وكان الرئيس « مبارك » قد بلور فكرته عن اجتماع قمة مصغر فى جدة ، وقام بشرحها للملك « حسين » الذى أبدى حماسته لها .

وإلى هذا الحد تتفق الروايات عن اجتماع رأس التين بعد ظهر يوم الخميس ٢ أغسطس ١٩٩٠ .

فالرئيس « مبارك » يقول (١٠) « إنه اقترح عقد مؤتمر قمة عربى مصغر فى

---

(١٠) مذكرة أعدتها رئاسة الجمهورية فى مصر تحت عنوان « بيان بالاتصالات التى تمت بين السيد الرئيس ، والرئيس صدام حسين فى الفترة التى أعقبت الغزو العراقى للكويت يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠ » .

جدة فى غضون أيام قليلة ، وذلك لعمل سيناريو يخرج العراق من المأزق الذى وقع فيه مع حفظ ماء وجهه على أساس نقطتين يصرح بهما الرئيس « صدام حسين » للرئيس « مبارك » دون إعلان ، وهما : انسحاب العراق من الكويت ، وعودة الشرعية إليها ».

ويقول الملك « حسين » : « إن الرئيس « مبارك » اقترح بالفعل عقد مؤتمر قمة مصغر فى جدة ، ولكنه لم يضع شروطا مسبقة لعقد الاجتماع ، وإن كان قد أشار بالفعل إلى ضرورة انسحاب العراق من الكويت وعودة الشرعية .

كان المهم أن يوافق « صدام حسين » على فكرة الاجتماع ، فإذا توصلنا إلى حضور أمير الكويت ومشاركته فى القمة المصغرة - إذن فهذا نصف الطريق إلى الحل .»

ويضيف الملك « حسين » : « لم أكن ذاهبا إلى بغداد كمجرد رسول . وإذا كانت المسألة رسائل ، فغيرى يمكن أن يحملها .

وأما عن أنه كانت هناك شروط ، فأنا لم أفهم ذلك ، وإنما فهمت أن هذه أهداف تتحقق بالقمة ومن خلالها . وإذا كان « صدام حسين » سوف يقبل هذه الشروط ، فما هو الداعى إذن للقمة أصلا ؟ »

ثم تتفق الروايات بعد ذلك ، وتختلف أيضا :

يقول الرئيس « مبارك » : « أثناء الاجتماع مع الملك حسين تم الاتصال بالرئيس صدام حسين فى بغداد ، وكانت الساعة السادسة والنصف مساء ، وقلت له إننى اتفقت مع الملك حسين على عقد قمة مصغرة على أساس نقطتين يشرحهما لك الملك عند زيارته لبغداد . »

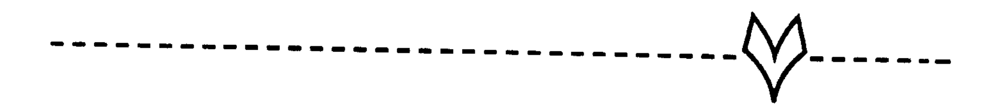
ويقول الملك « حسين » إنه تابع حديث الرئيس « مبارك » مع الرئيس « صدام » ولم يفهم أن هاتين النقطتين أساس أو شرط لانعقاد القمة المصغرة .

ثم تتفق الروايات بعد ذلك على [11] « أن الرئيس مبارك بعد حديثه مع الملك قال له إنه سيصدر بيانا هادئا يعبر فيه عن موقف مصر ، ويطالب بانسحاب العراق من الكويت ، وعودة الشرعية إليها ، وأن الملك أبدى انزعاجه من ذلك وطلب تأجيل البيان حتى لا يكون السبب فى نسف جهوده فى بغداد ، ثم طلب تأخير صدور أى بيان مماثل

---

(١١) المذكرة التى أعدتها رئاسة الجمهورية فى مصر تحت عنوان « بيان بالاتصالات التى تمت بين السيد الرئيس ، والرئيس صدام حسين فى الفترة التى أعقبت الغزو العراقى للكويت يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠ » .

من الجامعة العربية التى كان وزراء خارجيتها مجتمعون فى القاهرة فى نفس اليوم . فقام الرئيس « مبارك » بإجراء الاتصالات مع عدد من وزراء الخارجية العرب الموجودين فى اجتماعهم بالقاهرة ، وطلب منهم الرئيس فى حضور الملك تأجيل بيانهم حتى الساعة السادسة من مساء ٣ أغسطس ، حتى تتاح للملك « حسين » فرصة كافية . »



كان مجلس الأمن خلال ذلك قد دُعِىَ إلى الاجتماع ، وفوجىء العالم بمشهد لم يسبق له مثيل ، فقد استطاع الوفد الأمريكى أن يسيطر على الموقف تماما فى الأمم المتحدة وأن يحرك الجميع ـ بما فيهم الاتحاد السوفيتى ـ إلى إصدار القرار رقم ٦٦٠ ونصه :

« إن مجلس الأمن وقد استثاره قيام القوات العراقية بغزو الكويت ...

يقرر أن هذا الغزو يمثل تهديدا للسلام والأمن .

ويتصرف بمقتضى المواد ٣٩ و ٤٠ من ميثاق الأمم المتحدة .

ويدين غزو العراق للكويت .

ويطلب من العراق انسحابا فوريا وغير مشروط لقواته فى الكويت ، مما يعيد الموقف إلى ما كان عليه يوم ١ أغسطس .

ويناشد كلا من العراق والكويت أن يبدآ على الفور فى مفاوضات تستهدف حل الخلافات بينهما ، وهو يؤيد كل المساعى والجهود المبذولة لتحقيق هذا الهدف ، وخصوصا جهود جامعة الدول العربية .

ويقرر أن يجتمع مرة أخرى ليتأكد من التزام جميع الأطراف بهذا القرار .»

□

وكانت المناقشات فى اجتماع وزراء الخارجية العرب فى فندق « سميراميس » بالقاهرة مازالت تدور حول نفسها ، ذلك أن الاجتماع عاد إلى الانعقاد فى موعده المقرر ، ثم وصل إليه الوفد العراقى القادم من بغداد برئاسة الدكتور « سعدون حمادى » ، ولكن هذا

الوفد لم يكن يحمل شيئا جديدا ، فقد وقف الدكتور « سعدون حمادى » يتحدث عن حقوق العراق فى الكويت ، وعن مسار الأزمة فى العلاقات بين البلدين حول أسعار البترول وخطوط الحدود والديون المستحقة على العراق .

وفى نفس الوقت كان السيد « عزة ابراهيم » قد وصل إلى جدة ، فقد كان هو بنفسه مبعوث الرئيس « صدام حسين » إلى الملك « فهد » حسب ما اتفق عليه الملك والرئيس في الصباح . ولم يكن لدى نائب رئيس مجلس قيادة الثورة الذى ذهب لمقابلة ملك السعودية أكثر مما كان لدى نائب رئيس الوزراء العراقى للشئون الخارجية الذى ذهب إلى اجتماع وزراء الخارجية العرب .

وكان الملك « فهد » مندهشا ، وقد سأل زائره : « هل هذا كل ما تريد أن تقوله لى ؟ » ـ وقال السيد « عزة ابراهيم » : « يا جلالة الملك هذا جزء من العراق عاد إليه » .

ورد الملك « فهد » : « وإذا كان الأمر كذلك ، ففيم كنا نتحدث خلال الشهور الأخيرة كلها ؟ إنكم تعاملتم مع الكويت ابتداء من سنة ١٩٦٣ كدولة مستقلة ، وكان أميرها عندكم فى بغداد كرئيس دولة مستقلة . »

□

كان الملك « فهد » فى حالة من الحيرة شديدة ومركبة .

كان حائرا قبل أن يصله المبعوث العراقى الخاص . وبعد أن جاءه المبعوث العراقى الخاص اشتدت حيرته أكثر .

وكان سفيره فى واشنطن الأمير « بندر » قد سمع بنبأ الغزو عند منتصف الليل فى لندن . وركب طائرته على الفور قاصدا إلى واشنطن . وفور وصوله اتصل بالملك « فهد » تليفونيا يسأل عن التعليمات ، **وقال له الملك : « إن الجماعة عندك لا بد لهم أن يكونوا حازمين » !**

ورد الأمير « بندر » بأنه « لم ير أحدا من المسئولين الكبار بعد ، ولكنه من كل ما سمع ورأى يشعر أن الأمريكان ثائرين ، وأنه قصد أن يتصل بالملك قبل أن يقابل أحدا حتى يكون على بينة ».

ولم يكن لدى الملك جواب صريح ، وقد اكتفى بأن قال لسفيره وابن شقيقه فى واشنطن « إنه ينتظر ما يسفر عنه اجتماع وزراء الخارجية العرب فى القاهرة ، وبعدها سوف تكون الصورة أوضح » .

وتلقى الملك « فهد » بعد ذلك مكالمة تليفونية من أمير الكويت الشيخ « جابر الصباح » الذى وصل إلى « حفر الباطن » بعد أن دخل من نقطة « الخافجى » عند منتصف الليل ، وكان فى حالة ثورة عارمة يصف فيها العراقيين بـ « الكفار » .

وكان رأى الشيخ « جابر » أنه « لا بد من طرد العراقيين اليوم من الكويت لأنهم إذا باتوا فيها ليلتهم فلن يخرجوا منها » .

وحاول « الملك » قصارى جهده لتهدئة ثورة الشيخ « جابر » ثم طلب إلى الأمير « عبد الله » ولى العهد والنائب الأول لرئيس الوزراء أن يرسل طائرة خاصة إلى الشيخ « جابر » فى « حفر الباطن » حتى يجىء إلى جدة للقائه وطمأنته .

ثم اتصل الأمير « بندر » بعد ذلك بالملك « فهد » يقول « إنه سمع من مصدر فى البيت الأبيض بأن قوة مدرعة عراقية تتقدم تجاه المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية . وسمع أيضا أن الكويت تقدمت بطلب رسمى للمساعدة من الولايات المتحدة » . وكان « بندر » يسأل إذا كان فى نية المملكة أن تتقدم بطلب مشابه لطلب الكويت . وقال الأمير « بندر » إنه يعرف « أن اجتماعا لمجلس الأمن القومى سوف يعقد برئاسة « بوش » وأنهم سوف يضعون له اقتراحاتهم بالخيارات المحتملة للعمل ، والراجح فى تقديره (الأمير « بندر ») أنهم سوف يتصلون به ، وهو يريد أن يكون مستعدا » .

وطلب إليه الملك أن ينتظر « لنرى كيف تسير الأمور » .

وكان الأمير « سعود الفيصل » وزير الخارجية على اتصال بالملك منذ الصباح الباكر . فقد سأل أولا عندما تقرر انعقاد مؤتمر طارىء لوزراء الخارجية العرب عن التعليمات التى يتصرف بمقتضاها ، ولكن الملك سأل بدل أن يجيب . سأل الملك عن « الأحوال لدى الإخوان » ؟ وقال الأمير « سعود » إن « الكل فى حالة ذهول » . وعقب الملك بقوله « خير إن شاء الله » . وبشكل ما فإن الملك فيما يبدو كان يريد أن يطمئن إلى أن العمل العراقى لم يجر بالتشاور مع مصر والأردن ، ولا بمعرفتهما كشركاء للعراق فى مجلس التعاون العربى .

ثم عاد الأمير « سعود الفيصل » فاتصل بالملك بعد انتهاء اجتماع وزراء الخارجية الصباحى ، وكانت تعليمات الملك « أن ينسق الأمير سعود مع كل الإخوان الذين لا بد لهم أن يعرفوا أن الموقف خطير ، **وأن التنسيق يجب أن يكون كاملا مع المصريين والسوريين »**.

ثم قال الملك : « **إن الكل يجب أن يعرف أن الموقف خطير ، وأبواب جهنم يمكن أن تنفتح »**.

ثم أضاف : « **إن الأرض مليئة بالأشواك ، وعلينا أن نكون على حذر** » .

ثم جرى اتصال بين الأمير « تركى بن فيصل » رئيس المخابرات السعودية ، وبين الأمير « بندر بن سلطان » فى واشنطن . وكرر الأمير « بندر » للأمير « تركى » ما سبق أن قاله للملك عن المعلومات التى تشير إلى تقدم قوات عراقية فى المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية ، وكان رأيه :

« **إن الذى يفطر بالكويت ، لا بد له أن يتغدى بشىء آخر** » !

وكانت لدى الأمير « تركى » نقطة يريد أن يثبت منها ، فقد سأل الأمير « بندر » عما إذا كان سمع عن تنسيق بين العراق وإيران ، « **فهو يظن أنه من الصعب على العراق أن يدخل بكل هذه القوات إلى الكويت ، ويكشف نفسه على الجبهة الطويلة مع إيران إلا إذا كان هناك تفاهم على شىء** » .

ويبدو أن الأمير « تركى » كانت لديه مخاوف من أن تنتهز إيران الفرصة وتنزل فى البحرين .



كان العالم العربى يتخبط . وكان الرئيس « بوش » يزداد ثقة بنفسه وبمقاديره ساعة بعد ساعة .

وقد ذهب إلى ولاية « كولورادو » ليحضر الجلسة الختامية للمؤتمر السنوى لمجموعة « آسبن » وكانت « مارجريت تاتشر » فى انتظاره ، وقضى ساعتين فى حديث معها حضره كبار مستشاريهما .

ويبدو أن الاجتماع بين « بوش » و « تاتشر » شهد تلاقيا فى وجهات نظرهما من أول لحظة(١٢) ، وإن كانت « مارجريت تاتشر » قد قالت بعد ذلك لمجلس وزرائها « إنها

---

(١٢) هناك دائما مقولة أن هناك علاقات خاصة تربط ما بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، وكانت هناك اجتهادات كثيرة فى تأويل أسباب هذه العلاقة الخاصة بين « الأنجلو ـ ساكسونيين » ـ كما كان الجنرال « ديجول » يسميهم . وكان « تشرشل » يجد أسباب هذه العلاقة الخاصة فى اللغة ، وذلك صحيح إلى حد كبير . على أن واقع الأشياء يظهر أن سبب العلاقة الخاصة فى الحقب الأخيرة يرجع بالدرجة الأولى إلى شركة بين الاثنين فى بترول العالم العربى وفوائضه .

قوت من عزيمة «جورج » ، فقد خافت أن تصطك ركبه من الفزع من جراء نصائح بعض الخبراء الأمريكيين الذين يلحون عليه بضبط النفس » .

وتجلت ثقة « بوش » بنفسه وبمقاديره فى تصريح أدلى به للصحفيين ، وأمام عدسات التليفزيون :

« إننى مازلت أمام كل الخيارات ، لم أعتمد شيئا ولم أستبعد شيئا » .

وعاد « جورج بوش » إلى واشنطن فى نفس الليلة . وفى الصباح الباكر من يوم ٣ أغسطس كان على موعد لاجتماع خاص لمجلس الأمن القومى ، وكان « ريتشارد تشينى » وزير الدفاع الذى لم يرافقه إلى « كولورادو » ـ قد بقى فى واشنطن يعد للاجتماع الحاسم .

ويدأ الاجتماع فى الساعة السابعة صباحا بتوقيت واشنطن ، وافتتحه « بوش » بقوله :

« عندما نتفق على حجم مصالحنا الحيوية فى المنطقة ، فإننا يجب أن نتوصل على الفور إلى أن الغزو العراقى للكويت غير مقبول . وإذا كان ذلك قرارنا فالنقطة التالية هى ماذا يجب أن نفعل ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ »

وكان الدور على « ريتشارد تشينى » وزير الدفاع المكلف بالإعداد لاجتماع مجلس الأمن القومى ، وقال « تشينى » :

« إن الهدف هو وضع الخطة رقم ١٠٠٢ ـ ٩٠ للتنفيذ .

ويمكن تقسيم الخطة إلى ٣ مراحل :

● **مرحلة أولى** : تستهدف ردع القوات العراقية عن أى تفكير فى غزو السعودية ، وهذا الجزء من الخطة يستغرق شهرا ، ويقتضى إرسال فرقة مدرعة ومجموعة حاملات طائرات مزودة بصواريخ « توماهوك » (« كروز ») ، وعشرة أسراب جوية من المقاتلات والقاذفات (حوالى ١٨٠ ـ ٢٠٠ طائرة) .

● **ومرحلة ثانية** : تستطيع تحرير الكويت كهدف محدود ، وهذه تستغرق فترة ما بين ٣ ـ ٤ شهور ، وبها تكون فى السعودية قوات تعدادها مائة ألف جندى غير الطيران والأسطول .

● **ومرحلة ثالثة** : تستطيع ضرب العراق كهدف مفتوح ، وهذه تستغرق فترة ما بين ٦ إلى ٨ شهور ، وبها تكون القوات فى السعودية قد وصلت إلى ٢٠٠ ألف جندى غير الطيران والأسطول ، إضافة إلى ما يمكن أن تساهم به فى الحرب دول حليفة وصديقة . »

ودارت مناقشة حول طبيعة العمليات تولاها الجنرال « نورمان شوارتزكوبف » الذى تحددت مسئوليته عن تنفيذ الخطة .

ثم جاء الدور على إدارة المخابرات المركزية ، وقال مديرها :« **إنه لا يتدخل فى توقيتات التخطيط العسكرى ، ولكن وكالته تطلب تفويضا مفتوحا بالعمل فى العراق سواء لإسقاط النظام ، أو لاغتيال الرئيس صدام حسين » . وقال إن هناك جماعات معارضة عراقية كثيرة حاولت الاتصال بالوكالة ، ولكن الوكالة كانت على حذر حتى لا تتورط فى عمل قد يسىء إلى الأهداف السياسية .**

ووافق « بوش » على الفور على إعطاء الوكالة تفويضا مفتوحا للعمل فى العراق ، ووقع القرار مكتوبا بالفعل بعد الجلسة .(١٣)

لكن المشكلة التى ظلت معلقة فى الجانب العسكرى ، وأمام الخطة « ١٠٠٢ ـ ٩٠ » هى : موافقة المملكة العربية السعودية عليها حتى يبدأ الحشد .

وكانت تلك مازالت مسئولية الرئيس « بوش » ، حاولها فى مكالمة تليفونية فى اليوم السابق مع الملك « فهد » ، وعليه أن يحاول مرة أخرى .

وقبل أن ينتهى الاجتماع لاحظ الجنرال « كولين باول » أن قائد الأسطول السادس الأميرال « أوينز » طلب دراسات وتقديرات من البنتاجون عن إمكانية توجيه ضربات مفاجئة ومدمرة إلى العراق بواسطة صواريخ « كروز » من فوق الحاملات فى البحر الأبيض أو الخليج . وكان تعليق الجنرال « باول » أن « تنفيذ الخطة العسكرية ١٠٠٢ ـ ٩٠ يقتضى سيطرة كاملة ، كما أن الظرف لا يسمح بعمليات « تطوعية وانفرادية » على هذا النحو . »

ولم يتوقف الرئيس « بوش » أمام هذه الشكوى من رئيس أركان حربه ، وإنما تركها لوزير الدفاع يتولى تسويتها معه ، وأما هو فقد طلب إلى الجنرال « برنت سكوكروفت » مستشاره للأمن القومى أن يرتب لقاء بعد الظهر مع الأمير « بندر » .

ثم راح « بوش » يمارس دبلوماسية التليفون ، فاتصل بالرئيس التركى « تورجوت أوزال » فى أنقره ، وبالرئيس « ميتران » فى باريس ، وبالرئيس « جورباتشوف » فى موسكو ، وبالرئيس « مبارك » فى الاسكندرية .

□ □ □

كان الملك « حسين » قد راح يرتب رحلته إلى بغداد ، وهو لا يزال فى الاسكندرية

---

(١٣) « بوب وودوارد » .



لقاء الرئيس صدام حسين والملك حسين .

(وكان يشعر بشكل واضح أن مهمته تصب فى قرار مجلس الأمن ، وتلبى طلبات المجتمع الدولى إلى جانب الضرورات العربية) ، وكان يريد أن يسافر مباشرة إلى بغداد ، لكنه أخطر بأن الأجواء العراقية مقفلة إلا للطيران العسكرى العراقى وحده .

وتوجه إلى عمان ، ومن هناك اتصل ببغداد يحاول ترتيب زيارته فى اليوم التالى - الجمعة ٣ أغسطس .

وفى الساعة التاسعة صباحا اتصل به الرئيس « مبارك » يسأله لماذا تأخر فى الذهاب إلى بغداد ، وشرح له الملك سبب التأخير ، ثم قال إنه رتب مع الأخوة العراقيين أنه سيذهب بطائرته إلى مطار « هـ - ٢ » على الحدود مع العراق ، ومن هناك يستقل طائرة حربية عراقية إلى بغداد . وكان رأى الرئيس « مبارك » أنه « لا بد من الاستعجال.لأن عنصر الوقت ليس فى الصالح » . وقال الملك إنه « سيبذل قصارى جهده » .

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف كان الملك فى بغداد فعلا .

وفى بغداد وجد الملك أن معنويات الرئيس « صدام حسين » عالية ، ولكنه فى دهشة من ردة الفعل الأمريكية والعالمية ، وقد شرح عملية الكويت بأنه « حاول بكل الوسائل ولكن هؤلاء الناس رفضوا أن يفهموا الحقائق لأنهم متآمرون وكان لا بد أن نتصرف » .

ولاحظ الرئيس « صدام حسين » أن الملك لا يخفى دهشته ، فقال له « إن له عليه حق عرب ، ونفس الحق للرئيس مبارك . وفى الحقيقة فإنه لم يشأ إخطار أى منهما بالعملية مسبقا حتى لا يحرجهما أمام الغرب ، أو أمام الكويتيين ، ولذلك فضل أن يأخذ المسئولية كلها على نفسه . »

وبدأ الملك « حسين » يشرح رؤيته للأمور ، وكان ملخص رأيه « أنه وهو يعرف الغرب أكثر من غيره ، **يستطيع أن يؤكد أن الغرب سوف يتدخل عسكريا** » .

ورد الرئيس « صدام حسين » بقوله للملك « حسين » إنه « **لا ينبغى أن ندع الغرب يثير الفزع فى قلوبنا** » . وكان رأى الملك « حسين » أنها ليست مسألة فزع ، ولكنها مسألة معرفة بالغرب وخبرة بسياساته ، وراح يشرح تفصيلا يقينه بأن التدخل العسكرى الأمريكى قادم لا شك فى ذلك إذا لم ينسحب العراق من الكويت .

وكان الرئيس « صدام حسين » يسمع جيدا ، ثم قال « إننا على أى حال كنا قد اتخذنا قرارا بالانسحاب » . ثم اطلع الملك « حسين » على فحوى بيان صادر من مجلس قيادة الثورة يقول « إن القوات العراقية أدت مهمتها فى مساندة ثورة شعبية كويتية ضد حكم قارون (أسرة الصباح) ، وبذلك فإن القوات العراقية تستطيع أن تغادر الكويت تاركة الأمر فى يد حكومة كويتية وطنية تدير الأمور فى فترة انتقال » .

وعاد الملك « حسين » يناقش ورجاؤه بالانسحاب يزداد إلحاحا .

وبشكل ما فإن الملك - طبقا لروايته - بدأ يشعر أن رسالته تصل تدريجيا إلى الرئيس « صدام حسين » .

وأبدى الرئيس « صدام حسين » ما حسبه الملك استعداداً للانسحاب ، **وسأله « متى**

تعتقد أن قواتكم سوف تنسحب من الكويت ؟ » وقال الرئيس « صدام » : « سريعا ! » وألح الملك ، وقال الرئيس صدام : « فى أسابيع قليلة » . ورد الملك « حسين » بنبرة مشحونة بالأسى وقال : « ليست لدينا أسابيع ، ولا حتى أيام .. أمامنا ساعات فقط » .

وكانت رسالة الملك ـ كما أحس ـ تصل أكثر وأكثر إلى الرئيس « صدام » الذى قال له : « إننا سوف نعقد اجتماعا لمجلس قيادة الثورة ونعرض عليه آراءكم » .

وكان الرئيس « صدام حسين » قد وافق على فكرة القمة ، وإن تحفظ بقوله « إنه قد لا يتمكن من حضورها بسبب مشاغله » ، ثم أبدى ملاحظة مؤداها أنه لا داعى لحضور أمير الكويت .

وقدر الملك « حسين » أن الرئيس « صدام حسين » يريد أن يتفادى مواقف انسانية صعبة حين يكون عليه أن يقابل الملك « فهد » والشيخ « جابر » والرئيس « مبارك » .

وطبقا لرواية الملك فإنه عاد بالطائرة العراقية التى ذهب بها من مطار « هـ ـ ٢ » إلى بغداد ، ثم استقل طائرته . وبينما هو فى الطائرة وصلته إشارة من الرئيس « صدام حسين » تقول له « إن مجلس قيادة الثورة وافق على وجهة نظرك فى اجتماع عقد على عجل . سوف يحضر العراق اجتماع جدة ، وسوف يعلن انسحابه من الكويت ، لكن هناك شرطا واحدا وهو ألا يتخذ وزراء الخارجية العرب المجتمعون فى القاهرة قرارا مسيئا ، أو عنيفا ضد العراق .»

ويقول الملك إنه كان يشعر أنه فى سباق يائس مع الزمن ، فقد خشى أن تسبقه الحوادث .

كان يعرف أن الضغوط تتزايد على المجتمعين فى القاهرة . وأن اجتماع الساعة السادسة المقرر لوزراء الخارجية قد يتسرع باتخاذ قرار يفسد كل ما توصل إليه .

ويقول الملك إنه كان يحس أنه حقق نجاحا كبيرا " Break through " ، ولذلك رأى أن يبعث برسالة من الطائرة عن طريق برج المراقبة فى مطار عمان يطلب من وزير خارجيته فى القاهرة أن يرجو زملاءه انتظار اتصال يجريه بالرئيس « مبارك » وبعدها سوف تصلهم تعليمات جديدة .

وعندما وصل الملك إلى مطار عمان تلقى مفاجأة يصفها بأنها « صدمة من أقسى الصدمات فى حياته » ، فقد عرف أن مصر أصدرت بيانا منفردا بإدانة العراق فى الساعة الرابعة والنصف ، أى أنها لم تنتظر حتى اجتماع وزراء الخارجية العرب فى الساعة السادسة وتصرفت بمفردها ، ثم إنها أيضا لم تنتظر أن يبلغها بنتائج مهمته .

واتصل الملك بالرئيس « مبارك » . وهنا أيضا تختلف الروايات .

يقول الرئيس « مبارك »[١٤] إن « الملك « حسين » اتصل به فى الساعة الرابعة والنصف وأخبره أن الجانب العراقى وافق على حضور القمة المصغرة . وعندما سأله (السيد الرئيس) عما إذا كان الرئيس « صدام » قد وافق على التعهد بالانسحاب من الكويت ، وعدم التعرض لحكومتها الشرعية ، وهما الركيزتان الأساسيتان لعقد القمة المصغرة ؟ - رد الملك بأنه لم يبحث أية تفاصيل مع الرئيس « صدام » . »

وأما الملك « حسين » فيقول : « إن مهمتى كانت الترتيب لعقد القمة المصغرة ، ولم أكن موظفا يحمل رسالة ، ومع ذلك فقد كانت موافقة « صدام حسين » على الانسحاب معى ، ولكن مصر تسرعت وأصدرت البيان قبل أن تسمع منى ، والدليل على ذلك أننى ناقشت الرئيس « مبارك » فى صدور البيان المصرى قبل أن يعرف بنتائج مهمتى فى بغداد ، وكان رده علىّ بأنه « كان تحت ضغط شديد من الرأى العام[١٥] والصحافة المصرية » ، ومع ذلك فماذا كان سيحدث لو انتظر حتى يسمع منى ، وقد قصدت أن أعود من بغداد قبل موعد الاجتماع فى الساعة السادسة مساء بتوقيت القاهرة . »[١٦]

وعلى أى حال ، فإن الانقسام وقع فى العالم العربى ، فقد اختلف وزراء الخارجية العرب وظهر خلافهم فى العلن .

لم يكن هناك خلاف بين الجميع على أن الغزو العراقى للكويت غير مقبول ، ولا كان هناك خلاف حول ضرورة الانسحاب العراقى من الكويت . ولكن الخلاف وقع حول اللغة : فريق يرى أن تكون الإدانة كاملة فالمسألة مسألة مبدأ - وفريق آخر يرى أن التحوط ضرورى لأن التحركات العسكرية الأمريكية التى بدأت فعلا لا تترك لأحد مجالا يشك فى نواياها ، ولا يحق للعرب أن يعطوا للولايات المتحدة حجة فى التدخل .

---

(١٤) مذكرة رئاسة الجمهورية التى سبقت الإشارة إليها .

(١٥) كان الرأى العام فى مصر فى تلك الساعات هائجا بالفعل ، وكان هناك إلحاح بضرورة أن تظهر مصر موقفها باستنكار غزو الكويت - بطريقة واضحة .

(١٦) ظل الخلاف بين الرجلين حول ما حدث فى هذه الساعات الأربع والعشرين - حتى هذه اللحظة . وحين سمعت من الملك « حسين » ما حدث من منظوره ، قال لى الملك : « إننى شرحت لك كل شىء ، ولك أن تصدق أو لا تصدق ما تشاء » . وقلت للملك : « إننى أصدق الروايتين ، وكمواطن عربى لا أستطيع إلا أن أقول ذلك . وظنى أنه اختلاف الرؤى من اختلاف المواقع ، ومن الغريب أنكما أنت والرئيس مبارك تقابلتما ٥٢ مرة فى علاقاتكما ، وكنتما أمام الناس صديقين حميمين ، وعند أول أزمة بينكما اختلفت الطرق وتضاربت الروايات » .

فريق يتمسك بالمبدأ بصرف النظر عن أى شىء ـ وفريق يرى أن المبدأ يمارس دوره فى إطار الحقائق الواقعة .

كان ذلك شكل الانقسام الذى جرى فى العالم العربى . ولكن حقيقة الخلاف المؤدى للانقسام كانت أكثر تعقيدا .

٩

فى الساعة الثالثة من بعد ظهر نفس اليوم ٣ أغسطس كان الأمير « بندر بن سلطان » سفير السعودية يدخل مكتب مستشار الرئيس الأمريكى للأمن القومى الجنرال « برنت سكوكروفت » ـ فى البيت الأبيض .

وفور أن جلس « بندر » عاجله « سكوكروفت » بسؤال قال فيه : « إننا لم نتلق ردا من الملك « فهد » حتى الآن على طلبنا إرسال طائرات إلى السعودية . ثم إن الرئيس اتصل بالملك أمس واليوم ، ولكن الملك يتخذ موقف الصمت فيما عدا إظهار غضبه على « صدام حسين » ، وهذا لا يكفى .... » .

ورد الأمير « بندر » قائلا : « إننى بصراحة أستطيع أن أفهم موقف الملك . المشكلة أنكم تسحبون أصدقاءكم وراءكم ، ثم تتركوهم مرات فى منتصف الطريق . نحن نريد أن نضع أيدينا فى أيديكم ، وإنما ما الذى يضمن أنكم سوف تستمرون إلى النهاية ثم لا تتركوننا وحدنا أمام الأعداءِ ؟ هذا وضع جربناه معكم من قبل .» .

وراح « سكوكروفت » يؤكد لـ « بندر » إن الرئيس « بوش » عازم على المضى حتى النهاية ، وأنه لأسباب تتعلق بالبلاد وبالإدارة ، وبالرئيس شخصيا فإن « بوش » سوف يمضى فى سياسة ضرب قوة العراق ، وتصفية مركز « صدام حسين » إلى النهاية ...

وفى هذه اللحظةَ دخل الرئيس « بوش » بنفسه إلى مكتب مستشار الأمن القومى قائلا لـ « بندر » : « علمت أنك هنا فى مكتب « برن » (برنت سكوكروفت) فقلت أمرّ ، وأسمع منك وأتحدث معك . »

ولم يضيّع « بوش » وقتا فى التحيات أو المقدمات ، فاتجه إلى صميم الموضوع الملح

عليه ، وقال لـ « بندر » : « **إن الكويت لم تطلب مساعدتنا إلا قبل نصف ساعة من سقوط بلدهم فى أيدى العراقيين ، فهل تنوون أنتم أيضا أن تنتظروا إلى هذه اللحظة ؟ »**

وعاد « بندر » يكرر على « بوش » نفس ما قاله من قبل لـ « سكوكروفت » .

وفجأة اتخذت ملامح « بوش » تعبيرا جادا ، فقال لـ « بندر » : « اسمع .. إننى أعطيك كلمة شرف أننى سوف أتابع هذا الأمر إلى النهاية » .(١٧)

ثم أضاف يقول : « نحن مستعدون ـ وقد اتخذت القرارُ ، ولا رجعة فيه مهما حدث » .

ومضى « بوش » بعد ذلك خطوة فى سبيل طمأنة « بندر » ، فطلب إلى مستشاره للأمن القومى أن يتصل بوزير الدفاع ويرتب لـ « بندر » أن يطلع على الخطط .

واتصل « سكوكروفت » بـ « ريتشارد تشينى » وقال له :

« إن الرئيس يريد أن يطلع « بندر » على الخطة حتى يطمئن ... ودعه أيضا يشاهد صور الأقمار الصناعية » .

وتوجه « بندر » إلى مكتب « تشيني » فى البنتاجون على الفور وصحبه معه من البيت الأبيض « ريتشارد هاس » المختص بشئون الشرق الأوسط فى مجلس الأمن القومى ـ وكان « تشينى » قد دعا الجنرال « كولين باول » و « وولفوويتز » إلى لقائه ، ومعه « بندر » فى غرفة العمليات . وهناك عرض « باول » هيكل الخطة « ١٠٠٢ ـ ٩٠ » وعدد القوات التى ستخدم فيها : ٤ فرق ـ ٣ حاملات ـ قوة جوية تقارب ٨٠٠ طائرة . وسأل « بندر » عن عدد الأفراد الذين تضمهم هذه القوة ؟ ورد عليه « باول » : من ١٠٠ إلى ٢٠٠ ألف .

وأطلق « بندر » صفيرا من بين شفتيه ، وقال : « هذا كلام جدى » .

وعقب « باول » : « جدى جدا ... لكنه بدون قاعدة على الأرض يصبح « هزلا » ! »

□

واتصل « بندر » بـ « سكوكروفت » يقول له : « إنه قرر أن يذهب بنفسه إلى السعودية لكى ينقل صورة لما رأى وسمع ، فلا الرسائل ولا البرقيات يمكن أن تنقل ما هو كاف . وهو يعتقد أنه يمكن أن يؤدى دورا مفيدا فى هذه اللحظة فهو يشعر أن المملكة تحس بحالة عرى كامل إزاء الموقف الذى واجهته . فالأسرة والدولة فى حالة انكشاف ، وكلهم مصاب بالخوف والهلع ، وعاجز عن اتخاذ قرار .»

---

(١٧) « بوب وودوارد » .

وكان « سكوكروفت » من أنصار سفر « بندر » .

ثم قال « ريتشارد تشينى » إنه يفكر فى إرسال الجنرال « نورمان شوارتزكوبف » لكى يعطى الملك فكرة عن الخطة ، ولكى يقوم أيضا بعمليات التنسيق الضرورية .

واتصل « بندر » بالملك « فهد » يستأذنه فى القدوم إلى جدة ليشرح له بنفسه بعض الأمور الهامة . وكان رد الفعل الأول لدى الملك أن يطلب إلى « بندر » أن يظل فى واشنطن ليتابع ، ولكن « بندر » ألح قائلا « إن الإخوان هنا يريدون أن يسمعوا منا » . ورد الملك بنفاد صبر : « المهم قبل أن يسمعوا منا أن يعرفوا ويدرسوا جيدا موقفهم » .

ثم وافق الملك على أن يترك سفيره موقع عمله فى هذه اللحظات .

وسافر « بندر » ولكنه قصد أولا إلى المغرب حيث كان والده الأمير « سلطان » يقضى إجازة بعد عملية جراحية أجراها فى ركبته فى سويسرا . وفى الدار البيضاء شرح « بندر » لوالده بعض ما رأى وسمع ، ثم التقى الاثنان بالملك « الحسن » .

□

لم يكن « بندر » مبالغا حين قال إن المملكة تحس بحالة عرى ، وأن الأسرة تشعر بالانكشاف الكامل . والواقع أن الصورة فى جدة كانت تدعو للتأمل وإطالة النظر .

فالملك وأشقاؤه من الأمراء الكبار فى السن ما زالوا يذكرون عبرّ الماضى التى حاولت دائما مراعاة المظاهر والمحافظة على الشكل . فقد حرصوا دائما على أن يكون هناك غطاء معقول للحقائق التى تفرض نفسها على المملكة . والآن كان عليهم أن يواجهوا الخيار الصعب ، فالكويت راحت ، والسعودية قد تكون مهددة ، وإن كان معظمهم يستبعد أن يقدم « صدام حسين » على تدخل بالقوة . والمشكلة أنه قد لا يكون مضطرا لاستعمال القوة ، فمجرد احتلاله للكويت دون رادع سوف يجعل التعامل معه مهينا لكل القبائل والأسر الحاكمة فى شبه الجزيرة العربية .

وإذن فقد كان الأمراء الكبار فى السن يطلبون معادلة مستحيلة : عملية كبيرة لضرب « صدام حسين » دون أن يتورطوا هم فيها علانية .

وكان رَأى عدد من الأمراء الصغار فى السن مختلفا . كان رأيهم أن الظروف تغيرت ، وأن المحاذير التى كانت تحكم تصرفات الأسرة فيما مضى لم يعد لها داع . واستشهد أحدهم بأن « السادات وجد الجسارة ليذهب جهارا نهارا ومباشرة إلى القدس » ، وحكاية الحرص على المظاهر ومراعاة مشاعر الرأى العام العربى والإسلامى لم تعد

واردة . والعنصر الوحيد الذى يستحق الاهتمام هو أمن الأسرة والمملكة . ولا يمكن أن تتعايش المملكة فى شبه الجزيرة العربية مع « صدام حسين » .

وهكذا فقد كان الأمراء الصغار فى السن يرون طلب المساعدة من أمريكا ، وقبول كل ما تطلبه القيادة الأمريكية من قواعد وتسهيلات ، وليس هناك حل آخر .

وطرح أحد الأمراء الشبان ضرورة وقف خط الأنابيب الذى يحمل بترول العراق إلى ميناء « ينبع » فلا يعقل أن يستمر العراق فى تصدير البترول من الأراضى السعودية « بعد كل ما حصل » .

وتوجه عدد من الأمراء الشبان إلى مجلس الكبار يحملون آراءهم ، وكان الملك « فهد » مرهقا ، وقد رفض فكرة قطع خط الأنابيب العراقى وقال « إن الأمور كلها تحتاج إلى تفكير وتدبير هادىء » .

وكانت المناقشات الحائرة تتخبط فى الظلام بين الخيارات وبين الأجيال ، وبين المشاعر المتناقضة .

حتى وصل الأمير « سلطان » وزير دفاع المملكة ، ومعه الأمير « بندر » ابنه وسفيرها فى واشنطن - ليجد « بندر » أن الصورة فى جدة مأساوية .

الفصل الخامس

القطار الأمريكى يتحرك

« إننى سعيد للغاية ، و« مارجريت » معى هنا وهى سعيدة أيضا . »

[« جورج بوش » على التليفون لوزير دفاعه « ريتشارد تشينى » - يوم ٦ أغسطس ١٩٩٠]

١

كان الملك « حسين » محبطا بعد سوء الفهم الذى وقع بينه وبين الرئيس « مبارك » . ثم زاد شعوره بالإحباط عقب انقسام وزراء الخارجية العرب المجتمعين بالقاهرة فى أمر بيانهم عن الأزمة . وقد رأى بعد صدور هذا البيان أن يتصل بالملك « فهد » تليفونيا ويبلغه بنتائج رحلته إلى بغداد ولقائه مع الرئيس « صدام حسين » ، ثم ما جرى بينه وبين الرئيس « مبارك » فيما بعد . وبالفعل اتصل الملك « حسين » بالملك « فهد » قائلا له إن الرئيس « صدام حسين » وافق على عقد مؤتمر قمة مصغر فى جدة فى اليوم التالى (السبت ٤ أغسطس) . ولم ينتظره الملك « فهد » حتى ينهى تقريره عن مهمته ، وإنما قاطعه قائلا بنفاد صبر : « أى قمة مصغرة ؟ .. وهل بقى لدينا وقت للقمم ؟... وما هى الفائدة ؟ » واستكمل الملك « حسين » كلامه قائلا : « إن العراقيين وافقوا على الانسحاب ، وقد أبلغه الرئيس « صدام » بعد مغادرته لبغداد بساعة أن مجلس قيادة الثورة وافق على مبدأ

الانسحاب . وأنه قرأ بعد عودته لعمان تصريحا لمتحدث رسمى باسم مجلس قيادة الثورة العراقى يشير صراحة إلى نية الانسحاب . »(١) وقال الملك « فهد » إنه « لم يطلع على مثل هذا البيان ، وسوف يطلبه ليقرأه ، وعلى فرض أن هناك مثل هذا البيان ، وأنه يحوى إشارة بالفعل إلى الانسحاب ، فإنه (أى الملك « فهد ») يخشى أن تكون فى الأمر خدعة جديدة . »

وصباح اليوم التالى ٤ أغسطس كان الملك « فهد » هو الذى يتصل بالملك « حسين » ، وكان ثائر الأعصاب ، وقد قال للملك « حسين » فور أن سمع صوته : « إنك كنت تحدثنى أمس عن قبول الإخوان فى العراق لفكرة عقد مؤتمر قمة مصغر ، وعن قبولهم لمبدأ الانسحاب ، وقبل قليل أبلغنى « بندر » من واشنطن أن الأمريكان اطلعوه على صور أقمار صناعية تكشف وجود قوات عراقية تتحرك فى المنطقة المحايدة بين السعودية والكويت ، وتقترب من حدود المملكة .»

ورد الملك « حسين » بأنه « وقد رأى صدام حسين وسمع منه بالأمس ـ يستبعد مثل هذا الكلام » . ثم أضاف قائلا للملك « فهد » إنه « سوف يتصل على الفور بالرئيس صدام حسين ويسأله فى الأمر مباشرة » .

واتصل الملك حسين فعلا بالرئيس « صدام حسين » وأخبره بما سمع من الملك « فهد » . وأبدى الرئيس العراقى دهشته ، وكان أول تعليق له : « إن ذلك كلام غير معقول ، فنحن وقعنا مع السعودية معاهدة عدم اعتداء وكان ذلك بناء على اقتراح منى شخصيا للملك « فهد » » . ثم توقف الرئيس « صدام حسين » لحظة عن الحديث ثم قال للملك « حسين » : « انتظرنى لحظة .. معى هنا الآن رئيس أركان حرب الجيش العراقى وسوف أتحقق منه » . وسمع الملك « حسين » على التليفون أصداء حديث يجرى على الناحية الأخرى ، ثم عاد إليه صوت الرئيس « صدام حسين » يقول له : « أبو عبدالله .. ليست لدينا قوات عراقية على الإطلاق قرب المنطقة المحايدة أو قرب السعودية . وأقرب قوات لنا فى المنطقة بعيدة بثلاثين أو أربعين كيلومترا عن أى نقطة سعودية . وقد طلبت إلى القيادة العسكرية الآن أن تحرص على ألا تقترب قوات العراق بأى حال من المنطقة المحايدة ، وأن تظل على بعد خمسين كيلو مترا على الأقل من أقرب مركز سعودى . وتستطيع أن تنقل ذلك عنى إلى الأخ فهد وتطمئنه . »

---

(١) لا يبدو من مجمل الشواهد أن القرار الذى صدر عن مجلس قيادة الثورة بالانسحاب فى ذلك الوقت ـ ٣ أغسطس ـ كان قرارا بانسحاب كامل وغير مشروط ، والراجح أنه كان يهدف ـ على الأقل كخطوة أولى ـ لترك الأمور شكليا إلى تلك الحكومة التى تألفت فى الكويت من جماعة من صغار الضباط غير المعروفين الذين وضعهم العراق على رأس الحكم فى الكويت ، والواقع أنه لم يكن لديهم سند شرعى أو عملى من أى نوع .

وتساءل الملك « حسين » عن مواعيد الانسحاب . وقال الرئيس « صدام حسين » إن « لواء عراقيا كاملا ـ عشرة آلاف جندى ـ غادر الكويت فعلا وصور انسحابه منشورة فى الصحف العراقية صباح اليوم. وسوف نعلن جدولا بخطة الانسحاب نبلغه إلى الأمم المتحدة . »

وعاد الملك « حسين » إلى الاتصال بالملك « فهد » يبلغه بما دار بينه وبين الرئيس « صدام حسين » ، وكان الملك « فهد » يسمع وهو يبدى تخوفه من كل ما جرى ، وما يمكن أن يجرى . وقال له الملك « حسين » إنه « يخشى أن الأمور تتعقد بأكثر من قدرتنا على حلها ، وأنه يقترح أن يتوجه الآن إلى جدة لمقابلة الملك بنفسه لكى يتحدثا معا علهما يتوصلان إلى وسيلة لتدارك العواقب » . وبدا الملك « فهد » مترددا ، ثم قال للملك « حسين » إنه « مأخوذ بالكامل فى اجتماعات لا تنقطع فى جدة ، وقد يكون من الأفضل تأجيل زيارة الملك فى الوقت الراهن » . وغالب الملك « حسين » كبرياءه وقال للملك « فهد » : « الحقيقة أن لدىّ الكثير أريد أن أقوله لك وأريدك أنّ تسمعه » . ورد الملك « فهد » قائلا إنه « فى هذه الحالة سوف يطلب من الأمير « سعود الفيصل » وزير الخارجية أن يمر على عمان وهو فى طريقه من القاهرة عائدا إلى جدة . » وقال الملك « حسين » إنه « سوف يكون فى انتظار وزير الخارجية السعودى » . وبعد نصف ساعة اتصل الديوان الملكى السعودى بالديوان الملكى الأردنى يبلغه بأن الأمير « سعود الفيصل » لن يتمكن من زيارة عمان ، لأنه مرتبط باجتماع لوزراء خارجية دول الخليج الذين رأوا أن وجودهم فى القاهرة جميعا فرصة مناسبة لعقد اجتماع خاص بينهم يختلف جدول أعماله عن أعمال وزراء خارجية الدول الإسلامية ، أو وزراء خارجية الدول العربية . وبدلا من الأمير « سعود الفيصل » فإن الملك سوف يبعث بالشيخ « عبد العزيز الخويطر » وزير التعليم مبعوثا خاصا له يقابل الملك « حسين » ويسمع منه ما لديه ، وأن الشيخ « عبد العزيز الخويطر » شخص موثوق فيه تماما من الملك « فهد » ، وأن الملك « حسين » يستطيع التحدث إليه كما لو كان يتحدث مع الأمير « سعود الفيصل » .

ويروى الملك « حسين » أنه فتح قلبه فعلا للسيد « عبد العزيز الخويطر » . فقد شرح له تفاصيل ما جرى بينه وبين الرئيس « صدام حسين » . كما شرح له خطورة الموقف الذى يمكن أن تصل إليه الأمور إذا ما تركت إدارة الأزمة فى أيد غير عربية . وقال « إن هناك من يقدمون للملك « فهد » أخبارا تثير أعصابه من نوع هذا الذى نقلوه إليه عن تقدم قوات عراقية نحو الحدود السعودية » . وأضاف أنه « خطر له أن يعرض على الملك « فهد » اقتراحا بإرسال كل الجيش الأردنى إلى الحدود السعودية مع العراق ليكون هو أول من يتصدى للجيش العراقى إذا خطر لأحد أن يطلب من هذا الجيش التقدم صوب السعودية » . وتوقف الملك لحظة ثم قال إنه « تردد فى عرض هذا الاقتراح لأنه خشى أن يساء تأويله

وأن يفسره بعض الناس بأنه دليل على « نوايا هاشمية » فى المملكة العربية السعودية . » ثم أبدى الملك « حسين » تخوفه من « تصاعد أزمة الفعل ورد الفعل ، وخروج الأمور تماما من إطار السيطرة والإرادة العربية » . ثم أبدى الملك « حسين » تخوفه من نبأ نقلته إحدى وكالات الأنباء من جدة عن أن المملكة العربية السعودية تفكر فى إغلاق خط أنابيب البترول العراقى الممتد عبر السعودية إلى ميناء ينبع على شاطىء البحر الأحمر ، وقال « إن مثل ذلك الإجراء إذا حدث سوف يضيف عقدة جديدة إلى وضع محشوربالعقد ». ورد الشيخ « عبد العزيز الخويطر » بأن « هذه الأنباء إشاعات لا أساس لها من الصحة ، وأنه كان حاضرا بنفسه فى مجلس الملك « فهد » أمس وأثيرت مسألة إغلاق هذا الخط ، وتصدى الملك « فهد » لمن أثاروها من الحاضرين ، ورفض الاقتراح رفضا قاطعا . »

□ □ □

صباح يوم ٤ أغسطس كان الرئيس « جورج بوش » فى كامب دافيد ، وقد دعا كل كبار مستشاريه إلى الاجتماع به هناك ، وطلب أن يكون بينهم القادة العسكريون المكلفون بتنفيذ الخطة « ١٠٠٢ ـ ٩٠ » لأنه ـ على حد تعبيره ـ يريد أن يراهم ويسمع منهم ويتعرف عليهم وجها لوجه . وجلسوا جميعا حول مائدة الاجتماع ، وبينهم « ريتشارد تشينى » وزير الدفاع ، و « برنت سكوكروفت » مستشار الأمن القومى ، و « جيمس بيكر » وزير الخارجية (الذى كان قد قطع رحلته إلى سيبيريا ومنغوليا ، وعاد إلى واشنطن بعد أن التقى مرتين بـ « ادوارد شيفرنادزه » وزير الخارجية السوفيتى) ، و« جون سنونو » رئيس هيئة مستشارى البيت الأبيض ، و « ويليام وبستر » مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، و « مارلين فيتزووتر » المتحدث الرسمى باسم الرئيس ، و « ريتشارد هاس » مسئول الشرق الأوسط فى مجلس الأمن القومى ، وستة من القادة العسكريين يتقدمهم الجنرال « كولين باول » رئيس هيئة أركان حرب القوات الأمريكية المسلحة ، و « نورمان شوارتزكوبف » قائد القيادة المركزية المكلف بتنفيذ الخطة رقم « ١٠٠٢ ـ ٩٠ » .

وبدأ الرئيس « بوش » فعرض لتطور الأزمة بسرعة ، ثم خلص إلى أن « العمل الأمريكى » يجب أن يتحرك بأسرع ما يمكن لأنه بدأ يخشى من مظاهر تردد تقلقه فى السعودية ، فالملك « فهد » كان متخوفا من الأساس ، والملك « حسين » يقوم بتحركات سريعة تبدو له غير مفهومة ، وهو (الرئيس « بوش ») مشغول الآن بثلاثة عناصر يمكن أن تؤدى إلى مشاكل :

١ ـ « يخشى أن يؤثر الملك « حسين » على الملك « فهد » ويجعله يقبل حلولا وسطا . »

٢ ـ « ويثق أنه حتى إذا انسحب العراقيون من الكويت ، فإنهم سوف يتركونها بلدا تابعا ، وسوف تنتقل عدوى التبعية منها إلى بقية دول الخليج . »

٣ ـ « كما أنه ليس هناك ضمان بألا يعود العراقيون إلى تكرار ما فعلوه فى فرصة أخرى . وفى كل الأحوال فإن شبح التدخل سوف يظل قائما فى المستقبل ، ومعنى ذلك أن ظل العراق سوف يبقى باستمرار مخيما على منطقة الخليج . » ●

وتدخل « ويليام وبستر » عارضا آخر التقارير التى وصلته من السعودية ، وكلها تؤكد أن الملك « فهد » لا يزال موزع الفكر وغير قادر على اتخاذ قرار بطلب المساعدة الأمريكية .

وتساءل أحد الحاضرين (وكل المصادر تشير إلى أنه « جيمس بيكر ») عما « إذا كانت ضربات جوية وصاروخية مركزة وموجهة من الحاملات فى البحر الأحمر والخليج تستطيع أداء المهمة وتحطيم أهداف العراق الحيوية ، وإرغامه بالتالى على الانسحاب من الكويت بكل ما يعنيه ذلك من ضياع الهيبة والكرامة ؟ » ورد الجنرال « كولين باول » بأن « هذا الاقتراح بحث من قبل بحثا مستفيضا وتم استبعاده لأن الطيران وحده لا يستطيع أن يحقق الهزيمة الكاملة للعدو » . وأيده فى ذلك الجنرال « شوارتزكوبف » الذى قال « إن القوة الجوية تستطيع أن تلعب دورا مؤثرا فى الحرب مع العراق ، ولكنها لا تكفى وحدها لكسب الحرب » . ثم راح الجنرال « شوارتزكوبف » يعدد المزايا المتوافرة لعمل القوات الجوية فى معركة مع العراق ، وأحصى منها أربعا :

● إن الأجواء صالحة للطيران فى المنطقة والرؤية يمكن أن تكون بعيدة .

● إن العراق ليست لديه خبرة بالحرب الجوية بما فى ذلك الدفاع الجوى لأن حربه مع إيران كانت بالدرجة الأولى حربا برية ، ولم يكن للطيران فيها دور يذكر .

● إن الولايات المتحدة تملك ذخائر متطورة تعطى للحرب الجوية فرصة لم تسنح من قبل .

● إن الحرب الجوية لها ميزة كبرى فى التأثير النفسى على الجبهة الداخلية ، فحين يحقق الطيران الأمريكى سيطرة كاملة على الأجواء العراقية ـ سيكون السكان العراقيون فى قبضة تأثير نفسى مدمر .

وطلب الرئيس « بوش » إلى الجنرال « شوارتزكوبف » أن يشرح تصوره لتنفيذ عمليات الخطة « ١٠٠٢ ـ ٩٠ » ، وعرض الجنرال تصوراته ، وفرغ من عرضها فى حوالى ربع الساعة .

ثم توقفت المناقشة ، كما حدث فى اليوم السابق أمام النقطة المحورية ، وهى ضرورة نزول القوات الأمريكية فى السعودية لتكون منها قاعدة صلبة ومفتوحة للعمليات .

وعاد الرئيس « بوش » يبدى استغرابه من أن الملك « فهد » لم يرد بالموافقة بعد .

ورد « تشينى » بأنه « يعول كثيرا على جهود بندر مع الملك فهد » . ورد « بوش » بقوله « إنه فى دهشة من أن يكون فهد حتى هذه اللحظة محتاجا لمن يقنعه » . ثم استطرد الرئيس الأمريكى يقول : « إن بندر كان يقول إن المملكة وجدت نفسها عارية تماما من أى غطاء ، ونحن نوفر لهم أقوى غطاء يمكن تصوره ، ومع ذلك يترددون » .

ويبدو أن فكرة برقت بسرعة فى خاطر « جون سنونو » رئيس هيئة مستشارى البيت الأبيض ، وهو بثقافته يحمل مواريث عربية لأنه من أصل لبنانى ، وقد رفع يده وقال موجها حديثه للرئيس « بوش » : « سيادة الرئيس ، ألا يمكن أن يكون الملك فى حاجة إلى غطاء آخر يؤمن ظهره وأجنابه ؟ » وركز « بوش » نظره إلى ناحية « سنونو » وكأنه يستزيده ايضاحا ، وأكمل « سنونو » كلامه بأنه « يظن أن الملك فى حاجة إلى غطاء عربى أو إسلامى ، أو الاثنين معا » .

ودارت مناقشة حول فكرة « سنونو » التى بدت منطقية ومقنعة . وقد راح « سنونو » يزيد بعض التفاصيل فى فكرته قائلا : « إن فهد قد يحس بالحرج الشديد إذا طلب قوات أمريكية مسيحية لتحمى بلده العربى الإسلامى ، وأما إذا ذهبت القوات الأمريكية فى إطار أوسع يشارك فيه عرب ومسلمون فإن المسألة فى هذه الحالة يمكن أن تكون ''palatable'' (أى مبلوعة) » .

والتقط الرئيس « بوش » الفكرة ، و أضاف إليها تحسينات جديدة ، فقد قال « إنه سوف يعمل على توفير مثل هذا الغطاء العربى والإسلامى » . ثم التفت إلى « ريتشارد تشينى » وزير دفاعه قائلا له : « ديك (اختصار اسم « ريتشارد ») إننى أرى أن تذهب أنت إلى السعودية وتأخذ معك نورمان (يقصد الجنرال « شوارتزكوبف ») لتكون بنفسك هناك عندما يتم توفير الغطاء الملائم لـ « فهد » ، وحتى تقوم بدفعة أخيرة تحسم تردده . »

□

واتصل « تشينى » وهو لا يزال فى كامب دافيد بالأمير « بندر » فى جدة يقول له « إن الرئيس قرر أن أجىء بنفسى إلى السعودية لمقابلة الملك ، ومعى أفكار طيبة قد يجدها مفيدة له » . وعاد « بندر » يتصل به ، ويقول « إن الملك ليس متحمسا لزيارة يقوم بها تشينى بنفسه ، فوصول وزير الدفاع الأمريكى إلى المملكة فى هذه الأجواء الملبدة يمكن أن يثير تساؤلات كثيرة محرجة » . وكان رد « تشينى » إنه « قادم على أى حال بأمر ورسالة من الرئيس ، ولا يستطيع أحد أن يرد مندوبا رئاسيا يمثل رئيس الولايات المتحدة » . ثم رجاه أن « يحمى القلعة » حتى يجىء هو إلى جدة ، ومعه الجنرال « شوارتزكوبف » .(٢)

(٢) . بوب وودوارد « » .

ومن كامب دافيد عاد الرئيس « بوش » لممارسة دبلوماسية التليفون ، فاتصل بالملك « الحسن » فى الرباط ، وبالرئيس « مبارك » فى القاهرة .

وقبل أن يغادر « ريتشارد تشينى » واشنطن متوجها إلى السعودية ، اتصل به « سكوكروفت » مستشار الأمن القومى للرئيس ، ليقول له إن « بندر » كان معه على التليفون الآن ، وأنه أبلغه بأن « الملك مستعد الآن لاستقبال « تشينى » ، فدعه يأتى على الفور » .

وكان تعليق الجنرال « كولين باول » على اجتماع كامب دافيد - كما نقله « بوب وودوارد » - هو « أن الرئيس الآن حدد لنفسه هدفين واضحين : فهو ذاهب بالقوات إلى السعودية - **وهو ليس ذاهبا لمنع هجوم من العراق ، ولكن لهجوم على العراق** » .

وكان « جيمس بيكر » هو الآخر قلقا ، وكان تعليقه : « إننا نجرى بسرعة وسط الأزمة دون أن نفكر فيها » .

وفى يوم ٦ أغسطس كان « ريتشارد تشينى » ينزل بطائرته إلى مطار جدة وخلفه الجنرال « شوارتزكوبف » وفى أعقابهما « روبرت جيتس » نائب مدير وكالة المخابرات المركزية (وهو الآن مديرها) .

□

أثناء الرحلة الطويلة من واشنطن إلى جدة قام « ريتشارد تشينى » بإجراء تجربة حية للأسلوب الذى يمكن أن يتبعه مع الملك « فهد ». وقد كرر هذه التجربة حتى حفظ سيناريو الحديث عن ظهر قلب .

وقد تلقى تشينى وهو فى الطائرة نبأ يقول إن العراق أعلن أنه يسحب قواته من الكويت ، وأن حكومة كويتية مؤقتة قد تم تشكيلها من ضباط شبان كانوا هم الذين قادوا الثورة على أسرة « الصباح » ودعوا العراق إلى مساندتهم ، وكان دخول القوات العراقية إلى الكويت مجرد استجابة لهذه الدعوة .

ثم تلقى « تشينى » أيضا رسالة من « جيمس بيكر » وزير الخارجية نقل إليه فيها مشروع قرار وافق عليه الأعضاء الخمسة الدائمون فى مجلس الأمن ، وسوف يعرض على المجلس لإقراره ، وهو (أى « جيمس بيكر ») يؤكد أن القرار سيكون « شرعيا » قبل مقابلة « تشينى » مع الملك « فهد » ، وسوف « يقوى يده » فى الحديث مع الملك .

كان مشروع القرار (وهو الذى صدر بالفعل بعد ساعات برقم ٦٦١) يفرض عقوبات اقتصادية كاملة على العراق لم يسبق لها مثيل فى تاريخ فرض العقوبات الدولية على أى طرف .

كان القرار فى المادة الثالثة منه يطلب إلى كل الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة أن :

(أ) تحظر استيراد أى سلعة من السلع أو المنتجات من العراق ، أو الكويت مع صدور هذا القرار .

(ب) تمنع رعاياها من تسويق أو محاولة تسويق أو شحن أى بضائع أو منتجات عبر العراق او الكويت ، أو مارة بهما .

(جـ) تمنع رعاياها من بيع أو نقل أى بضائع أو منتجات من أراضيها ، أو على سفنها حتى لو كانت هذه البضائع أو المنتجات عابرة بالترانزيت ، وعليها أن تحظر أى تحويلات من ، وإلى الكويت والعراق .

(د) تتعهد بأن تمتنع عن التعامل مع حكومة العراق فى المجالات التجارية أو الصناعية أو الخدمات المالية أو التسهيلات التجارية ، وعليها أن تمنع رعاياها وكافة السكان الخاضعين لولايتها من أية تعاملات أو تحويلات أو موارد مع أشخاص ، أو مؤسسات فى الكويت أو العراق ـ مع استثناء المواد الطبية التى تقبل بها لجنة تنفيذ العقوبات التابعة لمجلس الأمن .

كان الخطير فى هذا القرار الذى صيغ وكأنه قميص حديدى محكم ـ أنه يوقف صادرات العراق من البترول تماما . ولما كان البترول هو المورد الأساسى للعراق ، فقد كان معنى ذلك الخنق البطىء !

وهكذا ذهب « تشينى » إلى اجتماعه وجها لوجه مع الملك « وهو مسلح بطريقة لا تسمح له إلا بأن يربح » ـ فماذا يريد الملك « فهد » أكثر مما يحمله « تشينى » معه ؟

١ ـ التزام أمريكى عسكرى كامل ، وحتى النهاية يضمنه الرئيس « جورج بوش » شخصيا .

٢ ـ وقفة حازمة من العالم كله تفرض على العراق عقوبات اقتصادية لم يسبق لها مثيل ، وسوف تبدأ تدريجيا فى خنقه .

٣ ـ ثم غطاء عربى اسلامى يحمى موقفه الدينى باعتباره خادم الحرمين الشريفين .

وكان الأمير « بندر » فى استقبال « تشينى » فى المطار ، وقد سأله وزير الدفاع الأمريكى : « كيف حال الملك ؟ » ورد الأمير « بندر » بقوله : « إنه يقوم باستطلاع رأى بعض الزعماء الدينيين حول مسألة مجىء قوات أمريكية إلى السعودية » .

٣

وفى مساء يوم وصوله إلى جدة كان « ريتشارد تشينى » ومعه « روبرت جيتس » والجنرال « شوارتزكوبف » والجنرال « وولفوويتز » والسفير « فريمان » سفير الولايات المتحدة فى السعودية ـ يدخلون القصر الصيفى للملك « فهد ».(٣)

وكان الملك « فهد » فى انتظارهم فى صالون بجناحه الخاص فى القصر ، وكان معه عدد من أفراد الأسرة الذين يتولون مناصب سياسية كبرى فى المملكة : الأمير « عبد الله » ولى العهد ونائب رئيس الوزراء الذى جلس وحده فى ناحية ، بينما جلس وزير الخارجية الأمير « سعود الفيصل » ، ونائب وزير الدفاع ، وعدد آخر من الأمراء على الناحية الأخرى . وكان الأمير « بندر » هو الذى سيتولى الترجمة بنفسه بين الجانبين .

وبدأ الملك « فهد » المقابلة بالحديث عن علاقته الشخصية بالرئيس « بوش » ، قائلا إنها ترجع إلى سنوات طويلة منذ كان الملك يشغل منصب وزير الداخلية لمدة ١٣ سنة ، ثم تولى مسئولية السياسة الخارجية للمملكة حينما أصبح وليا للعهد ـ وكان « بوش » فى هذه الفترة مندوبا دائما للولايات المتحدة فى الأمم المتحدة ، أو مديرا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية سنة ١٩٧٦ ، أو نائبا للرئيس بعد ذلك طوال رئاسة « رونالد ريجان » للولايات المتحدة لمدة ثماني سنوات . وبهذه الخبرة الطويلة بـ « جورج بوش » فإن الملك « فهد » معجب بالرئيس الأمريكى وبمزاياه ، وأهمها الصدق فيما يقول ويفعل . ثم سكت « فهد » وأدرك « تشينى » أن ساعة الامتحان قد بدأت بالنسبة له .

وافتتح « تشينى » كلامه بقوله « إن الولايات المتحدة تعتبر السعودية شريكا وصديقا رئيسيا لها ، وأنها وقفت بجانبها فى كل الظروف ، وأخطرها الظرف الذى واجهته المملكة عندما تواجدت القوات المصرية فى اليمن سنة ١٩٦٢ ، وأحست المملكة بالتهديد ، وساندتها الولايات المتحدة بكل حزم.. ثم كانت بعد ذلك أزمة الحرب العراقية ـ الإيرانية ، وما تعرضت له الملاحة بسببها فى الخليج ، وكانت أساطيل الولايات المتحدة البحرية هى التى تصدت للمخاطر ، وكفلت حرية الملاحة فى الخليج . »

---

(٣) رواية « بوب وودوارد » عن المقابلة ، وهى أدق الروايات لأنه اطلع بنفسه على محضرها الذى كتبه السفير « فريمان » ، كما راجع التفاصيل مع « ريتشارد تشينى » نفسه . وهى واردة على الصفحات من ٢٦٦ إلى ٢٧٣ من كتابه .

ثم واصل « تشينى » عرضه للموقف ووصل مباشرة إلى التطورات الأخيرة ، فقال « إن السعودية تتعرض الآن لأخطر تهديد فى تاريخها ، ونحن بلد اعتاد أن يأخذ التزاماته بجد وإخلاص . ولقد أرسلنى الرئيس إلى هنا لأعزز لكم ما ذكره أثناء أحاديثه التليفونية معكم ، ومؤداه أنه يضمن شخصيا الوفاء بضمانات الأمن الأمريكية المقدمة لكم . إن « صدام حسين » استخدم الأكاذيب والخداع والعدوان السافر لتغيير موازين الأمن فى المنطقة ، وما لم نتصد لعدوانه فإنه سوف يزداد شراسة . ولقد بدأ الرئيس باتخاذ اجراءات دبلوماسية وعملية لحصر العراق ، واتصل بكل من فرنسا والاتحاد السوفيتى والصين ليقفوا معنا كما تقف بريطانيا ، وسوف يسافر وزير الخارجية « بيكر » إلى موسكو لتنسيق موقف موحد مع الاتحاد السوفيتى ، وهو موقف سوف يعلنه الطرفان لكى لا يكون لدى أحد منفذا للشك . والرئيس « بوش » على اتصال تليفونى يومى بقادة بريطانيا وفرنسا وألمانيا وتركيا واليابان وايطاليا . وعلينا أن نتعاون جميعا لنتأكد أن هذا الرجل (يقصد « صدام حسين ») لن ينجح . »

ثم دخل « تشينى » إلى صميم الموضوع ، فقال إن « الرئيس « بوش » يقترح استراتيجية على مستويين :

□ **المستوى الأول** : أن تتعاون الولايات المتحدة مع المملكة العربية السعودية فى الدفاع عن المملكة ضد أى هجوم محتمل .

□ **والمستوى الثانى** : هو العمل على خنق العراق بالوسائل الاقتصادية (على أساس قرار مجلس الأمن رقم ٦٦١ الذى تلقى « تشينى » نصه أثناء طيرانه للسعودية) . والعقوبات الاقتصادية وحدها ـ من وجهة نظر الرئيس « بوش » ـ لن تكون كافية لأداء الغرض ، لكن تقديره أنه عندما يبدأ « صدام حسين » فى الشعور بالضغط ، فقد يجد مخرجه فى شن هجوم على السعودية ، ولهذا فإن من المهم أن نكون مستعدين على المستويين : مستوى الدفاع ـ ومستوى الخنق . »

ثم قام « تشينى » باستئذان الملك فى أن يترك الكلام للجنرال « شوارتزكوبف » ، وراح الجنرال « شوارتزكوبف » يتحدث عن مسرح العمليات ، وخلص إلى قوله : « إننا نعتقد أن « صدام حسين » يمكن أن يهاجم السعودية فى ظرف ٤٨ ساعة ، ونحن لا نعرف بالضبط ما الذى يدور فى رأسه » . ثم قال « شوارتزكوبف » : « إننا نعلم أن هناك ٢٢ طائرة عراقية موجودة فى إحدى القواعد القتالية ، ومعها حاملات البترول التى تستطيع تزويدها بالوقود فى الجو لكى تسمح لها بمدى عمل أبعد ، ونحن لا نعرف الهدف وراء ذلك ، ومن المحتمل أن يكون مقصوراً على مهاجمة الأسطول الأمريكى » . كان « شوارتزكوبف » يحاول أن يكون متوازنا فى عرضه ، فلم يشأ أن يقول إن هذه القوة

العراقية التى أشار إليها موجهة للسعودية ، وإنما شاء أن يشعر الملك أنه عادل فى عرضه للموقف حتى لا يخطر ببال الملك أن الجنرال الأمريكى يحاول تخويفه . ولكن الملك كان مستعداً لفهم الإيماءة ، وقد رد على « شوارتزكوبف » بقوله :

« كنا نعتقد أن « صدام حسين » رجل صادق ، ولقد قال لنا ولكم ولـ « مبارك » إنه لن يهاجم الكويت وحدث العكس . »

ثم وصل الملك إلى نقطة أساسية فى حديثه ، فقال :

« إننا الآن على بينة من نواياه ، وطالما أن الاستعداد كاف والقوة متوافرة ـ فإننا فى وضع يسمح لنا بدفع هذه العمليات العراقية ، وإننى لممتن أن هذا يحدث . »

وفهم الكل ما تعنيه تلك العبارات .

وراح الجنرال « شوارتزكوبف » يتحدث عن حجم القوات العراقية ودرجة استعدادها وقال بطريقته العسكرية العنيفة : « إن قامة الجيش العراقى لا نصل إلى عشرة أقدام (يعنى أنها ليست عالية) ، لكن العراقيين خصم صلب . مشكلتهم أنهم لا يتقنون الهجوم ، وضعفهم الرئيسى نظام قيادة مركزى أكثر من اللازم ، وضباطهم لا يستطيعون الحركة إلا عندما يجيئهم الأمر . وسوف يكون أسلوبنا فى التعامل معهم وفقا لما نقوله نحن العسكريين « **اقطع الرأس وسوف تجد أن الجسد لا يعمل** ». »

ثم انتقل « شوارتزكوبف » إلى القوات الأمريكية المخصصة للخطة « ١٠٠٢ ـ ٩٠ » ، وسأله الأمير « عبد الله » عن حجم الفرقة الواحدة فى الجيش الأمريكى ، ورد « شوارتزكوبف » بأنها « ١٨ ألفا » . وكان معنى ذلك بحساب القوات المخصصة للخطة أن حجم الجيش المطلوب حشده واصل فى شهور قليلة إلى ٢٥٠ ألف جندى .

ودارت مناقشات فرعية قال الملك « فهد » فى نهايتها : « يا معالى الوزير نحن موافقون على المبدأ ، والله يساعدنا على أن نقوم بالعمل الذى يلزم » .

ثم قال الملك « إن المهم الآن أن نحمى بلدنا بالتعاون مع الولايات المتحدة ، وقد فكرنا فى دعوة بلاد عربية صديقة أخرى للاشتراك معنا ومعكم » . ولم تكن الفكرة مفاجئة لـ « تشينى » ، ورد بقوله « إن هذه فكرة رائعة » . وعقب الملك على ذلك بقوله « إن بعضهم أصدقاء لكم ولنا » .

ثم استطرد الملك « فهد » : « إن علينا أن نعمل معا بصرف النظر عما يمكن أن يقوله الآخرون . فالكويت ظلت ساكتة حتى فات الوقت ، ولم تعد هناك كويت » .

وعلق الأمير « عبد الله »على ذلك بقوله إنه « لا تزال هناك كويت » . ورد الملك بسرعة « ولكن أهلها مقيمون عندنا فى فنادقنا » .

□ □ □

ثم جاءت اللحظات الختامية للقاء وحين كان على « ريتشارد تشيني » أن يبدأ عمله الحقيقى كوزير للدفاع مسئولا بالفعل عن حرب بدأت عمليا وواقعيا .

وأبدى الملك « فهد » ملاحظة قال فيها « إنه كان يود لو استطاع « معالى » الوزير أن يرى حركة العمران فى المملكة . نحن أسرة سعود استلمنا هذا البلد وهو صحارى وقفار ، وقد صرفنا عليه بلايين الدولارات لنجعله دولة حقيقية ، ولا يعقل أن نبنى دولة ونتركها لـ « صدام حسين » .

لا أعرف لماذا احتل الكويت ؟ نزعة العدوان والتسلط ؟ وهو يظن أنه يعرف كل شيء ...»

ثم قال الملك لـ « تشينى » :

« فى الختام أقدم شكرى إلى الرئيس ، وإلى نائب الرئيس ، وإلى كل الوزراء وإلى مجلسى الكونجرس ، وإليك شخصيا ، فإنك جئت إلى هنا بهدف واحد ، وهو هدف مساعدة المملكة . وإننى أرجو أن تنتهى المشكلة فى المنطقة بسرعة لكى أجيء إليكم فى الولايات المتحدة ، وأقدم الشكر للجميع بنفسى . »

وقال « تشينى » إنه « بإذن الملك سوف يسافر فى الصباح تاركا فريق عمل بعده فى المملكة لكى يرتب اجراءات كثيرة من الضرورى ترتيبها » . وقال الملك « إن هذا ضرورى » . ثم أضاف نصيحة منه إلى وزير الدفاع الأمريكى قائلا له : « كلما تحدثت أقل إلى وسائل الإعلام كان ذلك أفضل » .

وتولى الأمير « بندر » فيما بعد توضيح مغزى هذه النصيحة لوزير الدفاع . وكان التفسير يستند على نقطتين :

□ **الأولى** : إن المملكة فى حاجة إلى وقت ترتب فيه نفسها وأصدقاءها ووسائل إعلامها قبل أن تظهر نتائج الاتفاق إلى العالم . كما أنه من المستحسن أن يكون الموقف العربى معدا لقبول النتائج التى أسفر عنها اجتماع « تشينى » مع الملك « فهد » .

□ **والثانية** : هو أن الفرصة يجب أن تعطى للحشد الأمريكى لأن يتم بهدوء دون أن يتنبه « صدام حسين » ، فهو « ثعلب ماكر » ، وهناك فترة حرجة ستمتد أياما ، وهى



الرئيس الأمريكى جورج بوش ومارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا .

فترة تكون فيها قوات الحشد ضئيلة فى عددها وعدتها ، وقد يخطر ببال « صدام » أن يأخذ الكل على غرة ، ويتحرك هو قبل أن يصل الحشد إلى درجة الخطورة عليه .

وعاد « تشينى » إلى الفندق الذى كان ينزل فيه ، واتصل من هناك عن طريق شبكة خاصة بالرئيس « بوش » فى البيت الأبيض ، ووجد أنه فى اجتماع ثان مع « مارجريت تاتشر » ، وطلب مقاطعة الاجتماع وتوصيله بالرئيس .

وفور أن سمع « تشينى » صوت « بوش » على الناحية الأخرى من التليفون قال له :
« **لقد وجه الدعوة إلينا ، وقبل الخطة كلها** » .

وقال « بوش » ـ ربما ليجعل « مارجريت تاتشر » تسمع ـ « إننى سعيد للغاية ، ومارجريت هنا وهى سعيدة أيضا » .

وانتقل « تشينى » إلى الخطوة الثانية ، فقد طلب تفويضا من الرئيس لبدء التحركات . ورد عليه « بوش » : « لديك التفويض وسأوقعه حالا ، ولك أن تبدأ » .

واتصل « تشيني » على الفور من فندقه فى جدة بالجنرال « كولين باول » رئيس هيئة أركان حرب القوات الأمريكية ، وأبلغه بموافقة الملك « فهد » على دعوة القوات الأمريكية ، وعلى الخطة الكاملة ، وعلى تفويض الرئيس له كوزير للدفاع ببدء التحركات .

وكان الجنرال « كيللى » نائب رئيس هيئة أركان حرب موجودا مع الجنرال « كولين باول » أثناء حديث « تشينى » معه . ولاحظ « كيللى » على الفور « أن المهمة تغيرت الآن رسميا ؛ فمن قبل كنا نناقش الدفاع عن السعودية ونتطرق من ذلك إلى احتمالات أخرى ، والآن فإن الأمر صريح بتنفيذ خطة العمليات ١٠٠٢ ـ ٩٠ . »

وبدأت أوامر التحركات . ووصلت طلائع القوات ، وهى مجموعة لواء من الفرقة ٨٢ المحمولة جوا ـ إلى السعودية يوم ٨ أغسطس . وترافق مع وصولها هبوط ٤٨ طائرة من طراز « ام ـ ١٥ » فى قاعدة الظهران .

وكتب الرئيس « بوش » خطابا رسميا إلى كل من رئيسى مجلس الشيوخ ، ومجلس النواب بتاريخ ٩ أغسطس . يخطرهما فيه بأنه « أمر باستخدام القوات المسلحة الأمريكية فى منطقة الخليج الفارسى استجابة للدواعى التى نشأت بعد قيام العراق بغزو الكويت ، وأنه يبعث بهذا الخطاب إلى المجلسين بروح التشاور والتعاون بين الفرع التنفيذى والفرع التشريعى فى الحكومة الأمريكية . »(٤)

□ □ □

وكانت محطة « تشينى » الثانية هى مصر . وقد عرف أن الرئيس « مبارك » موجود بالاسكندرية ، لكن طائرته الكبيرة لم تكن قادرة على الهبوط فى مطار النزهة ، وهكذا نزل فى مطار القاهرة ، ومن هناك استقل طائرة الملحق العسكرى الأمريكى فى مصر ومعه سفير الولايات المتحدة فى القاهرة « فرانك ويزنر » ، وتوجها إلى الاسكندرية . وأثناء الرحلة قال له « فرانك ويزنر » إنه « تلقى قبل دقائق تعليمات من واشنطن ليطلب إذنا من الرئيس « مبارك » بمرور حاملة الطائرات « ايزنهاور » من قناة السويس ، وأنه يعرف أن هذه مسألة حساسة عند المصريين لأنهم يمانعون عادة فى مرور سفن نووية من قناة السويس بسبب خوفهم على القناة ، والمنطقة الآهلة بالسكان التى تجرى فيها ، وأنه فكر فى أنه إذا

---

(٤) النص مثبت فى ملف وثائق دورة مجلسى الشيوخ والنواب ، والملف مطبوع بتاريخ ١١ سبتمبر ١٩٩٠ .

جاء الطلب مباشرة من وزير الدفاع إلى الرئيس المصرى فإن استجابته سوف تكون مضمونة أكثر . »

وطبقا لرواية « تشينى » فإن طلب « ويزنر » كان فى ذهنه قبل أى موضوع آخر . وتصور « أن الحاملة قد تكون فى حاجة إلى الدقائق لكى لا تتوقف لحظة فى انتظار إذن » . وقد بدأ فطلب هذا الإذن من الرئيس « مبارك » . وسأله الرئيس « مبارك » متى تصل « ايزنهاور » من طريق السويس ، ورد « تشينى » : « الليلة يا سيادة الرئيس » . وأصدر الرئيس « مبارك » أمره بالموافقة ، وخرج « فرانك ويزنر » ليطلب إلى الملحق العسكرى الأمريكى الذى رافق الوفد إلى قصر رأس التين ـ أن يبلغ قرار الموافقة على مرور الحاملة « ايزنهاور » من قناة السويس .

ثم بدأ « تشينى » يحكى للرئيس « مبارك » بالتفصيل وقائع ما جرى بينه وبين الملك « فهد » . وكان الرئيس مبارك يتابع بدقة ويناقش . وطبقا لرواية « تشينى » أيضا فإن الرئيس « مبارك » لم يظهر موافقته على إرسال قوات إلى السعودية عندما طرح عليه « تشينى » الاقتراح ، وإنما وافق الرئيس « مبارك » على ذلك عندما اتصل به كل من الرئيس « جورج بوش » والملك « فهد » بعد ساعات من لقائه بـ « تشينى » يوم ٧ أغسطس .

وخرج « تشينى » من مقابلته للرئيس « مبارك » ليعود إلى القاهرة ويستقل طائرته إلى الولايات المتحدة . وبينما طائرته فوق ايطاليا تلقى مكتب الاتصال على ظهرها رسالة من البيت الأبيض موجهة من الرئيس إلى وزير الدفاع تطلب إليه أن يتوجه من حيث يكون إلى المغرب لمقابلة الملك « الحسن » . وبدوره عرف ملك المغرب بتفاصيل الاتفاق بين وزير الدفاع الأمريكى وملك السعودية . وأبدى الملك « الحسن » استعداده على الفور لإرسال قوات إلى السعودية . وظل « تشينى » مع الملك « الحسن » وقتا طويلا حتى بعث إليه السفير الأمريكى فى الرباط رسالة يقول له فيها إنه « مطلوب على الفور للسفارة لأن الرئيس « بوش » يريد أن يتحدث معه . »

كان « بوش » على وشك أن يوجه خطابا للأمة فى الساعة التاسعة صباحا يوم ٨ أغسطس ، وقد أراد أن يتثبت من « تشينى » حتى لا يستعمل فى خطابه أية عبارات يمكن أن تؤدى لحرج طرف من الأطراف . وفكر « تشينى » بسرعة ، وقال للرئيس « بوش » إن « النقطة التى يجب التركيز عليها طبقا لما فهمته من « فهد » أن قواتنا ذهبت إلى المملكة العربية السعودية بناء على طلب سعودى ، وأنها سوف تغادر المملكة فور أن تطلب منها الحكومة السعودية ذلك . »

وفى الساعة التاسعة صباحا كان الرئيس « بوش » على كل شاشات التليفزيون فى كل بيت ومكتب فى الولايات المتحدة ، وكانت نبرته حازمة وقاطعة بشكل لا مثيل له منذ

بدأت الأزمة . وقد قصد أن تتطابق تعبيرات وجهه مع صرامة كلماته ، فقد قال « **إننا نطلب انسحابا فوريا وكاملا وغير مشروط لكل القوات العراقية الموجودة فى الكويت** » . **ثم قال** « **إن مهمة قواتنا التى ذهبت إلى السعودية مهمة دفاعية ، ونأمل ألا تدعو الحاجة إلى بقاء هذه القوات فى الخليج طويلا . إن هذه القوات مكلفة بالدفاع عن نفسها وعن المملكة العربية السعودية ، وعن كل أصدقائنا فى الخليج .** »

٣

كان الوقت متأخرا جدا ، ومع ذلك فإن الرئيس « مبارك » راح يحاول .

كان الرئيس « مبارك » قد استقبل السيد « ياسر عرفات » ومعه نائبه الزعيم الفلسطينى « أبو إياد » (الشهيد فيما بعد) يوم ٦ أغسطس ، وكان رأى السيد « ياسر عرفات » أن الفرصة لم تفت بعد لحل عربى . وأبدى الرئيس « مبارك » موافقته وقال إن سوريا وجهت الدعوة إلى مؤتمر قمة عربى ، وأنه يفكر فى توجيه دعوة مماثلة لقمة تعقد فى القاهرة . ثم توجه الرئيس « مبارك » إلى السيد « ياسر عرفات » بسؤال محدد هو « ما إذا كان يستطيع التأثير على صدام حسين ليحضر مثل هذا الاجتماع » ؟ وقال السيد « ياسر عرفات » إنه « سيحاول ، ولكنه نظرا للجو العربى العام فإن الرئيس « صدام » قد يرى ألا يحضر بنفسه ، وفى هذه الحالة فإنه سوف يحاول إقناعه بإرسال وفد عالى المستوى مفوض باتخاذ قرارات . »

وبعد سفر السيد « ياسر عرفات » قرر الرئيس « مبارك » أن يحاول مباشرة مع الرئيس « صدام حسين » لأنه لم يعد يثق بجدوى الاتصالات غير المباشرة ، أو التى تتم عن طريق طرف ثالث . واستدعى السفير « نبيل نجم » سفير العراق بالقاهرة إلى مقابلته يوم ٦ أغسطس ، وطلب إليه أن يسافر فورا إلى بغداد بطائرة مصرية سوف توضع تحت تصرفه لكى يحمل للرئيس « صدام حسين » رسالة منه يطلب فيها « أن يعلن الرئيس صدام حسين استعداده للانسحاب من الكويت ، وسوف يقوم الرئيس(مبارك) من جانبه باتخاذ ما يلزم لمنع تعرض الرئيس صدام لأى حرج ، والعمل على حفظ ماء وجهه » . وبالفعل توجه السفير « نبيل نجم » إلى بغداد ، وعاد فى اليوم التالى إلى الاسكندرية ومعه فى الطائرة السيد « عزة ابراهيم » نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقى . وطبقا للرئيس « مبارك

فإن السيد « عزة ابراهيم » قال له « إن العراق يعتبر ضمه للكويت إجراء نهائيا لا رجعة فيه ولا تفاوض ولا تنازل ، لأنها جزء من التراب الوطنى العراقى » . وأبدى الرئيس دهشته لهذا الموقف المتعنت ، وذكر أنه « إذا استمر هذا الموقف ، فسوف يستحيل إصلاح الخلل الخطير الذى نجم عن الاحتلال ، ومن المقطوع به أن الموقف سوف يزداد سوءاً » .

ويروى السيد « عزة ابراهيم » أنه ذكر للرئيس « مبارك » أن « بوادر التحشد الأمريكى ظاهرة ، كما أن الرئيس « بوش » لا يخفى نواياه ضد العراق ، وأن إعلان أى شيء عن الانسحاب الآن يعتبر تراجعا أمام الضغط الأمريكى . وبما أن هناك تفكيرا جديا فى عقد مؤتمر قمة عربى فى القاهرة ، فقد يكون من المستحسن انتظار ما سوف يسفر عنه هذا المؤتمر . »

ولكن رواية السيد « عزة ابراهيم » تتعارض مع إعلان عراقى صدر قبل ساعات يعلن ضم الكويت للعراق ، واعتبارها الولاية التاسعة عشرة .

وكان تفسير العراقيين لهذا التعارض بين الروايات والتصرفات أنهم ابتداء من يوم ٦ أغسطس تأكدوا أن اتفاقا قد تم بين الملك « فهد » ووزير الدفاع الأمريكى « ريتشارد تشينى » . وكان تقدير الرئيس « صدام حسين » أن « جنود الجيش العراقى لن يعطوا أرواحهم دفاعا عن الكويت حتى وإن كانت فى وحدة مع العراق . وأما إذا كانت جزءاً لا يتجزأ من التراب العراقى ، فإن الأمر سيختلف . »

والشاهد أن هذه الحجج والمناقشات والآراء فى العالم العربى ـ كانت فى غير أوانها لأن الوقت كان قد فات ، ذلك أن القطار الأمريكى كان قد تحرك من كامب دافيد فى اجتماع الرئيس « بوش » بمستشاريه يوم ٤ أغسطس ، ثم نزلت أمامه العلامة الخضراء تعطيه إشارة الموافقة فى جدة فى اجتماع الملك « فهد » مع وزير الدفاع الأمريكى « ريتشارد تشينى » ، ولم تعد هناك إلا معجزة إلهية توقف القطار قبل بلوغ محطته النهائية .

ومع ذلك فلم يكن ممكنا للعمل السياسى أن يتوقف ويسود الساحة صمت ليس لديه ما يفعله غير انتظار القارعة .

□

ويوم ٨ أغسطس ـ أى نفس اليوم الذى وجه فيه الرئيس « بوش » حديثه إلى الأمة الأمريكية ـ قرر الرئيس « مبارك » أن يوجه حديثا إلى الأمة العربية . وكان الحديثان فى نفس اللحظة تقريبا .فـ « بوش » كان يتحدث فى الساعة التاسعة صباحا بتوقيت واشنطن ، والرئيس « مبارك » كان يتحدث فى الساعة الثالثة بعد الظهر بتوقيت القاهرة . وكان خطاب الرئيس « مبارك » دراميا ومؤثرا . وكان أبرز ما قاله « إن الصورة سوداء ومخيفة ، وما

لم نتدارك الموقف فورا فإن الحرب حتمية » . ثم راح الرئيس « مبارك » يرسم صورة مفزعة لدمار الحرب ونارها وجحيمها ، وقال « إن أحدا لا يعرف مخاطر الحرب كما يعرفها هو ، فقد مر فى أزمات مماثلة ، وبخبرته العسكرية السابقة فإنه يستطيع أن يقول إن الحرب المحتملة سوف تكون شيئا رهيبا وفظيعا » . ثم أنهى خطابه بقوله « ألا قد بلغت اللهم فاشهد » .

ولقد راجت فيما بعد مقولة بأن الرئيس « مبارك » بالغ فى كآبة الصورة قبل الأوان ، وأعطى الإيحاء بأن الضربة واقعة فى ظرف أيام .

ولم تكن هذه المقولة تشخيصا دقيقا للمناخ الذى تحدث فيه الرئيس « مبارك » ، والواضح أن اللهجة التى تحدث بها فى ذلك الوقت كانت لهجة رجل أتاحت له ظروفه أن يطل بنظرة على الخطة « ١٠٠٢ ـ ٩٠ » (من لقائه مع « تشينى » فى اليوم السابق) ، ولقد هاله ما رأى وتمنى لو أمكن توقيه مع علمه بسبق الإصرار عليه . وقد جرت الكلمات على لسانه ، ولأن خطابه كان مرتجلا فإن السر تسرب إلى اللفظ . لم يكن فى حل من أن يفشى هذا السر فكتمه ، ولكن البخار المكتوم سرى بالرغم من كل شىء وشاع فى التعبيرات ، ذلك أن الأمل ظل يراوده بأن المعجزة ممكنة إذا خرج العراق من الكويت فورا وبلا قيد أو شرط .

وكان خطاب الرئيس « مبارك » فى هدفه الأساسى دعوة إلى مؤتمر عربى ينعقد على مستوى القمة فى القاهرة فورا .

وبدأ الملوك والرؤساء العرب يتوافدون على القاهرة . وكان أول القادمين هو العقيد « معمر القذافى » الذى وصل بعد ساعات قليلة من خطاب الرئيس « مبارك » . ثم بدأ آخرون فى الوصول ، وكانت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية فى تونس تتابع وصول الملوك والرؤساء للقاهرة بدهشة . وعقب السيد « الشاذلى القليبى » على ما يحدث بقوله « إنها أول مرة توجه فيها الدعوة إلى اجتماع على مستوى القمة بواسطة الإذاعة » . وكانت تلك طريقة مهذبة يقصد بها الأمين العام إلى القول بأن الأمانة العامة لم تستشر فى الأمر ، ولم يطلب إليها ترتيب الاجتماع بما فى ذلك توجيه الدعوة إليه ، خصوصا وأنها المسئولة عن تنظيمه وتطبيق لوائحه . وطلبت وزارة الخارجية المصرية إلى الأمين العام أن يجىء إلى القاهرة على الفور لأداء دوره . ورد الأمين العام بأنه « ليست هناك طائرات فى الليل بين القاهرة وتونس » . وتقرر إرسال طائرة ليبية تذهب إلى تونس وتجىء بالأمين العام .

والواقع أن امكانيات الوصول إلى حل عربى للأزمة كانت فى تلك اللحظة تتلاشى . فقد بدأ وصول قوات مغربية إلى السعودية . كما أن مصر راحت تستعد لإرسال مجموعة مقدمة إدارية تستطلع أماكن إيواء القوات عندما يجىء وقت تمركزها فى السعودية .

وكان الرئيس « مبارك » لا يزال يحاول . وقد اتصل صباح يوم ٩ أغسطس عند الفجر بالسفير العراقى فى القاهرة « نبيل نجم » وطلب إليه أن يتوجه مرة أخرى إلى بغداد حاملا رسالة شفوية منه إلى الرئيس « صدام حسين » . وكان مؤدى الرسالة أن الرئيس المصرى ينصح نظيره العراقى بأنه « إذا تعذر حضوره مؤتمر القمة ، فإنه من المهم أن يوفد وفدا على مستوى عال يتيح له اتخاذ موقف مرن والتجاوب مع الموقف بما يتطلبه من أخذ وعطاء » . وعند الظهر يوم ٩ أغسطس أعلن فى بغداد أن وفدا عراقيا عالى المستوى فى طريقه الآن إلى القاهرة .

وفى الساعة السادسة مساء هبطت طائرة عراقية خاصة فى مطار القاهرة الدولى ، ونزل منها وفد عراقى كان بالفعل على أعلى مستوى ؛ فقد رأسه السيد « طه ياسين رمضان » نائب رئيس الجمهورية والرجل الثانى فى العراق بعد الرئيس صدام حسين » ، وكان الوفد يضم السيد « طارق عزيز » وهو من المقربين إلى الرئيس العراقى .

وبدأ التوتر يظهر فى الجو من أول لحظة ، فقد عرف الوفد العراقى أنه لن ينزل فى فندق مثل غيره من الوفود ، وإنما قيل له إن أحد قصور الضيافة قد خصص لإقامة أعضائه . وتساءل السيد « طارق عزيز » : « لماذا ننزل فى قصر الضيافة بينما كل الوفود الأخرى فى الفنادق » ؟ وكان الرد « إن الوفد العراقى يواجه مشكلة أمن تجعل حالته مختلفة عن حالة بقية الوفود » . وبدأ « طارق عزيز » يشك ويعرب عن شكه قائلا : « هل المقصود هو حمايتنا أم عزلنا ؟ إذا كان الأمر أمر حمايتنا فنحن على استعداد لأن نتحمل مسئولية أنفسنا ، وليس لكم إلا أن تتركونا لمقاديرنا ، ونحن نثق فى الشعب المصرى . » ورد عليه مسئول مصرى قائلا : « إن المشكلة ليست الشعب المصرى ، ولكن القاهرة تموج بعشرات الألوف من الكويتيين الآن » . ولم يكن السيد « طارق عزيز » على استعداد لأن يقتنع ، واعتبرها « محاولة لعزل الوفد العراقى تحول بينه وبين الاتصال ببقية الوفود » .

ثم طرأت مشكلة ثانية ، فقد دعى السيد « طه ياسين رمضان » لمقابلة الرئيس « مبارك » مساء يوم ٩ أغسطس . واحتج السيد « طارق عزيز » وقال : « جئنا كوفد واحد ومن الضرورى أن نقابل الرئيس ، ثم إننى أعتبر نفسى صديقا شخصيا للرئيس مبارك » . ومع أن السيد « طه ياسين رمضان » أيده فى موقفه فإن الترتيبات لم تتغير ، وكانت تقضى بأن يذهب السيد « طه ياسين رمضان » وحده لمقابلة الرئيس « مبارك » . وبالفعل ذهب .



فى لقائه بالرئيس مبارك أعلن طه ياسين أن ضم الكويت هو إجراء نهائى .

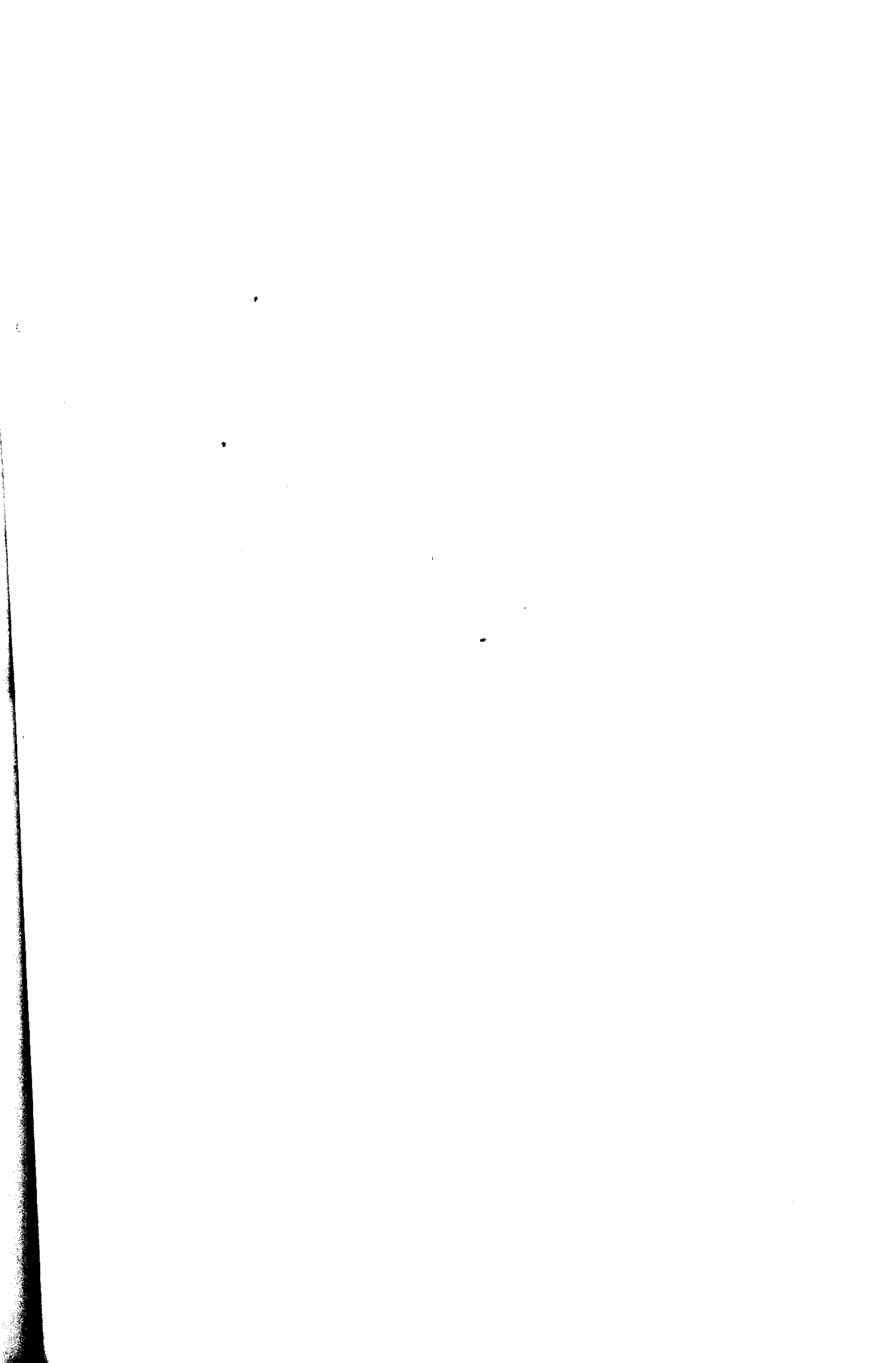
ويروى الرئيس « مبارك »[٥] ان السيد « طه ياسين رمضان » قال له فى نهاية مناقشة طويلة : « إن ضم الكويت للعراق هو إجراء نهائى لا مراجعة فيه ولا عدول عنه لأى سبب ، وان العراق يعتبر هذا قرارا وطنيا لا يمكن طرحه للمناقشة عربيا . وهو (أى السيد « طه ياسين رمضان ») يحضر المؤتمر لمناقشة الأوضاع العربية كلها . »

ويروى السيد « طه ياسين رمضان » إنه بدأ فقال للرئيس « مبارك » : « إن دولا عربية معينة قد عبرت خط الأمان ، وتورطت مع الأمريكيين بغير عودة . ولكنهم يثقون به (أى الرئيس « مبارك ») ، وإن كانوا قد فقدوا الثقة بالآخرين . »

---

(٥) تقرير رئاسة الجمهورية الذى سبقت الإشارة إليه .

والحقيقة أن الوفد العراقى جاء إلى القاهرة يحمل شكوكا كبيرة ، فقد كان سفر « تشينى » إلى جدة ومعه الجنرال « شوارتزكوبف » كافيا لإضاءة أنوار الخطر الحمراء فى بغداد . وعندما أعلن أن حاملة الطائرات النووية « دوايت ايزنهاور » على وشك أن تعبر قناة السويس ، كان ذلك كافيا ليجعل أجراس الإنذار تدق .

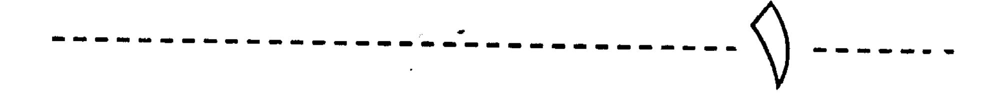


الفصل السادس

ضباب حول القمة

« شكرا معالى الأمين العام أنك نبهتنى إلى هذه الغلطة » .

[الأمير « سعود الفيصل » وزير خارجية المملكة العربية السعودية للسيد « الشاذلى القليبى » الأمين العام لجامعة الدول العربية – يوم ١٠ أغسطس ١٩٩٠]



طلع فجر يوم ٩ أغسطس ليجد القاهرة ، وهى أكبر عاصمة عربية ، فى حالة من الترقب والانتظار . فقد كانت الشوارع متأهبة لمواكب سوف تخترقها حاملة ملوك ورؤساء ووزراء قادمين من كل أنحاء العالم العربى ليشاركوا فى مؤتمر قمة عربى لأول مرة فى القاهرة منذ سنوات طويلة . وكانت قصور الضيافة والفنادق الكبرى معبأة على آخرها بكبار الزوار ، كما أن أرتال السيارات الجديدة والفخمة ، وكلها سوداء ، راحت تعطى العاصمة الكبيرة المزدحمة مظهرا من الأهمية تضاعف من تأثيره أصوات صفارات سيارات الحراسة أو المقدمة التى تسبق المواكب الرسمية وتفسح لها الطريق . وكانت جماهير الشعب المصرى تتابع ما حولها بمزيج يختلط فيه الضيق والكبرياء . فهذه المواكب أربكت المرور

فى عاصمة هى من الأصل ضيقة بمن فيها ، لكن إحساس المصريين بانتهاء عزلتهم عن العالم العربى ، وبأن الأمة العربية كلها جاءت الآن قاصدة إلى بلدهم فى ساعة أزمة عنيفة ـ كان يعطيهم إحساسا غامضا بأن موقع الزعامة عائد إلى عاصمتهم بعد غياب طال .

وقد تسابق إلى العاصمة المصرية مئات من الصحفيين العاملين فى جرائد العالم الكبرى ، وفى محطات الاذاعة والتليفزيون فيه ـ لمتابعة تطورات أزمة اكتشف العالم على غير توقع أنها تؤثر عليه غربا وشرقا . وكان السؤال الدائم على كل لسان هو « حرب ، أو لا حرب ؟ » ـ وإذا كانت الحرب فمتى ؟ وإذا لم تكن الحرب فكيف ؟

وكانت بقية العواصم العربية مفتوحة لتقلبات تتفاعل فيها مشاعر وهواجس مختلطة .

فى البداية كانت المعارضة للغزو العراقى للكويت واضحة وشبه قاطعة . وبعد أن بدأت التحشدات الأمريكية ، وانضمت إليها بريطانيا وفرنسا ، فإن القضية لم تعد خيارا بين الأبيض والأسود ، وإنما تداخلت الأسباب وتشابكت المسببات . وربما كان خير من عبر عن هذا المأزق الذى واجه الأمة على غير انتظار هو الأستاذ « محمد عابد الجابرى »[1] الذى قال : « لقد عاشت الأمة تناقضين فى وقت واحد : تناقض عربى ـ عربى يمثله غزو العراق للكويت ، وتناقض عربى ـ أمريكى تمثله نية ظهرت على الفور فى ضرب العراق وتدمير قوته . وكان التناقض الأول يحدث جرحا فى قلب الأمة ، وكان التناقض الثانى يهددها بالذبح . » وكان رأى « الجابرى » أن التناقض الأول كبير ، وأما التناقض الثانى فهو خطير . وكان ذلك ـ مع كل الحكمة الكامنة فيه ـ قولا عاما لا يأخذ فى حسابه عوامل حقيقية متعددة بينها طبائع الثروة فى المنطقة ، وحقائق القوة فى العالم . وربما كان يتناسى أيضا تأثيرات لا يمكن إنكارها أصابت الشخصية العربية فى كل الأقطار العربية بدون استثناء ، وألحقت بها تشوهات مزعجة استغلتها أغراض محلية وخارجية ، وساعدت عليها ثورة فى وسائل الاتصال والإعلام يمكن أن تكون خيرة ويمكن أن تكون مدمرة ، والنتيجة كلها متوقفة على نوع الإرادة الممسكة بتكنولوجيا الاتصال والإعلام .

ونتيجة لهذه الحالة المترددة والمتردية فى نفس الوقت ، فإن العمل السياسى العربى بدا فى تلك اللحظات وكأنه مباراة فى لعبة العلاقات العامة أكثر منه فعلا ايجابيا وإرادة تمسك بزمام الحوادث . وكانت هذه الأجواء سواء منها عواطف العاصمة المصرية الواضحة فى نشوتها ، أو مشاعر بقية عواصم العالم العربى الضائعة فى حيرتها ـ تصب فى قصر المؤتمرات فى مدينة نصر حيث كانت الترتيبات تجرى على قدم وساق انتظارا لتوافد الملوك والرؤساء والوزراء بمواكبهم إلى مؤتمر القمة المنتظر .

---

(١) مفكر وكاتب وأستاذ فى جامعة « محمد الخامس » بالمغرب . وهو مشارك بارز فى حوار الفكر العربى المعاصر .

وكان المفروض أن تنعقد الجلسة الأولى للمؤتمر فى نفس هذا اليوم - يوم ٩ أغسطس - ولم يتيسر عقد المؤتمر لأن الرياح كانت تهب من اتجاهات معاكسة ، ويحدث تلاقيها وتصادمها دوامات أخذت كثيرين فى حلقاتها الدوارة الخطرة .

ولم تكن هيئة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية - وهى التى تتحمل المسئولية الرسمية عن الإعداد للمؤتمر - قد وصلت بعد إلى مقر المؤتمر لتباشر مهامها ، وإنما كانت الطائرة الليبية المقلة للأمين العام ومساعديه قد وصلت بالكاد إلى مدرج مطار القاهرة .

ولم يكن هناك جدول أعمال للقمة التى تمت الدعوة لها عن طريق نداء على الإذاعة والتليفزيون ، ولا كانت هناك أوراق أو مشروعات قرارات يتدارسها الذين جاءوا للقمة ويبدون فيها رأيا بالموافقة أو المعارضة أو التعديل .

ولم يكن كل الملوك والرؤساء قد وصلوا ، فلأسباب متعددة تأخر بعضهم ، كما أن بعضهم الآخر امتنع من الأصل . وعلى سبيل المثال فإن الرئيس التونسى « زين العابدين بن على » بعث برسالة يرجو فيها تأجيل المؤتمر يومين أو ثلاثة حتى يمكن الإعداد له بواسطة اجتماع على مستوى وزراء الخارجية يقوم بتحضير جدول للأعمال ومشروعات للقرارات . ولكن رسالته جاءت متأخرة لأن أغلبية الملوك والرؤساء كانوا بالفعل فى العاصمة المصرية .

وبشكل ما بدا موقف الملك « الحسن » متحفظا ، فقد اعتذر عن المجىء بسبب شواغل تستبقيه فى المغرب . ومع أن الوضع العربى العام كان خطيرا لدرجة تطغى على أية شواغل محلية ، فإن الملك قرر أن يتغيب . وفى العادة فانه عندما تفرض عليه الظروف أن يتغيب - كان دائما يبعث بأحد أبنائه لينوب عنه تأكيدا لالتزام المغرب بما يتم الاتفاق عليه . وهذه المرة لم يكن الملك على استعداد لإرسال أحد أبنائه . وقد قرر فى اللحظة الأخيرة أن يمثلة رئيس وزرائه .

وراجت بين الصحفيين الأجانب فى أروقة المؤتمر حكايات وتفاصيل عما حققه وزير الدفاع « تشينى » فى جدة ؟ وما الذى استبقى الجنرال « شوارتزكوبف » فى السعودية ؟ - ثم دلالة ومقاصد هذه التحركات العسكرية الطائرة فى أجواء المنطقة والعابرة لبحارها ومضايقها .

ثم وصلت إلى قصر المؤتمرات أصداء تصريح أدلى به الرئيس « بوش » يوم ٩ أغسطس أيضا أثناء مؤتمر صحفى عقده فى الصباح الباكر فى واشنطن ، وقال فيه عبارته التى ذاعت واشتهرت فيما بعد ، وهى قوله : « **إننى رسمت خطا على الرمال** » . وسبب هذا التصريح حيرة كبيرة ، فأين يقع بالضبط هذا الخط على الرمال ، وما هو معناه ، وهل هى خريطة جديدة للمنطقة أو ماذا ؟

ثم عرف فى أروقة المؤتمر أن وزير الخارجية الأمريكى ظهر فجأة فى أنقرة ، وأنه مجتمع بالرئيس التركى « تورجوت أوزال » يبحث معه فى وقف خط البترول العراقى . وفى احتمالات تعاون تركيا فى ايه ترتيبات عسكرية تجرى فى المنطقة ، ومعنى ذلك أن الولايات المتحدة تحكم الطوق حول العراق . ولم يخف « بيكر » بالفعل أن هذا هو هدف رحلته إلى تركيا ، وأن هذا البلد بموقعه الاستراتيجى حلقة هامة فى حصار العراق . ولقد أوضح « بيكر » فى تصريح له يوم ٩ أغسطس أيضا « أن الولايات المتحدة تبحث مع تركيا وسيلة لتعزيز فاعلية وكفاءة القوات الأمريكية على أراضيها » .

وكان خط « بوش » على الرمال فى الصحراء ، يستكمل مسيرته على الجبال فى الأناضول .

ولقد أعطت هذه التصريحات انطباعا لبعض الوفود بأن القمة العربية مجتمعة فى إطار هذا الخط الذى رسمه « بوش » على الرمال ومده « بيكر » إلى الجبال ، وهو خط لا يعرف عنه أحد ما فيه الكفاية .

□

وكان هناك بين القادمين إلى مؤتمر القمة من يعرفون أكثر من غيرهم عن هذا الخط الذى رسمه « بوش » على الرمال . ومن الطبيعى أن الذين أتيحت لهم فرصة الاطلاع على النوايا الأمريكية بمقتضى الخطة « ١٠٠٢ ـ ٩٠ » ، كانوا يعرفون أبعاد هذا الخط على الرمال ، وأولهم الملك « فهد » ملك السعودية . فقبلها بيومين كان اجتماعه الحاسم مع « ريتشارد تشينى » وزير الدفاع الأمريكى ، وقبلها بيومين كان الملك « فهد » يعرف أن هذه الخطة « ١٠٠٢ ـ ٩٠ » واصلة إلى مداها ، فقد عرضت عليه خرائطها وحجم القوات اللازمة لها ، وبداية وصول طلائع هذه القوات إلى المملكة العربية السعودية ، وكان قد وافق عليها . وبناء على هذه الموافقة أصدر « تشينى » تعليماته من السعودية نفسها إلى رئيس أركان الحرب « كولين باول » فى واشنطن .

وربما أن سبب غياب الملك « الحسن » بشخصه وبأولاده عن المؤتمر كان راجعا إلى أنه هو الآخر عرف طبيعة ما هو قادم فى المنطقة من لقائه مع « ريتشارد تشينى » . ثم إنه كان على علم بقيام الرئيس « بوش » بإخطار الكونجرس بقراره حشد قوات « عاصفة الصحراء » (وهو الاسم الذى اختير فيما بعد للخطة رقم « ١٠٠٢ ـ ٩٠ ») .

وهكذا فإن هذا الخط الذى رسمه الرئيس « بوش » على الرمال لم يكن خافيا على الملك « الحسن » ، ولا على عدد من الآخرين غيره من المتأهبين للجلوس حول مائدة القمة .

كان البعض من هؤلاء يعرفون ، وكان البعض فى واد آخر لا يعرفون ، وكان هناك فريق ثالث قد ساورته شكوك ولم تكن أمامه وسيلة تقطع الشك باليقين .

٣

وبدا القلق أشد ما يكون فى قصر الأندلس ، وهو بيت الضيافة الذى خصص للوفد العراقى . فبعد الاشكالات التى دارت حول إقامة الوفد فى القصر أو نزوله فى الفنادق مع بقية الوفود ، ثم بعد استبعاد السيد « طارق عزيز » من حضور المقابلة التى جرت بين الرئيس « مبارك » وبين السيد « طه ياسين رمضان » رئيس الوفد العراقى ـ ظهر إشكال جديد ، فقد اتصل السيد « طارق عزيز » وزير الخارجية العراقى ـ بالأمين العام للجامعة العربية الذى وصل إلى القاهرة قبل ساعات وتوجه إلى قصر المؤتمرات ـ لكى يسأله عن موعد الاجتماع التمهيدى لوزراء الخارجية الذى يجب أن يسبق اجتماع القمة ويعد لها مشروع قراراتها . وكان رد « القليبى » أنه لم يبلغ بأى شىء عن اجتماع لوزراء الخارجية ، وأنه هو نفسه يحاول الاتصال بالوفد المصرى ـ باعتباره ممثل الدولة المضيفة ـ لكى يطرح نفس السؤال . ورأى السيد « طارق عزيز » أن يختصر المسافة ، فاتصل رأسا بالوفد المصرى يسأل عن اجتماع وزراء الخارجية وموعده ومكانه . وكان الرد عليه هو « إن الموقف معقد جدا وبلا سابقة ، وأنه ليس هناك اجتماع لوزراء الخارجية قبل القمة ، وأن الأزمة بمجملها سوف تعرض على الملوك والرؤساء ليروا فيها رأيهم » . ورد « طارق عزيز » بأنه « لم يعرف من قبل فى السوابق الدبلوماسية أن مؤتمرا على مستوى القمة اجتمع دون أن يسبقه ، ولو بساعات ، اجتماع لوزراء الخارجية يتفق على مشروع جدول أعمال وعلى مشروعات قرارات » . وكان الرد عليه أن « الظروف الاستثنائية تفرض أوضاعا استثنائية ، وأن هذا هو الحال هذه المرة » . وقال « طارق عزيز » إنه « يريد أن يسجل احتجاجه على هذا الوضع » .

وانقضى يوم ٩ أغسطس بأكمله دون أن يلتئم الاجتماع سواء على مستوى وزراء الخارجية ، أو على مستوى القمة ، وكان قصر المؤتمرات فى مدينة نصر ساحة لفوضى عارمة من الأخبار والإشاعات ، وحتى النكات .

ثم أذيع فى أبهاء وردهات قصر المؤتمرات أن اجتماعات القمة الرسمية سوف تبدأ

غدا ـ صباح الجمعة ١٠ أغسطس ـ فى الساعة التاسعة صباحا .

وانتقلت الفوضى من قصر المؤتمرات إلى فنادق القاهرة الكبرى ، وإلى قصور الضيافة .

□

صباح يوم الجمعة كان « الشاذلى القليبى » فى صالة قصرُ المؤتمرات تائها فى الأسلوب الذى يمكن أن ينعقد على أساسه مؤتمر القمة المنتظر خلال ساعة من الزمن . ثم عرف أن الأمير « سعود الفيصل » وزير الخارجية السعودى يبحث عنه . وقصد الأمين العام للجامعة العربية إلى حيث قيل له إن وزير الخارجية السعودى موجود ، وإذا هو يسلمه ورقة رجاه فى طبعها بواسطة الأمانة العامة للجامعة حتى يمكن توْزيعها على الملوك والرؤساء قبل دخولهم قاعة الاجتماع . وأحس « القليبى » أن معجزة جاءته من السماء ، فهو على الأقل يعرف الآن من أين يبدأ . فلديه الآن مشروع قرار يمكن أن يطبع ويوزع ، ويمكن أن تكون منه نقطة بداية لاجراءات الاجتماع . ويروى « القليبى » أنه نظر فى ساعته فوجد أنه لم يبق على موعد الاجتماع المقرر سوى نصف الساعة ، ولذلك فإنه آثر ألا يضيع وقتا فى قراءة الورقة التى قدمها له وزير الخارجية السعودى ، وفضل أن يعطيها مباشرة لأحد مساعديه ليأخذها إلى الغرفة التى خصصت للسكرتارية حتى تباشر فى طبعها على الفور . ولم تمض غير دقائق حتى عاد إليه مساعده الذى أخذ منه مشروع القرار الذى قدمه الأمير « سعود الفيصل » لكى يقول له إن هناك مشكلة فى النص ، ذلك أن النص المكتوب فى المذكرة يقول فى البند السادس منه « إن القمة تقرر الاستجابة لطلب المملكة العربية السعودية ، ودول الخليج العربية الأخرى بنقل قوات عربية لتنضم إلى القوات المسلحة الموجودة فيها (أى فى السعودية) دفاعا عن أراضيها وسلامتها الإقليمية ضد أى عدوان خارجى » .

وكانت الملاحظة التى أقلقت مساعد الأمين العام ودعته إلى مراجعة رئيسه هى عبارة « القوات الموجودة » . وكان رأيه « أنه لا توجد الآن إلا قوات أمريكية تم الإعلان عن ذهابها فعلا إلى السعودية . فإذا كانت القوات العربية ستنضم إلى هذه القوات ، فمعنى ذلك الآن أن القمة العربية تقرر فى واقع الأمر أن القوات العربية التى يمكن أن تذهب إلى السعودية نتيجة لقراراتها ذاهبة لتنضم إلى القوات الأمريكية .»

ولمح الأمين العام على الفور وجاهة الملاحظة التى أبداها مساعده ، فأخذ منه مشروع القرار وظل يبحث عن الأمير « سعود الفيصل » حتى عثر عليه ، ثم قال له : « إن هناك مشكلة فى أحد نصوص مشروع القرار الذى تلقاه منه » . وراح « الشاذلى القليبى » يشرح له الملاحظة مضيفا إلى ذلك « أن دلالتها يمكن أن يساء تفسيرها » . وفطن وزير

الخارجية السعودى بسرعة إلى الخطأ ، وطلب إلى الأمين العام أن يغير العبارة بحيث تصبح **« لمساندة قواتها المسلحة دفاعا عن أراضيها وسلامتها .. إلى آخره » ـ بدلا من القول « بالانضمام إلى القوات الموجودة فيها » . ثم أضاف الأمير « سعود الفيصل » برقته المعهودة قوله « للقليبى » : « شكرا معالى الأمين العام أنك نبهتنى إلى هذه الغلطة »** .

□

وثارت فى أروقة المؤتمر عاصفة ، ذلك أن أجواء المؤتمرات العربية على مستوى القمة أو دونها ـ غير قادرة على الاحتفاظ بسر . وهكذا لم يلبث سر مشروع القرار الذى قدمه وزير الخارجية السعودى إلى الأمين العام أن ذاع فى أروقة المؤتمر وتناقلته الروايات . ثم لم تمض غير برهة وجيزة حتى كان أحد أعضاء الوفود قد تمكن من تصوير الورقة . ثم دارت آلات تصوير المستندات أسرع ، وإذا صورة الورقة موجودة بالفعل فى أيدى كثيرين .

كان نص الورقة على النحو التالى :

« إن مؤتمر القمة العربية غير العادى المنعقد بالقاهرة (جمهورية مصر العربية) يومى ١٩ و٢٠ محرم ١٤١١ هجريا ، الموافقين لـ ٩ و١٩٩٠/٨/١٠ ميلاديا

- بعد الاطلاع على قرار مجلس جامعة الدول العربية الذى انعقد فى دورة غير عادية فى القاهرة يومى ٢ و٣ أغسطس /آب/ أوت ١٩٩٠ ميلاديا .
- وبعد الاطلاع على البيان الصادر عن المؤتمر التاسع عشر لوزراء خارجية الدول الاسلامية الذى صدر بالقاهرة فى الرابع من أغسطس/آب/ أوت ١٩٩٠ .
- وانطلاقا من أحكام ميثاق جامعة الدول العربية ومعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الإقتصادى بين دول الجامعة العربية .
- وانطلاقا من ميثاق الأمم المتحدة وبشكل خاص الفقرة الرابعة من المادة الثانية والمادتين (٢٥) و (٥١) .
- وإدراكا للمسئولية التاريخية الجسيمة التى تمليها الظروف الصعبة الناجمة عن الاجتياح العراقى للكويت وانعكاساته الخطيرة على الوطن العربى والأمن القومى العربى ومصالح الأمة العربية العليا

يقـــرر :

١ ـ تأكيد قرار مجلس جامعة الدول العربية الصادر فى ١٩٩٠/٨/٣ وبيان منظمة المؤتمر الاسلامى الصادر فى ٤ / ٨ / ١٩٩٠ .

٢ ـ تأكيد الالتزام بقرارات مجلس الأمن رقم ٦٦٠ بتاريخ ١٩٩٠/٨/٢ ، ورقم ٦٦١ بتاريخ

١٩٩٠/٨/٦ ، ورقم ٦٦٢ بتاريخ ١٩٩٠/٨/٩ بوصفها تعبيرا عن الشرعية الدولية .
٣ ـ إدانة العدوان العراقى على دولة الكويت الشقيقة وعدم الاعتراف بقرار العراق ضم الكويت إليه ، ولا بأى نتائج أخرى مترتبة على غزو القوات العراقية للأراضى الكويتية ، ومطالبة العراق بسحب قواته منها فورا ، وإعادتها إلى مواقعها السابقة على تاريخ ١٩٩٠/٨/١ .
٤ ـ تأكيد سيادة الكويت واستقلاله وسلامته الإقليمية باعتباره دولة عضوا فى جامعة الدول العربية ، وفى الأمم المتحدة ، والتمسك بعودة نظام الحكم الشرعى الذى كان قائما فى الكويت قبل الغزو العراقى ، وتأييده فى كل ما يتخذه من إجراءات لتحرير أرضه وتحقيق سيادته
٥ ـ شجب التهديدات العراقية واستنكار حشد العراق لقواته المسلحة على حدود المملكة العربية السعودية ، وتأكيد التضامن العربى الكامل معها ومع دول الخليج العربية الأخرى ، وتأييد الاجراءات التى تتخذها المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربى الأخرى ، إعمالاً لحق الدفاع الشرعى وفقا لأحكام المادة الثانية من معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى بين دول جامعة الدول العربية والمادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة ، ولقرار مجلس الأمن رقم ٦٦١ بتاريخ ١٩٩٠/٨/٦ . على أن يتم وقف هذه الاجراءات فور الانسحاب الكامل للقوات العراقية من الكويت ، وعودة السلطة الشرعية للكويت .
٦ ـ الاستجابة لطلب المملكة العربية السعودية ، ودول الخليج العربية الأخرى لنقل قوات عربية لمساندة قواتها المسلحة (وفى النص الأصلى : « لتنضم إلى القوات المسلحة الموجودة فيها ») دفاعا عن أراضيها وسلامتها الإقليمية ضد أى عدوان خارجى .
٧ ـ تكليف الأمين العام لجامعة الدول العربية بمتابعة تنفيذ هذا القرار ، ورفع تقرير عنه خلال خمسة عشر يوما إلى مجلس الجامعة لاتخاذ ما يراه فى هذا الشأن . »

□

وتكهرب جو المؤتمر وارتفعت درجة حرارته . وأقبل السيد « طارق عزيز » على الأمين العام للجامعة العربية يسأله عن مصدر هذا المشروع الذى وجده فى أيدى أعضاء الوفود . وقال الأمين العام إنه لا يعرف ، ولكنه يظن أنه وضع كمشروع بالتشاور بين مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية وبعض دول الخليج . وسأله « طارق عزيز » بغضب : « وهل يمكن أن يعرض على القمة مشروع لا تشارك فى وضعه إلا مجموعة قليلة من الدول » ؟ وكان رأى الأمين العام أنه ليس مسئولا عن ترتيب المؤتمر . ورد « طارق عزيز » بأن « العراق يطلب منه رسميا إجراء تحقيق فى وقائع ما حدث » . وكان تعليق الأمين العام « أن الأمر ليس فى يده ، ومن الأفضل

أن تتفاهم الوفود مع بعضها مباشرة دون داع لتوريط الأمانة العامة فيما لا تملك سلطة عليه » .

وكان تعليق أحد كبار مستشارى الملك « حسين » عندما اطلع على المشروع قوله إنه يشعر أنه ترجمة إلى اللغة العربية ، وليس كتابة أصلية باللغة العربية .

وكانت المناقشات بين الوفود محتدمة حول مشروع القرار ، وقد وجد بعضها أن هناك ثغرات أخرى فيه غير تلك التى اكتشفها مساعد الأمين العام . وتوزع المؤتمر إلى جبهات وفرق تتناقش وتحتد على بعضها ، والملوك والرؤساء العرب لا يدخلون إلى قاعة الاجتماع .

١ - كانت هناك وجهة نظر تقول إن النص الوارد فى المادة (٣) ، وهو الخاص بإدانة العدوان العراقى على الكويت ورفض نتائجه - يطلب فى آخره إلى العراق سحب قواته من الكويت فورا ، وإعادتها إلى مواقعها السابقة على تاريخ ١ / ٨ / ١٩٩٠ . وليس هذا هو التاريخ الذى وقع فيه الغزو العراقى بتوقيت المنطقة العربية . فالغزو وقع فجر يوم ٢ أغسطس ، وبالتالى فمن المنطقى أن تطالب المادة بعودة القوات العراقية إلى مواقعها السابقة على تاريخ ٢ وليس ١ أغسطس ١٩٩٠ . وفى وجهة النظر هذه فإن تاريخ ١ أغسطس هو التاريخ الذى وقع فيه الغزو طبقا لتوقيت الولايات المتحدة .

وكان الرد على ذلك من وجهة النظر الأخرى - أن ذلك تعسف ليس له ما يبرره لأن قوات الغزو العراقى تحركت فى الواقع فى الساعة الحادية عشر قبل منتصف ليلة ٢ أغسطس .

٢ - وكانت هناك وجهة نظر تقول إن النص الوارد فى المادة (٤) يتحدث عن « تأييد الكويت فى كل ما يتخذه من إجراءات » ، والكل يعرف أن الكويت طلبت مساعدة الولايات المتحدة عسكريا بعد نصف ساعة من الغزو ، ومعنى ذلك أن الدول العربية الآن مطالبة بإقرار هذا الوضع الذى تم دون انتظار للأمم المتحدة ، أو لجامعة الدول العربية .

وكان الرد على ذلك من وجهة النظر الأخرى - أن حق أى دولة فى رد العدوان عنها ينشأ بمجرد وقوع العدوان .

٣ - وكانت هناك وجهة نظر تقول إن النص الوارد فى المادة (٥) الذى يقول « استنكار حشد العراق لقواته المسلحة على حدود المملكة العربية السعودية ... إلى آخره » - استنكار لحالة لم تنشأ بعد ، فقد أكد العراق وتعهد للملك « حسين » أنه لا توجد لديه حشود على حدود المملكة العربية السعودية ، وأنه حتى الرئيس « بوش » قال فى تصريح له فى بداية الأزمة إنه لا يوجد لديه ما يؤيد امكانية تعرض بلد خليجى آخر لغزو العراق . كما أن

العراق أعلن التزامه بمعاهدة عدم الاعتداء بينه وبين السعودية .

وكان الرد على ذلك من وجهة النظر الأخرى ـ أن أحدا لم يعد له الحق فى تصديق تأكيدات العراق ولا معاهداته .

٤ - وكانت هناك وجهة نظر تقول إن النص الوارد فى المادة (٥) عن « تأييد الاجراءات التى تتخذها المملكة العربية السعودية ودول الخليج المجاورة الأخرى إعمالا لحق الدفاع الشرعى .. إلى آخره » - هو نص مفتوح معناه تأييد حشد القواتُ الأمريكية فى المملكة العربية السعودية ، وهو حشد بدأ فعلا . كما أن أحدا لا يعرف حتى الآن تفاصيل ما دار بين الحكومة السعودية والحكومة الأمريكية أثناء زيارة وزير الدفاع الأمريكى إلى المنطقة . بينما أخبار وكالات الأنباء حافلة بمعلومات خطيرة عما تم الاتفاق عليه فى هذا الاجتماع . وإذا كان يحق للسعودية أن تتصرف من منطق سيادتها على أراضيها كما تشاء - فإن بقية العالم العربى ليست مطالبة بالموافقة على إجراءات لا تعرف عنها شيئا .

وكان الرد على ذلك من وجهة النظر الأخرى - أن السعودية لا تستطيع الانتظار حتى يقع المحظور ، ومن واجب العالم العربى أن يشعرها بالطمأنينة ولا يتركها وحدها مع الأمريكان .

٣

كان مستحيلا أن يتوجه أحد إلى قاعة الاجتماعات فى هذا الجو المشحون . ورأى قصر المؤتمرات فى مدينة نصر مشاهد يصعب جدا أن تقع فى مؤتمر قمة أو أن تتكرر . فقد اختلط الجمع كله : الملوك والرؤساء ، والوزراء ، ومستشارو الوفود ، وموظفو الجامعة ، والصحفيون العرب والأجانب ، وحتى ضباط الحراسة - أتيحت لهم الفرصة لرؤية جوانب مما جرى .

وكان العقيد « معمر القذافى » من أكثر الحاضرين هياجا ، وقد أمسك فى يده بنسخة من المشروع - وكانت الأمانة العامة قد وزعته رسميا - ووقف يقول فى جمع من المشاهدين ما مؤداه : « **إذن فهذا هو ما يريدون منا أن نختم بأصابعنا عليه** » . ثم توقف أمام الشيخ « زايد بن سلطان آل نهيان » رئيس دولة الإمارات العربية ، وقال له وهو يلوح

بالورقة أمامه : « **ولماذا تلجأون للأمريكان لحمايتكم .. لماذا لا تختصرون الطريق ، وتطلبون ذلك من إسرائيل مباشرة** » .

وبعد جهد جهيد ، وفى الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا ، أمكن جمع الملوك والرؤساء ومستشاريهم إلى جلسة مفتوحة للمؤتمر ليلقى الرئيس « حسنى مبارك » بوصفه الداعى للقمة - خطابه الافتتاحى ، وبعد ذلك تنفض الجلسة لصلاة الجمعة على أن تعود للانعقاد فى الساعة الثانية بعد الظهر حتى يستطيع المؤتمر أن يبدأ أعماله .

وألقى الرئيس « مبارك » خطابه ، فبدأ بشكر الملوك والرؤساء الذين لبوا دعوته ، ثم قال إنه دعاهم لكى « يبحثوا قضية هامة عاجلة تشغل أذهان شعوبنا فى الوطن العربى على امتداده ، وتسبب كثيرا من الضيق والقلق لمعظم شعوب العالم التى تتطلع إلى الأمة العربية فى هذه اللحظات الحرجة فى محاولة للتعرف على حقيقة ما يدور على أرضها ، والتساؤل عما ستفعله للخروج من المأذق الذى وضعت فيه بعد الأحداث الأخيرة . »

ثم قال الرئيس « مبارك » :

« إن خطبا جللا قد وقع على أرضنا فى الأيام الماضية ، وقد حدث بشكل مفاجىء ، وبصورة لم تشهدها أمتنا العربية فى تاريخها القديم أو الحديث ، ويخالف توقعات الجماهير العربية فى المشرق والمغرب ، فكان طبيعيا أن تكون له انعكاساته وأصداؤه المدوية فى كل بقاع العالم ، وأن تكون له مخاطره الجسيمة بالنسبة لنا جميعا . »

ثم عد الرئيس « مبارك » مجموعة من النقاط اعتبرها ركيزة لحل يؤدى إلى مخرج من الأزمة :

- **إما عمل عربى فعال ، أو تدخل أجنبى .**
- **إن المظلة العربية هى المخرج الوحيد من المأزق .**
- **إن مبدأ استخدام القوة مرفوض داخل الأسرة الواحدة .**
- **إن الاستيلاء بالقوة على الأرض يشكل تهديدا جسيما على الأمة .**
- **إن الأمن مطلب أساسى ، ولا غنى عنه للوجود أو للتطور .**
- **إن الشعور بالأمن يجب أن يتوافر لدى كل شعوب المنطقة .**
- **إننا لابد أن نتحرك فى إطار عالم اليوم ، ونتحدث بلغته .**

ثم انتهى الرئيس « مبارك » إلى القول : « إن لدينا من الصيغ ما يخرجنا من المأزق إذا خلصت النوايا وصحت العزائم » .

كان مؤدى خطاب الرئيس « مبارك » أن الوقت لم يفت ، وأن الفرصة لا تزال مفتوحة .

وكان البعض فى القاعة يعتقدون - وبعضهم يعرف - أن الوقت فات والفرصة أفلتت .

وخرج الملوك والرؤساء للصلاة ، ولبضع دقائق ظل الملك « حسين » جالسا على مقعده وقد استند بكوعيه على المائدة ووضع رأسه بين يديه ... ساكتا لا يتكلم !

وقضيت صلاة الجمعة ، وذهب بعض المؤتمرين إلى الغداء ، وتأجلت الجلسة التى كان مفروضا أن تنعقد من الساعة الثانية إلى الساعة الرابعة لإتاحة فرصة ساعتين للملوك والرؤساء العرب ليستريحوا أو يباشروا اتصالات بينهم . ثم بدأوا يعودون إلى مقر المؤتمر ، وكانت الساعة قد جاوزت الرابعة والنصف .

ورئى أن يعقد الملوك والرؤساء اجتماعا تمهيديا مغلقا قبل أن يدخلوا إلى قاعة الجلسة . وفى نفس الوقت كان وزراء الخارجية جالسين فى الانتظار فى قاعة أخرى . ثم سرت فى أبهاء المؤتمر شائعة بأن اشتباكا بالأيدى وقع بين الشيخ « صباح الأحمد الصباح » نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية الكويتى ، وبين زميله السيد « طارق عزيز » نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية العراقى . ثم تطورت القصة حتى وصلت إلى حد أن السيد « طارق عزيز » قذف بطبق عبر المائدة ، فأصاب الشيخ « صباح » فى وجهه وأسال دمه .

وقد كانت هناك مشادة بالفعل ، وسال فيها الدم ، ولكن بطريقة تختلف عما رددته الشائعات . كان الذى حدث أن السيد « طارق عزيز » دخل حيث كان ينتظره زملاؤه من وزراء الخارجية ، وجلس على مقعد مجاور لمقعد الأمير « سعود الفيصل » . وكان الشيخ « صباح » يجلس على الناحية الأخرى من وزير الخارجية السعودى . وقال الأمير « سعود الفيصل » للسيد « طارق عزيز » : « هل أسلم عليك أو لا أسلم » ؟ وقال « طارق عزيز » : « بالنسبة لى لم يتغير شىء » ! وقال « سعود الفيصل » : « بالنسبة لى تغيرت أشياء » . ورد « طارق عزيز » : « لنحتفظ بصداقتنا كبشر على الأقل » . ثم استطرد يروى أنه كانت هناك مؤامرة على العراق . وتدخل الشيخ « صباح » يقول لوزير الخارجية العراقى : « هل أنا الذى يقال عنه إنه عميل للاستعمار يا أخ طارق كما تقولون الآن » ؟ ورد « طارق عزيز » قائلا : « لسنا نحن الذين نقول بذلك ولكن تقول به الأوراق التى وجدناها عندكم » . ووجدها الشيخ « صباح » إهانة لا تحتمل ، فهمّ واقفا من مكانه مندفعا يحاول الخروج من القاعة ، وفى اندفاعه لم يلحظ أن هناك بابا زجاجيا أمامه ، فاصطدم به وسال الدم من أنفه ، وأسرع بعض مرافقيه إليه يأخذونه معهم باحثين عن إسعافات أولية وطبيب يباشره .

وكان قصر المؤتمرات ما زال فى حالة فوضى عارمة .

□

وأخيرا ، وفى الساعة السابعة والربع كان محتما أن يدخل الملوك والرؤساء إلى القاعة الرئيسية لقصر المؤتمرات ، والكل يحس أنها جلسة واحدة يحضرونها على مضض ، ثم ينفض السامر .

وقد رأى الرئيس « مبارك » بعد أن رجا الجميع أن يضبطوا أعصابهم - أن يعطى الكلمة لرئيس الوفد العراقى السيد « طه ياسين رمضان » ، ثم لرئيس الوفد الكويتى الشيخ « سعد العبد الله الصباح » . ثم يفتح الباب لمناقشة عامة حول الأزمة ، ثم يجرى بحث مشروع القرارات .

(كان الشيخ « سعد العبد الله السالم الصباح » يرأس الوفد الكويتى لأن أمير الكويت الشيخ « جابر » لم يكن يريد أن يحضر المؤتمر أصلا ، وقد حضر مكرها جزءا من جلسة الصباح ، ثم خرج من قاعة المؤتمرات إلى المطار مستقلا طائرته عائدا إلى الطائف - مقره المؤقت فى المملكة العربية السعودية) .

وبدأ السيد « طه ياسين رمضان » فشرح وجهة نظر العراق ، وركز على ضلوع الحكم فى الكويت مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وقال « إن أسرة « الصباح » كانت مشتركة مع الحكومة الأمريكية فى مؤامرة ضد العراق ، ولو لم يكن العراق قد سبق وتحرك لكانت المؤامرة قد وصلت لأخطر مراحلها ، ولنزلت فى الكويت قوات أمريكية لضرب العراق » . ثم تحدث عن فساد الأوضاع فى الكويت و « إهدار الثروة العربية بينما جماهير الأمة تعانى من فقر وحرمان » . ثم أشار إلى التحركات العسكرية الأمريكية فى المنطقة ، وقال « إن العراق ضم الكويت لأنه يريد تأمين نفسه ، إلى جانب استعادة حقوقه التاريخية والاقتصادية الضائعة » .

ورد الشيخ « سعد » فأبدى دهشته من قيام العراق باحتلال الكويت ، ومخالفة ذلك الغزو لكل دواعى الأخوة بين الأشقاء العرب . ثم روى « أنه فى محادثات سابقة فى بغداد أبلغ السيد « عزة ابراهيم » باستعداد الكويت للتنازل عن ديونه إلى العراق شريطة عدم الإعلان عن ذلك ، وأن السيد « عزة ابراهيم » أبدى سعادته لذلك ، واقترح على الشيخ « سعد » أن يذهبا معا ويبلغا الرئيس « صدام حسين » بهذا النبأ السعيد .» ثم قام الشيخ « سعد » بتذكير الحاضرين بأن أمير الكويت كان فى زيارة رسمية للعراق قبل شهور ، وأن الرئيس « صدام » أهداه أعلى وسام فى العراق ، ودعا شعراء العراق إلى مهرجان شعرى فى تكريمه . ثم تحدث عن موضوع جزر « بوبيان » و « وربة » . وقال إن « العراق طلب تأجيرها فى زمن الحرب مع إيران ، وأن الكويت اعتذرت لأن ذلك كان معناه « أن تصف نفسها » فى حالة حرب فعلية مع إيران ، فضلا عن أن إيران نفسها كانت قد تقدمت هى الأخرى بدورها بطلب لإستئجار هذه الجزر . »

وبدأت المناقشة العامة ، وكان واضحا من البداية أنها واصلة إلى طريق مسدود . فقد أثير موضوع التحركات العسكرية الأمريكية فى المنطقة ، بما فى ذلك زيارة وزير الدفاع الأمريكى « ريتشارد تشينى » والجنرال « شوارتزكوبف » للسعودية قبل يومين .

وقال الرئيس « الشاذلى بن جديد » مشيرا إلى التحركات العسكرية الأمريكية « إننا مطالبون بأن نجد وسيلة عربية بحتة لحل الأزمة ، وإلا فإننا نكون قد ضيعنا كفاح أجيال . فأجيال من شعوبنا قضت عمرها فى محاربة الاستعمار ، ولا يعقل أن نجد الآن من يمهد الطريق للاستعمار كى يعود لأراضينا بقواته العسكرية . »

وتدخل الرئيس « حافظ الأسد » فى المناقشة ، فقال « إن المؤتمرين يجب أن يفرقوا بين السبب والنتيجة ، فإذا كان هناك احتمال لتدخل عسكرى أجنبى فى المنطقة فإن غزو الكويت هو الذى تسبب فى الأزمة وليس العكس ، وإذن فعلينا أن نجد حلا للأزمة ، وسوف أكون أول من يناضل لإخراج القوات الأجنبية من المنطقة . »

وأبدى الرئيس السودانى الفريق « عمر البشير » مجموعة ملاحظات طويلة مؤداها أن وجود القوات الأجنبية هو الخطر الأكبر على الأمة فى هذه الفترة . ورد عليه الملك « فهد » قائلا : « **إن الأخ السودانى لا يعرف ماذا يقول وكلامه ملىء بالخلط ، وأنا لم أكن أنوى التحدث اليوم ، ولكنى قررت بعد كل ما سمعت أن أتكلم لأتعهد أمامكم بأن القوات الموجودة فى السعودية الآن لن تقوم بأى عمل هجومى ، ولن تتحرك خارج حدود المملكة ، وهى موجودة فقط للدفاع عنها .** »

ثم تداخلت أصوات الراغبين فى التعليق . وفى هذه اللحظة قام الأمير « سعود الفيصل » من مقعده يحمل ورقة وصل بها إلى جانب الملك « فهد» وراح يطلعه على محتوياتها . ويبدو أن الملك « فهد » أشار عليه بأن يذهب إلى الناحية الأخرى من القاعة وأن يطلع الرئيس « مبارك » عليها . وبشكل ما فإن درجة حرارة القاعة زادت فجأة بعد ذلك ، وقد عرف فيما بعد أن الورقة كانت تحمل نص نداء عراقى يناشد شعب الحجاز أن يثور على حكم الغاصبين من أسرة « سعود » ، ونداء إلى الشعب المصرى لأن يثور ويمنع بالقوة مرور حاملة الطائرات الأمريكية « دوايت ايزنهاور » فى قناة السويس .

واعتبر الملك « فهد » والرئيس « مبارك » أن هذه الدعوات الموجهة إلى شعوبهم

تحضها على الثورة - أمر غير محتمل أثناء انعقاد مؤتمر قمة عربى يحاول إيجاد مخرج من أزمة تسبب فيها العراق .

□

كانت المشاورات التى تمت بين الملوك والرؤساء قبل أن يدخلوا إلى قاعة المؤتمرات - قد ناقشت ضمن ما ناقشته اقتراحا عرضه السيد « ياسر عرفات » يقضى بإرسال وفد يضم ثلاثة من الملوك والرؤساء إلى بغداد يحملون نداء من القمة إلى الرئيس « صدام حسين » يدعو إلى خروج القوات العراقية من الكويت . وكان تقدير السيد « ياسر عرفات » ، بل وتأكيده ، أن الرئيس « صدام حسين » سوف يستجيب لنداء القمة . ويكون ذلك مخرجا يتقبله الشعب العراقى .

(وكان هناك همس فى الأروقة بأن هذا الاقتراح كان متفقا عليه بين السيد « ياسر عرفات » والرئيس « صدام حسين » لتوفير مخرج مناسب يمهد لحل .)

ولكن هذا الاقتراح لم يلق حماسة تذكر أثناء المشاورات التى سبقت الجلسة الرسمية .

وفى الجو الملبد ، بعد المناقشات العاصفة وبعد الأوراق المثيرة للأعصاب - عاد السيد « ياسر عرفات » يطرح اقتراحه . وتعالت وتقاطعت أصوات رافضة ، وتدخل العقيد « القذافى » يطلب أن يعقد الملوك والرؤساء جلسة سرية تقتصر عليهم وحدهم ، فقد لاحظ أن القاعة تسرب إليها كثير من غير أعضاء الوفود . ولم يلق اقتراحه استجابة . وعاد السيد « ياسر عرفات » يلح على اقتراحه ، وأضاف إليه أنه يتمنى أنه يكون الرئيس « مبارك » بنفسه على رأس وفد القمة . ورد عليه الرئيس « مبارك » بأنه ليس على استعداد للذهاب إلى بغداد . وقام الرئيس « مبارك » بسؤال الرئيس « الشاذلى بن جديد » : « هل الأخ الرئيس مستعد للذهاب إلى بغداد » ؟ ورد الرئيس الجزائرى بأنه « يفضل أن يذهب غيره » . والتفت الرئيس « مبارك » للملك « حسين » وسأله « إذا كان مستعدا للذهاب إلى بغداد » ؟ ورد الملك « حسين » بأنه « ذهب كثيرا إلى بغداد ، وربما يكون خيرا لو أن أحدا غيره ذهب الآن » . ورفع الملك « فهد » يده محتجا على الفكرة كلها .

وتدخل الرئيس « مبارك » : « إن لدينا مشروع قرار وزعناه فى الصباح ، وسوف أطرحه الآن للتصويت » . وارتفعت أصوات من القاعة تناشد الرئيس « مبارك » تأجيل طرح القرار للتصويت لأن المناقشة لم تستوف حقها بعد ، والموضوع خطير والظرف أخطر . وعلق الرئيس « مبارك » بأنه « لا يسمع مناقشة جادة وإنما يسمع مهاترات ، وأن قراره كرئيس للجلسة هو طرح الموضوع للتصويت » . وطلب من الموافقين على مشروع القرار أن يرفعوا أيديهم . وعد الرئيس « مبارك » الأيدى المرفوعة أمامه وقال « حداشر (أحد عشر) - أغلبية موافقة » . ثم أضاف قائلا « ترفع الجلسة » . وقام من مقعده يخرج

من القاعة وأصوات فيها تناديه أن ينتظر ، وكان أعلاها صوت « ياسر عرفات » وصوت « معمر القذافى » .

وانفعل السيد « ياسر عرفات » وصاح : « إن التصويت غير دستورى » . (يقصد أن يذكر بأن القاعدة فى الجامعة العربية هى ضرورة صدور قرارات بالإجماع ما دام يترتب عليها اجراءات تتصل بالأمن القومى) . وكان الذى رد على السيد « ياسر عرفات » هو الدكتور « مفيد شهاب » المستشار القانونى للوفد المصرى ، وقد قال له « إن القرار دستورى ، وهذا اختصاصى ، وأنا أعرف ما أقول » . وانفعل السيد « ياسر عرفات » وصاح فى الدكتور « مفيد شهاب » قائلا : « **إنكم جميعا عملاء** » ورد عليه الدكتور « مفيد شهاب » محتجا : « **إذا كنت تبحث عن العملاء فابحث عنهم عندكم وليس عندنا** » .

□

كان الوفد العراقى قد انسحب محتجا عندما بدأ التصويت . فقد اعتبر أعضاؤه أن الوفد وقع فى فخ نصب له . وخرجوا من قاعة المؤتمر متوجهين إلى المطار رأسا طالبين من بعض مرافقيهم أن يذهبوا لإعداد حقائبهم فى قصر الأندلس ، ويلحقوا بهم على الطائرة . وقد تركوا مكانهم فى القاعة لممثل العراق الدائم لدى الجامعة العربية ، ولم يجلس الرجل فى هذا المقعد بعد انسحاب الوفد طويلا لأن الجلسة ما لبثت أن تبعثرت ثم انفضت .

ووصل الرئيس « مبارك » بعد انفضاض الجلسة إلى الباب الخارجى لقصر المؤتمرات وسأل عن الرئيس « معمر القذافى » قائلا : « أين الأخ معمر » ؟ وقيل له إنه « أعلن اعتصامه داخل قاعة الجلسة » . وبعث الرئيس « مبارك » بمن يدعوه . وجاء « معمر القذافى » يصيح من بعيد قائلا للرئيس « مبارك » : « إنك لم تكن ديمقراطيا فى إدارتك للجلسة » . ورد الرئيس « مبارك » بحدة قائلا : « لا أسمح لك بأن تقول هذا » . ثم جذبه من يده بعيدا عن عشرات من أعضاء الوفود والصحفيين الذين كانوا محيطين بالرئيس المصرى يتابعون حواره المقتضب الحاد مع الرئيس الليبى . ووقف الاثنان فى ركن بعيد يتحدثان بصوت خفيض ، وضباط الحرس الجمهورى يبقون المتفرجين على مسافة كافية من الرئيسين .

□

وكان الأمين العام للجامعة العربية ومساعدوه عاجزين عن حساب الأصوات ، فالأحد عشر صوتا التى وافقت على القرار النهائى للقمة كانت سهلة تستجيب للاحصاء . وأما بقية الأصوات فقد كان واضحا أن أيديها لم ترتفع بالموافقة ، بل تومىء إلى مواقف مختلفة . وحين بدأ التقصى ظهر أن العراق وليبيا كليهما يرفض القرار ، وأن السودان وفلسطين

وموريتانيا ثلاثتها تتحفظ عليه ، وأن الجزائر واليمن تمتنعان عن التصويت . وكانت الحيرة في صوت الأردن ، وقد جرى السيد « الشاذلى القليبى » وراء الملك « حسين » يسأله بالضبط هل الأردن رافض أو ممتنع أو متحفظ ؟ ولم يكن الملك « حسين » على استعداد لأن يسمع شيئا ، وقد اكتفى بأن قال للأمين العام « أن يذهب ويسأل وزير الخارجية » . ثم عرف الأمين العام أن صوت الأردن فى صالح الامتناع عن التصويت .

وكان الملك « حسين » ـ طبقا لروايته ـ يشعر وهو يدخل مؤتمر القمة أن الموقف العربى سيىء . وفى لحظة خروجه فقد كان شعوره أن هذا الموقف ميئوس منه .

□

ولقد خطر ببال البعض فى العالم العربى أن المؤتمر كان جزءا من خطة لفتح الطريق أمام عمل تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية .

ومثل هذا القول يحمل إسرافا كبيرا فى سوء الظن . ولعل الذى ساعد على الترويج لهذه الظنون أن الولايات المتحدة الأمريكية بدت فى ذلك الوقت وكأنها المدير الوحيد للأزمة ، والممسك بزمامها ، والموزع للأدوار فيها بطريقة لم تظهر من قبل فى أى أزمة عالمية سابقة .

فمن اللحظة الأولى للغزو العراقى للكويت كان « جيمس بيكر » وزير خارجيتها قد استطاع أن يأخذ الاتحاد السوفيتى بالكامل إلى جانبه أثناء اجتماعه مع « ادوارد شيفرنادزة » وزير خارجية الاتحاد السوفيتى – فى فلاديفستك وموسكو .

ومنذ اليوم الأول كانت هى التى حركت مجلس الأمن إلى القرار رقم ٦٦٠ يوم ٢ أغسطس . وفى يوم ٦ أغسطس نجحت فى استصدار قرار مجلس الأمن رقم ٦٦١ (فرض الحصار على العراق) .

وفى الأيام الأولى للأزمة كانت قد أخذت أوروبا الغربية واليابان فى صفها .

وقبل أن يمر أسبوع كانت قد حصلت على أغلبية فى العالم العربى تغطى موقفها .

وكانت طوال الوقت تؤيد تحركاتها بمقولة نظام عالمى جديد يفرض أحكامه على الجميع . وقد تصرفت وكأنها المسئول عن هذا النظام العالمى الجديد .

وربما كان أكثر المندهشين – بأدب جم – إزاء حركة هذا النظام العالمى الجديد هو « خافيير بيريز دى كويلار » السكرتير العام للأمم المتحدة الذى وجد المنظمة الدولية فى وضع تغير فجأة عما كان يعرفه . فالدول الخمس الكبرى صاحبة العضوية الدائمة فى

مجلس الأمن متناسقة متناغمة فى تصرفاتها ، وسيطرة دول العالم الثالث على الجمعية العامة تذوب أمام عينيها لأنها فى معظمها مرهقة ومنهكة . والولايات المتحدة الأمريكية التى كانت تقاطع الأمم المتحدة تقريبا ولا تدفع لها حصصها المالية المقررة - ترسل إليها على غير انتظار شيكا بمبلغ ٥٠ مليون دولار من أصل مبالغ متأخرة على الولايات المتحدة وصلت إلى ١٤٦ مليون دولار . ووصل الشيك الأمريكى إلى مبنى الأمم المتحدة يوم الجمعة ٣ أغسطس . ثم أفاق السكرتير العام من دهشته بعد أيام ليجد أن الولايات المتحدة تتصرف خارج الأمم المتحدة . فالمنظمة أدت دورها ، والأدوار الباقية يجرى توزيعها على كثيرين بما فيهم الأمم المتحدة طبعا . ووجد « بيريز دى كويلار » نفسه - مضطرا - يقول على استحياء : « إن القوات الدولية التى تتحرك على ساحة الشرق الأوسط لا ترفع علم الأمم المتحدة ، ولا يرتدى جنودها « البيريهات » الزرقاء التى يرتديها أفراد قوات الأمم المتحدة . »

لكنه مهما قيل عن توزيع الأدوار ، ومهما كان الإسراف فى تهم سوء النية ، أو كان الإسراف فى دعاوى البراءة - **فإن تسلسل الوقائع واضح فى أن خطأ الحسابات العراقية كان شرارة فى المكان الخطأ فى الزمن الخطأ فى المناخ الخطأ .**

كانت المنطقة أشبه ما تكون بحقل ألغام هائل ، وكانت ضمانات الأمان فيه قد زالت أو أزيلت ، فأصبحت الألغام حية تصلها شرارة واحدة فإذا هى جحيم .

كانت حرب البترول الثالثة قد بدأت فعلا .

الفصل السابع

دبلوماسية الإشارات !

« اسمعنى جيدا . إنك تقف وراء الطرف الخاسر ، وأريدك أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان » .

[« مارجريت تاتشر » رئيسة وزراء بريطانيا للملك « حسين » سبتمبر ١٩٩٠] .

١

ابتداء من يوم ٥ أغسطس ١٩٩٠ لاحت إشارات تومىء إلى أن العراق بدأ يشعر بشكل ما أنه يواجه خطرا داهما .. وأن ردة الفعل التى وجدها أمامه بعد غزو الكويت كانت أخطر بكثير مما حسب وقدر .

لقد وقف الغرب كله موقفا واحدا تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية التى كانت تحركاتها العسكرية والسياسية قاطعة فيما تعنيه .

وتحول مجلس الأمن بين يوم وليلة فأصبح مجرد ختم يقوم بالتصديق على مشروعات قرارات تقدمها الولايات المتحدة ، وتؤكد بها هيمنتها على « الشرعية الدولية » .

وبدا الاتحاد السوفيتى ـ وحتى الصين ـ على استعداد لمجاراة الولايات المتحدة إلى آخر الشوط .

وفى نفس الوقت فإن المحظورات العربية التقليدية ـ ومن ضمنها الامتناع عن السماح لقوات أجنبية بالتحشد فوق أراض عربية ـ على وشك أن تتهاوى .

ولم يكن هناك أقدر من العراق على فهم الحقائق الصارخة فى قرار مجلس الأمن رقم ٦٦١ الذى يفرض الحصار الاقتصادى على العراق .

ثم كان بعد ذلك حديث الملك « حسين » ـ وهو المطلع العارف بسياسات الغرب ونواياه ـ وملخص كلامه أن الحرب قادمة ما لم تحدث معجزة تحول دون وقوعها فى آخر لحظة .

ثم أضيف إلى كلام الملك « حسين » واقع أن الحديث عن مؤتمر قمة مصغر يعقد في جدة قد انمحى أثره وكأن الاقتراح لم يطرح ، فى الوقت الذى تفاقمت فيه انقسامات الأمة على نفسها إلى حد الانفلاق .

ثم طرأ أن وزير الدفاع الأمريكى « ريتشارد تشينى » ومعه الجنرال « شوارتزكوبف » كانا على وشك التوجه إلى السعودية ، وهما بالطبع ليسا ذاهبين إلى نزهة فى الصحراء . وإذن فقد كان على العراق أن يتصرف بسرعة .

□

كانت هناك إشارات إلى بداية تحولات فى التفكير العراقى ـ ومع ذلك فلأول وهلة بدت التصرفات العراقية وكأنها تسير على خط يتعارض مع هذه التحولات .

ففى هذه الفترة أقدم العراق على ضم الكويت ، وكان هذا تصعيدا في الأزمة من جانبه . وبرغم ذلك فإنه من الجائز أن يكون التصعيد فى بعض أساليب إدارة الأزمات وسيلة إلى تعزيز الموقف التفاوضى للأطراف . فعندما يصعد أحد الأطراف موقفه (ولديه ما فيه الكفاية من أوراق اللعب) ـ فإنه بذلك قد يستطيع تحريك نقطة الحل الوسط الذى يمكن التراضى عليه بالمفاوضات إلى موقع أكثر ملاءمة له . ثم إنه من ناحية أخرى يعطى الاشارة للأطراف الأخرى بأنه على استعداد لأن يمشى فى المخاطرة إلى نهايتها ومهما كانت النتائج . وهذا قد يدفعها إلى حسابات أخرى .

ولقد زاد العراق على ذلك إعلانه بعد أيام قليلة عن مبادرته التى قضت بالربط بين كل القضايا العربية المعلقة ، من فلسطين والانتفاضة ، إلى لبنان والاحتلال السورى والإسرائيلى ، إلى توزيع الثروة العربية توزيعا عادلا . وكان هدفه الواضح أن يحيط نفسه

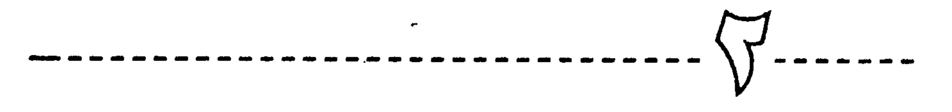
بنطاق من تأييد الجماهير العربية ومساندتها ، مع إحساسه المتزايد بأن الحكومات العربية فى معظمها واقفة ضده وعلى استعداد غير محدود للتعاون مع الحصار الذى يزداد من حوله ، والذى أصبح طوقاً اقتصاديا حديديا يوشك أن يتحول إلى طوق من النار .

وربما أن مبادرة ربط القضايا العربية كلها بعضها ببعض ، مثل التصعيد بضم الكويت قبلها ، كانت تحضيرا لموقف تفاوضى يريد تفادى نشوب الحرب أكثر مما يسعى لها ، أو يرتب نفسه لملاقاتها .

ولعل الظن فى العراق وقتها هو أن جعل الجبهة صعبة واسعة هو السبيل إلى النزول بها من ذروة الخطر ، بما يتيح فرصة لمخرج مقبول .

وهكذا راح العراق يبحث عن طريق .

وكان عليه أن يتحرك على هذا الطريق - إذا عثر عليه - بحذر ، وألا تظهر منه بادرة توحى بتحول فى موقفه ، ذلك أنه إذا كان يلوح بالتصعيد وباستعداده للمخاطرة إلى آخر المدى مستندا إلى تأييد كتل عربية واسلامية شدها خطابه - فإن ظهور إشارات مختلفة قد يفسد الحركة كلها .



كان العراق الآن فى حالة شك أخذته بالكامل ، وكانت أكثر شكوكه اليوم فى أقرب أصدقائه بالأمس .

وقرر الرئيس « صدام حسين » أن يقوم بما يمكن تسميته بعملية جس نبض مباشرة مع الولايات المتحدة لا يعتمد فيها على أحد .

وكان تصوره أنه مازال فى مقدوره أن يشرح نواياه ، وأن يطمئن إلى مقاصده ، وأن يشير من طرف خفى إلى أن الباب ما زال مفتوحا لكل شيء .

وهكذا دعا إلى مقابلته القائم بالأعمال الأمريكى « جوزيف ويلسون » (وقد بقى فى بغداد بعد سفر « ابريل جلاسبى » فى إجازتها السنوية ، وقام بمهام السفير) .

وتمت المقابلة فعلا فى الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٦ أغسطس ١٩٩٠ .

ولعل دراسة محضر هذا الاجتماع الذى جرى بين الرئيس العراقى وبين القائم بالأعمال الأمريكى بعد أربعة أيام من الغزو العراقى للكويت تظهر مجموعة رسائل أراد بها الرئيس العراقى شرح نواياه والتطمين إلى مقاصده - مباشرة للرئيس الأمريكى .

● **كان مؤدى الرسالة الأولى** أن الرئيس « صدام » على استعداد لأن يتفهم رد الفعل الأمريكى إزاء دخول العراق للكويت - وهكذا كان قوله للقائم بالأعمال الأمريكى كما يلى :

« أنا مطلع على الموقف الأمريكى بتفاصيله . حتى الآن نحن نفهم أنه عندما يحصل مثل هذا الوضع ، فإن أمريكا تتخذ موقفا . ولسنا مستغربين من أن تشجب أمريكا عملا من هذا النوع ، وخاصة عندما لا تكون طرفا فيه . ولكنى أردت أن أقول إن على أمريكا ألا تندفع تحت استشارات مخطئة إلى عمل تجد نفسها معه موضع الإحراج .»

● **وكان مؤدى الرسالة الثانية** أن التدخل العسكرى العراقى فى الكويت عمل يقتصر على الكويت لظروف تاريخية خاصة ، ولا ينسحب على أى بلد غيرها ـ وهكذا كان قوله للقائم بالأعمال الأمريكى كما يلى :

« الكويت كانت دولة ومازالت ضمن حدود غير معروفة ، أى دولة بلا حدود ، حتى حصل الذى حصل فى زمن عبد الكريم قاسم . لماذا حصل هذا فى ١٩٦١ ؟ كان عبد الكريم قاسم وكل العراقيين يعرفون جيدا أن الكويت عراقية ، وأن حاكم الكويت كان قائم مقام فعلا ، وأنه يستلم الراتب من حاكم البصرة ، وهذا الحال استمر حتى ١٩١٢ . ثم جاءت بعد ذلك الحرب العالمية التى أدت لظروف جديدة . إذن بغض النظر عن التفاصيل ، فإن تطورات الوضع التى حصلت داخليا فى الكويت ، والدخول العراقى لا تصلح مقياسا للعمل بها فى عموم الوطن العربى . »

● **وكان مؤدى الرسالة الثالثة** أن الرئيس العراقى يعرف حجم المصالح الأمريكية فى السعودية ، وأنه ليس واردا بالنسبة إليه تهديدها - وهكذا كان قوله للقائم بالأعمال الأمريكى كما يلى :

« أنتم تعرفون أننا بنينا علاقة جيدة جدا مع السعودية تدرجت من عام ١٩٧٥ وتطورت بشكل جيد حتى قبل ٢ آب (أغسطس) ، والثقة بيننا والتنسيق حتى ٢ آب كانت تجرى على كل المستويات . وعلى حد ما نعرفه مما هو معلن فى سياسة أمريكا ، فإننا لم نجد أن علاقة جيدة بين العراق والسعودية تلحق ضررا بالمصالح الأمريكية . بل إنها (العلاقات الجيدة بين العراق والسعودية) كانت أحد عوامل الاستقرار فى المنطقة . واللعب فيها يلحق ضررا كبيرا بأمن المنطقة وبمصالح الولايات المتحدة . ومن هذا فإننا لا نفهم معنى التحول الفورى للقول بأن الأمريكان يخافون من القوة العراقية على

السعودية ، وتواتر الأحاديث والتصريحات بأن الدور بعد الكويت سيكون على السعودية . إن السعودية إخواننا ، وساعدونا فى الحرب ، وبمبادرة منهم حصلنا على أنبوب النفط ، وساعدونا بمساعدات نقدية كمنح وليس كقروض ، بعضها لم نطلبها وإنما بمبادرة منهم . إذن إذا كنتم قلقين فعلا على السعودية ، فإن قلقكم غير واقعى . وإذا كنتم تتظاهرون بالقلق لكى تدفعوا بالسعودية للقلق فهذا شىء آخر . »

● **وكان مؤدى الرسالة الرابعة** أن الرئيس « صدام » حريص على مصداقيته لأن الولايات المتحدة الأمريكية تتهمه بين ما تتهمه به أنه كذب على آخرين - وهكذا كان قوله للقائم بالأعمال الأمريكى كما يلى :

« حصلت إشاعات أن صدام حسين أعطى وعدا لبعض المسئولين العرب بألا يستخدم القوة بأى شكل من الأشكال وتحت كل الظروف ضد الكويت . وعلمنا بصورة أو بأخرى أن بعض المسئولين العرب أعطوا للأمريكان مثل هذا الاستنتاج . والذى يهمنى ألا يأخذ الأمريكان أى انطباع بأننا لا نهتم بمصداقيتنا . أنا لم أعط مثل هذا التعهد لأى عربى ، والذى حصل أن بعض الأشقاء كانوا يتحدثون معى عن وجود حشود للعراق باتجاه الكويت . وكانوا يقولون لى بأن الكويتيين قلقون وخائفون . قلت لهم إننى أتعهد لهم بألا نقوم بأى عمل عسكرى قبل أن ينعقد الاجتماع الذى اتفقنا عليه فى جدة ، وهذا حصل . ولم يحصل أى عمل عسكرى كلى أو جدى قبل هذا الاجتماع . ولأننا كنا ننتظر نتيجة جدية من اجتماع جدة ، فإننا لم نتخذ القرار إلا بعد رجوع نائب الرئيس ليقول لنا إن الموقف الكويتى كما هو . »

● **وكان مؤدى الرسالة الخامسة** أن الرئيس « صدام حسين » يؤكد أن العراق حريص على علاقة طيبة مع أمريكا ، وهذه سياسة مرسومة ومقررة . وهكذا كان قوله للقائم بالأعمال الأمريكى كما يلى :

« أنتم تعرفون أن نفط العراق يباع لكم منذ جئنا للحكم رغم أن العلاقات كانت مقطوعة آنذاك . وازداد حجم التعامل بعد إعادة العلاقات فى ١٩٨٤ وإلى أن اتخذتم قراركم بمقاطعة النفط العراقى . إنكم تستوردون بحدود ثلث الكمية التى نسوقها للخارج . وهذا حصل ليس بمبادرة من الفنيين وبتفضيل الأسواق ، وإنما تم بقرار سياسى . »

● **وكان مؤدى الرسالة السادسة** أن الرئيس « صدام » يعرف الفارق فى القوة بين العراق وبين الولايات المتحدة ، ولكنه يعتقد أن الولايات المتحدة قد تخسر الكثير فى هذه الحرب . وهكذا كان قوله للقائم بالأعمال الأمريكى كما يلى :

« أنتم دولة عظمى ونعرف أنكم قادرون على إيذائنا كما قلت للسفيرة ، ولكنكم

ستخسرون المنطقة بعدها ، وسوف لن تستطيعوا إركاعنا لو أستخدمتم كل أسلحتكم . تستطيعون أن تدمروا الحلقات العلمية والاقتصادية والنفطية ، ولكن كلما دمرتم أكثر أصبح العبء عليكم أكبر . »

● **وكان مؤدى الرسالة السابعة** أن العراق يريد صداقة الولايات المتحدة ويتفهم ويقدر حجم مصالحها ، وهو فى نفس الوقت على استعداد للدفاع عن نفسه فى أى ميدان . وهكذا كان قول الرئيس « صدام حسين » للقائم بالأعمال الأمريكى كما يلى :

« ثم لماذا تريدون معاداتنا . لقد ارتكبتم أخطاء شنيعة عندما أضعفتم أصدقاءكم إلى حد كبير ، حتى أصبحوا غير قادرين على التأثير فى نظر شعوبهم . وفيما نرى أنكم قادرون على تدبير مصالحكم مع العناصر القوية القومية الواقعية أكثر مما أنتم قادرون على ضمان مصالحكم مع الضعفاء . إن بعض الأوساط الغربية والأمريكية كانت ترتب الأوضاع لعدوان إسرائيلى ضدنا . فكان لابد أن نتحرك قبل أن ترتكب حماقة ضدنا . ونعتقد أن هذا أنفع للسلام من السكوت . ومن ثم نرتكب إسرائيل حماقتها فنرد عليها . بغداد تتحمل صواريخ كثيرة ، لكن مدن إسرائيل لا تتحمل . »

وأنهى الرئيس « صدام حسين » مجموعة رسائله إلى الرئيس « جورج بوش » قائلا :

« الخلاصة ، إذا كان الذى يريده الرئيس الأمريكى هو المعلن عن سياسته من المصالح الأمريكية فى المنطقة ، كما تحدثنا عنها ، فإننا نرى أن التصعيد والتوتر والتصرف العسكرى هو ضد هذه المصالح . أما إذا كانت هناك مصالح أخرى لأمريكا لا نعرفها غير ما ذكرنا ، فهذا شأن آخر .»

ثم قال :

ـ « هذه هى رسالتى الجديدة التى أريد أن تصل للرئيس بوش » .

ودار حوار سريع العبارات بين القائم بالأعمال الأمريكى « جوزيف ويلسون » والرئيس « صدام حسين » ظهرت من خلاله رسائل إضافية موجهة إلى الرئيس « بوش » :

ـ تعهد كامل بعدم التعرض للسعودية ـ واستعداد واضح للانسحاب شرط توفير مناخ مناسب ـ وسماح جاهز بسفر الرعايا الأمريكيين والأجانب من العراق .

ويمضى الحوار سريعا بين الرجلين على النحو التالى :

قال القائم بالأعمال الأمريكى « جوزيف ويلسون » :

ـ « سوف أنقل ما قلتموه لى تليفونيا فور وصولى إلى السفارة ، وبعد ذلك سوف أرسله مكتوبا » .

ثم رأى القائم بالأعمال أن يتأكد من عدم وجود تهديد ضد السعودية ، فقال :

ـ « إننى جئت إلى هنا بثلاث أفكار فى ذهنى تعكس قلق حكومتى :

١ – طبيعة الغزو ، وتعلمون موقف حكومتى منه .

٢ – النوايا تجاه السعودية .»

وهنا قاطعه الرئيس « صدام حسين » قائلا :

ـ « ما الذى يطمئنكم لإزالة القلق عن السعودية ؟ »

فأجاب القائم بالأعمال :

ـ « لا أعلم .. ولكنى سوف أسأل رئيسى . ولأنى أعرف أنك رجل واضح وصريح فإنى أريد تأكيدا منكم بأنه ليس فى نيتكم أى عمل عسكرى ضد السعودية .»

ورد عليه الرئيس « صدام حسين » قائلا :

ـ « تستطيع أن تأخذ هذا التأكيد إلى السعودية ، وإلى كل إنسان فى الشرق الأوسط » .

وعاد القائم بالأعمال لاستكمال النقطة الثالثة التى جاء بها إلى المقابلة مع الرئيس « صدام حسين » فقال :

ـ « ٣ ـ سلامة المواطنين الأمريكان والسماح لهم بالمغادرة . وهذا يشمل الأمريكان فى الكويت ورغم انسحابكم من هناك . »

والتقطها الرئيس « صدام حسين » بسرعة فقال للقائم بالأعمال :

ـ « كيف تقولون إنه لم يحصل انسحاب ، ثم تقولون شىء آخر بعد ذلك ؟ »

وقال « ويلسون » :

ـ « أنا شاهدت ثلاث قوافل تنسحب فى اتجاه البصرة ، وقد أبلغت واشنطن بذلك » .

وقال الرئيس « صدام حسين » :

ـ « قواتنا أخذت ثلاثة أيام لدخول الكويت ، وبالنسبة للانسحاب لا يمكن أن يتم بيوم واحد . وإن انسحاب القوات يعتمد على الجو الدولى ، ولن نترك الكويت لقمة سائغة لأحد ولو قاتلنا الكون كله . ولو ازداد التهديد على الكويت سنضاعف القوات هناك . وكلما التهديد كان بحجم معين ، تغير الحجم (حجم القوات العراقية) ، وعندما ينتهى التهديد تنسحب كل القوات . ولا نريد تحويل الكويت إلى لبنان أخرى . وليس من المصلحة أن ينسحب الجيش العراقى بسرعة ، وأن نترك الكويت للأطراف المتصارعة .»

وانتهت المقابلة نهاية ودية بأن قال الرئيس « صدام حسين » :

ـ « لا تقلقوا على سلامة مواطنيكم الأمريكان ، إلا إذا كنتم تنوون الهجوم علينا ، ولذلك تريدون إخلاءهم ؟ »

ورد « ويلسون » قائلا :

ـ « كلا .. وإنما واجبى إعطاؤهم حق المغادرة . وأنا شخصيا سوف أبقى وأنا أحب الحياة . وأريد أن أقول لكم إنه خلال الأزمة فتحت أمامى وأمام زملائى كل الأبواب فى وزارة الخارجية من الساعة ٨ صباحا وحتى ٤ الفجر ، وأنا أقدر رغبتكم فى أن تلتقوا معى . وأود أن أثنى على الحرفية العالية لعمل وزارة الخارجية . فالحوار هو شريان الحياة بالنسبة للدبلوماسيين ، وكذلك للسياسيين .»

ورد عليه الرئيس « صدام حسين » قائلا :

ـ « ها أنت ذا تثنى على زملائك الدبلوماسيين ، ولكنك لم تثن علىّ لأنى طلبتك شخصيا كى تنقل رسالتى للرئيس .»

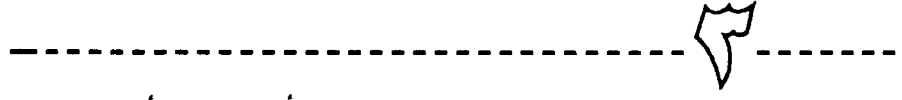
وكانت عبارة « ويلسون » الأخيرة :

ـ « إذا رجعتم إلى المحضر ، فسوف تجدون أننى شكرتكم جدا » .

وانتهى اللقاء ، والمفروض أن تكون الرسائل طارت بعده ...

وانقضت ساعات .. ويوم ويومان وثلاثة ، وليس هناك رد من واشنطن ، أو من الرئيس « بوش » ، والمظاهرات العسكرية ماضية فى طريقها لا تتوقف لتسمع كلمة ، أو تقرأ رسالة يبدو أنها تاهت فى وزارة الخارجية التى كان الرئيس « صدام » يشك فى كبار مسئوليها ، باستثناء وزيرها « جيمس بيكر » .

ولعل بغداد راحت تسائل نفسها : كيف يمكن أن تجد قناة مباشرة للاتصالات مع البيت الأبيض !



٣

للدبلوماسية السرية تاريخ طويل فى منطقة الشرق الأوسط ، ذلك أنه بعد انحلال الخلافة فى العصر العباسى الثانى ، وظهور القادة الترك الذين سيطروا على مقادير

الدولة - نشأ وضع تفسخت فيه الدولة الاسلامية الكبرى التي كان لها الولاء فى الأقطار والأمصار الممتدة من بحر الهند إلى بحر الروم (البحر الأبيض) .

كان الولاة الأتراك فى بغداد يتخذون من الخلفاء لعبة فى أيديهم ، وكان حكام الأقاليم وولاتها قد انفردوا بالسلطة فيها ، ولم يعد للخليفة من وجود إلا الدعاء له على منابر المساجد إذا سمح الولاة المحليون بذلك . وبرزت الزعامات القبلية والطائفية والعرقية التى تضمها الجامعة الاسلامية لكى تمارس صلاحيات كانت محجوبة عنها بهيبة أمير المؤمنين وهيلمانه .

وكان لابد من مراسلات ورسل فى الخفاء بين كل هذه الأطراف المتنافسة والمتنازعة ، وكل طرف يحاول أن يعزز مركزه ويدعم صلاته وتحالفاته فى غيبة من الآخرين .

وفى العصور المملوكية استفحلت الظاهرة ، ف « الأمراء » الذين جلبهم تجار الرقيق للسلاطين كانوا بلا ماض وبلا مستقبل ، ولا أحد فيهم يرتبط بموطن أو بمطلب إلا ما يستطيع أن يصنعه بنفسه ولحياته وبالمصادفات ، وإذن فهو داخل فى علاقات مع من حوله مصلحية وقصيرة الأجل ومحددة ، وإذن فلابد من صلات وإتصالات وتوازنات ، وبالتالى لابد من مراسلات ورسل فى الخفاء بين الطامعين والمغامرين هنا أو هناك .

وفى عصور المماليك لم يكن الصراع على السلطة بعيدا عن الصراع على طرق التجارة ، والشاهد أن الخزائن والملفات القديمة للمدن التجارية الأوروبية مثل « البندقية » (فينيسيا) و «فلورنسا » و «جنوا » - كانت حافلة بالتقارير والرسائل التى حملها مبعوثون من هذه المدن وتجارها وحكامها إلى الأمراء المماليك تروى العجائب عن قصص الدبلوماسية السرية وخفاياها .

وعندما نشأت الامبراطورية العثمانية وحاولت ضم أطراف الدولة الإسلامية ، كانت المطامع الأوروبية قد نشطت تحاول أن تواصل الحروب الصليبية بوسائل أخرى . ولقد ثبت الخلفاء العثمانيون عددا كبيرا من أمراء المماليك على أقطارهم لضمان الجزية ، وكانت النتيجة أن الاتصالات السرية مع القوى الخارجية أصبحت ضرورة . فولاء أمراء المماليك للخلافة كان أمرا مشكوكا فيه ، ومطامع الدول الأوروبية فى المنطقة - وهى الممر البرى الأقرب إلى تجارة الشرق - ليست موضع شك .

وفى تلك الفترة مرت على ساحات الشرق ظلال رجال غامضين ، تجارا ، ورحالة ، ومبشرين ، ومستكشفين - وكان معظمهم رسلا إلى سلاطين وأمراء وشيوخ فى المنطقة ، فقد كانت كل القوى تسعى إلى صلات وعلاقات مع العناصر المحلية فى غيبة من السلطنة العثمانية وبابها العالى .

وعلى سبيل المثال فإن الدبلوماسية السرية قامت بدور مهم فى تجربة « على بك الكبير » فى مصر ، وهى تجربة لم تكن بريطانيا ولا روسيا بعيدتين عنها .

وأثناء الحملة الفرنسية على مصر قامت الدبلوماسية السرية بدور كبير فى جعل بقاء « نابليون » فيها مستحيلا . ونفس الدور للدبلوماسية السرية تكرر فى ولاية « محمد على » على مصر ، وزاد فى عصر أسرته من بعده ، فقد اشتدت الدبلوماسية السرية فى المنافسة بين بريطانيا وفرنسا ومحاولاتهما المحلية ضد دولة الخلافة . بل إن الامبراطورية البريطانية ممثلة فى حكومة الهند نفذت بالدبلوماسية السرية إلى فيافى الصحراء ، وإلى قبائلها المتنقلة وراء المراعى المهددة أو الحامية لطرق القوافل ، وكانت الجمال المحملة بأثواب حرير الهند تدس فى ثنايا الحرير أوراق المراسلات وطلبات السياسة ومكافآت الذهب .

وغير القبائل نشطت العلاقات مع الطوائف والأقليات ، وفى حين نجح الفرنسيون بالدبلوماسية السرية مع الطائفة المارونية ، فإن الانجليز نجحوا مع الطائفة الدرزية فى جبل لبنان ، وفى نفس الوقت لم تنجح الامبراطورية الروسية بواسطة المبشرين الأرثوذكس مع الكنيسة القبطية فى مصر .

وفى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، والصراع الامبراطورى على البحار على أشده ، وشواهد البترول تلوح من بعيد - بدأت الطوائف والقبائل تطالب بأن يكون حملة الرسائل السرية من الرسميين حتى تكون لرسائلهم قوة الوعد والتعهد ، وهكذا ظهر رجال من أمثال « كوكس » و « لورانس » ، ونساء من أمثال « جرترود بل » و «فريا ستارك » .

□

وعندما بدأت الولايات المتحدة تدخل الشرق الأوسط ، وتحاول إرث امبراطوريات حلفائها فيه ، كانت البداية هى الدبلوماسية السرية . وفى فترة الحرب العالمية الثانية وبعدها مباشرة ، كان حملة الرسائل السرية الأمريكية رجال من أمثال « دافيد روكفللر » و « جون ماكلوى » و « روبرت آندرسون » و « يوجين بلاك » ، وقد لعب هؤلاء الرجال أدوارا كبرى فى الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين .

ولقد فهم العرب من جانبهم أهمية الدبلوماسية السرية ، فلم يعودوا طرفا متلقيا فقط ، وإنما أصبحوا أيضا طرفا مرسلا لأن مطالبهم فى الغرب - وفى الولايات المتحدة بالذات - زادت ولم تعد وزارات الخارجية كافية ، فوزارات خارجية العالم الغربى لم تعد صانعة القرار ، وإنما دخل فى القرار شركاء آخرون بعضهم أقوى من وزراء الخارجية ، ثم إن

وزارات خارجية العالم العربى جديدة لم تظهر قبل العشرينات من هذا القرن فى مصر ، ولم تتعلم كثيرا خارج الدبلوماسية الأحادية مع دولة بالذات (بريطانيا في حالة مصر والعراق - وفرنسا فى حالة سوريا ولبنان) . وعلى أى حال فهى - سابقا أو لاحقا - لم تكن قناة اتصال يمكن الاعتماد عليها وحدها ، فى عوالم تتغير !

وعلى سبيل المثال ، فإن رجل الأعمال اللبنانى الأسطورى « اميل البستانى » حمل رسائل كثيرة من « جمال عبد الناصر » إلى حزب العمال فى بريطانيا أثناء حكم المحافظين ، كما أن الصحفى الأمريكى الأشهر « والتر ليبمان » حمل أكثر من رسالة منه إلى الرئيس الأمريكى « دوايت ايزنهاور » .

والأمثلة بلا حصر ، وإلى ما لا نهاية ...

وعندما تحملت الثورة الفلسطينية مسئوليتها كانت الدبلوماسية السرية أحد أهم وسائلها فى الاتصال ، واستطاع عدد من رجال الأعمال الفلسطينيين الكبار أن يكونوا رسلا لها من البيت الأبيض في واشنطن - إلى ١٠ « داوننج ستريت » مقر رؤساء وزارات بريطانيا فى لندن .

وعندما وقع انفجار الخليج ، وقرر العراق أن يبحث عن طريق للدبلوماسية السرية ، فإن الباب الفلسطينى كان هو الباب الذى طرح نفسه عليه سواء بقرب المنظمة من بغداد فى ذلك الوقت ، أو بإحساس المنظمة أنها مطالبة بتسهيل الأمور للعراق لعل وعسى أن ينفتح منفذ لتبادل وجهات النظر بطريقة لا تؤدى إلى إحراج أحد ، وقد تستطيع الوصول إلى نتيجة .

□

كان أهم رسل منظمة التحرير الفلسطينية - إلى مواقع النفوذ والقرار فى واشنطن - رجل أعمال فلسطينى بارز ، وكانت له صلات وثيقة بعدد واسع من صناع القرار الأمريكى ، وكان بينهم الآن - أغسطس ١٩٩٠ - سياسى يشغل موقعا بالغ الحساسية بالقرب من الرئيس الأمريكى « جورج بوش » .

وفى يوم ٨ أغسطس تحرك أحد أجهزة « الفاكس » فى البيت الأبيض يحمل رسالة إلى السياسى الأمريكى القريب جدا من « بوش » ، وكان نصها كما يلى : (١)

---

(١) رأيت لأسباب متعددة أن أحذف اسم المرسل ، والمرسل إليه حفاظا على الاثنين معا من التعرض لحرج بعد كل ما جرى فى أزمة وحرب الخليج .

● سرى جدا وشخصى

إلى : ________________

من : ________________

التاريخ : ٨ أغسطس ١٩٩٠

- يوم الأحد ٥ أغسطس بين الساعة الرابعة والسابعة بعد الظهر بتوقيت لندن تلقيت مكالمتين تليفونيتين من صديقى الطيب نزار حمدون وكيل وزارة الخارجية العراقية الذى سألنى باسم وزير الخارجية العراقى عما إذا كنت أستطيع أن أذهب إلى بغداد ، ومعى إذا أمكن المستر (........) فاعتذرت له بدواعى الأمن ولأسباب عائلية .

- وفى نفس الوقت تقريبا اتصل بى الرئيس عرفات الذى كان فى مهمة وساطة بين الكويت والعراق ، وكان يحدثنى من بغداد ، وقد كرر علىّ نفس الطلب (الذهاب إلى بغداد) ، ومرة ثانية اعتذرت مقترحا أن أقابله فى أى مكان آخر قريب من لندن ، وقد وافق على ذلك .

- ويوم الاثنين (٦ أغسطس) اتصل بى السيد نزار حمدون مرتين فى محاولة لإقناعى بالذهاب إلى بغداد ، ولكنى تمسكت بموقفى .

- وفى نفس الوقت تشاورت فى الموضوع مع ريتشارد ميرفى (وكيل وزارة الخارجية الأمريكية السابق) الذى اتصل بوزارة الخارجية ، ثم اتصل بى لينصحنى بعدم الذهاب إلى بغداد ، وبأن أية اتصالات يجب أن تتم إما بواسطة السفارة الأمريكية فى بغداد ، أو بواسطة السفارة العراقية فى واشنطن ، وهذا هو الذى دعانى لكى أبعث إليكم بهذه الرسالة .

- ويوم الاثنين فى المساء اتصل بى الرئيس عرفات من جدة ، واقترح أن نلتقى فى اليوم التالى فى فيينا التى سيذهب إليها ليحضر جنازة المرحوم برونو كرايسكى .

- ويوم الثلاثاء ٧ أغسطس وصلت إلى فيينا ، والتقيت بالرئيس عرفات الذى قصد بعد ذلك إلى جدة .

- إن الرئيس عرفات أخبرنى أنه خلال اجتماع له مع الرئيس صدام حسين فإنهما اتفقا معا على ضرورة إقامة خط اتصال مباشر بين بغداد وواشنطن ، وورد اسمى فى هذا الصدد كوسيط محتمل ، وكان هذا هو السبب وراء كل الاتصالات التليفونية التى جاءتنى من بغداد .

- إن الرئيس عرفات قال لى إنه قلق جدا من التدهور السريع فى الموقف ، وأنه يجب تداركه فورا . وقد قال لى إن الوفد الفلسطينى إلى مؤتمر وزراء الخارجية

العرب فى القاهرة اتخذ موقفا غير منحاز لطرف لكى يحتفظ بفرص الوساطة مفتوحة .

- إن الرسالة التى كان مطلوبا أن أنقلها لواشنطن من بغداد طبقا لما قاله لى الرئيس عرفات تعرض الاتفاق التالى :

١ - إن القوات العراقية سوف تنسحب من الكويت .

٢ - إن أسرة الصباح يمكن أن تعود .

٣ - حتى يتم الاتفاق على تسوية نهائية ، فإنه يجب أن يكون هناك وجود عسكرى عراقى فى جزيرة بوبيان ، وفى منطقة الحدود المختلف عليها فى شمال الكويت .

٤ - إن قضية الديون العراقية للكويت ، والتعويضات المستحقة للعراق (نتيجة الضخ الكويتى من حقل الرميلة) يمكن تسويتها على نحو مرض للعراق .

٥ - إن الرئيس العراقى على استعداد للتوصل إلى اتفاق مع الإدارة الأمريكية على كل المسائل المتعلقة بالبترول .

- إن الرئيس عرفات أضاف نقطة أخرى تتصل بالخطر الذى يمكن أن ينجم عن انسحاب عراقى من غير ترتيبات مؤقتة وبديلة ، وهو متنبه لاحتمال قلاقل تثيرها إيران أو عناصر متشددة ، وهو يعتقد أن قوة طوارىء عربية يمكن أن تتمركز فى الكويت مؤقتا كما حدث سنة ١٩٦١ حينما قام الجنرال قاسم بتهديد الكويت .

- رأى خاص :

إن الوضع شديد الحساسية وقابل للانفجار ومعبأ بالمخاطر إلى درجة أننى لا أستطيع المغامرة بإبداء رأى .

ومع ذلك فإنى أشعر أن علىَّ أن أضيف أن الرئيس عرفات واحد من قلة قليلة من الناس لديهم اتصال مباشر بالرئيس صدام حسين ، وهو على هذا النحو قادر وسط الظروف المكفهرة على أن يفتح طاقة يمكن من خلالها لواشنطن ولبغداد أن تدخلا على مجرى حوار بدلا من تصادم كامل .

وإذا دعت الحاجة فإننى على استعداد للمجىء إلى واشنطن .

مع كل تحياتى .

(إمضاء) ●

ولم يتلق صاحب الرسالة جوابا عليها غير صمت مطبق من البيت الأبيض .

وكان واضحا أن « بوش » لا يريد أن يفتح بابا لاتصالات علنية أو لاتصالات سرية ، وبالعكس كان الرد برسائل وإشارات من نوع آخر .

□ □ □

كانت الجسور البحرية والجوية إلى السعودية مزدحمة على الآخر بقوات الحشد . وكان واضحا أن الولايات المتحدة تحاول وضع حجم كاف من القوات فى السعودية يقلل بأسرع ما يمكن فترة تعرض السعودية لإمكانية عمل عسكرى يقوم به العراق لاستباق الحشد الأمريكي . وكانت تلك فترة خطيرة وصفها الجنرال « نورمان شوارتزكوبف » بأنها كابوس استمر أسبوعا بأكمله . فقد كانت الاستطلاعات الأمريكية تشير إلى وجود ٨٠٠ دبابة عراقية معظمها من طراز « تى ٧٢ » متمركزة حول البصرة ، وفى نفس الوقت فإن المسافة بينها وبين حقول نفط السعودية لم يكن فيها أكثر من ألف جندى من الحرس الوطنى السعودى . وكانت طلائع القوات الأمريكية التى وصلت إلى قاعدة الظهران وراء الخطوط بكثير لا تزيد فى ذلك الوقت عن لواءين وقوة جوية محدودة . ولم يكن الجنرال « شوارتزكوبف » على استعداد لأن يسمح للاطمئنان بأن يداخل أعصابه إلا بعد أن يتأكد أن لديه على الأرض فرقتين على أقل تقدير (أى قرابة ٤٠ ألف جندى) . وكانت الحسابات أن يتحقق ذلك خلال أسبوع . وبالتالى فإنه فى تلك الفترة لم يكن هناك ما هو أدعى لطمأنة الساسة والعسكريين الأمريكان أكثر من التأكيدات التى تجيئهم كل يوم من العراق تؤكد أنه لا ينوى القيام بأى عمل ضد السعودية . وكان العراق يقولها لمعنى يقصده ، وكان صناع القرار السياسى والعسكرى الأمريكي يريدونها بالمعنى الذى يريحهم .

وفى ظرف أيام كان الحشد الأمريكى قريبا من تحقيق هدفه ، وأصبح واضحا أن الثغرة التى كانت مفتوحة أمام العراق يجرى إغلاقها بسرعة .

ومن ناحية أخرى كانت قرارات الحصار الاقتصادى ضد العراق تتسارع اجراءاتها :

راحت قطع الأسطول الأمريكى تشاركها قطع من الأسطول البريطانى توقف البواخر الداخلة والخارجة من ميناء البصرة ، وتفتشها وتصادر حمولاتها . ونفس الشىء حدث لناقلات البترول . ونشطت السفن الحربية تستوقف البواخر والناقلات بطلقات النار الإنذارية .

فى نفس الوقت توقفت أنابيب نقل البترول الثلاثة التى كان العراق يتصور أنها قادرة على حمل بتروله إلى الخليج وإلى البحر الأبيض . وكان الخط العابر لسوريا متوقفا بالفعل من أيام الحرب العراقية الإيرانية . ويوم ٧ أغسطس توقف الخط العابر للسعودية ، وتوقف

الخط العابر لتركيا ، وأصبح نفط العراق ممنوعا بالكامل من الوصول إلى الأسواق .

ولم يكن العراق فيما يبدو يتوقع حجب بتروله وبترول الكويت مرة واحدة عن الأسواق ، لأن ذلك من شأنه أن يحدث نقصا فى الطلب تزيد معه الأسعار إلى حدود قد تكون جنونية . ولأيام قليلة بدا أن ما يتوقعه العراق على وشك الحدوث ، فقد ارتفع سعر برميل البترول بسرعة من ١٢ - ١٣ دولارا للبرميل فوصل إلى ٣٧ - ٤٠ دولارا للبرميل ، ولكن الولايات المتحدة تدخلت بخطة يبدو أنها كانت جاهزة ومعدة للطوارىء .

وتدفقت إلى الأسواق كميات من الاحتياطى الاستراتيجى الأمريكى ، وطلبت الولايات المتحدة إلى حلفائها أن يفعلوا نفس الشىء .

ثم عقدت دول « الأوبك » اجتماعا استثنائيا تقرر فيه عدم الالتزام بحصص الانتاج السابقة ، وإطلاق الحرية للدول المنتجة لكى تضخ ما تشاء . وفى أيام ارتفع انتاج البترول فى السعودية من ٣,٥ مليون برميل فى اليوم إلى ٦ ملايين برميل فى اليوم ، ثم إلى ٨ ملايين برميل فى اليوم . وقرب أواخر عام ١٩٩٠ كان انتاج البترول السعودى قد وصل إلى ١٠ ملايين برميل فى اليوم .

وكان هذا كافيا لتعويض نقص بترول العراق والكويت معا - وزيادة .

وكانت قرارات تجميد الأرصدة العراقية والكويتية فى الخارج قد استكملت كل تفاصيلها . وبالتالى لم يعد العراق قادرا على شراء شىء من العالم إلى جانب عدم قدرته على نقل ما يشتريه أو يبيعه للعالم .

وبالإضافة إلى ذلك طلبت الولايات المتحدة من الرئيس « ميخائيل جورباتشوف » أن يبعث بخطاب للرئيس « صدام حسين » يبدى فيه موقفه صراحة من قضية غزو العراق للكويت ، وأن يكون شجبه لها « بكلمات فصيحة » لا تترك لديه ذرة شك من موقف الاتحاد السوفيتى . وكتب « جورباتشوف » الخطاب . وبعد يوم واحد من وصوله كانت تفاصيله على برقيات وكالات الأنباء العالمية .

وراح « بوش » يتصرف بأسلوب الواثق من نفسه ومن هدفه ومن خطته ، وقرر أن يبدأ إجازته الصيفية فى « كينيبنكبورت » على شاطىء ولاية « ماين » حيث يملك بيتا على البحر . وظهرت صورته فى الصحف ، وعلى شاشات التليفزيون يلعب الجولف ويصطاد السمك . والغريب **أنه قبل أن يذهب إلى مصيفه وقع قرارا مكتوبا يخول وكالة المخابرات المركزية الأمريكية صلاحية القيام بأى نشاط تراه مناسبا لإسقاط النظام فى بغداد ، والتخلص من « صدام حسين » . وكان الشرط الوحيد الذى وضعه هو أنه « إذا كان محتما اغتيال الرئيس العراقى ، فلا بد أن يتم هذا بيد عراقية »** .

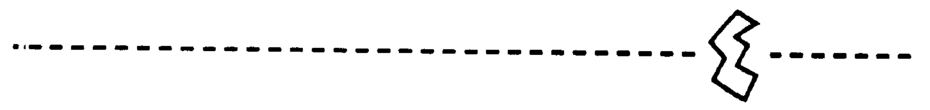
□

وأحست بغداد أن رد « بوش » على رسائلها إليه هو مزيد من التصعيد ، وكان قرارها هو التصعيد فى مواجهة التصعيد . ولم يكن العراق يملك من وسائل التصعيد أكثر من تكثيف حملته على الولايات المتحدة من خلال إثارة الجماهير وتذكيرها إما بماضى الخصام الأمريكى للطموحات العربية ، وإما بإعادة إحياء وتسخين القضايا المعلقة والمؤدية باستمرار إلى التوتر بين الأمريكان والعرب .

ثم تنبهت بغداد إلى أن لديها وسيلة أخرى للتصعيد بقصد الضغط سبق أن استعملتها إيران ، وهى احتجاز الرعايا الغربيين والأمريكيين بالذات ، سواء كانوا فى العراق أو فى الكويت ، وعددهم بالآلاف .

وانتهزتها الولايات المتحدة فرصة لإصدار قرار ثالث من مجلس الأمن ، وهو القرار رقم ٦٦٤ الذى يعبر عن « قلق المجتمع الدولى من احتجاز رعايا دول أطراف ثالثة فى العراق والكويت » . وطلب القرار إلى العراق أن يؤمن فورا سفر الرعايا الأجانب جميعا سالمين إلى بلادهم ، ويحمله مسئولية كل ما يمس « سلامتهم وصحتهم » .

وسبقت هذا القرار وأعقبته حملة إعلامية عنيفة تندد بحالة « حقوق الإنسان » فى العراق . وحاول العراق أن يثبت عدم صدق الادعاءات الموجهة إليه فقرر إخلاء كل فنادق الدرجة الأولى فى بغداد لكى ينزل فيها « الرهائن » كما كان يسميهم الإعلام الغربى ، و« الضيوف » كما شاء أن يسميهم الإعلام العراقى .



كان الملك « حسين » فى عمان يتابع هذا كله من نقطة مراقبة تلفها المخاطر من كل ناحية . كان إحساسه بعد أن عاد من قمة القاهرة هو أنه حاول أداء دوره قدر ما يستطيع ولم تمكنه الظروف ، وإذن فهو فى حل من أن يجلس فى ركنه فى الساحة الهائجة فى الشرق الأوسط ويتفرج على ما يستجد ، ومهما كان انفعاله به فإنه لا يملك كثيرا يفعله .

وأحس الملك أن التطورات المحتملة فى المنطقة قد تجرف الكل أمامها بما فيهم الممثلون والمتفرجون على السواء .

وفى يوم ١٢ أغسطس طار الملك إلى بغداد لحديث مع الرئيس « صدام حسين » يستطلع تقديره للموقف وتصوراته ورؤاه .

وعاد الملك إلى عمان فى نفس اليوم ، وفى اليوم التالى ١٣ أغسطس اتصل بالرئيس « جورج بوش » تليفونيا فى مصيفه « كينيبنكبورت » يقول له إنه يريد مقابلته ، وألح الملك فى طلب المقابلة حتى وإن كان سيقطع على الرئيس « بوش » إجازته . وكانت بين الاثنين صداقة طويلة ، وكان كلاهما ينادى الآخر باسمه الأول . وانتهى أول حديث تليفونى بينهما ، بأن قال الرئيس « بوش » للملك إنه سوف يرد عليه بعد ساعات . وبالفعل فإنه بعد ساعات اتصل الرئيس الأمريكى بالملك الأردنى يقول له إنه فى انتظاره فى « كينيبنكبورت » فى أى وقت خلال الأيام الثلاثة القادمة . وقرر الملك أن يبادر على الفور بالسفر . ولم يكن السفير الأمريكى المعتمد لدى البلاط الأردنى ، وهو السفير « روجر هاريسون » ، قد قدم أوراق اعتماده بعد ، لأنه وصل إلى عمان قبل أيام ، ومع ذلك فقد كان على السفير أن يصحب الملك ما دام سوف يقابل رئيس الولايات المتحدة . وجرى إيقاظ السفير « روجر هاريسون » من نومه ، وطُلب إليه أن يرتدى ملابسه ويجىء إلى القصر حاملا معه حقيبة سفر تكفيه لرحلة إلى الولايات المتحدة . وتوجه السفير « روجر هاريسون » إلى القصر ، ثم صعد مع الملك فى طائرته ، وانطلقت الطائرة تخترق الأجواء دون توقف لمدة ١٣ ساعة إلى « كينيبنكبورت » . وتوجه الملك إلى بيت يستريح فيه من عناء الرحلة ، وبعد ساعات قليلة مرّ عليه الرئيس « بوش » بنفسه ليأخذه إلى بيته الصيفى ليسمع ما لديه .

وتكلم الملك « حسين » والرئيس « بوش » يسمع ، ووصل الملك « حسين » فى حديثه عند نقطة قال فيها « إن الحشود الأمريكية فى الشرق الأوسط قد رفعت درجة التوتر فى المنطقة إلى حد كبير » . وهنا قاطعه الرئيس « بوش » بحدة ظاهرة قائلا له : « لم نكن نحن الطرف الذى رفع حدة التوتر فى المنطقة ، وحشودنا العسكرية التى تتحدث عنها كانت ردا على احتلال عسكرى عراقى للكويت سبقها » . وتنبه الملك « حسين » إلى أن جو المقابلة منذ بدايته لم يكن ما عهده من قبل فى لقاءات سبقت مع صديقه « جورج بوش » .

وقد أضاف « بوش » ملاحظة قال فيها : « إنه يدرك أن الملك حسين لابد يشعر بالقلق من أوضاع الأردن الاقتصادية بعد فرض الحصار الكامل على العراق » .

(وكان الأردن ، وطوال فترة الحرب العراقية الإيرانية وما بعدها ، قد أصبح قاعدة خلفية اقتصادية للعراق الذى كان اعتماده طوال هذه السنوات على ميناء العقبة الأردنى) .

ومضى « بوش » يستكمل ملاحظته قائلا : « إن دولا عربية أخرى تستطيع مساعدة الأردن » **(وكان بالطبع يقصد السعودية ودول الخليج) .**

وأحس الملك « حسين » بالحرج ، وقال لـ « بوش » : « إنه لم يأت إلى هنا ليبحث هذا الموضوع ، وإنما جاء ليبحث موضوعا آخر أكبر منه بكثير وهو موضوع السلام . »

وكان رد فعل « بوش » سريعا بمقدار ما كان جافا ، فقد ركز نظره على الملك وقال

له : « حسين .. اسمعنى إن البترول بالنسبة لنا أكثر من ضرورة . هو أسلوب حياة ، وأنا لن أسمح لهذا الرجل (يقصد « صدام حسين ») أن يسيطر على ثلث انتاج الخليج اليوم ، وعلى ثلثى احتياطى العالم من البترول غدا » .

ثم استطرد : « إن هذا الرجل أثبت أنه عدو للولايات المتحدة . ولن أسمح لنفسى أن أترك ديكتاتورا يضع يده على شريان حياتنا » .

ولم يسكت « بوش » عند هذا الحد ، بل اندفع يقول : « أنتم العرب تعيشون على برميل بارود - هذا الرجل هددكم ومازال يهددكم . وهو يستطيع أن يفعل ذلك معكم ولكن ليس معنا . نحن بعيدون عنه ، ولكن لنا فى المنطقة مصالح حيوية ونحن هناك لحمايتها .»

ثم قال « بوش » : « إننى ترددت قبل أن أوافق على مقابلتك . فأنت كنت فى بغداد قبل أربع وعشرين ساعة من اتصالك التليفونى بى . وكان ترددى فى تحديد موعد لك هو خشيتى من أن تظهر زيارتك وكأن بينى وبين هذا الرجل وساطة ، وأنا لا أريد ذلك ، ولا الكونجرس ولا الرأى العام الأمريكى يسمحان به .»

وتدخل الملك ليقول للرئيس « بوش » : « إنه على استعداد للانسحاب ...»

ورد « بوش » بصوت يحتمل كل تأويل : « هـ .. م .. م » .

ثم استدرك بنبرة مثقلة بإيحاءات شتى :

- « الانسحاب بشروط ؟ .. جاءتنا هذه الشروط ، ونحن نرفض كل شرط فيها : أن ينسحب طبق جدول يضعه هو ، وأن ينسحب إلى المواقع المختلف عليها .. حقل البترول المتنازع عليه ... والجزر ... فات أوان هذا الكلام ... إذا كان يريد أن ينسحب فنحن لا نمسك به لنمنعه .. ينسحب فورا وبلا قيد أو شرط ، وتعود أسرة الصباح إلى الكويت ... ثم نرى بعد ذلك ما يلزم عمله .»

(وكان الرئيس « جورج بوش » يشير بذلك إلى بنود جديدة أضافتها الولايات المتحدة إلى قائمة طلباتها ، وهى تقضى بتحديد حجم الجيش العراقى ، ونزع صواريخه ، وفك منشآته الكيماوية والنووية) .

ثم تحول الرئيس « بوش » إلى الهجوم المباشر ، فقال للملك « حسين » : « إن ميناء العقبة مازال مفتوحا للعراق رغم قرار صادر من الأمم المتحدة . والأردن لا يستطيع أن يخالف قرارا يعبر عن إرادة الشرعية الدولية ، ولهذا فإن الأردن يجب أن يطبق إجراءات الحصار - وإلا وجد نفسه يواجه الإرادة الدولية .» وكان معنى ذلك لا يحتمل اللبس ، وأبسطه أنه إذا لم ينفذ الأردن إجراءات الحصار فإن القوات البحرية التى تنفذه سوف تضطر لفرض إحكامه على ميناء العقبة .

ورد الملك « حسين » بأن « الأردن ليس خارجا عن الشرعية الدولية ولا عن قرارات مجلس الأمن » !

(وقد روى الملك « حسين » فيما بعد خلال اجتماع مغلق عقده لعدد من أعضاء مجلس الأعيان بعد عودته من الولايات المتحدة - أن الرئيس « بوش » تلقى أثناء لقائه معه مكالمة تليفونية ، وأن الرئيس الأمريكى قال له بعد انتهاء المكالمة : « هذا أحد زملائك يحثنى على سرعة العمل بالقوة قبل أن تؤثر الدعاية العراقية على الشارع العربى » !)

وغادر الملك « حسين » « كينيبنكبورت » محبطا بأكثر مما وصل إليها - عائدا إلى عمان ، ومنها إلى زيارة سريعة لبغداد عائدا بعد ساعات إلى عاصمة بلاده .

☐

ويوم ٣٠ أغسطس كان السكرتير العام للأمم المتحدة قادما إلى عمان للقاء جرى ترتيبه مع السيد « طارق عزيز » . وكان مفروضا أن يجرى هذا اللقاء فى نيويورك ، ولكن الولايات المتحدة رفضت منح تأشيرة دخول لنائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية العراقى ، وأبدى « بيريز دى كويلار » استعداده للقاء « طارق عزيز » فى أى مكان غير بغداد . ووقع الاختيار على عمان .

وتبين أن الموضوع الرئيسى الذى يريد أن يتحدث عنه السكرتير العام للأمم المتحدة هو موضوع « الرهائن » - أو « الضيوف » - الغربيين فى العراق . وانتهزها « طارق عزيز » فرصة ، فأثار جوانب الأزمة كلها . ودارت مناقشات طويلة فى التاريخ والجغرافيا وموازين القوى العسكرية لم تصل إلى نتيجة . وحاول « طارق عزيز » أن يذكر السكرتير العام للأمم المتحدة بمجدها السابق ، فقال له « إن العرب جميعا يتذكرون الموقف المشرف للأمم المتحدة أثناء أزمة السويس » .

وكان رد « بيريز دى كويلار » :

- « إن أزمة السويس تختلف عن أزمة الخليج .

كما أننى لست همرشولد . » (يقصد « داج همرشولد » سكرتير عام الأمم المتحدة (السويدى الأصل) الذى قدم استقالته (يوم العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦) احتجاجا على قيام دولتين من الأعضاء الدائمين فى الأمم المتحدة بمخالفة الميثاق) .

وأعلن « بيريز دى كويلار » فى مؤتمر صحفى عقده فى عمان أن مهمته مع وزير خارجية العراق « لم تحقق أى نجاح » .

وكان الملك « حسين » يعلق بعض الأمل على هذه الزيارة . وتبدد الأمل .

ومرة أخرى كان الملك « حسين » على استعداد للسفر . وهذه المرة إلى أوروبا بادئا بلندن .

□

ويوم أول سبتمبر ١٩٩٠ دخل الملك « حسين » إلى البيت رقم ١٠ « داونِنج ستريت » – مقر رؤساء الوزارات فى بريطانيا – على موعدٍ مع السيدة « مارجريت تاتشر » . وكانت صداقته بها هى الأخرى قديمة . وعلى عكس ما جرى مع الرئيس « بوش » فإن رئيسة وزراء بريطانيا لم تترك للملك فرصة ليعرض فيها ما جاء من أجله . وإنما بدأت على الفور بقولها :

– « لماذا تؤيد صدام حسين وأنت تعرف أنه شرير ؟ »

ورد عليها الملك مأخوذا بهجومها المباشر :

– « إننى لا أؤيد أحدا ، ولكنى أحاول أن أبحث عن فرصة لإنقاذ السلام فى المنطقة » .

وردت « مارجريت تاتشر » بحدّة قائلة :

– « ومن المسئول ؟ من الذى بدأ ؟ »

وحاول الملك « حسين » أن يمسك بزمام أعصابه ، فقال لها :

– « مارجريت ، إننى أريد أن أتحدث معك بصراحة . إن عصر دبلوماسية مدافع الأسطول «Gun-boat Diplomaçy» ينتمى إلى القرن التاسع عشر » .

ولم تتركه « مارجريت تاتشر » وإنما صوبت إليه نظراتها ببريق مخيف قائلة له :

– « اسمعنى جيدا .. إنك تقف وراء الطرف الخاسر ، وأنا أريدك أن تعرف الحقيقة قبل أن يفوت الأوان » .

ولم يعد هناك مجال لطول الحديث . وفيما بعد تبادل الاثنان الرسائل ، وكتب كلاهما إلى الآخر خطابات يصفها الملك « حسين » بنفسه بأنها كانت « مجموعات من الشتائم » . وكانت رسائل وخطابات « مارجريت تاتشر » أقسى وألذع فى اختيار هذه الشتائم . ويعلق الملك « حسين » فيما بعد على ذلك بقوله : « إن مارجريت تاتشر سيدة فى منتهى الذكاء والكفاءة ، ولكن لسانها أطول من جسمها كله » .

وتوجه الملك « حسين » بعد ذلك إلى باريس لموعد مع الرئيس « فرانسوا ميتران »



الملك حسين فى لقائه مع رئيسة وزراء بريطانيا .

فى قصر « الاليزيه » يوم ٣ سبتمبر . وقد وجد الرئيس « ميتران » أهدأ كثيرا من « جورج بوش » ومن « مارجريت تاتشر » . وقد استمع إليه « ميتران » بصبر ثم قال له :

ـ « إن الأمريكان والانجليز يتحركون طبقا لخطة واضحة أمامه ومعروفة ، وهم قلقون على إمدادات البترول ، ولهذا القلق من وجهة نظرهم ، ومن وجهة نظره أيضا ، ما يبرره . وهم على استعداد للعمل العسكرى ، وليس يبقيهم فى الانتظار إلا استكمال استعدادهم . والسبيل الوحيد لإحراجهم هو الانسحاب العراقى الفورى » .

ثم تساءل الرئيس « ميتران » : « أليس فى استطاعة العرب أن يقوموا بدور ؟ ثم أين هو العنصر العربى فى الأزمة ؟ » وشرح له الملك « حسين » ظرف العمل العربى والمأزق الذى انتهى إليه مؤتمر القمة العربى الأخير . ودارت مناقشة بين الرجلين استمرت قرابة ساعتين ، وفى نهايتها قال الرئيس « ميتران » : « إن فرنسا انضمت للتحالف لأنها تريد أن تستعمل « الفرامل » من الداخل ، ولكن الشيء الذى ينبغى أن يعرفه أصدقاؤنا العرب هو أنه إذا لم يتمكنوا من إعطائنا موقفا واضحا واحدا ، فإن فرنسا لا تستطيع أن تتحرك ... صعب أن نتحرك » .

□

وعاد الملك « حسين » إلى عمان مع نهاية الأسبوع الأول من شهر سبتمبر يبحث عن وسيلة لتحريك العنصر العربى . وكلف شقيقه وولى العهد الأمير « الحسن » برئاسة مجموعة مستشارين لوضع تصور لامكانية عمل عربى يمكن طرحه على الأطراف .

وكان الاقتراح الذى أمكن بلورته هو أن يتوجه عدد من الملوك والرؤساء العرب بنداء إلى مجلس الأمن كى يدعو كل أطراف الأزمة ، وخاصة العراق والولايات المتحدة إلى تجميد خطط وإجراءات المواجهة العسكرية لمدة شهر بقصد إعطاء التسوية السلمية لأزمة الخليج فرصة لوضع خطوط عريضة لحل الأزمة .

ثم اقترح فريق المستشارين برئاسة الأمير « الحسن » الخطوط العريضة التالية :

١ ـ الانسحاب المتزامن للقوات العراقية من الكويت ، والقوات الأجنبية من منطقة الخليج ، وحلول قوات عربية محلها .

٢ ـ رفع الحصار الاقتصادى عن العراق مع إتمام كل خطوة من خطوات الانسحاب من الكويت .

٣ ـ يمكن أن تظل فى جزيرتى « بوبيان » و « وربة » وفى منطقة حقل الرميلة قوات عسكرية عراقية رمزية إلى أن تتم تسوية نهائية .

ولم تكد هذه المقترحات الأردنية تظهر حتى اختفت ، فلم يكن هناك من هو على استعداد حتى لمجرد سماعها . واندهشت « عمان » للرفض ، ولم يكن الرفض نفسه هو الذى أثار دهشتها ، ولكن أدهشتها سرعته .

وكان التصور الأردنى فى ذلك الوقت أن استعداد الأطراف قد يكون ملائما أكثر بعد أن اتضح أن تكلفة المواجهة العسكرية المحتملة قد تكون عالية بأكثر مما يحتمله الطرفان . « فقد تبين أن الحشد الحالى غير كاف لإجلاء العراق عن الكويت ، وأن تحقيق

هذا الهدف يحتاج حشدا أكبر ، وبتكاليف أبهظ يمكن أن تؤثر تأثيرا بالغا فى عجز الميزانية الأمريكية » .

وكان الخطأ فى هذا التقدير أن الولايات المتحدة تنبهت له مبكرا ، ومن اللحظة الأولى لنشوب الأزمة . وفى الوقت الذى كان فيه « ريتشارد تشيينى » يطوف فى منطقة الخليج بحثا عن مواقع وقواعد للقوات الأمريكية - كان زميله وزير الخارجية الأمريكى « جيمس بيكر » يطوف فى منطقة الخليج مهتما بحصوله على التمويل اللازم وزيادة لكل ما تطلبه الولايات المتحدة من الموارد المالية .

كان هناك نوع من تقسيم العمل بين وزارتى الدفاع والخارجية : اختصت الأولى بالقوة وأدواتها - واختصت الثانية بالمال وتدبيره ، وهو عصب الحرب منذ بداية التاريخ إلى نهايته ، هذا إذا كانت للتاريخ نهاية .

□

وكانت بغداد تشعر أن الحصار السياسى والإعلامى الدولى يشتد عليها ، وأن إدارة المواجهة تفرض انضباطا حازما بحيث لا يظهر على موقف العراق ظل تردد أو تراجع . وفرض الرئيس « صدام حسين » بنفسه قيدا على أى كلام عن الانسحاب أو عن ذكره . وحدثت مشكلة بينه وبين الزعيم الفلسطينى « أبو اياد » ، فقد أدلى « أبو اياد » بتصريح فى أوائل سبتمبر قال فيه « إنه يعرف أن العراق اتخذ قرارا بالانسحاب بشروط » .

وكان تعليق الرئيس « صدام حسين » أن « أحدا لم يعد فى حل من أن ينقل عن العراق هذا أو ذاك . ونحن لا نمانع أن يرى أصحابنا أن انسحابنا ضرورى ، وأن يدعوننا إليه . ولكننا نمانع فى نسبة هذا إلينا لأنه يضعف موقفنا بغير مقابل ، وبدون أن نرى بادرة استعداد من الطرف الآخر .»

وراح مجال الحركة والمناورة يضيق .



الفصل الثامن

الأبـواب المغلقـــة !

« إننى أريد أن أسألك ياسيادة السفير .. هل إن بلادك بعد أن تنتهى هذه الأزمة سوف تعلن بلا قيد أو شرط اعترافها بحق إسرائيل فى الوجود ؟ »

[« هنرى سيجمان » رئيس جماعات الضغط اليهودى فى واشنطن للسفير السعودى هناك الأمير « بندر بن سلطان » - أكتوبر ١٩٩٠] .

١

مر الملك « حسين » سريعا ببغداد عقب عودته من رحلته الأوروبية ، وهناك وجد أنها لم تعد مستعدة للحديث صراحة عن الانسحاب . وبدت العاصمة العراقية له هذه المرة عابسة مستغرقة فى تفكير عميق . وحين روى الملك للرئيس « صدام حسين » تفاصيل لقائه مع الرئيس « ميتران » عن إمكانية التفكير فى حل يقوم فيه العرب بدور نشيط ، لم يجد لدى الرئيس « صدام حسين » حماسة كبيرة لاحتمالات عمل عربى مؤثر فى الأزمة . والحقيقة أن القيادة العراقية كانت قد توصلت منذ وقت مبكر من الأزمة إلى أن الأمور خرجت من يد الدول العربية ، وأن الولايات المتحدة الأمريكية أمسكت بكل خيوط الأزمة

وراحت « تغزل » فيها وفق رسم خططت له ، وكان إصرار الملك « حسين » على أن الانسحاب العراقى من الكويت يمكن أن يربك للولايات المتحدة « غزلها » . واستوقفه الرئيس « صدام حسين » ونادى مساعد رئيس أركان حرب الجيش العراقى ، وكان فى الغرفة المجاورة ينتظر مقابلة الرئيس ، وسأله فى حضور الملك : « ماذا يكون رأى القوات لو أننا أعلنا الانسحاب من الكويت ؟ » - وكان رد الضابط العراقى الكبير على الفور هو قوله : « أعوذ بالله .. رجاء سيدى لا تقل هذه الكلمات » . وأشار إليه الرئيس « صدام حسين » أن ينتظره حيث كان ، والتفت إلى الملك وقال له : « إنك سمعت بأذنيك » . ولم يتوقف الملك عن الإلحاح ، وقال الرئيس « صدام حسين » : « يا أبو عبد الله ، إنهم الآن يريدون ما هو أكثر من الكويت » .

وجرب الملك « حسين » أن يشرح للرئيس « صدام حسين » نوع المشاكل التى يلاقيها هو ويتعرض لها الأردن بسبب تمسكه بمواصلة الجهود للبحث عن حل للأزمة . وأبدى الرئيس « صدام حسين » تفهما لمشكلة الملك قائلا إنه يقدرها ويعرف أنه مشى إلى أبعد مما تسمح به له ظروفه وظروف الأردن .

كانت بغداد تتابع ما يجرى حولها ، وكان ما تراه يدعوها إلى الاحساس بأن أبواب الحل تنغلق بابا بعد باب :

● **الباب العربى** أصبح مغلقا بالكامل ، فالدول الرئيسية فى العالم العربى اتخذت موقفها مبكرا ، ولم تكن معه ولا كانت - من وجهة نظره - محايدة . فالقمة العربية على النحو الذى انتهت إليه أقامت بين العرب وبعضهم حواجز عالية ، وقد فكر الرئيس « صدام » فى وقت من الأوقات (بقصد تخطى الحواجز أو الالتفاف حولها) أن يرتب لقاء مباشرا بينه وبين الملك « فهد » ، وكان إحساسه أن ذلك لو تم كفيل بحل نصف المشكلة . وقد ذهب السيد « طارق عزيز » ليلتقى بالسلطان « قابوس » سلطان عمان ، الذى اعتاد أن يتخذ موقفا مستقلا يختلف عن بقية مواقف دول الخليج - ولكن المحاولة لم تنجح ، وأحس الرئيس العراقى أن الولايات المتحدة لن تسمح بمثل هذا اللقاء فى أى وقت من الأوقات مهما كانت الأسباب .

بل إن الأمير « سلطان بن عبد العزيز » وزير الدفاع فى السعودية ، واجه مشكلة كبيرة لأنه أدلى بتصريح يحمل مظنة الاستعداد لقبول حل وسط . فقد قال الأمير - وفق ما نقلته وكالات الأنباء - يوم ٢٣ سبتمبر ، وهو يستقبل زوارا جاءوا إليه لتهنئته بنجاح العملية الجراحية التى أجراها قبل شهور فى سويسرا - ما نصه : « ليست هناك إساءة لأية دولة عربية أن تعطى أمتها العربية أى مكان - أرضا أو مالا أو مدخلا على البحر - وإذا كان للعراق حقوق فى الكويت فكلنا نلبى هذه المطالب ، وحق العربى تجاه أخيه العربى

يجب أن يؤخذ بكل رحابة صدر ، ولكن ليس عن طريق القوة » . وقامت القيامة لأن تصريح الأمير « سلطان » شاع فيه احتمال القبول بحل تفاوضي - واضطر الأمير « سلطان » بسبب احتجاجات وطلب توضيحات - أن يعلن أن كلامه نشر محرفا مما خرج به عن قصده .

وبينما بغداد تدرس باهتمام كلام النائب الثانى لرئيس الوزراء ووزير الدفاع الأمير « سلطان » ، تبين أن الألفاظ حملت بأكثر مما كانت تحتمل ، وخبا الشعاع .

وقد وجدت بغداد بعد ذلك أن وزير الخارجية الأمريكى « جيمس بيكر » يظهر فجأة فى دمشق ويجتمع خمس ساعات مع الرئيس « الأسد » . وكانت دمشق قد أعلنت قبلها أنها قررت إرسال قوات سورية إلى السعودية ، وأن قوة كتيبة مستعدة الآن للسفر ، وأن ألوية أخرى تليها - على الطريق . وأعلن أن ذلك تم بعد مكالمة تليفونية من الملك « فهد » إلى الرئيس « حافظ الأسد » .

وكانت القوات العربية ، السورية وغير السورية ، تصل إلى المملكة العربية السعودية تباعا . وكان الملك « الحسن » أكثر الكل دقة فى تقدير الأسباب والدواعى . فقد قرر تحديد حجم القوات المغربية لأنه قدر أن القصد المطلوب من القوات العربية هو الرمز وليس الفعل ، وهكذا فقد اقتصر حجم القوة المغربية على كتيبتين . وأما مصر وسوريا ، فقد كانتا على استعداد لإرسال قوات أكبر تشارك عملا فى القتال . ولم تكن السعودية متحمسة لأن اشتراك قوات عربية على نطاق واسع فى العمليات قضية معقدة ، وقد تكون له ضرائبه السياسية والاقتصادية فيما بعد ، ذلك أن القوات الأمريكية أو البريطانية أو غيرها يمكن إبقاؤها بعيدة عن الناس ، وأما القوات العربية ، فسوف تكون فى وسطهم برجالها وأفكار هؤلاء الرجال ، وربما مشاكلهم . كما أن القوات الغربية يمكن حساب تكاليفها مرة واحدة ، وقد لا ينطبق ذلك على القوات العربية . وليس هناك داع لجمائل من الأقارب تطوق الأعناق عمرا بطوله . وقد أثار ذلك فى بادىء الأمر مشكلة ، ثم حسمها الجنرال « شوارتزكوبف » حين قرر أنه يريد قوات عربية لاحتلال مدينة الكويت وتطهيرها عندما يجيء الوقت الملائم ، وهو لا يريد قوات غربية لهذه المهمة التى تقتضى احتكاكا وربما صداما عن غير قصد مع عناصر محلية فى الكويت .

● **وباب الأمم المتحدة مغلق** ، ولم يكن العراق يتوقع أن يجد ريحا مواتية من الأمم المتحدة ، ولكنه كان يظن أن الآراء سوف تتوزع بما لا يسمح بصدور قرارات حاسمة . وكانت المفاجأة أن الولايات المتحدة سيطرت بالكامل على أجواء الأمم المتحدة وضبطتها ، بل وتمكنت من تكييفها على درجة الحرارة والضغط وسرعة الريح التى تريدها . وتلاحقت القرارات وكلها تدين العراق أو تحاصره على نحو لم يسبق له مثيل فى تاريخ الأمم المتحدة . ولم يكن ذلك مثار دهشة فى العراق وحده ، وإنما كان مثار دهشة حتى لدى

السكرتير العام للأمم المتحدة الذى كان يقول إنه وجد الأعضاء الخمسة الدائمين أثناء أزمة الخليج يتصرفون وكأنهم أعضاء فى « ناد خاص يجمعهم فيه ود حميم » .

وقد أضاف الأعضاء الخمسة الدائمون فى ذلك الوقت إلى سلسلة قراراتهم السابقة قرارا جديدا يفرض الحصار الجوى على العراق ، بما فى ذلك الطلب إلى الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة إغلاق فضائها الجوى أمام الطيران العراقى من أى نوع ولأى سبب !

● **والباب السوفيتى** كان مغلقا ، وفضلا عن المواقف الافتتاحية فى الأزمة - فإن السيد « طارق عزيز » الذى توجه إلى موسكو يوم ٧ سبتمبر ١٩٩٠ ، وجد أن « ادوارد شيفرنادزه » وزير الخارجية السوفيتى يتحدث بنفس طريقة نظيره الأمريكى « جيمس بيكر »

كانت بغداد تعرف من مصادرها فى العاصمة السوفيتية أن هناك قلقا شديدا فى أوساط الجنرالات السوفيت الذين ضايقهم أن تنزل قوات أمريكية بهذه الكثافة فى الخليج ، وأن يتبدى استعدادها لعمليات عسكرية فى ساحة قريبة إلى هذه الدرجة من الحدود والجمهوريات الجنوبية للاتحاد السوفيتى ، ومعظم سكانها من المسلمين . وكان ذلك صحيحا إلى حد كبير ، فقد كان هناك كثير من الاستياء فى صفوف « الكولونيلات » أيضا إلى جانب « الجنرالات » ، ومع ذلك فإن لهجة « شيفرنادزه » كانت باردة كالصقيع ، ولم يكن يريد أن يسمع أو يناقش إلا قضية واحدة هى قضية الانسحاب بلا شروط !

وحين حاول « طارق عزيز » أن يلفت نظر الاتحاد السوفيتى إلى أنه يغامر باستثمارات وأرصدة سياسية وفرها لنفسه خلال أربعين سنة فى العالم العربى - كان رد « شيفرنادزه » : « إن الاتحاد السوفيتى يتبع الآن منهجا جديدا فى التفكير يراعى مصالحه أولا » .

● **والباب الألمانى - اليابانى** كان مغلقا هو الآخر ، وكان العراق يحسب أن احتياج الاثنين للبترول مع نزعة الاثنين إلى الاستقلال ولو بقدر عن السياسة الأمريكية - يمكن أن يكون ثغرة مفتوحة له فى الجدار الغربى . لكن ألمانيا واليابان كلتيهما قدرت منذ البداية أن هناك صداما كبيرا قادما ، وأن مفاتيح البترول لسنوات متصلة سوف تكون فى يد الولايات المتحدة أو فى متناولها . وفى مطلق الأحوال فإن العراق لن يستطيع الاحتفاظ بالكويت ، ومن ثم فلن يكون تحت تصرفه إلا بتروله وحده ، على فرض أنه ظل - بعد الصدام الكبير المنتظر - تحت تصرفه .

● **والباب الفرنسى** موارب ، ففرنسا تظهر أنها مستعدة للحركة إذا ظنت مقدما أن قرار الانسحاب فى يدها . وفى نفس الوقت فإنها ليست على استعداد لأن تقدم ضمانا

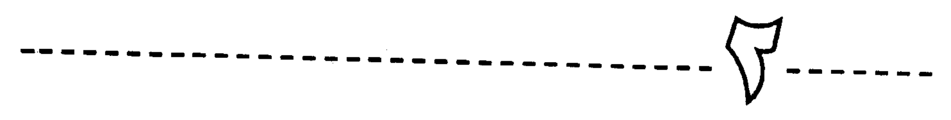
لما بعد الانسحاب ، وخصوصا فيما يتعلق بما يمكن أن تطلبه الولايات المتحدة زيادة على الانسحاب وما بعده .

● **والباب الأمريكى** من زاوية الكونجرس كان ينغلق درجة بعد درجة ، وكانت بغداد تقيس على تجربة حرب فيتنام ومعارضة الكونجرس والرأى العام لاستمرارها ، وضيق الكل بوجهها اللا إنسانى ، وبما تكلفته من تضحيات فى الدماء والأرواح . وربما تشجعت بغداد من تصريحات لبعض أعضاء الكونجرس ، ومنها على سبيل المثال تصريح للسناتور « ويليام كوهن » قال فيه « إن الكويتيين يريدون منا أن نحارب من أجلهم إلى آخر جندى أمريكى » . كما يحتمل أن تكون بغداد تشجعت من مقالات فى الصحف أو مظاهرات فى بعض الميادين . وكانت تلك كلها ظواهر مجتمع يعبر الكل فيه عن أنفسهم كما يحلو لهم ، دون أن يكون تعبيرهم بالضرورة تمثيلا للاتجاه الغالب فى الكونجرس ، أو فى الرأى العام .

● ولقد وصل الحرص على البحث عن باب مفتوح إلى حد أن بغداد طرقت **الباب الإيرانى** ذاته رغم كل ما جرى بين البلدين فى عقد الثمانينات كله . وأعلن الرئيس « صدام حسين » استجابة من طرف واحد لكل طلبات إيران ، كما بعث العراق إلى طهران برسل على مستوى عال ، بينهم السيد « طارق عزيز » ، وأبدى الإيرانيون استعدادا للتعامل مع الموقف بمرونة ، والمرونة بطبيعتها موقف يحاول استغلال كل المواقف ويرسم حركته وفق تقلباتها .

وقد تحرك الرئيس « الأسد » بسرعة مستفيدا من علاقته الطيبة مع إيران - فإذا هو فى ٢٢ سبتمبر يبدأ زيارة رسمية لإيران كان هدفها - كما رأت بغداد - سد الباب الإيرانى . وكان الباب الإيرانى يعطى نفسه الحق - وهو شىء طبيعى وإنسانى - فى الفتح والقفل والمواربة طبق حسابات خاصة به ، وقد وجد الفرصة أخيرا ليعطى نفسه حرية الحركة الكافية لجعل بابا من الأبواب الرئيسية فى الخليج .

وكانت بغداد ترى الأبواب تقفل واحدا بعد الآخر . ولم يكن ما تراه مريحا .



فى هذه الأيام من شهر سبتمبر ١٩٩٠ عقد مجلس قيادة الثورة العراقى سلسلة اجتماعات لبحث الموقف على ضوء التطورات ، وبرز اتجاهان : الاتجاه الأول متفائل

وتقديره أن التفويض الممنوح للرئيس « بوش » هو تفويض مقصور على الدفاع عن السعودية ، وبما أن العراق ليس فى نيته مهاجمة السعودية فإن القوات سوف تظل فى مواجهة بعضها فى فترة من الوقت قد تطول ، ثم تبدأ قبضة الأزمة فى التراخى شيئا فشيئا - والاتجاه الثانى متشائم ، أو لعله أكثر واقعية ، وتقديره أن الهدف الأمريكى لم يعد تحرير الكويت ، ولكن طلب رأس العراق .

وكان شكل الحوادث يصب فى صالح الاتجاه الثانى . ثم حدثت واقعة رجحت تقديرات المتشائمين الواقعيين . ففى يوم ١٢ سبتمبر أعلن وزير الدفاع الأمريكى « تشينى » أن القوات الأمريكية فى السعودية والمسماة بقوات « درع الصحراء » بلغ حجمها اليوم ١٥٠ ألف جندى ، وأن الحشد لا يزال مستمرا حتى يصل حجم هذه القوات إلى ربع مليون جندى .

وفى يوم ١٥ سبتمبر انفجر لغم ، فقد أدلى الجنرال « مايكل دوجان » رئيس هيئة أركان حرب الطيران الأمريكى ، بتصريحات لجريدة « الواشنطن بوست » الواسعة النفوذ ، قال فيها : « **إن خيار الحرب الجوية هو الخيار العملى المتاح للولايات المتحدة ، فعليها أن توجه ضربات قاصمة لكل هدف عراقى عسكرى أو مدنى فى العراق ، وعليها أن تدك كل منشأة وكل مرفق . ثم إن العراق تحت حكم رجل واحد ، وهو صدام حسين ، ولابد من التركيز عليه كهدف وقتله فى بيته أو فى مكتبه أو أى قيادة يكون فيها ، ذلك لأن قطع الرأس يجعل الجسد بلا حراك .** » وأضاف الجنرال « دوجان » قائلا : « إن الكلام عن حرب برية لتحرير الكويت معناه تدمير الكويت تحت شعار إنقاذها لأنها مدينة واحدة ، ولا يوجد شىء غيرها » .

وقال « دوجان » : « لابد أن تكون حربنا صاعقة ، وليس هناك داع للتصعيد التدريجى . وإذا ما جاءت هذه اللحظة ، فلا يجب علينا أن نضيع وقتا فى ضرب الأطراف ، وإنما يجب أن نضرب حيث يكون الضرب موجعا ، أى فى الداخل وفى القلب .

إن السلاح الجوى لديه على مسرح العمليات قوة هائلة ، ولابد أن نفكر بطريقة جريئة ، أى نضرب وندمر ونقتل ، وليس لكى نحرر مدنا ونطهرها . هذه مهمة يمكن أن يقوم بها آخرون من حلفائنا ، أما نحن فلدينا ما هو أهم ، وبتضحيات إنسانية أقل . »

ثم قال « دوجان » : « إن الألف طائرة الأمريكية الجاهزة للعمل فى العراق تستطيع أن تقذف به عائدا مرة أخرى إلى العصر الحجرى » . ثم كان أخطر ما قاله « دوجان » هو « أن إسرائيل أعطت للولايات المتحدة معلومات استخبارات كافية عن الأهداف العراقية » .

وأحدثت تصريحات « دوجان » التى نقلت عن « الواشنطن بوست » على نطاق واسع أصداء عميقة وردود فعل يصعب تجاهلها .

واتصل الجنرال « كولين باول » بوزير الدفاع « تشينى » يشكو له من أن رئيس أركان حرب الطيران أفشى فى الواقع خطة العمليات الأمريكية . وبعد أن تشاور « تشينى » مع الرئيس « بوش » قرر إعفاء « دوجان » من قيادته ، ودعاه فى اليوم التالى فى مكتبه وأبلغه بالقرار وبالأسباب التى دعت إليه ، وكانت هذه الأسباب لافتة للنظر بالطريقة والترتيب الذى كتبها به « تشينى » فى أوراقه : (١)

١ ـ إنك أظهرت سوء تقدير .
٢ ـ إنك أفشيت أسرار عمليات ، وأعطيت ترتيب أولويات .
٣ ـ إنك جعلت نفسك - بلا تفويض - متحدثا باسم قيادة الأركان المشتركة ، وقائد مسرح العمليات .
٤ ـ إنك أعطيت مثالا سيئا للآخرين ، وبخاصة فى سلاح الطيران .
٥ ـ إنك تحدثت عن آثار الحرب بطريقة غير مسئولة .
٦ ـ إنك أفشيت أننا نخالف القرار بعدم القيام باغتيالات سياسية لأفراد .
٧ ـ إنك أفشيت معلومات سرية عن حجم القوات الموجودة تحت قيادتك .
٨ ـ إنك قللت من أدوار بقية الأسلحة (غير الطيران) فى المعركة .
٩ ـ إنك أفشيت أسرارا تتعلق بالسياسة والدبلوماسية ، بما فى ذلك أننا حصلنا على معلومات عن الأهداف من إسرائيل .

□

ولم تكن بغداد على علم بهذه التفاصيل كلها ، ولكنها أدركت أن إعفاء الجنرال « دوجان » لا يرجع إلى طبيعة ما قاله ، أو محاولة نفيه بقدر ما هو عقاب له على إفشائه أسرارا تمثل النوايا الأمريكية الحقيقية .

والحقيقة أن شكوى الجنرال « باول » إلى « تشينى » عن تصريحات « دوجان » ، وهى الشكوى التى ترتب عليها إعفاؤه من قيادته - كانت جزءا من مشكلة تعانى منها القوات الأمريكية المسلحة بصفة عامة ، وقيادتها العليا بصفة خاصة . فتجربة حرب فيتنام كانت لا تزال ماثلة فى الأذهان . والقيادة العسكرية كانت تحس أن السياسيين - من أمثال « جونسون » و « نيكسون » - استعملوا قيادات القوات المسلحة لأغراضهم السياسية . فالحرب فى فيتنام لم تبدأ كحرب ، وإنما استدرجت القوات خطوة خطوة إلى عمليات قصد

---

(١) « بوب وودوارد » .

بها أن تجرى من وراء السلطة التشريعية المتمثلة فى الكونجرس ، وكان تمويلها بالعجز - سندات على الخزانة - حتى لا يضطر الرئيس الأمريكى - « جونسون » أو « نيكسون » بعده - إلى الذهاب للكونجرس بطلب قوانين باعتمادات لتمويل الحرب . وكان هذا الوضع غير الدستورى والقلق هو الذى تسبب فى أزمة القادة العسكريين الذين حاربوا فى فيتنام وسقوطهم ، وأولهم الجنرال « وستمورلاند » .

وفى تجربة حرب الخليج كانت القيادة العسكرية ، وعلى رأسها الجنرال « كولين باول » تحتفظ لنفسها بتقدير مستقل فى إدارة الصراع :

١ ـ كان الجنرال « كولين باول » مقتنعا بأن العقوبات الاقتصادية يمكن أن تؤدى بالخنق إلى نفس ما تؤديه الحرب بالقتل . وبالفعل فقد شرح الجنرال « كولين باول » رأيه فى مناسبات عديدة ، كان آخرها بعد إعفاء الجنرال « دوجان » ، وقد ذهب لمقابلة « ريتشارد تشينى » وزير الدفاع قائلا له « إن المعلومات تشير إلى أن العقوبات الاقتصادية أوقفت ٩٥ ٪ من واردات العراق و ١٠٠ ٪ تقريبا من صادراته . وإن الانتظار بضعة شهور كفيل بتحقيق الهدف النهائى الأمريكى » .

٢ ـ وكان الجنرال « كولين باول » يريد - ما دامت الحرب ضرورية من وجهة نظر القيادة السياسية - أن يتم ذلك وفق الدستور والقوانين ، وليس على طريقة الانزلاق فى العمليات ووضع الكونجرس والرأى العام أمام الأمر الواقع ، كما حدث فى فيتنام .

٣ ـ وكان الجنرال « كولين باول » يحس على نحو ما بأن الرئيس الأمريكى يسعى لتجنب الحصول على قرار من الكونجرس ، فقد كان من ناحية يخشى أن تؤدى المناقشات واختلاف الآراء عند العرض على الكونجرس إلى إعطاء انطباع لدى الطرف العراقى بأن التصميم الأمريكى على الحرب يضعف أو يفتر . ومن ناحية ثانية فإن الرئيس ليس فى حاجة للعرض على الكونجرس لأنه لا يطلب قوانين باعتمادات لتمويل الحرب ، لأن الاعتمادات المطلوبة وزيادة سوف تدفعها السعودية والكويت ودول الخليج .

٤ ـ وراح الجنرال « كولين باول » يدور من حول هذا كله ، ويضع القيادة السياسية أمام الأمر الواقع بأن طلب استصدار قانون بتعبئة جزئية رغم وجود قوات كافية تحت قيادته . وقد تذرع بحجة أنه مع تسليمه بوجود قوات كافية تحت قيادته - إلا أن مسرح العمليات يتطلب زيادة كبيرة فى تخصصات معينة ليست متوافرة بالقدر الكافى فى تركيبة القوات كما هى الآن .

وفى المحصلة فإن الجنرال « كولين باول » كان ملتزما بالأهداف التى حددها البيت الأبيض ، وكل ما هنالك أنه حاول البحث عن طرق بديلة (كالعقوبات الاقتصادية) ،

أو طالب بأن تجرى الحرب ما دام القرار السياسى هو الحرب - داخل الإطار الدستورى والقانونى ، وبتأييد ظاهر وكامل من الكونجرس والرأى العام .

ومرة أخرى لم تكن بغداد على علم بتفاصيل ما يجرى ، ولكنها من بعيد كانت تتابع بعض ظواهره . وكانت هناك عواصم عربية أخرى غير بغداد تتابع ، وكان الكل يدرك أن الحرب أصبحت أرجح الاحتمالات .

□

وفى الرباط عقد الملك « الحسن » والملك « حسين » والرئيس الجزائرى « الشاذلى بن جديد » اجتماعا يوم ٢٠ سبتمبر . وقرر الثلاثة أنه لابد من محاولة أخرى . واتفقوا على أن يذهب الملك « حسين » نيابة عن ثلاثتهم لمقابلة الرئيس « صدام حسين » والتحدث إليه برأيهم . وعاد الملك « حسين » إلى عمان ، ثم رأى أن يكتب للرئيس « صدام حسين » بما انتهى إليه الرأى بينه وبين الملك « الحسن » والرئيس « بن جديد » ، وقد بدأ الملك فاستعرض خلفية الأزمة ومسارها ، ثم وصل فى خطابه ليقول :

« وبناء على هذا الفهم والتحليل الذى شاطرنى إياه جلالة الملك الحسن الثانى وسيادة الرئيس الشاذلى بن جديد ، وعلى ضوء تطور الأزمة ووعينا الكامل على مضاعفاتها ومكتنفاتها التى ذكرت ، ومن منطق حرصنا الأكيد على المحافظة على سلامة العراق وما يمثل ، فقد كلفت من قبلهم بطرح السؤال التالى على سيادتكم كبداية لجهد عربى جماعى مخلص ، وكلنا أمل ورجاء بالتكرم بالإجابة السريعة علينا : ما هى طلبات العراق المحددة والمعقولة والمقبولة من دولة الكويت سواء بالنسبة إلى حدوده معها وحاجته إلى ممر حر للمياه العميقة فى الخليج ، أو بالنسبة للديون والتعويضات المالية عن نفط حقل الرميلة ، أو غير ذلك إن وجد ؟ - وبمعنى آخر : ما هى الطلبات العراقية بحدودها المعقولة والواقعية ، والتى يمكن أن تلقى قبولا لدى القادة العرب ، كى أتبناها مع جلالة الملك الحسن الثانى ، والرئيس الشاذلى بن جديد ، ونتحرك بها لإقناع الطرف المعنى بها والقادة العرب الآخرين سعيا للتوصل إلى حل عربى للمشكلة قبل فوات الآوان ؟ »

ثم أضاف الملك « حسين » فى خطابه عبارة ظن أنها قد تكون مؤثرة على بغداد فقد كتب يقول : « إننى لا أريد أن أصل إلى لحظة أجد فيها نفسى مضطرا أن أقف أمام العالم وأقول إنه ليست هناك فرصة لحل عربى » !

□

وحين وصل خطاب الملك « حسين » (المعبر عن وجهة نظر المغرب والجزائر والأردن) - كان مجلس قيادة الثورة فى بغداد يعقد سلسلة اجتماعات خصصها لبحث

مستجدات الأزمة ، وأهمها من وجهة نظره فى ذلك الوقت تصريحات الجنرال « دوجان » . وبدا كما لو أن مناقشات المجلس ترد على خطاب الملك « حسين » الذى لم يكن قد قرىء أو درس بعد . كانت مناقشات المجلس قد توصلت إلى قناعات مؤداها :

● أن الأزمة لم تعد الآن قضية بين العراق والكويت .

● أن الطرف الآخر فى المواجهة أمام العراق قد أصبح الولايات المتحدة الأمريكية بكل ما تريده وتطلبه فى العراق نفسه .

● أن حلا عربيا للأزمة ، أو حتى دورا عربيا مؤثرا فيها - هو أمر لم يعد مطروحا على الأقل فى الوقت الحاضر .

● وإذا كان هناك أمل عربى للعراق فى هذا الوقت ، فهو ما أسماه بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة « حركة الجماهير العربية » ، فهى التى تستطيع أن تضغط على حكوماتها لتتخذ مواقف جديدة يمكن أن تؤثر على مسار الأزمة .

ويبدو أنه من هذا المنطق اتخذ مجلس قيادة الثورة فى سلسلة جلسات عقدها فى ٢٠ - ٢٣ سبتمبر ، سياسة تنزع إلى توسيع رقعة المجابهة . وعلى هذا الأساس أصدر المجلس بيانا باسم مجلس قيادة الثورة وقيادة حزب البعث العراقى - يهدد بأنه فى حالة ضرب العراق ، فإن العراق سوف يرد على ذلك بضرب شامل بالصواريخ لكل منشآت البترول فى الخليج (وليس فقط فى السعودية) ، كما أن العراق سوف يقوم بضرب أهداف فى إسرائيل . وكان ذلك تصعيدا جديدا فى الموقف ، فقد دخلت مسألة بترول الخليج بأكمله لتصبح هدفا رئيسيا مباشرا فى المعركة ، وكذلك دخلت إسرائيل كطرف رئيسى مباشر ، ولعلها كانت كذلك منذ البداية .

وفى يوم ٢٩ سبتمبر وصل السيد « طارق عزيز » إلى عمان يحمل ردا من الرئيس « صدام حسين » على رسالة الملوك والرؤساء الثلاثة السابقة إليه . ولم يكن الرد المكتوب الذى حمله « طارق عزيز » هو الرسالة الحقيقية للملك ، وإنما كان الأهم ما دار بين الاثنين من حديث فى قصر « الندوة » فى عمان .

وتشير دلائل كثيرة إلى أن وزير الخارجية العراقى تحدث للملك بمجمل ما توصلت إليه اجتماعات مجلس قيادة الثورة وقيادة حزب البعث من قناعات ، وأهمها أن الدول العربية فى الوقت الحاضر ليست هى التى تملك زمام الموقف ، وبالتالى فإن البحث عن حل عربى لا فائدة فيه الآن لأسباب كثيرة أولها وآخرها أن الأمر خرج من أيديهم منذ ساعات الأزمة الأولى ، وأنه إذا أتيحت فرصة للحل فإن هذه الفرصة لابد أن تجىء من مصدر آخر . ويبدو أنه من محصلة هذا الحوار - فإن الملك « حسين » بدأ يعد للقاء بينه وبين الرئيس

« ميتران » . فقد كان واضحا رغم موقف فرنسا المساير للسياسة الأمريكية والغربية عموما - أن باريس لا تزال تفكر فى نهج مستقل لها فى إدارة الأزمة .

٣

ولم تكن إسرائيل على استعداد لأن تترك تهديداً علنيا بضربها بالصواريخ يمر دون رد فعل منها . وهكذا كتب « اسحاق شامير » رئيس وزراء إسرائيل خطابا إلى الرئيس « بوش » يوم ٢٦ سبتمبر ، لم يعرف من تفاصيله أكثر من أنه يلفت نظر الرئيس الأمريكى إلى التهديدات الموجهة إلى إسرائيل ، ويحتفظ لنفسه بحق توجيه الضربة الوقائية لقواعد الصواريخ العراقية التى تهدد إسرائيل ، وأهمها مواقع الصواريخ القريبة من الحدود العراقية - الأردنية فى المواقع المعروفة بمنطقة « هـ - ٢ » . وكانت إسرائيل تلمح إلى أن هذه المواقع وقواعدها تستطيع أن تطال منطقة « ديمونة » ، وفيها المفاعل النووى الشهير لإسرائيل .

ولم تكن إسرائيل على استعداد لأن تترك تهديدا علنيا بضربها بالصواريخ يمر دون رد فعل منها . وهكذا كتب « اسحاق شامير » رئيس وزراء إسرائيل خطابا إلى الرئيس « بوش » يوم ٢٦ سبتمبر ، لم يعرف من تفاصيله أكثر من أنه يلفت نظر الرئيس الأمريكى إلى التهديدات الموجهة إلى إسرائيل ، ويحتفظ لنفسه بحق توجيه الضربة الوقائية لقواعد الصواريخ العراقية التى تهدد إسرائيل ، وأهمها مواقع الصواريخ القريبة من الحدود العراقية - الأردنية فى المواقع المعروفة بمنطقة « هـ - ٢ » . وكانت إسرائيل تلمح إلى أن هذه المواقع وقواعدها تستطيع أن تطال منطقة « ديمونة » ، وفيها المفاعل النووى الشهير لإسرائيل .

□

وكان ظهور إسرائيل على هذا النحو فى ظروف الأزمة المعقدة داعيا إلى قلق آخرين غير الرئيس « بوش » ، وكانت المملكة العربية السعودية بينهم .

وفى ذلك الوقت تقرر أن يقوم الأمير « بندر بن سلطان » سفير السعودية باتصال مباشر مع أصدقاء إسرائيل فى واشنطن . وهكذا دعا عددا من قيادات المؤتمر اليهودى الأمريكى ، وعلى رأسهم « هنرى سيجمان » لمقابلته . وتم اللقاء بالفعل ، وحضره « آفى



الأمير بندر بن سلطان سفير السعودية فى الولايات المتحدة (إلى اليمين) فى لقائه مع رؤساء المنظمات اليهودية .

بارنز » وهو أحد المقربين من رئيس وزراء إسرائيل « اسحاق شامير » ، وقد أذيعت تفاصيل هذا اللقاء فيما بعد حينما ظنت إسرائيل بعد انتهاء الحرب أن السعودية تتنكر لوعود قطعتها على نفسها قبل هذه الحرب .

وقد روى [٢] « سيجمان » نفسه أنه أثناء اللقاء مع الأمير « بندر » سأله سؤالا محددا قال فيه :

---

(٢) جريدة « الجيروساليم بوست » فى عددها الصادر يوم ٨ يوليو ١٩٩١ . وقد نشرت صحف أخرى غير « الجيروساليم بوست » تفاصيل تلك الاجتماعات مع « بندر » . وإن كانت رواية « الجيروساليم بوست » أدقها لأنها استندت مباشرة إلى « سيجمان » وكان واضحا أنه مصدرها . كما أنه على كثرة ما بها من تفاصيل دقيقة . فإن الرياض لم تنف أيا من هذه التفاصيل .

ـ « إننى أريد أن أسألك ياسيادة السفير – هل إن بلادك بعد أن تنتهى هذه الأزمة سوف تعلن بلا قيد أو شرط اعترافها بحق إسرائيل فى الوجود ؟ – وهل أنت مستعد لأن تؤكد لنا أن بلادك سوف تقوم بتطبيع علاقاتها بالكامل مع إسرائيل بعد التوصل إلى حل سلمى ؟ »

ورد « بندر » – طبقا لرواية « سيجمان » – قائلا :

ـ « نعم هذا هو بالضبط ما أقوله ، وأضيف عليه أن سوريا أيضا سوف تكون على استعداد لاتخاذ نفس الموقف .»

وروى « سيجمان » أيضا تفصيلات أخرى مما سمعه وفد المؤتمر اليهودى الأمريكى من الأمير « بندر » ، وبينه :

● إن « بندر » قال لهم إنه « نصح الإدارة الأمريكية بأن تستعمل حق الفيتو ضد قرار يدين إسرائيل بسبب عدوانها على المسجد الأقصى ، وكان رأيه أن أية إدانة لإسرائيل تعتبر فى جزء منها انتصارا لـ « صدام حسين » – ولكن الإدارة الأمريكية لم تأخذ برأيه ، ولم تستعمل حق الفيتو مراعاة للأطراف العربية فى التحالف العسكرى ضد العراق » . (٣)

● إن « بندر » قال لهم :

« إن منظمة التحرير الفلسطينية فقدت مصداقيتها بتأييدها لـ « صدام حسين » ، وأنه بعد الحرب : إما أن تظهر منظمة تحرير فلسطينية جديدة – وإما أن تظهر قيادات فلسطينية أخرى من داخل الأرض المحتلة تستطيع أن تتعامل بطريقة أفضل مع إسرائيل . »

● إن « بندر » قال لهم :

« إنه ذكر لوزير الخارجية الأمريكى « جيمس بيكر » أن السعودية سوف تشترك فى المحادثات مع إسرائيل فيما يتعلق بالقضايا الإقليمية مثل قضية المياه ، لكن الرياض لن تعقد محادثات سلام مباشرة مع إسرائيل ، ولن تصدر تصريحات رسمية بالاعتراف بإسرائيل .»

وروى « سيجمان » أن « بندر » طلب إليهم تقدير الظروف وإعطاءهم فرصة .

---

(٣) كان العدوان الإسرائيلى على المصلين فى المسجد الأقصى يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر ١٩٩٠ قد استثار مشاعر عربية غاضبة ، وتوجهت الدول العربية بشكوى إلى مجلس الأمن ، وتحول الانتباه العالمى لعدة أيام إلى هذه القضية ـ ثم أدلى الرئيس الأمريكى « جورج بوش » بتصريح قال فيه : « إننا لا نريد لهذا الحادث الفرعى أن يصرف الأنظار عن الأزمة فى الخليج ، ولا أن يخلطها بقضايا أخرى فى الصراع العربى الإسرائيلى » ، ولعل من هنا ان الولايات المتحدة اثرت الا تستعمل حق الفيتو ضد مشروع قرار معروض على مجلس الأمن ، فتركته يمر بموافقتها ، وهدفها الرئيسى تخفيف حدة المشاعر العربية والاسلامية .

٤

كان الملك « حسين » على اتصال بالرئيس الفرنسى « ميتران » ، واتفق الاثنان على موعد يلتقيان فيه فى أوائل أكتوبر ١٩٩٠ . وكان الملك « حسين » أثناء لقائه مع « طارق عزيز » فى عمان قد طلب إليه استمرارا للأفكار الواردة فى خطاب الملوك والرؤساء الثلاثة إلى الرئيس « صدام حسين » أن يعطيه موقفا نهائيا يلتزم به العراق حتى يكون أساسا صالحا لإقناع الرئيس الفرنسى بأن يدخل بدور فى الأزمة .

وكان العراق يرى نفسه فى موقف صعب ، فهو متردد فى إعطاء تنازلات قد تحسب عليه وتؤثر على الجماهير التى حشدها وراء دعوته بربط كل القضايا معا - دون أن يكون واثقا من أن لديه ما يمكن أن يحصل عليه فى المقابل . وكان توجس العراقيين أن الرئيس « بوش » لن يتوقف فى منتصف الطريق حتى وإن سحب العراق قواته من الكويت . فالرئيس « بوش » فى هذه الحالة سوف يتصاعد بشروطه فيطلب تحديد حجم القوات العراقية ، وتدمير مصانع وقواعد الصواريخ والأسلحة الكيماوية ، وقد يصل إلى ما هو أبعد من ذلك . ولذلك فإن الكلمة المفتاح من وجهة نظر العراق فى ذلك الوقت كانت « الضمانات » وبعدها « الانسحاب » . فقد كانت كلمة « الانسحاب » وحدها معبأة بمخاطر داهمة إذا لم تكن مسبوقة بكلمة « الضمانات » .

والحاصل أن بغداد فى ذلك الوقت وجدت نفسها دون أن تقصد فى نفس الوضع الذى يريد « بوش » أن يضعها فيه . فهو وكل الآخرين يطالبونها بالانسحاب ، وأما هى فقد امتنعت فى تلك الفترة عن ذكر هذه الكلمة السحرية ، وكان هذا ما يريده « بوش » تماما ليقنع كل الأطراف أنه لم يعد هناك بديل آخر غير الحرب .

وفى ذلك الوقت أصدر حزب البعث العراقى تعميما إلى أعضائه طلب فيه إليهم الامتناع عن أية مناقشات حول ما إذا كان يتعين على العراق أن ينسحب أو لا ينسحب من الكويت ، لأن مثل هذه المناقشات لن يكون لها من أثر غير إضعاف الجبهة الداخلية فى العراق ، وصرف الجماهير العربية والاسلامية عن تأييد وقفته .

ومع التعميم الذى أصدره حزب البعث العراقى بالامتناع عن مناقشة موضوع الانسحاب - كان الجو فى بغداد معبأ بالقلق على كل المستويات ، بما فى ذلك مستوى المثقفين ، بل وحتى عامة الناس الذين كانت الأزمة تمسك بخناقهم ، والنتائج المترتبة عليها تؤثر فى حياتهم .

كان الحصار الاقتصادى حول العراق قد بدأ يحدث مفعوله . وكان الحصار البحرى والجوى قد أحاط الناس جميعا بطوق من الفولاذ يضيق أكثر وأكثر . وكان تقنين الوقود قد خفف كثيرا من حركة السير فى العاصمة ، وحال دون الناس ودون الحركة بما يجعلهم يأتنسون برأى أصدقاء ومعارف لهم . ولم يكن أمام الجميع غير تعطيل فكرهم والاكتفاء بما يرد فى الاذاعات الرسمية ، وعلى شاشات التليفزيون العراقى ، وكان كله تعبئة حماسية فى جو بلغ فيه التشدد فى الحماسة مداه ، وإلى حد يجلب شعورا بالاختناق .

ومع ذلك كان هناك كثيرون لم يمنعهم التعتيم بحظر المناقشات حول الانسحاب من مناقشة ما جرى وما يمكن أن يجرى . وحتى على المستوى الرسمى كانت هناك محاولات للبحث عن منفذ . بل إن المخابرات العراقية نفسها أدارت فى ذلك الوقت مناقشات حول احتمالات تطور الأزمة ، بما فى ذلك جدوى أن ينسحب العراق من الكويت . وقد قام السيد « سبعاوى التكريتى » وهو مدير المخابرات العراقية وشقيق الرئيس « صدام حسين » - بدعوة ستة من أساتذة العلوم السياسية فى جامعات العراق طالبا إليهم أن يديروا فيما بينهم مناقشة حرة حول الخيارات المفتوحة للخروج من الأزمة . وقد انهمكوا ثلاثة أيام اشترك فيها عدد من مستشارى « صدام حسين » . وكان الأساتذة الستة فى بداية الأمر مترددين ، ومع استمرار المناقشة وتكرار تأكيدات الأمان التى أعطيت لهم - فإنهم فتحوا عقولهم وقلوبهم لآراء صريحة . وقد أشار أربعة منهم فى النهاية إلى ضرورة انسحاب العراق من الكويت لأن الأخطار التى يواجهها داهمة ، بل ووصل الأمر بينهم إلى أن وضعوا بأنفسهم « سيناريو » لإخراج قرار للانسحاب يؤدىّ إليه دون أن يؤثر على كرامة العراق . وكان رأيهم أيضا أنه ليس من المستبعد أن يحصل العراق على نوع من الضمانات إذا ما كان قراره بالانسحاب واضحا لا لبس فيه .

ومع ذلك ؛ فقد كان هناك رأى آخر لا يزال متمسكا بتشدده وإصراره ، وتقديره بأن الحرب ليست مؤكدة . وهذا الاتجاه أظهر فى دوائر حزب البعث منه فى دوائر الحكم أو دوائر المثقفين . بل إن وفدا حزبيا عاد من اليمن إلى بغداد يحمل رواية غريبة منسوبة إلى وزير يمنى أتاحت له الظروف أن يلتقى بشقيق الرئيس « بوش » ، والذى كان فى ذلك الوقت عضوا فى شركة أمريكية لها أعمال فى اليمن . وكانت الرواية تقول إن الوزير اليمنى صاحب الرواية تحدث مع المستر « بريسكوت بوش» شقيق الرئيس « جورج بوش » فى الأزمة ، وسمع منه أنه لن تكون هناك حرب . وعلى فرض صحة الرواية فالوزير اليمنى المعنى خلط فيما يبدو بين مجتمعات قبلية يعرف فيها شقيق الشيخ ما يدور برأس شقيقه - وبين مجتمعات غربية متقدمة يصنع فيها القرار بعيدا عن خيمة الشيخ .

□ □ □

وفى ذلك الوقت - أكتوبر ١٩٩٠ - فكر الاتحاد السوفيتى أن يقوم بمسعى جديد . فقد أحس الرئيس « جورباتشوف » بأن العراق قد يكون مستعدا الآن للانسحاب إذا توفرت له بعض الضمانات المقبولة ، وأحس « جورباتشوف » أن سياسة الاتحاد السوفيتى تجاه الأزمة كلها تحدث حالة قلق داخل بعض العناصر فى القوات المسلحة السوفيتية ، وقد سمع بنفسه أصوات النقد التى توجه إلى وزير الخارجية « ادوارد شيفرنادزه » بأن سياسته فى الأزمة متأثرة إلى أبعد حد بآراء « جيمس بيكر » وزير الخارجية الأمريكى . وقرر « جورباتشوف » ، كما ظهر من تصرفاته - أن ينقل الاختصاص فى الأزمة من وزارة الخارجية إلى مكتبه مباشرة . وكان قراره إرسال مبعوث خاص يمثله لمقابلة الرئيس « صدام حسين » فى بغداد ، ومقابلة بقية أطراف الأزمة من العرب والأوروبيين والأمريكان على السواء . وقد وقع اختياره على « يفجينى بريماكوف » ، وكان عضوا احتياطيا فى المكتب السياسى ، ويعتبره « جورباتشوف » من أصدقائه ومساعديه المقربين . وكان « بريماكوف » على صلات قديمة بكثيرين فى العالم العربى ، وبينهم الرئيس « صدام حسين » والسيد « طارق عزيز » ، وذلك من أيام عمله مراسلا مقيما لجريدة « برافدا » فى الشرق الأوسط لمدة خمس سنوات ، ومقره يومئذ فى القاهرة ، وسفره منها إلى بقية العواصم العربية دائم لا ينقطع .

ويوم ٥ أكتوبر وصل « بريماكوف » إلى العاصمة العراقية ، وكان قد طلب من صديقه القديم السيد « ياسر عرفات » رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أن يسبقه إلى بغداد لكى يمهد له الجو فيها . وبالفعل كان السيد « ياسر عرفات » فى بغداد قبل وصول « بريماكوف » إليها بيوم واحد .

وفى المساء توجه « بريماكوف » إلى لقاء الرئيس « صدام حسين » وكانت رسالته الأولى من الرئيس « جورباتشوف » : « أن الموقف خطير ، وسوف تزداد خطورته إذا لم يبادر العراق إلى الانسحاب من الكويت سريعا » .

ورد عليه الرئيس العراقى بقوله :

- « إنك تطلب منى أن أعلن الانسحاب ، وكأن هذه الكلمة هى الكلمة السحرية التى يمكن أن تحل كل المشاكل دفعة واحدة ، وأنا لن أقول هذه الكلمة بهذه البساطة » .

ثم واصل الرئيس العراقى كلامه للمبعوث السوفيتى قائلا :

- « وحتى لو انسحبنا من الكويت ، فإن ذلك لن يكون كافيا لجعل الأمريكان يشعرون بالرضا ، وأنتم ليست لديكم ضمانات تقدمونها لنا ضد أى هجوم أمريكى .»

وعندما راح « بريماكوف » يلح ، قال له الرئيس « صدام حسين » :

- « لنفرض أننى قلت هذه الكلمة السحرية ، ما الذى يمكن أن تعطونه للعراق من ضمانات » .

ثم وجه إليه ثلاثة أسئلة محددة :

- **ما هى الضمانات التى يمكن أن تقدموها للعراق ولأمنه ؟**
- **ما هى الضمانات التى يمكن أن تقدموها للنظام فى العراق ولأمنه ؟**
- **ما هى الضمانات التى يمكن أن تقدموها لتسوية إقليمية لقضايا المنطقة ، وبالذات للفلسطينيين فى الأرض المحتلة ؟**

ورد « بريماكوف » بأنه « يخشى من ربط عضوى بين الانسحاب والضمانات ، مما يجعل الرئيس « بوش » يفسر طلب الضمانات وكأنه شروط مسبقة للإنسحاب .» - ثم أضاف « بريماكوف » إنه « يخشى من إثارة موضوع الضمانات الآن حتى لا يفسرها الغرب باعتبارها خدعة يقصد بها العراق أن يدخل فى مفاوضات مع الولايات المتحدة ، وهو أمر أعلن الرئيس « بوش » رفضه له ، كما أن الكونجرس والرأى العام سوف يمنعانه من القبول به على فرض أنه كان مستعدا لذلك .»

ورد الرئيس « صدام حسين » بقوله إن المشكلة - فى رأيه - هى « أن الأمريكان مصممون على تدمير العراق » .

وقال « بريماكوف » :

- « لنفرض أن ذلك هدفهم فعلا ، فإن انسحابا عراقيا من الكويت سوف يقيد يد الرئيس « بوش » لأنه سيجعل الولايات المتحدة فى وضع من يقبل على الحرب دون سبب .»

وكان تعليق الرئيس « صدام حسين » :

- « إنه يشك فى ذلك » .

وانتقل « بريماكوف » إلى نقطة أخرى كانت بين أهدافه لزيارة العراق ، وهى التصريح لـ ٧٨٣٠ خبيرا سوفيتيا من العسكريين والمدنيين بالسفر إلى بلادهم . ووافق الرئيس « صدام حسين » على التصريح بسفر السوفيت من العراق بمعدل ١٥٠٠ كل شهر ، معتبرا أن الإلحاح على إعادتهم إلى الاتحاد السوفيتى دليل آخر على أنه حتى الرئيس « جورباتشوف » ليس مطمئنا فى قرارة نفسه إلى النوايا الأمريكية .

وخرج « بريماكوف » من مقابلته مع الرئيس « صدام حسين » إلى عشاء مع السيد « ياسر عرفات » . ولم يكن « بريماكوف » مستريحا لنتائج لقائه بالرئيس « صدام حسين » .

وصاح فيه « ياسر عرفات » قائلا :

- « إننى عرفت بما دار بينك وبينه . وقد قال لك الكلمة السحرية » .

ورد عليه « بريماكوف » بأنه « يسلم بأن الرئيس « صدام حسين » تحدث فعلا عن الانسحاب ، ولكنه ربط ذلك بشروط لن تقبلها الولايات المتحدة .»

وسأله « عرفات » : « أى شروط » ؟

وروى له « بريماكوف » أسئلة الرئيس العراقى الثلاثة .

ورد « عرفات » :

- « أليس طبيعيا أن يسأل الرجل عن ضمانات لبلده ونظامه » .

وقال « بريماكوف » :

- « إن المشكلة ليست هنا ، وإنما المشكلة فى الضمانات التى طلبها « صدام حسين » فى شأن التسوية الإقليمية » .

وانفعل « ياسر عرفات » وقال بلهجة خطابية لـ « بريماكوف » :

- « اسمع ، إننى باسم الشعب الفلسطينى متنازل عن الضمانات التى طلبها الرئيس « صدام حسين » لتسوية القضية الفلسطينية ولحماية شعب الانتفاضة . »

ثم قال « عرفات » بطريقة مؤثرة :

- « إن الشعب الفلسطينى يرفض أن يتحقق أمنه وسلامه على حساب أمن الشعب العراقى وسلامته » .

□

وفيما بعد كتب « بريماكوف » سلسلة مقالات فى جريدته القديمة « برافدا » قال فيها : « إنه يعرف « صدام حسين » منذ التقاه لأول مرة سنة ١٩٦٩ ، وأنه رجل يملك حزما إلى حد القسوة ، وإرادة قوية إلى درجة العناد ، واستعدادا للتقدم نحو أهدافه بصرف النظر عن العوائق ، وإحساسا مبالغا فيه بمعانى الشرف والكبرياء » .

وروى « بريماكوف » أنه ذهب - بعد مقابلته للرئيس « صدام حسين » فى بغداد - للقاء مع الرئيس « جورج بوش » فى واشنطن ، وأنه عرض على الرئيس « بوش » تفاصيل لقائه ، وأحس أن « بوش » مهتم بمعرفة شخصية « صدام حسين » أكثر مما هو مهتم بآرائه فى حل الأزمة . فقد راح يسأله عن تاريخ « صدام حسين » وعن تحليله لشخصيته

وتصرفاته . وأنه طوال ساعتين كاملتين قضاهما « بريماكوف » معه ، كان شاغله الكبير هو معرفة مفاتيح شخصية الرئيس العراقى .

وحين حاول « بريماكوف » أن يعيده إلى الأزمة ، اكتفى « بوش » بأن قال له :

ـ « إننى سمعت منك أفكاراً جديدة قيمة ، وأنا أحتاج إلى أن أتحادث مع مستشارى ».

ثم سأله « بوش » :

ـ « كم من الوقت تقدر أن تبقى فى واشنطن » ؟

ورد « بريماكوف » بأنه « على استعداد للبقاء بمقدار الحاجة إليه » .

وقال « بوش » :

ـ « إننى سوف أبلغك رأيى خلال ساعتين أو ثلاث » .

وبعد خمس وأربعين دقيقة (حسب رواية « بريماكوف » فى جريدة « برافدا ») قال له « جيتس » نائب مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، وهما معا على مائدة غداء :

ـ « على فكرة ، إن الرئيس طلب منى أن أبلغك أنك تستطيع مغادرة واشنطن فى أى وقت تشاء » .

ويقول « بريماكوف » فى روايته - إنه بعد ذلك تلقى تليفونا من الرئيس « جورباتشوف » الذى طلب منه أن يمر على لندن ليقابل السيدة « مارجريت تاتشر » . ثم يروى « بريماكوف » أنه « ذهب بعد ذلك ليقابل السيدة « مارجريت تاتشر » رئيسة وزراء بريطانيا التى لم تتردد ولم تتلعثم فى كلمة واحدة ، والتى قالت له :

ـ « نحن لا نريد لأى طرف أن يتدخل الآن لعرقلة هدفنا . وليس هناك خيار آخر غير الحرب » ... ثم أضافت أكثر من ذلك أن « صدام حسين يجب أن يحاكم كمجرم حرب » .

ويقول « بريماكوف » : « وعندما حاولت أن أشرح لها رأيى ، قاطعتنى بعد قليل قائلة بحدة : « لا .. لا أريد أن أسمع شيئا » ».

لم تكن « مارجريت تاتشر » مهتمة بغير الحرب ، فى حين أن الرئيس « بوش » كان لا يزال مهتما بدراسة شخصية « صدام حسين » .

□

وقد عرف فيما بعد أن « بوش » وصل فى تقصيه عن شخصية « صدام حسين » إلى حد أنه دعا لمقابلته عددا من أساتذة الجامعات الأمريكيين من أصل عربى ، وراح يقضى معهم ساعات يستجوبهم عن « صدام حسين » وطبائع الشعب العراقى . وقد كان هؤلاء الأساتذة هم الذين أشاروا على الرئيس « بوش » بالأسلوب الذى يتبعه فى التعامل مع « صدام حسين » . وقد كان أحدهم هو الذى أشار عليه أن يستخدم اسمه الأول « صدام » بلهجة يظهر فيها الاستخفاف ، كما أشاروا عليه بأن يستعمل فى حديثه عنه ألفاظا يعتبرها الرئيس العراقى مهينة له . كما كانت نصيحة هؤلاء أيضا أن يقرن الرئيس « بوش » أى مبادرة علاقات عامة يقوم بها في الأزمة ، بأوصاف من نوع « إننى أريد أن أعطيه الفرصة لإنقاذ ماء وجهه » ، أو « إننى أريد أن أعطيه الفرصة لينفذ بجلده » ، وكان تقديرهم أن ذلك سوف يفرض على الرئيس العراقى أن يرفض أية مبادرة أمريكية معتبرا أنها تمس الشرف والكبرياء طالما أن هذا الرفض هو ما يريده الرئيس « بوش » .

وبالفعل فإن الرئيس « بوش » استعمل فى خطابه عن « صدام حسين » أو أثناء توجيه الخطاب إليه – عبارات دعت رجلا مثل السناتور « لى هاملتون » أن يقول للرئيس « بوش » صراحة : « سيادة الرئيس ، إننا نلاحظ أنك تجعلها فى كثير من المرات معركة شتائم وإهانات شخصية » .

وابتسم « بوش » ، ولم يعلق !

□

وعاد « بريماكوف » بعد ذلك إلى بغداد فى أواخر أكتوبر ليلتقى بالرئيس « صدام حسين » مرة أخرى ليقول له – حسب روايته : « إن الصقور يتغلبون على الحمائم فى الولايات المتحدة وفى أوروبا » . ورد عليه الرئيس « صدام حسين » قائلا : « وأنا أيضا عندى صقور وحمائم » .

وعاد « بريماكوف » يلح على الرئيس « صدام حسين » فى إعلان انسحاب فورى وتنفيذه فعلا . ورد « صدام حسين » بأن « أى انسحاب دون ضمانات سوف يكون انتحارا ، فالانسحاب العراقى من الكويت يجب أن يتزامن مع انسحاب القوات الأمريكية من السعودية ، ومع رفع الحصار عن العراق ، ومع اتفاق على مخرج يصل العراق بالبحر » .

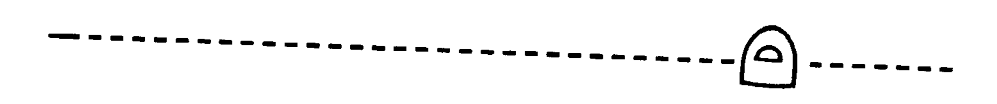
وخرج « بريماكوف » ليتوجه إلى لقاء « جورباتشوف » الذى كان فى ذلك الأسبوع (الأخير من أكتوبر) موجودا فى فرنسا لمحادثات مع الرئيس « ميتران » .

واستمع « جورباتشوف » باهتمام إلى نتائج زيارات « بريماكوف » وملاحظاته . وبعد تشاور مع الرئيس « فرانسوا ميتران » أعلن « جورباتشوف » أن « الوقت قد يكون مناسبا

لدور عربى فى الأزمة يسهل لـ « صدام حسين » فرصة الانسحاب من الكويت . » ثم أضاف « جورباتشوف » أن « الانسحاب العراقى غير المشروط من الكويت لا بديل له كمقدمة لحل شامل للأزمة » .

كان هدف « جورباتشوف » بالدرجة الأولى ، كما يظهر الآن ، منع نشوب حرب على نطاق واسع فى الشرق الأوسط بقرب الاتحاد السوفيتى ، وربما تصور أن ذلك قد يحدث آثارا قد تكون خطيرة فى قيادات القوات المسلحة . لم يكن « جورباتشوف » مشغولا بالحرب ذاتها ، وإنما بآثارها المحتملة على الجيش السوفيتى .

وكان الرئيس « ميتران » يفكر فى امكانية حل تقوم فيه فرنسا بدور رئيسى ، وكان على وشك أن يقابل الملك « حسين » فى باريس . وكمبادرة حسن نية وتمهيد للقاء « ميتران - حسين » ، أعلنت بغداد قرارا بالإفراج عن كل الرهائن الفرنسيين الذين كانوا باقين فى العراق .



طوال شهر أكتوبر ١٩٩٠ كانت بغداد مجالا مفتوحا لكثيرين من ساسة العالم وشخصياته ، قصدوا إليها ليحصلوا على الحرية لمواطنيهم المحتجزين « رهائن » - أو « ضيوفا » على حد التعبير العراقى !

وربما أراد العراق أن يبلغ صوته للعالم ممثلا فى عدد من الشخصيات الدولية ، وأن يحسن صورته وسط حصار دعائى أمسك بخناقه فى كل محفل دولى ، وعلى كل شاشة تليفزيون ، وعلى صدر أى صحيفة - وفى نفس الوقت فإن تلك الشخصيات الدولية قصدت أن تقترب من وهج أزمة شدت انتباه كل القارات وشعوبها .

كان بين الذين قصدوا إلى بغداد فى مثل هذا الوقت رجال من أمثال « كورت فالدهايم » رئيس جمهورية النمسا والسكرتير العام السابق للأمم المتحدة ، و « ويلى برانت » مستشار ألمانيا الغربية السابق ، و « ناكاسونى » رئيس وزراء اليابان السابق ، و «ادوارد هيث » رئيس وزراء بريطانيا السابق ، وغيرهم كثيرون . وإلى جانب ما قام به هؤلاء الساسة من جهد فى إطلاق سراح أعداد كبيرة من مواطنيهم - فلقد كانت رواياتهم عما

رأوه وقالوه وسمعوه في بغداد مصادر هامة فى رسم صورة كاملة لتفكير بغداد فى فترة من أخطر فترات الأزمة .

و « فالدهايم » بطبيعته مقل في الكلام ، كما أن « ناكاسونى » محدود فى روايته بسبب حواجز اللغة ، وأما « برانت » فقد آثر أن يضع أمام الرئيس « صدام حسين » صميم الأزمة ويدعوه لإطالة التفكير فيها - وطبقا لروايته - فإنه قال : « إنه يريد من الرئيس أن يتذكر قضية خطيرة واجهها بنفسه ، وهى قضية « إيران - كونترا » ، والتى تكشف وقائعها عن أن الولايات المتحدة تدخلت فى الوقت المناسب فى الحرب العراقية - الإيرانية لكى تمنع هزيمة إيران ، ولكى تحجم انتصار العراق - لماذا ؟ - هناك سبب هام وهو أن الولايات المتحدة لم تكن مستعدة لترى « صدام حسين » جالسا فوق بترول إيران إلى جانب بترول العراق » .

ثم يستكمل « برانت » « روايته : « إننى قلت : « هل تراهم وهم الذين لا يقبلون جلوسك فوق بترول إيران - أن يروك جالسا فوق بترول الخليج كله » ؟ ! »

وتبقى رواية « هيث » الذى دُعِى للحديث أمام لجنة القوات المسلحة لمجلس النواب الأمريكي يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٩٠ فى جلسة خاصة عقدت فى القاعة ٢١١٨ تحت رئاسة « ليس آسبن » رئيس اللجنة . وربما لأن « هيث » برلمانيا بالطبيعة وبالممارسة فإنه فى ذلك المحفل البرلمانى وجد نفسه طائرا فى سربه ، وراح يحكى بالتفصيل . (٤)

ولقد رأى رئيس الوزراء البريطانى السابق أن يكون صريحا مع أعضاء اللجنة فقال :

« دعونى أذكركم أولا أن قرار مجلس الأمن رقم ٦٦٠ ، وهو الأساس فى كل دور الأمم المتحدة فى أزمة الخليج ، يحتوى على ثلاث فقرات : الفقرة الأولى فقرة تدين العراق ، وهذه فقرة لا يختلف عليها أحد منا وهى لا تحتاج إلى طول نقاش . والفقرة الثانية تطلب من العراق سحب قواته فورا وبدون شروط إلى المواقع التى كانت عندها قبل الغزو العراقى ، وهذه أيضا فقرة لا يختلف عليها أحد ولا تحتاج إلى طول نقاش . وأما الفقرة الثالثة فى القرار ، فهى تطالب العراق والكويت بأن يبدأ على الفور محادثات مكثفة لحل مشاكلهما ، وهذه هى الفقرة التى تجاهلتها الأطراف ولم تعطها فرصة حقيقية لاكتشاف امكانيتها » .

ثم استطرد « هيث » يتحدث عن السبب المباشر الذى دعاه للذهاب إلى بغداد ، وهو الرهائن البريطانيون المحتجزون فى العراق . وقد قال فى هذا الصدد :

---

(٤) من صفحة ٧٤٠ إلى ٧٧٩ من محضر اجتماع لجنة القوات المسلحة لمجلس النواب الأمريكى يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٩٠ .

« إننى قضيت ثلاث ساعات مع « صدام حسين » ، ولم يستغرق موضوع الرهائن فى الحديث بيننا أكثر من فترة وجيزة . كنت قد قسمت الرهائن البريطانيين إلى مجموعات متشابهة فى ظروفها ، ورحت أضع أمامه كل مجموعة ، وكان رده فى كل مرة « نعم هؤلاء يجب أن يطلق سراحهم ويعودوا إلى وطنهم فى رفقة المستر هيث » . وكانت آخر مجموعة منهم تتكون من ٥٩ من عمال البناء يشاركون فى بناء القصر الجمهورى ، وقد قاطعنى عندما قلت ذلك ، وقال لى « ليس عندى قصر جمهورى » . ثم التفت إلى السيد « طارق عزيز » الذى كان يجلس معنا ، وسأله « إلى ماذا يشير رئيس الوزراء « هيث » وهو يتحدث عن القصر الجمهورى ؟ » - ثم التفت إلىّ ثانية وقال : « لدينا بيت ضيافة فى مجمع رئاسة الجمهورية حيث يوجد مكتبى ، وإذا كان العمال الذى يشتغلون فيه هم الذين تقصدهم ، فسلامتهم مسئوليتى شخصيا ، ولا بد أن يعودوا إلى بلادهم سالمين فور فراغهم من عملهم » . وسألته كم من الزمن يستغرقه ذلك ؟ ورد على بقوله : « أربعة أسابيع .. فى أربعة أسابيع سوف يكونون عندكم » . »

واستطرد « هيث » يقول : « فى كل مرة أعطانى وعدا تم تنفيذ هذا الوعد . وقد لاحظت فى هذه المسألة أن القرار قراره . وأظن أن هذا هو الشأن فى كل المسائل الأخرى . وسألته فى نهاية حديثنا عن الرهائن : « لماذا قررت احتجازهم ؟ » وكان رده : « إننى كنت أفكر فى أمن بلادنا » . »

وقد رد « هيث » على الفور بأنه « يختلف فىّ هذه النقطة لأن وجود الرهائن الأجانب فى أى موقع لا يمثل حماية له إزاء تصميم حماية مصالح استراتيجية حيوية ، وهو بمعرفته بالسيدة « مارجريت تاتشر » يعرف أنها لن تتردد ثانية واحدة فى الأمر بضرب أى موقع عراقى مهما كان عدد من فيه من الرهائن البريطانيين المحتجزين .. بل ربما كان ذلك يسعدها من حيث أنه يسهل لها تعبئة الرأى العام البريطانى » .

ثم راح « هيث » يروى أمام لجنة القوات المسلحة فى مجلس النواب الأمريكى بقية حديثه مع الرئيس « صدام حسين » حول أزمة الخليج كلها ، فقال : « إننا تحدثنا بأسلوب مفتوح ثلاث ساعات متصلة . تحدثنا ، ولم يرفع صوته مرة واحدة . إنه تحدث معى بصراحة ، وتحدثت معه دون مجاملة ، وقلت له « إننى أريد أن أطرح عليك احتمالات لأسمع رأيك حيالها » . وسألنى « معنى ذلك أنك ستطرح حالات افتراضية ؟ » - وقلت له « نعم ، وهذه هى الطريقة التى أريد أن أستوثق بها من آرائك » . وسألنى « ما هى الفرضية الأولى ؟» وقلت له : « إذا انسحبت من الكويت ، فلا يستطيع الأمريكيون أو الانجليز أو غيرهم ممن لهم قوات فى السعودية - إلا أن يرحلوا عائدين إلى بلادهم ، وأظن أن هذا من وجهة نظرك ، ومن وجهة نظر عربية ، أمر مرغوب فيه بشدة » ورد علىّ قائلا : « نعم ، ولكن أى ضمانات تستطيع تقديمها لى بأننى إذا انسحبت من الكويت فإن الأمريكان

والانجليز لن يأتوا بقواتهم إلى مواقع أفضل وأقرب ، ثم يقصفوننا ، بمعنى أنهم سيهاجموننا من الكويت بدلا من السعودية ؟ » - وقد قلت له إنه « ليست عندى ضمانات أقدمها له ، ومن المحتمل أن يكون هناك جواب لدى دول الجامعة العربية ، فهى تستطيع أن تضع قوات بينك وبين الكويت تعطى درجة من الأمان لكل منكما . وهذا دور مارسته دول الجامعة العربية من قبل . وقد كنت أنا وزير الخارجية البريطانية حينما حدث ذلك . » - ورد بأن « الموقف أصعب مما كان فى التجربة الماضية .» - وقلت له « إنك تستطيع إبداء مرونة كبيرة ، فمما يبدو أمامى أعتقد أن شعبك يؤيدك ، فأنت توصلت إلى ترتيبات مع الإيرانيين تختلف كثيرا عما حاربت من أجله ثمان سنوات معهم ، وكنا نتصور أن شعبك سوف يغضب منك ، والذى حدث أنه صفق لك . وأظن أن نفس الشيء سوف يحدث إذا توصلت إلى ترتيبات تؤدى بك إلى الانسحاب من الكويت . » - وكان رأيه أن « الموقف بالنسبة للكويت يختلف عما كان مع إيران .» - وقلت له « ألا ترى أن العواقب يمكن أن تكون مزعجة ومدمرة » ؟ - وقال « إننى أفهم ذلك » . - وانتقل حديثنا إلى الأسلحة الكيماوية ، وأبديت معارضتى لهذا النوع من السلاح . وقال لى « إننى أفهم أسباب اعتراضك ، وخشيتى تأتى من أنه إذا احتدم القتال فإن الأمريكان والانجليز قد يستخدمون أسلحة نووية ضدنا ، وهكذا ستفعل إسرائيل . والشيء الوحيد الذي أملكه هو تلك الأسلحة التى تعترض أنت عليها .» - وقد بدا لى « صدام حسين » رجلا يملك الكثير من العزم والتصميم ، وعلى وجه اليقين فإنه ليس مجنونا كما تصوره بعض وسائل الإعلام فى الغرب ، وهو بالتأكيد ليس « هتلر » جديدا .»

ثم استطرد « ادوارد هيث » يقول : « إننى حينما قلت كلاما من هذا النوع فى مجلس العموم ، هاج علىّ عدد من أعضاء المجلس ، وأنا أعتقد أن استعمال أوصاف من نوع « مجنون » وتشبيهات من نوع تشبيهه بـ « هتلر » هى مجازات تؤدى إلى أخطاء فادحة . وأنا أعتقد أنه أخطأ فى حساباته فى الكويت ، وقد يكون من المفيد أن نساعده على تلافى الخطأ خصوصا وقد أثبت أنه يستطيع أن يغير اتجاهه عندما يدرك خطأه كما فعل فى إيران . إن البديل لذلك - وهو الحرب - قد يكون مكلفا عسكريا ، لأن الجيش العراقى ضخم فى حجمه ، وقد استفاد من تجربة ثمانى سنوات من الحرب مع إيران ، وقد يكون مكلفا اقتصاديا لأن الحرب سوف تجرى فى المنطقة الحيوية التى ينبع منها معظم بترول العالم ، وترقد تحتها أكبر كمية من احتياطياته .»

ثم قال « ادوارد هيث » لأعضاء لجنة القوات المسلحة بمجلس النواب الأمريكى إنه « يتصورها حربا طويلة » .

وكان فى ذلك على خطأ لأن الخطط الأمريكية كانت متجهة إلى خيارات مختلفة فى استعمال القوات المسلحة .

الفصل التاسع

خطة الحرب

« نحن مقبلون على حرب مع بلد من العالم الثالث ، ومع ذلك فنحن نخطط لها كما لو أنها الحرب العالمية الثالثة » .

[الجنرال « ميرل ماك بيك » قائد الطيران الأمريكى ـ نوفمبر ١٩٩٠] .

١

بدأ الجنرال « نورمان شوارتزكوبف » يشعر بالقلق مع أواخر شهر أكتوبر واقتراب شهر نوفمبر ١٩٩٠ . كان الجنرال الذى ألقت إليه الظروف بمسئولية قيادة قوات التحالف فى عملية « درع الصحراء » و « عاصفة الصحراء » بعدها ـ قلقا بطبيعته رغم مظهر الثقة والعنف الذى يبدو عليه .

كانت تربيته الأساسية فى الشرق الأوسط حيث قضى صباه مع والده الذى كان يعمل مديرا لبوليس طهران (قبل ثورة « مصدق ») .(١) ثم أرسل إلى الولايات المتحدة لكى

---

(١) من المفارقات أننى كتبت عن دور والده ، الكولونيل شوارتزكوبف ، مدير بوليس طهران فى أول كتاب نشرته بعنوان « إيران فوق بركان » ، وقد ظهر هذا الكتاب عن دار أخبار اليوم سنة ١٩٥١ .

يلتحق بمدارس وكليات عسكرية داخلية أخضعته لانضباط الغرب ومعايير الخدمة العسكرية فيه . ولم يكن فى تاريخ خدمته العسكرية ما يميزه عن غيره ، ولكن الأقدمية كانت ترشحه لرئاسة هيئة أركان الحرب ، ثم تم تجاوزه لصالح الجنرال « كولين باول » وهو من أصل ملون يعتبره الجنرال « شوارتزكوبف » أدنى منه عنصرا وكفاءة ـ حتى وإن لم يعترف بذلك صراحة . ولم يقل أحد للجنرال « شوارتزكوبف » لماذا جرى تخطيه لصالح رجل آخر أحدث منه خدمة وأقل كفاءة ، وكل ما قيل له إن وجوده ضرورى على رأس قوات القيادة المركزية التى عاصر نشأتها الأولى والتى لم يكن « شوارتزكوبف » يعلم متى يجىء دورها أو متى يجىء دوره . وقبل غزو الكويت كان باقيا على مدة خدمة الجنرال « شوارتزكوبف » سنة واحدة ، وقد بدأ يتطلع إلى المعاش غير عارف بالضبط ماذا فعل فى حياته الماضية ، وما الذى يمكن أن يفعله فى حياته القادمة . وكان أقصى ما يفكر فيه ـ كغيره من العسكريين الأمريكيين الذين خدموا فى الشرق الأوسط ـ أن يجد عملا فى مجلس إدارة إحدى شركات البترول التى تعرف على عديد من أصحابها ومديريها أثناء خدمته .(٢)

وعندما نشأت الظروف التى أعطت « شوارتزكوبف » فرصته فى السنة الأخيرة من خدمته ، وجد نفسه مسئولا أمام رئيس هيئة أركان الحرب ، وهو الرجل الذى يعتبره ـ من وجهة نظره ـ مغتصبا لفرصته على غير استحقاق . وتكشف كل التفاصيل المتاحة عن أسلوب إدارة حرب الخليج أن العلاقة بين الرجلين كانت دائما سليمة على السطح ، ولكنها من الداخل عرضة لتقلصات مكتومة

□

وفى أواخر أكتوبر كان الجنرال « شوارتزكوبف » فى نوبة من نوبات القلق التى تعتريه أحيانا . وقد بعث برئيس أركان حربه الجنرال « روبرت جونسون » إلى واشنطن لاجتماع مع الجنرال « كولين باول » لبحث قضايا تلح عليه وهو لا يستطيع مناقشتها لا فى البرقيات ، ولا على التليفون مهما كان أمن هذه الوسائل مؤكدا .(٣) وكانت وجهات نظر « شوارتزكوبف » التى أراد عرضها على هيئة أركان الحرب المشتركة على النحو التالى :

١ ـ إن هناك الآن جيشين كبيرين كلاهما يواجه الآخر ، وكلاهما ضخم (قوات التحالف

---

(٢) يحاول معظم العسكريين الأمريكيين ترتيب فرص لهم مع شركات البترول ، أو شركات السلاح ليجدوا لأنفسهم مناصب بعد انتهاء خدمتهم العسكرية . وطبقا لاحصائيات سنة ١٩٨٨ فإن عدد العسكريين الأمريكيين السابقين الذين وجدوا وظائف فى صناعات البترول والسلاح يصل إلى ١٢٦ ألفا .

(٣) حوار على التليفزيون بين « شوارتزكوبف » والمذيع التليفزيونى البريطانى الشهير « دافيد فروست » ، ومجموعة أحاديث للجنرال مع « الواشنطن بوست » و « النيويورك تيمس » إلى جانب المعلومات التى سربها الجنرال « كولين باول » إلى « بوب وودوارد » .

وتضم ٣٥٠ ألف عسكرى معظمهم من الأمريكيين ـ وقوات العراق على الخط الأول من الجبهة وتضم ٤٢٠ ألف عسكرى طبقا لتقديرات الاستطلاع العسكرى لقيادة « درع الصحراء » فيما بعد) ـ وكان من الصعب جدا فى تقدير « شوارتزكوبف » أن يظل هذان الجيشان أمام بعضهما فى أقصى درجات الاستعداد ، ثم تكون الأوامر هى الانتظار . وبالتالى فقد حان وقت القرار .

٢ ـ إن المشاكل الخاصة بالقيادة والسيطرة على العمليات بين الجنرال « شوارتزكوبف » ، وبين الفريق « خالد بن سلطان » قائد القوات السعودية قد جرى حلها . فبعد أن اعتقد الأمير « خالد » أنه ـ وهو القائد العسكرى للبلد المضيف ـ يملك حق القيادة العليا للعمليات ـ ورفض « شوارتزكوبف » الواضح لهذا الوضع الذى يضعه تحت رئاسة قائد سعودى بغير علم عسكرى حقيقى أو تجربة عسكرية لها قيمة ـ أمكن حل الخلاف بوسائل دبلوماسية أعطت لـ « شوارتزكوبف » ما يريد بصيغة حل وسط (على الطريقة العربية) ـ لم تكن تروق له كثيرا . فقد كان الحل الذى جرى التوصل إليه هو تقسيم الاختصاصات بين الرجلين ، فتكون القيادة العليا للأمير « خالد » إذا كانت هناك عمليات قتالية داخل الأراضى السعودية ـ وفى مقابل ذلك تكون القيادة العليا للجنرال « شوارتزكوبف » إذا كانت العمليات القتالية خارج الأراضى السعودية . وبما أن احتمال حدوث عمليات قتالية داخل الأراضى السعودية لم يكن مطروحا ـ إذن فإن الجنرال « شوارتزكوبف » أصبح فى واقع الأمر هو القائد الحقيقى لـ « درع الصحراء » ، و « عاصفة الصحراء » .

ولكن المشاكل كان لها جانب آخر ، ذلك لأن مساهمة السعودية فى تمويل المجهود الحربى قضت بأن تتحمل المملكة كل نفقات إطعام القوات ، وتزويدها بالمياه اللازمة لخدماتها ومياه الشرب التى نصت الاتفاقات على أن تكون كلها مياها معدنية ، وكذلك تكاليف الوقود والاتصالات فى كل منطقة مسرح العمليات وما حوله ـ وبالطبع فإن هذا الجزء من الاتفاق كان خاضعا لاختصاص الجانب السعودى ، وبالتالى فإن للأمير « خالد » ولاية عليه . ولم يكن الجنرال « شوارتزكوبف » راضيا عن بعض الجوانب فى هذه الناحية ، وقد أدخل نفسه فيما لا شأن له به ، وراح يشكو لكل من يقابله من تصرفات لا ترضيه ، حتى فى أسعار توريد مياه الشرب والطعام الذى تستهلكه القوات . ثم إنه وجد نفسه مضطرا إلى توجيه إنذارات لأن بعض الشيوخ فى السعودية حاولوا اعتراض دخول مشروبات روحية للقوات قبل احتفالات عيد الشكر وعيد الميلاد وعيد رأس السنة ، ثم تكرر نفس الشىء حينما جرى حجز مائة ألف نسخة من الانجيل بحجة أن دخولها إلى السعودية وهى موطن الأراضى الاسلامية المقدسة ـ يمكن أن يؤثر على مشاعر المسلمين ـ ولقد أفرج عنها ، ولكن بعد وقت ضاع بدون طائل !

وعلى أى حال فقد كان « شوارتزكوبف » يشعر أن تقسيم الاختصاصات الذى تم ترتيبه مرتبك مثل كل حل وسط قائم على المجاملة وأنصاف الحلول . وبالتالى فإن فترة الانتظار زاد ثقلها عليه .

٣ ـ إن هناك مواسم اسلامية مقدسة ، وأهمها شهر رمضان الذى يتوافق موعده مع شهر مارس ١٩٩١ . وقبله هناك أيام فهم الجنرال « شوارتزكوبف » أن لها معانى خاصة عند المسلمين ، وهى أيام ٢٧ رجب (ذكرى الإسراء والمعراج) ، وليلة النصف من شعبان (ليلة الدعاء المستجاب) ـ ومن الصعب انتظار أن تقع العمليات وأن تستمر أثناء هذه المواسم الاسلامية المقدسة ، وقرب الأراضى التى يقع فيها الحرمين الشريفين ـ دون أن يتسبب ذلك فى مشاكل تحرج القوات ، وتحرج الدولة المضيفة .

وتكملة لهذا المنطق ، فقد كان الجنرال « شوارتزكوبف » يرى أنه إذا تقرر انتظار العمليات إلى ما بعد شهر رمضان (مارس) ، فإن شهر ابريل بعده هو شهر الخماسين وعواصف الرمال الشديدة ، ثم يجىء موسم الحر الخانق ليضيف إلى عذاب الانتظار الممل ـ عذاب الحر الذى لا يحتمل خصوصا وأنه يصعب تكييف الخنادق والمعسكرات بمثل السهولة التى يمكن بها تكييف القصور أو مقار القيادات .

وإذن فإن الجنرال « شوارتزكوبف » يريد قرارا سياسيا يجيب على مجموعة من الأسئلة :

(أ) الهدف من العمليات ، والذى يمكن عند بلوغه أن تكون مهمة القوات قد تحققت .

(ب) الموعد المقرر للعمليات ، ومن المرغوب فيه أن يتم ذلك قبل المواسم الاسلامية المقدسة ، وقبل أن تبدأ نيران الصيف .
وكان رأى الجنرال « شوارتزكوبف » أنه إذا تأجلت العمليات إلى ما بعد ابريل ودخل الصيف ـ إذن فإن العمليات لابد من تأجيلها إلى الخريف ـ أى سنة كاملة .

(جـ) التصديق على خطط العمليات التى وضعتها قيادته ، والتى مازالت بعض تفاصيلها فى حاجة إلى تصديق القيادة العليا .

□

وكانت رغبة الرئيس « بوش » فى البيت الأبيض قريبة من رغبة الجنرا « شوارتزكوبف » فى مقر قيادته فى قاعدة الظهران بالسعودية . ذلك أن الرئيس « بوش » ـ لأسبابه السياسية ـ كان يشعر أن وقت قرار الحرب جاء لأسباب تخصه مباشرة :

١ ـ إن الكونجرس بمجلسيه بدأ يجرى جلسات استماع مفتوحة للمناقشة حول قضية السا

والحرب ، وكانت فى الكونجرس مجموعة من الشيوخ والنواب يريدون ألا تتكرر تجربة فيتنام ، ويصرون على أنه إذا كان الرئيس يريد الحرب ، فعليه طبقا للقواعد الدستورية أن يذهب إلى الكونجرس ، ويطلب تفويضا صريحا بإعلان حالة الحرب . وكانت جلسات الاستماع تُحدث تأثيرات متضاربة فى الرأى العام الأمريكى . فعلى سبيل المثال ، وقف أحد النواب وهو « آندى جاكوبس » ليقول إنه « حصل على تقرير من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية يقدر أن خسائر الولايات المتحدة فى الحرب قد تصل إلى ٣٠ ألف قتيل ، وأنه فى اللحظة التى ينشب فيها القتال فإن سعر البترول سوف يقفز إلى مائة دولار للبرميل » . وكان ذلك كله وغيره مرئيا ومسموعا على شاشات التليفزيون التى راحت تنقل جلسات الاستماع على الهواء مباشرة . وبالتالى بدأ الرئيس « بوش » يحس أن التأييد الكاسح الذى حظى به فى بداية الأزمة قد يضعف بسبب تأرجح اتجاهات الرأى العام ومشاعره .

٢ ـ إن إصرار القيادة العسكرية على قرار رئاسى بتعبئة جزئية للاحتياطى (وهو قرار ذهب إلى الكونجرس ، وأرادت به هيئة أركان الحرب المشتركة أن تكون الصورة كاملة أمام الهيئة التشريعية) ـ بدأ يصنع صورا مؤثرة لشباب ورجال انتزعتهم التعبئة من وسط زوجات لا يخفين دموعهن ، وأطفال يمكن أن يذوقوا اليتم إذا اشتدت ضراوة المعركة فى حرب بعيدة فى بلاد لا يعرفون عنها شيئا سوى أن سكانها يركبون الجمال ، ويسكنون الخيام ، ويملكون بترولاً يتقاسمون أرباحه مع شركات كبرى هى دائما موضع شك فى نظر المواطن الأمريكى العادى . وقد تكررت العناوين المثيرة مع الصور المؤثرة تقول ما معناه **« لماذا يموت رجالنا وشبابنا لكىْ يحيا بعض الشيوخ فى بذخ ، ولكى تتراكم الأرصدة فى حسابات بعض الشركات بغير حساب »** .

٣ ـ ثم إن الرئيس « بوش » كان يشعر فى أعماقه أن هناك اتجاها قويا داخل إدارته يرى أن العقوبات الاقتصادية والحصار الحديدى حول العراق يمكن أن تؤدى إلى تحقيق هدف الحرب دون تكبد تضحياتها . وكان « بوش » ـ مثل كل رئيس أمريكى ـ له أسلوبه الخاص فى إدارة أزماته . وكان أسلوب « بوش » (كما يتضح من متابعة تصديه للأزمات التى واجهها خلال مدة رئاسته) ـ يبدأ باتخاذ خطوة واحدة يتوقع أن تجر وراءها بالسياق المنطقى نتيجة معينة تقتضى بدورها خطوة أخرى تتلوها . وهكذا ، خطوة ونتيجة ، وخطوة ونتيجة ، وتقترب الأزمة من التخوم التى يريدها ، ويجد الكل أنفسهم عند المواضع التى أرادها « بوش » منذ البداية ، ولا يصبح أمامهم إلا أن يتبعوه . لكن الاقتراب من التخوم والمواضع يحتاج فى التحليل الأخير إلى قرار نهائى . والآن كان « بوش » يشعر أن وقت القرار قد حان .

وكان « جيمس بيكر » وزير الخارجية ، والجنرال « كولين باول » رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة فى حساب « بوش » ضمن هؤلاء الذين كانوا يريدون للعقوبات والحصار

الاقتصادى أن تحقق الهدف النهائى دون داع لتجربة النار . وكانت لكل منهما أسبابه .

كان « بيكر » يرى أن تجربة النار قد تعرض خطته لتحقيق تسوية سلمية لأزمة الشرق الأوسط ـ إلى مخاطر لا داعى لها .

وكان « كولين باول » من ناحيته يرى أن تجربة النار لا داعى لها مادام هناك بديل يضمن تحقيق أهدافها على البارد .

□

وكان هذا هو المناخ الذى وجده الجنرال « روبرت جونسون » حين وصل إلى واشنطن يحمل معه قلق الجنرال « شوارتزكوبف » وأسئلته وتساؤلاته إلى الجنرال « كولين باول » . وانتهزها الجنرال « باول » فرصة ليعيد طرح القضية الرئيسية من جديد ، وهى قضية : العقوبات ـ أو الحرب .

وقد ذهب الجنرال « باول » لمقابلة « تشينى » وتحدث معه مرة أخرى فى سياسة الخنق عن طريق العقوبات الاقتصادية والحصار . وقال له « تشينى » إن الرئيس مقتنع بأن العقوبات وحدها لن تكون كافية .

ثم ذهب « باول » بعد ذلك إلى البيت الأبيض ، والتقى مع الجنرال « سكوكروفت » مستشار الأمن القومى . وقال الجنرال « باول » أثناء حديثه مع « سكوكروفت » ملاحظة كان يمكن أن تحسب عليه ، فقد قال : « إنه يخشى أن تصريحات الرئيس تتحول إلى سياساته » . ورد عليه « سكوكروفت » قائلا « ولماذا لا نقول إن سياساته هى التى تتحول إلى تصريحاته » .

وتساءل الجنرال « باول » عما إذا كان الوقت مناسبا لعقد اجتماع خاص لمجلس الأمن القومى لمناقشة أسئلة الجنرال « شوارتزكوبف » . واتصل به الجنرال « سكوكروفت » بعد قليل ليقول له : « إن الرئيس لا يمانع فى عقد اجتماع فى مجلس الأمن القومى ، ولكنه يفضل أن يتم ذلك بعد أن يجيب الجنرال « شوارتزكوبف » على أسئلته بنفسه ، ويقدم لمجلس الأمن القومى تصوراته العسكرية لتحقيق هدف تحرير الكويت » . وأدرك الجنرال « باول » أن الرئيس توصل إلى قراره النهائى . وهكذا عاد الجنرال « روبرت جونسون » إلى الظهران يصحبه الجنرال « كارل فوونو » ، لكى ينقلا إلى « شوارتزكوبف » طلب الرئيس « بوش » لتقرير عن تصورات المعركة من القائد الميدانى لها .

وكانت مهمة الجنرال « فوونو » بالدرجة الأولى أن يشرح لـ « شوارتزكوبف » تفاصيل الهدف الاستراتيجى الذى يريد الرئيس تحقيقه .

ولم يكن الرئيس « بوش » على استعداد لأن يترك لأحد مجالا لظن ، ففى يوم ٢ نوفمبر أعلن فى مؤتمر صحفى أنه « **يسعى إلى إزالة خطر القوة العراقية من المنطقة أساسا ، وأنه فضلا عن القوة العسكرية التقليدية فإنه يريد تصفية الامكانيات الكيماوية والبيولوجية والنووية . وأن هذا الهدف لن يتغير حتى إذا قرر « صدام حسين » أن يسحب قواته من الكويت . »**

□

ومع نهاية الأسبوع الأول من شهر نوفمبر كان الجنرال « شوارتزكوبف » قد بعث برئيس أركان حربه الجنرال « روبرت جونسون » مرة أخرى إلى واشنطن يحمل معه تصورا لخطة العمليات التى يقترحها رئيسه تحقيقا للهدف الاستراتيجى ، كما سمعه من الجنرال « كارل فوونو » .

وكانت خطة العمليات تعرض لأربع مراحل ، ثلاث منها تقوم بتنفيذها القوة الجوية ، والرابعة وحدها هى التى تقتضى عمل القوات البرية ، وقد جرت تصورات « شوارتزكوبف » على أساس تحديد المراحل التالية :

١ ـ هجوم جوى شامل على مراكز قيادات الجيش العراقى وطرق مواصلاته ، وهدفه قطع قيادة القوات العراقية فى بغداد عن مسرح العمليات فى جنوب العراق . ويضاف إلى هذا الهدف مهام تدمير مصانع الأسلحة التقليدية ، والأسلحة الكيماوية ، والمعامل البيولوجية ، وكذلك القضاء على السلاح الجوى العراقى أو شل فاعليته .

٢ ـ هجوم جوى شامل على المخازن ووسائل النقل ، هدفه قطع القوات العراقية فى مسرح العمليات عن قواعد ومصادر تموينها داخل العراق نفسه .

٣ ـ هجوم جوى شامل على القوات البرية العراقية ، وبالذات قوات الحرس الجمهورى ، وهدفه قصم ظهر القوة الغالبة .

٤ ـ وأخيرا تجىء المرحلة الرابعة ، وهى التى تقتضى تدخل القوات البرية ليكون دورها هو تمزيق ما بين ٣٥ إلى ٤٠ فرقة عراقية على جبهة القتال ، أو فى المنطقة الخلفية منها .

وكانت هذه المرحلة ـ الرابعة ـ من خطة الجنرال « شوارتزكوبف » هى المرحلة التى اعتبرها الجنرال « شوارتزكوبف » عنصر المخاطرة فى تقديراته . وأما بالنسبة للمراحل الثلاث الأولى فقد كانت كاملة فى تفكيره ، وقد أحصى فيها بالتحديد اثنى عشر بندا حوتها كشوف تفصيلية رتبتها كما يلى :

- تدمير نظام السيطرة والقيادة والاتصال للجيش العراقى .
- تدمير نظام الدفاع الجوى والرادار .
- تدمير المطارات التى تعمل منها ٨٠٠ طائرة عراقية عسكرية .
- تدمير القواعد الرئيسية لإطلاق صواريخ « كود » العراقية ، وعددها ثلاث .
- تدمير المفاعل النووى العراقى .
- تدمير امكانيات انتاج وتخزين الأسلحة الكيماوية والبيولوجية .
- تدمير ٨ فرق من الحرس الجمهورى تمثل العمود الفقرى للجيش العراقى .
- تدمير شبكة الإمداد ومخازن المؤن والذخائر ، ووسائل النقل والطرق والكبارى وخطوط السكة الحديدية .
- تدمير ١٢ مصنعا كبيرا للصناعات البتروكيماوية ، وضمنها ثلاثة معامل لتكرير البترول .
- تدمير نظام شبكة الكهرباء العراقية .
- تدمير كل الصناعات التى يمكن أن تساعد فى المجهود الحربى .
- التفرغ بعد ذلك لملاحقة وتمزيق ٤٠٠ ألف جندى عراقى فى مسرح العمليات بما فيه مدينة الكويت .

وكانت تصورات « شوارتزكوبف » كلها مقبولة ، وربما كان الشيء الذى أثار الدهشة فى واشنطن هو أن الجنرال « شوارتزكوبف » طلب أن تنقل إلى قيادته مجموعة الجيش السابع الأمريكى وهى مكونة من ثلاث فرق مدرعة ، وكانت متمركزة فى أوروبا تواجه حلف « وارسو » . وكان هذا الطلب مستغربا لأن الاعتقاد السائد قبلها هو أن الجنرال « شوارتزكوبف » لديه من القوات ما فيه الكفاية . وعندما جرى بحث طلب الجنرال « شوارتزكوبف » بإرسال مجموعة الجيش السابع إلى مسرح عملياته فى الخليج - كان بعض أعضاء هيئة أركان الحرب المشتركة لا يخفون استغرابهم من مبالغة « شوارتزكوبف » فى طلباته إلى درجة أن الجنرال « ميرل ماك بيك » رئيس أركان حرب الطيران الذى خلف الجنرال « دوجان » بعد إعفائه - علق بقوله : « إننى فى دهشة ، فنحن مقبلون على حرب مع بلد من العالم الثالث ، ومع ذلك فنحن نخطط لها كما لو أنها الحرب العالمية الثالثة . »

ووافق الرئيس « بوش » على طلبات « شوارتزكوبف » ، وكانت حساباته تختلف بعض الشيء عن حسابات قائده الميدانى ، فقد كان رأى الرئيس الأمريكى أن التفوق يجب أن يكون « صاعقا » من أول لحظة فى القتال حتى تتجنب القوات الأمريكية وقوع خسائر تذكر فى صفوفها ، كما أن هذا التفوق « الصاعق » لابد أن يكون حاسما من اللحظة الأولى بحيث لا تجيء فترة شك تؤثر على أسعار البترول فى الأسواق العالمية !

ويوم ١٦ نوفمبر بعث الرئيس « بوش » بخطاب رسمى إلى كل من مجلسى الكونجرس يشير فيه إلى خطابه السابق بتاريخ ٩ أغسطس الذى حوى قراره باستخدام القوات الأمريكية فى السعودية .

والآن يوم ١٦ نوفمبر كان خطابه إلى مجلسى الكونجرس يقول رسميا إنه « يحتفظ بالحق فى الانتقال إلى مرحلة الهجوم العسكرى لتحقيق الأهداف الأمريكية فى الخليج إذا دعت إلى ذلك الضرورة » .

٣

ويوم ٥ نوفمبر كان الملك « حسين » على موعده مع الرئيس « فرانسوا ميتران » فى قصر « الاليزيه » فى باريس ، وحديثهما من أول لحظة هو الأزمة ومضاعفاتها . وأثناء الحديث كان الرئيس الفرنسى يستعمل منطقه الفلسفى الشهير مع ملك الأردن مرتبا جدلية الحوادث كما يلى :

- إن الأمريكيين لن يقبلوا التفاوض فى إطار الأزمة كما هى الآن .
- ولذلك فإن أول شىء لابد من عمله هو تغيير إطار الأزمة .
- إن الأمريكيين لديهم هدفان معلنان للحرب ، وهما : احتلال الكويت ـ واحتجاز الرهائن .
- والعراق يطلب ضمانات بالنسبة لجلاء قواته عن الكويت ، وأمريكا ترفض الضمانات لأنها تعتبرها نوعا من الشروط المسبقة ـ لكن الهدف المعلن الثانى ، وهو احتجاز الرهائن لا يحتاج إلى ضمانات .
- وبما أن العراق يفرج الآن فعلا عن الرهائن على دفعات ، فإن الأفضل من ذلك هو الإفراج عنهم مرة واحدة وبطريقة حاسمة ومؤثرة ، وذلك سوف يؤدى إلى تلبية نصف المطالب المعلنة للرئيس « بوش » .
- وإذن فإن هذا تغيير رئيسى فى إطار الأزمة يفرض إعادة ترتيب بقية أجزائها .

ورد الملك « حسين » بأنه « يتفهم وجهة نظر الرئيس الفرنسى ، وهو يدرك التعقيدات المحيطة بكل موضوع الرهائن من الأساس ، وقد ناقش العراقيين فيه كثيرا ، وأحس أخيرا أنهم على استعداد الآن لخطوة جريئة يقومون فيها بحل مشكلة الرهائن مرة واحدة ، لكنهم يطلبون تأكيدا بعدم الاعتداء على مرافقهم الاقتصادية ومنشآتهم الحيوية داخل العراق ،

وأنهم يقبلون مثل هذا التأكيد من خمس دول كبرى (مثل فرنسا والاتحاد السوفيتى والصين وألمانيا واليابان) ، أو من اثنتين من الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن ، ولتكونا فرنسا والاتحاد السوفيتى ، أو فرنسا والصين . »

ورد الرئيس « ميتران » بقوله « إن مثل هذا الاقتراح لا يحل شيئا لأن الأمريكان سوف يأخذونه كشرط مسبق ويرفضونه من أول لحظة . كذلك فإن هذا الاقتراح يخلط بين مرحلتين فى حل الأزمة ، وهو على هذا النحو لا يحقق أى تغيير فى إطارها ، وبالتالى ستظل الإشكالية كما هى . »

وحين أشار الملك إلى حاجة العراقيين إلى بعض التأكيدات ، رد « ميتران » بمنطقه الشهير مرة أخرى قائلا :

« إذا اتفقنا على أن للأزمة جانبين : احتلال الكويت ، واحتجاز الرهائن - إذن فإن الخلاص من أحدهما يعنى حل خمسين فى المائة من الأزمة ، وهذا سوف يخلق مناخا مختلفا ، ويتبقى أن مواجهة خمسين فى المائة من أى أزمة أقل صعوبة من مواجهتها بالكامل مائة فى المائة » .

وكان الكلام مقنعا ، خصوصا وأنه لم يكن هناك مخرج آخر بديل .

واجتمع مجلس قيادة الثورة فى العراق يوم ١٠ نوفمبر ، وناقش تفاصيل اجتماع الملك « حسين » مع الرئيس « ميتران » ، وكان هناك رأيان : رأى يرى أن الإفراج عن الرهائن سوف يزيل أحد أسباب الحماية المتوافرة حاليا لبعض الأهداف العراقية - ورأى آخر كان يرى أن الخلاص من كل موضوع الرهائن أجدى الآن ، وقد يحقق غرضا . وانتهت المناقشات بترك الرأى النهائى للرئيس « صدام حسين » الذى أعلن يوم ١٧ نوفمبر أن العراق على استعداد لإطلاق سراح جميع الرهائن فى مقابل بعض الضمانات . ثم أضاف إلى إعلانه الذى نقلته وكالة الأنباء العراقية - أن العراق يفكر فى برنامج للإفراج عن الرهائن إفراجا كاملا ، وبدون انتظار ضمانات ، ابتداء من يوم عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر) وعلى مدى ثلاثة شهور تمتد إلى ٢٥ مارس ١٩٩١ . وكان ذلك معناه أن عملية الإفراج عن الرهائن يراد بها تغطية الفترة الحرجة السابقة على حلول شهر رمضان .

□

وفى الأسبوع الأول من شهر نوفمبر ١٩٩٠ كان « جيمس بيكر » وزير الخارجية الأمريكى يطوف بعدد من العواصم العربية يمهد فيها لزيارة ينتظر أن يقوم بها الرئيس « بوش » إلى هذه العواصم ، منتهزا فرصة عيد الشكر فى الأسبوع الأخير من نوفمبر

ليقضى هذا اليوم الهام فى تاريخ الولايات المتحدة مع القوات الأمريكية المحتشدة فى الصحراء . وكان « بيكر » يحمل معه أيضا مشروع قرار بحثته الدول الأعضاء الدائمة فى مجلس الأمن ، وبمقتضاه يفوض المجلس بعض أعضائه وأعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة باستعمال القوة ضد العراق .

وفيما يتعلق بالهدف الأول من رحلته ، وهو التمهيد لزيارة « بوش » ، فقد كان هناك ترحيب بالرئيس الأمريكى فى كل العواصم التى خطط لزيارتها . وقد أبدى كل من الملك « فهد » والرئيس « مبارك » رغبتهما فى أهمية أن يكون الرئيس « الأسد » ضمن الزعماء العرب الذين يقابلهم الرئيس « بوش » أثناء رحلته القادمة إلى المنطقة . وإذا كان الرئيس الأمريكى لا يستطيع الذهاب إلى دمشق ، فإن اللقاء يمكن الإعداد له فى أى مدينة أوروبية يزورها « بوش » فى طريق قدومه أو عودته من الخليج .

وأما فيما يتعلق بالهدف الثانى ، وهو مشروع القرار الذى يطرح على مجلس الأمن بشأن التفويض بالحرب ، فإن « بيكر » أيضا لم يجد أية صعوبة ، بل العكس . فطبقا لروايته كان معظم من قابلهم يستعجلون بدء العمليات العسكرية ، وكان بينهم من أظهروا قلقهم من المناقشات الدائرة فى الكونجرس ، ومن آراء ترددت خلالها أعطت الانطباع بأن التصميم الأمريكى على الحرب تقل درجته .

وجاء الرئيس « بوش » بالفعل إلى المنطقة فى عيد الشكر ، وقضى صباح ذلك اليوم مع القوات . وتجنبا للحساسيات الدينية أقيمت الصلوات على ظهر إحدى القطع البحرية فى الخليج . وقد قابل الملك « فهد » وتحدث معه طويلا ، وقال له أثناء حديثهما بينما الملك يشير إلى الأثر الذى تحدثه مناقشات الكونجرس على الرأى العام فى المنطقة : « إننى من أول يوم قطعت لكم على نفسى عهدا بأن نتصرف بأقصى قوة ، وبأقصى سرعة ، وذلك مازال تعهدى لكم » . ثم أضاف الرئيس « بوش » : « إن صدام جعلها معركة .. إما أن يبقى هو فيها ، وإما أن أبقى أنا ، وسوف نرى من منا يستطيع ؟ » ـ كما قابل أمير الكويت الشيخ « جابر » وسأله : « متى تريد الحرب » ؟ وقال الأمير : « هذه الساعة ... هذه الدقيقة » . وقال له « بوش » ضاحكا : « عندما نلتقى فى المرة القادمة ، فسوف يكون ذلك فى قصرك فى الكويت » .

والتقى الرئيس « بوش » مع الرئيس « الأسد » فى جنيف بناء على الطلب الذى عبر عنه الرئيس « مبارك » والملك « فهد » لوزير الخارجية « بيكر » ، ولم يكن ذلك فى جدوله الأصلى . ولكن « بوش » اعتذر عن لقاء مع الملك « حسين » كان موعده قد تحدد فعلا فى باريس يوم ١٧ نوفمبر ، وقد ألغى الموعد بمكالمة تليفونية من البيت الأبيض جاءت



الرئيس بوش فى الظهران عند زيارته بمناسبة عيد الشكر .

فى نفس اليوم الذى كان محددا للقاء . وكان العذر الذى أبدى لالغاء اللقاء فى اللحظة الأخيرة ، هو أن الملك بتحركاته الدائمة يعرض نفسه وكأنه متفاوض بالنيابة عن « صدام حسين » ، وأن ذلك يحدث تصورات سلبية على الكونجرس وفى الصحافة ، ويصل ذلك الأثر إلى الرأى العام . »

□ □ □

وكانت بؤرة الأزمة تتحرك سريعا إلى ساحة الأمم المتحدة . فقد استطاع « جيمس بيكر » أن يقنع الدول الخمس الدائمة العضوية فى مجلس الأمن (وبالذات الاتحاد السوفيتى

والصين) بمشروع القرار رقم ٦٧٨ والذى صدر يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٩٠ ، وتمت الموافقة عليه بـ ١٢ صوتا ضد صوتين (كوبا واليمن) مع امتناع بلد واحد عن التصويت وهو الصين .

وكان القرار ـ بعد الديباجة ـ يقول :

« إن مجلس الأمن إذ يلاحظ أنه رغم كل الجهود التى بذلتها الأمم المتحدة فإن العراق لم يمتثل لمسئوليته لتنفيذ القرار رقم ٦٦٠ والقرارات الأخرى اللاحقة له مما يمثل استهانة بمجلس الأمن

وإن مجلس الأمن إذ يستذكر واجباته ومسئولياته طبقا لميثاق الأمم المتحدة عن صيانة وحفظ السلام الدولى والأمن

وإن مجلس الأمن فى اتساق كامل مع سابق قراراته ، وتحت الفصل الرابع من الميثاق ـ يقرر :

١ ـ الطلب من العراق بأن يمتثل بالكامل للقرار رقم ٦٦٠ وكل القرارات اللاحقة له . والمجلس إذ يتخذ هذا الموقف وراء قراراته السابقة يقرر أن يعطى العراق فرصة لإثبات حسن النية .

٢ ـ يخول الدول الأعضاء فى التعاون مع حكومة الكويت ـ ما لم يمتثل العراق لكل القرارات السابق الإشارة إليها قبل ١٥ يناير ١٩٩١ ـ **فى استعمال كل الوسائل الضرورية لضمان تنفيذ القرار ٦٦٠ وبقية القرارات المتصلة به ، وذلك لحفظ السلام الدولى والأمن فى المنطقة .**

٣ ـ ويطلب إلى كل الدول أن تقدم الدعم المناسب للأعمال التى يمكن القيام بها لتنفيذ البند الثانى من هذا القرار .

٤ ـ يطلب إلى الدول المعنية أن تخطر مجلس الأمن بانتظام عن تقدم الأعمال التى تقوم بها تنفيذا للبند ٢ و ٣ من القرار الحالى .

٥ ـ يقرر أن يبقى المجلس فى حالة انعقاد بسبب هذا الموضوع . »

كان القرار تفويضا باستعمال كل الوسائل الضرورية بغير استثناء للقوة ، وقد كان « جيمس بيكر » وزير الخارجية الأمريكى يريد أن ينص القرار على التفويض باستعمال القوة صراحة ، لكن « ادوارد شيفرنادزه » وزير الخارجية السوفيتى ألح على استعمال تعبير « كل الوسائل الضرورية » . وقال « شيفرنادزه » لـ « بيكر » أثناء الحوار بينهما :

ـ « أنت وأنا نفهم ما تعنيه هذه العبارة ، وأكثر من ذلك لا داعى له » .

ورغم أن « بيكر » اعتبر أن السياسة الأمريكية الآن سلحت نفسها بـ « الشرعية الدولية » ، فإن قرار مجلس الأمن رقم ٦٧٨ أثار جدلا واسعا فى المحافل القانونية بما فيها السكرتير العام للأمم المتحدة .

كان رأى الدكتور « عدنان الباجهجى » وهو واحد من خيرة العقول القانونية فى الوطن العربى(٤) ـ أن القرار رقم ٦٧٨ قد يكون هو نفسه مخالفا لميثاق الأمم المتحدة ، ذلك أن نص المادة « ٥١ » من الميثاق التى استند إليها تعطى للدول المعنية الحق فى الدفاع عن نفسها إذا هوجمت ، وأن تطلب من غيرها من أعضاء الأمم المتحدة مساعدتها فى رد هذا الهجوم ، وذلك حتى يتخذ مجلس الأمن ما يراه ضروريا من إجراءات . وذلك حدث فعلا لأن مجلس الأمن اجتمع واتخذ سلسلة من الإجراءات ابتداء من القرار رقم ٦٦٠ وما بعده ، وذلك استوعب مفعول المادة «٥١» . ومفهوم ذلك أن أحكام حق الدفاع الشرعى عن النفس بمقتضى المادة «٥١» تنطبق قبل تدخل المجلس ، وليس بعده . والدلالة أن مفعول المادة «٥١» حق مؤقت ينتقل إلى مجلس الأمن طالما قرر هذا المجلس أن يقوم بمسئوليته . وهذا تم .

ولقد كان يحق لمجلس الأمن أن يستعمل أى إجراءات يراها ضرورية سواء فى ذلك العقوبات الاقتصادية طبقا للمادة « ٤١» ، أو القوة المسلحة طبقا للمادة « ٤٢ » ـ وفى هذه الحالة فإن التدخل العسكرى لحفظ الأمن يكون بعد ثبات فشل العقوبات الاقتصادية طالما أن مجلس الأمن اختارها أولا . والقرار رقم ٦٧٨ يشير إلى العقوبات ولا يتحدث عن فشلها .

وإضافة إلى ذلك فى حالة استخدام القوة المسلحة ، فإن مجلس الأمن هو الذى يملك الحق فى استعمالها وتحت قيادة الأمم المتحدة وعلمها (كما حدث فى كوريا) ، لكن المجلس لايملك ـ استنادا للميثاق ـ حقا يبيح له تفويض بعض أعضاء الأمم المتحدة فى استعمال القوة المسلحة على مسئوليتهم الخاصة .

وتضيف الدكتورة « عائشة راتب »(٥) ، وهى أستاذ بارز للقانون الدولى فى جامعة القاهرة : أن نص القرار رقم ٦٧٨ قد يحتوى على إباحة باستعمال القوة لتحرير الكويت ، ولكنه لا يبيح إعلان الحرب على دولة العراق لأن ميثاق الأمم المتحدة يدين الحرب أيا

---

(٤) الدكتور « عدنان الباجهجى » وزير سابق للخارجية فى العراق ، وكان مندوبا لبلاده فى الأمم المتحدة قرابة عشر سنوات فى الستينات ، وهو معارض للنظام فى بغداد ويعيش منذ سنوات خارج بلاده ، وقد نشر رأيه فى دراسة قانونية أتمها بعد انتهاء حرب الخليج .

(٥) شغلت منصب وزيرة الشئون الاجتماعية ـ فى عهد الرئيسين « أنور السادات » و « حسنى مبارك » لسنوات طويلة .

كانت مبرراتها . ثم إن نص القرار يتضمن تخليا من مجلس الأمن عن مسئوليته التى يلقيها عليه الميثاق لأن المجلس يعترف بعجزه عن الفعل ، ويحيل المسئولية إلى غيره ، وهذا ينتقص من شرعية القرار .

ثم ترى الدكتورة « عائشة راتب » أنه إذا جاز للمجلس أن يكلف بعض أعضاء الأمم المتحدة بتحرير الكويت ، فإنه لا يجوز له أن يكلف غيره بتحقيق « السلم والأمن الدوليين » لأن ذلك اختصاص أصيل له وحده ، ولا يستطيع الإنابة فيه خصوصا وأن النص مفتوح إلى آخر حد .

وقد آثر « بيريز دى كويلار » السكرتير العام للأمم المتحدة أن ينتظر حتى تمر الأزمة ليبدى رأيه القانونى فى القرار ، وعندما جاء الوقت الذى يقدم فيه تقريره السنوى عن نشاط الأمم المتحدة فى عام ، وجد ضروريا أن يقول كلمته ، وقال بالنص :(٦)

« هناك جانب آخر فى الأزمة أود أن أشير إليه ، وهو أن تنفيذ قرارات مجلس الأمن بالقوة لم يجر تنفيذه بالضبط طبقا لما أوردته المادة « ٤٢ » وما تلاها فى الفصل السابع من الميثاق . وبدلا من ذلك فإن مجلس الأمن خوّل استعمال القوة لبعض الدول ولتحالف نشأ بينها . وفى الظروف التى كانت قائمة وبحساب التكاليف التى كانت مطلوبة ، فإن مثل هذا الوضع لم يكن ممكنا تجنبه . وعلى أى حال ، فإن عمليات الخليج تدعونا للتفكير فى إجراءات جماعية يتحتم اتباعها فى المسائل المتعلقة باستعمال القوة لحفظ الأمن فى المستقبل بطريقة تتفق مع حقيقة أن استعمال القوة محصور فى مجلس الأمن بمقتضى أحكام الفصل السابع من الميثاق . »

وكان مؤدى كلام السكرتير العام فى تقريره السنوى : أن قرار مجلس الأمن الذى ترتبت عليه عملية « عاصفة الصحراء » :

ـ ليس بالضبط قانونيا
ـ ولكنه بالواقع كان ضروريا .

وهذه قاعدة فى توصيف الشرعية الدولية تحتاج إلى مراجعة وتدقيق .

□

وأحدث صدور قرار مجلس الأمن رقم ٦٧٨ هزة عنيفة فى بغداد . فقد كانت العاصمة العراقية قادرة أن تتصور تدخلا أمريكيا عسكريا ضدها تسكت عنه الأمم المتحدة ،

---

(٦) الصفحة الثامنة من التقرير الصادر فى سبتمبر ١٩٩١ باسم « خافيير بيريز دى كويلار » تحت عنوان : « تقرير السكرتير العام عن أعمال المنظمة ١٩٩١ مقدم إلى الجمعية العامة ـ مطبوعات الأمم المتحدة . »

ولكنها لم تتصور أن يجيء هذا التدخل بموافقة صريحة من الاتحاد السوفيتي الذى أيد مشروع القرار ، وضمنية من الصين التى امتنعت عن التصويت عليه ، وكان اعتراضها بوصفها أحد الأعضاء الخمسة الدائمين فى مجلس الأمن ـ الذين يملكون حق الفيتو ـ كفيلا بإسقاطه .

وكانت بغداد أيضا ـ بواسطة خبرائها القانونيين على علم بأوجه الخلل فى القرار ٦٧٨ . وقد أعد فريق من الخبراء رأسه الدكتور « سعدون حمادى » دراسة توصلت إلى أن القرار مخالف لميثاق الأمم المتحدة . وكان من رأى بعض القانونيين أنه يمكن الطعن فى شرعية هذا القرار أمام محكمة العدل الدولية ، وأن الولايات المتحدة سوف يصعب عليها بدء الأعمال العسكرية بمقتضاه طالما أن شرعيته ذاتها معروضة أمام محكمة العدل الدولية . وجرت مناقشة المسألة بمختلف وجهات النظر حولها فى اجتماع لمجلس قيادة الثورة دُعِى إلى حضوره عدد من الخبراء القانونيين والدبلوماسيين . وقال الرئيس « صدام حسين » فى بداية المناقشة ـ وهو يستشعر الحرج الذى يقع فيه بعض الخبراء بين تقديراتهم الفنية والعلمية كما يرونها ، وبين الانضباط الحزبى والرسمى كما هو مطلوب ـ أنه يريد أن يسمع كل الآراء دون قيود ، وهكذا قال إنها « عدلية » .. (يقصد أنها مناقشة لا يحاسب أحد فيها على ما يبديه من آراء مهما اختلفت) . ودارت المناقشة صريحة إلى حد كبير ، فقد أبدى بعض الخبراء « أن القضية لم تعد قضية قوانين أو طعون فى هذه القوانين ، وإنما هى حقائق قوة » . ثم ذكر بعضهم بأن الولايات المتحدة الأمريكية رفضت من قبل سنة ١٩٨٥ حكم محكمة العدل الدولية عندما شكتها « نيكاراجوا » واتهمتها بالقيام بأعمال حربية ضدها فى الداخل والخارج ، بما فى ذلك تلغيم موانيها ، ثم أقامت « نيكاراجوا » الدليل على دعواها ، ومع ذلك أصرت الولايات المتحدة على موقفها ، ولم تعترف لمحكمة العدل الدولية بولاية من الأصل والأساس .

ولم يكن النزاع بين الولايات المتحدة و « نيكاراجوا » فى مثل حدة وسخونة النزاع ما بين الولايات المتحدة والعراق .

وكان الرأى الأخير ، أن الأمل الوحيد الباقي معلق بمهلة الخمسة والأربعين يوما التى أعطاها مجلس الأمن للعراق كى يستجيب لمجمل ما صدر عنه من قرارات ابتداء من القرار رقم ٦٦٠ .

خمسة وأربعون يوما .. ستة أسابيع .. شهر ونصف ـ وما الذى يمكن أن يحدث فيها ؟

□ □ □

وليلة ٣٠ نوفمبر ١٩٩٠ ، وهى الليلة التى أقر فيها مجلس الأمن مشروع القرار رقم ٦٧٨ ، كان وزير خارجية فرنسا « رولان دوما » مدعوا على العشاء فى بيت المندوب الفرنسى الدائم لدى الأمم المتحدة السفير « بيير لوى بلان » . وكان بين ضيوف العشاء عدد من وزراء الخارجية الذين حضروا جلسة التصويت على قرار مجلس الأمن ، وعدد من المندوبين الدائمين لدى الأمم المتحدة . وكان الحديث قبل العشاء ـ وعلى المائدة ـ يدور حول القرار والملابسات المحيطة به والمناقشات التى دارت حوله .

وكان وزير الخارجية الفرنسى نشيطا فى حركته وفى التعبير عن أفكاره ، وكان رأيه الذى قاله وكرره طوال العشاء هو أن فترة الستة أسابيع التى أعطاها مجلس الأمن بمقتضى قراره كمهلة للعراق يقوم فيها بتنفيذ مجمل قرارات مجلس الأمن قبل أن يحل استحقاق القرار رقم ٦٧٨ ـ هى الأمل الباقى الوحيد فى الوصول إلى حل ، وأن هذه المهلة فرصة لا يصح أن تضيع . قال وزير خارجية فرنسا بالطريقة الفرنسية المعروفة : « لا أتصور أننا سوف نقضى هذه الأسابيع الستة واضعين أيدينا على خدودنا منتظرين حتى نسمع صوت الانفجار ، وإنما لابد أن نتحرك جميعا خلال هذه المهلة لكى نفعل شيئا يحول دون وقوع كارثة محققة » .

ثم مضى « رولان دوما » يقول « إنه يستطيع أن يرى دورا لأوروبا ـ كما أنه يستطيع أن يرى دورا للسكرتير العام للأمم المتحدة ـ وربما كانت هناك وسيلة للتوفيق بين الدورين بحيث يكون هناك مسعى أوروبى يشارك فيه السكرتير العام بدور ما فى سبيل التوصل إلى حل ما » . وبينما الجميع مازالوا حول المائدة بعد انتهاء العشاء ، دخل المستشار الصحفى للوفد الفرنسى الدائم لدى الأمم المتحدة يحمل ورقة ذهب بها إلى السفير الفرنسى « بيير لوى بلان » الذى قرأها ثم ناولها عبر المائدة إلى وزير خارجيته . وقرأها الوزير الفرنسى ، واحتقن وجهه ، وعلا صوته قائلا : « إن هذا تخريب » . ثم بدأ يحكى لبقية المدعوين حول مائدة العشاء أن الرئيس « بوش » أعلن على التو مبادرة أمريكية تقترح أن يقوم وزير خارجية العراق « طارق عزيز » بزيارة واشنطن والاجتماع به ، ثم يقوم وزير خارجيته « جيمس بيكر » بزيارة لبغداد للاجتماع بالرئيس « صدام حسين » . وأن الهدف من ذلك ـ طبقا لما قاله « بوش » فى مؤتمره الصحفى الذى عقده قبل دقائق ـ هو « المشى ميلا إضافيا آخر من أجل تحقيق السلام » .

وكان تعليق وزير الخارجية الفرنسى أن هذه مناورة يقصد بها الرئيس الأمريكى أن يواصل احتكار إدارة الأزمة ، وأن يصد آخرين عن التقدم لبذل جهودهم . ثم علق « دوما » بعد ذلك قائلا : « لا يمكن أن يكون جادا » . وكررها مرتين ، وكان يقصد الرئيس الأمريكى « جورج بوش » .

□

كانت مبادرة « جورج بوش » مفاجأة غير متوقعة حتى للدول الشريكة فى التحالف مع الولايات المتحدة ، بما فى ذلك الدول العربية ودول مجموعة الخليج ذاتها . وقد أخطرت القاهرة بالمبادرة الأمريكية فى نفس الدقيقة التى كان فيها الرئيس الأمريكى يعلنها أمام شبكات التليفزيون بما فيها شبكة .C.N.N التى كانت مفتوحة فى القاهرة فى ذلك الوقت . وكانت السعودية أسعد حالا لأنها أخطرت بالمبادرة قبل إعلانها بعشر دقائق . ونفس الشيء تقريبا حدث بالنسبة لحكومة الكويت فى المنفى ، والموجودة فى ذلك الوقت فى الطائف . وروى أن أمير الكويت لم يتمالك دموعه وهو يسمع النبأ ، فقد ظنها بداية عملية تفاوضية متفق عليها . ولم تعلم بعض الدول العربية الأخرى بالمبادرة إلا بعد مرور ساعات من إعلانها رسميا . وحتى الذين أخطروا مسبقا ، ولو قبل عشر دقائق من الإعلان ، لم يتلقوا أية تفاصيل تجعل المبادرة مفهومة ، ومن ثم مقبولة بالنسبة لهم . وساد الارتباك عددا من العواصم العربية ، فقد عاودت بعضها شكوك قديمة في قدرة الولايات المتحدة على اتخاذ منهج سياسى صارم لا يخضع لتقلبات غير مفهومة للآخرين ، سواء كان باعثها أمريكيا داخليا ، أو حسابات أخرى غير مرئية لبقية الناس . وقد كان هناك من سارعوا إلى نسبة تغيير المسار الذى بدا مفاجئا إلى أصوات كثيرة معارضة للتدخل العسكرى سمعت من فوق منابر مجلسى الكونجرس (الشيوخ ، والنواب) .

ولعل هذه الأجواء التى اقتحمتها رياح الشك فجأة كانت هى السبب الذى دعا عددا من الزعماء العرب إلى التوجه سريعا إلى بغداد . فقد قصد إليها الملك « حسين » ، ولحق به السيد « ياسر عرفات » والسيد « على سالم البيض » (نائب رئيس جمهورية اليمن) ، واجتمعوا هناك بالرئيس « صدام حسين » يوم ٤ ديسمبر .

ويمكن تبين اتجاه مداولاتهم من قراءة بيان صدر عن مجلس قيادة الثورة العراقى يوم ٥ ديسمبر . وقد بدأ البيان مستشهدا بالآية القرآنية التى تقول : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » . ثم أعلن بيان مجلس قيادة الثورة العراقى « أنه تقرر استجابة لمبادرة الرئيس الأمريكى بفتح باب المفاوضات بين العراق والولايات المتحدة الإفراج عن جميع الرهائن الغربيين المحتجزين فى بغداد ، على أن يتم التنفيذ خلال أسبوعين بحيث يتمكن الرهائن من حضور احتفالات عيد الميلاد مع أسرهم ، فى بيوتهم وأوطانهم . »

وتلقى الرئيس « فرانسوا ميتران » رسالة من الملك « حسين » يقول له فيها : « إن العراق بقرار الإفراج عن الرهائن مرة واحدة ودون شروط ، قام بتنفيذ المرحلة الأولى من خطته (التى ناقشها من قبل مع الملك « حسين ») لحل الأزمة ـ والآن فإن الوقت مناسب لبذل كل الجهود لتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة » . ورد الرئيس « ميتران » قائلا ما مؤداه : « إنه طلب إلى طائرة « الكونكورد الرئاسية » أن تكون على استعداد فى أى وقت

لتحمله إلى حيث تتطلب الظروف وجوده ، بما فى ذلك بغداد ذاتها ـ عندما يتأكد أن الأوراق فى يده كافية . »

ويبدو أن بغداد أرادت أن تقدم تنازلا آخر لإظهار حسن النية ـ ولعلها مضت فيه بطلب من الزعماء العرب المجتمعين فى بغداد ، فكان أن أعلنت أنها « تفهم الربط بين القضايا المتعددة فى الشرق الأوسط ، والذى جاء فى مبادرة الرئيس « صدام حسين » يوم ١٢ أغسطس ـ على أنه ربط سياسى ، وليس ربطا بتواريخ الأيام » . وكان مفهوم ذلك أن بغداد على استعداد لحل مشكلة الانسحاب من الكويت أولا ، وبعد ذلك ـ وليس بالتزامن معه ـ يجىء الدور على بقية النزاعات الإقليمية .

□

وما هى إلا أيام حتى كانت السحب الوردية التى ظهرت فى آفاق الأزمة قد تبددت . فالميزة الحقيقية للديمقراطية الأمريكية أنها لا تستطيع الاحتفاظ طويلا بسر . فأى شىء مكتوم لأيام لا تطول ، وكل شىء مفتوح لمناقشة تصل إلى أعماقه . وهكذا لم تلبث كل الشواهد الظاهرة فى واشنطن أن راحت تؤكد للجميع أن وزير خارجية فرنسا كان على حق فى تقييمه للمبادرة الأمريكية منذ أول نظرة ألقاها عليها .

كان هدف المبادرة الذى توقعه « رولان دوما » صحيحا ، فإن « بوش » أراد بالفعل أن يحبس تفاعلات الأزمة خلال مهلة الأسابيع الستة التى منحها مجلس الأمن للعراق داخل إطار أمريكى لا تتعداه ، ولا يتدخل فيها طرف آخر غير الولايات المتحدة . وكانت له بالإضافة إلى ذلك أهداف فرعية :

- إقناع كتل برلمانية (فى مجلسى الكونجرس : الشيوخ والنواب) وفى الرأى العام ـ بأنه بذل كل ما فى وسعه لحل الأزمة ، فإذا جاءت الحرب كخيار أخير ، فإن ذلك وقع لأنه لم يكن هناك خيار آخر .

- وفى جزء منها كانت مبادرة « بوش » موجهة إلى الرأى العام العربى الذى بدت انقساماته شروخا ظاهرة وعميقة ، خصوصا فى المغرب العربى .

- وربما كانت المبادرة فى جزء منها أيضا موجهة للعراق للتأثير على حالته النفسية بين تشاؤم عام يسوده ، وتفاؤل عام يلحقه ، ثم عودة إلى التشاؤم مرة أخرى تتأرجح بالمشاعر العراقية وتحدث خلخلات مؤثرة فى تماسكها .

ولقد تبدد جو التفاؤل تماما من أجواء بغداد حينما بدأت تصل إليها عن طريق وسائل معلوماتها أنباء عن تأكيدات أمريكية ، أعطيت لحكومات عربية فى الخليج وخارجه تعزز

سياساتها المعلنة والسابقة ، وتطمئن الذين راودتهم الشكوك إلى أن الهدف الأمريكى ثابت لم يتغير ، وإنما الأسلوب هو الذى يتحرك ليعطى قوة مضافة للتصميم الأصلى . وعادت الوساوس والهواجس إلى بغداد التى كانت قد بدأت تتحرك على ما ظننته طريقا للحل . ولعل أكثر ما كان يعبر عن الخط السياسى الأمريكى الحقيقى فى تلك الظروف هو أقوال « هنرى كيسنجر » أمام لجنة القوات المسلحة لمجلس الشيوخ فى تلك الفترة . فقد قال « هنرى كيسنجر » :

« لنقم بأية مبادرات نريد القيام بها ، ولنعط أنفسنا حرية فى الحركة كما نشاء ، ولكننا يجب أن نكون واثقين من أن أى حل للأزمة يجب أن يحقق نزع وسائل القوة العراقية التى تلقى بظلها على جيرانه فى المنطقة . وبدون هذا التغيير الضرورى فى الموازين ، فإن أى حل نتصوره للأزمة سوف يكون مجرد تأجيل لها . »

□

وفى الوقت الذى فتحت فيه أبواب مطار بغداد أمام الرهائن الأجانب ليعودوا إلى بلادهم قبل إجازة أعياد الميلاد ـ كان العراق يشعر أكثر من أى وقت سبق أنه وجها لوجه أمام الخطر ، وأن الحرب هى أرجح الاحتمالات التى يواجهها .

ويقول أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة العراقى فى وصف هذه الفترة : « إننا تصرفنا بنوع من القدرية لم تعطنا تطورات الأزمة السريعة فرصة لمراجعته » .

ولقد لاحظ المبعوث السوفيتى « يفجينى بريماكوف » هذا الشعور بالقدرية فى بغداد ، ووصفه بأنه كان أشبه ما يكون بعقدة « الماسادا » وهى إيثار الانتحار الجماعى بدلا من الاستسلام .

ولم تكن القدرية فى العراق وحده ، وإنما امتدت لتشمل العالم العربى كله . فقد بدأ العالم العربى فى تلك الفترة ـ أواخر سنة ١٩٩٠ ـ وكأنه ينتظر يوم قيامة يعرف تاريخه وساعته ، ولكنه يعرف أنه ليس فى مقدوره تجنب المقادير .

والملاحظ أن جهود الملك « حسين »النشيطة طوال فترة الأزمة توقفت تقريبا فى تلك الفترة ـ رغم أن الملك كان يدرك ما قد تحمله المضاعفات المنتظرة للأزمة من مخاطر على بلده ، وعلى عرشه ، وعليه شخصيا .

وكانت الرسائل السرية بين الرئيس « مبارك » والرئيس « صدام حسين » قد توقفت هى الأخرى .

والحاصل أن هذه الرسائل التى بدأت بعد انتهاء أعمال مؤتمر القمة الطارىء فى القاهرة اتصلت بين الرجلين إلى شهر ديسمبر ، تبادل فيها الاثنان ٣٨ رسالة شفوية ومكتوبة جرت كلها عن طريق السفير العراقى فى القاهرة « نبيل نجم » .

ففى يوم ١٩ أغسطس - بعد تسعة أيام من قمة القاهرة - استدعى الرئيس « مبارك » السفير العراقى فى القاهرة ، وطلب منه نقل رسالة منه إلى الرئيس « صدام حسين » تحتوى على ثلاث نقاط مؤداها :

١ - أن يعيد الرئيس العراقى التفكير فى موقفه من الأزمة بما يفتح مخرجا لحلها .

٢ - أن الرئيس « مبارك » مستعد لإجراء أية اتصالات أو مبادرات تساعد على خروج العراق من المأزق .

٣ - أن الرئيس « مبارك » على استعداد لأى شىء يحول دون إراقة الدماء العربية .

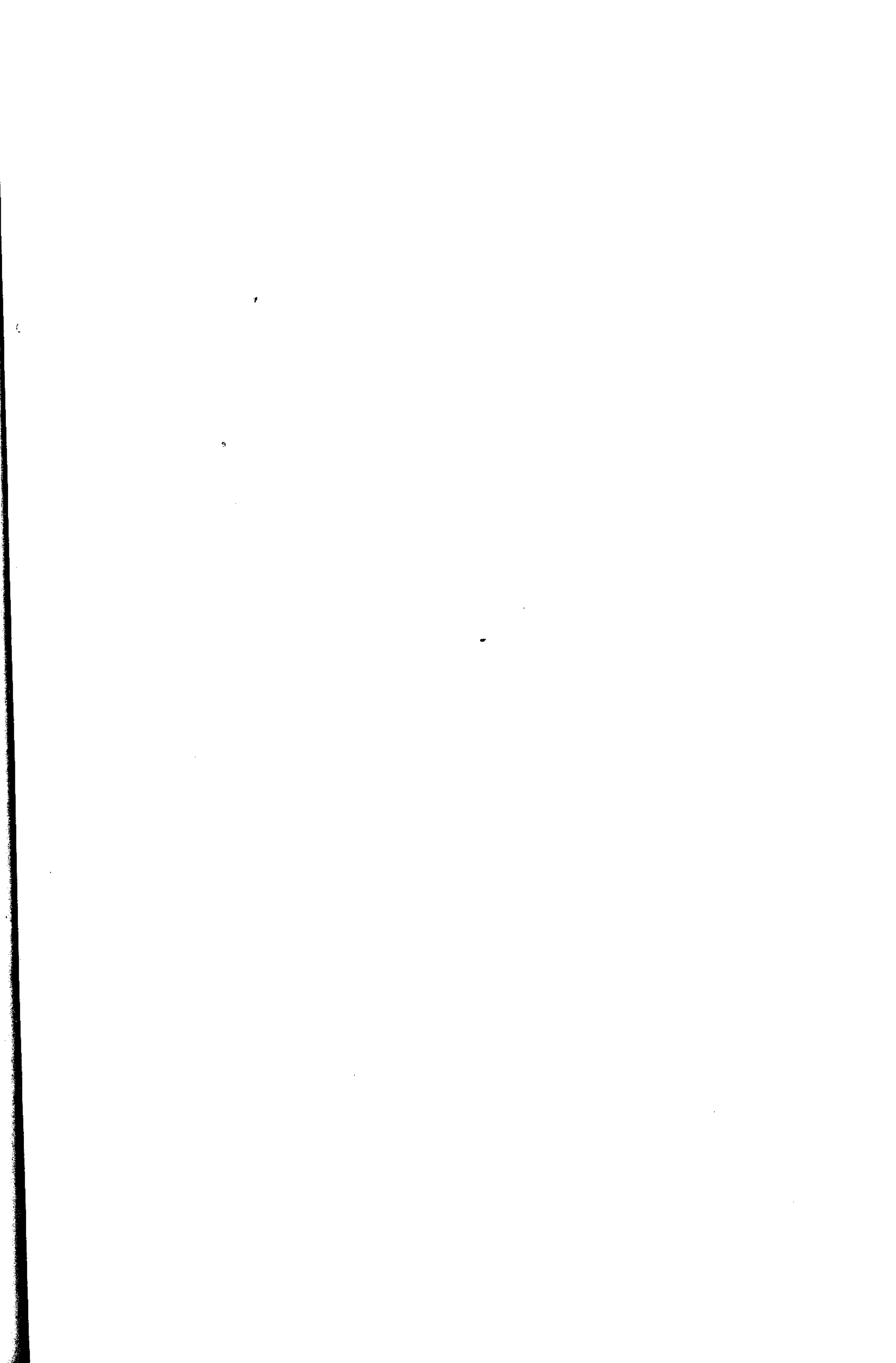
ويوم ٢٣ أغسطس رد الرئيس « صدام حسين » برسالة شفوية قال فيها إنه يعتقد أن الرئيس « مبارك » كان أحد المتسببين فى الأزمة بسبب تعاونه مع الولايات المتحدة ، وأنه هو الذى يتحمل مسئولية الدماء العربية التى يمكن أن تراق .

وتواصلت الرسائل « السرية » بين الرجلين حتى أيام قليلة من نشوب الحرب .

ولم تكن هناك فائدة منها ، فمواقف الطرفين كانت قد تحددت على نحو قاطع لا يترك لأحد فرصة للتراجع أو المناورة . ثم إن القرار كان قد خرج من كل الأيدى العربية دون سبيل إلى استعادته أو طرحه من جديد للمناقشة .

□

كان العالم العربى مشغولا بهمومه الداخلية ، وبتسوية حساباته القديمة ، وترتيب ملفاته الجارية ، فى حين أن صفحة جديدة فى تاريخه كانت على وشك أن تبدأ ، وكانت نصوصها تكتب بعيدا عنه !



الفصل العاشر

الدقيقـــة الأخيـــرة

« إننى أشعر أن السيف خرج من غمده . والسيف مشهر على رأس العالم ، وليس على رأسى فقط » .

[« بيريز دى كويلار » للرئيس « صدام حسين » مساء يوم ١٣ يناير ١٩٩١] .

١

لم يكن هناك سلام على الأرض حين راحت البشرية تحتفل بعيد ميلاد أمير السلام يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٩٠ . فقد كانت الأزمة تحوم في أجواء العالم ، وتوشك أن تتحول فى الشرق الأوسط إلى عاصفة عاتية ومدمرة . والواقع أن الاحتفال بأعياد الميلاد فى تلك المرة كان محاصرا ومختنقا بنذر الحرب . فبعد التفاؤل الذى لاح مبشرا بحل ، عادت التعقيدات إلى ما كانت عليه وأسوأ قبل مبادرة « بوش » بدعوة « طارق عزيز » إلى واشنطن وسفر « جيمس بيكر » إلى بغداد ، ثم الرد العراقى على ذلك بإطلاق سراح جميع الرهائن فى العراق ، وإعادتهم إلى أسرهم وبلادهم ليحتفلوا بعيد الميلاد .

تبدد التفاؤل سريعا ، وعاد التشاؤم ، ولعله زاد وتأكدت زيادته حين أدلى الرئيس الأمريكى يوم ٢١ ديسمبر بتصريح أفصح فيه عن نواياه كاملة وقاطعة :

الرهائن قال « بوش » إنه « مع ترحيبه بإطلاق سراح الرهائن ،
شيئا إلا أنه صحح جريمة ارتكبها العراق حين احتجزهم فى
عن الرهائن أزاح عن ضميره عبئا معنويا ثقيلا » .
المعنى واضحا ، ومؤداه أنه الآن يستطيع أن يضرب بلا تحرز أو تردد) .

**وع احتلال الكويت قال « بوش » إن « انسحاب العراق من
زمة ، وإنما يتحتم لحلها أن يتم نزع قوة العراق العسكرية ،
واريخه وكافة منشآته النووية ، وكذلك يتعين على العراق
عن كل الأضرار التى لحقت بجميع الأطراف فى المنطقة » .**
المعنى واضحا ، ومؤداه أنه سوف يلاحق العراق ويطارده إلى النهاية) .

□

التفاؤل والتشاؤم ، فقد كانت هناك مسألة معلقة لابد من البت
درة « بوش » باقتراح زيارات متبادلة بين واشنطن وبغداد يقوم
يمس بيكر » على التوالى .

وم « طارق عزيز » أولا بزيارته لواشنطن ، ويلتقى بالرئيس
يمس بيكر » بزيارته لبغداد ، ويلتقي بالرئيس « صدام حسين » .

قبولا من بغداد التى كانت تشعر أن الزيارة الأهم هى زيارة
أن يكون هناك بأس من زيارة « طارق عزيز » إلى واشنطن
ستاحة لقياس مزاج الرئيس الأمريكى بعيدا عن التصريحات
يونية ، وبالتالى فإنها مقدمة ضرورية للزيارة الأهم التى تليها
» إلى بغداد .

عداد « طارق عزيز » للذهاب إلى واشنطن فى أى موعد يناسب
جيمس بيكر » طلب أن يتم تحديد موعده مع الرئيس « صدام
تماع « طارق عزيز » فى واشنطن مع الرئيس « بوش » .

ا الجديدة التى استدعت معها كل شكوكها السابقة تخشى أن تحدد
ء مقابلة « طارق عزيز » لـ « بوش » بما لا يرضى العراق
بيكر » وتتحمل بذلك مسئولية الإلغاء ، أو تسمح له بأن يجىء
هائيا يمس كرامة العراق وتترتب على ذلك عواقب تتحمل بغداد

وبعد أخذ ورد عر
١٣ يناير ، لأن الرئيس
واشنطن أن بغداد تتلاعب
مجلس الأمن للعراق ، و

وقبل أن يقوم « ب
يتضمن عددا من الأيام س
الطائرة إلى بغداد ، وكان

وتعثرت المفاوضا

ومرة أخرى عاد «
السلام ، وأعلن عن استع
« طارق عزيز » فى جنيف
فعلا ليتم يوم ٩ يناير (

وبينما سنة ١٩٩٠
آخر التطورات . وترددت

● هل كان إطلاق
أمن إضافى لأهدافه ، وه
● وإذا كان ذلك
« ميتران » بريئا ، أو أنه
● ووصل الشك ب
« حسين » ؟ وانبرى الرئي
كان ضحية للخداع مثلما
● ولكن الرئيس «
بإطلاق سراح الرهائن ،
أصبح متيقنا من أن وجود
كان « بوش » على استعداد
من المدنيين لن يمنعوه من

ولقد توصلت المناقش

وبعد أخذ ورد عرضت بغداد أن تتم زيارة « بيكر » لها فى أى وقت ابتداء من يوم ١٣ يناير ، لأن الرئيس « صدام حسين » مقيد بارتباطات مسبقة قبل هذا التاريخ . وأحست واشنطن أن بغداد تتلاعب بها لأن تاريخ ١٣ يناير يحل قبل يومين اثنين من انتهاء مهلة مجلس الأمن للعراق ، وأقصاها ١٥ يناير ١٩٩١ .

وقبل أن يقوم « بيكر » بإجازته لقضاء عيد الميلاد ورأس السنة ، أعلن اقتراحا يتضمن عددا من الأيام سوف يكون على استعداد فى أى لحظة فى أى يوم منها أن يركب الطائرة إلى بغداد ، وكانت هذه الأيام سلسلة من التواريخ تنتهى يوم ٣ يناير وليس بعده .

وتعثرت المفاوضات .

ومرة أخرى عاد « بوش » إلى حكاية « الميل الأخير » واستعداده لقطعه إنقاذا لفرص السلام ، وأعلن عن استعداد الولايات المتحدة لاجتماع واحد يعقد بين « جيمس بيكر » وبين « طارق عزيز » فى جنيف . ولم يكن فى وسع بغداد غير القبول ، وتقرر موعد الاجتماع فعلا ليتم يوم ٩ يناير (قبل أسبوع تقريبا من انتهاء مهلة مجلس الأمن) .

□

وبينما سنة ١٩٩٠ تسلم نفسها لسنة ١٩٩١ ، كان مجلس قيادة الثورة فى بغداد يناقش آخر التطورات . وترددت فى الاجتماع تساؤلات :

- هل كان إطلاق سراح الرهائن خدعة استدرج إليها العراق لكى يحرم من عنصر أمن إضافى لأهدافه ، وهو وجود رهائن أجانب فى مواقع هذه الأهداف ؟
- وإذا كان ذلك هو الحال ، فما هو الدور الفرنسى بالضبط ، وهل كان الرئيس « ميتران » بريئا ، أو أنه كان جزءا من عملية الخداع ؟
- ووصل الشك بأحد أعضاء المجلس إلى حد التساؤل عن الدور الذى لعبه الملك « حسين » ؟ وانبرى الرئيس « صدام حسين » للدفاع عن الملك قائلا إنه « يظن أن الملك كان ضحية للخداع مثلما كان العراقيون » .
- ولكن الرئيس « صدام حسين » استدرك من هذا ليقول إنه ليس نادما على القرار بإطلاق سراح الرهائن ، فقد أصبح مصيرهم عامل ضغط على العراق ، إلى جانب أنه أصبح متيقنا من أن وجود هؤلاء الرهائن لن يمنع ضرب أهداف يكون بعضهم فيها . وإذا كان « بوش » على استعداد للتضحية بأرواح الآلاف من الجنود فى الحرب ، فإن بضع مئات من المدنيين لن يمنعوه من تنفيذ ما صمم عليه .

ولقد توصلت المناقشات إلى نتيجة مؤداها أن العراق أثبت حسن نواياه أمام العالم

بإطلاق سراح الرهائن بغير شروط مسبقة . ثم إن لقاء « طارق عزيز » مع « بيكر » فى جنيف يوم ۹ يناير سوف يكون فى المقابل اختبارا للنوايا الأمريكية .

ولعل السؤال الكبير فى مناقشات مجلس قيادة الثورة العراقى فى ذلك الاجتماع كان هو التساؤل عن الدور الفرنسى . إن كل الشواهد تؤكد أن الرئيس « ميتران » لم يكن طرفا فى عملية خداع بالدور الذى قام به فى موضوع الرهائن . وبرغم هذا التأكيد فإن الدور الفرنسى كان يتغير فى تلك اللحظات الحاسمة .

□

كان هناك ـ ولا يزال ـ نوع من تقسيم العمل فى مجال المعلومات والاتصالات فى العالم العربى ، وهو تقسيم عمل لم يتفق عليه أحد ، وإنما صنعته ظروف سياسية وتاريخية فى المنطقة .

ففى وقت من الأوقات كانت بيروت أكثر العواصم العربية التى يمكن فيها استطلاع توجهات الغرب فى المنطقة عموما . وفى وقت من الأوقات كانت عمان أفضل العواصم العربية اطلاعا على مسارات التفكير البريطانى . ونتيجة لوجود الأمير « بندر » فى واشنطن ، فإن الرياض أصبحت مرصدا شديد الأهمية لاتجاهات الرياح فى واشنطن . وكانت الرباط ـ ولا تزال ـ أهم مصادر المعلومات عما يجرى فى باريس .

وفى الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر ١٩٩٠ كانت الأخبار الشائعة فى الرباط تردد معلومات تشير إلى أن تغييرا يقع فى السياسة الفرنسية تجاه أزمة الخليج بسبب ضغوط تمارسها عناصر مالية وعسكرية على قصر « الاليزيه » .

فى بداية هذه الأزمة كان التأثير الواضح على دور باريس هو التأثير التقليدى للدبلوماسية الفرنسية التى كانت ترى أن تحتفظ فرنسا بموقفها على مسافة ما من الولايات المتحدة وبريطانيا ، وأن ذلك أدعى إلى تحقيق المصالح الفرنسية الاقتصادية والعسكرية فى المنطقة . وكان بين تصورات الدبلوماسية الفرنسية أن الأزمة ربما تحل بغير حرب لأن بغداد لن تواصل تحديها إلى ما لا نهاية ، بل إنها لابد أن تتوقف عند مرحلة منه وأن تستعمل اتصالات طرف نافذ فى الغرب ، وفرنسا هى المرشحة لهذا الدور ، وأن وسائل هذا الدور متاحة أمام قصر « الاليزيه » .

وكانت الدبلوماسية الفرنسية تجد سندا قويا لها فى وزارة الدفاع ممثلة فى اتجاه وزيرها النشيط « جان بيير شيفينمان » . وكان « شيفينمان » شديد الاهتمام بالأزمة من عدة جوانب :

● مبيعات السلاح الفرنسى للعراق طوال حقب متصلة .

● ثم حقيقة إن العراق مورد للبترول غير خاضع لسيطرة « الأنجلوساكسون » (الأمريكيون والبريطانيون) .

● ثم الحرص على دور مستقل لفرنسا فى الشرق الأوسط يعتقد « شيفينمان » أنه تقليد فرنسى يستحق المحافظة عليه .

● ثم أهمية أن تظل فرنسا على اتصال - أو على الأقل على غير تصادم - مع الاتجاهات الغالبة فى شمال أفريقيا ، وهى متعاطفة مع العراق إزاء التهديدات العسكرية الأمريكية الموجهة إليه .

وأخيرا فلعل « شيفينمان »(١) كان يرى أن فرص الحل السلمى لم تستنفد بالكامل ، وأن الولايات المتحدة أصبحت تطلب الحرب لأسباب تتعدى قضية احتلال الكويت ، فى حين أن الحصار الاقتصادى وحده يمكن أن يرغم العراق على الانسحاب من الكويت .

وفى الأيام الأخيرة بدا محققا أن الأزمة واصله إلى الحرب ، وهى حرب يمكن معرفة نتائجها مبكرا . وبدأت المصالح الفرنسية تقلق لأن الشركات الأمريكية والبريطانية تحصل على كل العقود فى السعودية ومن حكومة الكويت فى المنفى ، فى حين أن الشركات الفرنسية لم تحصل إلا على عقد واحد صغير هو عقد بإعادة إصلاح تليفزيون الكويت بعد التحرير .

ثم أصبح موقف المصالح الفرنسية أشد فى « الاليزيه » حين بدأت السعودية تتفاوض مع شركة « طومسون » الفرنسية على عقد بتوريد ٣٠ محطة رادار تصل قيمتها إلى أكثر من ٢ بليون دولار . وكان مما يساعد هذا العقد - وغيره - فى نظر المصالح الفرنسية أن تظهر باريس موقفا أكثر انسجاما مع دول الخليج المتحمسة للحرب .

ثم زاد على ذلك أن حجم التعاقدات للمشروعات المطلوبة بعد الحرب سوف يكون هائلا . فالشركات الأمريكية استطاعت أن تحصل من حكومة الكويت ، وهى لاتزال فى منفاها بالطائف على عقود تزيد على ٢٢ بليون دولار ، والشركات البريطانية داخلة فى السباق ، والشركات الفرنسية على الأبواب تنتظر ، وهذا وضع يصعب قبوله .

---

(١) قدم « جان بيير شيفينمان » استقالته من وزارة الدفاع يوم ٢٩ يناير ١٩٩١ بعد أن وجد أن الجيش الفرنسى يقوم فى العمليات بدور يتعدى ما كان متفقا عليه ، وأن ذلك يتم بتنسيق مباشر بين قصر « الاليزيه » وهيئة أركان حرب الجيش . وقد كتب « شيفينمان » بعد ذلك كتابا عن أزمة الخليج ملخصه أن الحرب كان يمكن تجنبها ، وكان رأيه ، وقد دعمه بتجربته المباشرة فى الأزمة ، أن الرئيس « بوش » أغلق من اليوم الأول كل أبواب الحل السلمى لأنه من اليوم الأول رتب فكره وخططه وتحركاته فى الأزمة حتى لا يترك لها غير حل واحد فى ميدان القتال .

وبعيدا عن وزير الدفاع « جان بيير شيفينمان » بدأت بعض العناصر العسكرية فى الجيش الفرنسى تلتقى مع المصالح المالية فى ضرورة أن تتخذ فرنسا موقفا يختلف عما اتخذته من قبل ومنذ بداية الأزمة ، فإذا كانت الحرب قادمة ، وإذا كانت نتيجتها مرئية من الآن - إذن فأى صالح لفرنسا أن تكون بعيدة عن معسكر المنتصرين فيها ، خصوصا وأنه المعسكر الذى سيضع شروط التسوية المنتظرة فى الشرق الأوسط ، والتى سوف ترسم خرائطه من جديد .

وطبقا لمعلومات الرباط ، فإن قصر « الاليزيه » بدأ يلين لكل هذه الضغوط ، خصوصا وأن الدبلوماسية الفرنسية بدأت هى الأخرى تقتنع بحتمية الحرب . ومادام الأمر كذلك ، فإن الذين سوف يحق لهم الجلوس إلى موائد التسوية فى الشرق الأوسط ، هم بالضبط هؤلاء الذين سوف يفتحون الطريق إليها فى ميدان المعركة .

وأخيرا جاء يوم فى أوائل شهر يناير توافرت معه فى الرباط معلومات تقول إن الرئيس « ميتران » طلب إلى الأميرال « جاك لاكساند » رئيس أركان قصر « الاليزيه » أن « يخطر أصدقاءنا الأمريكان بأن فى استطاعتهم أن يعتمدوا على موقف فرنسا مثلما يعتمدون على موقف بريطانيا بالضبط » .

ثم تكررت الرسالة إلى شخصية أمريكية رفيعة المستوى عن طريق « جان لويس بيانكو » وزير الشئون الاجتماعية الفرنسية ، وهو أحد المقربين من « ميتران » نفسه .

وأخيرا وصلت الرسائل من باريس إلى واشنطن بالطرق الدبلوماسية تأكيدا وتعزيزا .

وكان شرح الرئيس « ميتران » لموقفه فى المحصلة النهائية ، وعلى نفس الخطوط ، على النحو التالى :

١ - إن الحرب باتت مؤكدة ونتائجها متوقعة ، ورغم أن فرنسا وضعت استثمارات سياسية كبيرة فى بغداد ، فهذه الاستثمارات فى حكم الضائعة فى الوقت الراهن .

٢ - إن فرنسا لا تستطيع أن تظل بعيدة ، وإنما لابد أن تقترب من الساحة وتشارك مهما كانت تحفظاتها السابقة .

٣ - إن العقود الكبيرة القادمة سوف تتحدد على أساس الأدوار فى المعركة .

٤ - إن الذين سيجلسون على مائدة تسوية أمور المنطقة هم المحاربون ، وليس المتفرجون .

٥ - إن الخليج فى السنوات القادمة سوف يدخل فى « جيب » واشنطن ، ولابد لفرنسا أن تظل قادرة على الوصول إلى شىء منه ، حتى وإن كان معظمه فى الجيب الأمريكى .

٦ ـ إن فرنسا مطالبة بأن تجد لنفسها بعد ذلك مجالات يمكن أن تحصل فيها على وضع خاص بها ، والمجالات الاحتياطية المرشحة هى : إيران ـ وليبيا ، وكلتاهما دولة بترولية رئيسية ـ لكن سلم الأولويات لا يستطيع أن يتجاهل موارد الخليج .

وكان الموقف الفرنسى ، بالفعل ، يتغير .

٣

وأخيرا جلس « طارق عزيز » و « جيمس بيكر » وجها لوجه عبر مائدة اجتماعات فى إحدى قاعات فندق « الانتركونتننتال » بجنيف . وكان هناك حشد من الصحفيين والمصورين للصحافة والتليفزيون ، ويبدو أن الجميع كانوا يتوقعون أسوأ الفروض منذ اللحظة الأولى للاجتماع . وكان ذلك شعورا سائدا إلى درجة أن العواصم العربية التى أبدت خشيتها من وجود أى احتمال لما يمكن اعتباره نجاحا للمفاوضات ـ تلقت تأكيدات من واشنطن أن الاجتماع كله لن يستغرق أكثر من نصف ساعة . وربما أن رجال الإعلام كانوا على صواب حين توقعوا أن يحدث الصدام منذ اللحظة الأولى للقاء . وكانت مفاجأتهم شديدة عندما التقى الاثنان وعلى وجه كل منهما ابتسامة ، ومع أنها لم تكن ابتسامة من القلب ، بل صادرة بالتأكيد عن فن العلاقات العامة بأكثر من صدورها عن مشاعر ود وتفاهم ـ فإنها كانت ابتسامة على أية حال .

وتشجع رجال الإعلام ، وطلبوا من كل منهما أن يصافح الآخر ، واستمر مشهد المصافحة لعدة دقائق يتكرر صورة بعد صورة تحت إلحاح العدسات . وأخيرا جاءت اللحظة التى يتعين فيها إخراج الأقلام والعدسات ، وحتى موظفى الفندق الذين كانوا فى الاستقبال أو كان عليهم تقديم آخر لمسة فى ترتيبات الخدمة فى القاعة ـ وبدأ الاجتماع الذى كان العالم كله يتطلع إليه .

وبدأ « جيمس بيكر » فأخرج من ملف معه مظروفا ، ثم قال :

ـ « إن الرئيس طلب أن أسلمك هذا الخطاب لكى تسلمه بدورك إلى رئيسك » .

وتناول « طارق عزيز » المظروف ، وأراد أن يضعه أمامه على المائدة ، ولكن « بيكر » طلب إليه أن يقرأه . وقال « طارق عزيز » :



اجتماع جيمس بيكر وطارق عزيز فى جنيف .

ـ « فهمت منك أن الخطاب موجه من رئيسك إلى رئيسى ، فهل يحق لى أن أقرأه » ؟

وقال « بيكر » بصوت حاول قدر ما يستطيع أن يجعل نبرته محايدة : « إننى أقترح أن تقرأه لأن ما سوف نتحدث عنه اليوم متصل بما فيه » .

□

وفتح « طارق عزيز » المظروف ، وبدأ يقرأ ، وكان نص الخطاب كما يلى :

● السيد الرئيس

إننا نقف اليوم على حافة حرب بين العراق وبقية العالم ، وهذه حرب بدأت بقيامكم بغزو الكويت ، وهى حرب يمكن أن تنتهى فقط بانسحاب عراقى كامل ، وغير مشروط وفق قرار مجلس الأمن رقم ٦٧٨ .

وأنا أكتب الآن مباشرة لك لأننى حريص على ألا تضيع هذه الفرصة لتجنيب شعب العراق مصائب معينة . وأكتب لك مباشرة أيضا لأننى سمعت من البعض أنك لست على علم بمدى عزلة العراق عن العالم نتيجة لما وقع .

وأنا لست فى مركز يسمح لى بأن أحكم ما إذا كان هذا الانطباع صحيحا أو لا ، وقد وجدت أن خير ما أستطيع عمله هو أن أحاول بواسطة هذا الخطاب أن أعزز ما سوف يقوله وزير الخارجية بيكر إلى وزير خارجيتكم ، وحتى أزيل أى أثر للشك أو الالتباس قد يكون فى فكركم فيما يتعلق بموقفنا ، وما نحن مستعدون لعمله .

إن المجتمع الدولى متحد فى طلبه إلى العراق أن يخرج من كل الكويت بلا شرط وبلا أدنى تأخير ، وهذه ببساطة ليست سياسة الولايات المتحدة وحدها ، وإنما هى موقف المجتمع العالمى ، كما يعبر عنه ما لا يقل عن ١٢ قرارا صادرا عن مجلس الأمن .

إننا نفضل الوصول إلى نتيجة سلمية ، ولكن أى شىء أقل من التنفيذ الكامل لقرار مجلس الأمن رقم ٦٧٨ ـ هو أمر غير مقبول بالنسبة لنا . ولن تكون هناك مكافأة لعدوان ، ولن تكون هناك مفاوضات ، لأن المبادىء ليست قابلة للمساومة .

وعلى أى حال ، فإن العراق إذا قام بالتنفيذ الكامل للقرارات يستطيع أن ينضم إلى المجتمع العالمى . وفى المدى القريب فإن البنيان العسكرى العراقى يستطيع أن يهرب من التدمير . ولكن إذا لم تقم بالانسحاب من الكويت انسحابا كاملا غير مشروط ، فإنك سوف تخسر ما هو أكثر من الكويت . إن ما هو مطروح الآن ليس مستقبل الكويت ، فالكويت سوف يتم تحريرها وحكومتها سوف تعود إليها ـ ولكن المطروح هو مستقبل العراق ، وهو خيار يتوقف أمره عليك .

إن الولايات المتحدة لن تنفصل عن شركائها فى التحالف ، فهناك ١٢ قرارا من مجلس الأمن ، و ٢٨ دولة شاركت بقواتها العسكرية لضمان تمثيل هذه القرارات ، وأكثر من ١٠٠ حكومة التزمت بتنفيذ العقوبات . وهذا كله كاف ليؤكد لك أن القضية ليست العراق ضد الولايات المتحدة ، ولكنها العراق ضد العالم . إن معظم الدول العربية والاسلامية تقف ضدك وهى جميعا مستعدة لتعزيز ما أقول . والعراق لا يستطيع ، ولن يستطيع أن يبقى فى الكويت ، أو يحصل على ثمن لقاء خروجه منها .

ولقد يغريك أن تجد راحة فى اختلاف الآراء الذى تراه فى الديمقراطية الأمريكية ، ونصيحتى لك أن تقاوم هذا الإغراء . إن اختلاف الآراء لا ينبغى خلطه بالانقسام ، ولا ينبغى لك ، كما فعل آخرون غيرك ، أن تقلل من أهمية الإرادة الأمريكية .

إن العراق بدأ يشعر فعلا بآثار العقوبات التى قررتها الأمم المتحدة ، وإذا جاءت

الحرب بعد العقوبات ، فستكون تلك مأساة أكبر لك ولشعبك ، ودعنى أنبهك إلى أن الولايات المتحدة لن تتسامح مع أى استخدام للأسلحة الكيماوية أو البيولوجية ، أو أى تدمير للمنشآت البترولية فى الكويت . وفوق ذلك فإنك سوف تعتبر مسئولا مسئولية مباشرة عن أى عمل إرهابى يوجه إلى أى دولة عضو فى التحالف . فى هذه الحالة سوف يطلب الشعب الأمريكى أقوى رد ممكن عليك ، ولسوف تدفع أنت وبلادك ثمنا فظيعا إذا أقدمت على عمل من هذا النوع .

إننى لا أكتب لك هذا الخطاب لكى أهددك ، وإنما أكتبه لمجرد إخطارك . ولست أفعل ذلك بسعادة ، فالشعب الأمريكى ليست لديه معركة مع الشعب العراقى .

السيد الرئيس
إن قرار مجلس الأمن رقم ٦٧٨ يحدد فرصة لاختبار حسن النوايا تنتهى يوم ١٥ يناير حتى تنتهى هذه الأزمة دون عنف . واستغلال هذه الفرصة للهدف الذى أتيحت من أجله لتجنب العنف هو خيار فى يدك ، وفى يدك وحدك . وإنى لآمل أن تزن خياراتك ، وأن تنتقى منها بعقل لأن كثيرا سوف يتوقف على ذلك .

(إمضاء)

جورج بوش ●

□

كانت أنظار الوفدين العراقى والأمريكى معلقة بملامح « طارق عزيز » وهو يقرأ رسالة الرئيس « بوش » إلى الرئيس « صدام حسين » . وكان بعض أعضاء الوفدين ينقلون بصرهم إلى « بيكر » الذى كان هو الآخر يتنقل ببصره بين أوراق يتطلع فيها أمامه ، وبين نظرة من وقت لآخر لملامح « طارق عزيز » وهو يقرأ الرسالة ببطء وعناية . ولم تظهر على ملامح « طارق عزيز » أى خلجة توحى بمشاعره . وقد طوى الرسالة بعد أن قرأها وأعادها إلى المظروف الذى كانت فيه ، وقال بهدوء : « إننى لا أستطيع أن أقبل هذه الرسالة ، ولا أستطيع أن أنقلها لرئيسى لأن اللهجة التى كتبت بها ليست مما يمكن أن يستعمل فى توجيه خطاب من رئيس دولة إلى رئيس دولة آخر »(٢) . وأزاح المظروف الذى يحتوى على الرسالة إلى ناحية « بيكر » بهدوء ، وتركه « بيكر » فى مكانه قائلا : « إنك على كل حال قرأته ، وإذا لم تكن تريد أن تأخذه ، فأنا لن أستعيده من مكانه حيث وضعته الآن . »

---

(٢) محضر الاجتماع بين « طارق عزيز » و « بيكر » فى فندق « انتركونتننتال » فى جنيف يوم ٩ يناير ١٩٩١ .

(بقى المظروف بالرسالة التى يحتويها على المائدة طوال الساعات التى استغرقتها جلسات المباحثات ذلك اليوم فى جنيف .

وحين دخل موظفو الفندق لتسلم القاعة من رجال الأمن والبروتوكول الذين كانت القاعة فى عهدتهم ومسئوليتهم طوال اليوم ، وجدوا المظروف على المائدة ، وعليه اسم الرئيس « صدام حسين » ، وجروا به إلى الوفد العراقى ، ورفض الوفد العراقى تسلمه ونصح بإعادته إلى الوفد الأمريكى ، وبدوره رفضه الوفد الأمريكى . واستقر المظروف فى النهاية فى خزانة مدير فندق « الانتركونتننتال » فى جنيف تحت بند « متعلقات نزلاء تعاد إليهم حين الطلب » !)

□

وأبدى « طارق عزيز » ملاحظة قال فيها : « ظننت أننا قادمون هنا لنتكلم وليس لنتخانق » . ورد « بيكر » قائلا : « إننا جئنا لكى نتكلم ، ولكننا أردنا أن يكون كلامنا على أساس » .

ثم توجه « بيكر » لـ « طارق عزيز » بسؤال : « هل تحب أن تبدأ أنت فى الكلام ، أو أبدأ أنا » ؟ - وقال « طارق عزيز » إنه « يفضل أن يبدأ وزير الخارجية الأمريكية » .

وبدأ « بيكر » يتكلم .

وقال إن « لديه عدة نقاط يود أن يركز عليها فى كلامه .

فهو لم يجىء إلى جنيف لكى يفاوض ، وإنما جاء فى محاولة أخيرة لحث العراق على تنفيذ قرارات مجلس الأمن ، وهذه القرارات منشورة ومعروفة للجميع ، وهى صادرة عن أعلى سلطة دولية ، وهو لا يملك أن يتفاوض فيها . »

وتوقف « بيكر » عن الكلام ، وتوجه إلى « طارق عزيز » بسؤال قال فيه : « هذه هى نقطة البداية التى أنطلق منها ، فهل تريد أن تعقب عليها بشىء » ؟ - ورد « طارق عزيز » : « إننى أفضل أن أسمع كل ما لديك للنهاية » .

وواصل « بيكر » حديثه قائلا :

« إذا كانت قرارات مجلس الأمن هى البداية ، وإذا لم نكن هنا لكى نتفاوض فيها ، فلعلك تتذكر أن آخر قرار فيها ، وهو القرار رقم ٦٧٨ - يعطى للعراق مهلة أقصاها ١٥ يناير ليمتثل لهذه القرارات . وهذه المهلة تنتهى يوم ١٥ يناير ونحن اليوم يوم ٩ يناير ، أى أنه لم يعد باقيا على انتهاء المهلة غير ستة أيام ، وأنا أقدر أن هذه مدة قصيرة ، ولكن ذلك ليس ذنبنا . إن الرئيس « بوش » حاول أن يعطى كل الأطراف فرصة التفكير والمناقشة فى خطورة الموقف ، وكان من هنا اقتراحنا بأن تجىء أنت لمقابلة رئيسى فى واشنطن ، وأن أذهب أنا إلى بغداد لمقابلة رئيسك . ولكنكم تصرفتم بطريقة بدت لنا غريبة فيما يتعلق

بتحديد يوم لزيارتى لبغداد . إننا أعطيناكم فترة ١٧ يوما ، ولكن هذه الأيام كلها لم تناسبكم ، وقلتم لنا إن الرئيس « صدام » لديه فيها جميعا ارتباطات سابقة . »

وبدت فى لهجة « بيكر » نبرة ضيق وهو يستطرد ليقول :

« إن الأمر بدا لنا غريبا ، فطول الأسابيع الأخيرة كان الرئيس « صدام » يستقبل كثيرين من الساسة السابقين الذين كانوا فى يوم من الأيام يملكون سلطة . ومع احترامى لكثيرين منهم فهم الآن شخصيات من الماضى . إننى أتحدث عن رجال من أمثال « ادوارد هيث » و « ويلى برانت » و « ناكاسونى » . إننى أحترمهم جميعا ، ولكنهم ببساطة ليسوا الآن فى موقع إدارة الأزمة أو التأثير فيها ، ومع ذلك يقابلهم الرئيس « صدام » ، ولا يجد فى جدوله وقتا يخصصه لوزير خارجية الولايات المتحدة فى فترة فاصلة بين الحرب والسلام . »

وسكت « بيكر » لحظة ثم قال : « إنه حتى فى هذه الفترة وجد وقتا لمقابلة « محمد على كلاى » . (يقصد بطل الملاكمة السابق) .

وعاد « بيكر » إلى حديثه الأصلى ، فقال :

« أعود لقرارات مجلس الأمن فأقول إن هذه القرارات المرتبطة بمهلة محددة لابد من تنفيذها على نحو أو آخر . وكما قال الرئيس « بوش » فى خطابه الذى قرأته الآن ، فإن الطريقة التى يتم بها تنفيذ هذه القرارات مازالت متوقفة عليكم ، ولكنها لن تكون كذلك عندما تنقضى المهلة التى حددها مجلس الأمن ، وأنا أريد أن تعرفوا أن أمامكم تحالفا دوليا قويا فى مواجهتكم ، وهذا .... »

وهنا قاطعه « طارق عزيز » قائلا له :

« إننى أفضل أن تحصر كلامك عن التحالف الدولى ، وأما الأطراف العربية المشتركة فيه فأنت تعرف كيف جئتم بها إلى صفوفه . »

ورد « بيكر » :

« إننى أرجوك أن تصحح معلوماتك فى هذه النقطة . ومع ذلك فأنتم الذين كنتم تقولون عنهم إنهم إخوة لكم . »

ورد « طارق عزيز » قائلا :

« إننا نعرف من هم إخوتنا . »

ورد « بيكر » :

« إنكم قمتم باحتلال أرض واحد من هؤلاء الإخوة ، وخدعتم أخا ثانيا . وتسببتم بذلك في صراع كبير . »

ورد « طارق عزيز » :

« إنه يؤثر أن يترك « بيكر » يكمل حديثه في الموضوع حتى ينتهي مما لديه ، ثم يقوم هو بالتعليق على كلامه مرة واحدة » .

وقال « بيكر » :

« حسنا سوف أستكمل ما كنت أتحدث فيه . كنت أقول إن أمامكم تحالفا عربيا ودوليا هائلا ، وهذا التحالف مكلف بتنفيذ قرارات مجلس الأمن ، فإذا لم تنسحبوا قبل تاريخ ١٥ يناير فإن هذا التحالف سوف يجد نفسه مسئولا عن تنفيذ هذه القرارات وبالقوة المسلحة . »

ثم توقف « بيكر » لحظة وكأنه يريد أن يترك ما قاله ليحدث أثره الدرامي ، وعاد إلى استئناف حديثه ، وقد اتخذت لهجته المحايدة نبرة باردة كالثلج ـ قال :

« والآن دعني أعطيك صورة دقيقة عن قوة التحالف الموجودة أمامكم . »

وراح « بيكر » يتحدث عن قوات « درع الصحراء » ، أو « عاصفة الصحراء » الموجودة تحت تصرف الجنرال« شوارتزكوبف » ، وقد بدأ بأسطول حاملات الطائرات الموجود في البحر الأحمر وفي الخليج ، وعدها ست حاملات على ظهرها مئات الطائرات . وكل حاملة فيها تقود مجموعة قتال من ٩ قطع بحرية مجهزة بصواريخ « توماهوك » .

ثم انتقل « بيكر » إلى القوة الجوية ، فقال « إن قيادة التحالف تحتفظ تحت إمرتها بنطاق من القواعد محيط بالعراق ، ويستطيع أن يطال أي جزء منه ، وفي هذه القواعد تتمركز أكثر من ألفي طائرة ، وليس المهم عددها ، وإنما المهم هو نوع التكنولوجيا التي سوف تستعملها قيادة التحالف في تنفيذ الأهداف المقررة لها داخل العراق . وأنتم لا تتصورون نوع التكنولوجيا المتوافرة لهذه القوات الجوية . »

ثم وصل « جيمس بيكر » إلى القوات البرية للتحالف ، فتحدث عن حجم الجيوش وعن نوعية سلاحها ، وعن قوة النيران التي تملكها على أساس تكنولوجي لم يستعمل من قبل في أي حرب .

ثم أضاف « بيكر » قائلا :

ـ « إننا نعرف أن لديكم مخزونا كبيرا من الأسلحة الكيماوية ، ونحن ننصحكم كما

نكر الرئيس « بوش » فى رسالته إلى الرئيس « صدام » ـ ألا تستعملوه فى أى مرحلة من مراحل أى شىء يمكن أن يحدث بيننا . ونريد أن نلفت نظركم إلى أن استعمالكم لأسلحة كيماوية ضد قوات التحالف سوف يستوجب من ناحيتنا ردا من نفس النوع غير التقليدى . » (وكانت الإشارة واضحة إلى الأسلحة النووية) .

كان الصمت فى القاعة كاملا لا يقطعه إلا صوت « بيكر » يحصى الحاملات والبوارج والقواعد والطائرات وقاذفات الصواريخ والدبابات ، إلى آخره ....

وأحس فيما يبدو أنه تجاوز الحد فى صورة الهول الأكبر التي رسمها ـ فقد توقف ليصب لنفسه كوب ماء يشربه بينما القاعة غارقة فى صمتها وفى كآبتها . وعاد « بيكر » إلى الحديث قائلا :

ـ « هذا ما أردت أن أقوله . ودعنى أضف عليه أننى حين قابلتك من قبل فى مكتبى فى واشنطن سمعت منك الكثير عن أمانيك لمستقبل العراق . إننى سمعتك أكثر من مرة تتحدث عن هذه الأمانى عندما التقينا فى واشنطن ، أو فى نيويورك عندما كنا نحضر معا فى أيام سعيدة سابقة جلسات الجمعية العامة للأمم المتحدة . وإننى لآسف أن أقول لك إن هذا المستقبل الذى كنت تتمناه لن يتحقق إذا لم تنفذ حكومتك قرارات مجلس الأمن كاملة ، وبلا قيد ولا شرط . إن مستقبل العراق إذا حدث ما نخشاه ولم تمتثلوا لقرارات مجلس الأمن لن يكون فى يد الحكومة التى تمثلها . »

وسكت « بيكر » ثم قال لـ « طارق عزيز » :

ـ « وأنا الآن على استعداد لأن أسمع ما لديك » .

وتحولت الأنظار كلها إلى ناحية « طارق عزيز » ، وكانت أكثر الأنظار تطلعا إليه هى أنظار الوفد العراقى نفسه . فقد توقع بعض أعضاء الوفد أن « طارق عزيز » بعد كل ما سمع سوف يطوى ملفاته ، وينهض قائما من مكانه على مائدة الاجتماع ويقول لـ « بيكر » :

ـ « بعد ما قرأته من خطاب الرئيس « بوش » الموجه إلى الرئيس « صدام حسين » وهو خطاب غير لائق ـ وبعد ما سمعته منك شخصيا من حديث إلىّ ، وهو تهديد سافر فإن هذا الاجتماع لم يعد له موضوعا . »

وتنفض الجلسة ، وكانت قد استغرقت حتى الآن ثلاثة أرباع الساعة .

والحاصل أن « طارق عزيز » سيطر بالكامل على أعصابه . وقد اكتفى فى الرد ع ما سمع بجملة سريعة قال فيها :

ـ « إننى أفضل فى هذه اللحظة أن أتذكر « جيمس بيكر » الذى لقيته من قبل فى مكتبه بواشنطن ، ولقيته أيضا فى قاعات وأروقة الأمم المتحدة . وأنسى مؤقتا « جيمس بيكر » الذى سمعته يتحدث أمامى الآن . »

ثم مضى « طارق عزيز » يقول :

ـ « إن الصورة التى رسمتها الآن لقوات التحالف ليست جديدة علينا ، وليست فيها مفاجأة بالنسبة لنا ، فنحن نعرفها من قبل ونفهم ما الذى تعنيه . »

وبدا على « بيكر » وعلى عدد آخر من أعضاء الوفد الأمريكى أنهم فوجئوا بقول « طارق عزيز » إنه يعرف الصورة ، ويفهم ما تعنيه . فقد كان بينهم من تصوروا أن الطرف العراقى لا يعرف حقيقة ما يواجهه .

ثم راح « طارق عزيز » يتعرض لأوضاع المنطقة ، بادئا من الحرب العراقية الإيرانية ، ثم وصل إلى جذور الأزمة ، وكيف تصاعدت ، وكيف حاول العراق بكل وسيلة أن يفتح الطريق إلى حل ، ولكن الولايات المتحدة كرست جهدها لإغلاق كل باب يفتحه العراق .

ثم وصل إلى أن يقول لـ « بيكر » :

ـ « إنك تحدثت إلىّ عن مستقبل للعراق خارج عن إرادة الحكومة التى أمثلها ، وأخشى أن أقول لك إن أصدقاءكم فى العالم العربىّ ممن تعاونوا معكم ضد العراق هم الذين لا مستقبل لهم . فشعوبهم سوف تتصدى لهم . إن سياستكم أدت دائما إلى كوارث بالنسبة لأصدقائكم . »

وقاطعه « بيكر » : « ألم يكونوا أصدقاءكم قبل أن يكونوا أصدقاءنا ؟ »

وقال « طارق عزيز » : « نعم .. كانوا » .

وقاطعه « بيكر » : « ألم تكذبوا على « مبارك » ؟ »

ورد عليه « طارق عزيز » قائلا :

ـ « دعنى فى هذه النقطة أضعك فى الصورة الكاملة لما حدث . »

ثم راح « طارق عزيز » يروى لـ « بيكر » تفاصيل ما حدث بين الرئيس « حسنى مبارك » والرئيس « صدام حسين » فى بغداد يوم ٢٤ يوليو ، ومؤداه أن الرئيس « صدام » تعهد بعدم استعمال القوة حتى تبدأ المفاوضات بين ولىّ العهد الكويتى ، وبين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقى وتظهر النتيجة ، وبعدها فقد قال له إن كل واحد بعدها سوف

يدافع عن حقه ، والله يعينه على هذا الحق ، وأنه فى كل الأحوال لم يكن الرئيس « مبارك » مكلفا بأن ينقل رسائل من الرئيس « صدام حسين » إلى أحد ، وأنه إذا أراد أن ينقل فقد كان عليه أن يستوثق . »

ولم تكن هناك جدوى فى هذا الجزء من المناقشة التى وصلت بعد ذلك إلى نقطة قال فيها « طارق عزيز » :

ـ « إننا نفهم من سياساتكم كما نراها الآن أنكم تمارسون معنا بالضبط ما فعلتموه من قبل مع الرئيس « ناصر » سنة ١٩٦٧ . »

وقال له « بيكر » :

ـ « إننى لست خبيرا بما حدث سنة ١٩٦٧ ، ولكن معنا هنا فى الوفد زميل يستطيع أن يحدثك عما جرى سنة ١٩٦٧ . »

(أشار « بيكر » إلى أحد مستشارى الوفد وهو « دنيس روس » المسئول عن تخطيط سياسة الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية ـ وقال له : « دنيس .. هل تستطيع أن تحدث الوزير عن سنة ١٩٦٧ ؟ »

وكان غريبا أن تسمع القاعة فى هذه اللحظة حديثا استغرق ربع الساعة عن أزمة ١٩٦٧ ـ فى وقت كان الكل فيه على حافة أزمة مختلفة بعد مرور ٢٣ عاما من الزمان) .

واستأنف « طارق عزيز » حديثه قائلا :

ـ « إنكم تهددوننا بالحرب ، ونحن لا نخاف منها ، وكنا نعتقد أننا قادمون هنا لمحاولة صادقة لتجنب نشوبها ، ولكننا نرى أننا لم نفعل حتى الآن إلا الحديث عن الحرب والتهديد بها . »

وقال « بيكر » :

ـ « إنكم أنتم الذين هددتم إسرائيل بحرق نصفها . »

وعاد « طارق عزيز » يذكر « بيكر » بأن هذا التهديد كان مشروطا بكونه ردا على إسرائيل إذا قامت بضرب العراق بأسلحة نووية ، كما هددت هى أولا .

وقال « بيكر » إنه لا يعرف أن هذا التهديد العراقى لإسرائيل كان معلقا بهذا الشرط .

ورد « طارق عزيز » برجاء أن يقرأ « بيكر » تصريح الرئيس « صدام حسين » فى هذا الصدد . ثم مضى « طارق عزيز » إلى القول : « إن الجزء الأول من تصريح الرئيس « صدام حسين » ، وهو المتعلق بالتهديد الإسرائيلى بضرب العراق بأسلحة نووية جرى حصاره إعلاميا فى الولايات المتحدة إلى درجة أن الرئيس « صدام حسين » فى حديث مع

محطة .N.B.C أوضح الحقيقة وحدد تفاصيل ما قال ، ولكن محطة .N.B.C أذاعت الحديث بعد أن حذفت منه هذا الجزء . وكان التليفزيون العراقى يصور المقابلة فى نفس الوقت مع مصورى الـ .N.B.C ، وهو على استعداد لأن يرسل نسخة من التسجيل العراقى لـ « بيكر » حتى يرى بنفسه أن تصريح الرئيس « صدام حسين » الأصلى لم ينقل خطأ فى المرة الأولى فقط ، وإنما تكرر الخطأ بإصرار حينما حاول أن يصحح . وهذا يدل على سوء قصد مبيت يريد أن يلصق بالعراق مقولة التهديد بإحراق نصف إسرائيل ، دون أن يذكر أن ذلك فى الواقع كان ردا على تهديد إسرائيلى بضرب العراق بقنابل نووية . »

وتحدث « بيكر » عن نظام عالمى جديد . وقال « طارق عزيز » إن « العراق ليست لديه مشكلة مع أى نظام عالمى جديد ، وأنه إذا صلحت النوايا يستطيع أن يتعاون مع الآخرين فى إقامة هذا النظام العالمى الجديد . »

وطال الحديث على هذا النحو لنهار كامل دون مبرر لأن الرسالة الحقيقية فى الاجتماع تركزت كلها فى الساعة الأولى منه ، وأما بقية النهار الذى امتدت عليه ثلاث جلسات ، فلم يكن فيه غير مناقشات وحجج سمعت من قبل وتكررت . وفى الغالب فان « جيمس بيكر » لم يكن لديه مانع من أن تطول الاجتماعات حتى يعطى الانطباع للعالم بأنه بذل جهده فى مفاوضات جادة ، ولكن عناد العراق حال دون وصولها إلى نتيجة .

ولقد تسبب طول الاجتماع نهارا بكامله فى إثارة قلق واضح فى عديد من العواصم العربية ، فقد كانت هذه العواصم تعرف مما قيل لها مسبقا أن الاجتماع جلسة واحدة تستغرق أقل من ساعة يسلم فيها « بيكر » رسالة « بوش » إلى « صدام حسين » ثم تنفض الجلسة ، ويتم تسجيل النقطة المطلوب تسجيلها .

وعندما انتهت الجلسة الأولى ، وأعلن بعدها عن جلسة ثانية بعد استراحة ، ثم جاءت الجلسة الثانية ، وأعلن بعدها عن جلسة ثالثة بعد استراحة أخرى ـ كان هناك توجس شديد فى بعض العواصم العربية من أن يكون الاجتماع قد تحول إلى مفاوضات ، وأن تكون هذه المفاوضات قابلة للتحول إلى نتائج ، خصوصا وأن أنباء كثيرة رددها « جورج بوش » نفسه راجت تقول إن العراق قد يقرر الانسحاب فى اللحظة الأخيرة ، ويضع الكل أمام أمر واقع جديد يحتاج التكيف معه إلى طرق اقتراب أخرى .

وكان ذلك بالفعل تقدير تقرير رسمى قدمه « ويليام وبستر » مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية .

وقد زاد الشك حينما أعلن فى الساعة السابعة مساء بتوقيت جنيف أن الوزيرين الأمريكى والعراقى سوف يعقدان مؤتمرا صحفيا فى قاعة المؤتمرات بفندق

« الانتركونتننتال » ـ وراح بعض العرب يضربون أخماسا فى أسداس . ثم تنفس هؤلاء الصعداء حينما ظهر « بيكر » فى قاعة المؤتمرات وحده ليبدأ كلامه قائلا : « إنه سوف يتحدث بما عنده أولا ، وبعده سوف يتحدث السيد « طارق عزيز » . »

وبدأ « بيكر » كلامه أمام أكثر من أربعمائة رجل وامرأة من مجالات الإعلام المختلفة ـ قائلا :

ـ إننى تحدثت للتوّ مع الرئيس « بوش » وأعطيته تقريرا كاملًا عن اجتماعنا اليوم ، وقلت له إن الوزير « عزيز » وأنا قد فرغنا من حوار دبلوماسى جدى وطويل بهدف الوصول إلى حل سياسى للأزمة فى الخليج . إننى قابلت الوزير « عزيز » اليوم ليس للتفاوض ، لأن ذلك ليس فى مقدورنا كما أوضحت له ذلك ، فقرارات مجلس الأمن ليست قابلة للتفاوض . إننا اجتمعنا اليوم بقصد الاتصال ، وليس بقصد التفاوض . والاتصال معناه أن نسمع ونتكلم ، وقد فعلنا ذلك .

وكانت الرسالة التى نقلتها من الرئيس « بوش » ومن شركائنا فى التحالف أن العراق يجب أن يمتثل لقرارات الأمم المتحدة وينسحب من الكويت ، وإلا فإنه سوف يطرد منها بالقوة . وإننى لآسف أن أقول لكم ـ أيها السيدات والسادة ـ إننى لم أسمع اليوم شيئا يدل على مرونة فى موقف العراق ، ولا على استعداد للامتثال لقرارات مجلس الأمن . »

ثم أجاب « جيمس بيكر » على عدد من الأسئلة وغادر القاعة ليدخلها بعد قليل « طارق عزيز » الذى بدأ فقال :

ـ « إنه جاء إلى هذا الاجتماع بقلب وعقل مفتوحين وبنية صادقة ، وإنه كان يتمنى أن يقع هذا الاتصال المباشر بين الولايات المتحدة والعراق فى مرحلة مبكرة من الأزمة . فإن كل الفرص التى كانت متاحة أهدرت فرصة بعد فرصة حتى التقينا هنا فى اللحظة الأخيرة . »

وأضاف « طارق عزيز » :

ـ « إن الولايات المتحدة الأمريكية تصرفت منذ اللحظة الأولى فى الأزمة بطريقة لاتدع مجالا للشك فى نواياها الحقيقية . ولقد حدثناهم طويلا عن قضايانا العادلة ، وكان ردهم أنهم يشكون فينا . وقلنا لهم لماذا لا تجربوا ؟ ولم يكن لديهم الاستعداد . »

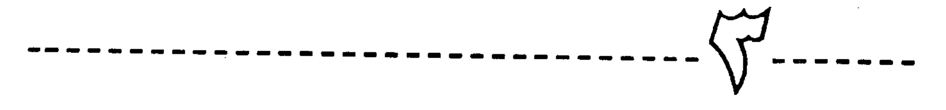
ثم أشار « طارق عزيز » إلى خطاب الرئيس « بوش » وما كان يحتويه من تهديد . وعلق عليه بقوله إنه « إذا ما قررت الولايات المتحدة الاعتداء على العراق ، فإن العراق لن يستغرب ، فهو يسمع التهديد كل يوم . وقد قلت للوزير « بيكر » إننا سندافع عن بلادنا

بكل قوة . وان الشعب العراقى شعب شجاع ، وإن الأمة العربية لن تقبل إخضاع شعبها في العراق وكسر إرادته ، لأن إرادته جزء من إرادتها . »

وكان السؤال الذى تكرر لـ « طارق عزيز » أكثر من مرة :

ـ هل تنوون مهاجمة إسرائيل إذا قامت حرب ؟

وكان رده : « نعـــم » .



كانت إسرائيل طرفا أساسيا فى أزمة الخليج منذ اليوم الأول ، وربما من قبله . ولكنها كانت طرفا طلب إليه أن يشارك في الأزمة من وراء الستار فى صمت ، لأن ظهوره على المسرح كان من شأنه أن يحرج الأطراف العربية فى التحالف ، وأن يزيد من قلق الشعوب العربية التي كانت مشاعرها متيقظة على الآخر أثناء أزمة الخليج . وكانت إسرائيل تلح دائما على أن يظهر دورها كشريك كامل وظاهرٍ فى التحالف . ومن المفارقات أن ذلك كان قصد العراق أيضا .

وقد قبل « شامير » إلحاح « بوش » و « بيكر » عليه ـ أن يتذرع بالصبر ، وأن يترك الأمور تسير دون أن يعقدها بأكثر مما هى معقدة . وقبل « شامير » بالنصيحة لبعض الوقت ، ولكنه تصور أن فرصته جاءت للظهور العلني على المسرح حينما أعلن مجلس قيادة الثورة العراقى فى ٢٣ سبتمبر ١٩٩٠ قراره بأن العراق سوف يضرب إسرائيل ومنشآت النفط فى الكويت بالصواريخ إذا تعرض للهجوم .

كان هدف العراق توسيع نطاق المعركة المحتملة بحيث تدخلها إسرائيل كطرف ظاهر بدل بقائها كطرف خفى ، ثم يؤدى ظهورها بدورها الحقيقى إلى ردة الفعل الطبيعية إزاء ذلك ـ فى موقف الشعوب العربية ، ومن ثم تضطر الدول العربية فى التحالف إلى مواجهة حالة جديدة تماما .

وكان بين مقاصد إسرائيل أن تدخل عضوا كاملا وظاهرا فى التحالف ، مما يعطيها شرعية فى التعاون والتعامل مع دول المنطقة خلال أزمة من نوع معقد ، تنفذ منها ، فإذا هى شريك شرعى ومعترف به فى مصائر المنطقة .

وقد كان من هنا أن « شامير » انتهز فرصة البيان العراقى وكتب إلى « بوش » بأن إسرائيل سوف تعطى نفسها حرية العمل عسكريا ضد العراق منفردة إذا لم تجد لنفسها مكانا ترضاه فى التحالف .

وقد كان من هنا أيضا أن « بوش » دعاه للقائه فى واشنطن .

ويوم ٩ ديسمبر كان هذا اللقاء الموعود بين الاثنين فى البيت الأبيض فى واشنطن ، وفى هذا اللقاء استطاع « بوش » أن يحصل على تعهد صريح من « شامير » بأن إسرائيل لن تتدخل فى أى حرب قادمة فى الشرق الأوسط ، حتى وإن حاول العراق استفزازها بتوجيه ضربات إليها . والدليل على نفاذ هذا الاتفاق هو أنه تحقق فعلا أثناء الحرب ، فقد تعرضت إسرائيل لـ ٣٩ صاروخا من طراز « سكود » ولم ترد عليها ، وهى التى تعودت فى المنطقة أن ترد على طلقة رصاص واحدة بغارة جوية كاملة .

وإذا كان من الصعب على أحد أن يصل إلى التفاصيل الدقيقة لما دار بين « بوش » و « شامير » أثناء اجتماعهما فى البيت الأبيض يوم ٩ ديسمبر ، فإن هناك إشارات كافية لرسم إطار عام للحوار ـ وبين هذه الإشارات :

١ ـ تصريح لـ « جورج بوش » يوم ١١ ديسمبر ، وقد سئل عما إذا كانت إسرائيل تعتبر عضوا فى التحالف ضد العراق ؟ ـ وكان رده :

« إن إسرائيل حقيقة فاعلة فى الشرق الأوسط ، ولابد أن يكون لها رأى ودور فى أزماته ، ولكن المسألة هى : كيف ؟

إن الولايات المتحدة تتمثل مصالح إسرائيل فى كل تصرفاتها ، وفى الوقت الحالى فإن الأحداث تجرى لصالح إسرائيل دون أن تفرض عليها تضحيات لا داعى لها ، وهذا يناسبها أكثر . »

وأشار « بوش » إلى اتصالات الأمير « بندر » مع زعماء المجالس اليهودية فى الولايات المتحدة ، وقال ما مؤداه « إن إسرائيل أمامها أن تفقد أعصابها وتتدخل فى معركة معقدة وتضاعف من تعقيداتها ، أو تضبط أعصابها وتنتظر لتدخل بعد ذلك شريكا كاملا فى مستقبل الشرق الأوسط بعد الحرب ، ومن خلال التسوية العامة المنتظرة فى أعقابها . »

وقد قال « شامير » إنه « يشك فى أن وعود الأمير « بندر » للزعماء اليهود قابلة للتنفيذ بسبب أوضاع تقليدية فى السعودية . »

وكان تقدير الرئيس « بوش » أن « السعودية مستعدة » . وكانت نصيحته « عدم تضييع فرصة لن تعود مرة أخرى إذا ضاعت » ![(٣)]

(وقد كان ذلك هو السبب الذى جعل « جيمس بيكر » يصر فيما بعد على حضور الأمير « بندر » بنفسه إلى محادثات مدريد ، فقد أراد أن يكون وجوده تأكيدا صريحا بأن التعهدات التى سمعتها إسرائيل قبل الحرب لاتزال سارية وملزمة .

وكان غريبا فى مدريد أن يتصدر وفد دول مجموعة الخليج السيد « عبد الله بشارة » أمين عام مجلس التعاون الخليجى ، وأن يجلس وراءه الأمير « بندر » عضوا عاديا فى الوفد . والواقع أن وجود الأمير « بندر » كان مطلوبا بمعناه الرمزى ، وباعتباره المتفاوض الذى تقابل مباشرة مع رؤساء المنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة ، إلى جانب مطالب عملية أخرى) .

٢ ـ تصريح لـ « اسحاق شامير » بعد مقابلته لـ « بوش » ، وقد أدلى به وهو لا يخفى شعوره بالسعادة على حد الوصف الذى استعملته جريدة « نيويورك تيمس » فى تقريرها عن اللقاء ـ وقد قال فيه « شامير » :

« إننى راض كل الرضا عن محادثاتى مع الرئيس بوش » .

والراجح أن « شامير » خرج من البيت الأبيض وهو يعرف موعد الهجوم بالضبط .

(وكان ذلك ما قاله هو بنفسه لعدد من أعضاء وزارته قبل اجتماع استثنائى عقدته الوزارة الإسرائيلية يوم ١٩ يناير ١٩٩١) .

٣ ـ مجمل المعلومات التى نشرها « بوب وودوارد » (وكان مصدرها الرئيسى هو الجنرال « كولين باول ») والتى جاء فيها أنه « **مع نهاية شهر ديسمبر ١٩٩٠ أنشىء فى إسرائيل مركز قيادة على اتصال بخط خاص مع القيادة العليا لقوات التحالف فى الظهران ، وأن ذلك الخط أنشىء بتصريح خاص من المملكة العربية السعودية ، وقد أطلق على مركز القيادة فى إسرائيل الاسم الرمزى «Hammer Rick» وترجمته الحرفية « كومة (أو مخزن) الشواكيش » (جمع « شاكوش ») ـ وهو اسم له دلالته .**

وقد كانت المعدات التى وضعت فى ذلك المركز فى إسرائيل تمكنه من متابعة أوامر العمليات وحركة الاتصالات بين الوحدات العسكرية فى البحر والجو والبر ، ومركز القيادة العليا فى الظهران ـ أثناء جريانها .

وقد بدأ هذا الخط يعمل يوم ١٣ يناير .

٤ ـ إنه قبل بدء العمليات بأيام قليلة سافر إلى إسرائيل سرا كل من « لورانس

---

(٣) تفاصيل نشرتها جريدة الـ « جيروساليم بوست » عن اتصالات الأمير « بندر بن سلطان » سفير السعودية فى واشنطن مع جماعات الضغط اليهودى فى الولايات المتحدة .



آثار الصواريخ العراقية فى تل أبيب .

ايجلبرجر » مساعد وزير الخارجية ، والجنرال « روبرت وولفوويتز » من رئاسة أركان الحرب المشتركة للولايات المتحدة ـ وقد بقى الاثنان هناك حتى انتهت معارك حرب الخليج . ولم يكن الهدف من وجودهما هناك هو مجرد التنسيق ، ولكن قبل كل شىء التأكد من التزام إسرائيل بتعهدها بعدم التدخل فى المعركة مهما تعرضت للصواريخ العراقية ـ لأن « بوش » ظل إلى اللحظة الأخيرة يشك فى قدرة إسرائيل على ضبط أعصابها ، ويخشى أن تفسد له الجزء العربى من تركيبة التحالف لتفرض عليه أمرا واقعا فى اللحظة الأخيرة يحقق لها هدف الظهور كشريك كامل فى التحالف الغربى ـ العربى فى حرب الخليج .

٥ ـ إن إسرائيل أبدت ثورتها فى بعض الأوقات حين راحت الصواريخ العراقية تصيب بعض مدنها وقراها ، وأظهرت أن صبرها نفد ، لكنها كانت تضبط نفسها ، وكان « شامير » (وهو صقر الصقور) هو الداعية الأكبر إلى السكوت . وهذا يقطع بأن الثورة

التى تبدت بعض الأوقات كان هدفها امتصاص غضبة الرأى العام الإسرائيلى ، والتمهيد لعمليات ابتزاز إسرائيلى أغلى تتقاضى بها ثمن صمتها مضاعفا . وكان ذلك هو ما حدث فى الناحية الاقتصادية ، وفى الناحية السياسية .

ففى كل مرة تبدت فيها ثورة إسرائيل - كانت الدول العربية المشتركة فى التحالف تهرع إلى واشنطن طالبة إليها أن تتوسط لدى إسرائيل ، وفى كل هذه المرات كان ثمن الصمت الإسرائيلى يزيد ويرتفع ، وكان العرب هم الذين يدفعون كل الفواتير .

٦ - إن « ريتشارد تشينى » ذكر فى حديث تليفزيونى له ضمن برنامج « واجه الصحافة » أن « **موشى آرينز وزير الدفاع الإسرائيلى كان أول شخص فى الشرق الأوسط عرف بموعد وساعة الصفر فى عملية عاصفة الصحراء .** »

٧ - إن نشر بطاريات الصاروخ الأمريكى « باتريوت » المضاد للصاروخ « سكود » فى إسرائيل بدأ من يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٩٠ ، أى بعد أقل من ثلاثة أسابيع من زيارة « شامير » لواشنطن ولقائه مع الرئيس « بوش » .

وفى نفس اليوم - ٢٩ ديسمبر - تلقى الجنرال « شوارتزكوبف » الأمر الإنذارى الأول للاستعداد للعمليات فى أى وقت تصل فيه الإشارة .

□ □ □

وبعد أن انتهى اجتماع جنيف بين « جيمس بيكر » و « طارق عزيز » توجه « جيمس بيكر » إلى السعودية ، لأن الملك « فهد » كان قد طلب إخطاره بوقت كاف قبل بدء العمليات حتى تستطيع المملكة أن تتحسب للطوارىء فى الساعات الحرجة . وقد جاء « جيمس بيكر » الآن ليخطره أن الموعد حان . وسأله الملك « فهد » عن اليوم والساعة . وقال « بيكر » إنه سوف يتصل قبلها بالأمير « بندر » فى واشنطن ويعطيه إشارة ينقلها إلى الملك بوسائله . وقد اتفق « بيكر » مع « بندر » على أن تكون كلمة السر هى « سليمان » (إشارة إلى النبى الذى انصاعت له الجن) . وأنه إذا ما اتصل « بندر » بالملك وذكر له أثناء الحديث اسم « سليمان » فإن على الملك أن يعرف أن عفاريت الجن على وشك أن تفتح أبواب الجحيم !

وفى نفس الوقت الذى كان « بيكر » فيه مع الملك « فهد » - كان السيد « طارق عزيز » قد وصل إلى بغداد ، وقد اصطحب معه من جنيف السيد « برزان التكريتى » وهو أخ الرئيس « صدام حسين » ويقوم بمهمة تمثيل العراق مندوبا دائما لدى المقر الأوروبى للأمم المتحدة .

وقد توجه الاثنان معا إلى القصر الجمهورى ، وكان الرئيس « صدام حسين »

يستضيف على العشاء ليلتها الرئيس « كينيث كاوندا » رئيس جمهورية زامبيا الذى جاء يشكره على قبول وساطته بإطلاق سراح الممرضة البريطانية « دانتى باريش » التى كانت صديقة ـ وربما شريكة ـ للصحفى الإيرانى « بازوفت » (مراسل « الأوبزرفر ») الذى اتهم بالتجسس وأعدم فى شهر مارس ١٩٩٠ .

وتطلع الرئيس « صدام » إلى وجه الاثنين ، وقد استطاع أن يقرأ على ملامحهما نتائج جنيف قبل أن يستمع إلى تقريرهما عما جرى ، وقد كان على علم مسبق باتجاهها العام من متابعة شبكة .C.N.N .

٤

كان الرئيس « بوش » يتصرف فى ذلك الوقت كما يتصرف فنان فرغ من رسم لوحته ثم وقف يتأملها ، ويضيف إليها فى اللحظة الأخيرة لمسة ضوء هنا أو لمسة ظل هناك .

كان إعداد مسرح العمليات للقتال قد تم سياسيا وعسكريا ...

وكان قد حدد ساعة البدء ، وأخطر بها قواده فى الميدان .

وكان قد ختم بتوقيعه أمرا مكتوبا سلمه لـ « ريتشارد تشينى » وزير الدفاع الذى أخطر به الجنرال « كولين باول » .

ومضت عقارب الساعة تتحرك آليا بانتظام نحو التوقيت المقرر .

ومع ذلك راح فى اللحظات الأخيرة يضيف لمسات هنا وهناك .

كان يريد أن يكون فى جيبه تصديق من الكونجرس لا يقيد يده عن الحركة ، ولا يربطه بسابقة دستورية تمنعه عن التصرف باستعمال القوة فى أى ظرف يريده ـ وفى نفس الوقت يقوى مركزه أمام العالم وأمام الشعب الأمريكى ... وربما أيضا أمام التاريخ .

وكان الكونجرس قد أطال مناقشاته فى مشروع قرار جرت صياغته بعناية ، فكل الذى يفعله هو أنه يخوّل الرئيس صلاحية تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٦٧٨ .

وفى أوائل يناير صدق الكونجرس ، وجاءت نتيجة التصويت ٥٢ ـ ٤٧ لصالح القرار فى مجلس الشيوخ ، و ٢٥٠ ـ ١٣٠ لصالح القرار فى مجلس النواب ـ لمسة ضوء هنا على اللوحة .

ويوم السبت ١٢ يناير ١٩٩١ كان الرئيس « بوش » على وشك أن يضيف لمسة ظل هناك ـ فقد كان ذاهبا إلى كامب دافيد لقضاء عطلة نهاية الأسبوع هناك ، واتصل بالسكرتير العام للأمم المتحدة « خافيير بيريز دى كويلار » يطلب إليه أن يصحبه إلى كامب دافيد وأن يتعشى معه هناك . وبين الاثنين صداقة قديمة منذ أن كان كلاهما ممثلا دائما لبلاده فى الأمم المتحدة ، قبل أن يصبح « بوش » رئيسا للولايات المتحدة ، و « دى كويلار » سكرتيرا عاما للأمم المتحدة .

وعلى التليفون لفت « دى كويلار » نظر « بوش » إلى أنه ذاهب بعد غد إلى أوروبا . وقال له « بوش » إنه « يريده على العشاء ، وبعده يستطيع مغادرة كامب دافيد إذا أراد . »

وعلى العشاء فوجىء « دى كويلار » بـ « بوش » يقول له إنه يريده أن يذهب إلى بغداد ولو لساعات يقابل فيها « صدام حسين » . وحاول « دى كويلار » أن يعتذر عن المهمة لعدة أسباب :

- **أولها** أن الوقت تأخر وأن العراقيين لن يأخذوا مهمته جدا ، وأغلب الظن أنهم سوف يعتبرونها نوعا من « سد الخانات » يستهدف إحداث أثر نفسى على العالم لا أكثر ولا أقل ، وهذا يسىء إلى هيبة السكرتير العام للأمم المتحدة .

- **والثانى** أنه إذا كان لابد أن يذهب ، فهو يفضل أن يكون ذهابه ممثلا لمجلس الأمن ، وهذا يتطلب دعوة المجلس ـ (وهنا قاطعه « بوش » بأنه تحت أى ظرف من الظروف لا ينبغى دعوة مجلس الأمن ، فهذا المجلس أصدر قراره ، ودعوته مرة أخرى لإصدار تحذير فى اللحظة الأخيرة لا يحل شيئا وإنما قد يعطل كل شىء) .

- **والثالث** أنه مقيد باجتماع فى أوروبا ، ولابد أن يكون هناك يوم الاثنين ١٤ يناير .

ولم يكن « بوش » على استعداد لقبول اعتذار « دى كويلار » . وقد عرض عليه السكرتير العام للأمم المتحدة أن يتركه يبعث بممثل شخصى له يذكر بغداد بأن المهلة التى أعطاها لها مجلس الأمن قاربت يومها الأخير . وأصر « بوش » قائلا له : « إنه يريده أن يذهب إلى بغداد ولو ساعة واحدة ، ثم يتوجه منها إلى أوروبا » ـ لأن ذهاب السكرتير العام للأمم المتحدة شخصيا ، وفى الدقيقة الأخيرة سوف يجعل العالم كله يحس بـ : « دراما » الموقف !

□

وكانت بغداد فى دهشة من رسالة جاءتها على غير انتظار بعث بها السكرتير العام للأمم المتحدة يطلب موعدا عاجلا مع الرئيس « صدام حسين » .

ومساء يوم الأحد ١٣ يناير كان السكرتير العام للأمم المتحدة جالسا وجها لوجه أمام الرئيس العراقى ، وبدأ الحوار على النحو التالى طبقا لمحضر الاجتماع :

قال « بيريز دى كويلار » : « إننى سعيد أن أراكم مرة أخرى . إنكم تتذكرون أننا تقابلنا ثلاث مرات ، وكلها تمت فى أجواء أزمة . وفى يوم من الأيام فإنى أريد أن أجىء إلى العراق وأتمتع بضيافتكم كسائح ، وأن أتعلم كل ما أستطيع أن أتعلمه عن تراثكم الحضارى . »

ورد الرئيس « صدام حسين » قائلا : « لقد كانت هناك أوقات بلا أزمات ، ومع ذلك فإنك لم تجىء . »

واستطرد « بيريز دى كويلار » : « إننى أريد أن أجىء كسائح ، وسوف أستغل صداقتى مع السيد « طارق عزيز » لأرى المعالم الثقافية فى بلادكم . فكل الشعوب المتحضرة تعرف أن بلادكم هى مهد الحضارة . »

وقاطعه الرئيس « صدام حسين » : « إلا بوش . »

وواصل « بيريز دى كويلار » حديثه : « قد يدهشكم يا سيادة الرئيس أن تسمعوا أن الرئيس « بوش » كان ضمن الذين تمنوا لمهمتى هنا أن تنجح . لقد تحدثت إليه على التليفون أربع مرات أمس ، ثم قابلته فى المساء .

وفى البداية فإننى أريد أن أؤكد لكم أننى لا أحمل رسائل من أحد ، ولا أعتبر نفسى مبعوثا لأى شخص . أنا هنا رجل يمثل نفسه . وقد تتذكرون أننى قابلتكم قبل ذلك مرتين أثناء الحرب مع إيران . وتتذكرون أننى حاولت دائما أن أقترب من المشاكل على أساس غير متحيز ، وأنا أقابلكم اليوم بنفس الروح ، على أنى أريدكم أن تعلموا أننى يجب أن أكون فى أوروبا غدا ، فلدىّ واجب هناك ، وأنتم كرجل عسكرى خير من يعرف التزام الواجب . »

ومرة أخرى قاطعه الرئيس « صدام حسين » قائلا : « لعلم السكرتير العام ، فأنا لم أدرس العلوم العسكرية ولو ليوم واحد ، وبمقتضى التصنيفات والتخصصات ، فأنا محام درس القانون . »

ورد « بيريز دى كويلار » : « إذن فنحن زملاء مهنة ، فأنا أيضا درست القانون ، ولكنكم تختلفون عنى فى أنكم تتولون القيادة العليا لقواتكم المسلحة ، وبالتالى فأنتم رجل عسكرى . »

كانت هذه مقدمة اللقاء بين الاثنين فى تلك اللحظات الحرجة . ثم وصل « بيريز دى كويلار » إلى صميم الموضوع فقال :

« إن العراق عضو فى الأمم المتحدة ، وهذه المنظمة تعمل على أساس قرارات تصدرها . ومن سوء الحظ أن تاريخ الأمم المتحدة يظهر أمامنا أن هناك قرارات لمجلس الأمن لا تنفذ ، لكن هناك قرارات لابد من تنفيذها . وأستطيع أن أتصور شعوركم تجاه هذا الوضع . وكصديق لبلادكم فإننى أتمنى أن تكون قرارات مجلس الأمن بشأن أزمة الخليج من تلك القرارات التى يجب أن تنفذ ، ولا نأخذ فيها بالمثل السيىء لقرارات لم تنفذ . وأنا أريد أن أساعد لتجنب مواجهة تؤدى بهذه الأزمة إلى الحرب .

إنكم قدمتم خدمة عظيمة للقضية الفلسطينية لأنكم وضعتم مستقبل الفلسطينيين على خريطة العالم ، وكرجل من أصل أسبانى فإننى أشعر بالقرب من العالم العربى ومن الشعب الفلسطينى . ولم أتردد فى أى مناسبة أن ألفت نظر الأمم المتحدة إلى القضية الفلسطينية . وحتى الرئيس بوش حين قابلته يوم السبت اتفق معى على أن القضية الفلسطينية تحتاج إلى حل . وما هو مهم الآن ألا نضيع الوقت . »

وبعد أن عرض « بيريز دى كويلار » لقرارات مجلس الأمن ، قال :

« وأنا لست رجلا ساذجا لأتصور أننا نستطيع أن نحل هذه المشكلة الليلة ، وكل ما أريده هو أن تعطينى شيئا أستطيع أن أبنى عليه موقفا يزيل التوتر ، وأن أحرم دعاة الحرب من فرصة يظنونها مواتية . وهذا هو كل ما عندى . »

وتذكر « صدام حسين » تقاليد الضيافة العربية ، فسأل ضيفه : « هل تريد أن تشرب فنجان قهوة عربى ؟ إننى لا أشربها فى الليل لأنها تمنعنى من النوم . »

ورد « بيريز دى كويلار » : « إننى أسافر كثيرا ، وأنا معتاد على ما يسميه البريطانيون «Jet Lag» (يقصد تأثير سفر المسافات الطويلة بين مناطق زمنية مختلفة) وأنا رجل عجوز ، ولكن صحتى جيدة بالنسبة لسنى . ورأس الإنسان هى التى تحرك كل شىء فيه . »

وقال الرئيس « صدام حسين » : « صحيح ، إن الرأس هى التى تنظم كل شىء . سوف أفضى إليك بسر . لقد أردتك أن تجىء ولا تجىء إلى بغداد فى نفس الوقت . فأنت السكرتير العام للأمم المتحدة ، ونحن أعضاء فى هذه العائلة ، وبالطبع فإننا نريد أن نراك وأن نرى الأمم المتحدة تؤدى دورها ، ولكنى كنت قلقا من مجيئك فى هذه الظروف التى نسمع فيها قعقعة السلاح . فعندما لا تحمل من عندنا ما يرضيهم ، فإنهم قد يستعملون مجيئك ذريعة للحرب . »

ومضى الرئيس « صدام حسين » فى حديث طويل عن الأزمة وصل فيه إلى القول بأن « العراق قدم مبادرات كثيرة لحل الأزمة ، وكان على استعداد لقبول مبادرات كثيرة من غيره ، ولكن الرئيس الأمريكى كان يرفض كل واحدة منها بعد ساعة من صدورها . »

ورد « بيريز دى كويلار » : « إن قرارات مجلس الأمن ليست قراراتى ، ولكنها قراراته هو ـ أعنى مجلس الأمن . »

وتدخل الرئيس « صدام حسين » قائلا : « هذه قرارات أمريكية . ونحن فى عصر أمريكى . والولايات المتحدة تحصل على ما تريده هى وليس ما يريده مجلس الأمن . »

ثم انتهى الرئيس « صدام حسين » إلى القول :

ـ « إننا لا نستطيع أن نقول كلمة الانسحاب فى هذه اللحظة بينما الجيوش الأمريكية تواجهنا ، والحرب قد تقع فى ظرف ساعات . وإذا قلت شيئا عن انسحاب عراقى دون أن يكون فى مقابله شىء عن انسحاب أمريكى ـ فإن كل ما أكون قد حققته فى هذه الساعة هو أن أعطى للأمريكان فرصة لخلق بلبلة نفسية تمكنهم من الانتصار علينا . »

وقال « بيريز دى كويلار » وهو يستأذن وينهض قائما :

ـ « إننى لم آخذ منكم شيئا » .

ورد عليه الرئيس « صدام حسين » قائلا :

ـ « لو أنك راجعت حديثنا ، وفكرت فيه لوجدت أنك أخذت أشياء كثيرة » .

ورد « بيريز دى كويلار » بعبارة كأنها نبوءة أسطورية من مأساة اغريقية :

ـ « إننى أشعر أن السيف خرج من غمده . والسيف مشهر على رأس العالم ، وليس على رأسى فقط » !

□

وغادر « بيريز دى كويلار » بغداد فجر يوم ١٤ يناير ، وكانت بغداد مازالت تستغرب زيارته فى اللحظة الأخيرة .

وأشرقت شمس ١٥ يناير ، ثم غربت الشمس ولم يحدث شىء .

وراهن رئيس وزراء الأردن وقتها السيد « مضر بدران » بمائة دينار على أن الحرب لن تقوم . وكان السيد « ياسر عرفات » على اتصال مع « اندريوتى » رئيس وزراء ايطاليا يرجوه الذهاب إلى بغداد ، ويضرب له موعدا للقائه هناك لمعجزة فى اللحظة الأخيرة .

وفكر « ياسر عرفات » فوق ذلك فى الاتصال بالبابا نفسه لعله يقتنع بالقيام بـ « معجزة مسيحية » .

واتصل الأمير « بندر » بوزير الدفاع « تشينى » يسأله : « متى ؟ » ولم يشأ « تشينى » أن يكون محددا ، واكتفى بأن قال « ليس قريبا جدا ، وليس بعيدا جدا » !

وبعد ظهر يوم الأربعاء ١٦ يناير ، اتصل « تشينى » بـ « بندر » ، واتصل « بندر » بالملك « فهد » يقول له : « سليمان » . ثم أجرى الرئيس « بوش » بنفسه اتصالا مع الملك « فهد » .

وكان « جيمس بيكر » يتصل فى نفس الوقت بـ « ألكسندر بسمرتنيك » وزير الخارجية السوفيتى الجديد الذى خلف صديقه القديم « ادوارد شيفرنادزه » . واتصل « بسمرتنيك » بالرئيس « ميخائيل جورباتشوف » . واتصل « جورباتشوف » بمساعده « يفجينى بريماكوف » يطلب إليه الدعوة لاجتماع فورى فى الكرملين للقيادة السوفيتية .

وعاد « بسمرتنيك » يتصل بـ « جيمس بيكر » ينقل إليه رجاء من « جورباتشوف » والقيادة السوفيتية بالتأجيل يوما واحدا !

ورد « بيكر » على « بسمرتنيك » قائلا :

ـ « فات الوقت .. إن العمليات بدأت فعلا » !

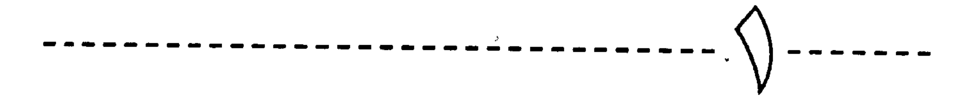


الفصل
الحادى عشر

عاصفة الصحراء !

« لقد تحقق الهدف الأمريكى من عاصفة الصحراء بالكامل » .

[الجنرال « شوارتزكوبف » للرئيس « بوش » يوم ٢٦ فبراير ١٩٩١] .



لقد كانت الحرب المسلحة خيارا مطروحا طول الوقت كملجأ أخير لحماية الكنز الأسطورى الذى يمثله البترول العربى ، وهو الطاقة التى صنعت القرن العشرين ، والتى سوف تتحكم فى القرن الواحد والعشرين ، إذا لم يحدث اختراق علمى لم يتمكن منه أحد حتى الآن .

وكان يقال دائمًا إن الكنز هو الذى يخلق التهديد الذى يتربص به ، وأن التهديد المتربص هو الذى يصنع القوة التى تواجهه ، وهذا قول صادق فى كل الأحوال ، وهو أصدق ما يكون فى حالة البترول العربى زائدا عليه فوائضه . فالاثنان معا واحد من أكبر الكنوز التى عرفها البشر فى تاريخهم الملىء بالكنوز ، والمخاطر ، والحروب ـ فهناك علاقة ثلاثية شبه مقدسة بين الثلاثة : الكنز ـ والتهديد ـ والقوة .

ومنذ بدأت الولايات المتحدة تسعى إلى الكنز العربى ، وتسيطر عليه وتربط مستقبلها بتأمينه ـ فإن القوة العسكرية كان لابد لها أن تصبح عنصرا هاما من عناصر السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط . وبالطبع فإن الدول صاحبة المصالح الكبرى لا تقفز إلى القوة العسكرية من اللحظة الأولى أمام أى خطر محتمل أو حال ، وإنما تتدرج المسائل خطوة بعد خطوة .

● فالخطوة الأولى بالطبيعة هى الدبلوماسية ، وقد كان « تاليران » (وزير خارجية « نابليون » الأشهر) هو صاحب القول المأثور بأن « الدبلوماسية هى خط الدفاع الأول عن المصالح الوطنية ، وأما الخط الثانى فهو القوات المسلحة للدولة . »

● وبعد الدبلوماسية (وقبل القوة العسكرية) هناك العمل الخفى بوسائله المختلفة ، وهذا نوع من استعمال القوة بغير حرب . وقد برزت أساليب الحرب الخفية وتطورت إلى حد بعيد خلال الفترة التي اصطلح على تسميتها بفترة « الحرب الباردة » . فالعمل الخفى فى هذه الفترة استحدث أشكالا وألوانا من الضغوط النفسية والاقتصادية ووسائل العنف ، مما جعل هذه الفترة تستحق وصف الحرب بدون سلاح .

ويلاحظ أن أنشط الميادين التى دارت فيها الحرب الباردة كانت هى الشرق الأوسط ، وبالذات فى الفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وحتى انتهاء الحرب الباردة . والواقع أن حماية بترول الشرق الأوسط كانت هى الموضوع الذى تحركت من حوله المعركة الكبرى التى دارت فى الشرق الأوسط بين حركة التحرر الوطنى العربى (مؤيدة بالاتحاد السوفيتى) من ناحية ـ وبين قوى الاستعمار القديم والجديد ممثلة فى بريطانيا والولايات المتحدة (ودفاعا عن نظم البترول) من ناحية أخرى .

● ثم يجىء دور القوة المسلحة عندما تعجز الدبلوماسية ، وعندما لا يقدر العمل الخفى .

والاستعداد ليوم تطرأ فيه الحاجة إلى القوة المسلحة لا يتم بين يوم وليلة ، وإنما هو تحضير سابق ودائم يسعى إلى أن تكون امكانيات استعمال القوة فى موضعها عندما تطرأ الحاجة إليها .

□

ولقد بدأت الاستعدادات العسكرية الأمريكية فى المنطقة منذ اللحظة التى تمكنت فيها الولايات المتحدة من امتيازات بترول السعودية ، وهكذا فإن بناء قاعدة الظهران الضخمة بدأ فعلا بينما الحرب العالمية الثانية لم تضع بعد أوزارها . وفى الخمسينات أضيفت قاعدتان بحريتان عسكريتان : إحداهما فى « الدمام » على الخليج ، والثانية فى « ينبع » على البحر

الأحمر . ثم راحت القواعد العسكرية الأمريكية والتسهيلات تنتشر فى أرجاء المنطقة من إيران إلى المغرب . ونشأت بعض الصعوبات فى استكمال شبكات القواعد والتسهيلات لأن هذه المرحلة (أواخر الخمسينات وأوائل الستينات) شهدت ظهورا كبيرا ونفوذا واسعا لحركة القومية العربية ، مما أرغم طالبى القواعد والتسهيلات والمستعدين للسماح بها - على ضبط رغباتهم وتحديد خططهم . فقد راحت الأغلبية بينهم تفضل أن تكون القوات الأجنبية موجودة - ولكن عند حافة الأفق (أى عند نهاية حد البصر ، أى دون أن تكون بالضرورة متمركزة بقرب المدن ، أو على شواطىء الموانى) .

وكانت تلك هى الفترة التى برز فيها دور الأسطول الأمريكى السادس فى البحر الأبيض ليصبح الرمز الحى لقبضة القوة الأمريكية واستعدادها للضرب . وبالفعل فإن الأسطول الأمريكى السادس فى تلك السنوات كان استعراض القوة الماثل فى كل أزمة من أزمات المنطقة . وقد كان جل اعتماده فى ذلك الوقت على قواعد ارتكاز بعيدة عن السواحل العربية ، وقادرة على بلوغها فى ساعات . وكان أهم هذه القواعد فى تركيا ، وفى إيطاليا ، وفى جزر البحر الأبيض . وكان مقر القيادة العليا للأسطول الأمريكى السادس فى نابولى .

وكانت تلك هى الفترة التى تعاظم فيها دور إسرائيل ، فإلى جانب كونها تلبية لنداء أسطورى قديم يعد اليهود بوطن قومى فى فلسطين - فإنها تحولت - خصوصا بعد معركة السويس سنة ١٩٥٦ - إلى قاعدة أمامية للقوة العسكرية للغرب جرى تعزيزها بكل الوسائل لحماية مصالحه ، على الأقل من ناحية قدرتها على تثبيت حركة المثلث العربى الفوار المتمثل فى مصر وسوريا ، وبينهما محاولات الشعب الفلسطينى لإثبات وجوده وحقه فى وطنه أو فى جزء منه - وبالتالى فإن إسرائيل فى جزء من دورها كانت دائما قوة ردع جاهزة للدفاع عن مصالح البترول - ولو كحل أخير وفى حالات ضرورة قصوى ، منعا للحرج وتجنبا للإثارة !

وبعد معركة أكتوبر ، وهى حرب البترول الأولى ، فكرت الولايات المتحدة فى تواجد عسكرى أقرب من منابع البترول ، ولم تسمح الظروف التى نشأت فى المنطقة بعد الحرب مباشرة للولايات المتحدة بأن تنفذ ما فكرت فيه . ثم جاءت الثورة الاسلامية فى إيران ، وكانت تلك هى مقدمات حرب البترول الثانية .

ووقعت مفاجأة !

□

صباح يوم ٤ نوفمبر ١٩٧٩ استيقظت الولايات المتحدة لكى تعرف أن شباب جامعة طهران استولى على مجمع مبانى السفارة الأمريكية فى العاصمة الإيرانية ، واحتجز داخلها

٥٤ من العاملين فيها (دبلوماسيين وغير دبلوماسيين) ، واعتبرهم رهائن لا يتم الإفراج عنهم إلا بشروط وجدت الولايات المتحدة نفسها عاجزة عن تلبيتها .

وجربت الولايات المتحدة بكل الوسائل الدبلوماسية أن تفرج عن رهائنها ، ولم تنجح .

ثم جربت الولايات المتحدة أن تلجأ إلى وسائل أخرى ، فذهبت بمشروع قرار إلى مجلس الأمن يفرض العقوبات الاقتصادية على إيران . ولكن الاتحاد السوفيتى استعمل حق الفيتو وسقط مشروع القرار .

وجربت الولايات المتحدة وسائل أخرى من العمل الخفى ولم تصل إلى شىء .

وفى أوائل سنة ١٩٨٠ عقد الرئيس الأمريكى - وهو وقتها « جيمى كارتر » - اجتماعات لمجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض ، وطلب بحث امكانيات العمل العسكرى . وكانت المفاجأة حين أخطرته قيادة الأركان المشتركة ، ورئيسها فى ذلك الوقت هو الجنرال « دافيد جونز » - أن القوات الأمريكية مستعدة لحرب شاملة بالأسلحة النووية أمام حلف « وارسو » ، وهذا طراز من الحرب لا يصلح مع دولة صغيرة مثل إيران ، ولهدف صغير مثل إنقاذ الرهائن . فإذا كان المطلوب هو حرب محدودة ، فلابد لهذه الحرب من قواعد للحشد فى المنطقة كافية ومفتوحة لاستقبال قوات كافية لتحقيق ذلك الغرض . وقد تضايق « كارتر » لأن هذا النوع من العمليات لم يكن هو الذى يدور بفكره ، فلا هو يريد تدمير إيران بالأسلحة النووية ، ولا هو يريد الدخول فى فيتنام أخرى بعملية احتلال كامل لبلد مثل إيران يصل تعداد سكانه إلى قرابة خمسين مليون نسمة . ثم أبدى الرئيس « كارتر » أنه « يريد عملية عسكرية محدودة فى طهران تستطيع إنقاذ الرهائن » . وكان رد الجنرال « جونز » عليه أن القوات المسلحة للولايات المتحدة لا تملك الوسائل للقيام بهذا النوع من العمليات الذى أطلق عليه الجنرال « جونز » اسم «Low Intensity Wars» (وأقرب ترجمة لها هى « الحروب غير الكثيفة ») لأن هذا النوع من الحروب يتطلب وجود حشد فى قواعد صديقة قريبة من إيران ، والقواعد الموجودة كلها جاهزة لتمركز قوات جوية . ولكن القوات الجوية وحدها لا تستطيع تحقيق غرضه فى إيران - هذا مع العلم بأن القوى الإقليمية التى « تستضيف » هذه القواعد قد لا تكون مستعدة فى الظروف الراهنة للسماح للقوات الجوية الأمريكية بالعمل من أراضيها ضد إيران .

واتجه تفكير « كارتر » إلى ناحية ثانية ، فقد راح يبحث عن امكانية توجيه ضربات جوية عقابية إلى إيران ترغمها على الإفراج عن الرهائن الأمريكيين مقابل أن تتوقف ضربات الطيران الأمريكى على مرافقها . والتفت الرئيس « جيمى كارتر » إلى مدير وكالة المخابرات المركزية فى حكومته - وهو وقتها الجنرال « ستانسفيلد تيرنر » ، وطلب اليه

إعداد قائمة بالأهداف الحيوية التى يمكن أن توجه إليها الضربات الجوية العقابية لايران ، فطلب إعداد كشوف بالخزانات المائية ، ومحطات الكهرباء ، وشبكات الاتصالات ، والمطارات ، وعقد المواصلات البرية من الطرق أو السكك الحديدية ، وغيرها . ومرة أخرى اكتشف الرئيس « جيمى كارتر » أن إعداد قوائم الأهداف سهل ، ولكن كلا من تركيا والسعودية رفضتا على الفور استعمال القواعد الأمريكية على أراضيهما فى ضرب بلد اسلامى مهما كانت خلافاته معهما .

ويوم ١١ ابريل دخل الرئيس « جيمى كارتر » إلى اجتماع طارىء لمجلس الأمن القومى . وكان أول ما قاله عندما جلس إلى مائدة الاجتماع ـ طبقا لرواية « ستانسفيلد تيرنر » مدير وكالة المخابرات المركزية(١) : « إنه يشعر بحالة إحباط شديد بسبب عجز الولايات المتحدة الأمريكية عن استعمال قوتها للدفاع عن كرامتها وأمن مواطنيها » . ثم قال « كارتر » : « إنه قبل يومين أحس بالخجل لأن قرينة الرئيس أنور السادات التى كانت تجلس بجواره على مائدة عشاء فى واشنطن أبدت له دهشتها من عجز الولايات المتحدة عن إنقاذ رهائنها فى إيران » . وروى « كارتر » لأعضاء مجلس الأمن القومى أنها قالت له : « إننى لا أستطيع أن أفهم هذه الطريقة المتراخية التى تتصرف بها الولايات المتحدة فى موضوع الرهائن » . وعلق الرئيس « كارتر » قائلا إنه « حتى أقرب أصدقائنا لم يعد فى مقدورهم تبرير ضعفنا » .

وبدأت الولايات المتحدة تفكر فى الخطة التى عرفت فيما بعد باسم « الصحراء رقم ١ » (Desert «1») ـ وهى الخطة التى تصورت امكانية إنقاذ الرهائن عن طريق إرسال مجموعة من سبع طائرات هليكوبتر ، وثلاث طائرات نقل جنود بحرية تنزل أولا فى مطار مهجور فى منطقة « رشت » قرب طهران ، فيتولى بعض جنود البحرية احتلاله والسيطرة عليه فى الوقت الذى تكون فيه طائرات الهليكوبتر قد توجهت إلى إحدى ضواحى طهران حاملة بقية الجنود لهجوم مباشر على مجمع مبانى السفارة الأمريكية لاقتحامه ، والعودة بالرهائن إلى مطار « رشت » ـ ثم الخروج بهم سالمين من الأراضى الايرانية .

وكان من المقرر أن تقلع طائرات الهليكوبتر من فوق حاملة الطائرات الأمريكية « نيميتز » فى الخليج . وأما قوة جنود البحرية ، فقد وافق الرئيس « السادات » على أن يتمركزوا فى قاعدة مطار وادى قنا الذى أصبح مركزا لقيادة العملية التى تولى الإشراف عليها الجنرال « جيمس فون » . وفشلت العملية فشلا ذريعا ، فإن طائرات الهليكوبتر السبع تعطلت ثلاث منها فى الطريق واضطرت للعودة ثانية إلى حاملة الطائرات « نيميتز » التى

---

(١) مذكرات الجنرال « ستانسفيلد تيرنر » التى صدرت سنة ١٩٩١ تحت عنوان « الإرهاب والديمقراطية » . صفحة ١٠٧ .

قامت منها . كما أن واحدة رابعة منها بعد وصولها إلى « رشت » ارتطمت أثناء تزودها بالوقود بإحدى طائرات نقل الجنود التى جاءت من قنا ، وشب حريق وسقط سبعة من القتلى . واتصل قائد العملية بواشنطن يطلب الإذن بوقف العملية (إجهاضها حسب تعبيره) وإعادة قواتها إلى مطار وادى قنا . واضطر الرئيس « كارتر » للتصديق على قرار الإيقاف وإحساسه بعجز القوة الأمريكية طاغ ومرير .

٣

كانت تلك هى الدواعى والمقدمات التى فرضت إنشاء ما سمى « بقوة الانتشار السريع » . وكان « جيمى كارتر » قد أخلى مكانه فى البيت الأبيض بعد هزيمته فى الانتخابات أمام « رونالد ريجان » الذى جاء مبشرا بدعوة من الوطنية الأمريكية القادرة فى كل مكان ، وفى كل وقت على فرض إرادتها وحماية مصالحها ، وبالقوة المسلحة مهما كانت الظروف .

وتحقق إنشاء « قوة الانتشار السريع » ، ولكن دول المنطقة لم تكن بعد قادرة على توطينها فوق أراضيها . وكان أن أنشئت القيادة المركزية فى « فلوريدا » لتكون هى رأس « قوة الانتشار السريع » بينما توزع جسم القوات فى مواقع تمركز متعددة معظمها خارج المنطقة فى أوروبا ، وفى الولايات المتحدة نفسها .

كان وزير الدفاع الذى اختاره « رونالد ريجان » معه ، « كاسبر واينبرجر » ، هو العقل المفكر وراء إنشاء « قوة الانتشار السريع » ووراء إعدادها للمهام التى أنشئت من أجلها . وقد حدد « واينبرجر » ثلاثة أهداف رئيسية لابد من تحقيقها حتى تتهيأ الظروف لدور « قوة الانتشار السريع » ولعملها .

- **وكان الهدف الأول** هو أن القواعد العسكرية الأمريكية فى المنطقة يجب أن تخرج من التعتيم الذى يحيط بها (بدواعى ظروف السياسة المحلية لدول الإقليم) إلى النور معلنة ومرئية .

- **والهدف الثانى** أن هذه القواعد يجب أن تتبدى للكل حية وعاملة .

- **والهدف الثالث** أن المنطقة يجب أن تتعود خطوة بعد خطوة على وجود هذه القواعد فاعلة ومتدخلة إذا اقتضى الأمر .

واستطاع « كاسبر واينبرجر» أن يحقق أهدافه الثلاثة خطوة بعد خطوة :

● فى يونيو ١٩٨٣ ـ وضمن حوادث الحرب الأهلية اللبنانية ـ قامت البارجة « نيوجيرسى » بإطلاق مدافعها الضخمة على المواقع السورية حول منطقة « الشويفات » ـ على مشارف بيروت . ورغم أصوات من الاحتجاج فى العالم العربى ، فإن « نيوجيرسى » واصلت دك المواقع السورية .

● وفى ابريل ١٩٨٦ قامت الطائرات الأمريكية من قواعد فى بريطانيا بغارات كثيفة على ليبيا ، وكان بين أهدافها بيت الرئيس « القذافي » نفسه . وارتفعت أصوات بالاحتجاج فى العالم العربى ، ولم يشعر « ريجان » ، أو « واينبرجر » أنهما مدينان بالاعتذار لأحد . بل العكس فقد أعلن كلاهما أن الطائرات الأمريكية سوف تضرب مرة أخرى ، ومرات إذا استدعت ذلك ظروف أو ضرورات .

● وفى ابريل ١٩٨٨ قامت البحرية الأمريكية بإغراق نصف الأسطول الإيرانى بأسره فى ظرف ست ساعات بدعوى أن لغما إيرانيا مس إحدى البواخر الأمريكية .

● ومع مجىء سنة ١٩٩٠ كانت المنطقة قد تعودت على سماع صوت هدير المدافع وأزيز الطائرات وانفجار القنابل ـ الأمريكية . وأهم من ذلك كانت الولايات المتحدة قد طورت كل أسلحتها التقليدية طوال سنوات « رونالد ريجان » و « واينبرجر » الثمانية . وكانت الحرب النووية قد تلاشى خطرها لأن الكتلة السوفيتية انشرخت ثم راحت تتهاوى .

كل هذا والقوة الأمريكية ، بما فيها « قوة الانتشار السريع » وقيادتها فى فلوريدا ، وقوة الجيش الأمريكى ضمن حلف الأطلنطى وقيادته فى بلجيكا ـ واقفة تنتظر وسلاحها لم يعثر بعد على هدف يصوب إليه .

وفى الشهور الأولى من سنة ١٩٩٠ ، وحتى قبل أن تبدأ أزمة الخليج فى ٢ أغسطس ، كانت القوات تحت إحساس مبهم بأن مجال عملها القادم قد يكون فى الشرق الأوسط .

ومن المفارقات اللافتة للنظر أن القوات الجوية الأمريكية قامت فى شهر يوليو ١٩٩٠ بتدريب عملى لردع هجوم قامت به إحدى دول جنوب غرب آسيا ، وقد سميت هذه الدولة فى التدريبات بأنها العراق . وأثناء الإعداد للمناورة العملية التى جرت فى ولاية « ساوث كارولينا » ـ حددت قيادة المناورة ٢٧ هدفا استراتيجيا فى العراق يتعين ضربها .(٢)

---

(٢) تحقيق نشرته جريدة الـ « واشنطن بوست » واسعة النفوذ فى الولايات المتحدة بتاريخ ٢٣ يونيو ١٩٩١ ، وقد كتبه محررها العسكرى « بارتون جيلمان » .

وحين بدأت العمليات الحقيقية فى الخليج يوم ١٧ يناير ، كانت القائمة الأولية للأهداف التى يتحتم ضربها تحتوى على ٤٠٠ هدف ، ومع استمرار القتال ارتفع عدد الأهداف إلى ٧٠٠ هدف .

٣

فى الساعة الثالثة من فجر يوم ١٧ يناير بتوقيت الظهران (السابعة مساء بتوقيت واشنطن) كان الجنرال « نورمان شوارتزكوبف » قد أعطى أمره ببدء عمليات « عاصفة الصحراء » . وجلس فى مركز قيادته يتابع الضربات الأولى بالصواريخ والطائرات .

كانت خطته ذات المراحل الأربع قد اكتملت معالمها وتحددت مهام قواتها ، وكان على القوة الجوية تنفيذ ثلاث من هذه المراحل الأربع . وقد تمكن الجنرال « شوارتزكوبف » من حل المعضلة التى كانت تواجهه ، وهى المرحلة الرابعة التى كانت متروكة للهجوم البرى الأخير . وكان « شوارتزكوبف » مع أركان حربه قد تمكنوا جميعا من وضع التصور النهائى والمناسب للعمل البرى ، وفضلوا أن يعدلوا عن فكرة أولية طرحت نفسها عليهم ، وتتصور أن تقوم القوات البرية بهجوم بالمواجهة صوب الكويت ـ على أن تصاحب هذا الهجوم بالمواجهة عملية إنزال بحرى على شواطىء الكويت نفسها . وقد عدلوا عن هذه الفكرة واختاروا بدلا منها القيام بحركة التفاف واسعة فى الغرب الذى اكتشفوا أن القوات العراقية تركته خاليا لاقتناعها بأن الهجوم قادم بالمواجهة ، وأن أرض هذه المنطقة ليست صالحة لعمليات المدرعات الثقيلة . ثم كشفت مجموعة أبحاث خاصة بميكانيكا التربة أن حركة المدرعات فى هذه المنطقة ممكنة . وقد خصص « شوارتزكوبف » لهذه العملية مجموعة الجيش السابع التى استدعاها من أوروبا مصحوبة بلواء بريطانى مدرع ولواء فرنسى يسانده . والغريب أن الجنرال « شوارتزكوبف » اختار لهذه العملية التى تقوم بها القوات البرية لتطويق الجزء الأكبر من الجيش العراقى داخلة إلى قلب العراق عند منطقة الناصرية على نهر دجلة ، ومن ثم تحسم معركة « عاصفة الصحراء » ـ اسما رمزيا له دلالته ، فقد وقع اختياره شخصيا على الاسم الرمزى « المجد للعذراء » (Ave Maria) .[٣]

---

(٣) أصله التاريخى من تحية سيدنا جبريل لمريم العذراء قائلا لها : « السلام لك يا مريم » .

(ولسوء الحظ فإن هذا الاسم الرمزى يستعيد للأذهان أصداء صليبية سمعت من قبل . فحين دخل الجنرال البريطانى « اللنبى » فاتحا إلى القدس يوم ٩ ديسمبر ١٩١٧ ، كانت قولته المشهورة « الآن انتهت الحروب الصليبية » .

وحين دخل الجنرال « جورو » دمشق يوم ٢١ يونيو ١٩٢٠ ، توجه مباشرة إلى قبر « صلاح الدين » ووقف أمامه وقال قولته المشهورة : « ها قد عدنا يا صلاح الدين ») .

والآن جاء الدور على قائد أمريكى لكى يقول بعد سبعين سنة : « المجد للعذراء » . (وهو نداء فى حد ذاته طيب ، ولكنه فى الملابسات التى علا فيها ، وفى إطار عمليات بادئة من السعودية ، وفى السياق الواصل من « اللنبى » إلى « جورو » إلى « شوارتزكوبف » ـ كان لابد له أن يستثير التأمل والاستغراب) .

□

كانت نظرة واحدة على خريطة مسرح العمليات فى القاعة الكبيرة التى جلس فيها الجنرال « نورمان شوارتزكوبف » قادرة على إعطائه كل طمأنينة فى الدنيا بأنه مقبل على انتصار دون مخاطر . فقد كان الحشد الذى يحركه الآن أكبر قوة نيران تجمعت بعد الحرب العالمية الثانية .

● فى البحر الأحمر كانت هناك أربع حاملات طائرات تقف فى الجزء الشمالى من هذا البحر ، وهى حاملات طائرات « ساراتوجا » و « كنيدى » و « تيودور روزفلت » و « أمريكا » ـ وعلى ظهرها مجتمعة قرابة مائتى طائرة تستطيع جميعها أن تصل إلى مسرح العمليات فى العراق . كذلك كان على ظهر كل واحدة من هذه الحاملات تجهيزات لإطلاق صواريخ « كروز » الموجهة بالتليفزيون والقادرة على الدوران تلاحق هدفها حتى تصل إليه وتصيبه .

● وفى الخليج كانت هناك البارجتان « ميسورى » و « ويسكنسون » المجهزتان لضرب صواريخ « كروز » ، ووراءهما حاملتا الطائرات « ميدواى » و « رانجر » وعليهما معا قرابة مائة طائرة .

● وإلى الجنوب فى السعودية كانت القواعد الجوية فى حفر الباطن والرياض والظهران ـ معبأة بأكثر من ثمانمائة طائرة .

● وفى الشمال الشرقى فى تركيا كانت قاعدة « انسرليك » مزدحمة بقرابة أربعمائة طائرة .

● وفى أقصى الشرق كانت قاعدة جزيرة « دييجو جارسيا » فى المحيط الهندى ، وكانت طائرات « ب ـ ٥٢ » القاذفة الثقيلة جاهزة لغارات بعيدة المدى بحمولات من النيران

لا يقدر عليها أى نوع آخر من القاذفات .

● وإلى أقصى الغرب من مسرح العمليات كان هناك الأسطول الأمريكى السادس وهو وحده قوة بكاملها ، كذلك كانت قواعد قبرص ومالطة ونابولى مستعدة لكل خدمات التجهيز والصيانة .

قوة فى الأجواء والآفاق تصل إلى ثلاثة آلاف طائرة ...

وعلى الأرض فى مواجهة الخطوط العراقية كانت هناك القوات البرية الأمريكية والبريطانية والفرنسية ، مضافا إليها قوة الجيش السابع الأمريكى الذى كان مجهزا لقتال حلف « وارسو » ـ وقد اتخذت جميعها مواقعها ، وإن عرفت من الخطة أن دورها سوف يجىء قرب نهاية المعركة لأن المراحل الثلاث الأولى فى الخطة كانت متروكة للطائرات ، والصواريخ تقوم بالمهمة الرئيسية فى « عاصفة الصحراء » .

□

وكان الجنرال « شوارتزكوبف » يعرف أيضا وهو جالس فى غرفة عملياته أن تفوقه الكاسح فى قوة النيران على الطرف الآخر قد عزز امكانياته للقيام بعمليات إضافية تسعى إلى شل القوة العراقية قبل البدء فى ضربها :

● كانت هناك مؤثرات نفسية هدفها تشتيت تركيز القوة العراقية بحيث لا تعرف من أين تنقض عليها الضربة الأولى غير المفاجئة . ففى حالة « عاصفة الصحراء » كان موعد فتح النيران يكاد يكون متوقعا ، فهى ساعات أو أيام بعد انتهاء مهلة مجلس الأمن . لكن القوات العراقية كان عليها أن تخمن من أين تجىء الضربة الأولى : من مطارات السعودية ـ أو من طائرات الحاملات فى البحر الأحمر والخليج ـ أو من تركيا التى تصور العراق ـ خطأ ـ فى بداية الأزمة أنها قد ترغب لأسبابها فى البقاء على مسافة منها .

● وقد كان فى خطة « عاصفة الصحراء » جزء يستهدف إبقاء العراق فى حالة « عمى مخابرات تكتيكى » كامل . فلم يكن العراق قادرا على أن يدفع بطائرات استطلاعه إلى ما فوق الخطوط أو ورائها لكى يعطى نفسه فكرة عن حشود القوات واتجاهات هذه الحشود . ولا كان فى استطاعته أن يرسل دوريات استطلاع برى تعبر الخطوط وتستكشف أو تعود بأسرى يمكن باستجوابهم الحصول على معلومات قد تدل على خطط . فأى شىء من هذا النوع كان يمكن اعتباره استفزازا من العراق يعجل بالمعركة . وكانت وسائل التشويش لدى قيادة التحالف قادرة على تعطيل مدى الرؤية الرادارية التى قد تتيحها امكانيات العراق التى كانت محدودة بطبيعة ظروفه . وهكذا كان العراق فى حالة إظلام كثيف من ناحية المعلومات عما يجرى فى مسرح العمليات .

● وفى نفس الوقت فإن مسرح العمليات فى العراق كان مكشوفا تماما ، وإلى درجة العرى ، أمام قوات « عاصفة الصحراء » . فهذه القوات كانت لديها من وسائل الاستطلاع المختلفة ، ومصادر المعلومات الوفيرة ما سمح لها بأن ترى وتقدر كل حركة وكل موقع ، وكانت تقارير طائرات « الأواكس » تتابع دقيقة بدقيقة كل همسة وكل خلجة تجرى فى أى بقعة من العراق .

● وأكثر من ذلك فإن قيادة القوات المتحالفة كانت قد استطاعت أن تدفع إلى داخل الكويت بأعداد كبيرة من « عناصرها العربية » لأغراض المخابرات المباشرة على الطبيعة (التجسس الإنسانى كما يسمونه تمييزا له عن التجسس الاليكترونى) ـ وكان العراق يفتح أبواب الكويت لأى قادم عربى بأمل إظهار أن الوضع هناك طبيعى . وتقدر بعض التقارير الأمريكية أنه عندما اقترب وقت العمليات العسكرية كانت داخل الكويت ١٧٠ عينا لجمع المعلومات يقوم بتوجيهها وتحريكها ضابط عربى له خبرة سابقة فى معارك أفغانستان .

وكانت الخطوط مليئة بالثغرات ، كما أن تليفونات الأقمار الصناعية التى يصعب رصد مواقعها كانت متوافرة فى الكويت ، إلى درجة أن بعض الهواة عملوا بواسطتها مراسلين متطوعين لبعض وكالات الأنباء العالمية فى اللحظات الحاسمة ـ من قلب مدينة الكويت .

● وأكثر من ذلك فقد كانت القيادة الأمريكية قد تحوطت بدرس فيتنام ، فلم تسمح للصحفيين من أى جنسية أن يتواجدوا فى مواقعها ، أو يتابعوا تحركاتها . وقد أدركت القيادة الأمريكية أن ترك الحبل على الغارب للصحفيين يمكن أن يصنع قصصا وصورا غير مطلوبة ، كما أنه قد يكون فى هذه القصص والصور ما يستفيد منه الطرف الآخر ، وهو ما حدث فعلا فى فيتنام واستغله الفيتناميون إلى أقصى مدى . والآن فى الخليج كان على كل وسائل الإعلام أن تأخذ أخبارها من المؤتمرات الصحفية الرسمية المتكررة كل ساعة فى مركز القيادة فى الظهران . ومع أن كثيرين من رجال الإعلام احتجوا على هذه الترتيبات ، واعتبروها تدخلا غير مسبوق فى توجيه المعلومات ـ فإن القيادة الأمريكية أصرت وصممت حتى النهاية على أن تحتكر وحدها عملية ضخ الصور والقصص والأخبار .

ولم يكن العراق مستعدا لهذا كله . وفوق ذلك فقد وقع فى خطأ الحسابات فى أكثر من عنصر من عناصر ما كان ينتظره من « عاصفة الصحراء » :

● فالعراق لم يتصور أن هدف الحرب كان تدمير العراق ، ولم يعد تحرير الكويت . ومع أن هاجس تدمير العراق خطر على فكر عدد من المسئولين فيه ، فقد كان الظن أن التدمير سوف يكون محدودا بما هو لازم لإخراجه من الكويت ولضرب قدرته العسكرية .

● وكان الخطأ الثانى فى الحسابات أن العراق قاس الضربة الجوية الأولى بمعيار ما عرفه العرب من الضربة الجوية الأولى سنة ١٩٦٧ . ولعله تصورها يوما واحدا يركز أساسا على طائراته فإذا نجت الطائرات من هذه الضربة الأولى - إذن فإن هذه الضربة لم تحقق أهدافها . وهكذا اهتم العراق بتأمين طائراته فى مواقعها الحصينة ، وبالفعل فإن خسائره من الطائرات فى الأيام الأولى من « عاصفة الصحراء » لم تزد على ثلاثين طائرة . لكن الكارثة كانت أنه باختفاء هذه الطائرات داخل مكامنها الحصينة ، فإن طيران الجنرال « شوارتزكوبف » أصبحت له سيطرة كاملة على أجواء العراق ، وتحولت السيطرة إلى سيادة مطلقة على هذه الأجواء بعد أيام قليلة .

● وكان الخطأ الثالث فى الحسابات ، وهو من مواريث معارك سابقة ، يتلخص فى الاعتقاد بأنه فور أن تتم الضربة الجوية الأولى ، فإن الحرب البرية سوف تبدأ بغير انتظار أو فاصل ، وعندئذ تلتحم القوات بالقوات وتتقاطع الخنادق مع الخنادق ، ويصبح عمل القوات الجوية صعبا لأنها قد تضرب الصديق وفى ظنها أنها تضرب العدو . وبمعنى آخر فإن العراق كان متأثرا أكثر مما يجب بتجربته فى حرب السنوات الثمانى مع إيران ، ولم تكن هذه التجربة ذات نفع كثير أو قليل فى حرب من نوع جديد .

● وكان الخطأ الرابع فى الحسابات أن العراق لم يتصور فعلا مدى التطور التكنولوجى الذى حدث على الأسلحة التقليدية فى سباق عنيف بين حلف « وارسو » وحلف « الأطلنطى » ، فهذا السباق أدى إلى أسلحة لها كثافة فى النيران غير مسبوقة ، وإلى دقة ومرونة فى الحركة جعلت للسلاح التقليدى قوة فتك كان تقديرها النظرى قبل تجربتها العملية ضربا من الخيال .

● وكان الخطأ الخامس فى الحسابات أن العراق ركز كثيرا على قوته الصاروخية

والكيماوية . وحين تلقى فى خطاب « بوش » إلى « صدام حسين » يوم ٩ يناير ، وفى حديث « بيكر » إلى « طارق عزيز » نفس اليوم فى جنيف ـ تحذيرات قاطعة بعدم استعمال أسلحة كيماوية ، وإلا كان الرد نوويا ـ فإنه غير رأية فى استعمال أسلحته الكيماوية ، وحسنا فعل ، ولكن ذلك كان معناه أن نصف قوته غير التقليدية خرجت من المعركة قبل أن تبدأ .

يضاف إلى ذلك أن صواريخ « سكود » التى بذل العراق جهدا كبيرا فى تطويرها كانت مازالت تعانى من مشاكل دقة التوجيه وبطء السرعة ، وهى نفس المشاكل التى عانى منها مشروع الصواريخ المصرى فى الستينات . وكانت ثلاثون سنة قد انقضت بين المشروعين ، وتطورت نظم الصواريخ فى العالم خصوصا عندما أصبحت جزءا من برنامج « حرب النجوم » الشهيرة فى وقت « رونالد ريجان » .

□

كان الجيش العراقى بالفعل جيشا قويا ، وقد وضع فى الميدان أكثر من خمسين فرقة مدرعة وميكانيكية للمشاة . كما كانت لديه قوة جوية ضخمة تتكون من قرابة سبعمائه طائرة . وكان يملك إلى جانب ذلك سلاح صواريخ يرتكز على قرابة أربعمائة منصة للإطلاق . وقد أقام أمام قواته حواجز وموانع ملأ بعضها بالبترول بحيث يمكن تحويلها إلى خطوط نار عند اللحظة المناسبة ليكون منها خط دفاع أول . وقد أنشأ حول مواقعه وأهدافه الحيوية شبكة من الدفاعات استعمل فيها قرابة عشرة آلاف مدفع مضاد للطائرات . وكانت من ذلك كله قوة ضخمة ... وإنما بمقاييس العالم الثالث .

ولقد كان هناك تسليم بهذه الفجوة التكنولوجية التى لا مفر منها بين الجيش الأمريكى والجيش العراقى ـ لكن الظن كان أن تأثير هذه الفجوة سوف يقل عندما تبدأ الحرب البرية ، وكان التقدير أن هذه الحرب قد تطول ، وبمقدار ما تطول فإن خسائر الأرواح فى القوات الأمريكية سوف تعيد إلى الوطن الأمريكى أشلاء جنود فى أكياس من البلاستيك ، وحينئذ يتكرر ما حدث فى فيتنام أو شىء قريب منه ، ويثور الرأى العام الأمريكى ومعه الكونجرس ، ويضغط على الرئيس الأمريكى لقبول حل وسط . ولكن العوامل التى أدت إلى طول الحرب فى فيتنام لم تكن موجودة فى العراق .

فتكنولوجيا الأسلحة التقليدية وذخائرها أعطت نفسها امكانيات تكاد أن تكون خيالية !

وسماء الخليج نموذجية للطيران طوال السنة ، وكل يوم تقريبا .

وأرضه مكشوفة ، لا غابات ولا جبال .

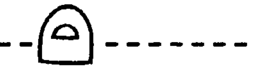
ثم إن فيتنام كانت ميدانا مفتوحا لقوى وجيران حولها من الكبار فى عصرها مثل

الاتحاد السوفيتى والصين ، كما أن جيرانها الصغار - كمبوديا ولاوس - كانوا ملاجىء احتياطيه للمقاتلين .

وفى حالة العراق فقد كانت كل الطرق مغلقة ، وملغمة ، ومعادية أيضا .

وأهم من ذلك كله وقبله كله ، فإن فيتنام لم يكن فيها بترول ، ولم يكن هذا البترول نصف انتاج العالم اليوم وثلاثة أرباعه غدا .

وقاتلت الأسلحة العراقية قدر ما تستطيع ، خصوصا سلاح الدفاع الجوى الذى استطاع إسقاط ستين طائرة أمريكية وبريطانية وفرنسية[٤] - لكن تعويض الخسائر كان متاحا لقوات التحالف - مستحيلا بالنسبة لقوات العراق .



وكانت الطلقة الأولى فى « عاصفة الصحراء » دفعة صواريخ من طراز « توماهوك » (« كروز ») أطلقتها البارجة « بنكرهيل » من فوق مياه الخليج . وكانت الطلعة الجوية الأولى من نصيب أسطول جوى ضم أربعمائة طائرة من طراز « ف - ١٥ » ، و « ف - ١١ » ، و « ف - ١١٧أ » ، و « ف - ٦ » ، و « ف - ٤ ج » ، و « تورنيدو ج ر - ١ » . وكان أكثرها مزودا بالقنابل من طراز « سمارت » القادرة على إصابة الهدف بدقة مهما كانت الأحوال الجوية . ثم تواصلت ضربات الصواريخ من كل اتجاه ، كما تواصلت هجمات الطائرات من كل نوع .

وانتهى اليوم الأول من الضربة الجوية ، وإذا يوم آخر يليه ، ويستمر الضرب الجوى ثلاثة وأربعين يوما سقط فيها على العراق ما بين ١٢٠ و ١٣٠ ألف طن من المتفجرات .

وكانت لهذه العاصفة من النيران أهداف تتعدد مستوياتها :

● **كان الهدف الأول هو الجيش العراقى** ، وهو هدف حدده الجنرال « كولين باول » رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة للقوات الأمريكية فى مؤتمر عقده فى البنتاجون لعدد محدود من الخبراء - يوم ٢٣ يناير - وقال فيه :

---

(٤) التقرير الأخير للعمليات فى الخليج كما قدمه الجنرال « نورمان شوارتزكوبف » إلى الجنرال « كولين باول » فى يونيو ١٩٩١ .



جندى أمريكى يكتب على الصاروخ رسالة لصدام حسين : « هذا لك مقابل كل ما فعلته » .

ـ « إن استراتيجيتنا إزاء الجيش العراقى استراتيجية بسيطة ، فنحن أولا سوف نمزقه إربا إربا ، وبعدها سوف نقتله » .(٥)

ومن أجل تحقيق هذا الهدف قامت طائرات « عاصفة الصحراء » بتدمير مراكز القيادة والاتصال ، ومخازن المؤن والذخيرة ، والطرق والجسور والكبارى ومواقع الحشد .

● **وكان الهدف الثانى هو ضرب الرئيس « صدام حسين » شخصيا وقتله** ، وقد كانت أول مجموعة من صواريخ « كروز » اتجهت صوب العراق مبرمجة لضرب مركز قيادة كان يعتقد أن الرئيس « صدام حسين » موجود فيه فجر يوم ١٧ يناير . ونشرت

---

(٥) روى نائب الماريشال « ر . أ . ميسون » من مؤسسة الأمن الدولية وقائع ما دار فى هذا المؤتمر للجنرال كولين باول ـ ضمن دراسة قدمها لمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى لندن يوم ١٢ ابريل ١٩٩١ .

صحيفة الـ « واشنطن بوست » فى عددها يوم ٢٣ يونيو ١٩٩١ أنه كانت هناك خطة ذات مراحل متتابعة تطارد الرئيس « صدام حسين » كل يوم بقصد قتله ، وكان اسمها الرمزى فى العمليات «Get Saddam» (أى « الخلاص من صدام ») . ولم تنجح الضربة الأولى لصواريخ « كروز » فى الوصول إلى الرئيس « صدام حسين » .

وتلتها موجات متتابعة قامت بها طائرات من طراز « ستيلث ف ـ ١١٧ أ » القادرة على اختراق كل شبكات الرادار دون أن يمسك بها ـ توجهت بغارات متوالية على مواقع كانت هناك معلومات تشير إلى أنه قد يكون متواجدا فيها . وقد كادت إحدى هذه الغارات بطائرات من طراز « فالكون ف ـ ١٦ » أن تصيب قافلة سيارات كانت سيارة الرئيس العراقى بينها بالفعل على الطريق بين بغداد والبصرة ، ولكن الصيد أفلت .

وتعرض مركز قيادة متنقل كان معروفا أن الرئيس « صدام حسين » يستخدمه للملاحقة حيث ذهب ـ للقصف بواسطة مجموعة من الطائرات أطلق عليها وصف «Hunter Killer Teams» (أى « فرق صيادى القتل ») .

● **وكان الهدف الثالث إثارة أعصاب ومشاعر الشعب العراقى ، والجيش العراقى** بما يؤدى إلى مواجهة بالعنف بين الشعب والجيش من ناحية ، وبين القيادة السياسية للنظام من ناحية أخرى .

ولم يتحقق ذلك لأن عنف العاصفة وجموحها وضع العراق كله ـ شعبا وجيشا ونظاما ـ فى ركن واحد بحكم ضرورات البقاء نفسها ، مضافا إلى ذلك أن العنف مورس بدون أى نوع من أنواع الحساسية الإنسانية حتى لكأن العراق كله تحول إلى ميدان تجارب لأسلحة فتاكة تختبر مدى قدرتها على القتل بطريقة معملية مجردة . ومن ذلك ما كانت تنقله وكالات الأنباء والتليفزيون عن الطيارين من قوات التحالف فى وصف تجاربهم أثناء الغارات ، ومشاعرهم ، واتجاه الكل منهم إلى وصف ما يرونه باعتباره نوعا من مهرجانات الألعاب النارية الملونة ، دون اعتبار للمأساة الإنسانية الجارية وراء ذلك على الأرض ، وبين الآدميين من سكانها المعرضين لهذه الألعاب الملونة من النار !

● **وكان الهدف الرابع** لـ « عاصفة الصحراء » هدفا أوسع وأقسى !

□

إن أكثر ما يكشف القصد الاستراتيجى الحقيقى لأى طرف فى أى حرب هو مراجعة قوائم الأهداف التى وضعها فى أولوياته ـ فما يقوم به أى طرف فعلا هو المدخل الطبيعى لفهم ما يريده قصدا .

ويظهر التقرير الذى وضعته لجنة الأمم المتحدة الخاصة التى رأسها الأمير « صدر الدين أغا خان »[٦] ، وهو ممثل سكرتير عام الأمم المتحدة فى الجوانب الإنسانية لحرب الخليج ـ مجموعة من الحقائق تومىء أكثر من غيرها إلى هدف الحرب فيما يتعلق بالعراق كدولة ، وفيما يتعلق بشعبه كبشر .

وقد بدأ التقرير ، فأشار إلى « أن العراق (بفضل استخدام دخل البترول فى خطة تنمية ناجحة) كان قريبا من بلوغ المستويات العالمية المقبولة فى مجالات الصحة والتعليم والكهرباء والصرف الصحى ومياه الشرب وغيرها .

لكن الحرب العراقية الإيرانية أوقفت خطى التقدم ، ثم جاءت حرب الخليج فألحقت بالعراق كارثة مخيفة محققة . »

ثم أفاض التقرير ـ الذى يقع فى ٥٨ صفحة ـ فى وصف الدمار الذى لحق بشبكات المياه والصرف الصحى والكهرباء والتليفونات ووسائل النقل ومخازن المؤن ، حتى رسم صورة حزينة للنتائج التى أسفر عنها ضرب المرافق المدنية العراقية .

وأضافت جامعة « هارفارد » تفصيلا محددا إلى هذه الصورة فى تقرير ركزت فيه على تأثير الضرب الجوى على قطاع الكهرباء .

بدأ تقرير « هارفارد » بتقسيم محطات الطاقة الكهربائية فى العراق إلى ثلاثة أنواع : حرارى ـ ومائى ـ وغازى .

وبالنسبة للمحطات الحرارية رسم تقرير « هارفارد » صورة لنتائج الضرب الجوى على النحو التالى :

□ **محطة « دورا »** : وكانت طاقتها قبل الحرب ٨٨٠ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا . أى أن المحطة دمرت بنسبة ١٠٠٪ .

□ **محطة « جنوب بغداد »** : وكانت طاقتها قبل الحرب ٨٨٠ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا . وقد جرى إصلاحها جزئيا بعد وقف إطلاق النار بما رفع طاقتها إلى ٢٢٠ ميجاوات يوم إذاعة تقرير « هارفارد » فى شهر أغسطس ١٩٩١ .

---

(٦) تقرير الأمير « صدر الدين أغا خان » المقدم إلى « خافيير بيريز دى كويلار » السكرتير العام للأمم المتحدة ، والذى وزعته الأمم المتحدة كوثيقة من وثائقها الرسمية بتاريخ ١٧ يوليو ١٩٩١ تحت رقم س / ٢٢٧٩٩ .

□ **محطة « المسيب »** : وكانت طاقتها قبل الحرب ٨٨٠ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا . أى أن المحطة دمرت بنسبة ١٠٠٪ .

□ **محطة « بيجى »** : وكانت طاقتها قبل الحرب ١٣٢٠ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا . وقد جرى إصلاحها جزئيا بعد وقف إطلاق النار بما رفع طاقتها إلى ٨٨٠ ميجاوات .

□ **محطة « دبيبس »** : وكانت طاقتها قبل الحرب ٢٣٥ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا . أى أن المحطة دمرت ١٠٠٪ .

□ **محطة « الحارثة »** : وكانت طاقتها قبل الحرب ٨٠٠ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا . أى أن المحطة دمرت بنسبة ١٠٠٪ .

□ **محطة « النجيبية »** : وقد نجت تماما من الدمار ، واحتفظت بطاقتها وهى ٢٠٠ ميجاوات .

□ **محطة « الناصرية »** : وكانت طاقتها قبل الحرب ٤٠٠ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا . وجرى إصلاحها جزئيا بعد وقف إطلاق النار ، وأمكن رفع طاقتها إلى ٢٠٠ ميجاوات .

وانتقل تقرير جامعة « هارفارد » إلى محطات الطاقة المائية ، وهى خمسة خزانات ، وأوردها على النحو التالى :

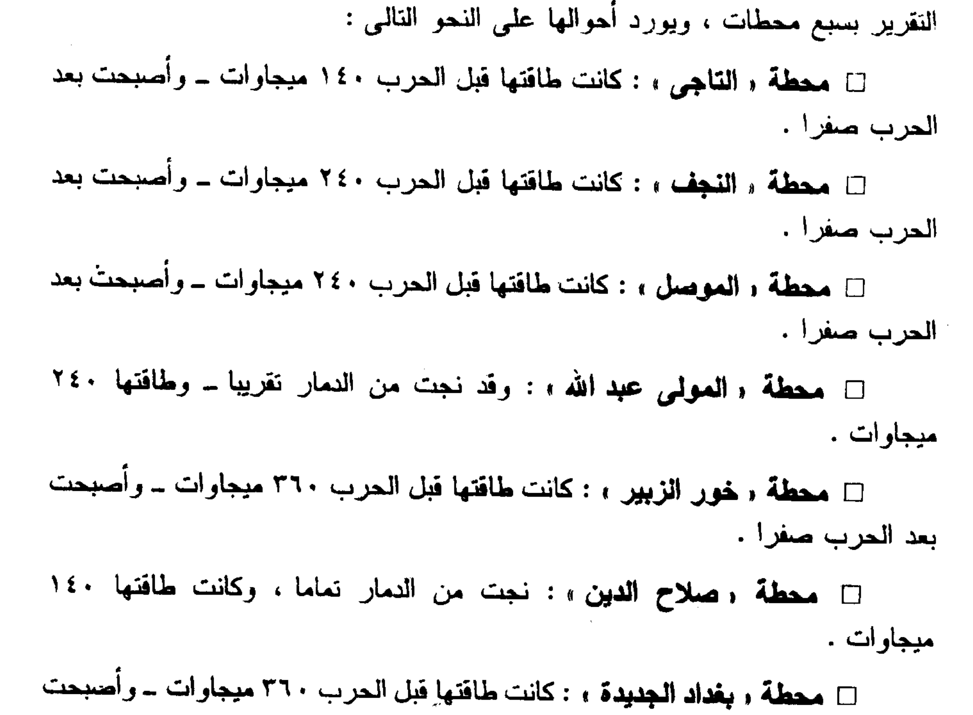
□ **خزان « صدام »** : كانت طاقته قبل الحرب ٨٠٨ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا ..

□ **خزان « سامرا »** : كانت طاقته قبل الحرب ٦٠ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا .

□ **خزان « دوكان »** : كانت طاقته قبل الحرب ٤٠٠ ميجاوات ـ ونزلت بعد الحرب بنسبة ٧٥٪ .

□ **خزان « حديثة »** : كانت طاقته قبل الحرب ٢٠٠ ميجاوات ـ ونزلت بعد الحرب بنسبة ٧٥٪ .

□ **خزان « دربندوخان »** : لم يصبه الدمار ، وكانت طاقته ١٦٠ ميجاوات .



ثم يصل تقرير جامعة « هارفارد » إلى محطات توليد الكهرباء بالغاز ، ويعدها التقرير بسبع محطات ، ويورد أحوالها على النحو التالى :

☐ **محطة « التاجى »** : كانت طاقتها قبل الحرب ١٤٠ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا .

☐ **محطة « النجف »** : كانت طاقتها قبل الحرب ٢٤٠ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا .

☐ **محطة « الموصل »** : كانت طاقتها قبل الحرب ٢٤٠ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا .

☐ **محطة « المولى عبد الله »** : وقد نجت من الدمار تقريبا ـ وطاقتها ٢٤٠ ميجاوات .

☐ **محطة « خور الزبير »** : كانت طاقتها قبل الحرب ٣٦٠ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا .

☐ **محطة « صلاح الدين »** : نجت من الدمار تماما ، وكانت طاقتها ١٤٠ ميجاوات .

☐ **محطة « بغداد الجديدة »** : كانت طاقتها قبل الحرب ٣٦٠ ميجاوات ـ وأصبحت بعد الحرب صفرا .

فى بحر ثلاثة أيام من الحرب الجوية ـ طبقا لما قاله[٧] نائب مارشال الجو « و . ج . وراتن » ـ الذى كان نائبا لقائد القوات البريطانية فى الشرق الأوسط فى الفترة ما بين نوفمبر ١٩٩٠ ومارس ١٩٩١ ـ كانت الأهداف الاستراتيجية العسكرية فى العراق قد جرى ضربها بطريقة مؤثرة . وقد شملت : مطاردة القيادة السياسية ـ شل تفكير القيادة العسكرية ـ ضرب نظام القيادة والسيطرة والمواصلات ، والدفاع الجوى ، والمطارات ، والمنشآت النووية والبيولوجية والكيماوية ، والجزء الأكبر من منصات إطلاق صواريخ « سكود » ومواقع تخزينها ، إلى جانب الصناعات العسكرية ـ ومع ذلك فإن الضرب الجوى استمر بعد ذلك ، واتجه ـ على حد وصف اثنين من المؤرخين العسكريين[٨] هما

(٧) تسربت إلى الصحف البريطانية ، ونشرت فيها أجزاء من تقرير نائب مارشال الجو « وراتن » خلال شهر مايو ١٩٩١ ، وقد نوقشت الاستنتاجات الرئيسية فى هذا التقرير فى اجتماع لمركز الدراسات الاستراتيجية فى لندن فى نفس الفترة .

(٨) نشرت أقوال المؤرخين فى جريدة الـ « واشنطن بوست » فى عدد ٢٣ يونيو ١٩٩١ .

« روبرت بيب » و « كارولين جيمكى » ـ إلى عملية لا يمكن وصفها إلا بأنها محاولة لتمزيق مجتمع بأسره وليس مجرد قواته المسلحة . ويمضى تقرير المؤرخين بعد ذلك إلى القول بأن مثل هذا الهدف كان يمكن فهمه فى حالة حرب عالمية بين قوى صناعية كبرى طالت بينها المواجهة ، وحسمها فى النهاية يفرض حربا شاملة تضيع فيها أرواح بشرية كثيرة تكلف المهاجم تضحيات لا قبل له بها . وأما فى حالة دولة من العالم الثالث يراد كبح جماح قوتها العسكرية ، فإن هذا الحجم من التدمير يستدعى عملية مراجعة استراتيجية قبل أن تكون إنسانية .

وقد أحست وزارة الدفاع الأمريكية ، وكذلك قيادة الجنرال « شوارتزكوبف » ، بالنقد الشديد الذى وجه فى الولايات المتحدة بالذات إلى توسيع أهداف الضرب الجوى للعراق بما جعله يستمر ٤٥ يوما ، فى حين أنه كان قد حقق الجزء الأكبر من أهدافه العسكرية فى بحر ثلاثة أيام .

وقد رد « ريتشارد تشينى » وزير الدفاع على تلك الانتقادات ، وقال فى مؤتمر صحفى عقده يوم ١١ ابريل ١٩٩١ ـ ما نصه :

ـ « لا ينبغى أن يراود أحدنا الشك فى أننا فعلنا ما كان لابد أن نفعله . لقد كنا نريد أن نحدث أكبر قدر من التأثير على المجتمع العراقى ، وكنا نتمنى لو أننا لم نفعل ذلك ، ولكن إذا كان علينا أن نحقق أهدافنا بأقل قدر ممكن من الخسائر فى الأرواح الأمريكية ، فلا أظن أنه كان أمامنا اختيار آخر . ولو كنا قد اكتفينا بالحد الأدنى من استعمال القوة الجوية ، لكان عدد العائدين من أفراد قواتنا فى الخليج أحياء ـ أقل من العدد الذى عاد إلينا بالفعل . »

وأما قيادة الجنرال « شوارتزكوبف » فقد كان لها تفسير آخر فى تبرير التدمير الذى لحق بالحياة المدنية فى العراق دون داع من الضرورات العسكرية . وقالت هذه القيادة فى إيجاز صحفى يوم ١٣ مارس ، وكان حجم التدمير الذى لحق بالعراق قد بدأ يتضح :

« إن أهداف الضرب الجوى للعراق جرى توسيعها ، وهذا صحيح ، لكن التدمير لم يلحق بأبرياء ، فالشعب العراقى كله ليس بريئا لسببين : السبب الأول أن كثيرين من أفراده تحمسوا لغزو الكويت ـ والسبب الثانى أن الشعب العراقى قابل بحكم « صدام حسين » . »

ثم أضاف الإيجاز الصحفى إلى ذلك : « إننا فى حاجة إلى تعريف جديد لمعنى المدنيين الأبرياء . »

وقد كانت هناك تفسيرات أخرى لتوسيع نطاق الضرب الجوى للعراق إلى هذا الحد ، بينها « أن هدفا من أهم أهداف هذا الضرب هو التأكد من استمرار التأثير السياسى للحرب

داخل العراق لسنوات طويلة قادمة » . كذلك فإن ساحة الضرب الجوى كانت مجالا حيا لتجربة أسلحة جديدة لم تسبق تجربتها . وأيضا إن بعض شركات انتاج السلاح الأمريكية والبريطانية ـ أرادت ترويج مبيعاتها على أساس أداء أسلحتها فى الميدان . وقد حدث فعلا أن الشركة المنتجة لطائرات الهليكوبتر من طراز « آباتشى » ـ راحت تقوم بتسويق طائراتها فى دول الخليج بعرض صور تليفزيونية لأداء هذه الطائرات بينما الحرب لاتزال مستمرة ، مما يشير إلى أن هذه الأفلام جرى الحصول عليها من قيادة التحالف أثناء المعارك ، وبهدف الترويج التجارى لمبيعات السلاح .

٦

كانت الأجواء العراقية فى بحر ثلاثة أيام من الحرب مفتوحة تماما لطائرات الجنرال « شوارتزكوبف » . فالطيران العراقى ـ تحسبا للضربة الأولى ـ ظل فى دشمه الحصينة . وقد استعصت هذه الدشم على القنابل التى استخدمها الطيران الأمريكى فى أيام الحرب الأولى . وابتداء من اليوم الرابع للقتال جرى استعمال قنبلة وصفها العسكريون العراقيون بأنها قنبلة « قلاووظية » ، فقد كانت تنزل على الدشم الحصينة فإذا هى تقوم بعملية اختراق بالدوران ، تفتح ثغرات فى الدشم ثم تنفجر داخلها . ولعدة أيام كان معدل الخسائر فى الطيران العراقى داخل دشمه الحصينة يتراوح ما بين ست وسبع طائرات كل يوم . ووجدت قيادة الطيران العراقى أنه إذا استمر الحال على هذا المنوال ، فإن سلاح الطيران العراقى سوف يدفن داخل الدشم الحصينة فى ظرف أسبوع أو أسبوعين . ولم يكن معقولا أن يخرج الطيران العراقى ليقاتل دفاعا عن الأجواء العراقية ، ودفاعا عن نفسه فى وجه سيطرة جوية كاملة للطرف الآخر .

وهنا وقعت ظاهرة من أكثر ظواهر الحرب مدعاة لتساؤل المراقبين الخارجيين ، وهى ظاهرة توجه الطائرات العراقية كلما واتتها الفرصة صوب الحدود الإيرانية ، والنزول فى مطارات إيران فى محاولة يائسة لإنقاذ كل ما يمكن إنقاذه من الطيران العراقى وطياريه . وكان المنطق الذى حكم هذا القرار على النحو التالى :

- من الظلم للطيران العراقى أن يطلب إليه مواجهة هذا التفوق الكاسح للطيران الأمريكى .

● من ناحية ثانية فإن بقاء الطائرات العراقية داخل الدشم الحصينة معناه تدميرها بالقنابل « القلاووظية » الجديدة دون قتال ودون هدف .

● ومن ناحية ثالثة ، فإلى أين كان يمكن أن تلجأ الطائرات العراقية ؟ ـ فقد كانت كل الدول المحيطة بالعراق ـ باستثناء الأردن ـ أطرافا فى التحالف . وكان إرسال الطائرات العراقية إلى الأردن يعرض الأردن لمخاطر كبيرة لا يقدر على تحملها . وعلى فرض أن الأردن كان على استعداد لتحمل هذه المخاطر ، فإنه كان مؤكدا أن الطيران الأمريكى سوف يلاحق الطائرات العراقية إلى قواعد الأردن ويدمرها هناك ، ويدمر القواعد الأردنية أيضا .

وكان الحل الوحيد الذى بدا مفتوحا هو أن تترك للطيارين العراقيين حرية التصرف فى أى فترة زمنية يجدون فيها أن طيران التحالف ليس فوق رؤوسهم . وفى هذه الفرصة يكون عليهم الخروج بسرعة من الدشم والتوجه إلى الحدود الإيرانية . ولقد بدأت بعض الطائرات العراقية تصل إلى مطارات إيران قبل إخطار الحكومة الإيرانية بقرار بغداد . ثم وصل الطلب الرسمى بعد ذلك يرجو إيران الاحتفاظ بهذه الطائرات وديعة عندها حتى تنتهى المعارك . وظلت ظاهرة التجاء الطائرات العراقية إلى إيران قائمة لأسبوعين ـ داعية المراقبين إلى التساؤل عن سرها ، وما إذا كانت هذه الظاهرة سياسة عراقية مقصودة ، أو أنها دليل على تمرد وقع فى سلاح الطيران العراقى .

(وبعد وقف إطلاق النار وقع إشكال بين الحكومة العراقية والحكومة الإيرانية حول هذه الطائرات اللاجئة إلى إيران . فقد قدرتها بغداد بـ ١٣٥ طائرة ، ولم تعترف إيران بغير ٢٣ طائرة وصلت إليها . وحتى هذا العدد من الطائرات الذي اعترفت إيران بوصوله إليها ـ كانت طهران أميل لاعتباره جزءا من التعويضات المستحقة لها على العراق نتيجة للحرب العراقية الإيرانية) .

□

ويقدم نائب مارشال الجو « و . ج . وراتن » فى تقريره الذى سبقت الإشارة إليه صورة عن الحرب الجوية ـ فيقول :

« إن الطيران العراقى لم يكن على استعداد لنوع الحرب الجوية التى واجهته . وسوف يسجل التاريخ أن حرب الخليج كانت أول حرب جوية بالكامل تقريبا . ولم يكن ذلك فى ذهن العراقيين ولا فى خيالهم ، ولا كانوا على استعداد له . »

ثم يروى نائب مارشال الجو « وراتن » أن الطيران العراقى كان قبل أزمة الخليج يقوم بتدريبات لا يزيد عدد الطلعات فيها يوميا عن ٢٠٠ طلعة . وعندما بدأت الأزمة وتدفقت الحشود على السعودية ـ راح الطيران العراقى يقلل إلى حد كبير من تدريباته . ويبدو أن هدفه كان إدخار موارده من الوقود وقطع الغيار . ولم يكن فى مقدور الطيران

العراقى أن يقوم بأى دور هجومى فى المعركة القادمة . وربما فكر العراقيون أن يقصروا دوره على الأعمال الدفاعية ، ولكن هذا الدور الدفاعى لم يكن ممكنا بالقوة الهجومية الكاسحة لطيران التحالف الذى قام بـ ١٠٩٨٧٦ غارة حسب التقرير النهائى للجنرال « شوارتزكوبف » عن سير العمليات فى الخليج دون خسائر كبيرة . وقد ذكر تقرير الجنرال « شوارتزكوبف » أن سلاح الطيران الأمريكى قام وحده بـ ٦٤٨٢٦ غارة (٥٩٪ من مجموع الغارات) ، وكانت خسائره ١٤ طائرة . فى حين قامت طائرات الأسطول بـ ١٦٪ من مجموع الغارات ، وخسرت ٧ طائرات . وقام طيران البحرية بـ ٩٪ من مجموع الغارات ، وخسر ٨ طائرات ـ وأما بقية الغارات وعددها ١٧٥٨٠ غارة (وهى تمثل ١٦٪ من المجموع) فقد كانت خسائرها ٩ طائرات .

وبالتالى فإن أسلحة الجو الأمريكية الثلاثة (السلاح الجوى الرئيسى ـ والسلاح الجوى للأسطول ـ والسلاح الجوى لقوات البحرية) كانت هى التى قامت بحمل الجزء الأكبر من قوة النيران وقوة التكنولوجيا ، وألقت بها فوق العراق .

ولقد تحملت طائرات « التورنيدو » البريطانية وحدها مهمة تدمير ممرات الطائرات فى العراق ، لأنها كانت مجهزة بنوع خاص من القنابل أكثر صلاحية للمهمة من غيره . ورغم أن العراقيين بذلوا جهودا كبيرة فى إصلاح بعض هذه الممرات ، فإن طائرات « التورنيدو » عادت لتدمير الممرات ثلاث مرات فى اليوم فى بعض الأحيان .

وفى الأيام الأولى من القتال ، كان طيران التحالف يلتزم بارتفاع يصل إلى ما بين ٢٥ و ٣٠ ألف قدم عن سطح البحر حتى يتجنب صواريخ « سام » العراقية . وبعد أن جرى تدمير قواعد هذه الصواريخ ، فإن طيران التحالف بدأ يعمل من أى ارتفاعات يريدها .

وقبل أن تبدأ المعارك البرية كان الضرب الجوى قد نزل بحجم الإمداد العراقى لقوات الجبهة بنسبة ٩٠٪ من المعدل المطلوب ، أى أن قوات الجبهة كانت تتلقى ما لا يزيد على ١٠٪ من احتياجاتها من الذخائر والمؤن .

وفى هذه المرحلة من الحرب ، وقف الجنرال « كولين باول » أمام لجنة القوات المسلحة فى مجلس الشيوخ الأمريكى يقول : « إن القوة الجوية كانت العنصر الحاسم فى الحرب إلى الآن ، وحتى إذا بدأت الحرب البرية فإنى أتوقع أن يظل للقوة الجوية هذا الدور الرئيسى إلى نهاية الحرب » .

ولقد كان الجهد الرئيسى للأسطول الأمريكى مركزا فى طائراته ، وليس فى معارك بحرية . وحتى المعركة الوحيدة التى دارت ضد الأسطول العراقى فى الخليج كانت هى الأخرى معركة جوية قامت فيها الطائرات الأمريكية والبريطانية بتدمير قوارب

« الطوربيد » العراقية السريعة التى حاولت أن تحتمى بالمياه الواقعة بين جزيرتى « بوبيان » و « وربه » . وكانت هذه الزوارق العراقية قد تمكنت ـ قبل إغراقها ـ من وضع ألف لغم فى مياه الخليج استطاع أحدها أن يلحق خسائر كبيرة بالبارجة « برنستون » يوم ١٨ فبراير ١٩٩١

٧

وعندما استبان حجم التفوق الأمريكى بعد الساعات الأولى من القتال ـ فإنه بدا أن أمل العراق الحقيقى أصبح مركزا فى امكانية توسيع رقعة المعركة بحيث تدخل الجماهير العربية كطرف رئيسى فيها . وكانت الوسيلة لذلك ما أعلنه مجلس قيادة الثورة العراقى من قبل في بيانه يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٩٠ ، وذلك بضرب أهداف فى إسرائيل إلى جانب ضرب منشآت البترول فى الخليج بواسطة صواريخه من طراز « سكود » . وكانت حسابات بغداد فيما يبدو قائمة على أساس أن توجيه صواريخ « سكود » إلى أهداف فى إسرائيل سوف يستدعى تدخلا إسرائيليا مباشرا فى المعركة ، الأمر الذى يعبىء الجماهير العربية للمطالبة بنصرة العراق .

وبالفعل فإن العراق وجه ٣٩ صاروخا من طراز « سكود » إلى إسرائيل ، و٣٦ صاروخا من نفس الطراز إلى السعودية . ولكن هذه السياسة لم تأت بالنتيجة المرجوة لعدة أسباب :

١ ـ إن القوات الأمريكية كانت مستعدة بالصواريخ المضادة للصواريخ من طراز « باتريوت » فى السعودية ـ كما أنها زودت إسرائيل بعدة بطاريات منها . وقد تصدت هذه الصواريخ لصواريخ « سكود » وأسقطت ٤٥ منها قبل بلوغ أهدافها فى السعودية وإسرائيل . وبالتالى فإن حجم الصواريخ التى نزلت فى الناحيتين كان أقل من المنتظر . وربما كانت أكبر خسائر ألحقها صاروخ عراقى بهدف توجه اليه ، هى ما أحدثه الصاروخ الذى وصل إلى قاعدة « الظهران » يوم ٢٦ فبراير وقتل بسببه ٢٧ عسكريا أمريكيا وجرح ٩٨ .

٢ ـ إن إسرائيل رغم كل شيء ضبطت أعصابها طبقا للتعهد الذى قدمه « شامير » للرئيس

« بوش » أثناء لقائهما فى البيت الأبيض يوم ٩ ديسمبر ١٩٩٠ . ورغم أن بعض غلاة المتشددين من أمثال الجنرال « شارون » طالبوا بالرد طبقا للسياسة الإسرائيلية التقليدية والمعلنة ـ فإن « شامير » استطاع أن يقنع بقية مجلس الوزراء ، وقيادة الجيش الإسرائيلى بضبط الأعصاب لأن إسرائيل بعد الحرب ـ طبقا لوعود « بوش » و « بندر » ـ سوف تكون شريكا كاملا فى مشروع إنماء شامل للمنطقة يموله البترول العربى . ولقد كان الغضب الإسرائيلى الظاهر فى بعض اللحظات مجرد رد فعل عاطفى ، كما كان معظم الوقت رغبة فى استغلال الغضب للحصول على أكبر قدر من وعود المستقبل بعد انتهاء الحرب .

٣ ـ إن عددا من الزعماء العرب من أطراف التحالف أبدوا رأيهم صراحة فى أن ضرب إسرائيل بالصواريخ العراقية هو مناورة عراقية مقصودة لتوسيع نطاق الحرب ، وأن أفضل أسلوب لمواجهة هذه المناورة هو تجاهلها . بل زاد بعضهم على ذلك بأنه حتى إذا ردت إسرائيل ، فإن ذلك يعتبر فى مجال الدفاع الشرعى عن النفس إزاء استفزازات عراقية .

٤ ـ ربما كان السبب الأخير فى عدم نجاح المناورة العراقية فى استثارة جماهير الأمة العربية هو أن هذه الجماهير كانت من قبل الأزمة تعيش حالة إحباط ويأس ، ثم أخذتها مفاجآت الأزمة على حين غرة وأصابتها بحالة من الحيرة والتمزق فى المواقف والتوجهات ، وعندما بدأ القتال فإن الجماهير كانت مأخوذة بأول حرب تليفزيونية فى حياتها ، ووجدت نفسها مشدودة إلى متابعة تفاصيلها المثيرة إلى درجة أنها أصبحت متفرجا مدمنا على ما يجرى ـ أكثر منها شريكا فعليا فيه . وربما كان النجاح الأعظم للإعلام الأمريكى أنه استطاع أن يصور الحرب التكنولوجية بعيدا تماما عن آثارها الإنسانية سواء على المنشآت أو على البشر .

فلم تكن هناك صور ـ إلا فيما ندر ـ لدمار الحرب ، ولا صور ـ إلا فى المرحلة الأخيرة ـ لضحايا من الرجال والنساء والأطفال .

كان التركيز كله على لوحات الأزرار الملونة ، وعلى ومضات إشعاع الليزر ، وعلى لوحات ملتقطة من ارتفاعات شاهقة تمثل دقة إصابة الأهداف .

كان كل شىء يدعو إلى الانبهار .

وكان كله نظيفا . لا أنقاض ولا أشلاء ، ولا بقع دم ، وكأن الحرب لعبة من ألعاب الفيديو .

وحين أفاقت الجماهير من دور المتفرج المدمن ، كان كل شىء قد انتهى ، أو على وشك أن ينتهى .

□

ومع منتصف شهر فبراير كان واضحا أن الحرب البرية على وشك أن تبدأ .

كانت القوات البرية العراقية فى ذلك الوقت ـ ورغم غارات كثيفة على مواقعها ، ركزت بالذات على فرق الحرس الجمهورى ـ لاتزال متماسكة . وقد قدرت تقارير هندية وباكستانية أن خسائر الضرب الجوى فوق القوات البرية العراقية لم تؤثر فى أكثر من ٢٠٪ من حجم هذه القوات . ومعنى ذلك أن الجيش العراقى كان حتى تلك اللحظة قادرا على خوض معركة برية يمكن أن تطول .

وفى ذلك الوقت ـ حوالى منتصف فبراير ـ أحس الرئيس « جورباتشوف » بوجود ضغوط شديدة عليه تدعوه إلى القيام بمبادرة تنقذ ما يمكن إنقاذه من الموقف . وقرر إرسال مساعدة الخاص « يفجينى بريماكوف » إلى بغداد ، وقد وصلها يوم ١٣ فبراير يحمل معه مقترحات بانسحاب عراقى فورى فى مقابل تعهد أمريكى بالامتناع عن ضرب القوات العراقية أثناء انسحابها من الكويت . وسأله الرئيس « صدام حسين » عدة أسئلة تستوضح مدى جدية التعهدات الأمريكية .

وبعد أربعة أيام ـ أى يوم ١٧ فبراير ـ توجه السيد « طارق عزيز » إلى موسكو يحمل ردا بقبول العراق للمقترحات السوفيتية . وكان الخلاف فى موسكو حول المدة اللازمة لإتمام الانسحاب العراقى غير المشروط من الكويت . فقد كان رأى « جورباتشوف » أن « العراق احتل الكويت فى ساعات ، ويستطيع الخروج منها فى ساعات » . وكان رد « طارق عزيز » : « إنه وإن كان الاحتلال العراقى للكويت قد تم فى ساعات ، فإن الانسحاب بعد كل التعزيزات التى وصلت للقوات فى الكويت يقتضى أياما » . ولم يكن « جورباتشوف » على استعداد للتسليم بذلك . فقد بدا عصبيا ومحشورا بين ضغوط شديدة من الداخل ، ومن الخارج .

وعاد « طارق عزيز » إلى بغداد ثم عاد ثانية إلى موسكو . ويوم ٢١ فبراير أعلن « فيتالى ايجناتنكو » المتحدث الرسمى باسم « جورباتشوف » أنه « تم التوصل إلى اتفاق يغطى معظم النقاط بين الإتحاد السوفيتى والعراق ، وهو اتفاق يستكمل الانسحاب الفورى » . ثم أضاف « ايجناتنكو » أن الرئيس « جورباتشوف » على اتصال بالرئيس « بوش » . وأن الرئيس « بوش » يقدر كل الجهود السوفيتية ، ولكنه يرى أن الوقت قد تأخر جدا .

ويوم ٢١ فبراير وقف « بوش » فى واشنطن يعلن فى مؤتمر صحفى « أنه يعطى العراق مهلة ٤٨ ساعة ليبدأ انسحابه من الكويت دون شروط » ـ ومعنى ذلك دون تعهدات بعدم التعرض للقوات العراقية المنسحبة . وقال « بوش » إنه « إذا لم تكن القوات العراقية

قد بدأت انسحابها من الكويت بحلول ظهر يوم السبت ٢٣ فبراير - فإنه سوف يأمر ببدء الهجوم البرى » .

ويوم ٢٢ فبراير ألقى الرئيس « صدام حسين » خطابا قال فيه :

« إن القيادة السوفيتية قالت إنه إذا انسحب العراق ، فإن الحرب سوف تتوقف والمفاوضات سوف تبدأ . وقد قلنا إن القوات العراقية سوف تنسحب . ولكن ماذا قال « بوش » ؟ لقد قال إنها خدعة عراقية ، وإن الحرب سوف تستمر . إن الأمريكيين لم يلتفتوا أبدا لما قلنا ، ولم يدرسوه مطلقا بالعناية الكافية . »

واعتبر الرئيس « بوش » أن ما قاله الرئيس « صدام حسين » يعتبر رفضا لإنذاره الأخير ، ولم يكن ذلك تفسيرا دقيقا لما قاله الرئيس العراقى . وكان من الذين أحسوا بذلك الملك « الحسن » الذى اتصل بالسفير الأمريكى فى الرباط يقول له « إنه استمع بنفسه إلى خطاب « صدام حسين » ، وتقديره الشخصى أن الخطاب يحتوى على قبول واضح بالانسحاب . »

وكان « طارق عزيز » لايزال فى موسكو يتحدث مع « جورباتشوف » . وقد تلقى هناك تعليمات من بغداد قام بتوصيلها إلى الرئيس « جورباتشوف » الذى أعلن أنه تلقى ردا إيجابيا من بغداد بقبول كل قرارات مجلس الأمن . واتصل الرئيس « جورباتشوف » بالرئيس « بوش » يقترح عليه دعوة مجلس الأمن لاجتماع عاجل يعلن فيه العراق قبوله لقرارات مجلس الأمن السابقة كلها . وكان رد الرئيس « بوش » عليه « أنه لا يعتبر الرد العراقى كافيا ، وأن المهلة التى أعطاها للانسحاب قد انتهت ، وأنه أصدر أمره فعلا بالهجوم البرى » .

□

كان الجنرال « شوارتزكوبف » مستعدا لتنفيذ خطة الهجوم البرى ، وكانت قواته - طبقا للعملية التى أطلق عليها رمزا اسم «Ave Maria» (المجد للعذراء) - قد تحركت فعلا لتقوم بحركة التفاف واسعة حول مواقع الجيش العراقى الذى كان محروما من أية وسائل استطلاع تستطيع إعطاؤه فكرة عن تحركات القوات الأمريكية .

وفى ذلك الوقت تلقت القوات العراقية صدمة إضافية . فقد كانت القوات على الجبهة تعتمد على ثلاث شبكات من الاتصال مع قيادتها العليا فى بغداد . وخلال الضرب الجوى فى الأسابيع الأولى من الحرب فقدت القيادة العراقية شبكتين من شبكات اتصالها مع الجبهة - لكن شبكة واحدة ظلت تعمل وتستبقى القوات العراقية فى الجبهة متصلة على نحو أو آخر بقيادتها .

ويوم ٢٣ فبراير تعطلت الشبكة الثالثة ، وأصبحت القوات العراقية معزولة عن

قيادتها بالكامل ، فى الوقت الذى توقفت فيه كل حركة الإمداد والتموين . وكانت كل الجسور والطرق والكبارى قد تحطمت . وسادت الخطوط العراقية حالة فوضى عارمة ، وإن كانت القيادة العراقية قد تمكنت فى آخر لحظة من إصدار أوامرها إلى عدد من الفرق فى الكويت بالخروج من المدينة والانسحاب صوب البصرة .

وفى ذلك الوقت كانت حركة الالتفاف حول الجبهة العراقية قد أكملت مهمتها ، فوصلت قوات فرنسية تلحقها قوات أمريكية وبريطانية إلى منطقة « الناصرية » على نهر دجلة . واتصل قائد القوة الأمريكية بالجنرال « شوارتزكوبف » يقول له إن الجيش العراقى قد تم حصاره ، وأن آلافا من جنوده يستسلمون . وقد بلغ من عنف الاندفاع فى تنفيذ العملية « المجد للعذراء » أن فرق المهندسين العسكريين التابعين لها لم يشغلوا أنفسهم بالتحصينات العراقية التى كانت على طريق تقدمهم ، وكان قرارهم بشأنها هو تحريك أساطيل معداتهم العملاقة لردم المواقع العراقية بالكامل على من فيها من العراقيين . وقد روت بعض التقارير بعد الحرب أن مئات من الجنود العراقيين دفنوا أحياء فى المواقع التى كانوا فيها .

وكان الرأى العام العربى قد بدأ يفيق لهول الكارثة ، خصوصا بعد أن صدمته صور حية خرجت أخيرا من العراق عن إصابة مباشرة دمرت مخبأ من الغارات الجوية احتمى فيه مئات من المدنيين . وبدأت حركة فوران شعبى فى العالم العربى لاقت أصداء مماثلة فى نواح كثيرة من عالم أفاق بسرعة على حقائق أخفتها عنه الصور ، ثم كشفتها له صور أخرى . وراحت واشنطن تتحسب .

وجرت اتصالات بين الجنرال « كولين باول » رئيس أركان حرب القوات الأمريكية المشتركة ، وبين الجنرال « نورمان شوارتزكوبف » قائد قوات التحالف ، يتشاور معه ، وكان رأى الاثنين معا أن القوة العراقية العسكرية والتكنولوجية والصناعية تم تدميرها .

واتصل الرئيس « بوش » بدوره بالجنرال « شوارتزكوبف » يسأله سؤالا محددا : « هل يعتبر أن الهدف الاستراتيجى من الحرب ، وهو إبادة الجيش العراقى وتدمير الامكانية العراقية ـ قد تحقق ؟ » وكان رد « شوارتزكوبف » هو قوله « إنه يعتبر أن الهدف تحقق بالكامل » .

وعقد الرئيس « بوش » اجتماعا سريعا مع وزير الدفاع « ريتشارد تشينى » ومع الجنرال « كولين باول » رئيس أركان الحرب المشتركة ، ومع الجنرال « برنت سكوكروفت » مستشاره للأمن القومى ـ ثم خرج إلى مؤتمر صحفى دعا إليه على عجل ليقول : « إنه أصدر إلى الجنرال « شوارتزكوبف » أمرا بوقف إطلاق النار . »

وكانت ميادين القتال لوحة كبيرة مخيفة من الحريق وبحيرات الدم ، وغابات من العتاد المدمر .

الفصل
الثانى عشر

ما بعد العاصفة !

« لا تتصرفوا فى مدريد على أساس أن العرب منهزمون » .

[تعليمات الرئيس « حافظ الأسد » لوفد التفاوض السورى فى مدريد ـ نوفمبر ١٩٩١] .

١

عندما أصدر الرئيس « جورج بوش » قراره بوقف العمليات فى العراق يوم ٢٨ فبراير ، كان قراره يرتكز على عدة عوامل :

١ ـ تقييم الجنرال « شوارتزكوبف » بأن الهدف الاستراتيجى من الحرب تحقق ، وأن الجيش العراقى تم تمزيقه بالكامل ، كما أن القدرة الصناعية والتكنولوجية للعراق قد جرى تحطيمها تماما .

٢ ـ تقديرات من خبراء الشئون العربية فى وزارة الخارجية ، ووكالة المخابرات المركزية مؤداها أن الجيش العراقى الممزق سوف تعود بقاياه إلى بغداد وتقوم بانقلاب على السلطة .

٣ ـ معلومات من سوريا بأن قيادات كثيرة فى حزب البعث العراقى وصل ضيقها

مداه . وأن هذا الضيق سوف يدفعها إلى إزاحة القيادة الحالية للحزب ، ووضع قيادة أخرى مكانها .

٤ ـ تأكيدات من السعودية بأن جهودها المتواصلة لعدة شهور أسفرت عن توحيد فصائل المعارضة العراقية (رغم سابق مشاكلها مع بعضها) ، وأن هناك مشروع حكومة جاهزة لتولى الحكم فى أول لحظة مناسبة (وكانت هذه التأكيدات تصل إلى حد تعيين اسم رئيس الحكومة ، وهو ضابط سنى وبعثى سابق ، وتكريتى النسب والأصل ، وهو بهذه المواصفات يستطيع أن يتعامل على الفور مع مؤسسة الحكم فى بغداد ، ويوظف خبراتها دون انتظار لحكومة جديدة فى العراق) .

وكانت تلك العوامل كلها عناصر مريحة بالنسبة لتفكير واضعى الاستراتيجية الأمريكية تجاه العراق بمجرد توقف المعارك .

كان السيناريو الذى استعدت له السياسة الأمريكية تقودها فى تلك الفترة وكالة المخابرات المركزية التى تسلمت قيادة العمل من قيادة الجنرال « نورمان شوارتزكوبف » ـ هو ما أطلق عليه فى ذلك الوقت « سيناريو تشاوتشيسكو » (إشارة إلى عملية سقوط حاكم رومانيا الشهير « نيكولاى تشاوتشيسكو » وقتله) .

والعقدة الرئيسية فى السيناريو هى عملية انقلاب يقوم بها الحزب والجيش بتعاون بين عناصر من الداخل والخارج ، وتتغير قمة السلطة بحمام دم ، ثم تتواصل الأمور .

وطبقا لما نشرته جريدة الـ « وول ستريت جورنال » الواسعة الاطلاع والنفوذ[١] فإن محطة إذاعة سرية تشرف عليها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بدأت تعمل من السعودية ، ومع بداية الضرب الجوى فجر يوم ١٧ يناير راحت توجه نداءاتها إلى الشعب العراقى أن يثور ، ثم جاء التأييد من الرئيس « بوش » نفسه الذى قال يوم ١٥ فبراير ما نصه :

« إن على العسكريين العراقيين ، وعلى الشعب العراقى أن يأخذوا الأمور فى أيديهم الآن ، وأن يرغموا « صدام حسين » على أن يختفى .

إننا لسنا طرفا فى نزاع مع الشعب العراقى ، وإنما خلافنا مع الديكتاتور العراقى فقط ! »

□

---

(١) عدد ١٠ ابريل ١٩٩١ .

ولم تكن الاستراتيجية الأمريكية تجاه العراق بعد الحرب تتصور أو تريد تقسيم العراق ، فهى أول من يدرك أن التركيبة الإنسانية للعراق تركيبة خطرة . فالأغلبية (حوالى ٥٠٪) من الشيعة ، ثم تليها الكتلة السنية (وهى حوالى ٣٠٪) ، وأخيرا تجىء الكتلة الكردية (وهى حوالى ٢٠٪) - فإذا حدث وانفك تماسك العراق بتقسيمه ، أو بظروف تجعل التقسيم واردا ، فالأرجح أن الشيعة سوف يجدون مستقبلهم الطبيعى فى الالتحاق بإيران ، كما أن الأكراد سوف يقيمون فى شمال العراق نواة لدولة كردية (« كردستان ») تجذب إليها وتشد أقليات كردية موجودة فى تركيا (ما بين ٣ إلى ٤ ملايين كردى) - كذلك سوف يشدون إليهم أكراد إيران (حوالى ٣ ملايين) - وأكراد سوريا (أقل من مليون) - هذا فضلا عن أكراد فى جنوب الاتحاد السوفيتى . وفى الوقت ذاته فإن السنّة فى العراق سوف تجد نفسها حائرة بين الالتحاق بسوريا أو الأردن ، فهى وحدها لا تستطيع إقامة دولة عراقية . وإن كان دورها فى هذه الدولة أساسيا لأنها حلقة الوصل البشرى والجغرافى بين شيعة العراق وأكراده . فسنّة العراق عرب مثل الشيعة ، وهم فى نفس الوقت سنيون مثل الأكراد ، وموقعهم الجغرافى وسط بين الجنوب الشيعى والشمال الكردى . وهكذا فإن تقسيم العراق إذا حدث فسوف يؤدى إلى قلاقل شديدة للغاية فى المنطقة الحساسة الواقعة بين جبال الأناضول وجبال أفغانستان ، وإلى تفريغ مخيف يصيب منطقة الهلال الخصيب .

وهذا كله لا تريده الاستراتيجية الأمريكية التى تطلب تهدئة المنطقة بعد الحرب ، وليس إثارتها بتحركات عنصرية وطائفية واسعة تغير موازين القوى إذا لم تكن تقلبها رأسا على عقب .

وإذن فقد كان هدف « بوش » :

- التخلص من نظام الرئيس « صدام حسين » ،

مع :

- تدمير القوة النامية - الصناعية والعسكرية - للعراق ،

وفى نفس الوقت مع :

- المحافظة على تركيبة العراق .

وكانت تلك معادلة بالغة الصعوبة والتعقيد ، ذلك أن تحقيقها - على فرض أنه كان ممكنا - يقتضى استعمال الجراحة ، وليس استعمال الضغوط السياسية والاقتصادية والنفسية ، فهذا النوع من الضغوط إذا استعمل وأدى استعماله إلى نتيجة فإن هذه النتيجة سوف تؤثر أول ما تؤثر فى التركيبة البشرية ، ومعنى ذلك أن يحدث ما لا يريده « بوش » ، وتنفك هذه التركيبة بما فيها الدولة فى العراق ، وليس النظام وحده .

وبالضغوط السياسية والاقتصادية والنفسية للحرب بدا أن ما لا يريده الرئيس « بوش » هو أقرب الاحتمالات إلى الوقوع فعلا ، فهذه الضغوط كلها وصلت إلى حد أن انفكاك تركيبة العراق بدا احتمالا قائما لعدة أيام ، أو لأسابيع بعد الحرب . وقد ساعدت عليه إلى جانب تعقيد التركيبة نفسها وإلى جانب الضغوط ـ عوامل خارجية أدت دورها فى الجنوب الشيعى ، وفى الشمال الكردى على حد سواء .

□ □ □

كانت مناطق الشيعة فى جنوب العراق هى قلب جبهة القتال ، وبعد تراجع الجيش العراقى فإن سكان هذه المناطق كان يتعين عليهم أن يجدوا لأنفسهم هوية مختلفة يواجهون بها جيوشا أجنبية دخلت غازية . وكان طبيعيا أن تكون هذه الهوية مستقلة عن الدولة العراقية التى كانت طرفا فى الحرب . ومن المنطقى أن تكون الهوية الجاهزة هى الهوية المذهبية ـ أى الشيعة .

ومن الإنصاف أن يقال إن الشيعة فى العراق تمسكوا طويلا بهويتهم القومية ، وكان امتحانهم الأكبر هو الحرب العراقية ـ الإيرانية . فقد كانت هذه الحرب فى جزء منها تحمل إيماءات صراع سنى ـ شيعى ، كما أنها تحمل ملامح عربية ـ فارسية . وكانت النقطة الحرجة أن شيعة العراق ـ بحكم وزنهم فى المجتمع العراقى ، وبحكم أوضاعهم الطبقية فى هذا المجتمع ـ يمثلون أغلبية جنود الجيش ، فى حين كان السنّة هم أغلبية الضباط .

وكانت هذه النقطة بالذات واحدة من النقاط التى حاول « آية الله الخمينى » بنفسه أن يستغلها ، متصورا أن جيشا أغلبية جنوده من الشيعة سيتردد فى الدخول للنهاية فى حرب ضد الدولة الشيعية الوحيدة فى المنطقة . ولكن رهان « آية الله الخمينى » على شيعة العراق لم ينجح لأنهم أطاعوا نداء الدولة القومية ، وخاضوا الحرب دون الالتفات إلى النداء الشيعى القوى الموجه إليهم من طهران .

وللإنصاف أيضا فإن الحكومة الإيرانية فى بداية الأزمة ، وحتى إلى قرب نهاية الحرب ـ لم تتردد فى تقديم تعهدات إلى الحكومة العراقية مفادها أن إيران لن تستغل ظروف العراق الصعبة وتحاول تأليب الشيعة على بغداد . لكن سير المعارك حدا بطهران إلى اعتبار نفسها فى حل من سابق تعهداتها .

وفى الوقت الذى حاول فيه بعض سكان الجنوب فى الظروف الصعبة التالية للحرب أن يحموا أنفسهم بإظهار هويتهم الشيعية ، فإن بعض العناصر فى إيران لم تلبث أن تقدمت للساحة ، فإذا ألوف من حراس الثورة الإيرانيين يدخلون بسلاحهم إلى مناطق جنوب العراق ، وإذا الفتنة تتحرك .

ولم يكن حراس الثورة الإيرانيون هم فقط الذين دخلوا بسلاحهم وبالآلاف كل يوم لتحريك الفتنة ، وإنما تحركت أيضا جيوب للفتنة كانت نائمة . فقد كان الشاه « محمد رضا بهلوى » فى أيام تربعه على عرش الطاووس فى طهران يتحرك بمطامحه فى جنوب العراق ، وهدفه على الأرجح هو تخفيف الضغط عن مناطق خوزستان الإيرانية (وأصول سكانها فى غالبيتهم عربية) . وكانت حركة الشاه فى الجنوب العراقى مؤيدة ومعززة بنشاط سرى قامت به « الموساد » (المخابرات الإسرائيلية) بقصد إرباك حكومة بغداد ، ومنعها فى أى وقت من الاشتراك فى معركة قد تدخل فيها الدول العربية ضد إسرائيل(٢) .

وفى ظرف أيام كانت نيران الفتنة على أشدها . وراحت القوات الأمريكية فى المنطقة تتفرج على حركة عصيان واسع فى جنوب العراق ضد الحكومة المركزية فى بغداد ، وضد منشآتها ومؤسساتها . واستبيحت مخازن الجيش العراقى المدمرة ، ووقف الجنود الأمريكيون يراقبون ألوفا من الناس يقتحمون أطلال هذه المخازن ، وينهبون ما فيها من ذخائر ومؤن ، ويدخلون فى اشتباكات دموية مع جيش عائد مكسور القلب وثائر الأعصاب من معركة غير متكافئة .

□ □ □

وكانت مناطق الأكراد فى الشمال قصة أخرى أكثر تعقيدا ، ذلك أن الشعب الكردى بتوزعه الجغرافى فى جبال ما بين الأناضول وأفغانستان كانت له طموحات مشروعة ، لكنه كان يواجه عقبات لا حل لها . فوطنه المأمول (« كردستان ») مبعثر بين خمس دول (هى : تركيا ، والعراق ، وإيران ، وسوريا ، والاتحاد السوفيتى) ومعنى ذلك أن بروز أى مشروع قومى لهذا الشعب العريق كان لابد له أن يواجه خمس سيادات دولية مختلفة ، بينها واحدة من القوتين الأعظم فى ذلك الوقت . ونتيجة لهذا الوضع الدقيق فإن القيادات الكردية وجدت نفسها داخلة ـ أو لعلها متورطة ـ فى علاقات دولية تصورت أن تستعين بها ، فإذا هذه العلاقات الدولية هى التى تستغل الحركة الكردية وتتلاعب بآمالها فى سبيل تحقيق مصالحها هى . وقد كان شاه إيران مرة أخرى طرفا من الأطراف التى حاولت استغلال الحركة القومية الكردية فى صراعها ضد الحركة القومية العربية ـ وبالذات فى العراق .

وقد ترددت فى عديد من الأوقات روايات ملحة عن نشاط إسرائيلى يحاول بدوره

---

(٢) مذكرات ، دافيد كيمحى ، وكيل وزارة الخارجية الإسرائيلية بعنوان ، الخيار الأخير ، وقد نشرته دار ، وايدنفيلد ونيكلسون ، فى لندن سنة ١٩٩١ .

استغلال الحركة القومية الكردية لصالحه(٣) ، وكانت هناك معلومات يرويها عدد من قادة الأحزاب الكردية ذاتها . وكان الأمر فى هذه الروايات يتراوح بين تصديق وشك ونفى .

وتكشفت حقائق يصعب تجاهلها . فأخيرا سنة ١٩٩١ وعندما نشر « دافيد كيمحى » وكيل وزارة الخارجية الإسرائيلية مذكراته بعنوان « الخيار الأخير » ـ إذا به يعترف فى فصل كامل بأنه كان هو بنفسه مندوب « الموساد » (المخابرات الإسرائيلية) لدى « الملا مصطفى البرزانى » ، وأن إسرائيل أقامت جسر اتصال مع بعض قيادات الحركة الكردية في شمال العراق منذ سنة ١٩٦٥ ، وأنها ظلت تتعاون مع شاه إيران فى شمال العراق مع الأكراد ، وفى جنوب العراق مع بعض تنظيمات الشيعة ـ حتى سنة ١٩٧٩ .

وقد روى « دافيد كيمحى » فى مذكراته :(٤)

« لقد قررنا أن نعطى للأكراد كل المساعدات التى يحتاجونها ، وكنا ننسق فى ذلك مع شاه إيران الذى تعاونا معه أيضا فى الجنوب لأنه كان يخاف على مقاطعة خوزستان العربية فى جنوب إيران من الدعوة العراقية إلى عروبتها . فقد كانت سياستنا هى التعاون مع القوميات غير العربية فى الشرق الأوسط ، وبالتحديد مع تركيا ، وإيران ، واثيوبيا . كما كانت سياستنا أن نتعاون مع السنّة من غير العرب ، ومع الأقليات الشيعية فى المنطقة . وقد قدمنا إلى أكراد العراق أسلحة وذخائر ، ومدربين ووسائل اتصالات ، ومعدات طبية . »

ثم روى « دافيد كيمحى » أيضا (صفحة ١٩٠) أن « مناحم بيجين » رئيس وزراء إسرائيل تلقى سنة ١٩٨٠ تقريرا تفصيليا عما قدمته إسرائيل للحركة الكردية من مساعدات بالمال ، والأسلحة ، والمدربين . »

وهكذا فإنه فى الظروف الشاقة والمرهقة فى جنوب العراق وشماله بعد حرب الخليج كانت هناك الفوضى ، والجيوش الغازية ، والجيران المحليون يستغلون حالة التمزق فى العراق . وفوق ذلك وإضافة عليه كانت هناك : إسرائيل .

وفى حين كان الهدف الاستراتيجى الأمريكى مازال حتى هذه اللحظة يريد الإبقاء على وحدة العراق ، فإن استراتيجيات أخرى لم يكن لديها مانع من تمزيقه .

ومرة أخرى فإن النتائج التى أسفرت عنها الحرب ، والتى أغرت بعض عناصر

---

(٣) ناقشت « الملا مصطفى البرزانى » فى هذا الأمر أثناء لقاء معه سنة ١٩٧٥ فى طهران ، وكان يقيم بها لاجئا فى ذلك الوقت ، وكنت سمعت عن صلاته بالإسرائيليين من ابنه « عبيد الله » ـ ونفى لى « الملا مصطفى البرزانى » أى صلة بإسرائيل ، لكن المعلومات والوثائق التى ذاعت بعد ذلك كانت قاطعة !

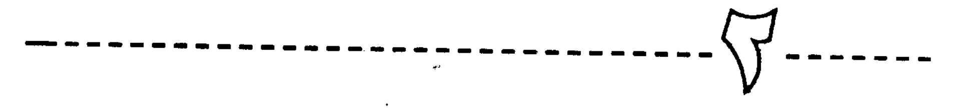
(٤) صفحة ١٨٩ إلى صفحة ٢٠٠ من كتاب « الخيار الأخير » لـ « دافيد كيمحى » .

الشيعة فى الجنوب ـ عادت فقامت بنفس الدور مع الأكراد فى الشمال ... ظروف الحرب وعناصر التدخل الخارجى أيضا .

وربما كان التدخل الخارجى التركى(٥) فى ذلك الوقت أظهر بكثير من التدخل الإسرائيلى فى تلك الساعات الحرجة .

ووجدت بغداد نفسها بعد كارثة القتال تواجه عصيانا فى الجنوب وعصيانا فى الشمال ، وأصبح الوضع بالغ الخطورة إلى حد أن الحكومة فقدت سيطرتها على محافظات العراق الثمانى عشرة باستثناء ثلاث محافظات هى : بغداد ، والانبار ، والموصل ، ولكن الحكم فى بغداد كان مصمما على استعادة السيطرة الكاملة على الوضع ، معتبرا أن تلك وسيلته الوحيدة لحصر آثار الكارثة التى أطبقت على العراق .

وكانت وسائل الإعلام الأمريكية ماضية فى عملية « دفع الشعب العراقى لأداء دوره » غير واعية أن الميزان الدقيق لتركيبة العراق يتأرجح بشدة ، ويوشك على أن ينفك وتنفلت حركته .



بسبب تعدد الأطراف وتباين المقاصد ، كانت التوجهات السياسية لا تستقر على حال فوق أرضية هى بتاريخها متفجرة ، وهى بواقعها بعد الحرب أكثر استعدادا للحريق .

وكانت أولى النتائج التى برزت بعد العصيان الذى اتخذ لنفسه وجها شيعيا فى جنوب

---

(٥) كان الدور التركى الرسمى فى شئون الشرق الأوسط باستمرار دورا مرتبكا وحائرا ، فقد كانت محاولة « أتاتورك » من الأساس قائمة على نسيان الجغرافيا والتاريخ ، وسلخ تركيا من موقعها فيهما معا وإلحاقها بأوروبا بصرف النظر عن كل المواريث ، بما فى ذلك الدين نفسه .

وكانت سياسة تركيا تعتزل شئون الشرق الأوسط مرات ، ثم تعود إليه مرغمة بحقائق الاشياء ، أو ربما برغبتها فى أن تثبت فائدتها للسياسة الأمريكية وتزكى نفسها لعضوية السوق الأوروبية ـ إلى جانب أن مغانم البترول العربى كانت دائما عنصر غواية يصعب عليها مقاومته .

ومن المفارقات أن الشعب التركى كان دائما أصدق تعبيرا من حكوماته المتعاقبة ، ولقد ظل ثابتا فى ولاءاته رغم التقلبات السياسية لحكوماته .

العراق ـ هى ظهور حكومة مؤقتة شيعية الهوية مقرها فى طهران ، ويتصدر صفوفها السيد « محمد باقر الحكيم » .

وفوجئت المملكة العربية السعودية بأن الحكومة المؤقتة التى أعدتها للعراق والتى حرصت على طابعها السنى ، تكاد تفقد وظيفتها قبل أن تعلن عن وجودها . فبينما هذه الحكومة لا تزال موجودة فى ظلال الرياض تنتظر ـ إذا بحكومة منافسة تجد لها أرضية على الميدان وسط عملية غليان تكاد أن تتخذ شكل الثورة ، مما يعطي لهذه الحكومة المنافسة نوعا من مشروعية الأمر الواقع . وكانت المفاجأة قاسية بالنسبة للمملكة العربية السعودية التى تتوجس دائما مما تتصوره خطرا شيعيا يؤرق أحلامها ويثير شكوكها .

إن شيعة العالم العربى ، وهم يتمركزون بالدرجة الأولى فى شريط يمتد من جنوب العراق إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ـ قاموا بأدوار بارزة فى تاريخ الحركة القومية العربية ، لكن بعض المؤسسات الرسمية للفكر السنّى لم تستطع فى كثير من الأحيان تقدير هذا الدور ، وقد راحت هذه المؤسسات تخلط مرات كثيرة مفترضة وجود خلافات أعمق بين المذاهب الإسلامية . وبدلا من أن تحاول مؤسسات السنّة الواثقة من نفسها بحكم أغلبيتها الساحقة فى العالم العربى ـ تقريب الخلافات بين المذاهب ، فإنها ـ واعية أو غير واعية ـ راحت تزيد الفجوة غير مدركة أنها بذلك تفتح ثغرات لا داعى لها فى الجسم العربى .

كانت بعض قيادات السنّة تبالغ فى الخلاف بين المذاهب ، وتضع على حساب مجمل التراث الشيعى شوائب لحقت بأطرافه (وهو أمر طبيعى فى كل مذهب دينى) ، ثم إنها بطريقة عشوائية أضافت الشيعة على حسابات الخلاف العربى ـ الفارسى ، وعلى النزاع التاريخى بين الخلافة العثمانية(٦) وبين ممالك الصفويين والكاجار ، وعلى التناقضات التى جرت بين الدولة القومية العربية وبين الدولة الإيرانية تحت حكم أسرة « بهلوى » ـ إلى جانب أن مواريث الفتنة الكبرى فى صدر الإسلام كانت لا تزال حية فى مخطوطات قديمة لا تزال تقرأ وتدرس فى بعض مدارس الفقه السنّى .

وكانت هذه التعقيدات بين السنّة والشيعة أكثر ما تكون فى شبه الجزيرة العربية وشواطئها المطلة على الخليج ، وضاعف من أثر ذلك أن هذه المناطق بالذات أصبحت هى نفسها مناطق تدفق البترول . وقد كان الملك « فيصل » ـ يرحمه الله ـ لا يخفى إعجابه

---

(٦) رغم أن الخلافة العثمانية كانت تمثل السنّة فى الإسلام ، فإنه لابد من التنبه إلى أن أكبر تجمع للعلويين ـ وهم من فروع الشيعة ـ موجود فى تركيا ، ففيها ما بين عشرة ملايين إلى اثنى عشر مليونا منهم ، يطلق عليهم ساسة أنقرة فى بعض الأحيان وصف « أتراك الجبال » !

بشاه إيران الأخير « محمد رضا بهلوى » ، لكنه فى كل مرة أبدى فيها إعجابه بالشاه لم ينس أن يضيف قوله : « لا عيب فيه ـ طال عمرك ـ إلا أنه شيعى » .

وفى مارس ١٩٩١ ـ وحكومة المملكة العربية السعودية لا تخفى سعادتها بما حدث للعراق ـ جاءت يقظتها المفزعة من هذه السعادة بمخاوفها من أن الشيعة على وشك الاستيلاء على السلطة فى العراق . وفوجىء الأمريكيون الذين كانوا يتابعون برضا ما يجرى فى جنوب العراق ـ بأن الذعر استولى على قلب الرياض التى راحت تلح وتحذر وتدق نواقيس الخطر معتبرة أن ما تصفه بالخطر الشيعى أصبح العدو رقم واحد ، وحتى قبل « صدام حسين » .

وكانت صيحة الخطر السعودية أنه إذا نجح الشيعة فى الجنوب واستولوا على بغداد ، أو إذا أقاموا دولة لهم فى الجنوب العراقى وحده ، فإن المد الشيعى من هناك سوف يصل إلى الكويت ، وإلى البحرين ، ويندفع إلى المقاطعات الشرقية للمملكة العربية السعودية ، وبالذات منطقة القطيف وعاصمتها الظهران ـ عاصمة البترول السعودى ـ وإذن فهى القارعة !

□

ومن الغريب أنه فى الشمال مع الأكراد جرى شىء مشابه . وكما كانت السعودية على نحو أو آخر تعتبر نفسها مسئولة فى الجنوب ، فإن تركيا كانت تعتبر نفسها مسئولة فى الشمال ، وكان اعتمادها بطبيعة الحال على الحركة الكردية . وما كادت أصوات المدافع تسكت بعد سريان وقف إطلاق النار ، حتى كان الرئيس التركى « تورجوت أوزال » يستقبل بنفسه قادة الحركة الكردية ـ وبينهم السيد « جلال الطالبانى » . وكان حديثه معهم غريبا ، فقد بدأ يقول لهم « إن فى عروقه دماء كردية ، فجدته مباشرة سيدة كردية وعلى حجرها تربى فى بيت تتردد فيه مفردات اللغة الكردية ، وأغانى الموسيقى الكردية ، وعلى مائدتها عرف أطباق المطبخ الكردى وأغرم بها » .

وانتقل « أوزال » من هذه الخلفية الكردية لتربيته إلى إبداء الاستعداد لتشجيع الحركة الكردية على أداء دورها المنتظر فى شمال العراق .

كانت الحركة الكردية ممثلة فى السيد « مسعود البرزانى » (زعيم الحزب الديمقراطى الكردستانى) ، وفى السيد « جلال الطالبانى » (زعيم الاتحاد الوطنى الكردستانى) ـ قد تعهدت للحكومة العراقية قبل الحرب أنها لن تستغل مصاعبها بسبب الظروف الطارئة رعاية لحق الوطن قبل حق أقلية قومية فيه . واطمئنانا إلى ذلك سحبت

الحكومة العراقية وحدات الجيش فى الشمال لتكون ضمن خطة المعركة بدلا من استبقائها حيث هى لتحافظ على الأمن .

وهكذا فإن شمال العراق كله كان خاليا من أية قوات عسكرية عراقية ، ولم تكن فيه إلا قوات البوليس العادية تؤدى وظيفتها ضمن جهاز الادارة المدنية ـ ومع الفرصة السانحة ، ومع تشجيع « تورجوت أوزال » ، ومع تحريض أمريكى سافر ـ تدفقت قوات « الباشمرجة » الكردية من معاقلها فى الجبال فى نفس الوقت الذى أحس فيه السكان فى المحافظات الشمالية فى العراق أن هناك فراغا فى السلطة ، وأن هناك حالة فوضى تسمح لكثيرين أن يتصرفوا كما شاءوا .

واختلطت جموع خارجة للعصيان فى المدن مع قوات « الباشمرجة » نازلة من الجبال ، وجرت صدامات مسلحة ، ووقعت أعمال سلب ونهب ، وسادت شمال العراق حالة من العصيان شبيهة بما حدث فى الجنوب .

٣

من وسط الدخان الكثيف للمعارك والذى كان مازال منعقدا بسحبه فوق جبهات القتال ـ برزت مفاجأة لم تكن متوقعة . فقد ظهر أن الجنرال « شوارتزكوبف » أخطأ فى حسابات الدمار الذى لحق بالقوات العراقية . ففى حين قدر الجنرال « شوارتزكوبف » أن الجيش العراقى لم يتبق منه غير فرقتين سليمتين تمكنتا من الإفلات على جسر جنوبى البصرة فى آخر لحظة ـ فإن الحقيقة كانت أن الجيش العراقى رغم الخسائر الفادحة التى لحقت به وبمعداته الثقيلة ، تمكن من الخروج من المعركة ولديه ما بين عشرين وخمس وعشرين فرقة (من أصل ٥٥ فرقة) تعززها ما بين ألف وخمسمائة إلى ألف وثمانمائة دبابة (من أصل ٤ آلاف دبابة) ـ وما بين ثلاثة آلاف وثلاثة آلاف وخمسمائة مدرعة (من أصل ٧ آلاف مدرعة) ـ ثم تبين أن عددا من هذه الفرق ، وبينها ست فرق من الحرس الجمهورى ، كانت بعيدة عن ميدان القتال ، ولا تزال محتفظة بقدراتها القتالية والمعنوية .

وكانت بغداد قد اعتبرت أن استعادة السيطرة على الجنوب والشمال ـ بعد أن أفلتت الأوضاع فى كليهما ـ هو الامتحان الذى يتعين عليها أن تدخله لحصر آثار كارثة الحرب .

وبدأت فرق من الجيش العراقى تزحف فى اتجاه الجنوب ، وفرق أخرى تزحف فى اتجاه الشمال .

وفى الجنوب مرت أسابيع حرجة ، وجرت معارك دموية لم تسلم العتبات المقدسة للشيعة فى النجف وكربلاء من آثارها . ثم استطاع الجيش العراقى أن يستعيد السيطرة على الجنوب .

وأما فى الشمال فقد تعقد الوضع بعض الشيء ، ذلك أنه حين بدأ الجيش العراقى زحفه إلى المحافظات الكردية - كانت حركته مفاجئة لغالبية الناس ، وسرت إشاعات بأن الجيش العراقى قادم بأسلحته الكيماوية وأنه لن يتردد فى استعمالها لاستعادة السيطرة فى المناطق الكردية . وإذا جموع كثيفة من الأكراد يتركون مدنهم وقراهم ويتجهون إلى الشمال كتلا بمئات الألوف (قدرتها الحكومة العراقية بـ ٣٠٠ ألف ، وقدرتها الأمم المتحدة بستمائة ألف) . وفوجئت الحكومة التركية بطوفان من البشر قادم يخترق حدودها باحثا عن الأمان هناك فى حماية الصديق التركى الذى شجع ، ووراءه الصديق الأمريكى الذى حرض .

ولكن الحكومة التركية أقامت متاريسها ورفعت أسوارها لكى تصد الطوفان البشرى القادم ، وقد صدته بالفعل ، وبقسوة وعنف شديدين .

وفى هذه الفترة بدا كما لو أن حكومات الغرب ووسائل الإعلام الغربية - اكتشفت القضية الكردية لأول مرة ، فإذا حملات دعاية واسعة ، وإذا تبرعات تجمع ، وإذا قضية حقوق إنسان تهتز لها الضمائر فى واشنطن ولندن وباريس . وتحت ضغوط إعلامية وشعبية نتجت عن هذه الحملة - تقدم « جون ميجور » رئيس وزراء بريطانيا باقتراح يقضى بقيام قوات بريطانية وأمريكية باحتلال أجزاء من شمال العراق تخصص كمستوطنات للنازحين من الأكراد . ودخل « جورج بوش » فى اعقاب « جون ميجور » يقول إنه « لا يستطيع أن يترك مصير الأكراد تحت رحمة « صدام حسين » . »

وبدأ عدد من الدول الأوروبية يلفت النظر إلى أن ما يجرى فى شمال العراق لا معنى له ، وكل ما يمكن أن يترتب عليه خلق قضية لاجئين أخرى تتحول إلى عبء على المجتمع الدولى بمثل ما حدث للاجئين الفلسطينيين ، وأن الأولى من ذلك هو تهدئة الأوضاع بما يسمح للنازحين الأكراد أن يعودوا بهدوء إلى مدنهم وقراهم فى شمال العراق ليستأنفوا وأسرهم حياتهم العادية حيث كانوا قبل أن يبدأ النزوح الجماعى المفزوع .

ووجدت مشكلة إضافية زادت من تعقيد الأحوال . ذلك أن الطوفان الكردى الذى تدفق من العراق فى اتجاه تركيا ، والإجراءات التى اتخذتها الحكومة التركية للتصدى له ، ثم الحيرة التى بدت على المجتمع الدولى فى أسلوب علاج المشكلة - ما لبث كله أن أيقظ

المشاعر الكامنة فى أكراد تركيا . فإذا بحركة حزب العمال الكردى وغيرها من الحركات الكردية فى المنطقة تخرج بنشاطها السياسى إلى العلن ، وإذا هى فى صدام مع قوات الجيش التركى ، وإذا بالطيران التركى يطاردها حتى فى مخابىء كانت قد وجدتها لنفسها فى الجبال الواقعة داخل العراق .

ووجد الأكراد أنفسهم مرة أخرى ، وكما حدث لهم فى تاريخهم المأساوى الطويل ، واقعين بين نيران متقاطعة تصيبهم فى أى موقع يضعون أنفسهم فيه ، وآثر كثيرون منهم أن يحملوا أمتعتهم على ظهورهم وأن يستديروا عائدين إلى مدنهم وقراهم القديمة فى شمال العراق .

وهكذا جرى إخماد نار الانفجار فى شمال العراق بنفس الطريقة تقريبا التى جرى بها إخمادها في جنوب العراق .

ويوم ٧ مايو كانت كل قوات التحالف (الأمريكية والبريطانية) ـ قد انسحبت من العراق تاركة كل من فيه لمقاديره .

□

ولقد راجت بعد ذلك تكهنات تقول إن الأمريكيين تركوا عن قصد للعراق قوة عسكرية يستطيع أن يحافظ بها على تماسكه . ولكن الوقائع والوثائق تشير إلى أن بقاء هذا الحجم من القوة للجيش العراقى حدث بالرغم من السياسة الأمريكية وليس نتيجة لها . فالجنرال « شوارتزكوبف » كان قاطعا فى حديثه مع الرئيس « بوش » ، وفى التقرير الرسمى الأولى الذى قدمه لوزير الدفاع الأمريكى عن عمليات « عاصفة الصحراء » ـ بأن ما تبقى من الجيش العراقى لا يزيد عن فرقتين أو ثلاث فرق نصف متماسكة ، وأن تظهر بعد ذلك قرابة عشرين فرقة فمعناه أن القيادة الأمريكية أخطأت فى حساباتها بشكل ما ، أو تسرعت فى تقديراتها عن الخسائر العراقية ، وأخذها شكل ميدان القتال المزدحم بالفوضى ، فلم تستطع أن تمد بصرها إلى ما وراءه .

ولقد ساعدت بعض دول الخليج على الترويج لهذه التكهنات عن النوايا الأمريكية ، وقال بعض المسئولين فيها إن « الأمريكان تركوا للعراق قوة كافية قادرة على تهديد أمن نظم الخليج دون أن تكون قادرة فى نفس الوقت على تهديد المصالح الأمريكية فيه » ، والدافع وراء ذلك أن تظل هذه الدول فى حاجة إلى الحماية الأمريكية لا تستغنى عنها .

ولقد كان أحد أفراد الأسرة الحاكمة فى الكويت قاسيا فى تعبير استعمله مع وزير الدفاع الأمريكى « ريتشارد تشينى » حين قال له : « إنكم قطعتم ذيل الأفعى ، ولكن الأفعى لا تموت بقطع ذيلها وإنما بقطع رأسها » .

كما أن أحد أعضاء مجلس الوزراء الكويتى لم يتردد فى أن يقول لوزير الخارجية الأمريكى « جيمس بيكر » :

« إن صاحب السمو (يقصد الأمير) مازال غير مطمئن ، ولن يطمئن فى ظل الأحوال الراهنة .

إنكم أعطيتموه « مخدة » أمريكية مريحة ينام عليها ، ولكنكم تركتم له كوابيس عراقية تزعج نومته !! »

ويمكن الآن أن يقال إن قيادة الجنرال « شوارتزكوبف » ، والرئيس الأمريكى « جورج بوش » وراءها ـ وقعوا جميعا فى أربعة أخطاء متصلة ببعضها فى حساباتهم لمدى الدمار الذى لحق بالقوة العسكرية العراقية :

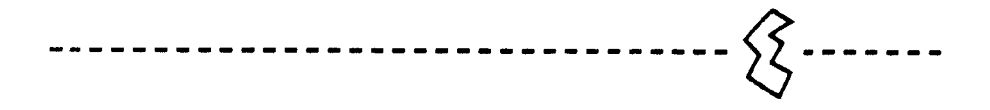
١ ـ بالغت قيادة الجنرال « شوارتزكوبف » فى حجم القوات التى خصصتها القيادة العراقية للدفاع عن الكويت نفسها ، فقد حسبت كل التحركات القاصدة إلى جنوب العراق على أنها فى إطار مهمة الدفاع عن الكويت ـ والذى ظهر بعد ذلك هو أن القيادة العراقية احتفظت فى المنطقة الجنوبية الوسطى بحوالى اثنتى عشرة فرقة كانت مهمتها الدفاع عن بغداد ، وليس الدفاع عن الكويت ، فى حالة ما إذا تمكنت القوات الأمريكية من اختراق الجبهة والتقدم إلى العاصمة .

٢ ـ إن قيادة الجنرال « شوارتزكوبف » لم تتنبه إلى أن العراق فى الأيام السابقة للحرب مباشرة خفف قواته من الكويت مخافة تطويقها هناك مع مسار العمليات ، وإزاء تفوق ساحق لقوة نيران التحالف .

٣ ـ إن قيادة الجنرال « شوارتزكوبف » إلى جانب ذلك توقعت أن تنفك فرق عراقية بأكملها نتيجة لتأثيرات النداء الشيعى بعد انهيار الجبهة ، وبعد ظهور وتصاعد حركة العصيان فى الجنوب . وكان تقدير هذه القيادة أن الجنود الشيعة ، ومنهم تتكون غالبية الجيش العراقى ، سوف يؤثرون الفرار على أى أوامر تصدر إليهم بمقاتلة إخوتهم من الشيعة . ولقد حدثت بعض التوترات فعلا ، فإن منطقة البصرة من أيام الحرب العراقية الإيرانية شهدت مأساة شيعة يتقاتلون مع شيعة ، ثم جاءت ضغوط الحرب وما بعدها ، وكان يمكن أن تتفاعل المشاعر المكبوتة وينجم عن تفاعلها انفجار خطير ـ لكن العامل الوطنى تغلب فى النهاية على العامل الطائفى كما حدث وقت الحرب مع إيران ـ إلى جانب قدر من استعمال القوة بالطبع مما ساعد على عودة التماسك ، خصوصا عندما بدا أن النظام فى بغداد قادر على أن يخوض معركة بقائه .

٤ ـ إن قيادة الجنرال « شوارتزكوبف » أثناء اتفاقها النهائى لترتيبات وقف إطلاق

النار مع وفد عسكرى عراقى ، سمحت للطيران العراقى أن يستعمل طائرات الهليكوبتر ، وإن كانت قد أصرت على منع استعمال « الأجنحة الثابتة » ـ أى الطائرات العادية . واستطاعت الطائرات الهليكوبتر فى وسط حالة شديدة من الفوضى على الأرض أن تحقق نوعا من الاتصال المستمر والدائم بين أطراف الدولة العراقية ، ولقد ساعد ذلك بسرعة على ضبط الأمور بما في ذلك تحقيق السيطرة على وحدات الجيش العراقى ، سواء تلك المنسحبة من الجنوب ، أو المتمركزة فى المنطقة الوسطى .



ولقد وجد الرئيس « جورج بوش » نفسه بعد انتهاء المعارك أمام حالتين فى العراق :

● العراق الدولة لم ينفرط عقده ، وإنما بقى جهاز الدولة ، كما بقيت له كفاية من قوة يستطيع أن يمارس بها سلطته . ولم يكن الرئيس « بوش » يمانع فى ذلك كثيرا .

● ومن ناحية أخرى ، فإن الرئيس « صدام حسين » خرج من عاصفة النار وهو مازال على رأس السلطة فى العراق ، بل إنه نتيجة لتماسك الدولة وتنامى قدرتها على السيطرة ـ استطاع تدعيم سلطته بسرعة (وهذا ما لم يكن « بوش » يريده) .

ولم يكن فى مقدور الرئيس « بوش » أن يقنع العالم بأنه سيعود إلى ميدان القتال لمجرد الخلاص من شخص الرئيس « صدام حسين » رغم أن ذلك كان من بين أول أهدافه . ولقد اقتنع بأن الأيام كفيلة بأن تحقق له ما يريد شريطة أن يواصل تشديد الضغط على العراق ـ وهذا ما راح يفعله بوسيلتين :

● الأولى : تشديد الحصار الاقتصادى على العراق .
● والثانية : تدمير امكانياته العسكرية الباقية ، وبأسلوب قصد أن يكون مستفزا .

□

كان العراق قد خرج من الحرب فى حالة اقتصادية صعبة .

ولم تكن الحرب قد أصابت البنية الأساسية للعراق فحسب ، وإنما وصل تأثيرها إلى احتياجات الغذاء والدواء وقطع الغيار وغيرها من الاحتياجات الحيوية للناس . وربما كان

العراق يتوقع رفع العقوبات الاقتصادية عنه ما دامت أغراض التحالف قد تحققت ، وأولها انسحابه من الكويت ، وتقليص قواته العسكرية .

وقد رحبت بغداد بكل البعثات الدولية التى جاءت تتقصى أحوال البلد وأحوال أهله ، وكان الظن أن تقارير هذه البعثات سوف تكون مؤثرة على ضمير العالم بما يجعل رفع العقوبات عنه ممكنا حتى يستطيع تصدير بتروله واستيراد احتياجاته ـ لكن الولايات المتحدة وقفت بالمرصاد .

ولقد قدمت بعثة الأمم المتحدة التى رأسها الأمير « صدر الدين أغاخان » تقريرا إلى السكرتير العام للأمم المتحدة فى ١٧ يوليو ١٩٩١ ، رسمت فيه صورة إنسانية مؤثرة لما يواجهه الشعب العراقى . ومع ذلك فإن كل ما أمكن لمجلس الأمن أن يفعله هو أن يصرح للعراق ببيع بترول تصل قيمته إلى قرابة ٢ بليون دولار . ثم ألحقت بذلك شروط وجدها العراق مستحيلة بالنسبة له . فقد كان قرار مجلس الأمن ينص على « الاحتفاظ بجزء من مبيعات البترول العراقى لصالح التعويض عن أضرار الحرب » .

كما أن مجلس الأمن قرر أيضا أن يكون شراء احتياجات العراق بمعرفة الأمم المتحدة ، وأن يكون توزيع ما يشتريه من احتياجات أهله خاضعا لإشرافها أيضا .

وفيما يتعلق بالتعويضات فإن العراق كان على استعداد للقبول بمبدأ التعويض ، ولكنه اقترح ترتيبات أخرى يسمح له بمقتضاها أن يصدر بتروله لخمس سنوات ـ قدر دخله خلالها بـ ٢١٤ بليون دولار ـ وبذلك فإنه يتمكن من تلبية احتياجات مواطنيه الأساسية ودفع ديونه . ثم يكون فى وسعه بعد ذلك تسديد التعويضات على دفعات أكبر فى ظروف أفضل . ولم يقبل مجلس الأمن حتى بمناقشة هذا الاقتراح .

□

وكانت الوسيلة الثانية للضغط على العراق ، هى تدمير ما بقى من امكانياته العسكرية غير التقليدية وبطريقة مستفزة .

كانت الولايات المتحدة وبريطانيا هما اللتان أخذتا على نفسيهما هذه المهمة مباشرة ، وإن حاولتا لبعض الوقت أن تتخفيا وراء مجلس الأمن .

وكانت البداية قرار من مجلس الأمن بتاريخ ١٨ ابريل يطلب من العراق تقديم تقرير بمعلومات كاملة عن امكانياته الكيماوية والصاروخية ، مع بيان مواقعها وحالتها الراهنة . واستجاب العراق وقدم القائمة المطلوبة منه ، وكانت كما يلى :

□ **مختبرات بحث وتطوير** : خمسة مواقع يشمل كل موقع فيها خمسة معامل ، وقد جرى تدميرها أثناء الحرب .
□ **مصنع لانتاج مادة الزارين** : وقد دمر أثناء الحرب .
□ **مصنع لانتاج غاز الخردل** : وقد دمر أثناء الحرب .
□ **موقع لانتاج غاز التابون** : وقد دمر أثناء الحرب .
□ **موقع لانتاج المواد الوسيطة يضم أربعة مصانع** : وقد دمر أثناء الحرب .
□ **مصنع ملء قذائف مدفعية** ـ وهاون ـ وطائرات ـ وصواريخ ـ وهو يضم خمسة مصانع : وقد دمرت جميعا أثناء الحرب .
□ **رؤوس صواريخ حربية** عيار ١٢٢ ملليمترا معبأة بغاز الزارين وعددها ٦٦٢٠ رأس صاروخى ـ وكذلك صواريخ من طراز « صقر ـ ٣٠ » وعددها ٢٥٠٠ ، وهى معبأة بغاز الزارين : وجميعها تحت الانقاض فى مخزن مدمر .
□ **قنابل طائرات** من طراز « د . ب ـ ٢ » وهى معبأة بغاز الزارين وعددها ٦٠٠ : وهى موجودة تحت الأنقاض فى مخزن مدمر .
□ **مخزونات من غاز الزارين** حجمها ٢٥ طنا ـ ومواد وسيطة لإعداد غاز التابون تركيبة « ب . و . س . ب ـ ٣ » حجمها ٥٠٠ طن ـ وكمية من غاز الخردل مصنعة تصنيعا نهائيا وحجمها ٢٨٠ طنا .

كانت هذه قائمة أولى ، ثم تعرضت قائمة ثانية لتوزيع الأسلحة الكيماوية الموجودة فى قواعد العمليات ، وكانت على النحو التالى :

□ ٣٣٦ قنبلة غازات مزدوج من منتج الزارين معبأة فى قنابل للطائرات : موجودة فى قاعدة « الوليد » الجوية .
□ ١٤٠ قنبلة طائرات عيار ٢٥٠ معبأة بغاز الخردل : موزعة على قواعد صدام ـ تموز ـ القادسية ـ البكر ـ مطار الثور .
□ ١٠٥ قنابل مدفعية عيار ١٥٥ ملليمترا معبأة بغاز الخردل : موجودة فى ميدان التدريب على الأسلحة الكيماوية بمنطقة الفالوجا .

ثم لحقت بذلك قائمة ثالثة عن الصواريخ ، وكانت تضم ٢٠١ صاروخ من طراز « سكود » و « الحسين » و« الوليد » .

ومع أن القوائم الثلاث كانت تشتمل على ترسانة كيماوية وصاروخية ضخمة ـ إلا أن الولايات المتحدة وبريطانيا لم تقتنعا بأن هذا هو كل شيء لدى العراق . وقرر مجلس الأمن إرسال بعثات تقوم بالتفتيش على المواقع العراقية التى تختارها ، وكانت طائرات الاستكشاف الأمريكية قد وضعت صورة جوية كاملة ومفصلة للعراق .

وأعلن الرئيس « جورج بوش » أنه إذا لم تتمكن بعثات التفتيش على الأسلحة من الذهاب إلى أى موقع تختار الذهاب إليه ، فإنه سوف يأمر الطيران الأمريكى بمعاودة قصف العراق .

□

ويوم ١٤ مايو ١٩٩١ وصلت إلى العراق أولى بعثات التفتيش عن ترسانته الكيماوية ، وكانت تضم حوالى الستين خبيرا وفنيا .

كان مجلس الأمن قد طلب إلى البعثة أن تنفذ برنامجا لتدمير ترسانة العراق من الأسلحة الكيماوية فى مدة ٤٥ يوما ، ولكن البعثة التى ذهبت للعراق عادت لتقول إنها بما عرفته ، وما تبحث عنه من امكانيات العراق الكيماوية ـ تحتاج إلى سنتين كاملتين لتنفيذ مهمتها .

ويوم ٢٢ يونيو وصلت إلى العراق بعثة أخرى مكونة من ١٦ خبيرا وفنيا مهمتها البحث عن الامكانيات النووية فيه . وطافت البعثة بعدد من المواقع ، ثم طلبت تعزيزها بعدد آخر من المتخصصين . ولحق بها يوم ٣ يوليو عدد آخر من الخبراء والفنيين زادوا عن العشرين .

وفى نفس الوقت تقريبا كانت هناك بعثة من ٤٧ خبيرا وفنيا تتولى مهمة تدمير قواعد الصواريخ .

وبشكل ما فإن فرق البحث عن الترسانة الكيماوية العراقية كانت قادرة على أن تشق طريقها إلى مهمتها ـ وكذلك كان الحال بالنسبة لفرق البحث عن الصواريخ . وأما فرقة البحث عن الأسلحة النووية ، فقد راحت تتخبط فى الظلام . فقد أحست أن العراق يتعمد أن يخفى عنها أسرارا يحاول باستماتة أن يمحو أى أثر لها ، آملا لو استطاع أن ينفذ بها من وسط أطلال الحرب وركامها .

ولم تستطع مجموعة البحث عن الامكانيات النووية للعراق أن تحصل على شىء له قيمة خلال زيارتها الأولى . فلقد فتحت لها الأبواب كى تفتش على مفاعل صغير وعدد من المعامل لا توحى معداتها بشىء قاطع . وكانت البعثة تعرف أن هناك ما بين ٢٠ إلى ٣٠ كيلوجراما من « اليورانيوم ٢٣٥ » المخصب تم إنقاذها والمحافظة عليها بعد الغارة الإسرائيلية التى دمرت المفاعل العراقى « أوزيراك » سنة ١٩٨١ . ولم يكن هناك أثر لهذه الكمية من اليورانيوم .

وبدا سر العراق النووى مغلقا على الأقل فى الوقت الراهن .

وفجأة وقع ما لم يكن ينتظره أحد . فبين مئات ألوف النازحين إلى الشمال فى اتجاه الحدود التركية ، برز رجل فى حوالى الأربعين من عمره ـ من وسط الزحام ـ وطلب أن يقابل ضابط أمن مسئولا من القوات البريطانية أو الأمريكية .

وفى ذلك الوقت كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية قد أنشأت لنفسها مكتبا يتولى منه بعض ضباطها مهمة استجواب اللاجئين الأكراد النازحين إلى تركيا ـ لكى يحصلوا منهم على أى كم من المعلومات يمكنهم الحصول عليه عن الأحوال داخل العراق بعد الحرب ، بما فى ذلك آراء عامة الناس من المواطنين العراقيين .

وما هى إلا دقائق حتى كان الرجل الخارج من وسط زحام النازحين إلى الشمال وجها لوجه مع ضابط مخابرات أمريكى . وبعد حديث لمدة ربع ساعة عرف الضابط الأمريكى أنه حصل على جائزة قيمة ، فقد قال له الرجل الخارج من الزحام إنه عالم عراقى يعمل فى مؤسسة الطاقة النووية ، وعلى صلة بالبرنامج النووى العراقى ، وقد استطاع إثبات شخصيته وطبيعة عمله من أوراق كانت معه . وأضاف أنه على استعداد لأن يقول ما عنده فى مقابل أن يسمح له ولزوجته وأولاده بالهجرة إلى الولايات المتحدة .

ومساء نفس اليوم وصل إلى موقع الحدود خبير أمريكى متخصص ، وأعاد عليه الرجل الخارج من الزحام قصته ، وكان واضحا من تفاصيلها أنه يعرف ما يتحدث عنه . وصباح اليوم التالى كانت إحدى الطائرات الأمريكية تنقل العالم العراقى وأسرته من قاعدة « انسرليك » فى الأناضول متوجهة رأسا إلى مطار واشنطن حيث نقل الرجل الخارج من الزحام إلى مقر وكالة المخابرات المركزية فى « لانجيلى » ، وعلى مدى ثلاثة أيام راح يتحدث بالتفصيل عما يعرف ، وراح يجيب عن مئات من الأسئلة التى وجهها إليه الفريق الفنى الذى تولى استجوابه .

□

ويوم ٢٠ سبتمبر وصلت بعثة أخرى تمثل الأمم المتحدة إلى العراق . وكان يرأسها أمريكى هو « دافيد كاى » . وكانت هذه البعثة ، خلافا لبعثات أخرى سبقتها ، تعرف ما تريد . كان عدد أفرادها من الخبراء والفنيين قرابة ستين رجلا . ولم يكن هناك ما يميزهم عن بعثات أخرى سبقتهم فى مهام مماثلة إلى العراق . وكان فى انتظار البعثة حينما نزلت فى مطار بغداد مجموعة ضباط اتصال عراقيين لديهم الأوامر بمرافقتها إلى حيث تريد ، وتسهيل مهمتها طبقا لقرار مجلس الأمن .

وصباح يوم ٢٢ سبتمبر نزلت البعثة إلى سياراتها ، وراح رئيسها « دافيد كاى »

يطلب المرور ببعض شوارع بغداد ، ثم طلب إيقاف قافلة سياراته - هو ومساعدوه - أمام مبنى كبير هو مبنى وزارة العمل العراقية .

وكان الضباط العراقيون فى دهشة مما تريده بعثة التفتيش فى وزارة العمل . وأما « دافيد كاى » فكان يعرف أين يقصد بالضبط . فقد شق طريقه ووراءه مساعدوه إلى غرفة دخلها مليئة بالدواليب الحديدية ، **وبدأ التفتيش . ثم إذا هو يمسك بمجموعة من الملفات يتضح أنها ملفات التأمينات الاجتماعية للعاملين فى مؤسسة الطاقة النووية العراقية : أسماؤهم - عناوينهم - تخصصاتهم - أحوالهم الاجتماعية - مواقع عملهم - البعثات الدراسية والتدريبية التى ذهبوا إليها وشاركوا فيها - مرتباتهم - سفرياتهم ... إلى آخره .**

واكتشف العراقيون أن جزءا من الأسرار التى كانوا يحرصون عليها قد انكشف . ولم يكونوا على استعداد للتسليم بسهولة ، وفى نفس الوقت فإن « دافيد كاى » لم يكن على استعداد للتراجع . ونشبت أزمة من نوع قابل للالتهاب بين فريق تفتيش تابع للأمم المتحدة ، وبين السلطات العراقية التى اعتبرت أن الخطر يتعدى كشف تفاصيل عن أسرار نووية - ليصبح انكشافا لشخصيات العلماء فى مشروعه النووى ، وذلك لا يمكن أن يكون له إلا معنى واحد وهو أن هؤلاء العلماء سوف يصبحون من الآن فصاعدا هدفا مستباحا أمام قوى معادية للعراق تتخلص منهم ولو بالقتل .

وفى الوقت الذى كانت فيه البعثة تريد أن تخرج من وزارة العمل العراقية بما تحمله من ملفات - جاء الأمر بعدم السماح لأفرادها بمغادرة المبنى ، وكانوا قد وصلوا إلى فنائه وقاربوا سياراتهم الرسمية . ولم يسمح لسيارات البعثة بالخروج . ورفض أعضاؤها أن يتخلوا عما يحملونه حتى وإن بقوا إلى الأبد حيث هم . وثارت ضجة فى العالم كله لأن « دافيد كاى » ورجاله يمسكون بالملفات التى حصلوا عليها - وقوة أمن عراقية تمنعهم من الخروج ، ولكنها لا تتعرض لهم بالقوة خشية العواقب التى يمكن أن تترتب على ذلك .

وكان اللافت للنظر أن « دافيد كاى » فى مساء أول يوم من أيام الأزمة فتح جهاز اتصال بالأقمار الصناعية مع واشنطن ، وليس مع نيويورك حيث مقر الأمم المتحدة ، ثم راح يملى البيانات التى تحتويها الملفات .

وقالت السلطات العراقية إن « دافيد كاى » اتصل فى واشنطن بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية . ولم ينكر « دافيد كاى » أنه اتصل بواشنطن ، ولكنه قال إنه لم يتصل بوكالة المخابرات المركزية ، وإنما اتصل بوزارة الخارجية الأمريكية لأنه قدر أهمية المعلومات التى أمسك بها فى يديه ، وكان يريد توصيلها إلى أى جهة فى الولايات المتحدة .

ولأنه كان يعرف أن الأمم المتحدة لا تعمل بعد الظهر ، وأنه لن يجد فيها مسئولا أو جهازا يستطيع أن يتلقى منه ما لديه ـ فإنه آثر اختصار الطريق والاتصال مباشرة بوزارة الخارجية حيث كان واثقا أنه سيجد من يتلقى منه .

وقد اعتذرت الأمم المتحدة فى اليوم التالى قائلة إن رئيس بعثتها فى بغداد « دافيد كاى » تعدى اختصاصاته بالاتصال مباشرة بوزارة الخارجية الأمريكية فى حين أنه كان يتحتم عليه أن يقصر اتصاله على الأمم المتحدة فى نيويورك . ولم يغير اعتذار الأمم المتحدة من الحقيقة فى شىء . والواقع أن الفواصل كانت قد تلاشت فى ذلك الوقت بين الأمم المتحدة ، والولايات المتحدة .



كانت الولايات المتحدة الأمريكية بعد نزع فتيل ـ أو فتائل ـ الانفجار فى الخليج ، تحاول الآن شيئا أكثر طموحا من تحرير الكويت وتدمير العراق ، وقد وجدت الفرصة مواتية لها بالكامل لتعيد ترتيب المنطقة على هوى مصالحها . ولقد كان واضحا للولايات المتحدة أن الصراع العربى الإسرائيلى هو مصدر معظم القلاقل التى عرقلت خططها طوال القرن العشرين ـ الذى كان قرنا أمريكيا ـ بتروليا .

وهكذا تحددت الأولويات :

- خريطة سياسية جديدة للمنطقة ـ موطن البترول والثروة وقلب العالم لا يزال .
- وتسوية نهائية ومعتمدة للصراع العربى الإسرائيلى ، وهو العقبة الرئيسية وبؤرة القلاقل لا يزال .

وإذا كان لا بد ـ من وجهة نظر مصالحها ودورها العالمى ـ أن يكون القرن الواحد والعشرين قرنا أمريكيا ـ أى قرنا بتروليا هو الآخر ـ فإن الشرق الأوسط الذى يعتمد اقتصادها ورخاؤها على بتروله ـ يجب أن يسكن ويهدأ .

ومع مجمل التطورات التى طرأت وتداعت من ٢ أغسطس سنة ١٩٩٠ (حين وقع الغزو العراقى للكويت) ـ إلى ٢٨ فبراير (حين سرى وقف إطلاق النار فى حرب الخليج) ـ أصبح للولايات المتحدة حق أو سلطة رسم خريطة جديدة للمنطقة ، وكانت تلك

ضرورة حيوية ولو بتطويع عوامل الجغرافيا والتاريخ كما حدث فى سوابق أخرى عرفتها خرائط الدنيا وألوان هذه الخرائط .

وكانت أبرز ملامح خريطة الاستراتيجية العليا للولايات المتحدة فى المنطقة كما بانت أطرافها فى أعقاب الحرب ، تتصور الخطوط التالية :

● **كان الخط الأول يفرض نوعا من الفصل بين شواطىء الخليج حيث يوجد البترول وبين العمق العربى** وراءه فى وديان الهلال الخصيب ووادى النيل . أى إبعاد الكنز عن مواقع الكثافة السكانية العربية . ولما كان الكنز هناك بعيدا وراء الصحارى ، ومطلا على البحر بالجغرافيا ، ثم إنه بالواقع (الراهن) موجود بالفعل فى تنظيم إقليمى هو مجلس التعاون الخليجى ـ إذن فالفكرة ممكنة وتنفيذها متاح :

١ ـ تزداد دول مجموعة الخليج التصاقا ببعضها تحت قيادة المملكة العربية السعودية ، وتفرغ من تصفية حساباتها القبلية القديمة مع بعضها ، وتدرك بعد تجربة العراق فى الكويت أن أمنها ليس له غير ضمان واحد (هو القوة العسكرية الأمريكية) ـ وعليها أن تقبل بوجود هذه القوة بغير تلك الحساسيات التى داخلت هواجسها فى مرحلة سابقة .

٢ ـ ضرورة العدول عن أفكار متعجلة وغير ناضجة جرى طرحها على عجل فى أجواء المعركة ، وتجلت فيما أطلق عليه اتفاق دمشق ، والذى قضى بأن تتولى قوات مصرية سورية مهمة توفير نوع من الأمن القريب لدول البترول ، فهذا الأمن القريب غير مضمون لأن تكاليفه قد تتعرض لمزايدات غالية الثمن ، كما أن كفاءته موضع مساءلة ، ثم إنه قد يفتح الباب لدخول مشاكل مستجدة بدل أن يسد الباب أمام مشاكل أوشكت من نفسها أن تخرج .

ولقد أدت فكرة إعلان دمشق دورها فى وقتها ، ومن المستحسن الآن تركها تتوارى وتختفى .

٣ ـ إن دول الخليج ـ على حد تعبير استعمله وزير الدفاع الأمريكى « ريتشارد تشينى » ـ « تستطيع أن تصوغ علاقاتها من جديد على امتداد عمق العالم العربى وراءها » على نمط ما كان ، ولايزال حتى الآن بين « هونج كونج » ـ و « الصين » .

علاقة قريبة وبعيدة ، متصلة ومنفصلة ـ فى نفس الوقت .

وقد كان « ريتشارد تشينى » نفسه هو الذى تولى الإعداد لهذا الجانب من الخريطة الجديدة عن طريق اتفاقات عسكرية للأمن بدأت بالكويت ، ومنها إلى غيرها .

● **وأما الخط الثانى على الخريطة الجديدة ، فقد كان يعتمد فكرة ظهرت فى أوروبا**

الغربية ، والغريب أن الحزب الشيوعى الايطالي كان أول من سعى إليها بنشاط ، وكانت هذه الفكرة تتصور تعاونا من نوع ما للبحر الأبيض المتوسط يجمع شماله مع جنوبه ، وينضم إليهما شرقه . وميزة هذه الفكرة ـ من وجهة نظر دعاتها ـ أنها تصرف الأنظار عن خصوصية القومية العربية ، وتلفتها إلى اتجاه آخر يستطيع أن يدور حول شواطىء الحضارات القديمة (متذرعا مرة أخرى بالجغرافيا والتاريخ) ـ فإذا هى تشبك حبات عقد فريد ـ ! ـ يضم سوريا ولبنان وإسرائيل ومصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، إلى أسبانيا وفرنسا وايطاليا واليونان وتركيا ـ دائرة كاملة حول البحر تنشغل بالمؤثرات الحضارية المتبادلة عبر البحر ، وتلهث ـ على نحو ما ـ وراء السوق الأوروبية المشتركة .

وتتحقق بذلك عدة أهداف :

١ ـ تدخل إسرائيل بلا عناد ولا حساسية وسط المحيط الذى تعيش فيه ، وتندمج مطمئنة إلى هوية نصف شرق أوسطية ونصف أوروبية شرقية ، ثم إنها فى هذا المحيط تستطيع أن تشارك فى مجتمع اقتصادى وثقافى يزيل عنها وحشة الغربة التى حصرتها عقودا متصلة ، وجعلتها فى بعض الأحيان تشعر بالاختناق .

٢ ـ إن مثل هذا الترتيب كفيل بأن يريح أوروبا الغربية من هم يؤرقها ، وهو هم تدفق موجات الهجرة إليها من الشواطىء الجنوبية ، فهى تستطيع أن تساعد الجنوب بشكل أو آخر على الاحتفاظ بموجاته البشرية الباحثة عن فرصة أفضل وراء البحر بحيث يكف الفقراء عن إقلاق راحة الأغنياء ويتركونهم فى سلام .

٣ ـ بالإضافة إلى ذلك ، فإن مثل هذا الترتيب يستطيع أن يساعد على ضبط التفاعلات فى شرق البحر الأبيض وجنوبه ، فهو قادر على أن يستبعد الأزمات ، ويستوعب الصدمات ، ويؤثر ويوجه دون أن يجعل الولايات المتحدة مضطرة فى أى وقت لدور رجل البوليس . وهذا فى حد ذاته يرضى أوروبا ، ويعطيها الإحساس بشىء من التواجد فى منطقة هى بالنسبة لها منطقة جوار جغرافى وتاريخى .

● وربما كان هناك من فكروا أيضا فى منطقة ظل بين الخطين يجرى فيها تعظيم دور منظمة المؤتمر الاسلامى ، وتحجيم دور الجامعة العربية .

فالتركيز على فكرة المؤتمر الاسلامى يخلط الأمة العربية فى وعاء أوسع يخف فيه تأثير القومية العربية ، وتأثير أى دولة من دول الكثافة السكانية تبرز لدور قيادى فى تيارها .

... فى حين أن فكرة القومية العربية تؤدى إلى تركيز الخصوصية العربية وتستدعى دورا لقيادتها ـ دولة أو رجلا ، أو كليهما فى نفس الوقت .

وهكذا فإنه بخط على الخريطة حول شواطىء الخليج ، وبخط ثان عليها حول شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وبمنطقة ظل بينهما ـ تكون منطقة القلب فى العالم العربى مفتوحة ليس فقط لإعادة الرسم ، ولكن لإعادة التشكيل .

وكانت هذه هى المهمة التى تحمل بها « جيمس بيكر » وزير الخارجية الأمريكى .

« تشينى » لمهمة الخليج .
وأوروبا الغربية لمهمة البحر الأبيض المتوسط .
و « بيكر » لمهمة منطقة الوسط ، أو منطقة القلب .

□

وفور انتهاء حرب الخليج ، كان « جيمس بيكر » جاهزا لدوره .

كان « بيكر » قد بدأ هذه المحاولة لتهدئة وتسكين الأوضاع فى الشرق الأوسط من قبل أزمة وحرب الخليج ، ثم اعترضته الأزمة والحرب ، وبعد انتهائهما فإنه عاد يستأنف الجهد من حيث تركه مدعما هذه المرة بتجربة الأزمة والحرب ، وبالنتائج السياسية والعسكرية والنفسية التى تخلفت فى المنطقة بعدهما .

كان « بيكر » يريد أن يتحرك نحو مؤتمر ـ من نوع ما ـ تشترك فيه كل أطراف الأزمة تحت إشراف الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وقد قدم إليه مساعده « دنيس روس » خطة عمل مفصلة تستطيع أن تجمع كل الأطراف وكل القضايا ، وكل التصورات فى إطار واحد ينتهى إلى التسوية .

وفى ظرف شهور قليلة كان « بيكر » قد قام بثمانى زيارات إلى المنطقة جرب فيها أن يسد الثغرات وأن يفتح الطرق ، وكانت أكبر العقبات إسرائيل التى راحت الآن تطلب مكافآت مضاعفة عن دور « الساكت الصامت » أثناء أزمة وحرب الخليج .

كان تصور « بيكر » لمؤتمر التسوية المنتظر على ثلاث مراحل :

١ ـ مرحلة مؤتمر مفتوح تشارك فيه كل الأطراف وينحصر دوره فى كسر الحواجز وبناء الجسور ، وكان مطلب « بيكر » أن يحضره العرب جميعا ، أطراف النزاع : سوريا والأردن والفلسطينيون ـ ومصر باعتبارها طرفا مهتما ، وإن كان قد سبق إلى تسوية منفردة مع إسرائيل ، ثم مجموعة دول الخليج البترولية كلها وعلى رأسها السعودية ، وأيضا مجموعة دول المغرب العربى . وكان القصد ألا يظل طرف عربى خارج التسوية التعاقدية

التى تتم مع إسرائيل ، فقد كان لا بد لكل الحواجز السياسية والاقتصادية والنفسية أن تنكسر مرة واحدة .

وكان المقدر لهذا المؤتمر ألا يطول عن يومين ، أو ثلاثة على الأكثر ، ويكون بذلك قد أدى دوره ، وينفض .

٢ ـ ومرحلة ثانية ـ بعدها بأيام ـ تجرى فيها لقاءات ثنائية بين إسرائيل والأطراف العربية المشتبكة معها حتى الآن ، وهى سوريا والأردن والفلسطينيون ، على أن يجرى التفاوض بين كل طرف من هذه الأطراف وبين إسرائيل على حدة ، وألا يتوقف طرف فى انتظار طرف آخر ، بمعنى أن كل تفاوض هو عملية منفصلة تستقل بحركتها وتوقيتاتها ولا تتأثر بغيرها .

٣ ـ ثم تجىء مرحلة ثالثة بعد اللقاءات الثنائية للمرحلة الثانية ، ودون انتظار لما تسفر عنه ، وهذه المرحلة هى التى تطرح للبحث آفاق التعاون فى المنطقة على أوسع نطاق : من خطط التنمية المشتركة ، إلى موارد المياه ، إلى طرق المواصلات ، إلى تطبيع العلاقات ، إلى التعاون الإقليمى الشامل وبغير حدود .

وكانت إسرائيل هى التى تضع الشروط :

ـ فهى لا تريد وفدا فلسطينيا على صلة من أى نوع مع منظمة التحرير الفلسطينية .

ـ وهى لا تريد لأوروبا الغربية أكثر من دور مراقب فى المؤتمر .

ـ وهى لا تريد للأمم المتحدة أكثر من وجود مندوب مراقب ليس له أن يفتح فمه بكلمة واحدة ، لأنها لا تثق فيها بسبب أغلبية دول العالم الثالث بين أعضائها .

ـ وهى لا تريد شروطا عليها من أى نوع ، مثل مطالبتها بوقف الاستيطان حتى وإن عرض عليها ـ فى مقابله ـ إنهاء المقاطعة العربية لها . هذا مع أن وقف الاستيطان يمكن الرجوع عنه فى أى لحظة ، فى حين أن وقف المقاطعة العربية سوف يكون نهائيا لأنه يصعب العودة إليه بعد العدول عنه .

وأكثر من ذلك ، فقد كانت بعض شروط إسرائيل إملاء غير قابل للمراجعة ، وبينها أنه : لا دولة فلسطينية ، ولا تعامل مع منظمة التحرير ، ولا أرض فى مقابل السلام ، ولا انسحاب من كامل أرض إسرائيل (يهودا والسامرة وغزة) ـ وأخيرا فإن مستقبل هضبة الجولان ليس مطروحا للمناقشة على الأقل الآن .

وكان « جيمس بيكر » قد اختار مدريد مقرا للمرحلة الأولى من مؤتمر التسوية

الدولى[٧] ، وراح يدفع الجميع إليه بالرضا أحيانا ، وبالغضب أحيانا أخرى . وكان منظره فى بعض المرات أشبه ما يكون باللوحة الشهيرة على جدران بعض المعابد المصرية القديمة ـ تصور « رمسيس الثانى » يمسك بأسراه من الحيثيين والكنعانيين والفرس من سعورهم بقبضة يده ويأخذهم إلى مصير بالنسبة لهم خطر ومجهول .

كان « جيمس بيكر الثالث » (وهذا هو الاسم الرسمى لوزير الخارجية الأمريكية) يعيد صورة « رمسيس الثانى » بعد أكثر من ثلاثة آلاف سنة !

٦

وكانت الأطراف العربية كلها ، وإن تعددت الأسباب لديها ، تشعر أنها لا تستطيع أن تتخلف عن اجتماع مدريد :

١ ـ **سوريا** ـ على حد قول الرئيس « حافظ الأسد » نفسه ـ تشعر « بأن الأمريكان هذه المرة لديهم النية للحل ، والمشكلة هى ما إذا كانت لديهم الإرادة » ـ وهكذا كانت سوريا أميل إلى اختبار « النية والإرادة » الأمريكية ـ خصوصا وأنه ليست هناك خيارات أخرى فى الوقت الحاضر .

٢ ـ **الأردن** ـ على حد قول الملك « حسين » نفسه ـ يشعر « بأنه إذا كان هناك دور أردنى مطلوب فى الحل ، ولو حتى كغطاء للحضور الفلسطينى (الذى صمم الإسرائيليون على أن يكون تمثيله ضمن وفد أردنى ـ فلسطينى) ـ فإن الأردن لا يحق له أن يتردد ، خصوصا بعد كل ما تعرض له أثناء أزمة وحرب الخليج ، وإذا كان الآخرون يطلبون

---

(٧) كان اختيار « مدريد » راجعا إلى عدة اعتبارات منها أن تكاليف عقد المؤتمر أرخص لأنه كان مقررا أن تتحمل الولايات المتحدة كل النفقات ، وقد وجدت الخارجية الأمريكية أن « مدريد » أرخص من « لوزان » و « زيوريخ » (فى سويسرا) ، وكانت كلتاهما مرشحة كمقر للمؤتمر . وكانت أسبانيا متحمسة لأسباب سياسية وثقافية تتصل بعلاقاتها مع المسلمين واليهود ، إلى جانب أنها هذا العام ـ ١٩٩٢ ـ سوف تحتفل بعيد القرن الخامس على قيام « كريستوفر كولمبس » باكتشاف أمريكا ، وسوف تكون إلى جانب ذلك مقرا للمعرض العالمى « إكسبو ١٩٩٢ » .

دوره ، فإن عليه أن يكون أول من يطلب هذا الدور لنفسه ـ ما دامت هناك فرصة أو مناسبة . »

٣ ـ **والفلسطينيون** ـ على حد قول السيد « ياسر عرفات » نفسه ـ يشعرون أنهم « لا يستطيعون التخلف عن مؤتمر للتسوية تحضره الأطراف العربية الأخرى ، فمجرد حضورهم إثبات لحقهم ودورهم ، وهم يعرفون ثوابتهم وعليهم أن يتمسكوا بها ، وألاّ يقولوا كلمة « لا » ، تاركين لإسرائيل أن تقولها إذا شاءت . »

٤ ـ وحتى **دول المغرب العربى** قررت الذهاب ، وكان موقفها هو ما عبر عنه الرئيس « الشاذلى بن جديد » نفسه بقوله : « كنا نستطيع ألا نذهب بممثل عن المجموعة المغاربية إلى مدريد ، ولكن المشكلة أن من يتخلف فى هذه الظروف سوف يعتبر معارضا للتسوية ، وهذه قضية فى مواجهة الولايات المتحدة وكذلك دول الخليج . وإذا كنا قد حددنا موقفنا بأننا نقبل ما تقبله منظمة التحرير ـ إذن فإننا نحضر ما دامت منظمة التحرير حاضرة . ولنفرض أننا تخلفنا ـ فماذا بعد ؟ .. فى السنوات القادمة : خمس أو عشر سنوات ، لا ينتظرنا إلا ما نراه الآن ، وليست على الأفق المرئى متغيرات تؤثر على معادلات القوة . . »

٥ ـ **وأما دول مجموعة الخليج العربى** ، فقد عبر عن موقفها أمين عام منظمة التعاون الخليجى حين قال : « لقد ثبت أن التهديد علينا ليس من إسرائيل ، ولكن من بعض العرب ! »

٦ ـ وبالطبع فإن **مصر** كانت راغبة فى أن ترى العالم العربى كله ، وقد توصل إلى النتيجة التى توصلت إليها هى عندما وقعت اتفاقيات كامب دافيد .

وكان « جيمس بيكر » فى ذروة انتصاره وهو يقول « إن هذه أول مرة يجلس فيها العرب والإسرائيليون للتفاوض وجها لوجه . »

ولم يكن ذلك دقيقا ، وإن لم يكن خطأ كله .

إن العرب والإسرائيليين التقوا مرات كثيرة وجها لوجه ، واقتربوا أحيانا من موائد المفاوضات المباشرة ، وجلسوا فى بعض الأحيان إليها ، والعالم يرى ويسمع :

● **لقد اجتمع العرب والإسرائيليون وجها لوجه لأول مرة سنة ١٩٣٩ فى « مؤتمر لندن » الشهير الذى بحث قضية الهجرة اليهودية إلى فلسطين . وكان التمثيل العربى على أرفع مستوى ، فمن الجانب العربى كان ممثل مصر هو رئيس وزرائها فى ذلك الوقت « على ماهر » (باشا) ، وكان رئيس الوفد السعودى هو الملك « فيصل » (الأمير**

« فيصل » وزير خارجية المملكة وقتها) ـ وقد فشل المؤتمر لأن الجانب اليهودى لم يقبل بأى سقف لتحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين ـ فقد كان يشعر أن سلطة الانتداب البريطانى عاجزة أمامه بسبب ضغوط الحركة اليهودية وتأثيرها ، خصوصا فى الولايات المتحدة التى كانت بريطانيا تنظر إليها بأمل ورجاء تنتظر عونها ومساعدتها وتدخلها فى الحرب مع ألمانيا النازية ، وكانت نذر الحرب وقتها على الأبواب .

● وبعد معركة فلسطين سنة ١٩٤٨ التقى العرب والإسرائيليون للمرة الثانية فى فندق الزهور فى « رودس » تحت رعاية وسيط من الأمم المتحدة هو الدكتور « رالف بانش » . ومع أن وسيط الأمم المتحدة راح يتنقل بين أدوار الفندق للقاء الوفود العربية ، ثم لقاء الوفد الإسرائيلى ، فإن المؤتمر توصل إلى اتفاقات الهدنة ـ سنة ١٩٤٩ ـ وبمقتضاها أصبحت هناك لجان هدنة مشتركة دائمة تضم ممثلين عربا ، إلى جانب ممثلين عن إسرائيل . وكانت الخطوة التالية أن ترفع الأمم المتحدة اجتماعات لجان الهدنة إلى المستوى السياسى .

● وكانت كل الدول العربية سنة ١٩٤٩ قد قبلت بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨١ ، وهو القرار الذى قضى بتقسيم فلسطين إلى دولة فلسطينية ودولة يهودية . وأنشأ مجلس الأمن تأسيسا على هذا القبول العربى ما سمى فى ذلك الوقت بـ « لجنة التوفيق » ، ومهمتها أن تجمع الطرفين معا على تسوية مقبولة . وكانت « لجنة التوفيق » مشكلة من ممثلى ثلاث دول هى : الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا . وفى « لوزان » بدأت اجتماعات « لجنة التوفيق » وشارك فى أعمالها العرب والإسرائيليون (للمرة الثالثة) . ولم تصل « لجنة التوفيق » إلى نتيجة لأن إسرائيل كانت قد احتلت أثناء معركة ١٩٤٨ أراضى تتعدى الحدود التى رسمها قرار التقسيم للدولة اليهودية . وكان قرارها فى النهاية هو الاحتفاظ بالأرض .

وقد ظلت « لجنة التوفيق » تقدم تقاريرها إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة حتى سنة ١٩٥٧ . وحتى هذه اللحظة (١٩٩٢) فإن « لجنة التوفيق » مازالت موجودة رسميا فى سجلات الأمم المتحدة ، وعلى أوراقها .

● وجرت محاولة ـ رابعة ـ للتسوية بعد معركة ١٩٦٧ وحين قبلت بعض الدول العربية (مصر والأردن) بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذى عهد بتنفيذه إلى السكرتير العام للأمم المتحدة ، وهو وقتها « يو ثانت » ، وبدوره عين « يو ثانت » ممثلا خاصا له للاتصال بالأطراف التى قبلت القرار ٢٤٢ ـ بهدف الوصول إلى أساس للتسوية مقبول . وكان هذا الممثل الخاص للسكرتير العام هو « جونار يارنج » السفير الدائم للسويد فى الأمم المتحدة .

وجرب السفير « جونار يارنج » أن يسعى بين الأطراف ، ولم ينجح . ثم جربت بعده الدول الأعضاء الكبرى (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا) ـ فعقدت جلسات خاصة فى نيويورك طوال عامى ١٩٦٨ و ١٩٦٩ ، ولم يتوصل أحد لنتيجة لأن قرار مجلس الأمن ٢٤٢ كان يشترط للتسوية « عدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالقوة » ، ولم تكن إسرائيل مستعدة لقبول هذا المبدأ على كل الجبهات ، وبالذات على الجبهة الأردنية ـ الفلسطينية ، أو على الجبهة السورية . ولقد حاولت إسرائيل فى ذلك الوقت أن تلوح باستعدادها للخروج من سيناء فى مقابل خروج مصر من التزامها العربى ، ولم تقبل مصر . وانتهت محاولات « جونار يارنج » ثم محاولات الدول الأربع الكبرى ـ إلى الفشل .. وكانت إسرائيل تريد الأرض أكثر مما تريد السلام .

● وسنة ١٩٧٣ ، وبعد حرب أكتوبر ، جرت المحاولة الخامسة ، وكانت فى تلك المرة لقاء كاملا على مائدة مفاوضات فى جنيف ، فقد حضرت مصر والأردن ، وكذلك قامت سوريا بتكليف مصر بتمثيلها فى المؤتمر ، ولم تنجح المحاولة لعدة أسباب :

١ ـ كان « هنرى كيسنجر » هو مهندس مؤتمر جنيف ، وكان يريد احتكار إدارة عملية السلام ، وضبط توقيتاتها بحيث يتيح للولايات المتحدة فرصة العودة إلى المنطقة من أوسع الأبواب .

٢ ـ ولم يكن « كيسنجر » وإسرائيل يريدان أى دور فى التسوية للاتحاد السوفيتى ، وكان هدف الاثنين ـ إخراج الاتحاد السوفيتى من المفاوضات ـ ومن المنطقة ـ بالكامل . وأحس الاتحاد السوفيتى بهذه المحاولة ، وعرف أن لجنة عسكرية مشتركة مصرية ـ إسرائيلية ـ أمريكية تجتمع سرا فى إحدى قاعات المؤتمر بدون علمه . ووصل الأمر بـ « أندريه جروميكو » وزير الخارجية السوفيتى ـ إلى حد أن قال لـ « هنرى كيسنجر » إنه « إذا عرف مرة أخرى أن هناك اجتماعا للجنة العسكرية المشتركة يجرى من وراء ظهر الاتحاد السوفيتى ، فإنه سيبعث بضابط سوفيتى رفيع المستوى ليقتحم القاعة ويدخل للجلوس فيها ، وليكن ما يكون » .

٣ ـ ولم تكن إسرائيل تريد أى نوع من أنواع مشاركة الأمم المتحدة فى مؤتمر جنيف . فقد كان قبولها لوجود الأمم المتحدة يحمل من وجهة نظرها اعترافا ضمنيا بالقرارات التى سبق صدورها عن المنظمة الدولية . كما أنها كانت تعتبر أن المناخ العام فى الأمم المتحدة متحيز ضدها .

٤ ـ إن إسرائيل فى هذا المؤتمر حاولت أن تغرى مصر مرة أخرى بصفقة منفردة . وفى هذه المرة كانت الصفقة المنفردة جوائز . ففى حديث بين الكولونيل الإسرائيلى « ايزاك

سيون » وهو عضو فى الوفد العسكرى الإسرائيلى فى مؤتمر جنيف ـ وبين ضابط رفيع المستوى فى الوفد المصرى ـ قال الكولونيل « سيون » إنه « لا يفهم لماذا تضيع مصر وقتها فى مشاكل فلسطين دون فائدة ـ بينما فى وسعها أن تتجه غربا لاحتلال ليبيا وتضمها إليها ، وفى هذه الحالة فإن إسرائيل سوف تكون على استعداد لإغماض عينها عن ذلك . وهذا مفيد لمصر بأكثر من الاستعداد للحرب مع إسرائيل مرة كل عدة سنوات بسبب فلسطين ؟ »

وكان مؤدى هذا العرض صفقة ترضى فيها إسرائيل بإطلاق يد مصر فى جوارها الإفريقى ، فى مقابل أن ترضى مصر بإطلاق يد إسرائيل فى جوارها الآسيوى العربى .

ولم ينجح مؤتمر جنيف ، وإن كانت التطورات بعده قد اتخذت لنفسها مسارا آخر .

□

ثم جاء مؤتمر « مدريد ١٩٩١ » بالتصور الذى قدمته له السياسة الأمريكية وبمراحله الثلاث ، ولأول وهلة كانت هناك أوضاع لا تجعل الموازين فى صالح العرب ، بل ولا تجعلها عادلة أو شبه عادلة بين الطرفين .

وكان **أول أسباب** الخلل فى الموازين ـ هو ما عبر عنه « جيمس بيكر » دون أن يقصد ، وقد تمثل فى قوله « إن الظرف الآن مناسب لحل أزمة الشرق الأوسط المستعصية ، وخصوصا بعد التغييرات التى وقعت فى الاتحاد السوفيتى ، ثم النتائج التى انتهت إليها حرب الخليج » .

وكانت ترجمة ذلك عمليا أن الحل أصبح ملائما بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ـ وضرب الجيش العراقى .

وبصرف النظر عن الأسباب التى أدت إلى هذين الحدثين ، فلا يمكن لأحد ـ من وجهة نظر عربية ـ أن يعتبر أيا منهما وضعا إيجابيا يمهد لحل متوازن أو عادل للصراع العربى ـ الإسرائيلى .

والسبب الثانى ـ أن الاتحاد السوفيتى الذى أصر العرب حتى النهاية على أن يكون راعيا مشاركا للمؤتمر مع الولايات المتحدة ـ لم يكن هو ذلك الاتحاد السوفيتى الذى طلبه العرب وأصروا وضحوا فى سبيل حضوره بدور الأمم المتحدة ، وبدور أوروبا ، وبأى دور دولى آخر كان يمكن دعوته للمشاركة فى بحث مستقبل السلام فى المنطقة .

إن العرب أصروا على مشاركة الاتحاد السوفيتى فى رعاية المؤتمر ناسين أن الظروف تغيرت ، وأن ما كان مفيدا بالأمس قد لا يعود كذلك اليوم . ومع كل العرفان

لجهود قام بها الاتحاد السوفيتى فى تأييد العرب سابقا ـ فإن الاتحاد السوفيتى لاحقا أصبح دولة مختلفة تحتاج إلى الولايات المتحدة ، وتخطب ود إسرائيل .

ولقد كان الرئيس « ميخائيل جورباتشوف » الذى رأس المؤتمر مع الرئيس « جورج بوش » ـ شريكا بالصورة ، فقد كان ظاهرا وغير فاعل ، وموجودا ولكن بدون تأثير ، ولم يسمح له أن يظهر فى الصورة أو أن يتواجد مجرد تواجد إلا بعد أن فتح أبواب الهجرة اليهودية منه واسعة إلى إسرائيل ، وإلا بعد أن أعاد علاقاته الدبلوماسية كاملة بالدولة اليهودية .

وأسوأ من ذلك ، فإن « ميخائيل جورباتشوف » ذهب الى « مدريد » وهو فى حالة احتياج كامل إلى تأييد « جورج بوش » ـ اقتصاديا ابلاده حتى لا تتمزق ، وسياسيا لشخصه حتى لا يصرعه منافسه « بوريس يلتسين » فى صراع داخل الكرملين !

وكانت تلك مأساة أضيفت إلى مآسى مؤتمر السلام !

(ولقد كان من المفارقات الغريبة فى مدريد أن الملك « خوان كارلوس » وزوجته الملكة « صوفيا » قاما بدعوة كل من « بوش » و « جورباتشوف » على العشاء فى قصر « زرزويلا » ليلة افتتاح المؤتمر ، ونزل الملك والملكة إلى باب القصر يستقبلان الضيوف . وعندما وصل « بوش » صعد الاثنان معه سلالم القصر إلى صالون الاستقبال ، وفى غمرة الحماسة والترحيب بالضيف الأمريكى نسى كلاهما (الملك والملكة) أن هناك ضيفا ثانيا منتظرا (ضيفا سوفيتيا) ـ ثم جاء كبير المساعدين العسكريين للملك « خوان كارلوس » يهمس فى أذنه ، وبعدها أسرع الملك « خوان كارلوس » وزوجته الملكة « صوفيا » إلى نزول السلم عائدين إلى مدخل القصر . وهناك كان « ميخائيل جورباتشوف » ومعه ثلاثة من المرافقين قد أدخلوا غرفة قائد الحرس ينتظرون ... حتى يتذكر ملك وملكة أسبانيا أن رئيس القوة الأعظم الثانية فى العالم منسى على أبواب قصر « زرزويلا » !)

والسبب الثالث ـ أن العالم العربى يذهب إلى « مدريد » منقسما على نفسه ، وأسوا من الانقسام أن دما عربيا كان على أيد عربية ، سواء كانت هذه الأيدى فى « مدريد » أو بعيدا عنها . وحتى إذا لم يكن الدم العربى على الأيدى العربية ، فقد كان الدم العربى الذى سال فى أزمة الخليج منذ يوم ٢ اغسطس ١٩٩٠ وإلى يوم ٢٨ فبراير ١٩٩١ ـ مازال حارا وساخنا . ورغم ابتسامات حاول أصحابها رسمها على ملامحهم ، فإن الوجه العربى فى مدريد لم يكن مشرقا .

والسبب الرابع ـ أنه لم يكن لدى العرب سلاح قوة يحتكمون إليه إذا فشلت أحاديث السلام ، ولا كان لديهم سلاح بترول يلوحون به عقابا لطرف يتجاهل حقوقهم ويساعد مغتصبها . فقد كان معظم السلاح العربى إما عاجزا أو مدمرا ، كما أن البترول العربى

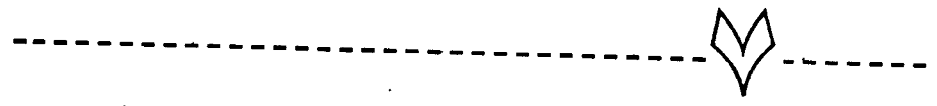
كان مشغولا بمعاقبة العرب ، وقد فرض على الشعب الفلسطينى (ضغطا) لم يكن يستحقه ، ولا كان هناك ما يبرره .

وكان الرئيس « حافظ الأسد » قد وجه نصيحة إلى الوفد السورى المسافر إلى « مدريد » ، ولعله أرادها أن تصل منه إلى غيره من الوفود العربية ـ فقد قال لوفده : « **لا يصح لأحد منا أن يتصرف وكأنه مهزوم ... نحن لسنا مهزومين** » .

وربما كان الرئيس السورى على حق بالمعنى التاريخى ـ ولكن المعنى السياسى كانت له شواهد يصعب إنكارها . فقد انعقد مؤتمر « مدريد » على أساس شروط إسرائيلية تساهلت احيانا فى الشكل ، ولم تتنازل فى أى لحظة عن الموضوع !

ومع ذلك ، وبصرف النظر عن كل الاعتبارات ، فلعله لم يكن هناك بديل لـ « مدريد » فى الظروف التى فرضت على الكل « مدريد » ـ والمهم ما بعدها .

والمشكلة الحقيقية أن إسرائيل تملك فى يدها كل الأوراق المؤثرة فى اللعبة الراهنة ، وأولها الأرض المحتلة ـ وتفوق عسكرى لا شك فيه .



والغريب أن إسرائيل كانت هى الطرف الذى يتمنع ويظهر العناد رغم أن « جيمس بيكر » رتب كل شىء حسب ما طلبته وزيادة .

كان وزير الخارجية الأمريكى فى اقترابه من عملية التسوية قد استعار من سلفه الأسبق « هنرى كيسنجر » مدرسة فى التفاوض مع العرب شديدة الغرابة ، وكانت استعارة « جيمس بيكر » من « هنرى كيسنجر » مفهومة لأن كبار مستشاريه فى وزارة الخارجية (« ايجلبرجر » و « روس » و « هاس » .. وغيرهم) كانوا جميعا من معاونى « كيسنجر » أو مريديه .

وكانت للمدرسة التى ابتدعها « هنرى كيسنجر » فى التفاوض مع العرب أساليب خاصة ، ولعل أول من تنبه إليها ، وقام بجهد فى تحليلها أستاذ العلوم السياسية الإسرائيلى « آموس برلموتر » .[٨]

---

(٨) كتب « برلموتر » كتابا كاملا عن المفاوضات بين العرب وإسرائيل نشر فى لندن سنة ١٩٨٠ بعنوان « مفاوضات السلام » ، وقد نشرته جامعة « أوكسفورد » .

وقد كان تحليل « برلموتر » أن « هنرى كيسنجر » استطاع مبكرا أن يرصد غرام العرب بالكلمات ، خصوصا تلك الجديدة عليهم ، وبدأ يعلمهم بعضها .

وكان تقديره أنه إذا استطاع أن يترك ألفاظه تشيع على ألسنتهم ، فإنها سوف نرشح إلى فكرهم ، ومن ثم إلى نظرتهم لموضوعات التفاوض .

وباعتباره أستاذا نابها فإن « كيسنجر » توجه طبيعيا إلى صدر الساحة يأخذ لنفسه دور المعلم دون أن يستثير حساسية أحد ، ثم راح يركز فى لقاءاته العربية الأولى على ما يستطيع نظراؤه العرب التقاطه من كلماته .

وكان حسابه أنه إذا تحقق له ذلك ـ فإن فى استطاعته تغيير الإطار المعرفى العربى الأصلى بإطار معرفى مختلف يتحكم هو فيه .

ومن هذا المنطلق ، فإن « كيسنجر » بدأ مع مفاوضيه العرب يطرح تعبيرات مثل :

● **"Peace Process"** (**عملية السلام**) ـ ومعنى ذلك تحويل السلام من هدف إلى عملية ، والبدء على الفور بالجلوس إلى المائدة ، وترك التفاوض نفسه يصنع آليته .

● و **"Momentum"** (**قوة الدفع**) ـ ومعنى هذا أن عملية السلام تحتاج باستمرار إلى وقود جديد وإلا توقفت ، وبما أن العرب هم الراغبون فى التسوية لاستعادة أراضيهم ـ إذن فإن الوقود عليهم !

● و **"Confidence Building Measures"** (**إجراءات بناء الثقة**) ـ ومعنى هذا أن استمرار قوة الدفع مرهون بإجراءات تتخذ لبناء ثقة الطرف الآخر ـ وإسرائيل هى التى تحتاج إلى تأكيد الثقة لأنها هى التى ستعطى المحسوس (**الأرض**) فى مقابل غير المحسوس (**السلام**) الذى يعطيه العرب .

وهكذا ، وهكذا .. ألفاظ وتعبيرات تدعو إلى « الخطوة خطوة » حتى لا تتصادم القضايا ، وإلى « **البدء بالأسهل** » من موضوعات الخلاف حتى يمكن بالتقدم السريع فيها تحقيق الوصول إلى شوط يصعب على الأطراف أن تتركه يذهب سدى ، إلى آخره !

وبدأ المفاوضون العرب يسمعون من « كيسنجر » ، ويعتبرون كلماته وتعبيراته لغة العصر فيرددونها بعده ، ومع كثرة ترديدها يترسخ اقتناعهم بها غير شاعرين أنهم بذلك ينقلون أنفسهم مقدما إلى أرضيته ، وداخل إطاره المعرفى ، ووفق قائمة أولوياته .

□

والآن كان « جيمس بيكر » (بمعونة عدد من مساعدى المعلم القديم) يقوم بتوسيع فصول المدرسة ، وبتطوير مناهج التعليم . وساعده على ذلك أن الاتحاد السوفيتى كان على استعداد للمشاركة فى دق الجرس لكى يبدأ اليوم الدراسى الجديد .

وبدأ « جيمس بيكر » فحدد حصص هذا اليوم الدراسى على شكل خطاب دعوة مشتركة وقعه كل من الرئيسين « جورج بوش » و « ميخائيل جورباتشوف » :

ـ مدخل يشير بسرعة إلى « فرصة تاريخية سانحة لتحقيق تسوية سلمية من خلال مفاوضات مباشرة على نطاقين : بين الدول العربية وإسرائيل ـ وبين إسرائيل والفلسطينيين ـ ترتكز على قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨ » .

ـ « ولتحقيق هذا الهدف يتقدم رئيس الولايات المتحدة ، ورئيس الاتحاد السوفيتى بدعوتكم إلى مؤتمر سلام تتبناه كلتا الدولتين . »

ـ « وهذا المؤتمر تليه على الفور مفاوضات ثنائية مباشرة . »

ـ « ويرجو الرئيس « بوش » والرئيس « جورباتشوف » منكم قبول هذه الدعوة قبل الساعة السادسة من بعد ظهر يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٩١ ـ بتوقيت واشنطن . »

ـ « وسوف تبدأ المفاوضات الثنائية المباشرة بعد أربعة أيام من افتتاح المؤتمر . »

ـ « تلى ذلك فى ظرف أسبوعين على الأكثر ، مفاوضات متعددة الأطراف تركز على قضايا المنطقة المتنوعة مثل : الرقابة على الأسلحة ، والأمن الإقليمى ، والمياه ، وقضايا اللاجئين ، والبيئة ، والتنمية الاقتصادية ، وأى مواضيع أخرى ذات اهتمام مشترك . »

ـ « رئاسة المؤتمر على مستوى وزراء الخارجية للولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى . »

ـ « أما الحكومات المدعوة فتشمل إسرائيل وسوريا ولبنان والأردن ، ويحضر الفلسطينيون كجزء من وفد أردنى ـ فلسطينى ، وتدعى مصر بصفة مشارك ، والأمم المتحدة بصفة مراقب ، وكذلك دول الوحدة المغاربية » .

ـ « وسوف يدعى مجلس التعاون الخليجى إلى المؤتمر كمراقب ، ثم تدعى الدول الأعضاء فيه للمشاركة فى المفاوضات المتعددة الأطراف » (التى تبحث قضايا المنطقة المتنوعة ، وأهمها التنمية الاقتصادية !)

ـ « والمؤتمر لن تكون له سلطة فرض حلول على الأطراف ، وبالإمكان عقده مرة ثانية فقط بموافقة كل الأطراف . »

- « وبالنسبة للمفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين الذين هم جزء من الوفد الأردنى - الفلسطينى المشترك (والذى لا يجب أن تكون له علاقة بمنظمة التحرير الفلسطينية) - فإن هذه المفاوضات ستجرى على مراحل تبدأ بمحادثات حول ترتيبات الحكم الذاتى المؤقت ، وهدفها الوصول إلى اتفاق فى موعد أقصاه سنة واحدة ، وبمجرد الاتفاق ستدوم ترتيبات الحكم الذاتى المؤقت مدة خمس سنوات ، وبدءا من السنة الثالثة منها تجرى المفاوضات بشأن الوضع الدائم ... »

وهكذا ، برنامج كامل محدد لحصص اليوم الدراسى يضعه « الأساتذة » ولا يستطيع « التلامذة » أن يخرجوا عنه أو يعدلوه ، وعلى أساسه يتحدد السقوط أو النجاح !

والكل يطيع ، وقصارى ما يطلبه أيهم هو بعض التطمينات ، وتكتب أوراق تطمينات أمريكية إلى العرب ليس فيها غير الالتزام بقرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨ وكليهما عبارات عامة تحتمل كل تأويل . (الغريب أن أحدا لم يطلب أوراق تطمينات من الاتحاد السوفيتى !)

وأما إسرائيل فقد حصلت بدورها على ورقة تطمينات ، لكن ورقتها لم تكن تفسيرات عامة لنصوص تحتمل التأويل ، بل كانت تعهدات محددة لها قوة فعل مستقلة ومؤكدة :

١ - « إن العلاقات بين إسرئيل والولايات المتحدة مبنية على علاقات فريدة بين الدولتين تستند على قيم ومصالح مشتركة وعلى احترام الديمقراطية . ومنذ إنشاء دولة إسرائيل أدركت الولايات المتحدة أن التحديات التى تواجه إسرائيل تتعلق بجوهر وجودها . وعلى امتداد فترة طويلة للغاية عاشت إسرائيل فى منطقة رفض فيها جيرانها الاعتراف بوجودها وحاولوا تدميرها . لهذا السبب كان مفتاح التقدم نحو السلام دائما هو الاعتراف باحتياجات أمن إسرائيل ، وبضرورة التعاون بين دولتينا لتلبية هذه الاحتياجات . »

٢ - « إن التزامات الولايات المتحدة بأمن إسرائيل باقية وثابتة ، وأى محاولة للدس بيننا للمساس بهذه الالتزامات لن تنجح لأنها لا تفهم الروابط العميقة بين دولتينا وطبيعة التزاماتنا بأمن إسرائيل ، بما فى ذلك الالتزام بتثبيت وتأكيد تفوقها الكيفى . »

٣ - « لا نؤيد إنشاء دولة فلسطينية مستقلة - وليس للمؤتمر قوة فرض حلول على الأطراف ، أو استخدام حق النقض - ولن يعود المؤتمر للانعقاد إلا بموافقة الجميع - ولا يمكن أن يجبر طرف فيه على الجلوس مع طرف لا يريده (والمقصود هو منظمة التحرير الفلسطينية) - ولن تكون هناك مفاجآت بخصوص نوعية التمثيل فى المؤتمر أو فى المفاوضات ، وسوف يكون الفلسطينيون المشاركون فيه ضمن وفد أردنى من سكان الضفة الغربية وغزة الذين يقبلون بالمفاوضات ، ويريدون العيش فى سلام مع إسرائيل من

خلال تسويات مرحلية ـ ولا تريد الولايات المتحدة إدخال منظمة التحرير الفلسطينية فى عملية التسوية . »

٤ ـ « تواصل الولايات المتحدة تأييد التعهد الذى قدمه الرئيس « فورد » إلى رئيس الحكومة الإسرائيلية « رابين » فى ١ سبتمبر ١٩٧٥ بشأن هضبة الجولان ، وسوف تولى وزنا كبيرا لموقف إسرائيل بأن كل تسوية سلمية مع سوريا يجب أن تقوم على بقاء إسرائيل فى هضبة الجولان . وفيما يتعلق بذلك فإن الولايات المتحدة على استعداد لاقتراح ضمانات أمريكية لترتيبات أمنية إذا تم اتفاق بهذا الشأن بين سوريا وإسرائيل . »

□

ولم تكن اسرائيل بعد قانعة بالانتظام فى الصف ، فقد كانت « تلميذا » من نوع ممتاز يريد المسكن والمأكل والملبس ومصروف الجيب بالمجان ـ إذا كان مطلوبا منه أن يلتزم بالصف ـ وكان على مرحلة المفاوضات المتعددة الأطراف أن تكون وسيلة الى تلبية احتياجاته ، فهى المفاوضات التى يتعين عليها أن تبحث قضايا المنطقة المتنوعة مثل الرقابة على الأسلحة ، والأمن الإقليمى ، والمياه ، وقضايا اللاجئين ، والبيئة ، و « التنمية الاقتصادية » .

وكان هذا البند الأخير هو ما يعنى إسرائيل ، فهذه هى المفاوضات التى ستحضرها دول مجلس التعاون الخليجى التى ينبغى عليها أن تدفع فاتورة الحساب .

ولقد طورت إسرائيل نظرية أمن جديدة تأخذ فى حسبانها متغيرات العالم ومستجدات المنطقة ، وهذه النظرية هى الآن موضع اختبار مطروح على التجربة ، ومقتضى الخطوط العريضة فى هذه النظرية كما يلى :

ـ إن إسرائيل ليست مستعدة للتخلى عن أراض مما هو تحت سلطة الاحتلال الآن ، فهذه الأراضى ضرورية للدعوى الأسطورية غير القابلة للتجزئة ، وضرورية للتوسع والاستيطان .

ـ إن الأمن الآن ، وبعد وصول الصواريخ العراقية ـ بصرف النظر عن تأثيرها المادى ـ لم يعد ممكنا ضمانه فى المستقبل بالأدوات العسكرية وحدها ، ذلك أن تكلفة مثل هذه الأدوات العسكرية يمكن أن تكون أغلى مما يحتمله الاقتصاد الإسرائيلى .

ـ إن الاقتصاد الإسرائيلى مقبل أكثر وأكثر على ظروف تقلص وانكماش ترجع إلى الأزمة الاقتصادية الأمريكية ، إلى جانب اضطرار صانع القرار الأمريكى (وهذا باد الآن فى سياسات « بوش ») ـ إلى توجيه أكبر قدر ممكن من الموارد الأمريكية نحو النمو

الاقتصادى لمواجهة سوق أوروبا الموحدة ، وسوق المحيط الهادى التى تقودها اليابان .

وبزوال الخطر العسكرى العربى ولو مؤقتا ،

وبوجود القوة الأمريكية سافرة فى الخليج إلى أجل ،

فإن المساعدات الأمريكية لإسرائيل يحتمل أن تقل ، ويصعب أن تزيد ، مع العلم بأن الاحتياجات الإسرائيلية متصاعدة .

- إن الولايات المتحدة حريصة على أمن إسرائيل وعلى اقتصادها ، وقد كانت إسرائيل - وسوف تظل إلى زمن طويل - أهم دعامات السياسة الأمريكية فى المنطقة بقدر ما أن البترول العربى هو أهم أهداف هذه السياسة .

وإذا كانت الولايات المتحدة قد تضطر فى المستقبل أن تقلل مساعداتها بصفة عامة - أو على الأقل لا تتحمل زيادات فيها - فإن الولايات المتحدة يتعين عليها أن تطمئن إلى أن اسرائيل لديها من مصادر أخرى ما يعوضها ويطمئنها إلى المستقبل .

- ليست هناك مصادر لمساعدات ، ولا استثمارات مؤثرة يمكن أن تجىء من أوروبا واليابان إلى اسرائيل ، فهذه الاستثمارات إذا خرجت من مواطنها الأصلية ، أمامها أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى ، وهما مجالان للاستثمار تفتحت أبوابهما على الآخر .

- أكثر من ذلك ، فإن إسرائيل تواجه منافسة صعبة بسبب رخص الأيدى العاملة حتى فى صادرات كانت توجهها إلى السوق الأوروبية المشتركة ، ولقد حدث بالفعل أن بولندا انتزعت من إسرائيل أسواقا فى ألمانيا الغربية ، وأخرجتها منها .

- وإذن فإن على إسرائيل ، وبمساعدة من الولايات المتحدة ، أن تجد موضعا فاعلا فى المنطقة المحيطة بها ، وكان الموضع الذى عثر عليه الطرفان (الولايات المتحدة وإسرائيل) هو ما يطلق عليه الآن مشروع السوق الشرق أوسطية . ومما يلفت النظر أن الخطاب الرئيسى لـ « شيمون بيريز » رئيس حزب العمل الإسرائيلى فى المؤتمر السنوى لحزبه - ركز على فكرة هذه السوق ، وتحدث عن تكامل بين :

وفرة موارد المياه التركية

وسعة السوق الاستهلاكية المصرية

ومقدرة التكنولوجيا الإسرائيلية .

وخلص إلى أن اتحاد هذه العوامل الثلاثة ممولة بفوائض بترول الخليج - يستطيع أن يحقق لإسرائيل ما تريد ، ويجعلها جزءا من المشروع الاقتصادى للشرق الأوسط فيعزز أمنها ، ويوفر لها من خلاله ما تريده من استثمارات فى التكنولوجيا فيحقق رخاءها .

يلفت النظر أيضا أن « اسحاق شامير » رئيس وزراء إسرائيل كان يتحدث أمام مؤتمر الرؤساء اليهود فى « بلتيمور » يوم ٢١ نوفمبر ١٩٩١ ، وقد حدد احتياجات إسرائيل فى الحقبة القادمة بخمسين إلى ستين بليون دولار ، وقام أمام سامعيه بتقسيم مواردها :

- عشرة بلايين ضمانات أمريكية .
- عشرة بلايين يوفرها يهود العالم .
- عشرة بلايين توفرها إسرائيل بنفسها لنفسها .

ولاحظ سامعو « اسحاق شامير » أن هناك ما بين عشرين إلى ثلاثين بليون دولار لا تزال ناقصة فى حساباته ، وسألوه عنها وكان رده :

« لننتظر حتى نرى ما سوف يحدث فى المنطقة »

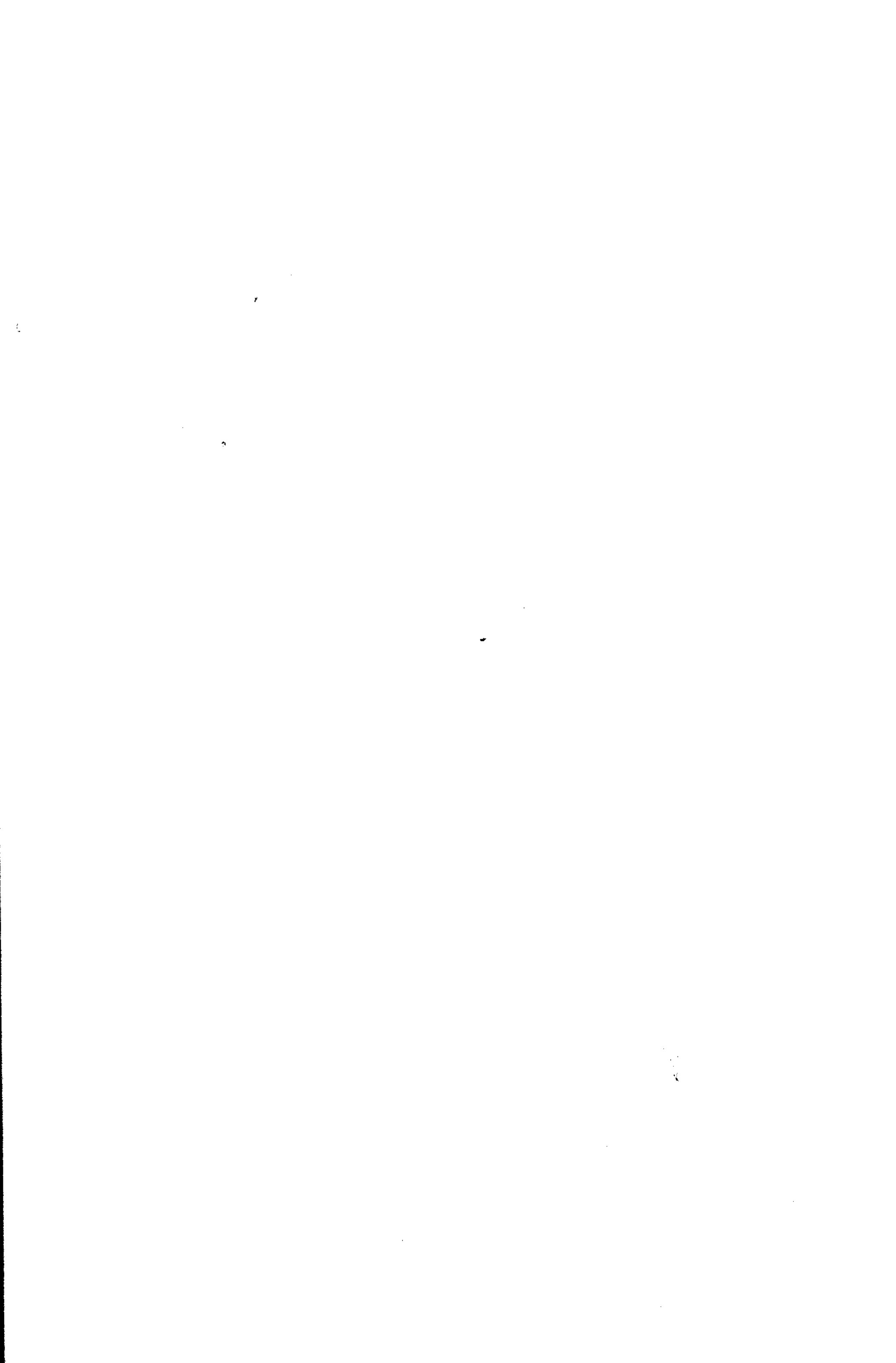
وكانت الإشارة واضحة إلى أن « شامير » يفكر فى مصادر من داخل منطقة الشرق الأوسط ذاتها .

وكانت الوزارات والأجهزة المختصة فى إسرائيل مشغولة بإعداد مشروعات :

- ربط لشبكات الكهرباء بين مصر وإسرائيل والأردن وسوريا !
- خط للسكك الحديدية يمتد من حيفا الى الخليج .
- خطوط أنابيب بترول من الخليج إلى البحر الأبيض .
- خطوط مياه قادمة من تركيا عبر سوريا ولبنان إلى النقب .
- خط أنابيب يحمل مياه النيل من سيناء إلى النقب أيضا..

وكانت الولايات المتحدة تشجع وتضغط .

وكانت الأطراف العربية ما زالت تردد ما حفظته من عبارات عن « عملية السلام » ، و « قوة الدفع » ، و « إجراءات بناء الثقة » ، إلى آخره !



البحـث عـن مستقبـل

ثـم مـــاذا ؟

ماذا عن الغد ، وبعد الغد ، وما وراء الاثنين إلى مدى ما يستطيع البصر أن يصل إليه ، ويطوله ، ويحاول فحصه ودراسته ؟

إن المستقبل يظل دائما أولى بالاهتمام ، وأحق بالرعاية ـ رغم أن الناس فى العادة يتركون الحاضر يستغرقهم وقلما يقدرون على تجاوزه ، ولو بالنظر . والأسباب مفهومة .

فالحاضر قائم أمامهم يطرح نفسه عليهم إلى درجة الحصار .

ثم إن الحاضر حياتهم ، وليس سهلا أن ينظر بشر إلى ما بعد حياته .

ثم إن النظر إلى المستقبل محفوف بمصاعب واحتمالات قد تبدو مستعصية على الحساب .

لكن عبرة التاريخ الانسانى ماثلة تعلم الجميع ـ ولا بد أن تعلمهم ـ أن الذين يستطيعون الإطلال بالفكر على المستقبل ، هم وحدهم القادرون ـ بالفعل ـ على إدراك احتمالاته ، وتوقى مفاجآته ، وبلوغ غاياته . وتلك مغامرة تصل إلى حد المخاطرة ، ولكنها المغامرة الخيرة والمخاطرة التى تستحق التضحية رغم ما تحمله من مشاق .

وإذن ماذا ؟ ماذا عن المستقبل ؟

□

ومن الواضح ـ بقدر ما يمكن أن يكون هناك وضوح ـ أن العالم فى المستقبل القريب ، ما بين خمس سنوات الى عشر ، سوف يكون عالما بالغ الخشونة ، ذلك أن دولة واحدة فيه ـ وهى الولايات المتحدة الأمريكية ـ قد أصبحت منفردة على قمته .

وهى هناك لا تبنى نظاما عالميا جديدا ، وإنما هى تحاول استبقاء نظام عالمى قديم يكاد يستهلك ما بقى من أسباب قوته .

فالنظم الجديدة لا تبنى برغبة طرف أو تصوراته ، وإنما تبنيها حقائق القوة حين تتراكم ، ويؤدى تراكمها إلى تفاعلات تصنع حقائق جديدة قادرة على تشكيل عصر بكامله وضبط إيقاعه .

ولقد كانت الولايات المتحدة هى مهندس النظام العالمى الذى قام منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن ، وكانت الحقائق التى مكنت لهذا النظام العالمى الأمريكى هى قوة الاقتصاد المعتمد على البترول ، وحيوية المبادرة التى اندفعت بها الرأسمالية الأمريكية خارج حدودها ، وقدرة السلاح الأمريكى الذى سبق إلى بعيد بأسلحته النووية ، وجاذبية نموذج الحياة الأمريكية الفوارة ، ونفاذ وسائل الإعلام الأمريكى ـ وفيها السينما ـ بما جعل الولايات المتحدة قادرة على تحديد جدول أولويات الاهتمامات السياسية والثقافية لبقية شعوب العالم التى اضطرت ـ راضية أو كارهة ـ إلى ضبط مواقيتها على الساعة الأمريكية .

وكان الاتحاد السوفيتى الذى خرج لتحدى هذا النظام الأمريكى ـ عاجزا من البداية عن المنافسة . فهذه الدولة العظمى التى ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى ، وبرزت بعد الحرب العالمية الثانية ، كانت مثقلة بالفعل بميراث امبراطورى عمره قرابة ثلاثمائة سنة ، ولم يكن كافيا أن يجىء سياسى ومفكر ضخم من طراز « لينين » لكى يحول الامبراطورية المتداعية ـ فى عصر نهاية الامبراطوريات ـ ويخترع منها اتحادا جديدا بين شعوب وقوميات حالما أن تتمكن التجربة السوفيتية من صهرها جميعا فى بوتقة واحدة . فالعبء الامبراطورى ظل كما هو ، والمركز راح يواصل سيطرته على الأطراف ، ثم إن الحلم السوفيتى انتهى إلى تحكم مجموعة بيروقراطيات بيزنطية مثل : بيروقراطية الحزب ، وبيروقراطية الحكم ، وبيروقراطية الجيش ، وبيروقراطية الـ « كى . جى . بى . » جهاز مراقبة الحزب والدولة (أو المخابرات بلغة أصرح) .

وكان سباق السلاح هو الوسيلة التى اعتمدتها الولايات المتحدة لاستنزاف الاتحاد السوفيتى على مدى ثلاثين سنة ـ من بداية رئاسة « كنيدى » سنة ١٩٦١ إلى بداية رئاسة « بوش » سنة ١٩٨٩ ـ وهكذا سقطت وانهارت دولة عظمى رغم أنها تملك ثلاثين ألف رأس نووى كافية لتدمير العالم ست مرات !

وبسقوط الاتحاد السوفيتى تخلصت الولايات المتحدة من أهم تحد واجه نظامها

العالمى ، ولم يعد هناك غير تنظيف بعض الجيوب ، والانفراد بقمة دولية خالصة لها وصافية ـ أو هكذا بدا !

□

لكن القمة لم تكن خالصة للولايات المتحدة أو صافية ، وإنما بدت السحب الداكنة زاحفة تسوقها رياح تشتد قوتها بالتدريج . ولعل الولايات المتحدة كانت أول من يدرك أن الخلاص من تحدى الاتحاد السوفيتى للنظام الأمريكى ـ هو فصل من قصة عصر ، وليس العصر كله ، والأسباب كثيرة متنوعة :

١ ـ هناك أن الولايات المتحدة استنزفت نفسها بسباق السلاح ، كما استنزفت الاتحاد السوفيتى ـ ولما كانت مواردها أكثر ، فإنها استطاعت أن تتحمل أكثر ـ وفى نفس الوقت فهناك حدود لكل طاقة مهما اتسعت !

٢ ـ ثم إن المجتمع الأمريكى بطلباته المتزايدة ـ مع استنزاف جزءٍ كبير من موارده ـ صرف أكثر مما أنتج ، أى أنه استدان ليستهلك ، ووصل حجم دينه للعالم الخارجى إلى ما بين أربعة وخمسة تريليون دولار ، وهو يوازى مجمل الانتاج الأمريكى لسنة كاملة مقدما .

٣ ـ إن الشعب الأمريكى يواجه أزمات اجتماعية وفكرية شديدة . بينها أزمة القيم ، وضمنها قيمة المنفعة ، وهى واحدة من القيم التى ساعدت هذا المجتمع على اندفاعاته الفوارة الأولى ، ومقتضاها أن ما هو نافع مشروع (دون تساؤل كاف عن مشزوعيته بالنسبة لمن ؟ وما هى حدود المنفعة ؟ وبأية ضوابط أخلاقية وإنسانية وقانونية ؟) ـ وبينها أيضا قيم الاستهلاك واعتباره هدفا أساسيا للحياة (دون تساؤل كاف عما إذا كان الإنسان مخلوقا ليستهلك ، أو أن هناك أهدافا أخرى لحياة الأفراد والأمم غير مجرد السلع ؟)

٤ ـ إن الولايات المتحدة شأنها شأن امبراطوريات أخرى غلبت فى التاريخ ـ يعتريها غرور القوة خصوصا فى مظهرها العسكرى ، بينما التحديات الكبرى فى العصر لا تحلها القوة العسكرية . والذى يحدث فى العادة عندما تبدأ الامبراطوريات فى التراجع أنها تبحث لنفسها عن انتصارات سهلة تردع بها الآخرين ، وتقنع نفسها بأنها مازالت الأولى ـ وتلك أصبحت لازمة من لوازم السياسة الأمريكية فى سنواتها الأخيرة ، وتجلت فى معارك سهلة مثل « جرانادا » ، و « بناما » ، وحتى العراق .

ويلفت النظر ـ فى السنة الأخيرة ـ أن الرئيس « جورج بوش » كلما واجهته التحديات الحقيقية للولايات المتحدة (وهى المشاكل الاقتصادية ـ الاجتماعية ـ الفكرية) ـ راح يهرب منها بمطاردة العراق ، سواء تحت دعوى مساعدة الأكراد فيه ، أو تحت دعوى إتمام تجريدهِ من السلاح النووى ، وهو سلاح لا وجود له ـ بعد ـ مع التسليم بأنه كانت هناك محاولة فى بدايتها للحصول عليه .

وقد وصل الرئيس « جورج بوش » فى خطابه عن حالة الاتحاد يوم ٢٨ يناير الأخير (١٩٩٢) ـ إلى حد أنه بدأ خطابه الذى ركز فيه على المشاكل الداخلية الأمريكية ـ باستثارة روح ما أسماه « نصر الخليج » ، فقال فى التمهيد لكلامه ما نصه : « إن هذا الوضع (يقصد التراجع الاقتصادى) غير قابل للبقاء » This will not stand ـ وهى نفس العبارة التى استعملها فى وصف احتلال العراق للكويت ، وكأنما أراد أن يذكر سامعيه بأن ما حدث فى الخليج العربى قابل للتكرار فى علاج مشاكل الاقتصاد الأمريكى . وكان ذلك أقرب إلى فنون العلاقات العامة منه إلى علاج لمشاكل الركود والتضخم والبطالة .. إلى آخره . ذلك أن معركة عسكرية (وبآخر ما وصلت إليه تكنولوجيا السلاح) ضد دولة من العالم الثالث ـ لا تصلح معيارا لما هو مطلوب فى علاج أزمات اقتصاديةٍ واجتماعية تمكنت واستفحلت .

وبالطبع فإن الخطاب العام للادارة الأمريكية ، وعلى رأسها « بوش » ، محكوم هذه الفترة باعتبارات انتخابية . والظاهر الآن أن « بوش » سوف يحصل على مدة رئاسة أخرى ، وبسبب تفاقم الأزمة الأمريكية ، وليس بسبب أن لديه علاجا لها . فالأزمة الشاملة التى يواجهها المجتمع الأمريكى لا تجعل الحزب المنافس (الحزب الديمقراطى) أقدر على الخيال والفكر السياسى من الحزب الجمهورى (حزب « بوش ») كما أن هذه الأزمة لم تترك على ساحة العمل السياسى منافسا يستطيع أن يثبت نفسه أمام « بوش » . فالحالة الأمريكية العامة لا تسمح الآن للحزب الديمقراطى أن يفرز شخصية أخرى مثل « روزفلت » ، ولا حتى مثل « كنيدى » !

□

وتخشى الولايات المتحدة الآن من منافسين جدد للنظام الأمريكى العالمى . وهؤلاء المنافسون لم يصلوا بعد إلى وسط الحلبة ، وإنما هم مازالوا عند أطرافها . وأهم هؤلاء المنافسين اثنان :

● أوروبا الغربية ، وفى قلبها ألمانيا الموحدة (الشاطىء الآخر ـ بالنسبة للولايات المتحدة ـ من المحيط الأطلنطى) .

● اليابان ، وإلى جانبها الصين ، ومن حولهما مجموعة نمور جنوب شرق آسيا (الشاطىء الآخر - بالنسبة للولايات المتحدة - من المحيط الهادى) .

ولا تملك القوة الأعظم المتفردة كثيرا إزاء المنافسين الجدد لها . وقد نجحت فى الماضى إزاء التحدى السوفيتى لأن سباق السلاح كان فى طوعها ، وأما فى عالم المستقبل فالولايات المتحدة أول من يدرك أن سباق السلاح ليس مجال المنافسة ، وإنما مجالها : التكنولوجيا - وكفاءة الانتاج - والنفاذ إلى الأسواق . وهذه العناصر الثلاثة تميل الآن عنها ، متأرجحة إلى نواحٍ أخرى .

فالتكنولوجيا اليابانية تجرى . وكفاءة الانتاج الألمانى تؤكد نفسها . والأسواق مفتوحة أو نصف مفتوحة ، والحكم هو حجم الطلب وأحيانا قبضة الاحتكار . وربما نتذكر أن العالم إلى جانب دوله الأعضاء فى الأمم المتحدة ، يرى أمام عينيه كيانات ضخمة متمثلة فى الشركات الدولية العملاقة أصبحت لها قوة الدول ، وأصبحت لها فاعلية تتعدى فاعلية معظمها . وربما لا يغيب عن الذاكرة أن هناك الآن ألف شركة بالعدد تملك ٥٢ ٪ من انتاج العالم بالضبط ، وهذه الشركات لا جنسية لها ولا حدود ، ومن الصعب أن يحدد أحد من يملك ماذا ؟ أو من يسيطر أو لا يسيطر هنا . أو هناك ؟

ولربما كان يكفى فى الاشارة إلى أزمة تكنولوجيا الانتاج وكفاءته فى الولايات المتحدة أن يركز أحد على صناعة السيارات ، وكانت هذه الصناعة فى يوم من الأيام جوهرة التاج فى الصناعة الأمريكية ، وهى الآن مضغوطة إلى درجة الاختناق من منافسة السيارات اليابانية من ناحية ، والسيارات الأوروبية من ناحية أخرى .

ولقد كان فى استطاعة الولايات المتحدة أن تقبل التحدى وتجدد فى وسائلها الانتاجية ، وتعيد تنظيم إدارة انتاجها - لكن ذلك يفرض تضحيات جسيمة لا يظهر أن المجتمع الأمريكى أو قياداته السياسية على استعداد لها .

□

بدلا من قبول الولايات المتحدة بالتحدى الجديد على أرضه وفى ميادينه - فإنها اندفعت إلى أسلوب خشن فى محاولة لتأكيد نظامها العالمى واستبقاء سيطرته :

١ - تصورت - ومازالت تتصور - أن فى إمكانها إلهاء أوروبا الغربية بما يجرى فى أوروبا الشرقية ، ذلك أن أوروبا الغربية لا تستطيع أن تعزل نفسها عن امتدادها القارى فى الشرق . وبما أن شرق أوروبا - بعد انهيار الاتحاد السوفيتى - أصبح مجالا لتقلبات وتقلصات حادة - فإن أوروبا الغربية يتحتم عليها أن تنشغل وتقلق .

لكن أوروبا الغربية حتى هذه اللحظة تحاول بنجاح أن تستوعب ما يجرى إلى جوارها فى الشرق . وهى تساعد فعلا ، وإنما إلى متى ؟

وربما كانت الولايات المتحدة تتوقع أن تتولى مشاكل الشرق استنزاف أوروبا الغربية ، لكن بعض الحقائق ظهرت ، ولم تكن ظاهرة من قبل .

وعلى سبيل المثال : فقد ظهر أن ألمانيا (الغربية) بدأت منذ خمس وعشرين سنة تجنب من مواردها ، وتبنى احتياطيا ماليا يمكنها من مواجهة مشاكل الوحدة الألمانية إذا طرأت ظروف تسمح بتحقيقها . وكانت ألمانيا (الغربية) تجنب سنويا عشرة بلايين مارك ألمانى . وعندما وقع الانهيار فى الشرق ، كانت ألمانيا (الغربية) مستعدة له باحتياطى جاهز وصل إلى ٢٥٠ بليون مارك ألمانى .

ومضت ألمانيا الموحدة تمارس أدوارا تؤكد بها استقلالية قرارها لأول مرة منذ هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية .

فى هذا المجال أيضا تصورت الولايات المتحدة أن التناقض الألمانى - الفرنسى يمكن أن يبعث حيا مرة أخرى - وهى مسألة لا تزال معلقة .

وأيضا تصورت الولايات المتحدة أن بريطانيا - وهى الحليف اللصيق بها لأسبابه - يمكن أن تكون طابورها الخامس داخل أوروبا الغربية - لكن أوروبا تبدو منتبهة لـ « حصان طروادة » البريطانى .

٢ - راحت الولايات المتحدة تحاول بسياستها أن تمنع فى الشرق أى لقاء بين اليابان والصين ، والحقيقة أن هذا اللقاء للجنس الأصفر بامكانياته الفادحة (تكنولوجيا - وبشر) يمكن أن يكون قوة القرن الواحد والعشرين . لكن البلدين (اليابان - والصين) يدركان أهمية اللقاء بينهما ، وإن كانا فى نفس الوقت ، وحتى هذه اللحظة ، محكومين بمواريث تاريخية وبطموحات وطنية قد تبدو متعارضة .

وعلى أى حال فمعركة الأقدار فى الشرق الآسيوى مازالت تجرى - وتجرى على أشدها .

٣ - ثم لجأت الولايات المتحدة إلى تخويف أوروبا من القوة النووية على أرض أوروبا الشرقية ، وفيما كان الاتحاد السوفيتى سابقا .

من قبل كانت الولايات المتحدة تقول لأوروبا الغربية إن المظلة النووية الأمريكية هى حمايتها الوحيدة من الخطر السوفيتى . وفى هذه المرحلة فإن التخويف يجرى من خطر انفلات نووى ناتج من واقع أن المركز النووى السوفيتى

قد أصبح الآن عدة مراكز (روسيا ـ بيلوروسيا ـ أوكرانيا) خرجت من الاتحاد السوفيتى القديم . وهى مراكز شاردة ، بدلا من مركز واحد مضبوط . ثم إنها مراكز متعارضة متصادمة ، وقد يؤدى انفلاتها إلى كوارث .

ومن هذا الاعتبار تحاول الولايات المتحدة أن تجعل أوروبا الغربية تقبل باستمرار حلف الأطلنطى كمنظمة عسكرية تحمى أوروبا الغربية برادع نووى أمريكى . وتلفت النظر عبارات ذات معنى قالها الرئيس « بوش » فى اجتماع قمة حلف الأطلنطى الأخير ـ فى نوفمبر ١٩٩١ ـ فى روما . فقد قال لهم بالحرف :

ـ « إنكم تفكرون فى إنشاء قوة مشتركة أوروبية تستغنون بها عن وجودنا معكم هنا ، وأنا أقول لكم إن هذا ليس بديلا كافيا .

وأنا أريدكم أن تصارحونا بما يدور فى أفكاركم . إذا كنتم لا تريدوننا وتريدون لأنفسكم طريقا آخر فقولوا لنا . إذا لم تكونوا فى حاجة إلينا فقولوها صراحة ! »

٤ ـ وبقوة الأشياء نجحت الولايات المتحدة فى أن تعطى نفسها حقوقا لا يتوقف طرف فى العالم يسائل نفسه ـ أو غيره ـ عن أسسها أو مصادرها :

● بين هذه الحقوق ـ حق أخلاقى على البشرية كلها يعتبر نفسه حكما ومرجعا فى قضية حقوق الإنسان ، ومن ذلك أن وزارة الخارجية الأمريكية تصدر كل سنة تقريرا تعطى فيه لبقية دول العالم أرقاما يتقرر بها نجاحهم أو سقوطهم فى احترام حقوق الإنسان .

● وبين هذه الحقوق ـ حق إشراف على الأداء العالمى الاقتصادى وفقا لقواعد السوق الحرة ـ من المنظور الأمريكى ـ وبالتالى فإن الولايات المتحدة لها أن تقرر من هو الذى يتسق مع العصر ، ومن الذى يجافيه ؟

● وأخيرا بين هذه الحقوق ـ حق تكييف وتطبيق القانون الدولى وحماية الشرعية الدولية من منظور أمريكى ، وهى تستخدم لتحقيق ذلك ترسانة هائلة من الأسلحة ، تبدأ من أسلحة الحرب النفسية إلى أسلحة الجو بما فيها الطائرات والصواريخ .

وبالتوازى مع ذلك كله يمارس الإعلام الأمريكى دوره الهائل فى التأثير والتطويع وإحكام التطويق والعزل .

والحملة الأمريكية على الصين الشعبية بعد وقائع ميدان « تيان آن منه » ـ شاهد ودليل ، فقد تحولت « عملية عصيان محصورة فى ميدان واحد لم تنتشر منه

إلى غيره فى نفس المدينة ، ولم تنتقل من نفس المدينة إلى غيرها من مدن قارة بأكملها يسكنها مليار وربع مليار من البشر - إلى قضية ملء الأرض والسماء والفضاء . »

وهذا الوصف لوقائع « تيان آن منه » لـ « هنرى كيسنجر » نفسه ، وقد قاله فى معرض الدعوة لنظريته فى ضرورة أن تقترب الولايات المتحدة من الصين لكى تسحبها بعيدا عن اليابان حتى لا تساعد على تحول موازين القوة فى حقب قادمة إلى الشاطىء الآخر للمحيط الهادى .

٥ - وفى هذا السياق جاءت حرب الخليج - وسيلة محققة لإحكام الولاية الأمريكية على بترول الشرق الأوسط ، وهو أكبر موارد البترول فى العالم وأكثرها احتمالا للبقاء حقبا ممتدة قادمة .

ذلك أنه إذا تحققت الولاية الأمريكية على البترول ، فمعنى ذلك أن أهم محركات الانتاج على اتساع العالم تحت سيطرتها ، تمنع أو تسمح . ترفع أو تخفض . وبعد البترول هناك فوائضه . ولعله من هنا إصرار الولايات المتحدة على تسوية أمور الشرق الأوسط وأزماته بحيث لا تطير شرارة منها تقترب من حقول البترول التى يتوقف عليها بالدرجة الأولى أن يكون القرن الواحد والعشرون قرنا أمريكيا ، أو يرتفع عليه علم أو أعلام أخرى .

٦ - ولكى يكون هذا الدواء الأمريكى مقبولا ، أو مبلوعا من الآخرين - فقد كان لا بد من كسائه بغشاء من السكر . وهكذا انهمكت الولايات المتحدة فى نظام للإدارة العالمية يكون تحت إشرافها .

نظام تكون هى فيه رئيس مجلس الادارة والعضو المنتدب . ثم يدخله أعضاء آخرون ، جماعات أو فرادى ، لمدد محدودة ولمهام معينة : الأمم المتحدة أحيانا - شىء من نوع التحالف الدولى فى الخليج أحيانا أخرى - أدوار لأوروبا الغربية واليابان فى شىء من نوع المؤتمر متعدد الأطراف للشرق الأوسط . وهكذا - حتى لا تبدو منفردة بشئون العالم ، مسيطرة وحدها على مقاديره . وكلها محاولات للتهدئة والتطمين ، لكن فصول السنة المتعاقبة والمتغيرة تعلن عن نفسها مبكرا بنسمة ريح ، أو سرب طير مهاجر .

والواقع أن الشواهد تظهر مشيرة إلى أن التوترات المحسوسة فى السنوات الأخيرة بدأت تفصح عن نفسها ، فهناك فى الاعلام الأمريكى مقدمات حملة على الثقة الألمانية المتزايدة بالنفس . كما أن أشباح الماضى من أيام « هتلر » - بما فيها الجحيم الذى

عانى منه اليهود ! ـ يعاد بعثها الآن لكى تحارب معارك المستقبل . كما أن شيئا من نفس النوع ، وربما أشد ، بدأت ممارسته مع اليابان ، وقد كانت ذكرى مرور نصف قرن على معركة « بيرل هاربور » (الهجوم اليابانى المفاجىء على الأسطول الأمريكى فى المحيط الهادى) ـ فرصة لم تفت للحض على كراهية اليابان . كذلك كانت زيارة الرئيس « بوش » إلى طوكيو فى أوائل شهر يناير ١٩٩٢ فرصة أخرى لجلد الشعب اليابانى علنا إلى درجة أرغمت كثيرين من قياداته على الرد بتذكير الولايات المتحدة أنها عاجزة عن المنافسة بسبب قصور فى الادارة وجشع لدى المديرين ، وبسبب نقص فى كفاءة العمل ، وأمية تحدّ من طاقة قوته !

لكن تلك كلها ألعاب متشابكة متضاربة لا تنشىء نظاما عالميا جديدا ، ولعلها أقرب إلى أن تنشىء حالة من الفوضى العالمية لا يستطيع أحد تقدير نتائجها أو حساب تفاعلاتها . والحاصل أنه ليست هناك حالة أخطر من محاولة طرف أن يتمسك باحتكار القوة مع تناقص أسبابها الحقيقية فى يده . والأقرب إلى طبائع السلوك الانسانى أن هذا الحال يدفع بأصحابه إلى ممارسة العنف للتغطية على الإحساس بالضعف . ثم إن الشكوك تساوره ـ شأن أى كائن حى بلغ ذروة الجبل فى حياته ، ولم يعد أمامه غير النزول . وصحيح أنه مازال الأقوى سلاحا واقتصادا ونفوذا ، لكنه بالنسبة للآخرين يفقد وهم يضيفون ، وهو يقل وهم يزيدون ، وهو يصغر وهم يكبرون .

ومما يستحق التدقيق أن هناك محاولة جارية الآن لتجميد الأوضاع على ما هى عليه ، وتقنين حركتها فى إطار يبدو متفقا عليه ، ويكتسب شرعية الرضا والقبول ، وربما كان اجتماع قمة دول مجلس الأمن الأخير ـ ٣١ يناير ١٩٩٢ ـ إشارة واضحة إلى هذه الرغبة . فبريطانيا ـ التى تعتبر نفسها صاحبة علاقات خاصة مع الولايات المتحدة ـ هى التى دعت رؤساء الدول الأعضاء فى مجلس الأمن إلى اجتماع ليست له سابقة ، والهدف منه ـ كما قيل ـ تعزيز فاعلية النظام الدولى الجديد بواسطة تأكيد دور الأمم المتحدة .

والغريب أن الداعين للاجتماع لم يتطرقوا إلى ضرورة توسيع نطاق العضوية الدائمة فى مجلس الأمن ، بحيث تعكس الحقائق العالمية الجديدة والمستجدة منذ إنشاء الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥ . ولكنها تجمد هذه العضوية الدائمة لأصحابها الحاليين بمقولة لرئيس وزراء بريطانيا تساءل فيها ببراءة : « لماذا نغير فريقا ناجحاً ؟ »

ولقد كان الرد السهل على « جون ميجور » هو تذكيره بأنه إذا كان النظام العالمى القديم قد انتهى ، فإن إدارته القديمة يجب أن تنتهى معه . وإذا كان هناك نظام عالمى جديد بالفعل ، فإنه يحتاج إلى إدارة جديدة .

والحقيقة أن هذا الفريق الناجح الذى يشير إليه رئيس وزراء بريطانيا ، ويعنى به الأعضاء الخمسة الدائمين منذ إنشاء الأمم المتحدة ، لا يعكس حقائق القوة فى نظام جديد يجرى الحديث عنه - وإنما هو يعكس محاولة لاجراء جراحة تجميل (شد جلد) للنظام القديم وترتيباته ، حتى يبدو جديدا ، وحتى يقع فى وهم الأطراف جميعا أنه جديد .

لكن جراحات التجميل لا تصنع خلقا مختلفا ، وربما أن ما تفعله أقرب إلى خداع البصر منه إلى أى شىء آخر .

وهذا عامل آخر يضاف إلى أسباب الفوضى حين لا تكون المظاهر متفقة ومتسقة ومعبرة عن الحقائق .

وفى المحصلة ، فإن القمة الدولية فى حالة قلق وشك وارتباك ، لم تكن هناك عندما كانت الخطوط واضحة أيام التحدى السوفيتى للنظام الأمريكى .



وإذا كانت تلك أجواء القمة الدولية فى المستقبل القريب ، فإن ما تحتها سوف يكون على مثالها فى أحسن الأحوال بتأثير العدوى منها ، وقد يكون فى حال أسوأ بتأثير عوامل إضافية محلية أو إقليمية .

● ويمكن بصفة عامة أن يقال إن ما يسمى بمجموعة دول الكومنولث المستقلة (وهو اسم يمكن أن يطلق على أى عدد من الدول فى العالم دون أن يدل على شىء بالذات ، وهى مجموعة الدول التى تبقت من الاتحاد السوفيتى ، وأهمها روسيا وبيلوروسيا وأوكرانيا) - سوف تجد طريقها كدول مستقلة قادرة على مسئولية العصر ، وأن ذلك قد يستغرق منها سنوات تتراوح ما بين خمس إلى عشر سنوات لكى تتغلب على المستعصى من مشاكلها - هذا إذا لم تقم القوات المسلحة السوفيتية بحركة من نوع ما تجرب بها لمّ شتات الدولة ، وهو احتمال قائم حتى هذه اللحظة ، وإن كانت صعوبته تزداد مع كل يوم .

● ويمكن بصفة عامة أن يقال أيضا إن أوروبا الغربية كلها ، سواء أعضاء السوق الأوروبية ، أو أعضاء مجموعة التجارة الحرة ، أو مجموعة دول البلطيق التى خرجت من إطار الاتحاد السوفيتى القديم (ليتوانيا ، واستونيا ، ولاتفيا) ، إلى جانب بعض دول شرق أوروبا ذات الامكانيات الكامنة ، مع درجة من النمو الصناعى كافية (مثل تشيكوسلوفاكيا والمجر ، وبعض ما كان فى يوجوسلافيا مثل سلوفنيا وكرواتيا) - قد تجد طريقها خصوصا برعاية خاصة من ألمانيا الموحدة .

● ويمكن كذلك أن يقال إن أمريكا اللاتينية على الحافة ، خطوة إلى الأمام فتلحق بالتطور الطبيعى ـ أو خطوة إلى الوراء فإذا هو الضياع . والشاهد أن بلادا مؤثرة فى أمريكا اللاتينية ، وفى مقدمتها البرازيل ، قرب هذه الحافة التى تتقرر عندها المصائر .

● هناك وراء ذلك كتل إنسانية ـ دولية ـ مازالت بعيدة ، وهى تحاول ، وأهمها الصين التى مازال الحزب الشيوعى الصينى يحكمها بمزيج من آراء « كونفوشيوس » و « ماركس » ، مضافا إليهما بعض آراء « ميلتون فريدمان » ـ الكاهن الأعظم الجديد لاقتصاد السوق .

ثم هناك الهند أيضا ، وهى ألف مليون من البشر (وكانوا على أيام « نهرو » ٣٦٠ مليونا ، وكان « نهرو » يقول باستمرار : « فى الهند ٣٦٠ مليون مشكلة ، لأن كل هندى مشكلة فى حد ذاته) ـ لكن الهند بين الدول التى قطعت ـ بسبب ظروف تاريخية خاصة ـ شوطا كبيرا فى التصنيع ، ثم إنها دولة نووية ، ومع ذلك فقد ظهر بتجربة الاتحاد السوفيتى أن القوة النووية ليست عاصما للدول من السقوط والانحلال .

ويبقى مع ذلك أن مستقبل أكبر قارات الدنيا ـ آسيا ـ معلق بأكبر كتلتين بشريتين فى العالم ، وهما : الصين ، والهند .

● هناك بالقرب من العالم العربى ، وعلى أطرافه تحركات مازالت فى بداياتها وقصدها يمكن تصوره ، ولكن حركتها ، ونتائج هذه الحركة ومضاعفاتها ، تجىء إلى المنطقة بأوضاع يصعب حسابها .

فإيران ـ مثلا ـ تسعى إلى دور إقليمى مؤثر ، وهى تملك بعض أسبابه ، كما أن تطورات الظروف بعد حرب الخليج وضعت فى يدها بعض أوراقه ، فهى طرف فاعل فى أمن الخليج ، وهذا مشروع ـ كما أنها طرف فاعل فى الجمهوريات الاسلامية من الاتحاد السوفيتى السابق ، وهذا أيضا مشروع ، فأجزاء كبيرة من جمهورية « أذربيجان » كانت حتى أواسط القرن التاسع عشر جزءا من إيران قبل أن يخطفها التوسع الامبراطورى الروسى ـ ثم إن إيران طرف فاعل فى الحزام الشمالى الواقع فوق العالم العربى ، والذى ارتكز عليه حلف بغداد القديم الذى تحول لاحقا إلى الحلف المركزى ثم سقط مع سقوط أسرة « بهلوى » ، ولكن الثورة الإيرانية التقطت ظلال الفكرة القديمة ، وهى تعيد صياغتها من جديد ، وتضيف إليها تحسينات آسيوية وخليجية فى نفس الوقت .

وهناك أيضا بالقرب من العالم العربى ما تفكر فيه تركيا من تجمع لدول البحر

الأسود ، تلتقى فيه تركيبة من دول البلقان التى كانت أصلا محسوبة على أوروبا الشرقية .

ثم هناك أخيرا أن اليونان تحوم حول نفس الفكرة ، أو شىء قريب منها . فهناك عقد انفرط ، وهناك كثيرون يريدون أن يلتقطوا حباته المتدحرجة ويجمعوها فى عقد جديد ، أو عقود مختلفة .

وكلها على أى حال تحركات جارية ، وهناك أقوياء فى العالم يتابعونها ، ومن الملاحظ ـ مثلا ـ أن ألمانيا تقوم الآن بتحركات مباشرة تجاه طهران . وكانت طهران دائما نقطة جذب بالنسبة لبرلين .

□

من حول ذلك على الخريطة الدولية بقع من الخطر الداهم يمتزج فيها الظلام والدم .

هناك منطقة القرن الإفريقى ـ مثلا ـ وهى منطقة قريبة من العالم العربى ، وبعض دولها تنتمى إليه (مثل الصومال وهى عضو فى الجامعة العربية) ، وبعض بلادها حيوية بالنسبة له (مثل أثيوبيا وكونها واحدا من أهم منابع النيل) ـ وهى منطقة انفك رباطها ، وانطلقت فيها وحوش الحرب والجوع والموت .

ولوضع الأمور فى نصابها فإن العالم العربى ساهم بجزء كبير فى تفكيك رباط القرن الافريقى حتى آل حاله إلى ما آل إليه .

فالمال العربى تحت قيادة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية دخل إلى القرن الافريقى ليمنع انتشار واستقرار الشيوعية ـ كما يقال ـ وتوصل إلى إغراء الجنرال « سياد برى » حاكم الصومال ـ كى يقوم بمغامرات مفاجئة قادت إلى حروب أهلية دامية . ونفس الشىء تقريبا تكرر مع نظام « منجستو هيلا ماريام » فى أثيوبيا .

وتأثيرات القرن الافريقى تصب في جنوب السودان ، وتجعل هذا البلد العربى ، رغم أهميته البالغة ، يتآكل بالحرب الأهلية فى الجنوب ، ويمتد التآكل إلى شرق السودان أيضا ، وإلى غربه .

ومنطقة شرق أفريقيا مأساة ، وكذلك غربها ، وكذلك الوسط .

وتشعر هذه الدول بوطأة الفقر والتخلف والحروب الأهلية ـ وفوق ذلك كله وطأة الديون . وكان آخر ما تفتق عنه ذهن بعض الساسة فيها أن يطالبوا بإلغاء ديون أفريقيا

السوداء ، فى مقابل الأحزان التى خلفتها عصور العبودية على روح وامكانيات هذه الدول . وتجرى حجتهم على النحو التالى :

□ « علينا للغرب ثلاثمائة بليون دولار من الديون ، وطبقا للاحصائيات فإن تجار الرقيق من أوروبا وأمريكا خطفوا من أبنائنا ما بين خمسين إلى ستين مليونا من العبيد ذهبوا للعمل فى مزارع أمريكا ، شمالا وجنوبا ، وفى أوروبا أيضا . وهؤلاء كان معظمهم من الشباب ، ولو أنهم بقوا لشاركوا فى تطوير أوطانهم . والذى حدث أننا تأخرنا بسبب هذا النزيف من البشر ، مضافا إليه النزيف فى المواد الخام وقد جرى نهبها هى الأخرى . »

ويـــرد الغـــرب :

■ « كانت العبودية جريمة . لكنها كانت جريمة فى إطار عصر كان يَقبل بها . وقد كنا نحن بعد ذلك ، عندما صحا ضميرنا ، أول من تصدى لهذه الجريمة . ولنفرض ـ جدلا ـ أننا كنا على استعداد للتعويض ، فكيف نصل إلى عائلات عبيدنا القدامى أو قبائلهم وأوطانهم ؟ »

ويـرد البعـض فـى أفريقيـا :

□ « لقد عوضتم السكان الذين يعيشون فى إسرائيل الآن بصفة عامة وجماعية عن الجرائم التى ارتكبتها أوروبا فى حق اليهودَ ، ولم تطلبوا من إسرائيل إعلام وراثة رسمى يؤكد حقها فى إرث « يهود الجحيم » .

والحالة بالنسبة لأفريقيا أظهر وأجلى ـ فالقارة هى القارة . والعبيد كانوا منها ، ولا أقل من أن تتنازلوا عن الديون ، والتعويض بسيط : ألفى دولار عن كل إنسان ـ وذلك ليس كثيرا !! »

□

هناك بعد ذلك منطقة الحزام الشمالى فوق الشرق الأوسط ، وهو الحزام الممتد من أفغانستان إلى الجمهوريات الإسلامية مما كان الاتحاد السوفيتى سابقا (تادجيستان ـ وأزباكستان ـ وأذربيجان ـ وكازاخستان) ، ثم باكستان وإيران وتركيا . وهذه منطقة ترتج بالزلازل ، وتفور بالبراكين ، وتختلط فيها مواريث الإسلام بمؤثرات حضارية مختلفة عنه ، إلى جانب قضايا هوية ثقافية وسياسية ، ومشكلات أمن ونمو ، وتيارات عنيفة تهب من الخارج فى اتجاهات معاكسة .

وهذه منطقة لعب فيها المال العربى ـ أيضا ـ أدوارا يصعب فهمها .

وعلى سبيل المثال ، فقد كان المال العربى ـ مرة أخرى تحت توجيه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ـ هو الذى موّل حرب أفغانستان بقصد استنزاف الاتحاد السوفيتى . وأدى تدخل المال العربى إلى حدة فى المشاعر الدينية والقبلية ، وإلى تجارة رائجة فى السلاح وما يترتب عليه ، وإلى تحويل المنطقة إلى أكبر مركز لتجارة المخدرات فى العالم . وتداعت مؤثرات ذلك كله إلى باكستان التى اتخذت قاعدة لحرب أهلية فى أفغانستان ، بينما هى نفسها على وشك أن تتحول إلى ساحة حرب أهلية تؤدى تفاعلاتها إلى مجرى صدام مسلح يتجدد مع الهند ـ وكلاهما بقرب امتلاك سلاح نووى .

والمال العربى مازال يجرب حظه فى الجمهوريات الإسلامية للاتحاد السوفيتى السابق ، لأن بعض الدول العربية ترى أن إيران تتداخل بقوة التأثير الدينى فى هذه الدول ، وخصوصا أذربيجان بحكم أنها كانت حتى القرن التاسع عشر جزءا من إيران ، كذلك تتداخل تركيا بقوة التأثير الثقافى متمثلا فى أصول لغوية وحضارية .

ويتصور بعض العرب أنهم لا يستطيعون البقاء بعيدا ، ثم يخطر ببالهم أن مزيجا من المال لبناء مساجد ، مع عدد من الشيوخ للوعظ والإرشاد ـ كفيل بأن يعطيهم دورا . والحاصل أن المساجد تبنى والشيوخ يذهبون ـ لكن التأثير الأكبر يحدث حين يعتلى المنابر دعاة الأصولية الإسلامية ، ويحيط بالأعمدة أتباع الطرق الصوفية .

والمهم أن « هلال المتاعب » (كما أسماه « زبجنيو برجينسكى » ـ مستشار الأمن القومى فى رئاسة « جيمى كارتر ») يتسع ويكبر ، ويوشك أن يصبح قمرا كاملا لا تنعكس عليه شمس ، ولا يسطع منه ضوء لعاشق أو شاعر ـ وإنما ظلام كثيف ، ومطر له لون الدم !

□

وهكذا يمكن أن ينقسم عالم الفوضى القادم على المستقبل المرئى إلى عوالم متضاربة :

● دولة قائدة للنظام هى الولايات المتحدة ، وقد خلصت من تحد سابق لتواجه احتمال تحد لاحق ، لكنها لا تزال تمسك بالقوة العسكرية الغالبة وبموارد البترول العربى الأسطورية .

● قوى صاعدة إلى قرب القمة ، وهى تتحدى النظام بوسائل العصر الحديث ـ تكنولوجيا الانتاج بديلا عن سلاح الحرب حتى الآن ـ وقد ترث القمة وتقيم نظاما

جديدا ، أو قد تفرض على قيادة النظام الراهن نوعا من المشاركة الفعلية يختلف عن مجرد توزيع الأدوار بإرادة من أعلى ـ وهذه القوى هى : مجموعة المحيط الأطلنطى المحيطة بألمانيا ، ومجموعة المحيط الهادى المحيطة باليابان .

● دول يمكن أن تشارك مع النظام القديم أو مع النظام الجديد ، لان لديها الفرصة ، ولديها المرونة ، وهذه هى دول أوروبا : الشمال ، وبعض الشرق والجنوب .

● دول لا بد من إعطائها الفرصة حتى تقف لأنها مهمة أو مؤثرة ، ثم إن لديها الفرصة بمواردها البشرية أو الاقتصادية أو الاستراتيجية (إسرائيل ـ جنوب أفريقيا ـ وربما تركيا) .

● دول يصعب إهمالها لتضيع فى حالة الفوضى العارمة لأن لها أدوارا مازالت مرغوبة ، أو لأن ضياعها يمكن أن يؤدى إلى خلل فى الموازين ، هذا مع التسليم بأن مساعدتها بالكامل قد لا تكون مطلوبة ، أو قد تكون صعبة (اندونيسيا ـ مصر ـ الأردن ـ وباكستان مثلا) .

● دول يمكن تركها لظروفها تعوم أو تغرق .

● وأخيرا دول يمكن نسيانها بالكامل .

وهكذا سوف تبرز فى الفترة القادمة عدة أنواع من الدبلوماسيات :

ـ دبلوماسية القيادة والمشاركة
ـ دبلوماسية المساندة والمساعدة
ـ دبلوماسية التبرعات والهبات
ـ دبلوماسية الإحسان والصدقة
ـ دبلوماسية الإهمال والنسيان

□ □ □

أين الأمة العربية فى ذلك كله : موقعها ؟ حركتها ؟ دورها ؟ ومستقبلها ؟

إن عناصر الحقيقة فى وجود أمة عربية واحدة هى : موارد بشرية ـ وثروات طبيعية ـ وموقع جغرافى ـ وإطار قومى واحد يجمع ويربط .

وعندما افترقت عناصر الحقيقة لدى الأمة ، وتنازعت وتباعدت وتحاربت أيضا ـ فإن عوامل القوة تحولت إلى أسباب ضعف .

الموارد البشرية وحدها : عبء على أصحابها .
والثروات الطبيعية وحدها: مطمع لآخرين أقوى .
والموقع الجغرافى وحده: استباحة لراغبين فى السيطرة ولديهم وسائلها .
والفكرة القومية وحدها : عجز ، لأن أى فكرة مجردة فيلسوف تائه كالمجاذيب فى حين أنها مع بقية العوامل نبى مقاتل !

وهكذا أصيبت الأمة بحالة من العرى الكامل حولتها إلى أشلاء متناثرة : مدن وقبائل ـ حقول بترول وأطلال مدن ـ صحارى ووديان ـ أغنياء وفقراء ـ جيوش مسلحة وجماهير عزلاء ـ قصور وقبور ـ دول يسر ودول عسر ـ دول فائض مالى ودول فائض سكانى ـ إلى آخر ما تحفل به الكتابات المعاصرة من تعبيرات .

ولقد زاد على انقسام عناصر الحقيقة فى الأمة ـ شىء آخر هو ظاهرة تآكل هذه العناصر ، كل عنصر فى حد ذاته .

ومثلا ، فإن المدن العربية لم تعد كما كانت مصادر إشعاع ونور . فلقد زحفت جيوش الفقر إلى العواصم ، وحاولت دخولها باحثة عن أمل ، واستعصى عليها الدخول ، فعاشت من حول العواصم ، أحزمة من الحاجة والإحباط تحاصرها . ثم زاد ضغط الحاجة والإحباط ، فإذا الأمل ضائع بين مغامرات تتصور امكانية القفز على الواقع ، أو حنين يزين امكانية التراجع إلى الماضى .

ومن الغريب أن تنهمك المدن العربية ، كما هو حادث الآن فى مناقشة عقيمة بين العلمانيين الديمقراطيين ، وبين الدينيين الشرعيين . وهذه مناقشة تأخرت عن موعدها قرابة قرنين من الزمان . وقد كان محلها الملائم ـ ربما ـ فى أعقاب الحملة الفرنسية على مصر ، وفى عصر « محمد على » . أو وقت كان « رفاعة رافع الطهطاوى » يفتح نوافذ الفكر بعد قرون العفن والعتمة . أو عند مقدمات القرن العشرين حين كان « جمال الدين الأفغانى » والشيخ « محمد عبده » ، وكوكبة من أعلام الفكر العربى والإسلامى ـ يرون انهيار دولة الخلافة ويبحثون عن بديل تستطيع الأمة أن تطمئن إليه وتقيم مستقبلها فى أمانه .

لكن المستغرب أن تجىء هذه المناقشة مع مداخل القرن الواحد والعشرين ، ثم يتوهم طرفاها أنها حوار حان أوانه لاختيار مناهج المستقبل والمفاضلة بينها ، غائبا عن كليهما أن هناك وحدة كامنة وراء المصطلحات . فالديمقراطية والدين كلاهما عدل ومساواة بين الناس ، وسلام يحفظ تماسك المجتمعات على أساس متين ، وليس على وهم مما يصنعه الغنى والترف ، أو تصنعه السلطة والنفوذ .

وفى نفس الوقت ، فإن القبائل لم تعد مستودع العصبية (على حد تعبير « ابن خلدون ») .

وفى وقت من الاوقات ـ قريب ـ فإن القبائل العربية أعطت للإسلام بعضا من أهم الحركات التى تطلعت إلى تجديد روحه ، وجلاء حقيقته ، وأهمها الحركة الوهابية .

لكن مواطن العصبية أصابها الترف قبل أن تتحرك لتجديد العمران ، وهكذا فإن القبائل التى فاض عليها الذهب الأسود والأصفر تجد فيها من يتصورون علاقاتهم ببقية الأمة العربية على نحو قريب من علاقات هونج كونج بالصين ـ وهو وضع غير قابل للبقاء ، كما أثبتت تجربة هونج كونج والصين نفسها .

وكان شيوخ القبائل فى مرحلة من المراحل يدركون حقيقة أن هناك نوعا من العقد السياسى والاجتماعى يربط المشيخات بالمدن فى إطار الأمة الواحدة .

وكان الملك « عبد العزيز » مؤسس المملكة العربية السعودية يفهم أهمية هذا العقد .

وبشكل ما فإنه يمكن القول إن الجيل الحاكم الراهن من أمراء السعودية مازال لديه الكثير من الفهم لدواعى هذا العقد ومتطلباته (الملك « فهد » ـ الأمير « عبد الله » ـ الأمير « سلطان » ـ الأمير « سلمان » مثلا) .

وفى الكويت فقد كان جيل الرعيل الأول من أمثال الشيخ « عبد الله السالم الصباح » يفهم ويدرك . وحتى الثلاثى الذى يحكم الكويت الآن (الشيخ « جابر » ـ والشيخ « سعد » ـ والشيخ « صباح ») مازال يتذكر .

والحقيقة أن محنة الكويت ذاتها لا بد لها أن تقنع كثيرين فى هذا البلد أن ما حمى بلادهم فى واقع الأمر هو التركيبة الخاصة التى سمحت للكويت بأن تقوم بالدور الذى قامت به على رأس الخليج .

ذلك أن موجة التعاطف مع الكويت يوم ٢ أغسطس كانت ترجع بالدرجة الأولى الى انفتاح التجربة الكويتية وسماحتها ـ وكان هذا التعاطف هو المسئول أولا وأخيرا عن تهيئة رأى عام عربى ملائم ومواتٍ ـ وبغيره كان تحرير الكويت يصبح مهمة صعبة غير قابلة للتحقيق على الأرجح .

ومع ذلك ، فإن تركيبة وطبيعة الكويت يجرى الآن تغييرها لكى تنكمش إلى حجم إمارة بترولية عادية لا تستطيع أن تفرض نفسها كقضية حية على ضمير عربى عام ـ يراها شيئا مختلفا يستحق الحفاظ عليه والوقوف بجانبه .

والسبب أن هناك تغييرا يحدث فى أبنية القبائل .

فالجيل الذى فهم وأدرك يبتعد ويحل محله جيل آخر ، لم يعرف البعض فيه غير الثروة ، والقوة التى تصنعها الثروة ، ولم يعرف هذا البعض غير الصلة بالأجنبى ، والنفوذ المستمد من الصلة مع الأجنبى .

وإذن فلا المدن ـ هى المدن التى كانت .

ولا القبائل ـ هى القبائل التى كانت .

وهذا الوضع يكسر قواعد وعقودا تقليدية مهمة ، كما أنه يصوغ أنواعا مستجدة من العلاقات والتحالفات حرجة وخطرة .

والغريب أن المدن والقبائل كلتيهما وصلت إلى نوع من الاستسلام للظروف ، وإن وصل إليه كل طرف من باب مختلف :

□ المدن وصلت إلى الصلح مع إسرائيل ـ دون حل مقبول للصراع العربى الإسرائيلى ـ من باب الفقر ، آملة أن تجد فى المساعدات الاقتصادية الأمريكية حلا لمشاكل حياتها .

(اتفاقية كامب دافيد سنة ١٩٧٨)

□ والقبائل وصلت إلى ما هو أكثر من الصلح مع إسرائيل ـ من باب الغنى ، آملة أن تجد فى المساعدات العسكرية الأمريكية حلا لمشاكل أمنها !

(المؤتمر المتعدد الأطراف فى موسكو سنة ١٩٩٢)

وقد تم ذلك كله فى مناخ عربى عام ساده خلط شديد حول مفاهيم وقضايا أساسية وحيوية مثل : النظام العالمى الجديد والأمن القومى ، والديمقراطية السياسية ، والتنمية الاقتصادية ـ بل والإسلام نفسه .

وعاش العالم العربى ، ومازال يعيش هذا الخلط ، وتتباعد يوما بعد يوم مسافة الاختلاف بين ما تجرى به الألسنة ، وما تجرى عليه التصرفات ، وبين ما يفهمه ويمارسه العالم من مدلولات المعانى حين تتحول إلى سياسات ، وبين فهم العالم العربى لهذه المعانى وممارساته السياسية لمدلولاتها .

وفوق هذا تستمر إزاء العالم العربى خطوط سياسات ثابتة تستهدف عدة مطالب :

● حصره فى تناقضاته الداخلية ، بل والعمل على زيادة حدتها .

- استنزاف موارده ، طبيعية أو مالية أو إنسانية .
- عزله عن عصر التكنولوجيا ، وبالضرب المباشر إذا دعا الأمر .
- تعويق تنميته الحقيقية اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية .
- وأخيرا تذويب شخصيته وخصوصيته وتسييلها بحيث تصبح قابلة للتسرب إلى مجار غريبة تستوعبها ، وفى هذا كله تقوم إسرائيل بالدور الرئيسى مسنودة ومؤيدة بقوى هائلة تساعدها ، كما تساعدها أيضا حالة اختراق خارجى كامل للعالم العربى لم يسبق لها مثيل فى تاريخه كله .

□

إلى أين من هنا ؟

من سوء الحظ أن الصدمات التى توالت على العالم العربى بعثرت اهتمامه وفتتت تركيزه ، فأصبح فكره مستغرقا فى التفاصيل الجزئية والفرعية ، مشغولا بالكامل تقريبا عن تصور ، أو درس شئون مصيره ومستقبله بإحاطة وعمق .

وفيما عدا محاولات[1] تعد على أصابع يد واحدة ـ فإن الفكر العربى أهدر الجزء الأكبر من جهده فى قضايا ومشاكل وحكايات من الماضى تسهل فيها الحكمة بأثر رجعى ، ثم انصرف الجزء الأقل إلى بحث موضوعات انية ، تخدم سياسات الأطراف أكثر مما تخدم مستقبل الأمة . وربما كانت المساهمات « الفكرية » التى سالت حبرا على ورق عندما أنشىء « مجلس التعاون العربى » ، أو عندما وقعت « أزمة الخليج » ، أو فى الفترة ما بين « اجتماع مدريد ، واجتماع موسكو » ـ نماذج تستدعى إطالة النظر فى حالة العقل العربى !

على أن هموم الأمة مازالت تلح على كثيرين من مفكريها وتدفعهم إلى تصورات ، أو سيناريوهات بالتعبير الشائع ، تتراوح بين التشاؤم والتفاؤل .

وعلى سبيل المثال ، فإن التشاؤم يبلغ مداه لدى مفكر عربى مثل الدكتور « أنطوان زحلان »[2] ـ فهو يقول :

---

(١) قام بها مركز دراسات الوحدة العربية ، ومنتدى العالم الثالث بالاشتراك مع جامعة الأمم المتحدة .

(٢) كان أستاذا للطبيعة فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وشارك فى مشروعات عديدة لبحث المستقبل العربى بالتعاون مع الجامعة العربية ، ومع الأمم المتحدة .

« لا يستطيع أحد أن يطير إذا لم يكن فى استطاعته أن يمشى . والعالم العربى تخلف عن المشى مع العالم عندما عجز فى مجال التكنولوجيا ، وحين ترك أفضل عقوله تهاجر منه ـ عندنا نصف مليون عربى حاصلين على الدكتوراه أو الماجستير فى أهم التخصصات العلمية هاجروا إلى أمريكا وأوروبا ، وهم الآن هناك ـ أى نزيف فى العقول سمحنا به .

واستثمارات العرب فى الخارج حجمها الآن تريليون دولار ، وهذا هو الجزء الأهم من مدخرات العالم العربى القادرة على التنمية .

والآن يوجد عشرون مليون عربى يبحثون عن فرص عمل فى أوروبا وأمريكا ، وهؤلاء ليسوا الأساتذة والعلماء ، ولكن العمالة التى تبحث عن حياة لم تستطع أن تعثر عليها فى أوطانها الأصلية . والتقديرات تقول إنه بعد خمسين سنة يكون هناك مائتا مليون عربى يبحثون عن الحياة خارج أوطانهم .

ولقد فاتتنا الفرصة وتخلفنا . وعلى أى حال فإننا لسنا أول أمة ـ حضارة تراجعت وتخلفت ، ثم اختفت وبادت . »

هناك سيناريو ثان أقل تشاؤما وإن لم يكن أكثر سعادة ، والذى يطرحه هو الدكتور « ابراهيم أبو اللغد »(٣) ، ورأيه « أن الأمة العربية ليس أمامها سيناريو واحد ، وإنما أمامها اثنين :

□ أولهما السيناريو الإفريقى : وبمقتضاه فإن العالم العربى سوف يقتفى أثر أفريقيا إلى عوالم من الظلام والنسيان ، تشتعل فيها التناقضات الطائفية والعنصرية والقبلية ، وتصل بها إلى درجة الحروب الأهلية ، وربما إلى سقوط فكرة الأمة والدولة . ثم يحل الفقر إلى درجة المجاعة ، وبقية العالم لا تستطيع أن تفعل شيئا . فلا يستطيع العالم أن يهتم بطرف أكثر مما يهتم هذا الطرف بنفسه . والذى يهم العالم من أرض العرب هو بترولها ، فإذا أمكن عزله عن الكثافة السكانية العربية تحقق الهدف . ثم إن أمة عربية يتزايد سكانها بنسبة تتأرجح حول ٣ ٪ سنويا ، هى عبء لا يستطيع أحد أن ينهض به ، ومن الأفضل تركه لمقاديره .

---

(٣) أستاذ فى جامعة « جورجتاون » فى واشنطن . وهو مفكر ومؤلف شارك فى كثير من الأبحاث والمؤتمرات عن المستقبل العربى .

□ والسيناريو الثانى هو السيناريو اللاتينى : وبمقتضاه فإن العالم العربى سوف يقتفى أثر أمريكا اللاتينية وتنتهى مقاديره إلى جماعات مصالح Oligarchies مالية وعسكرية وبيروقراطية تحكم جموع الفقراء فيه بالقوة والقمع ، وتحصل لنفسها على أكبر نصيب من الثروة متحالفة ومحتمية بمصالح عالمية لها نصيب الأسد فى موارد الشرق الأوسط ، وهى تريد أن تطمئن إلى نوع من النظام المفروض فيه . »

وثالثا ـ فإن هناك سيناريو آخر أقرب إلى التفاؤل ، وداعيته هو الأمير « الحسن بن طلال »[٤] ولى عهد المملكة الأردنية الهاشمية ، وفى هذا السيناريو يعترض الأمير « الحسن » على ما يسميه « سياسات اليأس » التى تسيطر على الأمة العربية ، ويتصور نظاما عربيا يمزج بين إزالة التوتر فى العالم العربى سياسيا ، ثم تنمية مشتركة تتعاون فيها إمكانيات العرب المادية والبشرية طبقا لخطة تنمية إقليمية . ويكون من شأن هذه الخطة أن تساعد على تحقيق نوع من الرخاء تتأكد فيه حقوق الإنسان . وهكذا فإنه يرى بوجود خط متصل يبدأ من إزالة التوتر ، ويصل إلى كرامة البشر .

ثم يجىء على جانب التفاؤل أيضا سيناريو مختلف يتمثل فى الإقدام على خطوة واحدة[٥] يمكن أن تكون منها بداية حلم عربى يستوحى الحلم الأوروبى الموعود هذا العام ١٩٩٢ .

وهذه الخطوة مسعى إلى تنمية مشتركة للعالم العربى تقوم بتجميع موارد البترول ومعابره وممراته تحت إدارة هيئة عربية عليا مشتركة تتكامل بها حقول البترول وأنابيبه ، وطرقه البحرية وأولها قناة السويس .

ويمكن وفق ترتيبات يتفق عليها أن يكون نصف دخل كل مورد من هذه الموارد أو المعابر ـ مخصصا لوطنه الأصلى ، ثم يكون النصف الثانى لتنمية مشتركة تأخذ فى حسابها أن المستقبل واحد مهما حدث ومهما كان .

---

(٤) يرأس الأمير « الحسن » مؤسسة « المنتدى » وهى مؤسسة للدراسات مقرها عمان ، والأمير « الحسن » يشارك عمليا فى أبحاثها وندواتها ، ويقوم بصفته بتوجيه نشاطها ، ويديرها الآن الأستاذ « السيد يسين » وكان مديرا لمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام .

(٥) طرحتْ فكرة هذا السيناريو فى مقال نشرته لى جريدة « التيمس » البريطانية فى سبتمبر ١٩٩٠ ، ويظهر أنه كان وقتها ـ وإلى الآن ـ إسرافا فى التفاؤل لا يسمح به واقع الحال !

وليس ضروريا أن يبدأ السعى إلى الحلم بقفزة واحدة تشمل الكل ، وإنما يستطيع الحلم أن يضبط خطاه وفق تصورات تناسب أصحابه وتطمينات تشجع حركتهم .

ولقد بدأ الحلم الأوروبى بتوحيد موارد الفحم والحديد بين فرنسا وألمانيا ، ثم اتسع نطاق المصالح المشتركة ، وعلا بناؤها بين أعداء الأمس ليصبحوا شركاء اليوم - رغم أنهار من الدم سالت فى حروبهم التى اندلعت وتجددت عبر حقب من الزمان طويلة .

....

....

يتبقى أن هناك سيناريو مختلفاً بالكامل ، واحتمالاته تحوم على الآفاق ، وشكله العام حتى هذه اللحظة ظلال لا تتضح منها قسمات محددة تنبىء وتدل - وهو السيناريو الإسلامى .

إن الأمة الشاعرة بوطأة الأزمات تطبق عليها من كل ناحية ، تبحث بالدرجة الأولى عن يقين .

والأزمات ضاغطة من كل نوع على جسد الأمة وروحها . على عقلها وقلبها ، على معدتها وأعصابها ، على رؤيتها وهويتها . وأول ما تحتاجه أمة فى مثل هذه الحالة أرضية تقف عليها ، وتتحصن فيها وتحتمى بها من عاصفات الريح وداهمات الشر .

والدين هو وحده هذه الأرضية التى تمنح أصحابها ذلك اليقين النهائى الضرورى حتى لمجرد البقاء .

والإسلام ليس غريبا عن السلطة ، فمعظم التاريخ العربى جرى تحت ظله أو تحت اسمه .

وفى العصر الحديث - ورغم أفكار وتطورات وتجارب - فإن الإسلام أثبت حيويته وقدرته على التوجيه والتعبئة .

وقد شهد الإسلام أخيرا ثلاث تجارب سياسية قدمت نفسها ببطاقة إسلامية :

١ - تجربة باكستان ، حيث تقدم الإسلام إلى الساحة السياسية وراء القوات المسلحة ، كما حدث فى محاولات متكررة آخرها محاولة الجنرال « ضياء الحق » ما بين سنة ١٩٧٨ وسنة ١٩٨٨ .

٢ ـ تجربة ايران ، حيث اقتحم الإسلام طريقه بالثورة إلى السلطة فى طهران ، وأقام هناك دولة أحدث قيامها نوعا من هزات الزلزال مازالت تحدث تأثيراتها حتى هذه اللحظة .

٣ ـ تجربة الجزائر ، حيث وصل الإسلام عن طريق صناديق الاقتراع ، وطبقا للقواعد الديمقراطية إلى قرب مفاتيح الحكم ، مما دفع قوى أخرى خافت وترددت ، ثم انقضت على التجربة بنوع من الانقلاب البارد ـ وهى تجربة مازالت معلقة .

وخلال هذه التجارب كانت الصيحة مسموعة أو مكتوبة أن « الإسلام هو الحل » .

أى أنه السيناريو الممكن الوحيد لأزمة الأمة ، ولإعطائها مستقبلا ترضاه .

وعلى أى حال ، فإن هذا السيناريو الدينى مازال ظلا هائما حول الآفاق ، ومن الصعب على أحد أن يصنفه باعتباره داعيا إلى التفاؤل أو داعيا إلى التشاؤم .

والملاحظ أن مواقف الآخرين تجاه هذا السيناريو الدينى موزعة بشكل واسع وإلى حد يثير الاهتمام :

● فالولايات المتحدة لا تعترض عليه كمبدأ ، وتتصور ـ على نحو أو آخر ـ أنها تستطيع التعامل معه .

● لكن أوروبا الغربية تشعر بالتطير إزاءه ، ولم تكن فرنسا مثلا بعيدة عن الانقلاب البارد الذى تم فى الجزائر ، وإن ادعت العكس . وربما شجعها على الادعاء أنها اختلفت مع أصحاب الانقلاب البارد فى بعض تفاصيل التنفيذ ، وليس فى المبدأ من أساسه .

● وفى نفس اللحظة ، فإن إسرائيل تنظر إلى احتمالات السيناريو الدينى بقلق لا تخفيه . وقد عبر عنه رئيس الدولة « حاييم هيرتزوج » فى خطابه الأخير ـ فبراير ١٩٩٢ ـ أمام البرلمان الأوروبى فى ستراسبورج .

وتعتقد إسرائيل أن دخول الاسلام ـ بعد تراجع القومية ـ إلى ساحة المقاومة ضدها معناه أن معركتها فى العالم العربى تبدأ من جديد ، وأنها ستكون معركة شرسة لأن المطلق الدينى الذى تستند إليه دعاواها سوف يصطدم بمطلق إسلامى فى مواجهته ، وهو رد من نفس نوع التحدى ـ وقد تكون المعركة معه أكثر عنفا وأطول وأعقد .

● والدول العربية المعتدلة ـ كما يسمونها ـ سواء كانت دول كثافة سكانية

أو دول كثافة بترولية ـ تخشى من السيناريو الدينى ، وتقاومه عمليا رغم كل ما تبديه فى الظاهر من علامات الحياد .

● والمدهش أن تيارا متنامى النفوذ بين المثقفين العرب ـ وبالأخص الديمقراطيين منهم والتقدميين ـ أصبحوا على قناعة بأن السيناريو الدينى حتمية مرحلة يصعب تجنبها لسببين أساسيين :

ـ السبب الأول أن النظم الحاكمة تقوم بلعبة مزدوجة ، فهىَ تخيف دعاة الإصلاح بمخاطر التطرف ، وبالتالى تقوم بتلجيم حركة التطور الطبيعى .

ـ والسبب الثانى أن مطرقة الدين هى وحدها القادرة على كسر معاقل الفساد والانحراف ، وذلك ما حدث فى إيران . وفى ظن هذا التيار المتنامى أن تجاوزات الثورة الإيرانية غير واردة فى احتمالات السيناريو الدينى فى إطار عربى ، وذلك بسبب الاختلاف بين مؤسسات ومرجعيات السنّة والشيعة .

على أن ذلك لا ينفى وجود مخاوف لدى هذا التيار بين المثقفين من أن السيناريو الإسلامى قد يرد على باله أنه نهاية التاريخ ، لأنه يرى فرصته انتصارا نهائيا وأبديا للحق لا يجوز بعده تداول السلطة .

□

وربما أن هذه السيناريوهات المختلفة والمتفاوتة بين التشاؤم والتفاؤل ـ لا تمثل المحتمل والممكن فى العالم العربى ، ذلك أن بعضها ينسى حقائق الجغرافيا والتاريخ ـ وبعضها ينسى حقائق السياسة العربية الراهنة .

إن سيناريوهات التشاؤم تنسى :

١ ـ أن عزل الموارد العربية عن الكثافة البشرية العربية صعب بسبب حجم وعمق الصلات بين العرب ، وحتى إذا بدا أن الانفصال اليوم حالة قائمة ، فمن الصعب اعتبارها حالة دائمة ، فهى تأثيرات ظرف تنمحى آثاره بالزمن وبضرورات المستقبل .

٢ ـ أن العالم العربى قريب من أوروبا ـ وبالتالى الغرب ـ إلى درجة تجعل تركه للنسيان مستحيلا ، ولعل أول المخاطر المباشرة التى يمكن أن تنشأ عن النسيان هو أن أوروبا سوف تجد نفسها معرضة لهجرات عربية إليها . وإذا كان التقدير أن مائتى مليون عربى سوف يضطرون إلى البحث عن فرصة فى الغرب خلال خمسين سنة ، فمن المنطقى أن تحاول أوروبا أن تساعد العرب على تنمية أنفسهم فى

أوطانهم دون أن تتركهم لقلاقل بجوارها ولهجرات تدفعهم على شواطئها وتدق أبوابها . وقد يؤدى الأمر إلى استعمال العنف مرة أخرى بين شمال البحر الأبيض وجنوبه .

٣ ـ أن الأرض العربية متصلة حضاريا بالغرب ، وهى ليست بعيدة عنه مثل أفريقيا ـ وأبسط ما يمكن أن يقال إن هذه الأرض هى مهبط الرسالات الدينية الثلاث التى تأسست عليها مجتمعات الدنيا المتحضرة ، وبالتالى فإن ما يدور عليها مؤثر بالتأكيد ، ومحتك بالغرب مهما كانت محاولات الفصل والبعد .

٤ ـ ثم إن العرب أصحاب إسهام مباشر فى الحضارة العالمية كما هى الآن ، وتصور اعتزالهم لدورهم أو انسحاب تأثيرهم من هذه الحضارة العالمية يكاد يكون ضربا من المستحيلات .

٥ ـ ثم إن الموقع الجغرافى العربى مازال فى وسط العالم ، وهو متأثر بما يجرى فيه ، مشدودا إلى المشاركة فيما يجرى على اتساعه ولو بمجرد النظر والتأمل ـ وهذا يحدث تأثيرات قد لا تكون متوافرة فى بعض أقاليم أفريقيا .

٦ ـ وأخيرا فإن الأمة العربية قطعت شوطا لا بأس به من النمو ، وتوقف النمو وارد ، ولكن التراجع الكامل عنه إلى الظلمات ـ خصوصا بالقرب الجغرافى والتاريخى ـ صعب تصوره .

٧ ـ أن هناك تغييرات حتمية تقع فعلا فى العالم العربى ـ رغم كل ما قيل ويقال ـ وأظهر التغييرات أن بلدا مثل المملكة العربية السعودية يتحول بضغوط الثروة ، وبضغوط زيادة الكثافة السكانية ، وبضغوط قوى اجتماعية متحركة ـ من أسرة إلى دولة . وبالطبع فإن هذا التحول لن يكون سهلا ، لكن تأثيره سوف يكون واسعا لأن السعودية هى الباب الطبيعى لشبه الجزيرة العربية ، وهى موطن الثروة العربية فى الظرف التاريخى الراهن .

٨ ـ أن محركات التطور تواصل دورانها ، وبالتالى فإن ما يمكن أن يطلق عليه وصف «القبائل» من باب الإشارة والإجمال ، لا ينبغى النظر إليه طبقا للصور التقليدية القديمة .

ففى كثير من بلدان الخليج التى يمكن أن يشير إليها الوصف العام لتعبير «القبائل» ، توجد الآن جماعات من صفوة المثقفين والمفكرين فى العالم العربى ، وبعضهم يقوم بأدوار بارزة فى الحياة السياسية والثقافية والجامعية والإعلامية فى بلادهم وخارج بلادهم . والحاصل فعلا أن كثيرين بينهم محاورون رئيسيون فى عملية البحث الواسع والعميق حول مستقبل الأمة ، وخياراتها المتاحة لإعادة تشكيله

وصياغته . بل إن جماعات منهم تخوض بالفعل معارك شجاعة من أجل هذا المستقبل فى ظروف تتعاظم فيها محاولات الارتداد إلى الوراء ، أو حتى الردة كما يسميها بعض من أبرز مثقفى الخليج .

□

يبقى أن سيناريوهات التفاؤل التى تبدأ بإزالة التوتر الإقليمى فى المنطقة ، وتنتهى بامكانية التنمية الإقليمية لها ، أو تبدأ بتوحيد موارد البترول ومعابره ـ تنسى الحقائق السياسية الراهنة :

١ ـ طبيعة التحدى الإسرائيلى الذى يواجهه العرب ، وهو تحد لا يستطيع ببنيانه الداخلى ، فكرا أو عملا ، أن يقبل منطق التسوية ، فهو بالدرجة الأولى عقيدة دينية ، والعقيدة لا تستطيع أن تقبل حلا وسطا ، لأن العقيدة تقوم على الإيمان ، وليس هناك نصف إيمان . ثم إنه فى جوهره مشروع استيطانى ، وأى مشروع استيطانى لا يملك إلا إنكار الآخر ، وإلا فإنه ينكر نفسه !

هذا مع العلم بأن إسرائيل ـ عقيدة ومشروعا ـ ليست فى حد ذاتها معجزة ذات خطر .

فاقتصادها ليس أفضل حالا بكثير من اقتصاديات العرب . ومثلا فإن صادراتها لا تزيد على ٨ بلايين دولار سنويا (مقارنة بـ ٣١ بليون دولار لسنغافورة ، وهى نصف تعداد إسرائيل) ـ كما أن ٣٠ ٪ من هذه الصادرات ماس مستورد من جنوب أفريقيا مصقول فى إسرائيل ، ومنها يعاد تصديره .[٦]

وهى غير قادرة على الحياة بالمستوى التى هى عليه إلا بكم من المساعدات يصل سنويا إلى قرابة ٩ بلايين دولار ، أى بمعدل أكثر من ألفى دولار لكل فرد فى إسرائيل .

وأما القوة العسكرية ـ العقيدة والمشروع ـ فهى قوة مستعارة مستمدة من ارتباطات خارجية واسعة ومتشعبة .

ومع ذلك ، فإن إسرائيل قادرة على أداء دورها لأنها الحارس المأمون ، والمضمون ، والقادر ، والقريب من الكنز العربى .

٢ ـ أن الأمة العربية لم تصل بعد إلى صيغة للتعايش مع جوارها ، وبالذات إيران وتركيا وباكستان . وقد تفجرت التناقضات مع إيران لكى تصل إلى الحرب المسلحة .

---

(٦) دراسة للدكتور ، عبد المنعم سعيد ، نائب مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى الأهرام .

كما أن العلاقات مع تركيا مثقلة بتعقيدات كامنة وظاهرة . ثم إن باكستان علامة استفهام لا تزال معلقة ، وهى قريبة إلى درجة كبيرة من موارد الثروة العربية .

٣ ـ أن هناك احتمالات نزاع جديد فى المنطقة على موارد المياه ، فموارد المنطقة شحيحة ، والطلب عليها متزايد للزراعة والصناعة وحياة الناس بما فيها الشرب ، والصراع عليها فى العقود القادمة قد يكون ضاريا ، وقد يصل إلى درجة الحرب .

٤ ـ أن حرب الخليج تركت مخاوف سوداء وبقعا دامية على الواقع العربى ، وعلى الأيدى العربية ، وعلى الضمير العربى . ويضاعف من أثر ذلك أن القبائل العربية لا تزال تعتمد منطق الثأر إلى درجة أن اجتماعا أخيرًا لمجلس الجامعة العربية شهد إصرارا غير مستعد للمناقشة ـ مجرد المناقشة ـ فى مسألة الحصار المفروض على العراق ، وعندما حاول البعض أن يطالب بالمراجعة لأن أطفالا صغارا يموتون من نقص الغذاء والدواء ، كان رد وزير عربى من وزراء البترول هو قوله : « فليموتوا ، وليمت كل الناس فى العراق ما داموا يقبلون بصدام حسين رئيسا لهم » .

٥ ـ أن حجم النفوذ الاجنبى والاختراق الأجنبى لحياة الأمة زاد بدلا من أن يقل ، وأكثر من ذلك فإن الاعتماد على الأجنبى لم يعد يدارى نفسه ، كما كان يحدث فى مراحل سابقة ، وإنما هو الآن ظاهر يعلن عن نفسه مختالا وفخورا إلى درجة أن صور الرئيس « جورج بوش » تشاهد الآن فى المنطقة وتحتها الآية التى تقول : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » .

ولقد أدى ذلك ـ ضمن ما أدى ـ إلى نوع من ضياع الهوية ، بل والهجرة منها ، وكأنما هوية أى فرد أو شعب أو أمة ، أرضا واسعة للسياحة فيها طبق ما تريده الأهواء والأجواء ، وكأن الجذور الإنسانية والحضارية والثقافية للمجتمعات حزمة نباتات زينة يعاد وضعها وترتيبها فى أى مكان يناسبها حجما وموقعا ولونا !

والأسوأ أن بعض العرب لا ينزعون الهوية العربية عن حاضرهم ومستقبلهم فحسب ، وإنما يعودون بأثر رجعى إلى خلع هويتهم عن ماضيهم ، وكأنما التاريخ رحلات صيف على رمال شواطىء ، أو شتاء فوق ثلوج جبال !

٦ ـ أن العالم العربى يعيش حالة استباحة كاملة لمصائره . فبعد فترة من الكبرياء لحقت بإتمام مرحلة الاستقلال الوطنى ـ تغيرت الأحوال وأصبحت الأمة ـ شعوبا وأفرادا ، وحتى قيادات ـ فريسة مكشوفة للإهانة والعدوان . والأمثلة كثيرة ، وإن كان عدها مؤلما . والمهم أن هذه الاستباحة تجهض أى حمل قبل أوان ولادته .

ولقد أدى ذلك إلى نوع من التشرذم مبالغ فى غرابته .

فلقد كان يمكن توصيف حالة تشرذم فى مجتمع ، فى بلد ، فى مدينة ، فى قرية ، أو فى أسرة ، ولكن الحاصل فى العالم العربى الآن أن التشرذم حل فى نفس الكيان الإنسانى الفرد حتى أصبح كل رجل ، وكل امرأة ممزقا فى داخله ، موزعا فى مشاعره ، منقسما على ذاته .

٧ - أن العالم العربى فراغ من المؤسسات ، أى نوع من المؤسسات تقوم بدور الحافظ والموجه والمحرك للوعى العام والمسئولية العامة - وبالتالى فإن الإرادة الجماعية لشعوب الأمة لا تجد ما يستوعب تدفقها ، وتروح تياراتها الجارية إلى مستنقعات راكدة ، ويتسرب كثير من طاقتها بالبخر أو بالتسرب .

٨ - أن التوجهات العربية تواجه حالة استلاب كامل من وسائل الإعلام فى الغرب ، فهذه الوسائل تحتكر قدر المعرفة المتاح فى العالم العربى ، وتحصره أو على الأقل توجهه . ومن المفارقات أن العرب من القمة إلى القاعدة كانوا يتابعون وقائع أزمة الخليج عن طريق محطة .C. N. N .

٩ - أن المصالح المباشرة فى الثروة والسلطة تقع تحت عناصر حاكمة ذات خصائص تنفرد بها .

ففيها بقايا أحلام تكسرت أجنحتها وحطت على الأرض ، فلا هى تقوم ولا هى تنام . وفيها مشروعات تحولت إلى نظم ، وضاعت المشروعات وبقيت النظم بلا شرعية تعطيها معنى أو قيمة . وفيها قبائل تتحول إلى جيوش فى نفس الوقت الذى تتحول فيه جيوش إلى قبائل .

١٠ - أن طبيعة السلطة فى العالم العربى لم تعد فقط طبيعة فردية ، وإنما أصبحت شخصية كذلك .

بل إن بقية قيادات الدولة تحت مستوى الرؤساء - والعهدة على الإعلام العربى - لم تعد لها وظيفة غير أنها حملة رسائل من رؤسائها إلى نظرائهم فى العالم القريب والبعيد ، وكأن رؤساء الوزارات والوزراء لم يبق لهم اختصاص إلا نقل الرسائل وتوصيلها - وهى مهام يمكن أن تقوم بها مؤسسات ، وشركات نقل البريد !

والشاهد أن العنصر الشخصى فى صنع القرار قادر على ترك آثاره بأبعد من عمر أى فرد . وعلى سبيل المثال ، فإن علاقة الرئيس « أنور السادات » بشاه إيران - « محمد رضا بهلوى » - تركت ، حتى بعد اختفاء الاثنين من الساحة ، آثارا على

العلاقات بين مصر وإيران مازالت مضاعفاتها قادرة على استمرار القطيعة بين بلدين من أكبر البلاد الحقيقية فى المنطقة وأقدمها وأعرقها .

وهكـــذا ... وهكـــذا ...

عالم عربى تحكمه ثلاث قطرات : قطرة بترول . وقطرة دم . وقطرة ماء . والقطرات الثلاث لا تمتزج !

وعالم عربى تحكمه مجموعة من العقد ، وهذه العقد لا تحل ولا تنفرج !

وعالم عربى تحكمه مؤثرات تهب عليه من خارجه ، وتدفع أشرعته إلى أى اتجاه تريد !

□ □ □

ثـــم مـــــاذا ؟

تظل هناك احتمالات كبرى معلقة بالمستقبل ، كما أن المستقبل بدوره معلق بها :

● ما هى التأثيرات المحتملة لحركة التعليم التى شهدها العالم العربى فى العقود الأربعة الأخيرة ؟

● ما هى التأثيرات المحتملة لحركة التنمية التى شهدها العالم العربى خصوصا فى مجالات التصنيع ؟

● ما هى التأثيرات المحتملة لحركة النمو الطبقى والاجتماعى ، والتى تبدت معها امكانية ظهور طبقة متوسطة عربية يتسع نطاقها رغم الضغوط الشديدة الواقعة عليها ؟

● ما هى التأثيرات المحتملة لحركة كتل الشباب فى الأمة العربية ، وهى أمة أكثر من نصف أبنائها شباب أقل من الثلاثين ؟

● ما هى التأثيرات المحتملة لحركة مشاركة المرأة التى كانت محجوبة عن فرص التعليم والعمل ، ثم دخلت كى تشارك ؟

● ما هى التأثيرات المحتملة لحركة الثروة العربية ، وغير العربية التى تجرى فى المنطقة ، هذا مع العلم بأن مصر وحدها جرت فيها تدفقات مالية خلال العشرين سنة الأخيرة ، بلغ حجمها ١٤٠ بليون دولار ؟

● ما هى التأثيرات المحتملة لحركة الأفكار والتجارب التى نثرت بذورها فى أرجاء المنطقة خلال العقود القريبة الأخيرة ؟ وإذا كانت القوى التى نثرت هذه الأفكار قد شاخت بالزمن ، فإن الأفكار لها القدرة على إعادة بعث نفسها من جديد مرة أخرى .

● ما هى التأثيرات المحتملة لحركة تفاعل الأزمات التى تزاحمت وتصادمت فى المنطقة خلال السنوات الأخيرة ، وهى أزمات تمس الحياة والقيم وحتى الكبرياء القومى ؟

● ما هى التأثيرات المحتملة لحركة الصراعات الدولية ، سياسية أو اقتصادية ، خصوصا وأن بعضها ممن يقبل بسهولة ـ على المدى المتوسط والبعيد ـ أن يترك للولايات المتحدة أمور بترول الشرق الأوسط دون مراجعة ودون جهد مستقل ، تترتب عليه سياسات تستطيع أن تجىء إلى المنطقة بتوازنات مختلفة ؟

● وأخيرا ما هى التأثيرات المحتملة لحركة العالم كله ـ شرقه وغربه ـ أمامنا وحولنا ـ على الأقل فى الشمال ـ وكله واصل إلى العالم العربى ، فاعل فيه أراد أو لم يرد ـ ذلك أن التأثيرات الواصلة إلينا بالعلوم والتكنولوجيا ، بالأفكار والنماذج ، بالثقافة والإعلام ـ تحدث كثيرا لا يمكن من الظاهر رؤيته أو رصده ؟

إن هذه الاحتمالات كلها تبدو وكأنها رهان على « مجهول » . وإلى حد ما فإن ذلك صحيح !

ومع ذلك فإن الرهان على « المجهول » ليس رهانا على « المعجزة » . ذلك أن « المجهول » موجود حقيقى ، وإن تعذر تحويل وجوده إلى أرقام وحقائق ـ أو إلى قوانين يمكن أن يستوعبها برنامج حاسب الكترونى يجرى عملياته ويطبعها فى لمعة برق .

إن ما هو عملى قابل بسهولة للحساب .

وأما ما هو إنسانى وتاريخى وحضارى ، فإن تقديره صعب بقواعد الحساب لأن مجاله هو عالم التفاعلات والتداعيات ، إلى آخره .

والعالم العربى وسط حالة من هذا النوع .

إن حالة من هذه الحالات استطاعت أن تخترق الأستار الحديدية فى شرق أوروبا . وليس حول العالم العربى ستار من حديد أو حرير ، فهو فى وسط العالم مفتوح على الآخر ومكشوف .

ولعله فى حاجة إلى فترة يمتص فيها ويهضم واقعه وتجاربه ، ويشحن طاقاته .

ولعله فى حاجة إلى صيحة تنبيه أو إلهام ، توقظ أو تقود بطريقة تختلف عما شهدته الدنيا جاريا وراء الستار الحديدى .

فلا يحتاج العالم العربى إلى رجل مثل « بريجنيف » يحفظه بالتحنيط ، ولا إلى رجل مثل « جورباتشوف » يضيعه بالتفريط ، ولا إلى رجل مثل « يلتسين » يشده إلى المغامرة مع المجهول دون تخطيط .

على أن هناك حقيقة أخيرة لا مفر من مواجهتها ، وتلك هى أن أزمة وحرب الخليج لم تكن حتمية أو ضرورية ، ولم تكن مفيدة لا فى بداياتها ، ولا فى نهاياتها .

ولقد كان استعمال القوة فى احتلال الكويت ، وهما قام على إنكار الواقع وضروراته .

كما أن الأيام قد تثبت أن النصر فى الحرب ضد العراق كان هو الآخر وهما اعتمد على الاستهانة بالمستقبل واحتمالاته .

ذلك أنه إذا سقطت المنطقة فى الفوضى - طبقا لسيناريوهات التشاؤم - فإن طوفانها سوف يغرق الجميع فى مستنقعاته وأوحاله .

وإذا استطاعت المنطقة أن تجتاز جسور الأمان - طبقا لسيناريوهات التفاؤل - فإن المنطقة قد تستعيد إرادتها ، وتفكر فى تشكيل مستقبلها بإرادتها ، وليس بالرعب من لقاء بالخطأ مع مارد جن انطلق من قمقمه وكان ضائعا سر طلسمه !